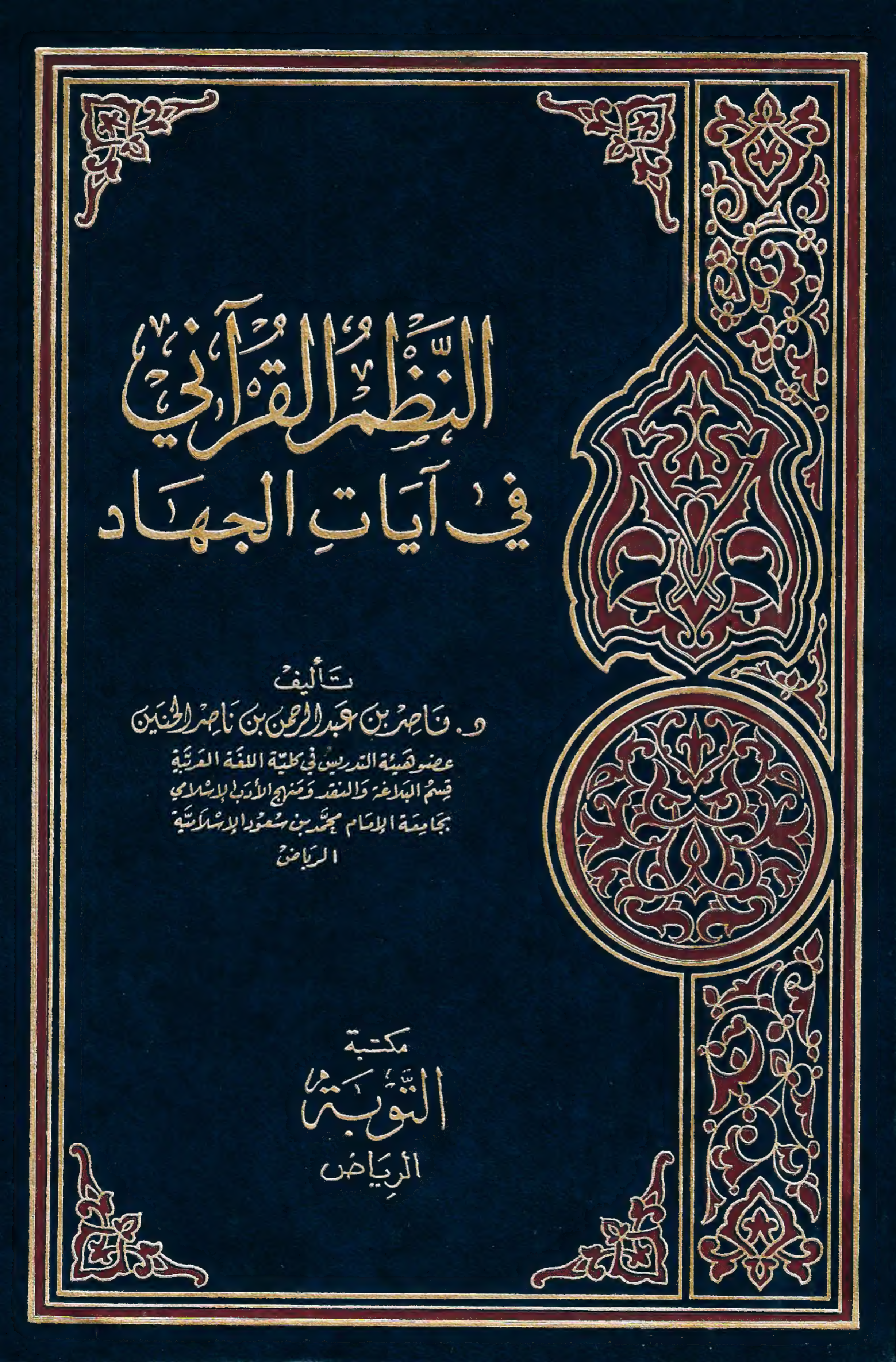

النظم القرآني
في آيات الجهاد
تأليف
د. ناصر بن عبد الرحمن بن ناصر الخنين
عضو هيئة التدريس في كلية اللغة العربية
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي
بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
الرياض
مكتبة
التوبة
الرياض

النظم القرآني
في آياتِ الجهاد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

النظم القرآني في آيات الجهاد

تأليف
د. ناصر بن عبد الرحمن بن ناصر الخنين
عضو هيئة التدريس في كلية اللغة العربية
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي
بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
الرياض

مكتبة
التوبة

الناشر : مكتبة التوبة

الطبعة الأولى

١٤١٦هـ / ١٩٩٦م ٠

مكتبة التوبة

الرياض ـ المملكة العربية السعودية ـ شارع جرير

هاتف ٤٧٦٣٤٢١ ص. ب ١٨٢٩٠ الرمز ١١٤١٥

فاكس: ٤٧٩٠٤٤٣

« هـذا الكتاب كان - في الأصل - رسالة علمية ؛ نال بها المؤلّف درجة « الدكتوراه » مع مرتبة الشرف الأولى في تخصّص : البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي ؛ وذلك في كلية اللغة العربية بالرياض بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .وقد ناقشتها لجنة مكوّنة من : الأستاذ الدكتور فريد بن محمد بدوي النكلاوي رئيساً ، وعضوية كل من: الأستاذ الدكتور حمزة الدمرداش زغلول، والأستاذ الدكتور فوزي السّيد عبدربّه عيد .وذلك في يوم الأربعاء المؤرّخ بـ ٢٦/١٢/١٤١٣هـ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلق الله نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تمسك بهديه إلى يوم الدين ٠٠ وبعد :

فإن العمل المقدم يتصل بكتاب الله عز وجل كما يتصل بأسمى الغايات وهو الجهاد في سبيل الله سبحانه وتعالى ٠

وقد وُفق صاحب هذا العمل في اختيار موضوعه بفضل من الله عز وجل وهو « **النظم القرآني في آيات الجهاد** » ٠

وقد تمكن الدكتور ناصر بن عبدالرحمن الخنين من الغوص على لآلئ تلك الآيات واستخراج دُرَرها ؛ حيث كان موفقا في دراسة تلك الآيات واستنباط ماتهدف إليه من أغراض بلاغية ومقاصد شرعية وغيرها ٠

وكان له وقفات مع المفسرين ومناقشات جيدة وبخاصة مع أصحاب الآراء المنحرفة عن جادة الحق وأبطل آراءهم وأثبت رأي أهل السنة والجماعة ، كما كان لدقة فهمه للآيات الأثر الواضح في استنباط أغراض كثيرة غير ماذكره المفسرون فيها وكانت له موازنات جيدة بين الآراء واختيار المناسب منها ، كما تمكن الدكتور ناصر بفضل الله من ربط ماتهدف إليه الآيات وقت نزولها بكثير من القضايا المعاصرة التي تتعلق بأحوال المسلمين في عصرنا الحاضر ٠ ولو حاولت ذكر محاسن هذا العمل لما استطعت وأترك للقارئ الكريم الفرصة ليتعرف بنفسه على حسنات هذا العمل ٠

فجزى الله مقدم هذا العمل خير الجزاء ونفع به وبعلمه آمين ٠

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ٠

المشرف على الرسالة

الأستاذ الدكتور : فريد محمد بدوي النكلاوي

أستاذ البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية

بجامعة الأزهر الشريف

٢٩ محرم سنة ١٤١٤هـ ٠

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونستغفره ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَتَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ ﴾(1) . ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾(2) . ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾(3) .

أما بعد : -

فإنه مما لايخفى على مسلم أن الجهاد في سبيل الله تعالى من فرائض الدين ؛ يقع منه في ذِرْوة السّنام ، وبه كان للإسلام عزّة ومهابة ؛ صانت شرعته ، وذبّت عن بيضته ، ورسَّخت قواعده ، وحرست ثغوره ؛ فتمكّنت أحكامه ، وسادت تعاليمه وآدابه ، وظهر عزّه وسلطانه على سائر الأديان .

وظل عزّ الأمّة المسلمة مرتبطاً بالجهاد ؛ فكلّما عملوا به ، وعاملوا من حولهم من الكفار بأدواته - عَزُّوا في أنفسهم ، وفي أعين من حولهم ، وهابهم القاصي قبل الداني. وفي المقابل ؛ إذا تركوه وأعرضوا عنه سلّط الله عليهم ذلاً لايرتفع عنهم حتى يعودوا إليه ، ويقابلوا أعداء هم من خلاله .

---

(1) آل عمران : ١٠٢ .
(2) النساء : ١ .
(3) الأحزاب : ٧٠ ، ٧١ .

ومن هنا تكمن أهمّية الجهاد العظمى في حياة المسلمين ، ولاسيما في زمننا المعاصر ؛ الذي تداعت علينا فيه الأمم الكافرة كما تتداعى الأكلة على قصعتها ؛ فأصبحت أوصال هذه الأمة ممزّقة في شرقها وغربها ، وصار الدين رسوماً في شمالها وجنوبها ، وغدا صوت المسلمين خافتاً في المحافل الدولية ، وأضحى الأمر يُقضى دونهم ، ولايُسْتَأْمرون وهم شهود .

وبذلك يتبيّن أنه لامنقذ للأمة المسلمة من كَبْوتها إلاّ الرجوع إلى الله والعمل بالجهاد ؛ الذي هو سنّة الله تعالى الماضية في المؤمنين مع الكافرين ، فبه يُدفع الكفر بالحق ، والضلال بالهدى ، والفساد بالصلاح ، ولولا ذلك لهدّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا .

ولما كان الجهاد موضوعَ السّاعة ، وأعظمَ ماتفتقر إليه أمّة الإسلام في هذا الزمان ، وعلى مدى الأزمان إلى قيام السّاعة - توجّه عزمي إلى كتاب الله عز وجل ؛ للوقوف على آيات الجهاد فيه ؛ وِقْفة مُتَدَبّر لها ، متأمّل في دقائق نظمها ؛ لتسجيل بعض أسرار بلاغتها ، ونكات التعبير فيها ؛ لعلّ الله عز وجل أن يجعل عملي هذا سبباً من الأسباب المنبّهة إلى عظم أهميّة الجهاد ، وسموّ مكانته ، وجلال قدر المجاهدين عند الله عز وجل ؛ فتستيقظ الأمة من رقدتها لتستعيد عافيتها ، وتعيد عزّها وسؤددها، وماذلك على الله بعزيز .

ولقد شغلت آيات الجهاد حيّزاً كبيراً من القرآن الكريم ، وصل زهاء نصف القرآن المدني ، ونُزّلت سور كاملة في شأنه ؛ كسورة « الأنفال » في غزوة بدر الكبرى، و« التوبة » التي فضحت معظم آياتها سيرة المنافقين ، الذين تخلّفوا عن رسول الله ﷺ ساعة العسرة ، في غزوة تبوك ، وسورة « الفتح » التي بيّن الله فيها جليل نعمته على عباده بذلك الفتح المبين . إضافة إلى آيات الجهاد الأخرى التي شغلت شطراً من سور : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والحج ، والأحزاب ، ومحمد ، والحشر ، والممتحنة ، والصف ، وغيرها من السّور .

ولايخفى مافي البحث العلمي في حقل الدراسات القرآنية من دقّة وحذر وعناء ؛ وذلك لأن الذي بين يدي الباحث ليس كلام بشر يتسهّل في حقّه إطلاق القول وإرساله كيفما اتفق ؛ وإنّما الذي بين عينيه هو كلام خالق البشر جلّ وعزّ ، وهو الذي تقف

المشاعر عند سماع كلامه ؛ فترتعد الفرائض من وعيده ، وتتوق النفوس لوَعْده ، وتطمئن القلوب بذكره ؛ فيزداد إيمانها ، وتتفتّح بصائرها . وذلك وسواه يجعل رأس القلم في اضطراب ، ويدع صاحبه في وَجَل وحذر ؛ خشية من زلل القلَم . أو خَطَل النظر ، أو شرود الفِكَر . ولكن الذي يُسلّي النفس ، ويعمر القلب بالثقة والأمان ، هو كون آيات الرحمن بين يدي الباحث ، وهي في ذورة البلاغة والبيان ، تجري على لسانه في الليل والنهار ، وتشغل باله في الإقامة والأسفار ، وذلك كلّه مما أحتسبه عند الملك الديّان ؛ خدمة لكتابه العزيز .

هذا ولسوف تقوم دراسة « النظم القرآني في آيات الجهاد » - إن شاء الله - على تحليل مدلول ألفاظ الآية الكريمة ، مستحضراً الغرض من سياقها ؛ ثم أتتبع أدوات البلاغة وأساليبها التي تعمر بها الآية الكريمة ؛ لإبراز الأغراض التي أدّتها تلك الأدوات والأساليب من خلال نظم الآية ، وهذا النظم عبر تلك الأدوات والأساليب هو الذي يبرز الغرض العام الذي ورد بشأنه التنزيل الحكيم في المعنى الجهادي المراد بيانه .

وهذا المنهج ذو الطبيعة التكاملية في العرض التحليلي يجعل العناصر البلاغية خادمة للمقاصد القرآنية ؛ وذلك أن المواد اللغوية هي اللبنات الأولى التي تشكّل العمود الفَقْري للنظم القرآني ، وإبرازُ مقاصد الألفاظ ، وإظهار وظائفها ، وتسجيل المعاني الناتجة عن العلاقات بين الكلم وَفْق قانون النحو وقواعده - هو عين النَّظْم وجوهره ، وهو ما نادى به عبدالقاهر الجرجاني من خلال نظرية « النظم » المشتهرة عنه ، والتي أدار إعجاز القرآن عليها ، وعاب - من خلال عرضه - مَنْ ينظر - مثلاً - إلى الاستعارة وحدها في الآية ، ويُغْفل ماعداها في النظم ؛ مما هو منها بسبب ، وله بها علاقة ونسب (١) .

وبذلك تكون مواد البلاغة وأدواتها وسائل يوصل بها إلى الأغراض القرآنية من خلال النظم الكريم ؛ فتلك خدم لها ، وليست الآيات خادمة لمواد البلاغة وعناصر أبحاثها ؛ وبهذا المنهج تَسْلم الآية الكريمة من التَّجْزئة والتقطيع ، ويُحْفظ بهاؤها ورواؤها ، وينكشف شيء من أسرار جمالها ، وبدائع نظمها .

(١) انظر : دلائل الإعجاز : ١٠٠ - ١٠٢ .

وقد رأيت هذا المنهج هو الأقوم ، وهو الأليق بكلام الله عز وجل ؛ ولهذا ارتضيته في هذه الدراسة البلاغية ، وجعلت ذلك منهجي في كل آية أعرضها ؛ وذلك بعد أن أقدّم توطئة قصيرة للمبحث البلاغي الذي أنا بصدده ؛ ثم أتناول ماتيسّر من آيات الجهاد مما أراه مناسباً لهذا المبحث ؛ مشيراً إلى سبب نزول الآية - إن وجد - ، وموضّحاً علاقتها بما قبلها - ما أمكن - ، ثم أستعين بالله تعالى في سبيل استجلاء دقائق نظمها ، ولطائف بيانها ؛ مركّزاً - قدر الإمكان - على المبحث البلاغي الذي أوردت الآية في بابه ، مع إظهار بعض الأسرار البلاغية الأخرى ، وإن لم تكن منضوية تحت المبحث البلاغي نفسه ، وذلك في ضوء المنهج التحليلي ذي الطبيعة المتكاملة ، ومن هذا المنطلق كان عنوان هذا البحث : « النظم القرآني في آيات الجهاد » .

هذا وقد نظّمت مباحث هذه الرسالة في مقدّمة وتمهيد ، وثلاثة أبواب ؛ تقفوها خاتمة .

وقد جعلت التمهيد حديثاً موجزاً عن أمرين :

تحدثت في الأوّل منهما عن فكرة النظم عند البلاغيين ؛ تعريفاً بها ، وإشارةً إلى أبرز مَنْ حاول السّير على هَدْيها في تفسيره من العلماء .

وتناولت في الثاني « الجهاد » ؛ تعريفاً به ، وبحُكْمه ، وبياناً لمنهج القرآن في عرض الجهاد ؛ من خلال مابدا لي في آياته .

وقد سَمّيت الباب الأوّل « خصائص اللفظ القرآني في آيات الجهاد » ؛ وجعلته في فصلين :

الفصل الأوّل : -تميز اللفظ القرآني ؛ وتناول مايلي :

- اصطفاء الكلم .
- صفاء الكلمة .
- جرسها وإيقاعها .
- إيحاؤها وظلالها .

الفصل الثاني : - تنوّع التعبير باللفظ عن المعنى المراد ؛ وقد تناول مايلي :

- التنكير والتعريف .

- الإظهار والإضمار .
- التعبير عن الماضي بالمستقبل وعكسه .
- الالتفات .

وأما الباب الثاني فهو بعنوان : « خصائص التركيب في آيات الجهاد » ؛ وهو من ثلاثة فصول : -

الفصل الأوّل : - التوكيد وأنواعه ؛ وقد تناول مايلي : -

- التوكيد ؛ تعريفاً به ، وإشارة إلى بلاغته .
- أدوات التوكيد .
- التكرار .
- القصر وطرقه .

الفصل الثاني : - طرق التعبير بالجملة عن المعنى المراد ؛ وقد تناول مايلي : -

- التعبير بالجملة الخبرية والإنشائية .
- التعبير بالجملة الاسمية والفعلية .
- التقديم والتأخير .
- الذكر والحذف .
- الشرط والجزاء .

الفصل الثالث : - الفصل والوصل ؛ وقد تناول مايلي : -

- الأسرار البلاغية للفصل .
- الأسرار البلاغية للوصل .
- الجملة الحالية .
- الفواصل القرآني وعلاقتها بنظم الآي .

وقد كان الباب الأخير بعنوان : « خصائص التصوير في آيات الجهاد » ؛ وقد جعلته في ثلاثة فصول ؛ وهي : -

الفصل الأوّل : - التصوير بطرق البيان : -

- بالتشبيه .
- بالاستعارة .

- بالكناية والتعريض .

الفصل الثاني : - التصوير من خلال فنون البديع : -

- الطباق .
- المقابلة .
- الجناس .
- ردّ الأعجاز على الصدور .

الفصل الثالث : - التصوير من خلال القصص ؛ وقد تناول مايلي : -

- أخذ العِبَر من قصص الغابرين في جهادهم أو قعودهم .
- أثر القصص في نفوس المجاهدين .
- تصوير المعارك من خلال القصص .

وقد سجّلتُ في الخاتمة أبرز ما انتهى إليه هذا البحث من نتائج ، وذلك على سبيل الإجمال .

ولقد اعترضني في تضاعيف هذا البحث جملة من الصعوبات ؛ منها أن كثيراً من الأسرار البلاغية ، واللطائف البيانية بكر ؛ لم أجد لدى المفسّرين ذكراً لها ، ولا إشارة إلى بعضها . ومنها ما أجده من تعارض في أقوال بعض المفسّرين مع بعضهم الآخر . ومنها اختلاف طبيعة كل تفسير عن نظيره ؛ فبعضها يطيل الكلام عن الآية من زاوية فقهيّة ، وبعضها الآخر يتفنّن في عرض الأعاريب ، وثالث يعمر أسلوبه بالإسهاب الأدبي ؛ فكنت أعاني من طول تقليب النظر بين هذا وذلك ؛ إلى أن أجد ضالتي وأحقّق مرادي .

هذه الصعوبات وغيرها مما لاسبيل إلى سرده ؛ قد كفاني الله عز وجل هَمَّها ، وأعانني - بتوفيقه - عليها ، ويسّر لي - بلطفه - مشرفاً هُمَاماً ؛ كان لي نعم العون والسند بعد خالقي سبحانه وتعالى ؛ ذلكم هو الأستاذ الدكتور : فريد بن محمد بدوي النّكلاوي ؛ فقد كنت أستأنس برأيه في المعضلات ، وأستضيء بنبراس علمه في ظلمات انغلاق المفهومات ، ولقد وجدت فيه عالماً متواضعاً ، وأستاذاً مرشداً فريدا ، وأباً ناصحاً عضيدا ؛ فجزاه الله عنّي جزاء مشكورا .

ولايفوتني أن أقدم شكري لكليتي العريقة ؛ كلية اللغة العربية بالرياض ؛ ممثّلة

في عميدها ووكيليها ، وسائر أساتذتها على مارأيته منهم من تعاون وتقدير واحترام ٠

كما أشكر قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي ؛ ممثّلاً في رئيسه ووكيله وجميع أعضائه على ماقدّموه لي من نصح وتعاون وتيسير واهتمام ٠

كما أسأل الله عز وجل أن يجزل الثواب لكل من مَدَّ لي يد العون في هذا البحث المبارك من قريب أو بعيد ، وأدعوالله تعالى ألا يحرمهم أجر هذا الجهد العلمي ؛ الذي هو في منطلقاته ونهاياته خدمة لكتاب الله العزيز الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه تنزيل من حكيم خبير ٠

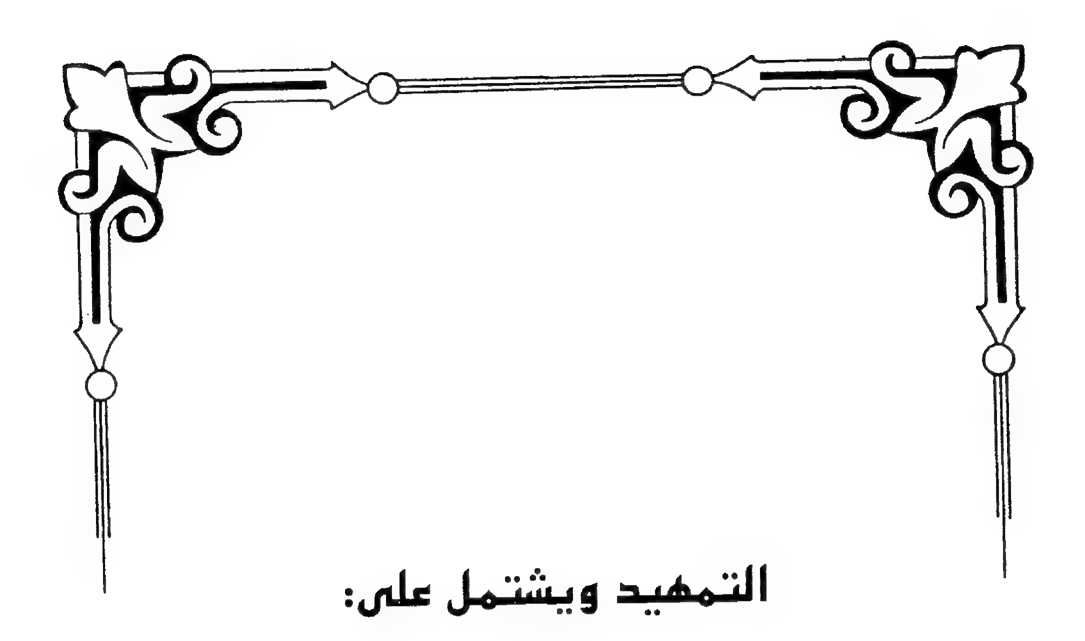
وفي ختام هذه المقدّمة لا أزعم أنني قد استقصيت كل آيات الجهاد في هذا البحث ، ولا أقول إني قد أحطت بدقائق نظم ماعرضته منها ، كيف يقع ذلك ؟ والذي بين يدي هو كلام الله عز وجل ، الذي لايحيط بأسراره إلاّ المتكلم به ، وما أجمل ماقال « سهل بن عبدالله »(١) : « لو أُعطي العبد بكل حرف من القرآن أَلْف فَهْمٍ لم يبلغ نهاية ماأودعه الله في آية من كتابه ؛ لأنّه كلام الله ، وكلامه صفته ، وكما أنّه ليس لله نهاية ؛ فكذلك لانهاية لفهم كلامه ؛ وإنّما يفهم كلٌّ مقدار مايفتح الله عليه ٠ وكلام الله غير مخلوق ، ولاتبلغ إلى نهاية فهمه فهوم مُحْدَثَة مخلوقة »(٢) ٠

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين الذي بنعمته تتم الصالحات ٠

---

(١) هو سهل بن عبدالله التُّسْتري ، كان صاحب كرامات ، وله اجتهاد حسن ، وورع ظاهر ، سكن البصرة زماناً ، وعبادان مدّة ، توفي سنة ٢٧٣ هـ وقيل سنة ٢٨٣ هـ ٠ انظر : الأعلام : ٢١٤٣/٣ ، وهامش البرهان : ١٠٢/١ ٠

(٢) البرهان : ١٠٢/١ ٠



التمهيد ويشتمل على:

- معنى النظم وفكرته عند البلاغيين .
- منهج القرآن في عرض آيات الجهاد :ـ
  1 - الحض على الجهاد .
  2 - بيان أسباب النصر .
  3 - عرض أسباب الهزيمة .

معنى النظم وفكرته عند البلاغيين

جاء في معاجم اللغة من معاني النظم أنه بمعنى : التأليف ، والجمع ، والضّم ، والاتساق [١] .

يقول الزمخشري : « نظمت الدر ونظمته ، ودرّ منظوم ومنظم ، وقد انتظم وتنظم ، وتناظم ، وله نظم منه ، ونظام ونظم ٠ ومن المجاز : نظم الكلام ، وهذا نظم حسن ، وانتظم كلامه وأمره ، وليس لأمره نظام ؛ إذا لم تستقم طريقته ٠ وتقول : هذه أمور عظام لو كان لها نظام ، ورمى صيداً فانتظمه بسهم وطعنه ؛ فانتظم ساقيه أو جنبيه » [٢] .

وفي المعجم الوسيط : « ٠٠ ويقال : نظم القرآن : عبارته التي تشتمل عليها المصاحف صيغة ولغة » [٣] .

وإذا كان نظم اللآليء في الخيط يعني ضمّ بعضها إلى بعض لتظهر بمظهر حسن ، وصورة مثلى ؛ فإنّ ضمَّ الكلمات بعضها إلى بعض وقَرْن مابعدها بما قبلها على نسق خاص في تأليف الكلام للدلالة به على المقاصد – هو عين النَّظْم وصورته ٠

يقول الشريف الجرجاني : « النَّظْم في اللغة : جمع اللؤلؤ في السِّلْك ٠

وفي الاصطلاح : تأليف الكلمات والجمل مُرَتَّبَة المعاني ، مُتَناسبة الدلالات ؛ على حسب مايقتضيه العقل ٠ وقيل : الألفاظ المترتبة المسوقة المعتبرة دلالتها على مايقتضيه العقل » [٤] .

وقد كان النظم يطلق عند العرب على الشّعر خاصة ، وعلى السَّجْع أحياناً ؛ وذلك تمييزاً لهما عن الكلام المرسل ؛ لتميّز نمطهما ، ولكونهما يفتقران إلى مزيد عناية بخلاف سائر الكلام [٥] .

---

(١) انظر في مادة : نظم : الصحاح ، ولسان العرب ، والقاموس المحيط ، والمعجم الوسيط ٠

(٢) أسس البلاغة : مادة : نظم ٠

(٣) المعجم الوسيط : مادة : نظم ٠

(٤) التعريفات : ٢٤٢ ٠

(٥) انظر : النظم القرآني وأثره في الأحكام : ٢٦ ٠

ولم تظهر فكرة النظم القرآني إلاّ بعد نزول القرآن الكريم ، وبعدما بدأ التأليف بحثاً عن وجوه إعجاز القرآن [١] ، وتنقيباً عن السّر الذي أخرس أرباب البيان عن الإتيان بمثل القرآن ، ولو بسورة واحدة .

وقبل الاسترسال في بيان فكرة النظم عند البلغاء ومرادهم بها يحسن الوقوف عند شرعية إطلاق لفظ « النظم » على كلام الله عزّ وجل ؛ وهل أطلق أحد من السلف هذا الوصف على كلام الله تعالى ؟ .

إن من أوائل من تناول ذلك ووصف كلام الله به من علماء السلف المشهود لهم بالاستقامة في الدين وحسن المعتقد والانتصار لمذهب أهل السنّة والجماعة – ابن قتيبة [– ٢٧٦ هـ].[٢] ؛ فقد قال في خطبة كتابه [تأويل مشكل القرآن] : « الحمد لله الذي نهج لنا سبل الرشاد ، وهدانا بنورالكتاب ... وقطع منه بمعجز التأليف أطماع الكائدين ، وأبانه بعجيب النَّظْم عن حيل المتكلّفين ... »[٣] ؛ فسمّاه تأليفاً ونظما .

كما وسمه ابن جرير الطبري [– ٣١٠ هـ] بالتأليف[٤] ، والتأليف من معاني النظم كما تقدم في المعنى اللغوي .

وجعل القاضي عياض [– ٥٤٤ هـ] من وجوه إعجاز القرآن تَفَرُّد نظمه ، حيث قال : « الوجه الثاني من إعجازه صورة نظمه العجيب والأسلوب الغريب المخالف لأساليب العرب ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليه .. » [٥].

---

(١) انظر : النظم القرآني وأثره في الأحكام : ٢٦ .

(٢) قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية : « وابن قتيبة هو من المنتسبين إلى أحمد وإسحاق والمنتصرين لمذاهب السنّة المشهورة، وله في ذلك مصنّفات متعدّدة. قال فيه صاحب كتاب « التحديث بمناقب أهل الحديث » : وهو أحد أعلام الأئمة ، والعلماء والفضلاء ، أجودهم تصنيفاً ، وأحسنهم ترصيفاً ، له زهاء ثلاثمائة مصنف ، وكان يميل إلى مذهب أحمد ، وإسحاق ، وكان معاصراً لإبراهيم الحربي ، ومحمد بن نصر المروزي ، وكان أهل المغرب يعظّمونه ، ويقولون : من استجاز الوقيعة في ابن قتيبة يتّهم بالزندقة ، ويقولون : كل بيت ليس فيه شيء من تصنيفه فلا خير فيه قلتُ : ويقال هو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة ؛ فإنه خطيب السنة كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة ؛ مجموع فتاوى ابن تيمية : ١٧/٣٩١ – ٣٩٢ .

(٣) تأويل مشكل القرآن : ٣ .

(٤) انظر : جامع البيان : ١/١٦٦ .

(٥) الشفا : ١/٥١١ .

وأما القاضي أبو محمد بن عطيَّة الأندلسي [- ٥٤٦ هـ] فقد قال في تفسير قولـه تعالى : ﴿ ٠٠ فـأتوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ٠٠ ﴾ [١]، مانصّه : « واختلف المتأوّلون على من يعود الضمير في قوله [مثله] ؛ فقال جمهور العلماء : هو عائد على القرآن ، ثم اختلفوا ؛ فقال الأكثر : من مثل نظمه ورصفه وفصاحة معانيه التي يعرفونها ، ولايعجزهم إلاّ التأليف الذي خص به القرآن ، وبه وقع الإعجاز على قول حُذَّاق أهل النَّظر » [٢]. فسماه تأليفاً ونظماً كابن قتيبة ٠

وصرح بذلك - أيضاً - في مقدمة تفسيره عندما تناول موضوع إعجاز القرآن ؛ فكان مما قال : « ٠٠ وكفار العرب لم يمكنهم قط أن ينكروا أن رصف القرآن ونظمه وفصاحته مُتَلَقًّى من قبل محمد ﷺ ؛ فإذا تحديت إلى ذلك وعجزت فيه علم كل فصيح ضرورة أن هذا نبي يأتي بما ليس في قدرة البشر الإتيان به إلاّ أن يخصّ الله تعالى من يشاء من عباده ٠ وهذا هو القول الذي عليه الجمهور والحذّاق ، وهو الصحيح في نفسه ؛ أن التحدي إنما وقع بنظمه ، وصحة معانيه ، وتوالي فصاحة ألفاظه » [٣].

وعَدَّ أبو عبدالله القرطبي [- ٦٧١ هـ] من وجوه إعجاز القرآن : « النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب وفي غيرها ؛ لأن نظمه ليس من نظم الشعر في شيء ، وكذلك قال ربّ العزّة الذي تولّى نظمه : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ٠٠ ﴾[٤] ٠٠ » [٥].

وأثبت جلال الدين السّيوطي [- ٩١١ هـ] في « معترك الأقران » - أنّ من وجوه إعجاز القرآن : « حسن تأليفه ، والتئام كلمه وفصاحتها ، ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب الذين هم فرسان الكلام وأرباب هذا الشأن؛ فجاء نطقه العجيب، وأسلوبه الغريب مخالفاً لأساليب كلام العرب ومنهاج نظمها ونثرها الذي جاءت عليه ،

---

(١) البقرة : ٢٣ ٠
(٢) المحرّر الوجيز : ١/١٤٣-١٤٤ ٠
(٣) المحرّر الوجيز . ١/٣٩ ٠
(٤) يس : ٦٩ ٠
(٥) الجامع لأحكام القرآن : ١/٧٣ ٠

مقاطع آياته ، وانتهت إليه فواصل كلماته ، ولم يوجد قبله ولابعده نظير له ... » (١).

بل وصل الأمر بأحد العلماء الأجلاء إلى وسم تفسيره باسم : « نظم الدُّرَر في تناسب الآيات والسّور » وهو : برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي [-٨٨٥هـ] . وهو فريد في بابه ، بديع في عرضه ، شامل في تناوله لمقاصد النظم القرآني والربط بين أجزاء الآية الواحدة ، وبينها وبين ماقبلها ، وبيان تعلّق مابعدها بها ، وقد وفّق في كثير مما كتب على وجه الإجمال .

ولن نمضي في هذا الأمر على سبيل الاستقصاء لهذه المسألة ، ومن رغب في التوسع في ذلك ؛ فدونه الكتب التي تناولت قضية الإعجاز ، تتبّعاً لها ، وتسجيلاً لأقوال أصحابها ، على سبيل العرض أو النقد ، أو هما معا (٢).

وعلم النظم هو الذي يبرز الأسرار والنكت في أسلوب القرآن ، ويكشف الفروق المعنوية الدقيقة بين خصوصيات التراكيب ، ويربط هذه الخصوصيات بالسياق والغرض العام الذي ورد النص الكريم بشأنه (٣).

أو قل إن شئت إنّ علم النظم هو علم الأسرار البلاغية ، والنكات البيانية العامرة في الأسلوب القرآني الكريم .

ومن أبرز من عكف على تنظير فكرة النظم ، وإظهار أثرها في إعجاز القرآن بل جعلها أمارة إعجازه - هو عبدالقاهر الجرجاني [-٤٧١ هـ] ؛ مستفيداً من جهود من سبقه من العلماء (٤).

---

(١) معترك الأقران : ١/ ٢٣ .

(٢) ومنها : فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر مع نقد وتعليق ؛ لنعيم الحمصي ، وقضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية للأستاذ الدكتور : عبدالعزيز عبدالمعطي عرفة ، وفكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم للأستاذ الدكتور : فتحي أحمد عامر ، والبيان في إعجاز القرآن ؛ للدكتور : صلاح عبدالفتاح الخالدي . وغيرها .

(٣) انظر : البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري : ١٨٩ .

(٤) وذلك كالجاحظ [- ٢٥٥ هـ] وابن قتيبة [- ٢٧٦ هـ] والواسطي [- ٣٠٦هـ] والرّماني [-٣٨٦ هـ] والخطابي [- ٣٨٨ هـ] والباقلاني [٤٠٦هـ] والقاضي عبدالجبار [- ٤١٥هـ] ، انظر : نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبدالقاهر الجرجاني : ١٣-٤٥ ، ٥٨ - ٦٢ . وانظر : البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري : ١٨٧ - ١٨٨ .

وقد عظّم عبدالقاهر من شأن النظم وفخّم قدره وأعلى من شأنه قائلاً : « وقد علمت إطباق العلماء على تعظيم شأن « النظم » وتفخيم قدره ، والتنويه بذكره ، وإجماعهم أنْ لافضل مع عدمه ، ولاقَدْر لكلام إذا هو لم يستقم له ، ولو بلغ في غرابة معناه مابلغ - وبَتِّهُم الحكمَ بأنّه الذي لاتمام دونه ، ولا قِوَام إلاّ به ، وأنّه القطب الذي عليه المدار ، والعمود الذي به الاستقلال . وماكان بهذا المحلّ من الشّرف ، وفي هذه المنزلة من الفضل ، وموضوعاً هذا الموضع من المزيّة ، وبالغاً هذا المبلغ من الفضيلة - كان حَرِيّاً بأن تُوقَظ له الهِمَم ، وتُوكّل به النفوس ، وتحرّك له الأفكار ، وتستخدم فيه الخواطر .. »[1].

وبعد هذا الترغيب في النظم ذهب عبدالقاهر إلى تحديد معناه قائلاً : « اعلم أن ليس « النَّظم » إلاّ أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه « علم النحو » ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التي نُهجت ؛ فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك ؛ فلا تُخِلّ بشيء منها »[2].

وعلى ذلك فإعمال قانون النحو في التعبير هو السبيل الأسلم للتعبير عن المعاني المراد إظهارها عند المتكلّم ، وذلك لأن في التعبير فروقاً ؛ ففرق بين أن يكون الخبر اسماً أو فعلاً ، أو محلّىً بالألف واللام أو مجرداً منها ، والأمر في الشّرط والجزاء يختلف باختلاف أدواته ، وبطريقة تعليق الجزاء على فعل ماضٍ أو مضارع ، وكذلك الشأن في « الحال » فقد تكون مفردة أو جملة ، والجملة قد تكون اسمية ، أو فعلية فعلها ماض مقترن بقد ، أو بقد والواو ، أو يكون فعلها مضارعاً أخبر به عن ضمير الحال ، أو جرّد منه ...

وكذلك ينظر في الحروف التي تشترك في معنى ، ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصيته في ذلك المعنى ؛ فالنظر الدقيق يقتضي وضع كل واحد منها في خاص معناه ؛ كأن يؤتى بـ « ما » في نفي الحال ، وبـ « لا » إذا أريد نفي الاستقبال ، وبـ « إنْ » فيما يترجّح بين أن يكون وأن لايكون ، وبـ « إذا » فيما علم أنه كائن .

---

(١) دلائل الإعجاز : ٨٠ .
(٢) دائل الإعجاز : ٨١ .

ودقائق النظم تقتضي النظر في الجمل التي تُسْرَد ؛ فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل ، ثم يعرف فيما حقّه الوصل بالواو أو بالفاء ، وموقع « الفاء » يختلف عن « ثم » ، وموضع « أو » غير موقع « أم » ، كما أن « لكن » تفارق « بل » .. وهكذا .

وكذا الشأن في التعريف والتنكير ، والتقديم والتأخير في الكلام كله ، وفي الحذف والذكر ، والتكرار ، والإضمار والإظهار ؛ فيوضع كل من ذلك في مكانه اللائق به (١).

ويؤكد عبدالقاهر أن صحة النظم أو فساده ، وتميُّزه وفضله يرجع إلى معاني النحو وأحكامه ، ويدخل في أصل من أصوله ، ويتصل بباب من أبوابه (٢). ولايتصوّر أن يتعلّق الفكر بمعاني الكَلِم أفراداً ومجرّدة من معاني النحو . بل لابد من نظمها وإجراء قانون النحو فيها لتظهر المعاني المرادة من خلال ذلك (٣).

وقد ربط عبدالقاهر الإعجاز بالنظم ، فميدان النظم بذلك المفهوم ميدان فسيح واسع ، ودقيق غائر ، والعقل يتقبل بالرضا والارتياح أن يفضل بعض الكلام بعضاً في ميدان النظم ، وأن يتقدم منه الشيءُ الشيءَ ، ثم يزداد من فضله ذلك ، ويرتقي منزلة فوق منزلة ، ويعلو مرقباً بعد مرقب ، ويستأنف له غاية بعد غاية ؛ حتى ينتهي إلى حيث تنقطع الأطماع ، وتحسر الظنون ، وتسقط القوى ، وتستوي الأقدام في العجز (٤).

وقد طبّق عبدالقاهر مانادى به من أن النظم من أسرار الإعجاز القرآني - على بعض الآيات الكريمة ؛ فحلَّل وعلَّل ، وأبان وفصّل ، من ذلك قوله : « ومن دقيق ذلك وخفيّه أنّك ترى الناس إذا ذكروا قوله تعالى : ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً ﴾(٥) لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة ، ولم يَنْسِبوا الشرف إلاّ إليها ، ولم يروا للمزيّة موجباً سواها ؛ هكذا ترى الأمر في ظاهر كلامهم ، وليس الأمر على ذلك ، ولاهذا الشرف

---

(١) انظر : دلائل الإعجاز : ٨١ - ٨٢ .
(٢) انظر : دلائل الإعجاز : ٨٣ .
(٣) انظر : دلائل الإعجاز : ٤١٠ .
(٤) انظر : نظرية عبدالقاهر في النظم : ١١١ - ١١٢ ، د . درويش الجندي .
(٥) مريم : ٤ .

العظيم ، ولاهذه المزيَّة الجليلة ، وهذه الرَّوعة التي تدخل على النفوس عند هذا الكلام - لمجرد الاستعارة ، ولكن ؛ لأنْ سلُك بالكلام طريقُ مايُسْنَد الفعل فيه إلى الشيء ، وهو لما هو من سببه ؛ فيرفع به مايُسْند إليه ، ويؤتى بالذي الفعل له في المعنى منصوباً بعده ، مُبيِّناً أن ذلك الإسناد وتلك النِّسبة إلى ذلك الأوَّل ، إنما كانا من أجل هذا الثاني ، ولما بينه وبينه من الاتصال والملابسة ؛ كقولهم : « طاب زيد نفساً » ، و « قَرَّ عمرو عَيْناً » ، و « تصبَّب عرقاً » ، و « كرم أصلاً » ، و « حسن وجهاً » ، وأشباه ذلك مما تجد الفعل فيه منقولاً عن الشيء إلى ماذلك الشيء من سببه . وذلك أنّا نعلم أنّ « اشتعل » للشيب في المعنى ، وإن كان هو للرأس في اللفظ ؛ كما أن « طاب » للنفس ، و « قَرَّ » للعين ، « وتصبَّب » للعرق ، وإن أسند إلى ماأسند إليه ، يُبَيِّن أن الشرف كان لأن سلُك فيه هذا المسلك وتوخِّي به هذا المذهب - أن تدع هذا الطريق فيه ، وتأخذ اللفظ فتسنده إلى الشيب صريحاً فتقول : اشتعل شيب الرأس ، أو الشيب في الرأس ، ثم تنظر ؛ هل تجد ذلك الحسن وتلك الفخامة ؟ وهل ترى الرَّوْعة التي كنت تراها ؟

« فإن قلت : فما السبب في أنْ كان « اشتعل » إذا استعير للشيب على هذا الوجه كان له الفضل ؟ ولِمَ بان بالمزية من الوجه الآخر هذه البينونة » ؟

« فإنّ السبب أنه يفيد مع لَمَعَان الشَّيب في الرأس الذي هو أصل المعنى الشّمولَ ، وأنه قد شاع فيه ، وأخذه من نَواحيه ، وأنه قد استغرقه وعَمَّ جُمْلته ، حتى لم يَبْق من السّواد شيء ، أو لم يبق منه إلاّ مالا يُعْتَدّ به . وهذا مالايكون إذا قيل : اشتعل شيب الرأس ، أو الشيب في الرأس ، بل لايوجب اللفظ حينئذٍ أكثر من ظهوره فيه على الجملة . ووِزَانُ هذا أنك تقول : اشتعل البيت ناراً ؛ فيكون المعنى : أن النار قد وقعت فيه وقوع الشمول ، وأنها قد استولت عليه ، وأخذت في طرفيه ووسطه . وتقول : اشتعلت النار في البيت ؛ فلا يفيد ذلك ؛ بل لايقتضي أكثر من وقوعها فيه ، وإصابتها جانباً منه ؛ فأما الشّمول ، وأن تكون قد استولت على البيت وابتزَّته ، فلا يُعْقل من اللَّفظ ألبتة » ...

« واعلم أن في الآية .. شيئاً آخر من جنس النَّظْم ؛ وهو تعريف « الرأس » بالألف واللام ، وإفادة معنى الإضافة من غير إضافة ، وهو أحد ما أوجب المزيَّة ؛ ولو

قيل : واشتعل رأسي ؛ فصرِّح بالإضافة ؛ لذهب بعض الحُسْن ؛ فاعرفه »[١].

فعبدالقاهر من خلال فكرة النظم المتقدمة يعيب على من ينظر إلى البلاغة من زاوية الكلمة المفردة ، ولايرى البلاغة بادية ولا إعجاز القرآن ظاهراً إلاّ من خلال النظرة التكاملية ، التي تتوجّه إلى موقع الكلمة من الجملة ، وإلى علاقتها بما تقدمها وبما تأخّر عنها ، ومن خلال إعمال قانون النحو وقاعدته ، الذي به ينتظم عقد النظم ، وتبرز قيمته . وعلى هذا المنحى سوف تكون الدراسة التحليلية في هذه الرسالة العلمية المتعلّقة بآيات الجهاد - إن شاء الله تعالى - ؛ فلن تكون المعالجة البلاغية معالجة جزئية ، وإنما سوف تكون في منحى تكامليّ كلّي - قدر الإمكان - يتناول مواقع الكلم من الجمل ، وعلاقاتها بجاراتها ، والمعاني الناشئة من تلك العلاقات ، وكيف يكون الأمر لو استبدل بلفظ لفظ آخر ، أو تقدّم لفظ أو تأُخّر عن موقعه الذي انتظمه النظم القرآني الكريم . وبهذا تنجلي بعض نكات التعبير ، ويَستبين شيء من الأسرار البلاغية ، وتتفق هذه السبيل مع مانادى به عبدالقاهر الجرجاني من دراسة النظم دراسة شاملة كاملة لادراسة جزئية مقطّعة .

ولقد استمد الزمخشري فهمه للنظم من فهم عبدالقاهر له ؛ فمن معانيه عنده : أنه « بيان الروابط والعلاقات بين الجمل ، وكيف يدعو الكلام بعضه بعضاً ، وكيف يأْخذ بعضه بحجزة بعض »[٢].

وطفق الزمخشري ينظر إلى مفردات الآية الكريمة بمنظار من يدقق في العلاقات الرابطة بينها وبين الغرض العام من سياقها ، وقد وفّق في هذا السبيل في كثير من وقفاته البلاغية ، وتحليلاته البيانية ، وأخذ كثير من المفسّرين والبلاغيين عنه، واستعاروا بعض جمله وعباراته[٣] . ولولا مافي كشّاف الزمخشري من اعتزاليات وتأويلات وضلالات في بعض آيات الأسماء والصفات وبعض المسائل المتعلقة بالقدر وبأفعال العباد[٤] - لكان تفسيره من خيرة التفاسير التي تقف عند المدلول

---

(١) دلائل الإعجاز : ١٠٠ - ١٠٢ .
(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري : ١٨٨ .
(٣) ممن أظهر ذلك وأثبته الدكتور محمد أبو موسى في : البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري في الباب الثاني من كتابه .
(٤) لقد تتبع ابن المنيّر - رحمه الله - سقطات الزمخشري في كشّافه وأخرجها بالمناقيش ، وذلك في هامش « الكشاف » في بعض طبعاته .

اللغوي للكلمة وتغوص على المراد من غرض سياقها في تعبير بياني مجمل ظاهر الإشراق بوجه عام .

ونلمس التأثر بنظرية النظم التي نظّرها عبدالقاهر ، وحاول الزمخشري تطبيقها في تفسيره نلمس ذلك بادياً عند الفخر الرازي في تفسيره ؛ فكثيراً مايقف عند مقاصد الآية ، وعلاقتها بما قبلها وبما بعدها ، ويعرض صوراً من الافتراضات فيما لو كان التعبير على غير الجاري في نسق الآية ، ويُحسن الغوص على اللطائف البيانية. ولكن منطق الفلسفة [1] ، والاستطرادات الكثيرة تجعل بعض لطائفه وإبداعاته قليلة في جانب ذلك الكم الكثير ، ومن صبر على ذلك ظفر بكثير من محاسنه .

وخير من رأيته عني بنظم الآي ، وبالعلاقات بين جملها وبينها وبين سوابقها ولواحقها ، وبين السُّور فيما بينها - البقاعي ؛ ولذلك سمّى عمله البديع بـ « نظم الدرّر» انطلاقاً من فكرة النظم ، وكأنّما أراد إظهارها للناس في كتاب الله عز وجل على وجه التفصيل في كتابه المذكور ، ولم يكن عمله بالضرورة منطلقاً من فكرة عبدالقاهر في النظم ، وإنما كان - فيما يظهر - معجباً بها مقتنعاً بمنطلقاتها ، والدليل على ذلك هو وَسم كتابه بذلك ، واجتهاداته الكثيرة الموفقة في عمومها فيما كتبه في تفسيره القيّم .

ومن جملة مايلاحظ على بيان كتابه غموض في بعض عباراته ، والتواء في بعض أساليبه ، وتكلف - أحياناً - في الربط بين بعض الجمل والآيات ، ولعل مردّ الملحوظة المتقدمة إلى النُّسّاخ ، وإلى من قام بإخراج تفسيره وطباعته . وأما الملحوظة الأخرى فقد يكون مرجعها هو قصور فهمنا لمراد المؤلّف . ولكن إحسانه في عمله ظاهر ، وإبداعه في كثير من وقفاته غير خفي .

وأما أبو السعود فقد كان متصلاً بنظرية النظم بسبب ، وقد كان له في تفسيره حسن تعليل ، وعلوّ تعبير ، ورفعة بيان قلّما تجد له نظيراً من بين التفاسير ، ولعل اعتدال منهجه ، واشتغاله بالقضاء كان لهما أثر في أن يبتعد تفسيره عن الشطحات

---

(١) ممن أشار إلى المنطق والفلسفة والجدل وتفريع المسائل عند الرازي في تفسيره الدكتور فتحي عامر في : بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ / ٢٢٠ .

ومهاوي المنزلقات . سوى مايكون أحياناً - وذلك قليل - من عسر البيان الناتج عن تركيب الأساليب بعضها فوق بعض ؛ مما يؤدي إلى مايشبه انغلاق المعنى وعدم القدرة على فهم المراد منه .

وفي المعاصرين كالشيخ محمد الطّاهر بن عاشور من وقف من نظرية النظم وقفة المستفيد منها ، الشارح لدلالاتها ، المطبّق لها في أعماله البيانية في التفسير . فقد قال ابن عاشور عن النظم : « إن نظم القرآن مبني على وفرة الإفادة وتعدّد الدّلالة ؛ فجُمل القرآن لها دلالتها البلاغية التي يشاركها في مُجْملها كلام البلغاء ، ولايصل شيء من كلامهم إلى مبلغ بلاغتها . ولها دلالتها المطويّة ، وهي دلالة مايذكر على مايقدّر اعتماداً على القرينة ، وهذه الدلالة قليلة في كلام البلغاء ، وكثرت في القرآن ؛ مثل تقدير القول ، وتقدير الموصوف ، وتقدير الصّفة . ولها دلالة مواقع جُمَله ؛ بحسب ماقبلها ومابعدها ؛ ككون الجملة في موقع العلّة لكلام قبلها ، أو في موقع الاستدراك ، أو في موقع جواب سؤال ، أو في موقع تعريض ، أو نحوه . وهذه الدلالة لاتتَأتَّى في كلام العرب : لقصر أغراضه في قصائدهم وخُطَبهم ، بخلاف القرآن ؛ فإنّه لمّا كان من قبيل التذكير والتلاوة سَمَحَت أغراضه بالإطالة ، وبتلك الإطالة تَأَتَّى تعدّد مواقع الجمل والأغراض »(١).

وكأنّما أراد ابن عاشور أن يضيف - من خلال كلامه المتقدم - إلى مفهوم النظم ، مفهوم الدلالة التي ينتهي إليها نظم الجمل ، ويفضي بها من خلال سياقها إلى الأغراض والمقاصد ، وهذه وإن كانت تفهم من كلام عبدالقاهر عن النظم إلاّ أن ابن عاشور أكّدها ، وألحّ عليها ، وأبان كثيراً منها في ثنايا تفسيره القيّم « التحرير والتنوير » ؛ فقد أودع فيه من اللطائف ، والنكات ، والتحقيقات مايجعل الناظر في هذا التفسير يتنقّل من فائدة إلى أخرى ؛ فجزاه الله خيرا .

وعبدالكريم الخطيب في تفسيره : « التفسير القرآني للقرآن » جعل قلمه المتأدّب يتنقل بين آي القرآن في إشراقة الأديب ، ويشير - أحياناً - إلى محاسن التعبير ،

---

(١) التحرير والتنوير : ١/١١٠ .

وفروق الأداء في الألفاظ ؛ مما يجعله يقترب من النظم القرآني ويتصل به . وتفسيره تفسير أديب ينظر إلى الآيات بمنظار الأدباء ، ومن خلال أقلامهم ، ويبتعد كثيراً عن الخلاف والاختلاف حول النصوص [١] ، مما يجعله مقدَّماً لدى كثير ممن يميل إلى ذلك .

وأمّا سيد قطب فقد عاش « في ظلال القرآن » يتملّى سُنَن الله في الكون والوجود والإنسان ، ويَتَدبَّر حكمة الله في ذلك ، ويعبِّر عما يستوحيه فَهْمُه من خلال قلمه الأدبي ، وعاطفته الجياشة ، ونظرته البعيدة . فكان كتابه جملة من الخواطر والانطباعات ، سجَّلها قلمه في فترة حياته في ظلال القرآن ، وكان أكثر تركيزه على إيحاءات التعبير الكريم ، والتصوّرات التي ينبغي أن تؤخذ منه ، ومعالجة الواقع الإنساني ، وذلك من خلال سياق النظم القرآني وتعبيره الموحي [٢] .

ومهما يكن من أمر فإن كتاب الله تعالى معجز للبشر قاطبة بنظمه ، وحسن تأليفه ، وجمال إشراقه، وقوة تأثيره ، وإحكام آيه.كما أنّه معجز بحقيقته ومجازه [٣] ، وجمله وألفاظه ، وخبره وإنشائه ، وتقديمه وتأخيره ، وتعريفه وتنكيره ، وإضماره وإظهاره ، وقصره والتفاته ، وفصله ووصله ، وإيجازه وإطنابه . وهذه الرسالة جهد مقلّ في سبيل بيان شيء من بلاغة نظمه . الذي حوى ذلك كله وسواه ، والله المستعان .

---

(١) انظر : مقدمة : التفسير القرآني للقرآن : ١/٣-١٢.

(٢) انظر : في ظلال القرآن : المقدمة .

(٣) لقد كثر الجدال حول القرآن الكريم ؛ أهو مشتمل على المجاز أم لا ؟ ولم نرد الانسياق وراء ذلك فقد نهينا شرعاً عن الجدال في القرآن ؛ وإنما حسبنا ماحسمه شيخ الإسلام ابن تيمية في ذلك حيث قال : « نحن نقول بالمجاز الذي قام دليله ، وبالتأويل الجاري على نهج السبيل ، ولم يوجد في شيء من كلامنا وكلام أحد منّا أنّا لانقول بالمجاز والتأويل ، والله عند لسان كل قائل . ولكن ننكر من ذلك ماخالف الحق والصّواب ، ومافتح به الباب إلى هدم السنة والكتاب ، واللحاق بمحرِّفة أهل الكتاب . والمنصوص عن الإمام أحمد وجمهور أصحابه أن القرآن مشتمل على المجاز ، ولم يُعْرف عن غيره من الأئمة نص في هذه المسألة . وقد ذهب طائفة من العلماء من أصحابه وغيرهم كأبي بكر بن أبي داود ، وأبي الحسن الخرزيّ ، وأبي الفضل التميميّ ، وابن حامد - فيما أظن - وغيرهم إلى إنكار أن يكون في القرآن مجاز . وإنما دعاهم إلى ذلك مارأوه من تحريف المحرفين للقرآن بدعوى المجاز : فقابلوا الضلال والفساد بحسم المواد . وخيار الأمور التوسط والاقتصاد » . أثبت ذلك العلامة محمد جمال الدين القاسمي في : محاسن التأويل : ٦١٥/١ .

منهج القرآن في عرض آيات الجهاد

توطئـــة :

يقول ابن فارس في معنى « جهد » : « الجيم والهاء والدال أصله المشَقَّة ، ثم حُمل عليه مايقاربه ؛ يقال : جهدتُ نفسي ، وأجهدتُ ، والجُهْد : الطّاقة . قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾[(١)] . ويقال : إن المجهود اللَّبَن الذي أُخْرِج زُبْده ، ولايكاد يكون إلاّ بمشقَّة ونَصَب .. »[(٢)].

وفي « اللسان » : « الجَهْد والجُهْد : الطاقة ؛ تقول : اجهد جهدك ، وقيل : الجَهْد المشَّة والجُهْد الطاقة . اللَّيث : الجَهْد ماجَهَد الإنسان من مرض أو أمر شاق ؛ فهو مجهود ، قال : والجُهْد لغة بهذا المعنى »[(٣)].

ويبدو أن الفرق بين فتح الجيم وضمّها ؛ أنّ الفتح ينصرف إلى المشقة والغاية ، وأما الضّم فيكون بمعنى الوسع وبذل الطاقة[(٤)]، ولايخفى أن بينهما تداخلاً ، فمن بذل وسعه وطاقته فلابد من أن يناله مشقة ، ولكن إذا عظمت هذه المشقة وأشرفت على الغاية كانت جَهْداً ، فلا تستحق إلاّ هذه التسمية بفتح الجيم لابضمّها[(٥)].

والجهاد بكسر الجيم مصدر جاهدت العدو مجاهدة وجهاداً ، وأصله جيهاد ؛ كقيتال ؛ فَخُفِّف بحذف الياء . وهو مشتق من الجَهْد بفتح الجيم ، وهو التعب والمشقة؛ لما فيه من ارتكابها ، أو من الجُهْد بالضم ؛ وهو : الطاقة ؛ لأن كل واحد منهما يبذل طاقته في دفع صاحبه[(٦)].

وعلى ذلك فقد جمع لفظ « الجهاد » بين ذينك المعنيين اللّغويين ؛ لكون آثارهما ظاهرة فيه .

---

(١) التوبة : ٧٩ .
(٢) معجم مقاييس اللُّغة : مادة : جهد .
(٣) لسان العرب : مادة : جهد .
(٤) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر : ١/ ٣٢٠ .
(٥) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر : ١/ ٣٢٠ .
(٦) انظر : إرشاد الساري : ٥/ ٣١ .

وفي عرف الشرع يطلق الجهاد على مقاتلة عدوّ المسلمين دفعاً عنهم ، وإعلاء لشأن الدين ، وذلك بالنفس والمال واللسان [١] .

والغالب في إطلاق لفظ الجهاد أن ينصرف إلى قتال الكفار لتكون كلمة الله هي العليا ويكون الدين كلّه لله [٢]، كما أن المنافقين داخلون في مفهوم المجاهدة ، فهم والكفار يُجَاهَدون بالقلب واللسان والمال والنفس جهاداً يُنَاسِب كل فريق بحسبه، إلاّ أن جهاد الكفار أخصّ باليد . وجهاد المنافقين أخصّ باللّسان [٣] ؛ لانكشاف حال الكفار وتميّزهم ، وخفاء حال المنافقين ولبسهم عباءَة الإسلام تستُّراً ؛ ولذلك فقد أخذوا حكم الإسلام ظاهرا ، ولايقاتَلون إلا إذا بغوا على المسلمين .

والجهاد من أعظم مايقرب إلى الله عز وجل ، وهو ذِروْة سنام الإسلام وقُبَّته ، ومنازل أهله أعلى المنازل في الجنة ، كما أن لهم الرّفعة في الدنيا ؛ فهم الأعْلون في الدنيا والآخرة [٤] .

وقد كان الجهاد بالقتال محرَّماً في بدء أمر الإسلام ، ثم مأذوناً به ، ثم مأموراً به لمن بدأ المسلمين بالقتال ، ثم مأموراً به لجميع المشركين ؛ إمّا فرض عين على أحد القولين ، أو فرض كفاية على المشهور [٥] .

يقول ابن القيم : « والتحقيق أن جنس الجهاد فرض عين إما بالقلب وإما باللسان ، وإما بالمال ، وإما باليد ؛ فعلى كل مسلم أن يجاهد بنوع من هذه الأنواع » [٦] .

ولكن الجهاد على سبيل مقاتلة العدوّ يتعيَّن في ثلاثة مواضع :

١ - إذا التقى الزَّحْفَان وتقابل الصَّفَّان ؛ فإنه يحرم على من حضر الانصراف وتعيّن

---

(١) انظر : فتح الباري : ٦/٢ وإرشاد الساري : ٣١/٥ ، وبدائع الصنائع : ٩٧/٧ .

(٢) انظر : أهمية الجهاد : ١١٧ .

(٣) انظر : زاد المعاد : ١١/٣ .

(٤) انظر : زاد المعاد : ٥/٣ .

(٥) انظر : زاد المعاد : ٧١/٣ .

(٦) زاد المعاد : ٧٢/٣ .

عليه المقام لقوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ * وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾[١] .

٢ - إذا نـزل الكفار ببلد تعيّن على أهله قتالهم ودفعهم ؛ وذلك لعموم قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يلونكم من الكفّار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين ﴾[٢] .

٣ - إذا استنفر الإمام قوماً لزمهم النفير معه لقوله تعالى :﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَالَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ * إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَتَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[٣] ﴾[٤] .

وبعد النظر في معالم المنهج الذي تناول من خلاله القرآن الكريم موضوع الجهاد وجدت أنه قد برز من خلال ثلاثة محاور ، تتلخّص في الآتي : -

الأول : - الحضّ على الجهاد ؛ وقد أُخرج في القرآن الكريم في صور عدّة ؛ منها الأمر الصريح به حثّاً لسائر المؤمنين عليه ؛ كقوله تعالى : ﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لاتُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ... ﴾[٥] فقد أمر النبي عليه الصلاة والسلام بالمقاتلة ، كما أُمر بتحريض المؤمنين عليها . وقال كذلك : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ .. ﴾[٦] .

ومنها الترغيب في المقاتلة في سبيل الله ببيان الجزاء الحسن للمجاهدين وتوكيد الوعود القاطعة بتحقيق ذلك بما لامزيد عليه كما في قوله تعالى :﴿ إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[٧] .

---

(١) الأنفال : ١٥ ، ١٦ .
(٢) التوبة : ١٢٣ .
(٣) التوبة : ٣٨ ، ٣٩ . وانظر : ٦٠ - ٦٦ .
(٤) انظر : المغني لابن قدامة : ١٠/٣٦٥ - ٣٦٦ .
(٥) النساء : ٨٤ .
(٦) الأنفال : ٦٥ .
(٧) التوبة : ١١١ . وانظر : ١٨٢ - ٢٠٠ .

ومنها العرض المشوق على سبيل حفز الهمّة وبعث النفس نحو الجهاد ؛ كقوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

ومنها الإخبار الصادق بما أعدّ الله للذين قتلوا في سبيل الله من الرضا والنعيم والتكريم ، وذلك بذكر أحوال المؤمنين الذين قتلوا في سبيل الله ، ونقل أقوالهم ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَلاَتَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَهُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لاَيُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[2].

ومن صور الحضّ استحضار المؤمنين ، ومناداتهم ، وتوجيه اللوم لهم ، وتوبيخ المُتَثَاقل عن الجهاد منهم ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَالَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ * إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَتَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [3].

ومنها نهي المؤمنين عن الهوان والحزن إذا مسّهم قَرْح أو هزيمة ، وتسليتهم ، وإخبارهم أنهم في المقام الأعلى ، وأن الذي أعلاهم هو إيمانهم ؛ ليزدادوا استمساكاً به ، وليشرعوا في الجهاد عملاً بمقتضاه ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَتَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لاَيُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾[4].

---

(١) الصف : ١٠ - ١٣ .
(٢) آل عمران : ١٦٩ - ١٧١ . وانظر : ٢٠٥ - ٢١٧ .
(٣) التوبة : ٣٨ ، ٣٩ . وانظر : ٦٠ -٦٦ .
(٤) آل عمران : ١٣٩ ، ١٤٠ . وانظر : ١٥٠ - ١٦١ .

الثـاني : - بيان أسـباب النصـر ؛ وذلك من خلال تقرير عدّة معان في نفوس المؤمنين منها :-

١ - أن الإيمان ونُصْرة الدين من أعظم أسباب النصر ؛ وهما وراء اجتلاب العون والتمكين من الله عز وجل ؛ قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾(1) وقال : ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(2).

٢ - لزوم الصبر والتقوى ، والفزع إلى الله بهما ؛ قال تعالى: ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَايَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾(3) وقال أيضاً : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (4).

٣ - إعداد القوّة وحشدها بجميع أجناسها ، وتلبّس المؤمنين بها ، وذلك بقدر الطاقة، وحسب الإمكان ، وعدم الاستهانة بالعدو مهما كان ؛ قال تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّااسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَاتَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ... ﴾ (5).

٤ - التوكل على الله عز وجل والاستعانة به ، وإسناد الأمر إليه - بعد عمل الأسباب - وذلك قبل القتال وفي أثنائه وبعد انجلائه ، قال تعالى : ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ (6). وقال : ﴿ .. وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (7).

---

(١) محمد : ٧ .

(٢) الروم : ٤٧ .

(٣) آل عمران : ١٢٠ . وانظر : ٧٠ - ٧٣ .

(٤) آل عمران : ٢٠٠ . وانظر : ٢٧٥ - ٢٨١ .

(٥) الأنفال : ٦٠ . وانظر : ٣٦٢ - ٣٦٩ .

(٦) آل عمران : ٦٠ .

(٧) الأنفال : ١٠ .

٥ - الشدّة علـى الكفار ، والغلظة عليهم ، وإعمال السيف في رقابهم ؛ قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (١) . وقال : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾(٢) وقال أيضاً : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. ﴾(٣) .

٦ - النظام والانتظام ، ورصّ الصّفوف في أثناء القتال وشدّة التلاحم بين المجاهدين هيئة يحبها الله تعالى في المقاتلين ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾(٤) .

٧ - الثبات عند لقاء العدوّ ، وعدم الفزع أو التزعزع وقت ذلك ، والإكثار من ذكر الله تعالى من أسباب الفلاح الدنيوي والأخروي ، قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(٥) .

٨ - أخذ الحِذْر من العدو ، ودوام اليقظة له ، والاحتراز من غدره وخيانته ، في سائر الأوقات ، وذلك كله يوهن من عزيمتـه ، ويبطل كيـده ، ويعلي ميزان المسلمين عليـه ؛ قال تعـالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعاً ﴾ (٦) .

الثالث :- عرض أسباب الهزيمة ؛ وذلك بإظهار آفات النصر وموانعه ؛ ومنها:-

١ - النزول إلى شهوات النفس وتمكينها منها ، والطمع في الدنيا ، وإيثار حطامها على نعيم الآخرة وثوابها ؛ قال تعالى إجابة عن تساؤل بعض المؤمنين عـن سرّ

---

(١) التوبة : ١٢٣ .
(٢) محمد : ٤ . وانظر : ٣٣٣ ومابعدها .
(٣) الفتح : ٢٩ . وانظر : ٣٠٥ - ٣١٧ .
(٤) الصف : ٤ . وانظر : ٤٦٠ - ٤٦٤ .
(٥) الأنفال : ٤٥ .
(٦) النساء : ٧١ . وانظر : ٥٢ ومابعدها .

هزيمتهم يوم « أحد » : ﴿ أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[١]، وقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾[٢].

٢ - اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين ؛ قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَتَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَيَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَاعَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَاتُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[٣].

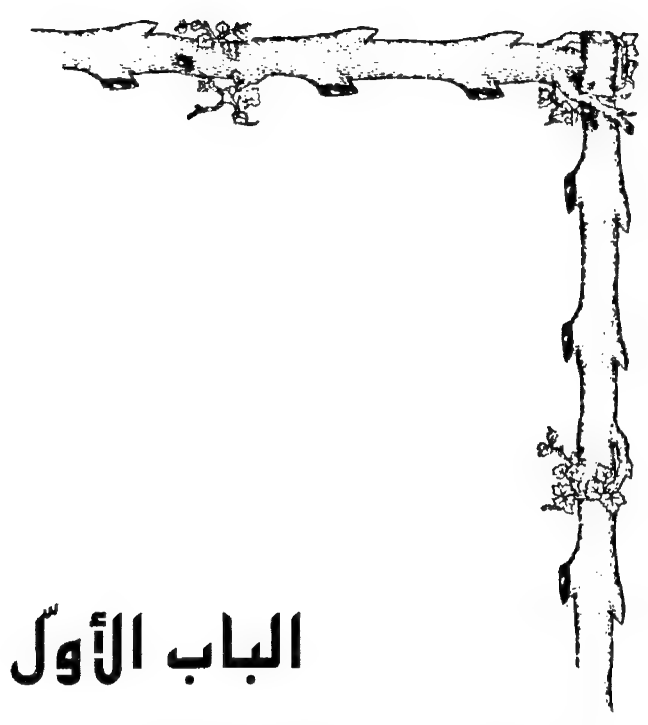
٣ - التولّي يوم الزَّحف ؛ قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ﴾[٤]. ومخالفة النهي تفضي إلى الهزيمة .

٤ - ومن أعظم أسباب الهزيمة ؛ العجب بالنفس ، والاغترار بكثرة العَدَد ، ووفرة العُدَد ، وضعف التوكّل على الله ، والتعويل على غيره ؛ قال تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾[٥].

هذا ولسوف يتعرض هذا البحث لطائفة كبيرة من الآيات الكريمات التي فيها ذكر للجهاد ؛ حضاً عليه ، أو بياناً لأسباب النصر ، أو عرضاً لأسباب الهزيمة ، وذلك من خلال التحليل البلاغي للنظم القرآني الذي وردت من خلاله تلك الآيات ، ومن الله تعالى أستمد العون والتوفيق .

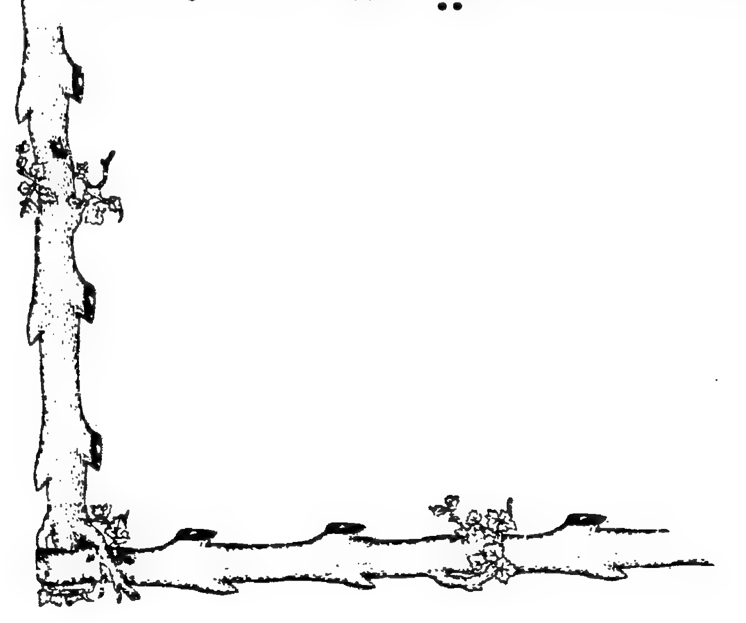
---

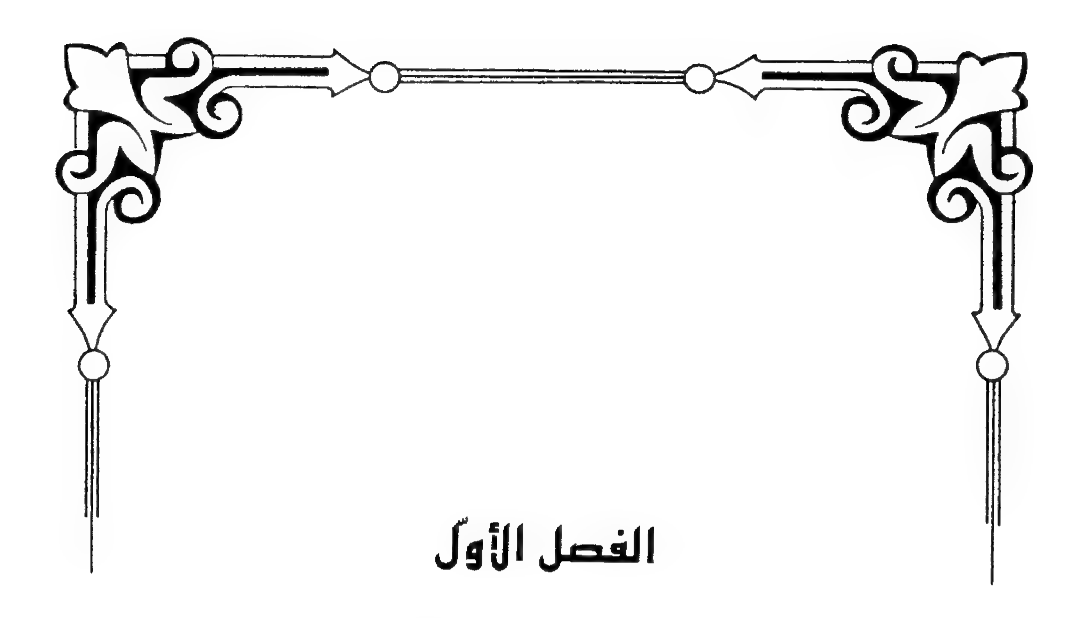
(١) آل عمران : ١٦٥ . وانظر : ٢٦٢ - ٢٦٧ .
(٢) آل عمران : ١٥٢ .
(٣) آل عمران : ١١٨ . وانظر : ٤٠٢ - ٤٠٩ .
(٤) الأنفال : ١٥ .
(٥) التوبة : ٢٥ . وانظر : ٤٢٧ ومابعدها .



الباب الأوّل

خصائص اللفظ في آيات الجهاد

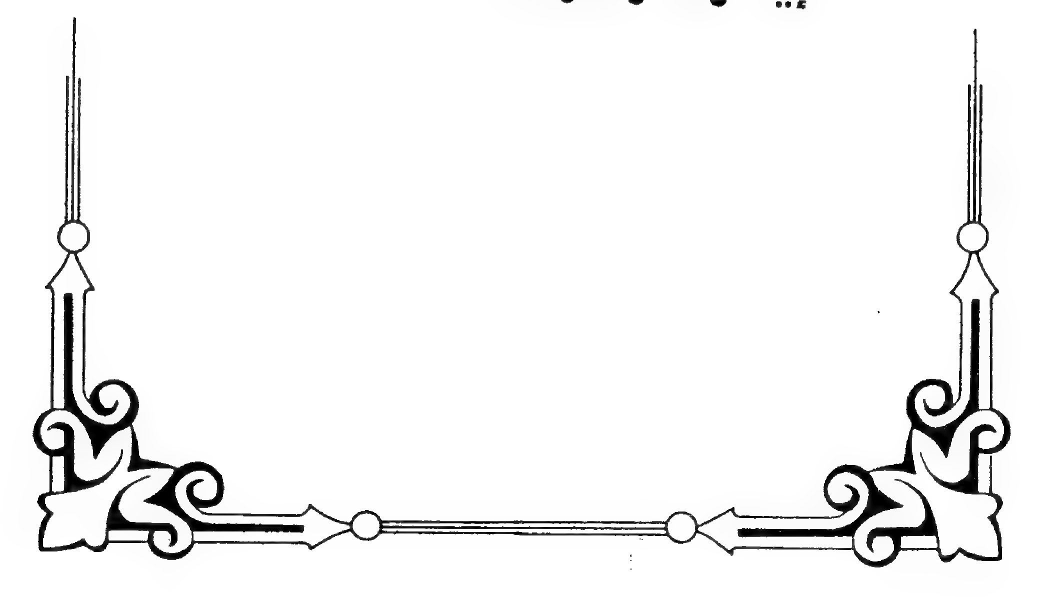




الفصل الأوّل

تميّز اللفظ القرآني

- اصطفاء الكلم .
- صفاء الكلمة .
- جرسها وإيقاعها .
- إيحاؤها وظلالها .



اصطفاء الكلم

توطئـــة :

لقد عني العرب بكلماتهم ، ودقّقوا في اختيار ألفاظهم ؛ وذلك لكونها تحمل المعاني التي في أذهانهم ، وتبرز المقاصد الكامنة في نفوسهم ؛ ولذا أولوها عناية واهتماما .

يقول ابن جني عن عناية العرب بألفاظها : « فأوّل ذلك عنايتها بألفاظها ؛ فإنها لمّا كانت عنوان معانيها ، وطريقاً إلى إظهار أغراضها ومراميها – أصلحوها ورتّبوها ، وبالغوا في تحبيرها وتحسينها ؛ ليكون ذلك أوقع لها في السمع ، وأذهب بها في الدلالة على القصد »[١].

وعناية العرب بالألفاظ نابع من عنايتهم بالمعاني ؛ لأن قوة المعاني تتطلب قوة الألفاظ ، وحسن الأولى يبرزه جمال الثانية ، ولقد فطن إلى هذه الخصيصة في العربية ابن جني فبوّب باباً في « الخصائص » في قوّة اللفظ لقوّة المعنى ، ونعته قائلاً: « هذا فصل في العربية حسن »[٢].

ولما كان الكلم وسيلة التعبير عن دقائق المقاصد جعلوا اختياره ودقة اصطفائه علامة على تميّز عقل صاحبه ، وحملهم ذلك على أن « قالوا : شعر الرجل قطعة من كلامه ، وظنه قطعة من علمه ، واختياره قطعة من عقله »[٣] . وقد قرّر المبرّد [– ٢٨٥هـ] « أن حقّ البلاغة إحاطة القول بالمعنى ، واختيار الكلام ، وحسن النظم ؛ حتى تكون الكلمة مقاربة أختها ، ومعاضدة شكلها ، وأن يقرّب بها البعيد ، ويحذف منها الفضول »[٤].

ولذلك كان العرب إذا تفاضلوا في البيان : فمقياس الجودة والابتذال يكاد ينحصر في شرف المعاني وصحتها ، وجزالة الألفاظ وحسن استقامتها[٥]، ينضم

---

(١) الخصائص : ١/٢١٦ – ٢١٧ .
(٢) الخصائص : ٣/٢٦٧ .
(٣) البيان والتبيين : ١/٧٧ .
(٤) البلاغة للمبرد : ٨١ .
(٥) انظر : الوساطة : ٣٣ .

إلى ذلك وضع الكلمات في مواضعها ، وتمكينها في أماكنها [(١)]، بحيث تكون دالّة على المعاني ناطقة بها ، نائية عن العيوب المخلّة بفصاحتها [(٢)].

ذلك طرف من عناية العرب بألفاظهم ، ومؤشر على تدقيقهم في اختيار كلماتهم، وهم خلق من خلق الله عز وجل ، جعل العربية لسانهم ، ثم أنزل كتابه الكريم على وفق بيانهم ؛ ولذلك : « فألفاظ القرآن هي لبّ كلام العرب وزبدته ، وواسطته وكرائمه ، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحِكَمهم ، وإليها مفزع حذّاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم ، وماعداها وعدا الألفاظ المتفرّعات عنها والمشتقّات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنّوى بالإضافة إلى أطايب الثّمرة ، وكالحُثَالة والتّبْن بالإضافة إلى لبوب الحنطة » [(٣)].

والمراد باصطفاء الكلم هو انتقاء الألفاظ واختيارها ، للتعبير عن المقاصد ، يستوي في ذلك أن يكون هذا اللفظ اسماً أو فعلاً أو حرفاً . ولاتحسبنّ اختيار الكلم أمراً يسيراً ، ولايدرك ذلك إلاّ حذّاق البيان ؛ فإن كل من مارس فنّ القول واشتغل بصناعة الأدب ، ودُفِع إلى مضايقه يدرك صعوبة الاختيار لواحد فقط من بين المفردات المتعددة التي تتقارب معانيها على مابينها من فروق دقيقة تراعى عند الاختيار ، وهذا التوفيق في الاختيار أو الإخفاق فيه يعد أحد الأساليب المهمة التي بها تتفاوت مراتب الكلام ، وليس كل من ضمّ كلمة إلى أخرى وفق قوانين النحو العربي الذي يحكم العلاقة بين الكلمات داخل الجملة ، أو العبارة - صار بليغاً .. ؛ لأن البلاغة مرحلة فوق الصحة اللغوية والنحوية تراعى فيها أشياء كثيرة .. ، منها سلامة الكلمة أولاً من كل ماتعاب به ، ثم يأتي تخيّر الموقع المناسب لها وفق الغرض المسوق له الكلام [(٤)].

---

(١) انظر : الصناعتين : ١٥٢ - ١٥٣ .

(٢) من علماء البيان الذين أفاضوا في فصاحة الكلمة والكلام ابن سنان الخفاجي في كتابه : سرّ الفصاحة . وابن الأثير في : المثل السائر : الجزء الأول والجزء الثاني حتى صفحة ٧٢ والشرّاح في : شروح التلخيص : ١/٦٥-١٥٠ .

(٣) المفردات في غريب القرآن : ٦ .

(٤) انظر : من بدائع النظم القرآني : ٢٣ .

وكل من جعل القرآن الكريم نصب عينيه يجد أنه يتخيّر حروف الكلمة ، وينتقي أصواتها ، صافية الذوق في مخارجها ، لذيذة السماع على الآذان ، طيبة المجرى على اللّسان ، معتدلة في تأليفها ، خفيفة في الفم ، نازلة على أحسن هيئة في الإيقاع، قوية الإيحاء ، وارفة الظلال ، شديدة البعث لما تتضمّنه من المعاني المرادة ، توصل إلى الأهداف المقصودة من الآية الكريمة في تآلف وانسجام مع جاراتها (١).

ولقد نبّه علماء البيان – ومنهم الجاحظ – إلى سنّة الله عز وجل في القرآن من حيث وضع الألفاظ في مواضعها اللائقة بها ، وضرب على ذلك أمثلة ، وبيّن مخالفة الناس لها فقال : « وقد يستخفّ الناس ألفاظاً ويستعملونها ، وغيرها أحقّ بذلك منها ، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب ، أو في موضع الفقر المُدْقِع والعجز الظاهر . والناس لايذكرون السَّغَب ، ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة . وكذلك ذكر المطر ؛ لأنك لاتجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام ، والعامّة وأكثر الخاصة لايفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث ، ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنّه إذا ذكر الأبصار لم يَقُل الأسماع ، وإذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين ، ألا تراه لايجمع الأرض أرَضين ، ولا السمع أسماعا ، والجاري على أفواه العامة غير ذلك ، لايتفقّدون من الألفاظ ماهو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال .. » (٢).

ومن العلماء الذين بحثوا في بلاغة القرآن وأنعموا النظر في أسباب إعجازه أبو سليمان الخطّابي [– ٣٨٨هـ] الذي عدّ من جملة عجز البشر عن الإتيان بمثله دقة ألفاظه وحسن اصطفائها . حيث قال : « وإنما تعذّر على البشر الإتيان بمثله لأمور ؛ منها : أن علمهم لايحيط بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل ، ولاتدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ ، ولاتكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم التي بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض ؛ فيتوصّلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله ، وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط

---

(١) انظر : من أسرار التعبير في القرآن : ٤٣ .
(٢) البيان والتبيين : ١/٢٠ .

لهما ناظم . وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لاترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولاترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه . وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها . والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها . وقد توجد هذه الصفات الثلاث على التفرق في أنواع الكلام ؛ فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه فلم توجد إلا في كلام العليم القدير الذي أحاط بكل شيء علما ، وأحصى كل شيء عددا »[١].

وقد انتهى الخطّابي إلى أن وضع كل نوع من الألفاظ في موضعه الأخصَ به هو صميم عمودالبلاغة ؛ ويسقط هذا العمود باستبدال لفظ مكان آخر ؛ حيث ينبني على ذلك فساد الكلام أو ذهاب رونقه ومائه ، وكلام الله تعالى بمعزل عن هذا كلّه[٢].

لقد طرح عبدالقاهر الجرجاني [-٤٧١هـ] سوآلاً تضمّن الاستفهام عن سرّ عجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن ؛ ثم ساق الجواب عنه ، ومما قال : « .. عمّاذا عجزوا ؟ أعن معان من دقة معانيه وحسنها وصحّتها في العقول ؟ أم عن ألفاظ مثل ألفاظه ؟ فإن قلتم : عن الألفاظ ؛ فماذا أعجزهم من اللفظ ، أم مابهرهم منه ؟ فقلنا : أعجزهم مزايا ظهرت لهم في نظمه ، وخصائص صادفوها في سياق لفظه ، وبدائع راعتهم من مبادئ آية ومقاطعها ، ومجاري ألفاظها ومواقعها ، وفي مَضْرِب كل مثل ، ومساق كل خبر ، وصورة كل عِظَة وتنبيه ، وإعلام وتذكير ، وترغيب وترهيب ، ومع كل حجة وبرهان ، وصفة وتبيان ، وبهرهم أنهم تأمّلوه سورة سورة ، وعُشْراً عُشْرا ، وآية آية ؛ فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها ، ولفظة ينكر شأنُها ، أو يُرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه ، أو أحرى وأخْلق ، بل وجدوا اتساقا بَهَر العقول ، وأعجز الجمهور ، ونظاماً والتئاماً ، وإتقاناً وإحكاماً ، لم يدع في نفس بليغ منهم ، ولو حَكَّ بيافوخه[٣] السماء - مَوْضعَ طمع ، حتى خَرِسَت الألسن عن أن تدعي

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ٢٤ .
(٢) انظر : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ٢٦ .
(٣) اليافوخ : هو ملتقى عظم مقدّم الرأس ومؤخره .

وتقول ، وخَذِيَت القُروم(١) فلم تملك أن تصول »(٢).

وكلام عبدالقاهر المتقدم يفيد أن من جملة أسباب عجز العرب عن الإتيان بنظير القرآن مزايا ظهرت لهم في نظمه وخصائص وقعوا عليها في سياق لفظه .

أما ابن عطية الأندلسي [- ٥٤٦هـ] فقد اجتهد في تعليل عجز البشر عن مناظرة كلام الله تعالى إذ ردّ ذلك إلى واحدة من صفات الكمال والجلال التي اتصف بها الله عز وجل ، وهي الإحاطة بكل شيء فقال : « ووجه إعجازه أنّ الله تعالى قد أحاط بكل شيء علما ، وأحاط بالكلام كله علما ؛ فإذا رتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أيّ لفظة تصلح أن تلي الأولى ، وتبين المعنى بعد المعنى ، ثم كذلك من أوّل القرآن إلى آخره ، والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول ، ومعلوم ضرورة أن بشراً لم يكن قطّ محيطا ؛ فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة ... » .

ثم يضيف قائلاً بعبارة جمعت بين دقة الملاحظة وعمق الدلالة : « والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من المخلوقين ، ويظهر لك قصور البشر في أن الفصيح منهم يصنع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده ، ثم لايزال ينقّحها حولاً كاملا ، ثم تعطى لآخر نظيره فيأخذها بقريحة جامة(٣)؛ فيبدل فيها وينقح ، ثم لاتزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل ؛ كتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد ، ونحن تبين لنا البراعة في أكثره ، ويخفى علينا وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق ، وجودة القريحة وميز الكلام »(٤).

ومن الباحثين المعاصرين من كان له فضل تحقيق في هذا الموضوع ، فناقش هذه القضية وعرضها بلغة عالية ودقة نظر ، ذلك هو الدكتور محمد عبدالله دراز ؛ ومن جملة ماقال : « ترى أهل اللغة الواحدة يؤدون الغرض الواحد على طرائق شتى يتفاوت حظها في الحسن والقبول ، ومامن كلمة من كلامهم ، ولاوضع من أوضاعهم

---

(١) خَذِي : خضع واسترخى . والقروم : جمع قَرْم ، وهو فحل الإبل ، وقد استعار ذلك لفحول الرجال من فصحاء القوم ، مريدا بذلك عجزهم وتقهقر فصاحتهم أمام بلاغة القرآن .

(٢) دلائل الإعجاز : ٣٩ .

(٣) أي : مستريحة .

(٤) المحرَّر الوجيز : ١/٣٨ - ٣٩ .

بخارج عن مواد اللغة وقواعدها في الجملة . ولكنه حسن الاختيار في تلك المواد والأوضاع قد يعلو بالكلام حتى يسترعي سمعك ، ويثلج صدرك ، ويملك قلبك ، وسوء الاختيار في شيء من ذلك قد ينزل به حتى تمجَّه أذنك ، وتَغْثِي منه نفسك ، وينفر منه طبعك . ذلك أن اللغة فيها الخاص والعام ، والمطلق والمقيد ، والمجمل والمبين ، وفيها العبارة والإشارة ، والفحوى والإيماء ، وفيها الخبر والإنشاء ، وفيها الجمل الاسمية والفعلية ، وفيها النفي والإثبات ، وفيها الحقيقة والمجاز ، وفيها الإطناب والإيجاز ، وفيها الذكر والحذف ، وفيها الابتداء والعطف ، وفيها التعريف والتنكير ، وفيها التقديم والتأخير .. وهلمّ جرًا .. ومن كل هذه المسالك ينفذ الناس إلى أغراضهم غير ناكبين بوضع منها عن أوضاع اللغة الجميلة ، بل هم في شعابها يتفرقون ، وعند حدودها يلتقون » .

ثم يضيف قائلاً : « بيد أنه ليس شيء من هذه المسالك بالذي يجمل في كل موطن ، وليس شيء منها بالذي يقبح في كل موطن ، إذاً لهان الأمر على طالبه ، ولأصبحت البلاغة في لسان الناس طعماً واحداً ، وفي سمعهم نَغْمة واحدة . كلاّ ؛ فإن الطريق الواحد قد يبلّغك مأمنك حيناً ، ويقصّر بك عن غايتك حيناً آخر ، وربّ كلمة تراها في موضع ما كالخَرْزَة الضائعة ، ثم تراها بعينها في موضع آخر كالدرّة اللامعة ؛ فالشأن إذاً في اختيار هذا الطريق أيُّها أحق بأن يسلك في غرض غرض ، وأيها أقرب توصيلاً إلى مقصد مقصد » .

وعن حظ القرآن الكريم من ذلك كلّه يقول – وما أجمل ماقال – : « فالجديد في لغة القرآن أنه في كل شأن يتناوله من شؤون القول يتخيّر له أشرف الموادّ ، وأمسّها رحماً بالمعنى المراد ، وأجمعها للشوارد ، وأقبلها للامتزاج ، ويضع كل مثقال ذرّة في موضعها الذي هو أحق بها وهي أحقّ به ؛ بحيث لايجد المعنى في لفظه إلا مرآته الناصعة ، وصورته الكاملة ، ولايجد اللفظ في معناه إلا وطنه الأمين ، وقراره المكين ، لايوماً أو بعض يوم ، بل على أن تذهب العصور وتجيء العصور ، فلا المكان يريد بساكنه بدلاً ، ولا الساكن يبغي عن منزله حوِلا ... وعلى الجملة يجيئك من هذا الأسلوب بما هو المثل الأعلى في صناعة البيان »[(١)].

(١) النبأ العظيم : ٩٠ – ٩٢ .

وجماع الأمر في كلام الله عز وجل هو وصف الله له حيث قال : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[١] فقد نطقت هذه الآية بإحكام آيات هذا القرآن العظيم إحكاماً صادراً من حكيم لايقع الخلل في صنعه ، ثم انضمَّ إلى ذلك الإحكام تفصيلها تفصيل خبير عالم بمواقع الأمور ومايليق بها[٢] .

ولسنا بصدد استقصاء أقوال العلماء في اصطفاء كلم القرآن وتخيّر ألفاظه ، فهذا سبيل يطول طريقه ، وأمر يتشعّب تشقيقه ، والمقام في ذلك ينبغي أن يكون للتطبيق ، وتحليل اللفظ القرآني الكريم لاستشراف خصائصه ، والوقوف على ميزاته، وحسبنا ما أوردناه من أقوال العلماء المتقدمين ، ومن أراد التتبع والاستقصاء فدونه كتب الإعجاز القرآني[٣]، وبعض مقدّمات كتب التفسير[٤] .

ولقد تأمّلت هذا الفصل فوجدت الارتباط بين مباحثه قوياً ، والالتحام في جزئياته شديداً، ولذا فقد آثرت أن يكون بحثه في إطار واحد ؛ وذلك أن اصطفاء الألفاظ أسماء كانت أو أفعالا أو حروفاً يفضي إلى كون هذه الكلمة المصطفاة صافية نقية من حوشي اللفظ أو مستكرهه ، ثم هي عينها ذات جرس وإيقاع يلتئمان مع المعنى المعبَّر عنه ، ويبرزانه ويشكلان جزءاً من مضمونه ، وهي في الوقت ذاته لفظة موحية ذات ظلال وارفة تقود إلى معان كثيرة في ظل المعنى الخاص . وهذه الفكرة هي مقتضى فكرة النظم القرآني ، الذي تتضافر فيه ألفاظه ومعانيه وظلاله وإيحاءاته لترسم المعنى المراد وتدل عليه .

وإذا تقرر معالجة هذا الفصل معالجة كلية للنكتة المتقدمة ؛ فإنني سأقف وقفة يسيرة ، أوضح فيها بقية فقرات هذا الفصل توضيحاً يبين المعنى اللغوي والاصطلاحي إن وجد ، ثم سأصطفي من آيات الجهاد ما أراه معيناً على توضيح القضيَّة الكلّية في هذا الفصل ، وهي : تميّز اللفظ القرآني .

---

(١) هود : ١ .

(٢) انظر : زبدة التفسير : ٢٨٣ . والنبأ العظيم : ١١٢ .

(٣) منها : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للخطابي والرماني والجرجاني ، وإعجاز القرآن للباقلاني ، وإعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي ، والنبأ العظيم للدكتور دراز . ولغة القرآن الكريم للدكتور عبدالجليل عبدالرحيم ، ومن بدائع النظم القرآني للدكتور حجاب ، والإعجاز الفني في القرآن لعمر السلامي .

(٤) وذلك كمقدمة : جامع البيان لابن جرير الطبري ، والمحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي ، والكشاف للزمخشري ، ونظم الدرر للبقاعي ، ومحاسن التأويل للقاسمي ، والتحرير والتنوير لابن عاشور ، وفي ظلال القرآن لسيد قطب . وغيرها .

صفاء الكلمة : -

يقول ابن فارس : « الصاد والفاء والحرف المعتل أصل واحد يدلّ على خلوصٍ من كلّ شَوْب ؛ من ذلك الصفاء ، وهو ضدّ الكَدَر ؛ يقال : صفا يصفو : إذا خَلَص ، يقال : لك صَفْو هذا الأمر وصِفْوته . ومحمد صِفْوة الله تعالى وخِيْرَتُه من خلقه ، ومصطفاه ﷺ »[١].

فالنقاء والخلوص من كل شَوب هما من صفات اللفظ الصافي المتمحّض للمعنى المراد .

ومن خير من رأيته واضعاً يده على معنى « صفاء الكلمة في القرآن » الدكتور دراز ؛ فقد قال : « ... انظر حيث شئت من القرآن الكريم تجد بياناً قد قُدّر على حاجة النفس أحسن تقدير ؛ فلا تحس فيه بتخمة الإسراف ، ولابمخمصة التقتير ، يؤدي لك من كلّ معنى صورة نقية وافية ؛ نقية لايشوبها شيء مما هو غريب عنها . وافية لايشذّ عنها شيء من عناصرها الأصلية ، ولواحقها الكمالية . كل ذلك في أوجز لفظ وأنقاه ، ففي كل جملة منه جهاز من أجهزة المعنى ، وفي كل كلمة منه عضو من أعضائه ، وفي كل حرف منه جزء بقدره ، وفي أوضاع كلماته من جمله ، وأوضاع جمله من آياته سرّ الحياة الذي ينتظم المعنى بأدائه ، وبالجملة ترى - كما يقول الباقلاني - : « محاسن متوالية وبدائع تترا » ... »[٢] .

وعلى ذلك فصفاء الكلمة القرآنية يتلخّص في نقاء لفظها وعذوبته ، ووفاء معناها وتمام المراد منه .

جرسها وإيقاعها :

جاء في معاجم اللغة مايفيد أن الجرس مصدر الصوت المجروس ، أو هو الصوت نفسه وقد يكون خفيفاً وقد يكون عالياً وفق الإيقاع الذي يلي الجرس . ويقال : سمعت جرس الطير ؛ إذا سمعتَ صوت مناقيرها على شيء تأكله[٣].

---

(١) معجم مقاييس اللغة : مادة : صفو .

(٢) النبأ العظيم : ١١١ - ١١٢ . وانظر : صفاء الكلمة : ١٥ - ١٦ .

(٣) انظر : مجمل اللغة ، ولسان العرب : مادة : جرس .

وجرس الحروف صوتها المنبعث من الحبال الصوتية على حسب مخارجها ؛ فقد يكون صفيراً ، وقد يكون همساً ، أو تفخيماً أو ترقيقاً ٠٠٠

وجرس الكلمات هو صوتها ونَغْمة حروفها التي التأمت وقت النطق بها (١)٠

والإيقاع قريب من الجرس ، وكأنما الإيقاع هو أثر الجرس ، أو صداه ٠ ومنه وقع المطر على الأرض أي صوته وشدّة ضربه على الأرض إذا وَبَل ٠ وإذا وقع قوم بقوم قيل : واقعوهم وأوقعوا بهم إيقاعا (٢)٠

وعندما يتكلم الإنسان فإنه ينطق ألفاظاً فتنبعث من فمه إيقاعاتها على أوتار صوته ، وهي تتباين شدة وضعفا وسرعة وبطأ على حسب صفات مخارج حروفها(٣)٠ ولذلك يلحظ التقارب الشديد بين الجرس والإيقاع ؛ فإن الجرس هو فعل الصوت وحركته الأولى ، والإيقاع هو نتيجة لذلك الفعل وأثره المسموع ٠ ولهذا كان علاجهما في فقرة واحدة ٠

وإنني لمع الدكتور فهد الرومي عندما رفض إطلاق « الموسيقى » على الصوت المنبعث من ألفاظ القرآن في أثناء التلاوة ، وهو مايسمى عند بعض الباحثين بـ [النظم الموسيقي](٤) أو [الموسيقى الداخلية](٥) أو [الإيقاع الموسيقي في القرآن](٦) أو [الموسيقى الباطنة](٧) ونحو ذلك (٨)٠

وقد علّل الباحث المتقدم رفضه ذلك لأمرين : -

الأول : أن كلمة [موسيقى] لفظة يونانية ، وفي لغة العرب متسع لصفات القرآن ٠

الثاني : أن الموسيقى عَلَم على اللهو والطرب والخفّة والسَّفه ، ونحن نربأ بكتاب الله عز وجل أن نهبط به إلى ماينهى عنه(٩) ٠ وهذه العلّة هي التي عليها مناط الحكم القاضي بما ذكر ٠

---

(١) انظر : نظرية التصوير الفني عند سيد قطب : ١٠٥ ٠
(٢) انظر : لسان العرب : مادة : وقع ٠
(٣) انظر : نظرية التصوير الفني عند سيد قطب : ١٠٦ ٠
(٤) علوم القرآن لعدنان زرزور : ٢٤٣ ٠
(٥) مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح : ٣٣٤ ٠
(٦) الإعجاز الفني في القرآن لعمر السلامي : ٢١٥ ، والتعبير الفني في القرآن لبكري شيخ أمين : ١٨٦ ٠
(٧) محاولة لفهم عصري لمصطفى محمود : ١٢ ٠
(٨) انظر : خصائص القرآن الكريم : ٢٦ ٠
(٩) انظر : خصائص القرآن الكريم : ٢٦ ٠

ومن خير من طرق هذا الباب الدكتور محمد درّاز ؛ فكان مما قال : « ٠٠ أوّل مايلاقيك ويستدعي انتباهك من أسلوب القرآن الكريم خاصية تأليفه الصوتي في شكله وجوهره » ٠

« دع القارئ المجوّد يقرأ القرآن يرتّله حق ترتيله نازلاً بنفسه على هوى القرآن ، وليس نازلاً بالقرآن على هوى نفسه ، ثم انتبذْ منه مكاناً قصياً لاتسمع فيه جرس حروفه ، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها ، ومدّاتها وغنّاتها ، واتصالاتها وسكتاتها ، ثم ألـق سمعـك إلى هذه المجموعة الصوتية وقد جُرّدت تجريداً وأُرْسلت ساذجة في الهواء ؛ فستجد نفسك منها بإزاء لحن غريب عجيب لاتجده في كلام آخر لو جُرّد هذا التجريد ، وجُوّد هذا التجويد »[١].

ويقترب الباحث من وصف جرس القرآن ووقعه أكثر فأكثر ؛ فيقول : « فإذا ما اقتربتَ بأذنك قليلاً قليلاً ؛ فطرقت سمعك جواهر حروفه خارجة من مخارجها الصحيحة – فاجأتك منه لذّة أخرى في نظم تلك الحروف ورصفها وترتيب أوضاعها فيما بينها ؛ هذا ينقر وذاك يصفر ، وثالث يَهْمِس ورابع يجهر ، وآخر ينزلق عليه النَّفَس ، وآخر يحتبس عنده النَّفَس ، وهلمّ جراً ٠ فترى الجمال اللغوي ماثلاً أمامك في مجموعة مختلفة مؤتلفة لا كركرة ولاثرثرة ، ولارخاوة ولامعاظلة ، ولاتناكر ولاتنافر ٠ وهكذا ترى كلاماً ليس بالحضري الفاتر ، ولا بالبدويّ الخشن ، بل تراه وقد امتزجت فيه جزالة البادية وفخامتها برقّة الحاضرة وسلاستها ، وقدر فيه الأمران تقديراً لايبغي بعضهما على بعض ؛ فإذا مزيج منهما كأنما هو عصارة اللغتين وسلالتهما، أو كأنما هو نقطة الاتصال بين القبائل ، عندها تلتقي أذواقهم ، وعليها تأتلف قلوبهم ٠ من هذه الخصوصية والتي قبلها تتألف القشرة السطحية للجمال القوآني ٠٠٠ »[٢] .

ولقد دقّق مصطفى صادق الرافعي في حروف القرآن ، وأطال التأمل في جرسها ، وحلّل أصواتها ، وعدّ تآلفها وتناسقها نمطاً من أنماط الإعجاز القرآني ؛ ومما قال « فتألفت كلماته من حروف لو سقط واحد منها أو أُبدل به غيره أو أقحم معه

---

(١) النبأ العظيم : ١٠١ – ١٠٢ ٠

(٢) النبأ العظيم : ١٠٣ – ١٠٤ ٠

حرف آخر لكان ذلك خللاً بيّناً ، أو ضعفاً ظاهراً في نسق الوزن وجرس النغمة ، وفي حسنّ السمع وذوق اللسان ، وفي انسجام العبارة وبراعة المخرج ، وتساند الحروف وإفضاء بعضها إلى بعض ، ولرأيت لذلك هُجنة في السمع كالذي تنكره من كل مرئي لم تقع أجزاؤه على ترتيبها ، ولم تتفق على طبقاتها ، وخرج بعضها طولاً وبعضها عرضاً ، وذهب مابقي منها إلى جهات متناكرة »(١)٠

إيحاؤها وظلالها :

الإيحاء من الفعل المعتل : وحي وهو « أصل يدل على إلقاء علم في إخفاء أو غيره إلى غيرك ، فالوحي : الإشارة ٠ والوحي : الكتاب والرسالة ٠ وكل ما ألقيته إلى غيرك حتى علمه فهو وحي كيف كان »(٢) ٠

وقد عدّ ابن رشيق القيرواني الوحي أول أنواع الإشارة ، وقد عرفها بقوله : « وهي في كل نوع من الكلام لمحة دالّة ، واختصار وتلويح يعرف مجملاً ، ومعناه بعيد من ظاهر لفظه »(٣)٠ وبذلك يعلم أن إيحاء الكلمة يطلق على المعاني التي يشير إليها مدلول لفظها إشارة لمحة وإجمال ٠

والإيحاء في كتاب الله عز وجل صفة ملازمة لألفاظه ، تنهض من خلالها معالم الصور التي تعرضها الآية ، وتدع المخيلة متحركة سابحة في أبعاد المعاني التي تعمر بها الألفاظ ٠ وقارىء القرآن الكريم يستطيع – بحكم ماتملكه لفظة القرآن من قوة الإيحاء – أن يغوص في المعنى ويقع على كنوزه ، ويحصل على أسرار لطيفة ، ودقائق عجيبة من خلال الإيحاء اللفظي في القرآن العظيم(٤)٠

وأما الظلال فهو جمع ظِلّ ، وأصل هذا اللفظ يدل على ستر شيء لشيء ، يقال: ظلّ ظليل ؛ أي دائم ٠ وأظلّك فلان كأنه وقاك بظِلّه وهو عزّه ومنعته ، وأظلّنا يوم : دام ظِلّه(٥).

---

(١) تاريخ آداب العرب : ٢/٢١٧ ٠

(٢) معجم مقاييس اللغة : مادة : وحى ٠

(٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : ٢ ٠ ٣٠٢ ٠

(٤) انظر: الإعجاز الفني في القرآن : ٩٨ – ٩٩ ٠

(٥) انظر : معجم مقاييس اللغة : مادة : ظل ٠

وممن أنعم نظره في آي القرآن ، وأمعن فكره في ظلالها سيد قطب ، حتى سمى مؤلفه عن القرآن الكريم " في ظلال القرآن " فكان علَماً عليه . وقد تكلم على ظلال الألفاظ في : التصوير الفني في القرآن " ، ومن ذلك قوله :" وهناك نوع من الألفاظ يرسم صورة الموضوع ولكن لابجرسه الذي يلقيه في الأذن ، بل بظله الذي يلقيه في الخيال ، وللألفاظ كما للعبرات ظلال خاصة يلحظها الحسّ البصير ، حينما يوجهّ إليها انتباهه ، وحينما يستدعي صورة مدلولها الحسية "(١).

وتقوم ظلال الألفاظ مقام التعبيرات في التصوير وتوضيح المعنويات ؛ فترتسم صورة فنية شاخصة ، لها خصائص التصوير ، ولكن ليست بالألفاظ وإنما بالظلال الموحية ، وهي صورة أخرى من صور الإعجاز القرآني الرفيع ؛ إذ يتم التصوير بالظلّ الموحي المنبعث من اللّفظ المعبر ، والتصوير بالظل من أبلغ ألوان التصوير(٢).

ومن الكلام المتقدم يتبين مقدار مابين الإيحاء والظلال من صلة وارتباط ؛ فكأنّ إيحاء الكلمة إشارة إلى ظلال معناها . وظلالها هو الجو المعنوي الذي يوحى به لفظها . وهذا التداخل بينهما حملني على ضمهما في فقرة واحدة ، مثلهما في ذلك مثل الجرس والإيقاع .

ولعل الشواهد الآتية توضح ماسبق تنظيره ، وفيها يتوافر في اللفظ القرآني الذي يحمل المعنى الجهادي صفاء اللفظ واصطفاؤه ، وحسن جرسه وجمال إيقاعه ، وإيحاؤه القوي وظلاله الوارف . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾(٣).

هذه الآية وردت في سياق الأمر بقتال الذين يقاتلون المسلمون وردّ عادية المعتدين بمثل فعلهم جزاء وفاقاً ، وعلى ذلك فالأظهر في الواو أن تكون عاطفة ، عطفت فعل أمر على مثله (٤)، والمعطوف عليه هو قوله تعالى : ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾ (٥). وعلى ذلك فإنّ

---

(١) التصوير الفني في القرآن : ٩٥ .

(٢) انظر : نظرية التصوير الفني عند سيد قطب : ٢٩٦ . وانظر : مشاهد القيامة في القرآن : ٤٧ . ط دار الشروق .

(٣) البقرة : ١٩٥ .

(٤) انظر : التحرير والتنوير : ٢/٢١٢ .

(٥) البقرة : ١٩٠ . وانظر التحليل البلاغي لهذه الآية في صفحات هذه الرسالة : ٥٢٨ – ٥٣٢ .

ماتضمنته جملة المعطوف هو من متممات الأمر الوارد في المعطوف عليه ؛ فبينهما من الصلة والارتباط المعنوي والعملي ماهو ظاهر بالتدبّر .

وقد نص غير واحد من المفسرين على وجه الربط بين هذه الآية وسابقاتها ، وكانت عبارة النيسابوري أقرب وأبلغ ، فقد قال : " قوله عزّ من قائل [وأنفقوا ..] وجه اتصاله بما قبله أنه تعالى لمّا أمر بالقتال وأنّهُ يفتقر إلى العَدَد والعُدَد قد يكون ذو المال عاجزاً عن القتال ، وقد يكون القوي على القتال عديم المال ؛ فلهذا أمر الله الأغنياء بالإنفاق في سبيله إعداداً للرجال ، وتجهيزاً للأبطال »(١) .

والعبارة السابقة تفيد أن الأمر بالإنفاق معني بالأغنياء فحسب ؛ وليس هذا دقيقاً؛ فإن فعل الأمر الوارد في الآية مطلق ، ولم يقيد بفئة دون أخرى ، ولهذا فإن الأولى هو إطلاقه وتعميمه ، فيتناول جميع المسلمين ، الغني منهم وسواه كُلٌّ بحسب وُجدهَ، وإن كان الأمر يتوجه إلى أغنياء المسلمين قبل غيرهم . ويعزّز هذا التعميم في أمر الإنفاق ماروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : " إن لم يكن لك إلاّ سهم أو مشقص أنفقته "(٢) .

وبذلك يعلم أيضاً أن لفظ الإنفاق ليس مقصوراً على المال فقط ، بل ويشمل كلّ مُعدَّات الجهاد وآلاته ، كما هو ظاهر من قول ابن عباس المتقدم . بل ذهب بعض المفسرين إلى القول بأن الإنفاق المذكور يراد به إنفاق الأنفس جهاداً في سبيل الله (٣) . فتأمل كيف اتسع معنى هذا اللفظ القرآني لما ذكر .

ولكن ماوجه الحاجة إلى أسلوب الأمر بالنفقة في سبيل الله ، مع أن المقام مقام حرب ، والاستعداد لها مركوز في طباع البَشر ؟ .

لقد أجاب ابن عاشور عن ذلك قائلاً : " ووجه الحاجة إلى هذ الأمر – مع أن الاستعداد للحرب مركوز في الطباع – تنبيه المسلمين ؛ فإنهم قد يُقَصّرون في الإتيان على منتهى الاستعداد لعدو قوي ؛ لأنهم قد ملئت قلوبهم إيماناً بالله وثقة به ، وملئت

---

(١) غرائب القرآن : ١٤٥/٢ . وانظر : التفسير الكبير : ١٣٥/٥ والتحرير : ٢١٢/٢ .

(٢) جامع البيان : ٢٠٠/٢ .

(٣) انظر : روح البيان : ٣٠٩/١ .

أسماعهم بوعد الله إيّاهم النصر ، وأخيراً بقوله ﴿ **واعلَمُوا أنَّ اللَّهَ مَعَ المُتَّقِينَ** ﴾ [١]، نبهوا على أن تعهد الله لهم بالتأييد والنصر لايسقط عنهم أخذ العُدَّة المعروفة ؛ فلا يحسبوا أنهم غير مأمورين ببذل الوسع لوسائل النصر التي هي أسباب ناط الله تعالى بها مسبباتها على حسب الحكمة التي اقتضاها النظام الذي سَنَّه الله في الأسباب ومسبباتها ؛ فتطلب المسببات دون أسبابها غلط وسوء أدب مع خالق الأسباب ومسبباتها كي لايكونوا كالذين قالوا لموسى : ﴿ **فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ** ﴾ [٢]، فالمسلمون إذا بذلوا وسعهم ، ولم يفرطوا في شئ ثم ارتبكوا في أمر بعد ذلك فالله ناصرهم ، ومؤيدهم فيما لاقبل لهم بتحصيله "[٣].

وقوله [في سبيل الله] فيه لطائف :

١ - أن [في] في أصل الوضع اللغوي تفيد : الوعاء والظرفية [٤]، يقول الرماني : « في : وهي من الحروف العوامل ، وعملها الجر ، ومعناها : الوعاء ، تقول من ذلك : المال في الكيس ، واللص في السجن . أي : اشتمل الكيس على المال ، والسجن على اللّص . وقد يتسع فيها فيجري مجرى المثل ، وذلك نحو قولك : فلان ينظر في العلم ؛ كأن العلم قد اشتمل عليه " [٥].

وبناء على ماتقدم يكون المعنى في التعبير الكريم أنه ينبغي أن يكون سبيل الله تعالى مشتملاً على ماتنفقون يَضُمُّه ويظرفه ، بحيث يتمحض المُنْفَق لله عز وجل ، لايخالطه شئ من غير جنسه ، من رياء أو سمعة أو منَّة ، أو تعلّق نفس ، أو أذى ؛ فإن ذلك وماشاكله يكدّر الظّرف ، وقد يغيّر الوعاء بالكلية ، فلا يكون في سبيل الله تعالى ، وإنما هو في سبيل غيره كالذي ذكر طرف منه آنفاً ، فيكون حرياً بالردّ والبطلان . كما قال تعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَتُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ .. الآية** ﴾[٦].

---

(١) التوبة : ١٢٣ .
(٢) المائدة : ٢٤ .
(٣) التحرير : ٢/٢١٢ .
(٤) انظر : حروف المعاني للزجاجي : ١٢ . وانظر : رصف المباني في شرح حروف المعاني للمالقي : ٤٥٠ - ٤٥٤ .
(٥) معاني الحروف : ٩٦ .
(٦) البقرة : ٢٦٤ .

وبذلك يعلم أن شرط الإخلاص قد حققه حرف الجرّ [في] ونهض به ، وهـذا من دقة الاصطفاء القرآني في مجال حروف المعاني ، فقد أفاد هذا الحرف شرطاً مهماً لقبول النفقات وسائر الأعمال ، وهو أن تكون خالصة لله جلّ وعزّ وذلك بمقتضى المدلول الظرفي للحرف [في] ٠

٢ – السبيل في الأصل هو الطريق الممتد طولاً ، وسمي الطريق سبيلاً ؛ لامتداده[1]، ولكونه يفضي بسالكه إلى الغاية ، ويوقفه على النهاية ، وذلك بحسب مايضاف إليه فسبيل مكة – مثلاً – يفضي إلى مكة ٠ وسبيل الله تعالى يُفْضيإلى مرضاة الله وجناته ، وينقذ سالكه من النيران وسائر صنوف الهوان ٠

٣ – إضافة السبيل إلى الله أكسبت المضاف تعريفاً وتخصيصاً وتحديداً وتقييداً ، يقول الفخر : " واعلم أن الإنفاق هو صرف المال إلى وجوه المصالح ؛ فلذلك لايقال في المضيع : إنه منفق٠ فإذا قيد الإنفاق بذكر سبيل الله فالمراد به طريق الدين ؛ لأن السبيل هو الطريق ٠ وسبيل الله هو دينه ؛ فكلّ ما أمر الله به في دينه من الإنفاق فهو داخل في الآية "[2]٠

ويقول الشيخ عبدالرحمن السعدي : " يأمر الله عباده بالنفقة في سبيله وهو إخراج الأموال في الطرق الموصلة إلى الله ، وهي كل طرق الخير من صدقة على مسكين أو قريب أو إنفاق على من تجب مؤنته ٠ وأعظم ذلك وأول مادخل في ذلك الإنفاق في سبيل الله فإن النفقة فيه جهاد بالمال وهو فرض كالجهاد بالبدن ، وفيها من المصالح العظيمة الإعانة على تقوية المسلمين وتوهين الشرك وأهله ، وعلى إقامة دين الله وإعزازه ؛ فالجهاد في سبيل الله لايقوم إلاّ على ساق النفقة ؛ فالنفقة له كالروح لايمكن وجوده بدونها ٠ وفي ترك الإنفاق في سبيل الله إبطال للجهاد وتسليط للأعداء وشدة تكالبهم "[3]٠

وقد غلب هذا التركيب [سبيل الله] على الجهاد ؛ فصار علماً عليه في عرف التعبير القرآني الكريم ، وفي سائر التعبيرات التي تأخذ عنه أو تقتدي به ؛ يقول

(١) انظر : معجم مقاييس اللغة : مادة : سبل ٠
(٢) التفسير الكبير : ١٣٥/٥ ٠
(٣) تفسير كلام المنان : ٢٣٦/١ ٠

ابن الجوزي : " وإنما استعملت هذه الكلمة في الجهاد ؛ لأنه السبيل الذي يقاتل فيه على عقدة الدين "[١] .

ولكن ما الحكمة من اصطفاء هذا التعبير [سبيل الله] بعد الأمر بالإنفاق ؛ ولم يقل في غير القرآن مثلاً : وأنفقوا في سبيل الجهاد ؟.

لقد ذكر الرازي وجهين تعليلاً لذلك ؛ قائلاً :

الأول : أن هذا كالتنبيه على العلة في وجوب هذا الإنفاق ، وذلك لأن المال مال الله فيجب إنفاقه في سبيل الله ، ولأن المؤمن إذا سمع ذكر الله اهتز ونشط فيسهل عليه إنفاق المال .

الثاني : أن هذه الآية إنما نزلت وقت ذهاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة لقضاء العمرة . وكانت تلك العمرة لابد من أن تُفْضي إلى القتال إن منعهم المشركون ؛ فكانت عمرة وجهاداً ، واجتمع فيه المعنيان ؛ فلما كان الأمر كذلك لاجرم قال تعالى [وأنفقوا في سبيل الله] ولم يقل : وأنفقوا في الجهاد والعمرة "[٢] .

فحصَّل ذلك التعبير عموم مايوصل إلى الله ، وأعظمه الجهاد في سبيله ؛ لأنه ينبني عليه إعلاء الدين وإنفاذ فرائضه وأحكامه ، وإعزاز جانب المسلمين وكسر شوكة الكافرين .

قوله [ولاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة] فيه لطائف :-

١ - موقع هذه الجملة مما قبلها معطوفة عليها ، عطف غرض على غرض تتميماً للغرض الأول وتحصيلاً لمقاصده ؛ فقد عُقِّب الأمر بالإنفاق في سبيل الله بالنهي عن الأعمال التي لها عواقب ضارة إبلاغاً للنصيحة والإرشاد ، وذلك حتى لايندفع بهم يقينهم بتأييد الله إيَّاهم إلى التفريط في وسائل الحذر من غَلَبة العدو ، لاسيما في أوائل الأمر بالجهاد؛ فالنهي عن الإلقاء بالنفوس إلى التهلكة يجمع معنى الأمر بالإنفاق وغيره من تصاريف الحرب وحفظ النفوس ، ومصاريف الأموال ؛ ولذلك فالجملة فيها معنى التذييل ، وإنما عطفت ولم تفصل

(١) زاد المسير : ٢٠٣/١ .
(٢) التفسير الكبير : ١٣٦/٥ .

نظراً لكونها غرضاً آخر من أغراض الإرشاد [١]، وإن كان متمماً للأول إلاّ أنه لأهميته وعظم أجره كأنما استقل عنه اعتناء به ، ووجه ذلك الإشارة إلى علة مشروعية الإنفاق وإلى سبب الأمر به ، فإنَّ ترك الإنفاق في سبيل الله والخروج بدون عدة إلقاء باليد للهلاك ، وذلك كمن يسعى إلى الهيجاء بغير سلاح ولاعتاد ، فلذلك وجب الإنفاق والاستعداد ، ولأن اعتقاد كفاية الإيمان بالله ونصر دينه في هزم الأعداء مع التجرد من الشوكة اعتقاد غير صحيح ؛ لأنه كالذي يلقي بنفسه للهلاك ، ويقول : سينجيني الله تعالى ؛ فهذا النهي الواقع بعد ذلك الأمر أفاد المعنيين جميعاً ، وهذا من أبدع الإيجاز [٢] .

٢ – أصل الإلقاء في اللغة طرح الشئ ورميه باليد [٣]، وهو يتعدى إلى مفعول واحد بنفسه [٤]، وإلى المرمي إليه بإلي ، وإلى المرميّ فيه بفي [٥]، وعلى ذلك فإن مفعول فعل الإلقاء هو [بأيديكم] ، ولكن مافائدة دخول حرف الجر عليه مادام الفعل [ألقى] يتعدى بنفسه ؟ .

إن فائدة دخول الباء هنا هي توكيد اتصال الفعل بالمفعول [٦]، كما يقال : ألقي بيده في كذا أو إلى كذا ، إذا استسلم ؛ لأن المستسلم في القتال يُلقي سلاحه بيديه ، وكذا كل عاجز في أيّ فعل كان ، ومنه قول عبدالمطلب : " والله إن إلقاءنا بأيدينا إلى الموت لعجز [٧] .

ويبدو ملمح آخر في مدلول الجمع وهو الأيدي المضافة إلى ضمير المخاطبين وهو النهي عن أن يكونوا جميعاً على هذه الصفّة ، بمعنى لاتكن

---

(١) انظر : التحرير : ٢/٢١٣ .

(٢) انظر : التحرير : ٢/٢١٤ .

(٣) انظر : مختار الصحاح : مادة : لقى .

(٤) انظر : البحر : ٢/٧١ .

(٥) انظر : التحرير : ٢/٢١٣ .

(٦) انظر : التحرير : ٢/٢١٣ .

(٧) انظر : البحر : ٢/٧١ . ولابن جني كلام حسن في فائدة زيادة الحروف في الكلام ؛ فقد قال : وأما زيادتها فلإرادة التوكيد بها ، وذلك أنه قد سبق أن الغرض في استعمالها إنما هو الإيجاز والاختصار ، والاكتفاء من الأفعال وفاعليها ؛ فإذا زيدت ماهذه سبيله فهو تناه في التوكيد به ، وذلك كابتذالك في ضيافة ضيفك أعزّ ماتقدر عليه ، وتصونه من أسبابك فذاك غاية إكرامك له وتناهيك في الحَفْل به " . الخصائص : ٢/٢٨٦ .

أيديكم مجتمعة على ترك النفقة والجهاد في سبيل الله ؛ فيكون مصيركم إلى الهلاك . بخلاف ما إذا أنفق قوم وجاهد آخرون ، وثمّر الأموال طائفة أخرى ، فالمحذور هو إجماعهم على ترك أسباب الجهاد ومباشرته .

وقيل إن المعنى لاتلقوا أنفسكم بأيديكم إلى التهلكة ؛ فيكون المفعول محذوفاً ، والباء سببية ، كما يقال : أهلك فلان نفسه بيده ؛ إذا تسبب في هلاكها (١) .

واختار أبو حيان أن المفعول في المعنى هو [بأيديكم] لكن ضمُنَّ " ألقى " معنى مايتعدى بالباء فعداه بها ؛ كأنه قيل : ولاتفضوا بأيديكم إلى التهلكة ؛ ويكون حينئذ التعبير عن الأنفس بالأيدي ؛ لأن بها الحركة والبطش والامتناع والعطاء ونحوه .(٢)

ومهما يكن فإن جرس العبارة وإيقاعها يصورّ أمراً خطيراً حُذّر منه المخاطبون ، فقد صُوِّر لهم الأمر أن أمامهم مهلكة يوشك أن تبتلعهم ، وهلاكهم وعدمه بأيديهم ، فهم إن تركوا سبيل الجهاد وقعوا جميعاً في أمر لايُعرف مصيره ولاتُدرى خاتمته ، وهو التهلكه في الدنيا في ذل العدو ومهانته ، كما أن مصيرهم في الآخرة مجهول بحسب تقصيرهم ، وعلى قدر تفريطهم في جنب الله ، ما لم يتداركهم الله بعفوه ورحمته ، ولهذا فإن ظلال العبارة وإيحاءها مستفاد من جرسها وإيقاعها ، ناطق بجوّ التحذير الرباني الكريم ، الذي يُخشى أن يصير إليه المسلمون إذا تركوا الجهاد وركنوا إلى الدنيا أجمعين .

وقد ساعدت بعض حروف كلمة [تلقوا] على تصوير الموقف وتحديد معالمه ، فالقاف من حروف الاستعلاء ، تخرج من أوّل مخارج الفم من جهة الحلق من أقصى اللسان ، وهي مجهورة شديدة مقلقلة مفخمة (٣) ، وهذا الحرف المستعلي المفخّم ألقى بظلاله على الكلمة كلها ، فهو يصور جسماً يقذف من علٍ إلى قعر مهلك ؛ فكأن تلك الأيدي قد جُمعت ثم قذفت وطرحت في هاوية

---

(١) انظر : غرائب القرآن : ٢/١٤٦ .

(٢) انظر : البحر : ٢/٧١ .

(٣) انظر : التمهيد في علم التجويد : ١٠٠ ، ١٤٨ - ١٤٩ .

مهلكة ، والأنكى من ذلك والأشدّ أن الذي فعل ذلك وتولى كبره هم أصحابها جهلاً بهذا المصير المهلك .

٣ - وهذه التهلكة التي حذر المؤمنون من الوقوع فيها اختلف العلماء في تفسيرها ، واختلافهم فيها دليل على ثراء هذه اللفظة وغناء معناها ؛ لأنه مامن معنى ذكروه لها إلا وهي تحتمله ؛ فكأن المعاني المذكورة واردة ومحتملة بحسب أحوال المسلمين التي يتقلبون فيها، وسوف أذكر أكثر الأقوال التي وردت في تفسير التهلكة ليعلم مقدار الثراء والغناء الذي حملته هذه اللفظة الكريمة ، وقد لخّص أبو حيان جملة الأقوال الواردة في تفسير التهلكة على النحو الآتي :

أحدها : ترك الجهاد والإخلاد إلى الراحة وإصلاح الأموال قاله أبو أيوب الأنصاري .

الثاني : ترك النفقة في سبيل الله خوف العيلة، قاله حذيفة وابن عباس والحسن وعطاء وعكرمة وابن جبير .

الثالث : التقحم في العدو بلا نكاية قاله أبو القاسم البلخي .

الرابع : الإسراف بإنفاق كل المال ، قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا** ﴾[1]، ﴿ **وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا** ﴾[2]، قاله أبو علي .

السادس : الانهماك في المعاص ليأسه من قبول توبته ، قاله البراء وعبيدة السلماني .

السابع : القنوط من التوبة . قاله : قوم .

الثامن : السفر للجهاد بغير زاد ، قاله : زيد بن أسلم ، وقد كان فعل ذلك قوم فأداهم إلى الانقطاع في الطريق ، أو إلى كونهم عالة على الناس .

---

(١) الفرقان : ٦٧ .

(٢) الإسراء : ٢٩ .

التاسع : إحباط الثواب ؛ إما بالمن أو الرياء والسمعة ؛ كقوله تعالى : ﴿ ولاتبطلوا أعمالكم .. ﴾ (١).

ثم قال أبو حيان بعد ذلك : " وهذه الأقوال تحتمل هذه الآية ، والظاهر أنهم نهوا عن كل مايؤول بهم إلى الهلاك في غير طاعة الله تعالى ؛ فإن الجهاد في سبيل الله مفض إلى الهلاك وهو القتل ، ولم ينه عنه بل هو أمر مطلوب موعود عليه بالجنة ، وهو من أفضل الأعمال المتقرب بها إلى الله تعالى ، وقد ودّ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أن يقتل في سبيل الله ثم يحيى فيقاتل فيقتل أو كما جاء في الحديث "(٢).

وممن عمم تلك المعاني المتقدمة ابن جرير الطبري غير أنه رجح كونها في ترك النفقة في سبيل الله وفق سياق الآية (٣).

وأما الشيخ عبدالرحمن السعدي فقد عمم في عبارة ذات مدلول أصولي قائلاً : « والإلقاء باليد إلى التهلكة يرجع إلى أمرين : لترك ما أمر به العبد إذا كان تركه موجباً أو مقارباً لهلاك البدن أو الروح . وفعل ماهو سبب موصل إلى تلف النفس أو الروح ، فيدخل تحت ذلك أمور كثيرة ؛ فمن ذلك ترك الجهاد في سبيل الله ، أو النفقة فيه الموجب لتسلط الأعداء ، ومن ذلك تغرير الإنسان بنفسه في مقاتلة ، أو سفر مخوف ، أو محل مسبعة أو حيات ، أو يصعد شجراً ، أو بنياناً خطراً ، أو يدخل تحت شئ فيه خطر ونحو ذلك . فهذا ونحوه ممن ألقى بيده إلى التهلكة ، ومن ذلك الإقامة على معاصي الله واليأس من التوبة ، ومنها ترك ما أمر الله به من الفرائض التي في تركها هلاك للروح والدين » (٤).

فتأمل حكمة الله عز وجل في اصطفاء لفظ [التهلكة] التي اندرج فيها تلك المعاني المتقدمة ، بل استنبط منها بعض العلماء أحكاماً عامة ؛ فمنها : أن الآية تدل على جواز الهزيمة في الجهاد إذا خاف على النفس . وتدل على جواز ترك الأمر

---

(١) محمد : ٣٣ .
وانظر تلك الأقوال المتقدمة في البحر : ٢/٧٠ . وقد أورد ابن جرير الطبري كثيراً منها مسنداً فانظر: جامع البيان : ٢/٢٠٠-٢٠٥ .

(٢) البحر : ٢/٧٠ - ٧١ .

(٣) انظر : جامع البيان : ٢/٢٠٥ .

(٤) تفسير كلام المنان : ١/٢٣٦ - ٢٣٧ .

بالمعروف إذا خاف ؛ لأن كل ذلك إلقاء النفس إلى التهلكة . وتدل على جواز مصالحة الكفار والبغاة إذا خاف الإمام على نفسه أو على المسلمين ، كما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية ، وكما فعله أمير المؤمنين علي رضي الله عنه بصفين ، وكما فعله الحسن رضي الله عنه من مصالحة معاوية رضي الله عنه ، وتدل أيضاً على جواز مصالحة الإمام بشيء من أموال الناس إذا خشي التهلكة ، ويؤيده أنه صلى الله عليه وسلم أراد أن يصالح يوم الأحزاب بثلث ثمار المدينة حتى شاور سعد بن معاذ وسعد بن عبادة رضي الله عنهما ؛ فأشارا بترك ذلك ، وهو لايعزم إلاّ على مايجوز (١).

ومع أن ماتقدم تتحملّه الآية على تفاوت في درجات قرب مدلول الآية منها إلاّ أن أشهر ماورد مما هو مفسّر للآية حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه ، وقد رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبّان في صحيحه ، والحاكم في مستدركه وغيرهم (٢).

ولفظ الترمذي :« عن أسلم بن أبي عمران التُّجِيبيّ قال : كنا بمدينة الروم : فأخرجوا إلينا صفاً عظيماً من الروم ؛ فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر وعلى أهل مصر عقبة بن عامر ، وعلى الجماعة فضالة بن عبيد ؛ فحمل رجل من المسلمين على صفّ الروم حتى دخل عليهم ؛ فصاح الناس وقالوا : سبحان الله ! يلقي بيديه إلى التهلكة .. ! فقام أبو أيوب الأنصاري فقال : يا أيها الناس إنكم تتأولون هذه الآية هذا التأويل ، وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار ، لما أعزّ الله الإسلام ، وكثر ناصروه ، فقال بعضنا لبعض سراً - دون رسول الله ﷺ - إن أموالنا قد ضاعت وإن الله قد أعزّ الإسلام ، وكثر ناصروه ؛ فلو أقمنا في أموالنا ؛ فأصلحنا ماضاع منها ؛ فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ يردّ علينا ماقلنا : ﴿ **وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة** .. ﴾ فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها ، وتركنا الغزو ؛ فما

---

(١) تلك الأحكام المتقدمة نسبها القاسمي في تفسيره إلى الحاكم ؛ انظر : محاسن التأويل : ٤٨١-٤٨٢ .
(٢) انظر : محاسن التأويل : ٤٨٠ .

زال أبو أيوب شاخصاً في سبيل الله حتى دفن بأرض الروم ، هذا حديث حسن صحيح غريب »[١].

وقد علق القاسمي على إنكار أبي أيوب الأنصاري قائلاً : « إنكار أبي أيوب رضي الله عنه إما لكونه لايقول بعموم اللفظ بل بخصوص السّبب ، وإما لرد زعم أنها نزلت في القتال . أي : في حمل الواحد على جماعة العدوّ كما تأولوها . وهذا هو الظاهر . وإلاّ فاللفظ يقتضي العموم ، وورده على السبب لايصلح قرينة لقصره على ذلك ، ولاشبهة أن التعبد إنما هو باللفظ الوارد وهو عام »[٢].

ولمّا كانت النفقة في سبيل الله نوعاً من أنواع الإحسان أمر بالإحسان عموماً [٣] فقال : [وأحسنوا إن الله يحب المحسنين] ، والذي سوغ العطف وحسنه هو أن ماقبلها جمل إنشائية ، والمعنى الذي ورد بشأنه الخطاب مرتبط بما قبله متصل به ، ولذلك ناسب وصل نظمه بالعاطف .

ولفظ [أحسن] يستعمل في معنين :

أحدهما : فعل فعلاً حسناً سواء تعدّى نفعه إلى غيره أم لا .

وثانيهما : التفضل وإيصال الخير إلى المحتاج . وعلى ذلك فيقال لمن صلى أو صام أحسنت ، كما يقال ذلك لمن تصدّق وتفضل وأوصل الخير إلى المحاويج [٤].

ولكون أمر الإحسان مطلقاً من غير تقييد فإنه شامل لجميع أنواع الإحسان ؛ فيدخل فيه الإحسان بالمال جهاداً في سبيل الله وإعزازاً لشأن الدين ، وذباً عن المسلمين ، أو بذله للمحتاجين من الفقراء والمساكين وغيرهم ، ويدخل فيه الإحسان بالجاه ، وذلك بالشفاعات الحسنة ونحوها ، ويدخل في ذلك الإحسان بالأمر بالمعروف

---

(١) صحيح الترمذي بشرح الإمام ابن العربي المالكي : ١١/٩٦-٩٧ . وانظر : المستدرك على الصحيحين : ٢/٢٧٥ ، وقد قال عنه الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

(٢) محاسن التأويل : ٤٨١ .

(٣) انظر : تفسير كلام المنان : ١/٢٣٧ .

(٤) انظر : حاشية الشيخ زاده على تفسير البيضاوي : ١/٥٠١ .

والنهي عن المنكر ، وتعليم العلم النافع ، ويدخل فيه قضاء حوائج الناس ، من تفريج كرباتهم وإزالة شدائدهم ، وعيادة مرضاهم ، وتشييع جنائزهم ، وإرشاد ضالهم وإعانة من يعمل عملاً على إتمامه ، والعمل لمن لايحسن العمل ، ونحو ذلك مما هو من الإحسان الذي أمر الله به .

ويدخل في الإحسان أيضاً الإحسان في عبادة الله تعالى وهو كما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »(١) ، فمن اتصف بهذه الصفات كان من الذين قال الله فيهم : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ .. ﴾(٢) وكان الله معه يسدده ويرشده ويعينه على كل أموره (٣) .

وبذلك يعلم أن اصطفاء فعل الإحسان وإطلاقه من غير تقييد قد حَصَّل تلك المعاني المتقدمة وغيرها مما لم يذكر ؛ فالاستجابة لذلك الأمر الرباني الكريم يحقق تلك المعاني بين المسلمين ويرفعهم إلى درجة المحسنين الذين لاخوف عليهم ولاهم يحزنون .

ومما يرغب في فعل الإحسان ذلك التذييل الذي خُتمت به الاية بعد الأمر بالإحسان وهو قوله [إن الله يحب المحسنين] ؛ يقول أبو حيان : « هذا تحريض على الإحسان ؛ لأن فيه إعلاماً بأن الله يحب من الإحسان صفة له ، ومن أحبه الله لهذا الوصف فينبغي أن يقوم وصف الإحسان به دائماً ؛ بحيث لايخلو منه محبة الله دائماً »(٤) .

واللام في [المحسنين] للاستغراق العرفي ، والمراد المحسنون من المؤمنين (٥) . وإذا أظلَّت محبة الله العباد فلا خوف عليهم من حاضر ولاباد ، وليستبشروا بالخير والفلاح قائمين أو قاعدين ، أحياء أو ميتين .

---

(١) من جملة حديث طويل أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود والنسائي بروايات أورد طائفة منها ابن الأثير في : جامع الأصول في أحاديث الرسول : ٢٠٨/١ - ٢١٧ .

(٢) يونس : ٢٦ .

(٣) انظر : تفسير كلام المنان : ٢٣٧/١ - ٢٣٨ . بتصرف .

(٤) البحر : ٧١/٢ .

(٥) انظر : التحرير : ٢١٦/٢ .

قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعاً وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَالَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾[١].

لقد صُدِّر هذا المقطع من الايات الكريمات بالنداء باسم الإيمان على سنة الله تعالى في خطاب أوليائه المؤمنين إذا أراد أن يأمرهم أو ينهاهم [٢] . ولم يرد لهذه الآيات سبب نزول معين . مما حدا ببعض المفسرين إلى القول إنها نزلت لمجرد التنبيه إلى قواعد الاستعداد لغزو العدو [٣] ، ففرق بين أن يكون العدو هو الغالب وبين أن يكون مستعداً مجتمعاً يريد الغزو ؛ فلكل حاله ومايناسبه من جانب المؤمنين ، وفي هذه الآية رسم لأسلوب المواجهة الحربية مع العدو على حسب وضعه العسكري.

وابتداء الأمر بأخذ الحذر بداية بأكبر قواعد القتال ، التي عليها ينبني النصر أو الإنهزام ؛ فبالحِذْر تتقى خدع الأعداء ؛ لأن الحِذْر هو توقّي المكروه يقول الزمخشري : « الحِذْر والحَذَر بمعنى ؛ كالأثر والأثر ، يقال : أخذ حذره ؛ إذا تيقظ واحترز من المخوف ؛ كأن جعل الحذر آلته التي قي بها نفسه ويعصم بها روحه ، والمعنى احذروا واحترزوا من العدوّ ولا تمكنوه من أنفسكم »[٥].

وهذا التعبير بملازمة أخذ الحذر جعل الحذر أمراً محسوساً يؤخذ ويترك ، فملازمته تعبد وأخذ بالمأمور ، وتركه تفريط وتقصير في العمل بالأسباب لاتؤمن عواقبه ولاتعلم نتائجة ، وهذا مستفاد من إيحاء اللفظ وظلاله .

وعلى ذلك ففي لفظ [خذوا] : " استعارة لمعنى شدة الحذر وملازمته ؛ لأن حقيقة الأخذ تناول الشئ الذي كان بعيداً عنك ولما كان النسيان والغَفْلة يشبهان البعد والإلقاء كان التذكر والتيقظ يشبهان أخذ الشئ بعد إلقائه " [٦].

---

(١) النساء : ٧١ - ٧٣ .
(٢) انظر : البحر : ٢٩٠/٣ .
(٣) انظر : التحرير : ١١٧/٥ . وفي ظلال القرآن : ٧٠٤/٢ .
(٤) انظر : التحرير : ١١٧/٥ .
(٥) الكشاف : ٢٥٥/١ .
(٦) التحرير : ١١٨/٥ .

وفي كلمة " الحذر" من صفاء لفظها وثراء معناها وعمق مدلولها ماهو مثير الدهشة ؛ فقد دخل في ذلك التعبير [خذوا حذركم] على وجازته من القواعد الحربية والمسائل العسكرية ماهو كفيل - بإذن الله - بردّ العدو وفلّ جموعه ، وممن أشار إلى ذلك وتناوله الشيخ محمد عبده فيما نقله عنه صاحب " تفسير المنار " حيث قال : " الحذر والحذر الاحتراس والاستعداد لإتّقاء شر العدو ؛ وذلك بأن نعرف حال العدو ومبلغ استعداده وقوته ، وأن نعرف الوسائل لمقاومتهم إذا هجموا وأن يعمل بتلك الوسائل . فهذه ثلاثة لابد منها ؛ وذلك أن العدو إذا أنس غرة منا هاجمنا ، وإذا لم يهاجمنا بالفعل كنا دائماً مهددين منه ، فإن لم نهدد في نفس ديارنا كنا مهددين في أطرافها؛ فإذا أقمنا ديننا أو دعونا إليه عند حدود العدو فإنه لابد أن يعارضنا في ذلك، وإذا احتجنا إلى السفر إلى أرضه كُنّا على خطر ، وكل هذا يدخل في قوله [خذوا حذركم] " . ثم قال : " ويدخل في ذلك معرفة حال العدو ومعرفة أرضه وبلاده ؛ طرقها ومضايقها وجبالها وأنهارها ؛ فإننا إذا اضطررنا في تأديبه إلى دخول بلاده فدخلناها ونحن جاهلون لها كنا على خطر ، وفي أمثال العرب " قتلت أرض جاهلها " وتجب معرفة مثل ذلك من أرضنا بالأولى حتى إذا هاجمنا فيها لايكون أعلم بها منا » .

« ويدخل في الاستعداد والحذر معرفة الأسلحة واتخاذها واستعمالها ؛ فإذا كان ذلك يتوقف على معرفة الهندسة والكيمياء والطبيعة وجرّ الأثقال فيجب تحصيل كل ذلك كما هو الشأن في هذه الأيام ، ذلك أنه أطلق الحذْر ، أي ولا يتحقق الامتثال إلاّ بما تَتَحَقّق به الوقاية والاحتراز في كل زمن بحسبه "(١) . وبذلك يُعلم أن الحذر غير السّلاح ، وإنما السلاح بأنواعه فرع عنه ، ويدل على ذلك عطف السلاح عليه في آية صلاة الخوف في قوله عز وجل : ﴿ **وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم** ﴾(٢) . والعطف يدل على المغايرة ، وإنما عطف عليه للإشارة إلى التلازم الظاهر بين الحذر والسلاح ؛ فإذا استشعر الحَذِر خوفاً أو خطراً أعمل سلاحه ودفع به الأمر المخوف ، والرجل الحَذِر هو الذي يقدر الموقف ؛ فإن كان يقتضي استعمال السلاح استعمله، وإن كان

---

(١) تفسير المنار : ٥/٢٥٠ - ٢٥١ .

(٢) النساء : ١٠٢ .

الأمر يندفع بدونه ترك ذلك ، وإنما ملازمة السلاح للحَذِر يزيد من قوته ويلقي الرعب في قلب عدوه ، ولذلك اقتضى الحذر سلاحاً .

ثم رتب على أخذ الحذر ماهو غاية له وفرع عن العمل به فقال سبحانه :

﴿ **فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً** ﴾ والفاء هنا عاطفة مفيدة ربط مابعدها بما قبلها وترتيبه عليه(١)؛ فيعلم بذلك أن فعل النفير مرتب على الحذر ، فالحذر سابق في الوجود ، وهو الذي بعث على النفير ؛ فيختار الأسلوب المناسب بعد خَبْر العدو ومعرفة الأنجع لمعالجته ؛ فقد يكون ببعث السرايا ، وقد يكون بتجيش الجيوش. وفي ذلك تظهر مناسبة اختيار حرف العطف الفاء دون سواها ؛ فلو جيء بالواو لاقتضى اشتراك النفر مع الحذر وهو غير مراد ، ولو كان بثم لأفاد التراخي الزمني وقد يفوت المقصود بذلك التراخي ؛ فأليق الحروف هو حرف الفاء المفيد لما ذكر آنفاً .

والنَّفْر في الأصل الانزعاج عن الشيء وإلى الشيء كالفزع إلى الشيء وعن الشيء(٢)؛ وذلك بحسب المقام الذي يستعمل فيه هذا اللفظ ، والنفر في الآية مستعمل في الخروج إلى الحرب(٣) . فكأن إعلان النَّفير للحرب إزعاج للناس ليهبوا جهاداً في سبيل الله ، وفي ذلك إزعاج للعدو وإفزاع له إذا رأى المسلمين قد نفروا إليه وأقبلوا عليه فيقع الرعب والفزع في قلبه ، وهذا مستفاد من ظلال هذا اللفظ ومدلوله اللغوي.

والثُّبات : جمع ثُبَة . والثُّبة : العُصْبة . ومعنى الكلام : فانفروا إلى عدوكم جماعة بعد جماعة متسلحين ، أو سرية بعد الأخرى (٤) . وكل ذلك راجع إلى طبيعة المعركة وهو عائد إلى حالة العدوّ ، والذي يقدّر ذلك ويقرّره هو اجتهاد الإمام (٥) .

وهذه الصفة هي مايسمى في العصر الحديث بحرب العصابات ، حيث تتعصب جماعة وتتسلّح ثم تنال من عدوها بين وقت وآخر ، على شكل حرب استنزاف ، فقد يكون العدوّ قوياً ذا كثرة عديدة وليس لدى المسلمين جيش مكافىء له في العددَ

(١) انظر : رصف المباني : ٤٠ .
(٢) انظر : المفردات : ٥٠١ .
(٣) انظر : تفسير المنار : ٥/٢٥٣ .
(٤) انظر : جامع البيان : ٥/١٦٤ .
(٥) انظر : تفسير القاسمي : ١٣٩٢ .

والعُدَد ؛ فعندئذٍ تنال منه السرايا والعصابات المسلحة ماتجعله يفكر بالرحيل ، أو الجلاء عن أرض المسلمين . وقد فسر بعض السلف : الثُبات بأنها العُصَب[1] وهو قول الضحاك . وهو في معنى ماذكر آنفاً .

أما إذا كان لدى المسلمين جيش قوي مكافيء لما عند العدوّ ؛ فإنه من الأنسب الصيرورة إلى الخيار الثاني وهو أن ينفروا جميعاً مجتمعين كوكبة واحدة في جيش زاحف يصاول العدوّ وينازله حتى ينال منه ويكسر شوكته . وفي ذلك من إيقاع المهابة بتكثير السواد والمبالغة في التحرز من الخطر ماهو جليّ ظاهر ؛ فيكون ذلك من العمل بأخذ الحذر ؛ فإن توقي الحذر ودفع الخطر يقتضي هذه النفرة الجماعية الزاحفة في صورة نفس واحدة مندفعة بقوة وشدة سطوة ، الأمر الذي يوقع النكاية بالعدو .

ولقد رسم هذان اللفظان [ثبات ، جميعاً] بجرسهما وظلهما الحالة التي ينبغي أن يكون عليها المجاهدون ؛ فهم إما أن يكونوا فرقاً مسلحة تثب وثباً وتنال من العدوّ نيلاً في خفة وسرعة ، حتى لايتمكن منها وهي تتمكّن منه .

وحالة أخرى هي أن يجتمعوا زاحفين بأسلحتهم الثقيلة والخفيفة فهم ندّ للعدوّ ، جيش مسلح يقابل جيشاً مسلّحاً ، والله فوق الجميع يسمع ويرى وينصر عباده المؤمنين بتوفيقه لهم ، وتسديده رميهم ، وقد يرسل معهم جنده فتكون الدائرة على عدوهم .

إن الحرف [أو] حرف عاطف يفيد التخيير ، فقد خيّر المسلمون بين حالتين ؛ حرب العصابات المسلّحة أو حرب الجيوش المدرعة ، والفيصل في ذلك هو طبيعة العدوّ المقابل وقدرة المسلمين العسكرية . وعلى ذلك فحرف العطف [أو] هو المناسب لمقتضى السياق ، ولذلك اصطُفي دون غيره من حروف العطف فما سوى [أو] لايليق بالمقام ؛ فلو عطف بالواو- مثلاً -لكان المسلمون مأمورين بأن يكونوا جميعاً على تلك الحالتين ، جماعات وجيشاً واحداً في آن واحد، وقد لايحتاج الموقف الحربي إلى ذلك كلّه ، ثم إنه يوقع المسلمين في الحرج الظاهر، ولكنّ الله تعالى وسعّ عليهم الأمر؛

---

(١) انظر : معاني القرآن الكريم للنحاس : ١٣١/٢ . وانظر : جامع البيان ١٦٥/٥ ؛ وفيه نسب إلى الضحاك قوله عن الثبات بأنهم : العُصَب المتفرقون .

فجعل الخيرة لهم بحسب مقتضيات الأحوال ، وعلى تقدير ولي الأمر للموقف الذي هو بصدده .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ كلام مستأنف مسوق لخطاب جمع المسلمين ، وفيهم المنافق وضعيف الإيمان (١) ، فالمنافق يكره الجهاد أصلاً ، وضعيف الإيمان يخشى الموت خَوَراً وجبناً ؛ وعلى ذلك فأرى أن النص الكريم يتسع فيشمل المنافقين الذين دأبهم التبطئة عن الجهاد ، والتَّثَاقل عن ركبه ، والتنفير منه ، كما أنه يتسع ليشمل ضعفاء الإيمان الذين رقّ دينهم ، وضعف يقينهم ، وركبهم الوهن ؛ وهو حبّ الدنيا وكراهية الموت .

وإذا كانت الآية في المنافقين فهي في ذكر صفاتهم ، ونعت طباعهم ؛ ليُعرفوا بها ويميّزوا من خلالها تشنيعاً عليهم وتحذيراً من أخلاقهم .

وإذا كانت الآية فيمن ضعف إيمانه من المسلمين فهي وصف لحالة طارئة ينبغي أن يُقلعوا عنها ، ويتجردوا من أدرانها ؛ حتى لايقعوا في فخ النفاق ؛ فإنهم منه قاب قوسين أو أدنى .

فكأن النص القرآني الكريم تقريع للمنافقين ، وتعنيف لهم على هذه الخصلة الذميمة فيهم لعل بعضهم يثوب إلى رشده ، ويؤوب إلى ربه . ثُمَّ هو في الوقت نفسه تأنيب لبعض المسلمين الذين تُلِمّ بهم هذه الحالة ، وتربية لنفوسهم ، وإيقاظ لجذوة الإيمان فيهم ، قبل أن تستفحل لديهم هذه الظاهرة وتصبح نفاقاً معلوماً .

---

(١) انظر : تفسير المنار : ٢٥٤/٥ . الذي عليه جمهور المفسّرين أن المقصود بالمبطئين هم المنافقون ؛ لأن ماذكر في الآية ومابعدها من صفاتهم ، ولأنهم في ظاهر أحوالهم مسلمون يتوجه إليهم خطاب الإيمان ؛ فيكون المعنى أن من دخلائكم وجنسكم وممن أظهر إيمانه لكم من يفعل ماذكر ، وذهب جمع من المفسّرين إلى أن المراد بهم بعض المسلمين من ضعفاء الإيمان بدليل خطاب التبعيض الموجه إلى المؤمنين [منكم] والمنافقون ليسوا من المسلمين لقوله تعالى : ﴿ **ويحلفون بالله إنهم لمنكم وماهم منكم ولكنهم قوم يفرقون** ﴾ التوبة : ٥٦ . ثم إن التبطئة في معنى التثاقل وقد خاطب الله عموم المؤمنين منكراً عليهم أن يقع ذلك منهم في قوله ﴿ **يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض** ﴾ التوبة : ٣٨ .

و ممن نصر القول الثاني ابن سعدي في تفسير كلام المنان : ٩٧/٢ . وانظر : التفسير الكبير : ١٧٨/١٠-١٧٩ .

والملحوظ في هذا الخبر أنه قد جرى توكيده بعدّة مؤكدات ؛ أولها : إنّ ، ثم اللام ، ثم القسم المحذوف والذي أرشد إليه هو اللام الواقعة في جوابه ، وهي من المؤكدات أيضاً ، وتشديد الفعل [يبطّئنّ] مفيد تكرر الفعل من المسند إليه ، وأخيراً نون التوكيد الثقيلة . وإنما أكدّ ذلك الخبر بكل ماتقدم من المؤكّدات – والله تعالى أعلم – لأن مضمون هذا الخبر من شأنه أن يُتلقّى بالاستغراب (١)، والذي زاد في أمر هذا الأستغراب كون المسند إليه من المخاطبين ، ومع ذلك يصدر عنه ذلك الفعل القبيح الذي ينال من قوة المسلمين ، ويفتّ في عضدهم ، فلا يتسّهل قبول أذهان المخاطبين لهذا الخبر بكل يسر ؛ ولذلك اقتضى المقام تضافر كل تلك المؤكدات من أجل تقرير هذا الأمر في أذهانهم . وفائدة ذلك : العمل بمقتضى هذا الخبر ، وهو الحذر من ذلك الفعل المَشين ، والإنكار على من يصدر عنه التباطؤ في شأن الجهاد ، ومحاربة هذه الظاهرة ، وعدم اتساع صدور المؤمنين لها ولا لمن يفعلها .

والذي زاد في ذمّ ذلك الفعل هو طبيعة مادته ونظم حروفه ؛ يقول سيد قطب : " لفظة [ليبطّئن] مختارة هنا بكل مافيها من ثقل وتعثّر (٢)؛ وإن اللسان ليتعثّر في حروفها وجرسها ، حتى يأتي على آخرها ، وهو يشدها شداً ، وإنها لتصور الحركة النفسية المصاحبة لها تصويراً كاملاً بهذا التعثّر والتّثاقل في جرسها ، وذلك من بدائع التصوير الفنيّ في القرآن ، الذي يرسم حالة كاملة بلفظة واحدة "(٣).

إنه لمن الغنيّ عن البيان القول إنّ صورة التبطئة قد مهدّت لها حركات الأحرف السابقة على كلمة [ليبطّئن] ؛ فقد سبقتها حركات وغُنّات رسمت جواً للتثاقل والتبطئة قبل وصول القارئ إلى الفعل نفسه ؛ فقد افتتحت الجملة بعد حرف العطف بإنّ ، المكسورة الهمزة ، والكسرة أثقل الحركات ، وقد وقعت الكسرة على حرف حلقي وهو الهمزة ، ثم تلتها النون المشدّدة وشدّتها أو جبت الغنّة ، ومقدار غُنّتها حركتان ، ثم الميم المكسورة [مِنْكم] ، وبعدها النون الساكنة المغنَّة بإخفاء في حرف

---

(١) انظر : التحرير : ١١٩/٥ .

(٢) هذا نص عبارة سيد قطب – رحمه الله – والذي أراه هو النأي بكلام الله تعالى عن مثل ذلك الوصف ، وإن كان قصد صاحب الظلال حسناً ، وفي بيان العربية مايغني ، كأن يقال : بكل مافيها من تشديد وتوكيد .. أو نحو ذلك .

(٣) في ظلال القرآن : ٧٠٥/٢ .

الكاف المضمومة ، والضمة أثقل الحركات بعد الكسرة ، ثم جاءت اللام المفتوحة وبعدها نون ساكنة أدغمت في اللام التي بعدها ؛ فوقع التشديد على اللام ؛ فاجتمع مثلان في النطق ، وهما اللام الأولى المفتوحة ، والثانية المشدّدة بفتح بعد إدغام النون الساكنة فيها ؛ فأضفى ذلك الجوّ كله صورة للمعنى المراد تقريره ؛ من واقع جرس الحروف ، ومن خلال نطق اللسان بها ؛ ثم باستيحاء الأذُن لذلك المعنى ، الذي ألقى بظلاله الكثيفة على قارئه ؛ مما يزيده استبصاراً بحقيقة هذه الصورة ، ونفوراً من تلك التبطئة المذمومة إن كان من ذوي الألباب ٠

و [بطّأ] قد يكون لازماً بمعنى الإبطاء والتثاقل عن النهوض إلى الجهاد (١)، وأكثر ماينصرف هذا المعنى إلى ضعفاء الإيمان من المسلمين والجبناء ٠

وقد يكون ذلك الفعل متعدياً بمعنى حمل الناس على الإبطاء والتأخر عن الجهاد؛ ببثّ الرعب والأراجيف وتزيين الأعذار في النفوس ، وأكثر مايرد هذا المعنى في حق المنافقين ، الذين يكرهون الانبعاث إلى الجهاد، بل ويكرهون الإسلام ابتداء٠

قوله [فإن أصابتكم مصيبة ٠٠] تفريع عما أسند إليهم من فعل التبطئة ، فهذا الإبطاء والتأخر تارة يجرّ لصاحبه الابتهاج بالسلامة ، وتارة يجر عليه الحسرة والندامة (٢)، فهو بين حالتين من التربّص ٠ وهاتان الحالتان تزيدان من رسم صورة هذا المُبَطِّء ، فهو قلقل مضطرب يتتبع الأخبار ، ويستمع إلى نتائج الجهاد ، فإن كان ثَمَّ هزيمة وقعت بالمجاهدين فرح بمقعده خلافهم ، وعدّ ذلك نعمة من الله عليه بعدم شهوده الوغى معهم ، وإن فتح عليهم وحازوا الغنائم والفضل العظيم عض أصابع الندم وتمنّى أن لو كان معهم فيفوز كما فازوا ويحوز مثلما حازوا ٠

فنظرة هؤلاء المبطئين نظرة مادية،وحب الدنيا وكراهية الموت هما التصور الذي سيطر على أذهانهم ، وهذا جهل فاضح بما أعدّ الله للمجاهدين من الثواب العظيم ، كما أنه جهل فاضح أيضاً بسنة الله في القضاء والقدر ؛ فما كل من قعد عن الجهاد ولازم الفراش بمعزل عن الموت ، كما أنه ليس كل من جال في ساح الوغى ولبى النداء وقع عليه الموت ، ولكنه قدر الله الماضي في الأحياء والأشياء لايتقدم

(١) انظر : تفسير المنار : ٥/٢٥٥ ٠
(٢) انظر : التحرير : ٥/١١٩ ٠

ولايتأخر ، قال تعالى: ﴿ ولكلّ أمّةٍ أجلٌ فإذا جاءَ أجلُهم لايستأخرون ساعةً ولايستقدمون ﴾ (١).

ومن اللطائف في هذا المقطع الكريم ذلك الاعتراض الجميل وهو قوله : ﴿ كأن لمْ تكن بينكمْ وبينهُ مودّةٌ ﴾ ، وممن استوحى ظلاله وإيحاءه عبدالكريم الخطيب فقد قال مانصهّ : " وفي قوله [كأن لم تكن بينكم وبينه مودّة] تنديد بهذه الخسّة وذلك الجبن ، الذي قطع أواصر الأخوة والتناصر بينه وبين أصحابه ، فما على هذا الأسلوب الخسيس تقوم الصحبة بين الجماعة ، التي من شأنها أن تتقاسم السّراء والضراء ، وأن تذوق الحلو والمرّ ، أما أن تقف لتتحيّن الفرصة لتشارك في السّراء ، ولاتشارك في الضراء ؛ فذلك هو اللؤم الدّنيء الذي تترفع عنه أدنى الحيوانات ، التي إذا هاجمها عدوّ لقينه يداً واحدة وقوة مجتمعة " (٢).

ووقف رشيد رضا من ذلك الاعتراض موقف المتذوق لبلاغة القرآن المتأمل في نظمه ؛ إذ قال : " ثم إن قوله تعالى : ﴿ كأن لمْ تكن بينكمْ وبينهُ مودّةٌ ﴾ جملة معترضة بين القول ومقوله ، وذكر المودة هنا نكرة منفية في سياق التشبيه في أوج البلاغة الأعلى فهي كلمة لاتدرك شأوها كلمة أخرى ، ولاتنتهي إلى غورها في التأثير؛ ذلك بأن قائل ذلك القول الذي لايقوله من كان بينه وبين المؤمنين مودة ما معدود من المؤمنين الذين هم بنص كتاب الله إخوة ، بعضهم أولياء بعض ، وبنص حديث رسول الله تتكافأ دماؤهم ، ويجير عليهم أدناهم ، وهم كأعضاء الجسم الواحد، وكالبنيان يشد بعضه بعضاً ؛ فإذا كان هذا مكان كل مؤمن من سائر المؤمنين؛ فكيف يصدر عن أحد منهم ذلك القول وذلك التمني الذي يشعر بأن صاحبه لايرى نعمة الله وفضله على المؤمنين نعمة وفضلاً عليه ، وهو لايعقل أن يصدر عمن كان بينه وبينهم مودة ما، ولو قليلة في زمن ما ، ولو بعيداً ، أعني : أن قليلاً من المودة كان في وقت ماينبغي أن يمنع عن مثل ذلك التمني، وفي هذا من التقريع والتوبيخ بألطف القول وأرق العبارة مالا يقدر على مثله بلغاء البشر ، ومن فوائده أن يؤثر في نفس من يذوقه الذي لايدنو من مثله النّبز بالألفاظ والطعن بهجر القول ، التأثير الذي يحمل

(١) الأعراف : ٣٤ .
(٢) التفسير القرآني للقرآن : المجلد الثاني : ٨٣٣-٨٣٤ .

صاحبه على التأمل والتفكر في حقيقة حاله ، ومعاتبة نفسه ؛ فإن كان فيه بقية من الرجاء تاب إلى ربه ، ورجع كله إلى حقيقة دينه ، هذه هي فائدة تلك الجملة المعترضة وبالله ما أعجب التشبيه فيها ، ونفي الكون ، وتنكير المودة ؟ ! إنك إن تُعْطِ ذلك حقه من التأمل ويؤتك الكلام قسطه من البلاغة ؛ فقد أوتيت آية من آيات الفرق بين كلام الخالق وكلام المخلوق ، وكشف لك عن سر من أسرار عجز البشر عن الإتيان بمثل هذا الكتاب المبين " [١].

ومما هو مرتبط في المعنى بالآيات المتقدمة ماجاء في سورة " التوبة " وهو قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل** ﴾.[٢] وبيان ذلك :

أن القرآن الكريم من لدن حكيم خبير ؛ بعضه يوضح بعضاً ، فما أجمل في موضع فصل في آخر ؛ فهذه الآية المتقدمة هي كالتفسير والبيان والتتميم لخبر التبطئة التي أنبأ الله عز وجل عباده بها ، وحذّرهم من خطر وقوعها في صفوفهم ، عندما قال – في سياق الأمر بالنفير – [وإنّ منكم لمن ليبطئن] فهو إخبار مؤكّد بأنّ التثاقل عن الجهاد سيقع من بعضهم ، وذلك الإخبار كان في السنة السادسة من الهجرة قبل فتح مكة ، فلما فتحت مكة ورجعوا من غزوة حنين بعد فتح الطائف أمروا بالنفير إلى غزو الروم في السنة التاسعة من الهجرة ، وذلك في زمان شدة القيظ وإقبال الثمار وطيبها مع استطارة خبر قوة الروم وكثرتهم ؛ فتثاقل الناس عن الجهاد وركن كثير منهم إلى الظلال والثمار ؛ فنزل هذا النص الكريم يقرعهم وينكر عليهم فعلهم[٣]. فآية " النساء " إخبار عن خطر وقوع التثاقل عن الجهاد من بعضهم، وآية " التوبة " عتاب لهم جميعاً على بروز هذا التثاقل وظهوره فيهم ، بعد إشعارهم بخطر وقوعه منهم ؛ ولذلك شملهم الإنكار واللوم والتوبيخ ؛ فكأن هذا الذنب مسؤولية

---

(١) تفسير المنار : ٥/٢٥٦ .

(٢) التوبة : ٣٨ .

(٣) انظر : أسباب النزول للواحدي : ٢٨٣ .

الجميع ؛ كلّ على قدر مايناله من تبعة قربه من هذا التثاقل ، أو قوعه منه ، أو إقراره له ، أو عدم إنكاره عليه .

مع القطع الجازم بأن طائفة كبيرة من المؤمنين بمنأى عن ذلك كله ، فمنهم من قَدَّم ماله كله جهاداً في سبيل الله وترك لأهله الله ورسوله كأبي بكر الصديق رضي الله عنه ، ومنهم من جهّز الجيش بتسعمائة وخمسين بعيراً كعثمان رضي الله عنه ، ومنهم من جاء إلى رسل الله صلى الله عليه وسلم يبكي حزناً على ألا يجد ما يُحمل عليه ولا ماينفق في سبيل الله ؛ فتولى وعينه تفيض من الدمع [(١)] .

وإنما خص المؤمنون بنداء الإيمان دون المنافقين وسائر الجبناء والمتثاقلين ؛ لأن المؤمنين هم الذين ينتفعون بذلك دون غيرهم [(٢)] ، ولأن في ذلك تعريضاً بسائر المتثاقلين بأن عليهم خطراً من أن ينسلخوا من وصف الإيمان وندائه ؛ لأن من شأن من كان في حيز وصف النداء أن ينخلع من كل ماعوتب عليه ويبعد عنه ، وفي ذلك إيقاظ لغفلة الغافلين وتحريك لهمم السادرين ، وبعث لغيرة المؤمنين أجمعين إلى هذا الأمر العظيم ، الذي عليه مدار عزّ الدين وعلوّ شأن سائر المسلمين ، وهو النَّفرة جهاداً في سبيل الله ، انتصاراً للدين ، وقهراً لعدوّ ربّ العالمين .

وبعد افتتاح الاية الكريمة بالنداء الإيماني الوديع الباعث على الاستجابة لما يعقبه أُتبع بالاستفهام [مالكم] الذي معناه الإنكار والتقريع وفيه معنى الزجر والتوبيخ [(٣)] . يقول رشيد رضا : " والخطاب للمؤمنين في جملتهم تربية لهم بما لعله وقع من مجموعهم لامن جميعهم ، ومنهم الضعفاء والمنافقون " [(٤)] . وخطاب الجميع وإرادة بعض المخاطبين أسلوب مشتهر بطريق المجاز [(٥)] ، ولعل من أغراضه المبالغة في إظهار عظيم ما اقترف ، وأن خطره وعاقبته لاتقع على فاعله فحسب ، وإنما تمتد غائلته لتشمل الفاعل وغيره ؛ فنبهوا بذلك الخطاب العام إلى عموم ضرر ما ارتكب وشدةّ خطره عليهم كافّة ؛ ولذلك كان خطاب الإنكار عاماً ، ولم يقتصر على من وقع منهم الفعل الذي عليه مدار الإنكار .

---

(١) انظر : الرحيق المختوم : ٤٨٦ - ٤٨٧ .

(٢) انظر : تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه : ٣٦٠/٥ .

(٣) انظر : البحر : ٤١/٥ . وتفسير المنار : ٤٢٣/١٠ .

(٤) تفسير المنار : ٤٢٣/١٠ .

(٥) انظر : التفسير الكبير : ٦٠/١٦ .

و [إذا] ظرف تعلق بمعنىَ الاستفهام الإنكاري على معنى : أن الإنكار حاصل في ذلك الزمان الذي قيل لهم فيه : [انفروا في سبيل الله] (١) . والعبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبّب ، وعلى ذلك فالإنكار - أيضاً - يحصل على المسلمين الذين يستنفرهم وليّ الأمر للجهاد في سبيل الله ثم يتثاقلون عنه .

وفاعل القول في [قيل] هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يُسمَّ فاعله بل طوي ذكره ؛ وذلك إغلاظاً لهم ومخاشنة معهم ، وصوناً لذكره في غمرة التوبيخ والإنكار (٢).

وذكر [لكم] مع إمكان الاستغناء عنه فيه زيادة تعنيف وتوبيخ ؛ حيث استحضر خطابهم مرة أخرى ، موجهاً لهم اللوم والنكير .

وقوله [اثّاقلتم] فعل ماض بمعنى المضارع ، وهو في موضع الحال ، أي : مالكم تتثاقلون إذا قيل لكم انفروا(٢) .

وقد قرئ [أثَّاقلتم] على الاستفهام الذي معناه الإنكار والتوبيخ ؛ فيكون إنكاراً بعد إنكار وتوبيخاً بعد توبيخ ، ويكون العامل في [إذا] فعلاً من المعنى الذي وقع عليه الاستفهام الإنكاري الثاني ، والتقدير : مالكم تتثاقلون إذا قيل لكم انفروا أثاقلتم ؟ !(٢) .

يقول أحد الباحثين عن الأداء الفني والإيقاع اللفظي الذي أوحت به كلمة [اثاقلتم] : " اقرأ قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض** ٠٠ ﴾ وادرس الأداء الفني الذي قامت به لفظة [اثاقلتم] بكل ماتكونت به من حروف ، ومن صورة ترتيب هذه الحروف ، ومن حركة التشديد على الحرف اللثوي [الثاء] والمد بعده ، ثم مجئ القاف الذي هو أحد حروف القلقلة ، ثم التاء المهموسة ، والميم التي تنطبق عليها الشفتان ، ويخرج صوتها من الأنف ، ألا تجد نظام الحروف وصورة أداء ذاتها أوحت إليك بالمعنى قبل أن يرد عليك المعنى من جهة المعاجم ؟ ألا تلحظ في خيالك ذلك الجسم المثاقل ، يرفعه الرافعون في جهد ؛ فيسقط في أيديهم في ثقل ؟ ألا تحس أن البطء في تلفظ الكلمة

(١) انظر : التحرير : ١٠/١٩٧ .
(٢) انظر : البحر : ٥/٤١ .

ذاتها يوحي بالحركة البطيئة التي تكون من المثّاقل ؟ ٠جرب أن تبدل المفردة القرآنية وتحل لفظة " تثاقلتم " ألاَ تحس أن شيئاً من الخفة والسرعة والنشاط أوحت به " تثاقلتم " بسبب رصف حروفها وزوال الشدة وسبق التاء قبل الثاء ؟ إذن ؛ فالبلاغة تتم في استعمال " اثاقلتم " للمعنى المراد ٠ ولا تكون في : تثاقلتم " [١] ٠

وممن أحسن في لمح المعنى من خلال جرس هذه الكلمة الدكتور السيد حجاب فقد قال عنها : " ٠٠ إنها في الآية أحد المؤشرات الهامة إلى بدائع النظم فيها ، وعلى الرغم مما فيها من بعض ثقل أدى إليه اجتماع " الثاء " المشددة الممدودة مع ماتلاها من القاف المفخمة واللام ؛ فإن الذي لاشك فيه أن ذلك القدر من الثقل مقصود في هذه الكلمة حتى تستطيع معه أن تصور بإيقاعها وجرسها صورة للتباطؤ الشديد ، والقعود عن الجهاد ، أقوى في تأثيرها من المشهد المنظور المجسم لهذه الصورة ، ولو استبدلت بكلمة [اثاقلتم] كلمة أخرى قريبة من معناها مثل : تباطأتم ، أو تقاعستم، أو : تأخرتم ٠٠ ونحوها لم تؤد الغرض على الوجه الذي أدته الكلمة في النسق القرآني ، بل إنه بمجرد أن تفك الإدغام وتقول : " تثاقلتم " تذهب الدقة كلها ، ويهبط التأثير القوي الذي يحس به القارئ أو السامع لدى تأخّرهم عن الجهاد "[٢] ٠

ومن عجائب القرآن الكريم ثراء لفظه وتدفق مائه ، فلا ينضب معينه ، ولا تأتي على كل مضامينه ، وإنك عندما تقرأ لمفسّر تقول : إنه أصاب المعنى ، فإذا ذهبت إلى غيره ألفيته قد وفّى ، فإذا انقلبت إلى ثالث وجدته أوفى ٠٠ ، وهكذا ! وماهذا إلا إعجاز من إعجاز كلام الله عز وجل الذي ينطق لفظه بمعناه ويشرق معناه من لفظه ؛ فينهل كل متدبر منه على قدر صدق نيته وجدّ طلبه ؛ فمن توافر على كتاب الله ، وكان صادق النية عازم الطلب – ممن هو أهل لذلك – فإن الله عز وجل يفتح عليه من كنوز المعاني مايعجب له كل قارئ ، وصدق الله العظيم القائل : ﴿ **ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر** ﴾[٣] ومن شواهد ذلك ماتراه من ثراء هذه اللفظة [اثاقلتم] فقد قيل عنها ماتقدم ، ومع ذلك فإنك تجد لدى عبدالكريم الخطيب ملمحاً آخر في

---

(١) التعبير الفني في القرآن : ١٨١-١٨٢ ٠ وانظر : التصوير الفني في القرآن : ٩١ ٠ وانظر : في ظلال القرآن : ١٦٥٥/٣ ٠

(٢) من بدائع النظم القرآني : ١١ ٠

(٣) القمر : ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ ٠

معنى هذا اللفظ وظلاله ؛ إذ يقول : " وفي التعبير بلفظ " التثاقل " الذي يدل على التصنع والأدعاء ، مثل " تباكى " أي : ادعى البكاء ، وتغافل ، أي : ادّعى الغفلة - في هذا مايشير إلى أن هذا التثاقل من المتثاقل لايستند إلى أسباب حقيقية تقوم في نفس المؤمن بالله ، وإنما هي تعلات تقع في بعض النفوس التي دخل على إيمانها شئ من الضعف والوهن .. ؛ فتتلمس المعاذير ، وتصطاد الدرائع التي تُثقل خطوها عن اللحاق بركب المجاهدين .

وفي تعدية الفعل [اثاقلتم] بحرف الجر [إلى] بدلاً من حرف الجر [على] أو [في] ، إذ يقال : تثاقل على الأرض ، أو تثاقل في الأرض - في هذه التعدية بإلى كما جاء عليه النظم القرآني مايحقق أمرين :

أولهما : إشارة إلى أن هؤلاء المتثاقلين إنما ينحدرون انحداراً إلى الأرض ويهووون هوياً من علٍ إليها .. وذلك لأنهم وهم المؤمنون بالله ، هم بهذا الإيمان في مستوى عال في الحياة التي يحياها الناس ، وإنهم وهذا شأنهم ينبغي أن تكون وجهتهم دائما إلى السماء ، وأن يكون متعلقهم بها ، وآمالهم فيها ، وأن تَلَفُّتَهم إلى الأرض وانحدارهم إليها هو رجعة إلى الوراء ونكوص على الأعقاب " .

وثاني الأمرين : أن التثاقل إلى الأرض يفيد الاختلاط بها ، والامتزاج بترابها، وأن هذا الإنسان المؤمن الذي كان يحلق بإيمانه فوق هذا العالم الترابي قد أصبح بهذا التثاقل في عداد هذه الكائنات التي تدبّ على الأرض من هوامّ وحشرات . ومن هذه الصورة التي ترتسم للمؤمن من كلمة [اثاقلتم إلى الأرض] مايريه المصير الذي هو صائر إليه إن هو أمسك بنفسه مع هؤلاء المتثاقلين على الأرض حين يدعو داعي الحق : أن حيّ على الجهاد في سبيل الله .. "[1].

وهذا ابن عاشور يقول : :" ومجموع قوله [اثاقلتم إلى الأرض] تمثيل لحال الكارهين للغزو المتطلبين للعُذْر عن الجهاد كسلاً وجبناً - بحال من يُطْلب منه النهوض والخروج فيقابل ذلك الطلب بالالتصاق بالأرض والتمكن من القعود ؛ فيأبى النهوض فضلاً عن السير "[2].

---

(١) التفسير القرآني للقرآن : المجلد الثالث / ٧٧١ - ٧٧٢ .
(٢) التحرير : ١٩٨/١٠ .

وخلاصة تعدية التثاقل بـ [إلى] أنه ضُمِّن معنى الميل والإخلاد ؛ كأنه تثاقلٌ يطلب فاعله الوصول إلى الأرض للقعود عليها والسكون بها وعدم مبارحتها [١].

قوله [أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة] استفهام فيه نوع إنكار وتعجيب وتوبيخ [٢].

واختير فعل " رضيتم " دون غيره ؛ نحو : آثرتم أو فضلّتم – مبالغة في مادة الإنكار ، لأن فعل : رضي بكذا يدل على انشراح النفس واطمئنانها [٣].
والمعنى : أرضيتم براحة الحياة الدنيا ولذتها الناقصة الفانية بدلاً من سعادة الآخرة الكاملة الباقية ؟! إن كان الأمر كذلك فقد استبدلتم الذي هو أدنى بالذي هو خير وأبقى [٤].

ولما كان الاستفهام إنكارياً كان معناه النهي أي : لا ترضوا بها فإن ذلك أسفه رأي وأفسده [٥]. ثم علل في ذلك بقوله [فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل] وفيه ردّ على مارضوا به ، وتخسيس لقيمته بأسلوب القصر الواصف كل متاع الدنيا بالتفاهة والدناءة والقلة إذا وضع في جنب سعادة الآخرة ومتاعها السرمدي .

وفي ترشيح الحياة الدنيا بما يؤذن بنفاستها ويستدعي الرغبة فيها بذكر متاعها ، وتجريد الآخرة عن مثل ذلك مبالغة في بيان حقارة الدنيا ودناءتها وعظم شأن الآخرة وعلوها [٧]، فمتاع الآخرة من نفاسته وعلو شأنه لايصح ذكر لفظه ولارسمه ليكون قريناً للمتاع الدنيوي. وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله :

---

(١) انظر : التحرير : ١٩٧/١٠ .
(٢) انظر : البحر : ٤١/٥ ، والتحرير : ١٩٨/١٠ .
(٣) انظر : التحرير : ١٩٨/١٠ .
(٤) انظر : تفسير المنار : ٤٢٤/١٠ .
(٥) انظر : نظم الدرر : ٤٧١/٨ .
(٦) انظر : تفسير أبي السعود : ٦٥/٤ .
(٧) انظر : تفسير أبي السعود : ٦٥/٤ ، وروح المعاني : ٩٥/١٠ .

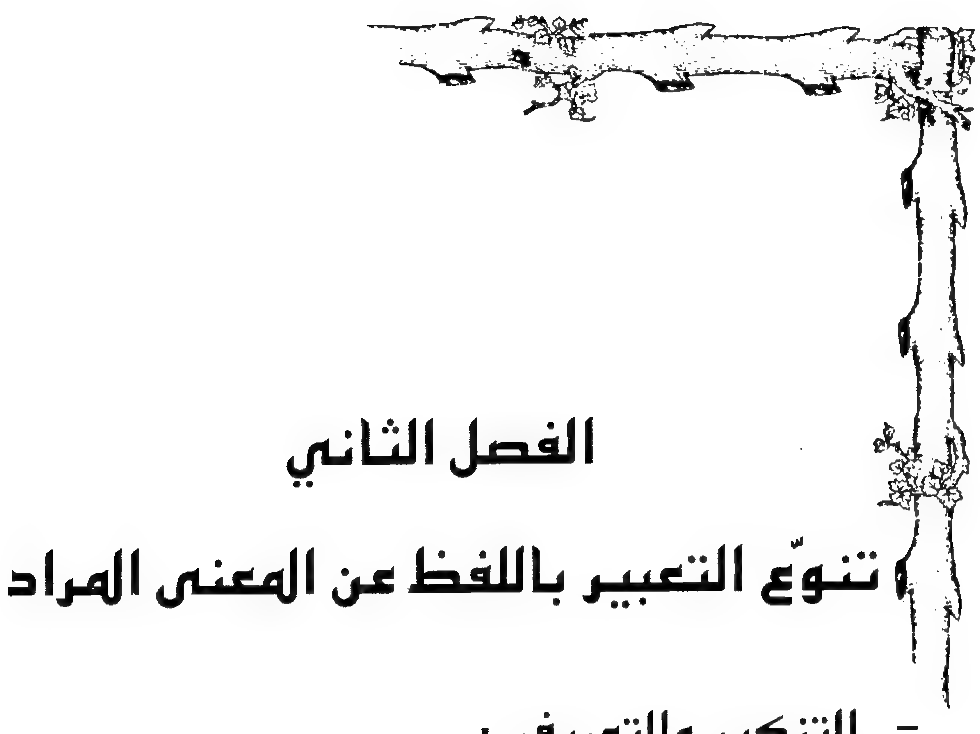
" والله ما الدنيا في الآخرة إلاّ كمثل مايجعل أحدكم إصبعه هذه في اليم فلينظر بم يرجع ؟"[١].

يقول الشيخ عبدالرحمن السعدي عن ظلال ذلك الاستفهام الإنكاري الذي وُجّه إلى المتثاقلين الراضين بالمتاع الدنيوي : " أفليس قد جعل الله لكم عقولاً تَزِنون بها الأمور وأيها أحق بالإيثار ؟ أفليست الدنيا – من أولها إلى آخرها – لانسبة لها في الآخرة ؛ فما مقدار عمر الإنسان القصير جداً من الدنيا ؛ حتى يجعله الغاية التي لاغاية وراءها ؛ فيجعل سعيه وكده وهمّه وإرادته لا يتعدى الحياة الدنيا القصيرة المملوءة بالأكدار المشحونة بالأخطار ، فبأي رأي رأيتم إيثارها على الدار الآخرة ، الجامعة لكل نعيم التي فيها ماتشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون ؟ فو الله ما آثر الدنيا على الآخرة من وقر الإيمان في قلبه ولا من جزل رأيه ولا من عُدّ من أولى الألباب "[٢].

لقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على وجوب الجهاد في كل حال ؛ لأنه تعالى نص على أن تثاقلهم عن الجهاد أمر منكر ، تضافرت كل دلائل الإنكار عليه بتلك العبارات المتقدمة في الآية ، ولو لم يكن الجهاد واجباً لما كان هذا التثاقل منكراً ، وليس لقائل أن يقول إنما يجب الجهاد في الوقت الذي يُخَاف هجوم الكفار فيه ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام ماكان يخاف هجوم الروم عليه ، ومع ذلك فقد أوجب الجهاد معهم [٣]. ولكن الراجح من أقوال العلماء أن أمر الوجوب العيني مرهون باستنفار الإمام أو بأن يدهم العدوّ المسلمين ، وماعدا ذلك فوجوبه فرض كفاية إذا قام من الأمة المسلمة من يكفي سقط الإثم عن الباقين [٤].لعموم قوله تعالى : ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة** .. ﴾[٥] الآية [٦].

---

(١) مختصر صحيح مسلم رقم الحديث : ٢٠٨٢ . بتحقيق محمد ناصر الدّين الألباني .
(٢) تفسير كلام المنان : ٢٣٣/٣ .
(٣) انظر : التفسير الكبير : ٦٠/١٦ .
(٤) انظر : الرسالة للشافعي : ٣٦٥-٣٦٦ ، وزاد المعاد : ٧١/٣-٧٢ . وفتح الباري : ٣٧/٦-٣٩ . وتفسير المنار : ٣٠٨/١٠ – ٣٠٩ .
(٥) التوبة : ١٢٢ .
(٦) ولمزيد من الوقوف علي الكلمات المصطفاة في هذا الحديث ، انظر : ٨٢ ، ١٢١ ، ١٧٩ ، ١٩٤ ، ١٩٨، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٦ ، ٢٤٠ ، ٢٩٩ ، ٣٠٥ ، ٣١٦ ، ٣٢٤ ، ٣٤٨ ، ٣٩٥ ، ٤٠٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢٨ ، ٤٥٦، ٤٦٠ ، ٤٨٩ ، ٤٩٢ ، ٤٩٧ ، ٥٢٧ ، ٥٩٠ .



الفصل الثاني

تنوّع التعبير باللفظ عن المعنى المراد

- التنكير والتعريف .
- الإظهار والإضمار .
- التعبير عن الماضي بالمستقبل وعكسه .
- الالتفات .

التنكـــيـر :

التنكير أسلوب من أساليب العرب في كلامها ، وليس له أداة سوى أن يُخْلى اللفظ من أدوات التعريف ، والأصل في الكلمة التنكير ؛ لكونه مطلقاً ، ثم يأتي التعريف ليحصر نوعه ويقيده بواحد من أوجه التعريف المعروفة عند النحاة[١] ، ولذلك قُدّم التنكير على التعريف في هذا المبحث .

وممن نظر في أسلوب التنكير عند البلاغيين أحمد بدوي ، وكان مما قال : " وقفت طويلاً عند الاسم النكرة ؛ أتبين ماقد يدل عليه التنكير من معنى ، ودرست ماذكر العلماء من معان . قالوا إن هذا التنكير يفيدها ، وبدا لي من هذا التأمّل الطويل أنّ النكرة يراد بها واحد من أفراد الجنس ، ويؤتى بها عندما لايراد تعيين هذا الفرد "[٢].

ثم يسوق المؤلف كلاماً دقيقاً يبيّن فيه : أن النكرة لايتحدد الغرض منها في الكلام إلاّ بحسب المقام الذي تورد فيه ؛ حيث يقول : " والنكرة بعدئذٍ تفيد معناها مطلقاً من كل قيد ؛ أما مايذكره علماء البلاغة من معان استفيدت من النكرة فإنها لم تفدها بطبيعتها ؛ وإنّما استفادتها من المقام الذي وردت فيه ؛ فكأنّما المقام هو الذي يصف النكرة ، ويحدّد معناها "[٣]. بمعنى أن موقعها في نظم الكلام وتأليفه هو الذي يَهَبُ لها الغرض البلاغي الذي يستفاد منها ؛ وذلك يتوقف على علاقتها بما قبلها في نسق الكلام وتأليفه ، كما يتوقف أيضاً على الغرض الذي تؤديه فيما بعدها ؛ بحيث يبنى عليها المعنى المراد . نجد ذلك واضحاً في الآيات التي تحدّثت عن قوم من بني اسرائيل نالتهم ذِلّة وغلبة عدوّ ؛ فطلبوا الأذن في الجهاد وأن يؤمروا به ؛ فلمّا أُمروا كَعَّ [٤] أكثرهم وصبر الأقل فنصرهم الله [٥]. وفيها يقول الله تعالى :

---

(١) انظر : بلاغة الكلمة والجملة والجمل : ٦٦ .
(٢) من بلاغة القرآن : ١٢٨ .
(٣) المصدر السابق : ١٢٨ .
(٤) يقال : كعّ الرجل وكاع : إذا جَبُن عن القتال .
(٥) انظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ٣/٢٤٤ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ أَن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾(١) . فيلاحظ أنه في أوّل الآية لم يكن المقصود تعيين النبي ولاتسميته بل المراد هو بيان أن قولهم ذلك كان موجّهاً إلى نبيّ من جنس الأنبياء بعث فيهم(٢) ، وليس من عامّة الناس هذا أمر ، وأمر آخر يلوح من وراء التنكير في " نبيّ "وهو إظهار أن " محلّ العبرة ليس هو شخص النبيّ ؛ فلا حاجة إلى تعيينه ، وإنّما المقصود حال القوم ، وهذا دأب القرآن في قصصه .. "(٣) . ونجد في النصّ الكريم نكرة أخرى هي في قول الملأ لنبيّهم [ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله ..] وقد نكّروا " ملكاً " ؛ ومرادهم أيّ ملك أو أيّ أمير تعينه علينا نصدر في تدبير الحرب عن رأيه ، وننتهي إلى أمره(٤) . وكأنّما أرادوا بذلك التيسير على نبيّهم ، والتوسعة بين يديه ، وعدم إعناته في هذا الأمر ؛ لأن جوهر أمرهم ولُبَّ مرادهم هو المقاتلة في سبيل الله ، ومناجزة العدوّ الذي أخرجهم من ديارهم وذبّح أبناءهم . وبذلك يتبيّن أن تينكما النكرتين [نبي ، وملكا] لم تكونا غايتين في ذاتهما ، وإنما هما وسيلتان في نظم الآية جيء بهما لتحقيق الغاية المرادة من الآية وهي كشف حال أولئك الملأ من بني إسرائيل مع الجهاد ؛ عندما تمنّوه ورغبوه فلمّا كتب عليهم تولّوا إلاّ قليلاً منهم ، وقد ظلموا أنفسهم بذلك ؛ والله عليم بالظالمين .

كذلك نلحظ التنكير في قوله تعالى [.. إلاّ قليلاً منهم ..] فقد نكّر عدد الذين ثبتوا ؛ فأجملهم ولم يذكر أسماءهم ؛ لأنّ تعريفهم لم يكن مقصوداً في السياق ، وإنما المراد بيان نسبة الذين ثبتوا من الذين تولّوا عندما فرض عليهم الجهاد ، ولما

---

(١) البقرة : ٢٤٦ . انظر إلى طائفة من العبر المستخلصة من الآية الكريمة ، وذلك في الصفحات : ٥٤٥ – ٥٥٨ ، ولذلك لم أستطرد في تحليلها هنا .

(٢) قيل إن ذلك النبي هو يوشع أو شمعون أو أشمويل . انظر : الكشاف : ١٤٨/١ ، والجامع لأحكام القرآن ٢٤٣/٣ .

(٣) التحرير والتنوير ٤٨٥/٢ .

(٤) انظر : الكشاف : ١٤٨/١ .

أدّى التنكير والإجمال الغرض هنا صرْف النظر عن التعريف ؛ إذ فيه زيادة استطراد وتفصيل ليست مرادة هنا .

ومن التنكير مايفيد الدلالة على النوعيّة [١] ؛ فيكون ذكر اللفظ مؤذناً بدخول سائر أنواعه فيه . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ** ﴾[٢] . فالتنكير هنا في كلمتي [حسنة ، وسيئة] يندرج تحتهما سائر أنواع الحسنات والسيئات . يقول الفخر الرازي : " المراد من الحسنة ههنا منفعة الدنيا على اختلاف أحوالها ؛ فمنها صحة البدن وحصول الخصب والفوز بالغنيمة والاستيلاء على الأعداء وحصول المحبة والألفة بين الأحباب .. ، والمراد بالسيئة أضدادها ، وهي المرض والفقر والهزيمة والانهزام من العدوّ وحصول التفرق بين الأقارب ، والقتل والنهب والغارة .. ؛ فبيّن تعالى أنهم يحزنون بحصول نوع من أنواع الحسنة للمسلمين ، ويفرحون بحصول نوع من أنواع السيئة لهم "[٣] . كما يقول ابن عطية : " الحسنة والسيئة في هذه الآية لفظ عام في كل مايحسن ويسوء ، وماذكر المفسرون من الخصب والجدب واجتماع المؤمنين ودخول الفرقة بينهم وغير ذلك من الأقوال فإنما هي أمثلة .. "[٤] . ومن ثَمّ فالمراد بالتنكير هنا الدلالة على النوعية ، ثم يدخل تحت نوع الحسنة والسيئة سائر مايندرج من أجناسهما مما مثل لهما وغيره . ومن بلاغة النظم القرآن أن استعمل في جانب الحسنة فعل الشرط [مَسَّ] وهو أدنى درجات الإصابة بالشيء [٥] . يقول الزمخشري : " فإن قلتَ : كيف وصفت الحسنة بالمسّ والسيئة بالإصابة ، قلتُ : المسّ مستعار لمعنى الإصابة ؛ فكان المعنى واحداً .. "[٦] .

---

(١) انظر : الإيضاح في علوم البلاغة : ٤٥ ومابعدها . مطبعة السنة المحمدية .

(٢) آل عمران : ١٢٠ . من الجدير ذكره أن الضمير في قوله تعالى [تسؤهم] يعود على المنهي عن اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين من سائر أنواع الكافرين . في قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لايألونكم خبالا** ... ﴾ آل عمران : ١١٨ .

(٣) التفسير الكبير : ٨/٢٠٢ .

(٤) المحرر الوجيز : ٣/٢١٢ .

(٥) انظر : لسان العرب . مادة [مس] .

(٦) الكشاف : ١/٢١٣ - ٢١٤ .

والذي يظهر أن الأمر ليس كما قال الزمخشري بل لابد من التفريق بين المسّ والإصابة ؛ فأدنى درجات الإصابة تُسمّى مسًا ، وماتدرّج نحو الكمال والتمكّن من المسّ يُسَمَّى إصابة ، ولهذا قال أبو السعود : " وذكر المسّ مع الحسنة والإصابة مع السيئة إمّا للإيذان بأن مدار مساءتهم أدنى مراتب إصابة الحسنة ، ومناط فرحهم تمام إصابة السيئة ، وإمّا لأن المسّ مستعار لمعنى الإصابة "(١) .

ومما يؤيد ماذهب إليه قول ابن عطية : " ذكر الله تعالى المسّ في الحسنة ليبيّن أن بأدنى طروء الحسنة تقع المساءة بنفوس هؤلاء المبغضين ثم عادل ذلك في السيئة بلفظ الإصابة ، وهي عبارة عن التمكن لأن الشيء المصيب لشيء هو متمكن منه أو فيه فدل هذا المنزع البليغ على شدّة العداوة إذ هو حقد لايذهب عند الشدائد بل يفرحون بنزول الشدائد بالمؤمنين "(٢) .

ويورد الألوسي كلاماً في هذا المعنى ينسبه إلى بعض المحققين حيث قالوا : " الأحسن والأنسب بالمقام ماقيل : إنه للدلالة على إفراطهم في السرور والحزن ؛ لأن المسّ أقل من الإصابة كما هو الظاهر فإذا ساءهم أقل الخير نالهم فغيره أولى منه ، وإذا فرحوا بأعظم المصائب مما يرثى له الشامت ويرق الحاسد فغيره أولى فهم لاترجى موالاتهم أصلاً فكيف تتخذونهم بطانة ؟ "(٣) .

ومن الجدير ذكره أن هذه الآية قد تضمّنت جملاً شرطيّة تمس موضوع التنكير؛ وبيان ذلك : أن مضمون جملتي الشرط الأوليين كان الغرض منه إبراز ضغائن أعداء المؤمنين ؛ فلما أظهر ذلك وبان ماكان خافيا عالج النظم الكريم ماعساه قد أهم المؤمنين ، وذلك من خلال جملة الشرط الأخيرة التي كان فيها إزالة الغم وتفريج الهم؛ فكان بين جمل الشرط مايشبه التقابل ؛ ففي الأوليين داء وفي الأخيرة دواء ·وفي ذلك يقول ابن عطية :"ولما قرر تعالى هذا الحال لهؤلاء المذكورين، وأوجبت الآية أن يعتقدهم المؤمنون بهذه الصفة جاء قوله تعالى :﴿ **وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا** ﴾تسلية للمؤمنين ، وتقوية لنفوسهم ، وشرط ذلك بالصبر والتقوى "(٤) .

---

(١) تفسير أبي السعود : ٥٤٣/١ .

(٢) المحرر الوجيز : ٢١٢/٣ .

(٣) روح المعاني : ٤٠/٤ . وانظر : التفسير القرآني للقرآن ، المجلد الأول : ٥٦٧ ففيه ماهو قريب المعنى من الكلام الآنف الذكر .

(٤) المحرر الوجيز : ٢١٢/٣ .

ومما يزيد صدر المؤمن راحة أن جاءت كلمة [.. شيئاً..] مصدراً منكَّرا ؛ لتدل على نفي أدنى الضرر وأعلاه ، في حاضر زمانهم وفي مستقبله ؛ فكل ضرر مدفوع ، بدفع الله تعالى وحفظه للمؤمنين من جميع المخاطر والأضرار مهما حَقُرت في شأنها أو صَغُرت في نوعها ، وهذا المعنى مستفاد من مجيء النكرة [شيئاً ..] بعد النفي المُسلَّط على الفعل المضارع المتقدم عليها .. [لايضركم كيدهم..] . ومعلوم أن المعنى يمكن أن يتم بالوقوف على [لايضركم كيدهم] ولكنّ كلمة [شيئاً] المنكَّرة مكّنت المعنى في نفوس أهل الإيمان ، وأدرجت تحتها سائر الأشياء مما يُتَصوّر ضَرره من كيد الكفار والمنافقين ، فنهاية مكائدهم مهما تكاثرت لاتقع أضرارها على المؤمنين ، وإن كان فعل هذه المكائد يقع منهم ابتداء ؛ بدليل أن الله عز وجل سماها كيدا وأضافها إليهم ، ولاتكون كذلك إلا إذا تميّزت واستحقت ذلك الاسم. وفي ذلك إشارة إلى أن أهل الكفر في كل زمان على تعدّد أمكنتهم وتنوّع فئاتهم ، يُنفقون أموالهم ، ويُجْهدون أذهانهم ، في وضع مخططات الكيد والعداء ، في سبيل النيل من المسلمين ، وإلحاق الأذى بهم ، ولكن الله تعالى - بمنّه ولطفه - لهم بالمرصاد ، فهو محيط بأعمالهم ، مطلع على نيّاتهم وماتخفي صدورهم ، فيُذهِب عاقبة كيدهم ، بل يقلبه عليهم حَسْرة وكمدا ؛ كما قال تعالى :﴿ **وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ** .. ﴾(١)، وقال أيضاً :﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ** ﴾(٢). ولهذا فإذا نال المؤمنين شيء من ذلك الكيد فهو ناتج عن تقصيرهم في تحقيق مافي مضمون فعل الشرط وهو الصبر والتقوى ؛ فإذا لم يحققوا ذلك أو قصّروا فيه فلا ينتظروا أن يكون الجواب كاملاً محقَّقا ؛ وعلى ذلك ففي أسلوب الشرط في الآية تعريض ؛ مضمونه : أن إصابتهم بشيء من كيد الأعداء مُرَتَّب على تقصيرهم في حقّ خالقهم من جهة الصبر أو التقوى ، فليفتشوا عن موضع ذلك الخلل حتى يتلافوه فتستقيم أحوالهم ويدخلوا في حيّز حزب الله الذين لاخوف عليهم ولاهم يحزنون .ثم كانت فاصلة الآية وختامها كالعاصم للمؤمنين من كيد الكافرين ؛ إذا

---

(١) فاطر : ٤٣ .
(٢) الأنفال : ٣٦ .

حققوا مابينهم وبين مولاهم عز وجل وهو الذي انطوى عليه فعل الشرط ومناطه من الصبر والتقوى حيث قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ ، وزاد في تسلية المؤمنين ، وطمأنة نفوسهم أمران أولهما : توكيد إحاطته سبحانه بسائر أعمال الكفار ضد المؤمنين ؛ بأسلوبين :اسمية الجملة ، وإدخال حرف التوكيد المثقّل عليها . وثانيهما : تقديم الموصول وصلته على خبر إنّ اعتناء بما في حيّز الصلة . كما أن كون صلة الموصول فعلاً مضارعاً فضل آخر من الله تعالى للمؤمنين ، إذ المضارع يدل على التجدد والحدوث ؛ فكلّ مايعملونه في حاضرهم ، أو في مستقبل أزمانهم مندرج في علم الله تعالى وإحاطته ، ومن ثَمَّ فلا يضير المؤمنين شيء مهما كان ماداموا متحلين بصفتي الصبر والتقوى .

ثم تأمل في دقيق نظم الآية حيث لم تُفْرِد الصَّبر وحده في سياق الشرط بل عَطَفَت عليه التقوى ؛ ذلك أن الصبر وحده لاينهض بتحقيق المراد ؛ لأنّه مُرٌّ عَلْقم ماكُلٌّ يطيقه ، ولهذا فلابد من أن يكون الصبر مُؤَسَّساً على أمر يُلَطّفه ويَنْهض عليه ؛ ولم يكن إلاّ التقوى ؛ ولهذا جاء عطفها على الصبر ؛ كما جاء ترتيب الصبر عليها ؛ فكانت كالأسّ له وكان هو كالرأس لها ؛ فصبر بلا تقوى لايُطاق ، وتقوى بلا صبر لاتدوم ؛ فعلم بذلك أنه لابد من اجتماعهما كليهما حتى يتحقق الظَّفَر ، وينتفيَ الضُّرر؛ فسبحان مَنْ قال ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾.

ومن النكرات مايكون غرضها التفخيم والتعظيم حتى تقع في نفس السامع موقعاً مؤثراً . ومن ذلك ماجاء في قوله تعالى : ﴿ لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[١]. فالفائدة من تنكير [درجة] هنا هي التفخيم ، والمراد بالدرجة ليس هو الدرجة الواحدة بالعدد بل بالجنس ، والواحد بالجنس يدخل تحته الكثير بالنوع[٢]. والملاحظ أن هذا التفخيم في التنكير قد مهَّد له صدر النظم في الآية ألا

---

(١) النساء: ٩٥ ، ٩٦ .

(٢) التفسير الكبير : ١١/٨-٩ . وانظر تفسير أبي السعود : ٧٦٤/١ .

وهو نفي المساواة بين القاعدين من غير ذوي الضرر والمجاهدين في سبيل الله ، بحيث جعل منزلة الفريقين متباينة مبهمة تذهب النفوس في تصوّرها كل مذهب، يقول صاحب " البحر " : " .. وإنّما عنى نفي المساواة في الفضل ، وفي ذلك إبهام على السامع ، وهو أبلغ من تحرير المنزلة التي بين القاعد والمجاهد ، فالمتأمل يبقى مع فكره ، ولايزال يتخيل الدرجات بينهما "[(١)].

ونفي المساواة بين الفريقين يحدث هزّة نفسية عند القاعدين من غير ذوي الأضرار ، تبعثهم نحو التفكير في شأنهم وإنهاض حالهم وعدم الرضا بما هم فيه ؛ فقد سبقهم غيرهم بالدرجات العلا ، كما أن فيه : " توبيخاً للقاعد عن الجهاد بغير عذر وتحريكا له عليه "[(٢)] . وقد كان نفي استواء القاعدين والمجاهدين مثار تساؤل أجيب عنه بما يبيّنه ويكشف عن فضله في قوله :﴿ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ﴾ .

يقول الألوسي : " ولكون الجملة مبيّنة وموضحة لما تقدم لم تعطف عليه وجوز أن تكون جواب سؤال ينساق إليه المقال لأنه قيل : كيف وقع ذلك التفضيل ؟ فقيل : فضل الله .. "[(٣)].

أما تكرير التفضيل مرة أخرى بالفعل نفسه وبحرف العطف فقد كشف عنه وعمّا بعده العلامة الألوسي قائلاً : " ولعل تكرير التفضيل بطريق العطف المنبئ عن المغايرة وتقييده تارة بدرجة وأخرى بدرجات مع اتحاد المفضّل والمفضل عليه حسبما يستدعيه الظاهر - إمّا لتنزيل الاختلاف العنواني بين التفضيلين وبين الدرجة والدرجات منزلة الاختلاف الذاتي تمهيداً لسلوك طريق الإبهام ثم التفسير رَوْماً لمزيد التحقيق والتقرير المؤذن بأن فضل المجاهدين بمحلّ لاتستطيع طير الأفكار الخضر أن تصل إليه "[(٤)] . ويردف قائلاً : " ثم أراد جل شأنه تفسير ما أفاده التنكير بطريق الإبهام بحيث يقطع احتمال كونه للوحدة ؛ فقال ماقال وسدّ باب الاحتمال ، ولايخفى

---

(١) البحر المحيط : ٣/٣٣٠ .

(٢) تفسير القرآن الجليل للنسفي : ٣٤٨/١ .

(٣) روح المعاني : ١٢٢/٥ .

(٤) روح المعاني : ١٢٣/٥ .

مافي الإبهام والتفسير من اللُّطف " (١) . ثم تأمّل كيف تدارك الله عز وجل نفوس القاعدين من ذوي الضّرر بعد بيان منزلة المجاهدين بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وأنهم فُضّلوا عليهم بدرجة عظيمة . قال عز وجل على سبيل الاعتراض المبيّن للحال .. ﴿ وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ . والغرض من هذه الجملة المعترضة هو تدارك ماعسى أن يوهمه تفضيل أحد الفريقين على الآخر من حرمان المفضول ، ومسارعة إلى تسليته (٢) . ويُلمح نكتة أخرى في تكرير التفضيل بعد ذكر الوعد بالجنة للجميع وهي : " الإشارة إلى أنه لاينبغي للمؤمنين أن يقنعوا بالوعد الحسن الذي يتضمّنه قوله ﴿ وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ فيتكاسلوا عن الجهاد في سبيل الله ، والواجب من السعي في إعلاء كلمة الحق وإزهاق الباطل فإن فضل المجاهدين على القاعدين مما لايستهان به من درجات المغفرة والرحمة "(٣) .

وممن تأمّل نظم الآية وحسن الانتقال فيها من حالة إلى أعلى منها الشيخ عبدالرحمن السعدي حيث قال : " وتأمّل حسن هذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها ؛ فإنه نفى التسوية أولا بين المجاهد وغيره ، ثم صرح بتفضيل المجاهد على القاعد بدرجة ، ثم انتقل إلى تفضيله بالمغفرة والرحمة والدرجات . وهذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها عند التفضيل والمدح أو النزول من حالة إلى مادونها عند القدح والذم أحسن لفظاً وأوقع في النفس . وكذلك إذا فضل تعالى شيئاً على شيء وكلٌّ منهما له فضل احترز بذكر الفضل الجامع للأمرين ؛ لئلا يتوهّم أحد ذمّ المفضَّل عليه ، كما قال هنا [وكلاً وعد الله الحسنى] . وكما قال تعالى في الآيات المذكورة في " الصف " في قوله : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(٤) وكما في قوله تعالى :﴿ لاَيَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ﴾(٥) أي : ممن لم يكن كذلك ، ثم قال : [وكلاً وعد الله الحسنى] ، وكما قال تعالى :﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾(٦).

---

(١) روح المعاني : ٥/١٢٤ .

(٢) انظر : تفسير أبي السعود : ١/٧٦٤ - ٧٦٥ . بتحقيق عبدالقادر أحمد عطا ، مطبعة السعادة ، الناشر : مكتبة الرياض الحديثة بالرياض .

(٣) الميزان في تفسير القرآن : ٥/٤٦ .

(٤) الصف : ١٣ .

(٥) الحديد : ١٠ .

(٦) الأنبياء : ٧٩ .

فينبغي لمن يبحث في التفضيل بين الأشخاص والطوائف والأعمال أن يفطن لهذه النكتة ، وكذلك لو تكلم في ذمّ الأشخاص والمقالات ذكر ماتجتمع فيه عند تفضيل بعضها على بعض ؛ لئلاً يتوهم أن المفضل قد حصل له الكمال ؛ كما إذا قيل : النصارى خير من المجوس ، فليقل - مع ذلك - وكل منهما كافر ، والقتل أشنع من الزنا وكلّ منهما معصية كبيرة حرمها الله ورسوله وزجر عنها "(١).

وأما مناسبة فاصلة الآية لمضمونها فهو ظاهر ، وذلك أنه " لما وعد المجاهدين بالمغفرة والرحمة الصادرين عن اسميه الكريمين [الغفور الرحيم] ختم هذه الآية بهما فقال [وكان الله غفوراً رحيما] "(٢).

وقريب من نظم الآيتين السابقتين آيات أخر في سورة [التوبة] ورد فيها إطراء للمؤمنين الذين هاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ؛ فقد رفع الله سبحانه مقامهم ، وعظّم منزلتهم ، وبشّرهم بالخير من جميع أبوابه ، وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَيَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَيَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾(٣).

وقد اختلف أهل التأويل في الذين تسلّط عليهم الاستفهام الإنكاري : أهم المشركون الذين افتخروا على المسلمين بسقيا الحجيج ، وتعمير المسجد الحرام ؟ أم هم طائفة من المسلمين فضلوا تلك الأعمال على سواها مما هو أفضل منها كالهجرة إلى الله والجهاد في سبيله بالمال والنفس .. ؟(٤).

---

(١) تفسير كلام المنّان : ١٣٥/٢ - ١٣٦ .

(٢) تفسير كلام المنّان : ١٣٦/٢ .

(٣) التوبة : ١٩-٢٢ .

(٤) انظر تفاصيل ذلك في كتب التفسير ومنها : الجامع لأحكام القرآن : ٩١/٨-٩٢ وهو من خير من جميع بين الروايات ورجح وعلل ، والبحر المحيط : ٢٠/٥-٢١ ، والتفسير الكبير : ١١/١٦-١٧ ، وتفسير أبي السعود : ٥١/٤ - ٥٣ ، وفتح القدير : ٣٤٤/٢ - ٣٤٦ ، وروح المعاني : ٦٦/١٠-٧٠ وغيرها .

والذي أميل إليه أن الفريق المنكَر عليه هم المشركون ، وهذا هو الذي رجحه بعض الأعلام من المفسرين كالقرطبي[١] ، والذي يعزّز هذا الترجيح ويرشد إليه أسلوب نظم الآية الأولى ، وذلك بما ورد فيها من دلائل وإشارات تتوجه نحو المشركين وتلحّ عليهم وتسخر من مذهبهم ، وتجعلهم في سلك الضالين الظالمين .

وأوّل مايقع التساؤل عنه في الآية هو لماذا أسقط النظم القرآني الكريم أصحاب السقاية والعمارة ، فلم يذكرهم بالاسم ، بل تجاهلهم وأعرض عنهم إلى ذكر أعمالهم، في حين توجّه إلى المؤمنين فنصّ على ذكرهم باسم الموصول ، ثم طفق يذكر صفاتهم في حيّز الصلة ؟ وكان مقتضى الموازنة أن تكون بين أعمال وأعمال ، أو بين أشخاص وأشخاص ، ولهذا فقد لجأ بعض النحاة إلى تقدير محذوف في أحد الطرفين ، مضمونه : أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كإيمان من آمن بالله واليوم الآخر ، وعلى هذا التقدير تكون الموازنة بين عمل وعمل . وصورة التقدير الثاني : أجعلتم أصحاب سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر .. ؟[٢] وعلى هذا التقدير تكون الموازنة بين أشخاص وأشخاص .

ولكن السرّ البلاغي في إسقاط ذكر المشركين وعدم إظهارهم يكشف عنه : عبدالكريم الخطيب حيث يقول : " والحديث عن هذه الأعمال دون الحديث عن أصحابها يشير إلى أن أصحابها لامعتبر لهم في موازين الناس ماداموا على غير الإيمان ، وعلى هذا التقدير جاء النظم القرآني بأعمالهم ، ولم يجئ بهم ؛ إذ كانت الأعمال في ظاهرها حسنة طيبة ، ولكنها لاتعود بثمرة عليهم ولاتضاف لحسابهم .. أما المؤمنون بالله واليوم الآخر والمجاهدون في سبيل الله ؛ فإنهم بإيمانهم بالله وباليوم الآخر بالجهاد في سبيله أصبحوا هم الصورة الكاملة للإنسان الكامل الذي يُنْظَر إليه وإلى أعماله كأصل أصيل في تقويم الناس وأعمال الناس "[٣]. فتبيّن أن خروج النظم القرآني على خلاف مقتضى سنّة العرب في التشبيه والموازنة بين أمرين إنما هو لغرض بلاغي ، وهو الذي مرّ بيانه آنفا .

---

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٨/٩٢ .

(٢) انظر : البيان في غريب إعراب القرآن : ١/٣٩٦ ، وانظر : التبيان في إعراب القرآن : ٢/٦٣٩ .

(٣) التفسير القرآني للقرآن : المجلد الثالث : ٧١٩ - ٧٢٠ .

ومما يؤكد أن المعنيَّ بالإنكار هم الكفار أسلوب الالتفات الذي وقع عليه الإنكار في رأس الآية الكريمة : فقد استحضرهم بضمير الخطاب بعد أن كان يتحدث عن المشركين في الآيتين السابقتين بأسلوب الغيبة [١]، وكان الغرض من استحضارهم بالضمير مع تجاهل ذواتهم هو إبراز مقالتهم التي بها يفتخرون ؛ تمهيداً لتسليط الضوء عليها حتى تتساقط متهافتة بأسلوبين ، بهمزة الإنكار المثيرة للدهشة والاستغراب من جانب كل منصف عاقل ، ثم بحرف التشبيه الذي دخل على موصول أبرز في صلته ماهو كفيل بنفي المساواة بَلْهَ المفاضلةَ المزعومة .

وفي ذكر الإيمان والنصّ عليه في جانب المشبَّه به دليل آخر على أن المقصود بأصحاب أعمال المشبَّه هم المشركون [٢]. كما أن فيه " تقوية للإنكار ، وتذكيراً لأسباب الرجحان ومبادئ الأفضلية ، وإيذاناً بكمال التلازم بين الإيمان وماتلاه "[٣].

ونفي التساوي والتشابه في قوله تعالى [لايستوون] نفي للأفضلية بالطريق الأولى [٤]. وإسناد عدم الاستواء إلى الموصوفين لأن الأهمّ هو بيان تفاوتهم[٥] ، ولكونهم هم الذين تصدر عنهم الأعمال ؛ فهي تبع لوجودهم . كما أنّ في ذلك أيضاً ترجيحاً ظاهراً للمؤمنين ؛ لأنهم هم الذين ذكروا في الآية بأوصافهم وذواتهم ، أما المشركون فقد ذكروا بأعمالهم فقط .

وجملة [لايستوون] استئنافية مقررة لمضمون الإنكار المتقدم ومؤكدة له[٦] ؛ ولهذا فصلت عنها لما بينهما من كمال الاتصال الذي يوجب إسقاط حرف الوصل بينهما .

---

(١) وذلك في قوله تعالى : ﴿ ماكان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون ، إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ، أجعلتم سقاية الحاج .. ﴾ الآيات .

(٢) انظر : التفسير الكبير : ١٢/١٦ .

(٣) تفسير أبي السعود : ٥٣٤/٢ .

(٤) انظر : تفسير أبي السعود : ٥٢/٤ .

(٥) انظر : تفسير أبي السعود : ٥٢/٤ .

(٦) انظر : تفسير أبي السعود : ٥٢/٤ .

وتعليق المساواة المنفية بالظرف المضاف إلى لفظ الجلالة [لايستوون عند الله] فيه إشعار بأن الأمر جدّ وليس هزْلا ، وأن نفي التشابه بين الفريقين ليس على مستوى عقلاء البشر فحسب ؛ بل إن الحكَم في ذلك هو الله عزّ وجل خالق البشر ؛ فهو الذي نفى ذلك ، ومنه يُؤخذ الحكم ، وتُعرف الموازين ؛ فما رَفَعه الله فهو الرفيع ، وماوَضَعه فهو الوضيع لامعقّب لحكمه ٠ وإظهار لفظ الجلالة في هذا الموضع يضفي على المقام هيبة وجلالا ، وفيه من تسلية المؤمنين ، وتطييب نفوسهم مالايخفى٠

وقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ترجيح ظاهر آخر لأحد الفريقين وهو فريق المؤمنين(١) ؛ ذلك لأن المشركين قد ظلموا أنفسهم من ثلاثة أوجه :

أولها : - أنهم - كغيرهم من الناس - قد خُلقوا لعبادة الله تعالى وحده كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾(٢)، وقد قامت فيهم الدعوة إلى الإسلام ، وتظاهرت عليهم الحجج والبراهين في هذا السبيل ؛ ولكنهم أبوا وتنكّبوا الصراط المستقيم ، ووضعوا أنفسهم في غير ماوضعت له ، وفي غير ماخلقت من أجله، فأشركوا مع الله غيره ، وأعرضوا عن التوحيد ، وهذا أعظم أنواع الظلم (٣)، كما قال تعالى ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾(٤).

والثاني : - ظلمهم الواقع على المسجد الحرام ؛ فإنه بيت الله المحرم ، ومسجده المعظّم ، ومابني إلاّ لعبادة الله وحده دون إشراك غيره معه في العبادة كما قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً ﴾(٥) إلاّ أن المشركين قد خالفوا ذلك فوضعوا فيه من الأصنام مالا يتفق مع الغرض الذي بني من أجله ، وهذا ظلم ظاهر ٠

وأمّا الثالث : - فهو ظلمهم الذي نطقت به الآية الكريمة المتضمّن تفضيلهم السقاية والعمارة على الإيمان والهجرة والمجاهدة في سبيل الله ؛ ولهذا فقد ناسب أن تكون فاصلة الآية نافية الهداية عن أولئك المشركين ، الذين جمعوا بين أنواع الظلم

---

(١) انظر : التفسير الكبير : ١٢/١٦ ٠ وانظر : البحر المحيط : ٢٠/٥ ٠

(٢) الذاريات : ٥٦ ٠

(٣) المفردات في غريب القرآن : ٣١٦ ٠

(٤) لقمان : ١٣ ٠

(٥) الجن : ١٨ ٠

المتعدّدة ؛ فهؤلاء ليسوا مستحقين للهداية ، وأعمالهم لاترقى في سلّم القبول ؛ بل إنهم كما قال الله تعالى عنهم : ﴿ مَاكَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾(١).

وقوله تعالى :﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ‥﴾ وثيق الصلة بالآية التي قبلها ؛ فهي استئناف مبيّن لها ، ولهذا فقد فصلت عنها ؛ وسيقت لبيان مراتب المؤمنين الموصوفين بتلك الصفات ؛ زيادة في الردّ على المشركين ، وتكميلاً له (٢)، وتمهيداً لبيان منزلتهم عند الله تعالى ٠ وأما زيادة ذكر الهجرة ، وتفصيل نوعي الجهاد بذكر النفس والمال ؛ فللإيذان بأن ذلك من لوازم الجهاد ، لا أنه أُعتبر بطريق التدارك أمر لم يعتبر فيما سلف (٣).

وقوله تعالى : ﴿ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ﴾ إخبار عن منزلة أولئك الذين دخلوا في حيّز الصلة ، و [درجةً] تمييز مبيّن لماهيَّة الأعظمية ، وكاشف عن حقيقتها في ميزان الله جلّ وعزّ ، فجاءت هذه النكرة وماتلاها من النكرات في الآيتين اللاحقتين ‥ كالغاية في نظم الآية ، مفصحة عن خطل المشركين في زعمهم ، ومظهرة مقام المؤمنين المتصفين بما ذكر ؛ فإذا به متناه في العظمة ، تقصر دونه منازل الخلق مهما صلحت بعض أفعالهم ٠ ويعلّل ابن عطية استحقاق المؤمنين المذكورين لهذه المنزلة بقوله : " لأن أصحاب هذه الخصال على سيوفهم انبنى الإسلام ، وهم ردّوا الناس إليه "(٤).

ومجيء الخبر بصيغة أفعل التفضيل أحدث سؤالاً : أهو على حقيقته ؟ أم قصد به المبالغة في الفضل وعلوّ المرتبة والمنزلة ؟ فإن كان المقصود هو الثاني فالأمر بيّن هيّن (٥). وإن كان التفضيل على الحقيقة وأن المفضَّل عليه يشارك المفضَّل في جنس الفضل فإن الجواب عن ذلك بأحد احتمالين : " الأوّل أن يقال : حذف المفضَّل عليه إيذاناً بالعموم ٠ أي إنّ هؤلاء المتصفين بهذه الصفات أعلى رتبة وأكثر كرامة ممن لم

---

(١) التوبة : ١٧ .

(٢) انظر : روح المعاني : ٦٨/١٠ .

(٣) انظر : تفسير أبي السعود : ٥٢/٤ .

(٤) المحرّر الوجيز : ١٥١/٨ .

(٥) انظر : روح المعاني : ٦٨/١٠ .

يتصف بها كائناً من كان ، ويدخل فيه أهل السقاية والعمارة ، ويكفي في تحقيق حقيقة أفعل وجود أصل الفعل في بعض الأفراد المندرجة تحت العموم ؛ كما يقال : فلان أعلم الخلق مع أن منهم من لايتصف بشيءمن العلم ، بل لايمكن أن يتصف به أصلا .. "[١]. والاحتمال الثاني : - أن يكون ذلك قد جرى على أسلوب التنزّل مع الخصم والمجاراة لفهمه ؛ " ويكون ذلك على تقدير اعتقاد المشركين بأن في سقايتهم وعمارتهم فضيلة ؛ فخوطبوا على اعتقادهم "[٢].

يقول القرطبي : " وليس للكافرين درجة عند الله حتى يقال :المؤمن أعظم درجة، والمراد أنهم قدّروا لأنفسهم الدرجة بالعمارة والسقي ؛ فخاطبهم على ماقدّروه في أنفسهم ، وإن كان التقدير خطأ ؛ كقوله تعالى : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا ﴾[٣] "[٤]. وإضافة العندية إلى الله عزّ وجل هو الذي رفع من شأن تلك الدرجة ، وجعَلَها فخمة معظّمة ، تتقاصر العقول البشرية في تصوّرها ، والإحاطة بحقيقة كنهها ؛ مما يجعل نفوس المؤمنين تشرئبّ إليها ، وتتعلق بسلّمها ، في سبيل إدراكها ، والحظوة بها ومما زاد ذلك التعلّق في النفوس وأكّده مجيء المعطوف باسم الإشارة البعيد ؛ مؤذناً ببُعْد منزلة القوم في الرفعة والكرامة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ وقد أكّد حقيقة الأمر المذكور وأبرز أصحابه ضمير الفصل [هم] ، وتحلية المسند الواقع خبراً بالألف واللام وانتظامه بعد ضمير الفصل يفيد قصر الفوز بتلك المنازل العظيمة على أولئك الذين تقدّمت صفاتهم ؛ وهذا القصر قد أفاد المبالغة ، واستغراق أجناس الفوز ؛ " حتى إنّ فوز غيرهم بالنسبة إلى فوزهم يُعَدّ كالمعدوم "[٥]؛ فلا يستحق الإشارة إليه ، فضلاً على أن يذكر . وغنيّ عن البيان أن فوزهم بتلك الدرجة العظيمة إنما هو ثمرة تلبُّسهم بتلك الصفات ، وتحقيقهم لها ، وهي : الإيمان والهجرة والجهاد بالأموال والأنفس ؛ وهذا هو الذي أفاده اسم الإشارة العائد إلى المنعوتين بها[٦] ؛ فمن لم يكن كذلك فلا يستحق ذلك .

---

(١) روح المعاني : ١٠/٦٨ - ٦٩ .
(٢) البحر المحيط : ٥/٢١ . وانظر : التفسير الكبير : ١٦/١٤ ، وروح المعاني : ١٠/٦٩ .
(٣) الفرقان : ٢٤ .
(٤) الجامع لأحكام القرآن : ٨/٩٣ .
(٥) التحرير والتنوير : ١٠/١٤٨ .
(٦) انظر : التحرير والتنوير : ١٠/١٤٩ .

ثم شرع عز وجل في بيان تلك المنزلة العظيمة بنكرات أخرى زادتها فخامة وتعظيماً ، فقال تعالى : ﴿ **يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾ وسرّ ترك الوصل بين هذه الآية والتي قبلها هو كون الآية الأخيرة مبينة لسابقتها ومفسّرة لها ؛ فبينهما كمال اتصال في المعنى ، يقتضي الاستغناء به عن الحرف الواصل .

واختيار فعل التبشير دون غيره لتوضيح عظم المنزلة ، يوقع في نفوس المُبَشَّرين أثراً حميدا ، ويجعل نفوسهم تزداد إلى مابُشّروا به شوقا ، ولاسيما وأن أسلوب التبشير قد وقع بصيغة الفعل المضارع ؛ الذي يفيد تجدّد الفعل وتعاقب مادته تارة بعد أخرى في الحال أو الاستقبال ؛ مما يجعل المعنيّين يَفْطنون إلى صفاتهم ، ويتفقدون ذواتهم أهُم يرقون إلى مستوى التبشير والخطاب به ؟ أم تقصر بهم هممهم دون تلك المنازل ؟

ويزيد في عظمة الموقف وجدّية الأمر كون فاعل التبشير والقائم به هو الرّبّ جلّ وعلا ؛ فقد أسند فعل التبشير إلى ذاته الكريمة ؛ " وبشارة كل أحد يجب أن تكون لائقة بحاله ؛ فلما كان المُبَشّر هاهنا هو أكرم الأكرمين ، وجب أن تكون البشارة بخيرات تعجز العقول عن وصفها ، وتتقاصر الأفهام عن نعتها "[(١)] . ومن مزيد العناية بجناب المُبَشَّرين ، والإسراع في إدخال السّرور على نفوسهم أن قَدَّم ضميرهم في الذكر على اسمه الكريم ، ثم أضاف اسمه الكريم إليهم تشريفاً لهم ، ورفعاً لمقامهم عنده تعالى وأمام الخلق أجمعين . كما أنّ في التعرض لعنوان الربوبية تأكيداً للمبشَّر به[(٢)] ، وتذكيراً بآلاء الله ونعمه المترادفة ، والتي من أعظمها ماسيذكره مما وعدهم به من الخيرات والمسَّرات .

ثم شرع سبحانه في ذكر البشائر بادئاً بأسّها ومفتاحها وهي الرحمة ؛ فنكَّرها تعظيماً لها أي رحمة لايبلغها وصف واصف[(٣)] ، وزاد في تعظيم هذه الرحمة أن أسندها إليه سبحانه ؛ بإدخال حرف الجرّ [من] على الضمير العائد إلى الربّ

---

(١) التفسير الكبير : ١٦/١٦ .

(٢) انظر تفسير أبي السعود : ٥٣/٤ .

(٣) انظر : البحر المحيط : ٥/٢١ .

المتفضّل بالخير كلّه ، وفي ذلك زيادة تكريم للمبَشَّرين ، وطمأنة لنفوسهم بأنّ مابُشّروا به وعد حقّ ، وأن تلك الرحمات وذلك الإنعام منه سبحانه لامن أحد سواه فلتطمئن القلوب ولتقرّ العيون بموعودها ٠

وقد بدأ عزّ وجل بذكر الرحمة لأنّ قلوب العباد تخفق لها ونفوسهم تكدح من أجل الظّفر بها ، وفيها إسراع بالتعويض العاجل من البرّ الرحيم لعباده الذين تركوا ديارهم هجرة إليه سبحانه ونصبوا نفوسهم وبذلوا أموالهم في سبيله جهاداً واستشهادا ٠

ثم ثنّى عزّ وجل بالبشارة الثانية وهي : الرضوان ٠ وجعل ذلك الرضوان منكّراً ؛ ليفيد التعظيم ؛ ذلك أن الرضوان في الأصل : " الرضا الكثير ؛ ولما كان أعظم الرّضا رضا الله تعالى خُصّ لفظ الرضوان في القرآن بما كان من الله تعالى قال عزّ وجل : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ﴾(١) ٠ وقال تعالى : ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾(٢) ٠ وقال : ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ ﴾(٣) "(٤) ٠

---

(١) الحديد : ٢٧ ٠

(٢) الفتح : ٢٩ ٠

(٣) التوبة : ٢١ ٠

(٤) المفردات : ١٩٧ ٠

والبشارة الثالثة هي قوله [وجناتٍ٠٠] وقد جاءت - أيضاً - منكّرة ، وذلك لقصد تعظيم هذه الجنان وتفخيمها ، وأمّا كونها قد جاءت بصيغة الجمع فذلك بالنظر إلى مراتبها وأنواعها ، وأنواع النعيم فيها[١]٠ ولهذا فقد جاء نعت تلك الجنّات مفصولاً عنها لكمال الاتصال بينهما فقال سبحانه : ﴿ **لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا** ﴾ وذلك النعيم عظيم تتقاصر العقول في إدراك عظمته والإحاطة بكنهه ، ولهذا فقد جاء في الحديث الشريف في وصف الجنة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [قال الله عز وجل : أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر ، واقرؤوا إن شئتم ﴿ **فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ** ٠٠﴾[٢] "

ونعيم تلك الجنات جاء منكّراً لغرض تعظيمه مع تكثير جنسه ، قال الراغب : " والنعيم النعمة الكثيرة ٠٠٠ وتنعّم تناول مافيه النّعمة وطيب العيش ، يقال نعّمه تنعيماً فتنعّم أي جعله في نعمة أي لين عيش وخصب "[٣].

والذي يظهر أن النَّعيم غير النّعمة والنّعم ، فالنعيم أَثَر عن النّعم ، ناتج عنها ، وثمرة لها ، يَظْهر في ظلالها ، وأمّا النِّعَم : فهي حقيقتها وأنواعها وأجناسها ، ولهذا فإن وجود ذلك النعيم المقيم في الجنّات يقتضي ابتداء وجود سببه وهو النِّعم المترادفة ذات الأنواع المتعدّدة التي يحصل من أثرها التنعّم بها والتلذُّذ بأطايبها ٠ يقول القرطبي : " النعيم : لين العيش ورغده "[٤]٠ ويقول ابن عاشور : " والنعيم : مابه التذاذ النفس باللذات المحسوسة ، وهو أخصّ من النعمة "[٥]٠ووصف النعيم بالإقامة استعارة للدوام والاستمرار ، أي نعيم دائم لاينفد ولايزول[٦]٠

---

(١) انظر : التحرير والتنوير : ١٠/١٤٩ ٠

(٢) السجدة : ١٧ ٠ والحديث رواه البخاري في صحيحه : ٦/٢٣٠ في بدْء الخلق ٠ ومسلم برقم ٢٨٢٤ في الجنّة ٠

(٣) المفردات : ٤٩٩ ٠

(٤) الجامع لأحكام القرآن : ٨/٩٣ ٠

(٥) التحرير والتنوير : ١٠/١٥٠ ٠

(٦) انظر : روح المعاني : ١٠/٦٩ ٠

وقوله تعالى : [خالدين فيها أبدا] بيان لحالهم ، وبشارة أخرى تزف لهم ، وزيادة تطمين لقلوبهم ، وتحريك لأطماعهم ورغباتهم ؛ فليس ذلك النعيم في تلك الجنات لَمْظَةً تنتهي بل هم فيه خالدون ، وخلودهم هذا أبديّ ، وليس مكثاً طويلاً ثم يزول ، أكّدت ذلك وأثبتته الحال الأخرى [أبدا] المقررة لمضمون الحال الأولى [خالدين] ؛ كما أن هذا الخلود ليس مطلقاً غير محدد المكان بل هو صريح مقرر في الجنات بدليل عود الضمير على الجنات المتقدم ذكرها ، فانتفت شبهة التحوّل أو الانتقال ، وسكنت النفوس إلى موعود ربها في ثقة وأمان .

وقوله عز وجل في فاصلة الآية [إنّ الله عنده أجر عظيم] استئناف سيق تعليلاً لما سبق ؛ كأنه قيل : لاتعجبوا مما أعد الله للمهاجرين المجاهدين في سبيله فذلك فيض من غيض وقليل من كثير مما عند الله عز وجل ، و [أجرٌ] نكرة أريد بها التعظيم ولهذا وصفت بذلك فزادها هذا الوصف تعظيما ، وماسُمّي للمجاهدين من الجنان والنعيم هو عظيم من شيء أعظم منه وأكبر ، لايُعْرف كنهه ولايُحاط بعلمه ، بل هو مما اختص الله به ، وهذا مقتضى النظم القرآني الكريم المفاد من إضافة الظرف إلى الضمير العائد على لفظ الجلالة [عنده ..] وخبر الأجر مستقر في ذلك الظرف على سبيل الاختصاص والقصر .

ولاريب في أن الكلمة المنكّرة تتأثّر بسياق النّظم في الآية ؛ فيزيدها النظم تعظيماً ومهابة ، أو يلقي عليها ظلالاً من التحقير والمهانة ، بحسب موقعها من الكلم ، وبحسب العلاقات المعنوية المترتبة عليها التي كسبتها مما قبلها ومما بعدها من الألفاظ . من شواهد ذلك قوله تعالى في صفة المنافقين[(١)] : ﴿ **الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً** ﴾[(٢)].

---

(١) إنما رَجَّحَ ماجاء في حيّز الصلة – في الآية – ليكون وصفاً للمنافقين دلالة إخراج الكافرين في الآية نفسها في قوله تعالى : [.. وإن كان للكافرين نصيب ..] فتوجه النعت للمنافقين وحدهم ؛ انظر : الكشاف : ١/٢٧٩ ، وتفسير أبي السعود : ٢/٢٤٥ ، والتحرير والتنوير : ٥/٢٣٧ .

(٢) النساء : ١٤١ .

فقد سَمَّى سبحانه ماوقع لأوليائه المؤمنين فتحاً ثم نكّره ليشمل العظيم ومادونه ، ولم يكتف بذلك بل أسنده إلى ذاته الكريمة بذكر لفظ الجلالة ؛ وفيه من تربية المهابة في قلوب المؤمنين مافيه ، فهم الذين تطمئن قلوبهم بذكر الله ، ويعظم في نفوسهم مايأتي منه سبحانه .

" وفي إضافة الفتح إلى الله تذكير للمؤمنين بأن ماكان لهم من نصر فهو من عند الله بتأييده للمؤمنين وإلقاء الرعب في قلوب الكافرين "[١] .

وأما ماوقع للكافرين فسمّاه نصيبا ، وهذا يوحي بأنه محدود معدود ؛ فَنَكَّره وحقّره كما جرّده من الصفات ، ولم يعلق به شيئاً ذا قيمة ، لأنّه لايستحق ذلك ، وزاد في تجاهله وتحقيره أن كان في سياق خطاب الغائب ، بخلاف المؤمنين ، فقد استحضرهم ، فخاطبهم خطاب الحاضرين المُلتَفَت إليهم ، المعتَنى بشأنهم .

يقول صاحب الكشاف : " فإن قلتَ لم سَمّى ظفر المسلمين فتحاً ، وظفر الكافرين نصيبا ؛ قلتُ : تعظيماً لشأن المسلمين ، وتخسيساً لحظ الكافرين ؛ لأن ظفر المسلمين أمر عظيم تفتح لهم أبواب السماء حتى ينزل على أوليائه ، وأما ظفر الكافرين فما هو إلاّ حظ دنى ولمظة[٢] من الدنيا يصيبونها "[٣] .

فالنكرة هنا مع إفادتها للتعظيم بإضافتها للفظ الجلالة بوساطة حرف الجر [من] أفادت التعميم أيضا عندما أطلق ذلك الفتح ولم يحدّد بشيء من أنوا ع الفتوح فشملها جميعها من غير تحديد أو تقيد .

وفي قوله تعالى : ﴿ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ اعتناء ظاهر من الله تعالى بالمؤمنين ؛ حيث وجّه ضمير الخطاب إليهم دون غيرهم ، وغلّب جانبهم " وهذه تسلية للمؤمنين وأنس بما وعدهم به "[٤] . وقد يكون مراداً بالخطاب المؤمنون والكافرون والمنافقون ؛ والتقدير ؛ فالله يحكم بينكم جميعاً على سبيل الإيجاز . " أو يكون مقصوراً على المؤمنين وحدهم ، والتقدير : فالله يحكم بينكم وبينهم ، ولم يُذكر

---

(١) التفسير القرآني للقرآن : المجلد الثاني : ٩٤٠ .
(٢) أي : بقية ضئيلة تافهة لاتغني شيئا .
(٣) الكشاف : ١/٢٧٩ .
(٤) البحر المحيط : ٣/٣٧٦ .

المنافقون والكافرون هنا في هذا المقام إشعاراً بأنهم ليسوا أهلاً لأن يكون لهم وزن فـي هذا الشأن الذي هو شأن المؤمنين وحدهم ، وقضيتهم التي يراد لهم الفصل فيها؛ لأنهم هم أصحاب هذا اليوم- يوم الفصل - حيث يجنون أطيب مافيه من ثمرات"[١].

ويرى ابن عاشور أن : " الفاء للفصيحة ؛ والكلام إنذار للمنافقين وكفاية لمُهِمّ المؤمنين ؛ بأن فوّض أمر جزاء المنافقين على مكائدهم وخزعبلاتهم إليه تعالى "[٢].

وهذا الوعد من الله تعالى للمؤمنين بإنصافهم من عدوّهم يوم القيامة أتبعه بنعمة أخرى عاجلة ، وتسلية من الله ظاهرة ، جعلها فاصلة للآية ، وخاتمة لها فقال ﴿ **وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً** ﴾ فقد نكّر السبيل هنا ، وأطلقها في سياق النفي لتعمّ وتشمل كل سبيل متصوّر في الدنيا أو في الآخرة ؛ فقد شمله عموم النفي.

وعن مناسبة فاصلة الآية لمضمونها يقول ابن عاشور : " وقوله : ﴿ **وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً** ﴾ تثبيت للمؤمنين ؛ لأن مثل هذه الأخبار عن دخائل الأعداء وتألّبهم ؛ من عدوّ مجاهر بكفره ، وعدوّ مصانع مظهر للأخوّة ، وبيان هذه الأفعال الشيطانية البالغة أقصى المكر والحيلة يثير مخاوف في نفوس المسلمين ، وقد يخيّل لهم مهاوي الخيبة في مستقبلهم ؛ فكان من شأن التلطّف بهم أن يعقّب ذلك التحذير بالشدّ على العضد ، والوعد بحسن العاقبة ؛ فوعدهم الله بأن لايجعل للكافرين وإن تألّبت عصاباتهم واختلفت مناحي كفرهم سبيلاً على المؤمنين "[٣].

ويمضي ابن عاشور في تحليل المراد بالسبيل حيث يقول : " والمراد بالسبيل طريق الوصول إلى المؤمنين بالهزيمة والغلبة ؛ بقرينة تعديته بعلَى ، ولأن سبيل العدوّ إلى عدوّه هو السعي إلى مضرّته ، ولو قال لك الحبيب : لاسبيل إليك ؛ لتحسّرت ، ولو قال لك العدوّ : لاسبيل إليك ؛ لتهلّلت بِشْرا ، فإذا عُدّي بعلى صار نصّاً في سبيل الشرّ والأذى ؛ فالآية وعد محض دنيوي ؛ وليست من التشريع في شيء ، ولامن أمور الآخرة في شيء لنبوّ المقام عن هذين "[٤].

---

(١) التفسير القرآني للقرآن : المجلد الثاني : ٩٤٠ .
(٢) التحرير والتنوير : ٢٣٦/٥ .
(٣) التحرير والتنوير : ٢٣٨/٥ .
(٤) التحرير والتنوير : ٢٣٨/٥ .

ومع جمال ماذهب إليه ابن عاشور في تحليله السابق ، إلاّ أنه لايُوافق فيما انتهى إليه ؛ فقد ضيّق أمراً واسعاً يتّسع له مقام النصّ القرآني الكريم ؛ ولذلك فقد استنبط العلماء – كالشافعي – من النصّ المتقدم : بأن الكافر إذا استولى على مال المسلم وأحرزه بدار الحرب لم يملكه ، كما أن الكافر ليس له أن يشتري عبداً مسلماً، وكذلك فإن المسلم لايُقتل بالذّمي ؛ كل ذلك مأخوذ من دلالة هذه الآية (١) . وهذه أحكام تشريعية في الدنيا . وأمّا في الآخرة فإن أمر ظهور المؤمنين على الكافرين وعلوّهم عليهم أمر تظاهرت عليه نصوص الشريعة ، فأولئك في النعيم ، وهؤلاء في الجحيم .

ولقائل أن يتساءل : إذا كان ذلك وعداً من الله تعالى للمؤمنين بعدم تمكين الكافرين بأن ينالوا من المؤمنين على سبيل العلوّ عليهم في الدنيا ؛ فكيف نفسّر حال المسلمين في هذه الأزمان وفي أزمان أخرى مضت مزّق الكفار بلادهم وشردوهم منها ونهبوا أموالهم وتملّكوها كما حصل في بلاد الأندلس ، وكما يحصل في هذا الزمان في فلسطين وأفغانستان وغيرهما ؟.

ومن الجواب عن ذلك أن يقال : إن الألف واللام في قوله تعالى [على المؤمنين] تفيد استغراق صفات أهل الإيمان . بمعنى أن المراد بذلك هم كاملو الإيمان المحققون لما طلب منهم من الإتيان بما أمر الله منهم والانتهاء عما نهوا عنه ، فإذا حققوا ذلك وتلبّسوا به فقد استحقوا الوفاء بذلك الوعد من الله عز وجل ومن أصدق من الله حديثا ؟ وأمّا إذا أخلّوا بشيء من ذلك أو خالفوا أمره سبحانه فإن كيد الأعداء سيمتدّ إليهم وينال منهم جزاء وفاقاً وهذا لازم من لوازم الآية التي مرت بنا في قوله تعالى : ﴿ .. **وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا** ﴾(٢) فظهور كيد الأعداء في المؤمنين بأي سبيل من السُّبل دليل على تقصيرهم في الصبر أو التقوى أو فيهما معا ؛ والقرآن يفسّر بعضه بعضا ؛ ففي الآية تعريض بالمؤمنين ؛ مضمونه أن علوّ الكافرين عليهم أو نيلهم منهم مؤشّر خلل في إيمانهم وعلامة تقصير في طاعتهم لربهم وتخلفهم عن تطبيق شرعه والأخذ به في سائر أحوالهم ، ولو قامت أمورهم على سنة الله وشريعته لاستقامت حالهم ولقويت

---

(١) انظر : التفسير الكبير : ١١/٨٣ .

(٢) آل عمران : ١٢٠ . وانظر من هذا البحث : ٧٠ – ٧٣ .

شوكتـهـم ولألقي الرّعـب في قلوب أعـدائهم فلم يجـرؤوا على الدّنوّ مـنهم ناهيك عن أذيّتهم [١] .

إن الشواهد المتقدمة كافية في إلقاء الضوء على أغراض التنكير ؛ إذ ليس المقام مقام حصر واستقصاء وإنما هو توضيح وتمثيل وبيان ، على أن دراسة دقائق النظم القرآني تستدعي الإشارة إلى ماسيمر معنا من النكرات من خلال الآيات الكريمات ، مما له صلة وارتباط بأغراض النظم الأخرى التي يعالجها البحث [٢] .

---

(١) وانظر : التحرير والتنوير : ٢٣٨/٥ ففيه كلام حسن في الموضوع نفسه .

(٢) انظر : ٩٧ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ١٤٨ ، ١٧٥ ، ١٨٧ ، ٢١٣ ، ٢٣٥ ، ٣٠٩ ، ٣١٧ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٤٩ ، ٣٥٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٨ ، ٤٣٦ ، ٤٥٣ ، ٤٧٩ ، ٤٩٦ ، ٥١٠ ، ٥٢٥ ، ٥٥٧ .

التعريـــف :

التعريف : ضد التنكير وهو الإعلام . وله أساليب وصور متعددة يتعلّق بها أغراض محدّدة ، وغرض المتكلم من التعريف هو الذي يملي عليه أسلوب التعريف الذي ينزع إليه فيراه محقّقاً مافي نفسه . وذلك لأن : " لكل أداة من أدوات التعريف طعماً ومذاقاً يختلف عن الآخر ، والذي يحدّد الاختلاف ثقل الكلمة ومكانها وقيمتها وشحناتها المختلفة عند المخاطب ، فالضمير غير اسم الموصول ، غير التعريف بـ " ال " .. "[1]. والتعريف متعدد الأنواع واسع الأغراض ؛ فمنه الضمير وقد يكون للتكلم أو الخطاب أو الغيبة ، ومنه العلم سواء كان اسماً أو كنية أو لقبا ، ومنه اسم الإشارة قريباً كان أمتوسطاً أو بعيدا ، ومنه اسم الموصول الذي يقتضي صلة يتفنّن المتكلم في التعبير عن مراده من خلالها، ومن التعريف مايكون بالإضافة ، ومنه مايكون بأل التي تفيد العهد أو الجنس ، وكلاهما يتفرع منه أقسام تؤدي أغراضاً محدّدة وفق مراد المتحدث وعلى حسب غرضه من الحديث . ومحلّ تلك التقسيمات والتحديدات هو كتب النحو ؛ التي عنيت بذلك واشتغلت بأمثلته[2] . وإنما الذي يعني رجلَ البلاغة منها هو الأسرار البيانية والنكات التعبيرية التي تصاحب التعبير بها ، بالوقوف على الغرض من اختيار أداة دون أداة وتفضيلها على غيرها . وماذا يحدث لو تركها إلى سواها مما هو من نوعها ؟ كل ذلك ينجلي من خلال التطبيق على الشواهد القرآنية التي هي ذروة البيان ؛ بل هي لبّ الإعجاز وجوهره .

وسيكون بين أيدينا مقطع قرآني كريم من سورة " آل عمران " حفل بجملة من المعارف ، سوف نتأمله ونسير معه لنقف على شيء من أغراض النظم القرآني الوارد في الآيات الكريمة الآتية : -

---

(١) بلاغة الكلمة والجملة والجمل : ٥٨ .

(٢) انظر على سبيل المثال : الكتاب : ٢/٥-١٧ بتحقيق عبدالسلام هارون . عالم الكتب ، ط ٣ ، وشرح ألفية ابن معطي : ٦٢٨/١ - ٧٠٧ تحقيق د . علي موسى الشوملي ، مكتبة الخريجي ، ط ١ ، ١٤٠٥هـ .

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [١] إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٢].

يوجز الفخر الرازي الغرض من نظم الآيات المتقدمة وعلاقتها بما قبلها قائلاً : " اعلم أنه تعالى لما قال ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ أتبعه بما يدلّهم على سنّة الله تعالى فيهم في باب النصرة والمعونة ودفع مضار العدوّ إذا هم صبروا واتقوا ، وخلاف ذلك فيهم إذا لم يصبروا ؛ فقال [وإذ غدوت من أهلك] يعني أنهم يوم أحد كانوا كثيرين للقتال ؛ فلما خالفوا أمر الرسول انهزموا ، ويوم بدر كانوا قليلين غير مستعدين للقتال فلمّا أطاعوا أمر الرسول غَلَبوا واستَولوا على خصومهم "[٣].

وفي أوّل المقطع القرآني الكريم استئناف[٤] وُجّه الخطاب فيه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم عبر صورتين من صور الخطاب أولاهما : ضمير المخاطب المستكن في فعل الأمر المحذوف ، وهو العامل في [إذ] والتقدير : واذكر لهم إذ غدوت ، وقد حذف ذلك الفعل إيجازاً واكتفاءً بإذ ؛ حيث أغنت عنه وأشارت إليه .

---

(١) يقول أبو حيّان عن مناسبة هذه الآيات لما قبلها مايلي : " .. لمّا نهاهم عن اتخاذ بطانة من الكفار ووعدهم أنهم إن صبروا واتقوا فلا يضركم كيدهم ذكرّهم بحالة اتفق فيها بعض طواعية واتباع لبعض المنافقين ، وهو ماجرى يوم أحد لعبدالله بن أبي بن سلول حين انخذل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم واتبعه في الانخذال ثلاثمائة رجل من المنافقين وغيرهم من المؤمنين . والجمهور على أن ذلك كان في غزوة أحد ، وفيها نزلت هذه الآيات كلها .. " . البحر المحيط : ٤٤/٣ .

(٢) آل عمران : ١٢١ – ١٢٩ .

(٣) التفسير الكبير : ٢٠٤/٨ .

(٤) انظر : تفسير أبي السعود : ٥٤٤/١ حيث رجّح كون الواو استئنافية في قوله تعالى : [وإذ غدوتَ] .

وصورة الخطاب الثانية هي التاء المتمثلة في ضمير المخاطب المتصل في"غَدَوْتَ " . والغدوّ : هو الخروج أوّل النهار ، والأمر بتذكّر وقت الغداة دون ماوقع فيها من الحوادث : للمبالغة في إيجاب ذكرها واستحضار الحادثة بتفاصيلها[1]. ثم إنّ الوقت هو ظرف لأزمنة الحوادث يحوي مجرياتها ؛ فاستذكاره استذكار لها واستدعاء لأحداثها عن طريق التسلسل الذهني من خلال الواقع الزمني . فصار مغزى الخطاب الموجّه إلى النبي عليه الصلاة والسلام في صورتيه المتقدمتين يرمي إلى استحضار هيئة النبي وشدّ اهتمامه وكأنما هو يشاهد ويعاين فيقال له : اذكر لهم يامحمد وقت خروجك مبكراً من بيتك وماجرى خلاله من وقائع وأحداث .. ليعتبروا ويتعظوا .

وخروجه عليه الصلاة والسلام غدوة كائن من عند أهله ، فـ " من " لابتداء الغاية[2]. والمفسّرون على أن المراد بأهله : عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما ؛ فقد غدا من منزل عائشة رضي الله عنها فمشى على رجليه إلى أحد[3]. وفي إضافة الأهل إلى ضميره عليه الصلاة والسلام تشريف لعائشة ، ومنقبة عظيمة لها ، وتطهير لذيلها ، وذبّ صائن لعرضها ؛ فقد قال سبحانه : ﴿ **الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** ﴾[4].

فدل هذا النص الكريم الذي نحن بصدده على أنها مطهرة مبرّأة عن كل قبيح ، ويدلّ على ذلك أن ولد نوح عليه السلام لمّا كان كافراً استتبع ذلك نفي إضافة أهليته إليه وإن كان ذلك الولد من صلب أبيه ، ولكن الوالد نبي يبلغ عن الله رسالته ، وهذا الابن كذب أباه وكفر بما جاء به من عند الله ؛ فاستحق ذلك النفي والإبعاد عن بيت النبوة ومقاماتها فقيل في حقّه : ﴿ **إنه ليس من أهلك** ﴾[5].

فانظر كيف تدني الإضافة – من خلال النظم – البعيد ، وتبعّد القريب .

---

(١) تفسير أبي السعود : ١/٥٤٤ بتصرف .
(٢) انظر : الدّر المصون : ٣/٣٧٨ .
(٣) انظر : التفسير الكبير : ٨/٢٠٦ .
(٤) النور : ٢٦ .
(٥) هود : ٤٦ .

وقوله تعالى [تبوّئ] الخطاب مايزال موجَّهاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم وجاء فعل التبوئة على صيغة المضارع لاستحضار هيئة تدبير النبي أصحابه ، وتعيينه أماكنهم في ساحة القتال ، وهي صورة قد مضت ، ولكن التعبير بالمضارع يعيدها في الذهن ويستحضر مشاهدها على الطبيعة ويساعد على ذلك أن جملة [تبوئ] حالية من ضمير المخاطب أي : خرجت قاصداً التبوئة ، لأن وقت الغدوّ لم يكن وقت التبوئة(١) . وإذا رجعنا إلى المعاجم في مادة [بَوَأ] نجد أن من استعمالاتها قولهم : بَوّأه منزلاً أي نزل به إلى سند جبل (٢) . وهي مناسبة ظاهرة بين المعنى اللغوي والمعنى القرآني ؛ حيث أسند الرسول عليه الصلاة والسلام ظهور المؤمنين إلى جبل أحد ، ثم ذهب يعيّن لهم مقاعد يثبتون فيها ويتمكنون منها ، كما فعل بالرماة الذين بوّأهم أعلى الجبل ومكّنهم منه وأمرهم ألاّ يبرحوه حتى يأذن لهم . والبَوْء : الرجوع إلى مكان البَوْء ، وهو المقر ؛ لأنّه يبوء إليه صاحبه ويأوي إليه (٣) . فكأن أمكنتهم الحربية تلك أصبحت مقراً لهم ومعسكراً لإقامتهم لاينبغي أن يفكّروا في مقاعد غيرها ؛ ولهذا فقد سمّاها مقاعد ، وهي جمع مَقْعَد ، والقعود هو الجلوس على الأرض ، وهو ضد الوقوف أو القيام . ولفظة مقاعد أبلغ في الدلالة على الثبوت وأدلّ عليه ولاسيما في حقّ الرماة الذين كانوا قعودا (٤)؛ فنُبِّهوا بذلك على أنهم مأمورون بأن يثبتوا في أماكنهم المحددة لهم ولاينتقلوا عنها ألبتة(٥) .

وأل في [المؤمنين] أفادت تعريفاً حضورياً بهم ؛ حيث أصبح المراد بهم الذين صاحبوا النبي عليه الصلاة والسلام وقت غدوّه إلى أحد ثم أخذوا أمكنتهم التي بوّأهم الرسول إيّاها فهم هم لاغيرهم .

وإضافة [مقاعدَ] إلى القتال أكسبتها تعريفاً وتحديداً ، ماكان ليتم لولا ذلك ، يقول ابن قتيبة : " ومقاعد القتال المعسكر والمَصَافّ "(٦) . ويقول الراغب : " وقوله

---

(١) انظر : البحر المحيط : ٤٦/٣ .

(٢) انظر : تاج العروس : فصل الباء من باب الهمزة .

(٣) انظر : التحرير والتنوير : ٧١/٤ .

(٤) انظر : المحرر الوجيز : ٢١٧/٣ .

(٥) انظر : التفسير الكبير : ٢٠٦/٨ .

(٦) تفسير غريب القرآن : ١٠٩ . دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٧٨م .

[مقاعد للقتال] كناية عن المعركة التي بها المستقر "[١] . فأصبحت الصورة من خلال الإضافة صورة معركة فيها كرٌّ وفرٌّ ومصافّ وعسكر ؛ والتحرك إنما يكون على حسب متطلبات الموقف ومن خلال أمر أمير القتال ، ولكن في النهاية يتّجه الجند إلى مقاعدهم ، التي من خلالها ينطلقون وإليها يعودون وبها يستقرون .

وفائدة اللام الداخلة على [القتال] هي تحقيق غرض تلك الإضافة ، أو التوصل إليها بها لبيان العلّة من اتخاذ المقاعد وتهيئتها استعداداً للقتال . فلام التعليل هذه إضافة إلى إحرازها غرض الإضافة أفادت أمراً آخر زائداً على ماتقدم ، وهو أنه لم يكن ثَمَّ مقاعد ولاشيء من ذلك ، بل إن إعدادها طارئ وتَبْوِئَتَها حادثة ؛ وذلك من أجل تهيئتها للحدث القادم وهو القتال ؛ ولذلك فاللام إما متعلقة بالفعل تبوئ على سبيل تعليل تبوئة المقاعد ، وإما يكون تعلقها بنعت محذوف واقعٍ صفةً للمقاعد . والتقدير : مقاعد كائنةً ومهيأةً للقتال[٢] .

على أن هناك قراءةً بصريح الإضافة [مقاعدَ القتال][٣] ويبدو أن ثمَّت فرقاً بين القراءتين ؛ فالأولى على ماتمَّ توضيحه آنفاً ، وأما القراءة الثانية فإن الأمر يوحي بأن مقاعد القتال معروفة مُعَدَّة ولم يبق إلاّ إنزالهم فيها وتبوئتهم إيّاها .

والذي يناسب واقع غزوة أحد ويعبِّر عنه هو سياق النظم على القراءة الأولى المشهورة [مقاعدَ للقتال] ويعزّز ذلك مشاورته عليه الصلاة والسلام أصحابه قبل خروجه إلى أحد ، ولو كان الأمر مُعَدّاً والمقاعد محدَّدة ماكانت تلك المشورة وماتلاها .

وفاصلة الآية جاءت مناسِبة للموقف مُعَرِّضةً بما وقع فيه ؛ بدأت بمبتدأ هو أعرف المعارف وأعلم من كلّ علمٍ وهو لفظ الجلالة [والله] وأخبر عنه باسمين كريمين يناسبان المقام وهما [سميع عليم] ؛ ووجه المناسبة أشار إليها أبو حيّان قائلاً : " وجاءت هاتان الصفتان[٤] هنا لأن في ابتداء هذه الغزوة مشاورة ومجاوبة

---

(١) مفردات القرآن : ٤٠٩ .

(٢) انظر : البحر المحيط : ٤٦/٣ ، والدر المصون : ٣٨١/٣ .

(٣) انظر : البحر المحيط : ٤٦/٣ ؛ فقد نسبها أبو حيّان إلى الأشهب .

(٤) البحر المحيط : ٤٦/٣ . غني عن البيان أن وَسْمَ أبي حيّان لـ " سميع عليم " بأنهما صفتان غير دقيق ، بل هما اسمان كريمان تضمّنا صفتين عظيمتين ، هما السمع والعلم ، واشتقاقهما جرى من لفظ ذينك الاسمين الكريمين .

بأقوال مختلفة وانطواء على نيّات مضطربة حسبما تضمنته قصة غزوة أحد "[١].

ويقول الألوسي : " والجملة اعتراض للإيذان بأنّه قد صدر من الأقوال والأفعال مالا ينبغي صدوره منهم ، ومن ذلك قول أصحاب عبدالله بن جبير حين رأوا غلبة المسلمين على كفار قريش : قد غنم أصحابنا ونبقى نحن بلا غنيمة وجعلوا ينسلون رجلاً فرجلا حتى أخلوا مراكزهم ، ولم يبق مع عبدالله سوى اثنى عشر رجلا مع إيصاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بثبوتهم مكانهم "[٢]. فتبيّن أن من أغراض هذه الفاصلة في سياق الآية : التربية والتوجيه والتأديب ، فضلاً على غرس بذور التقوى في نفوس المؤمنين[٣].

وفي قوله تعالى ﴿ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ ﴾ إذ : ظرفية زمانية ، وهي في غاية الإبهام[٤]، ولكنّ إضافتها إلى الجملة الفعلية رفع إبهامها ، وحدّد الوقت المراد منها ، وذلك بحسب العامل فيها : أهو كونها بدلاً من [وإذ غدوتَ] المتقدم ؟ ؛ فيكون العامل في المبدَل هو ذاته العامل في البدل ، والغرض منه بيان المقصود بالتذكير[٥]. أو تكون " إذ " ظرفاً لـ " سميع عليم " ؟ وهو ماذكره الزمخشري[٦] ، ووَجَّهَ معناه أبو السعود قائلاً :"على معنى أنه تعالى جامع بين سماع الأقوال والعلم بالضمائر في ذلك الوقت ؛ إذ لاوجه لتقييد كونه تعالى سميعاً عليماً بذلك الوقت "[٧]. وقد نصر أبو السعود توجيهه ذلك بقول الفراء : " معنى قولك ضربتُ وأكرمتُ زيداً . أن زيداً منصوب بهما وأنهما تسلّطا عليه معا "[٨]. وماذكره أبو السعود وجه حسن يحقق

---

(١) البحر المحيط : ٤٦/٣ .

(٢) روح المعاني : ٤٣/٤ .

(٣) يقول عبدالكريم الخطيب : " وفي قوله تعالى [والله سميع عليم] تذكير للمسلمين وتحذير لغيرهم من المشركين والمنافقين من قدرة الله على كشف مافي الصدور حتى لتصير الخواطر كأنها أصوات تسمع أو كأنها مسطورات ترى وتقرأ .. فلا تخفى على الله خافية مما يدور في الصدور من خير أو شرّ " . التفسير القرآني للقرآن : المجلد الأوّل : ٥٦٩ .

(٤) انظر : نتائج الفكر في النحو : ١٣٦ للسّهيلي .

(٥) انظر : تفسير أبي السعود : ٥٤٦/١ . وانظر : الدر المصون : ٣٨١/٣ .

(٦) حيث قال : " أو عمل فيه معنى " سميع عليم " " : الكشاف : ١٩٧/١ . وقد خالفه أبو حيان : ٤٦/٣ ودافع عن الزمخشري الحلبي في : الدر المصون : ٣٨١/٣ - ٣٨٢ .

(٧) تفسير أبي السعود : ٥٤٦/١ .

(٨) تفسير أبي السعود : ٥٤٦/١ .

بعض الغاية من فاصلة الآية المتقدمة ، ولكن ينبغي ألا يُفهم بأن كون الله سميعاً عليماً مقصور على ذلك الوقت ؛ بل إن سمع الله وعلمه قد أحاطا بكل شيء ؛ يستوي في ذلك ماوقع وقتئذ أو قبله أو بعده ؛ فهو جل ثناؤه ؛ ﴿ يَعْلَمُ مَابَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَاخَلْفَهُمْ وَلَايُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ٠٠ ﴾[1].

وقوله تعالى [إذ همّت] : " الهمّ : العزم ٠ وقيل : بل هو دونه ؛ وذلك : أن أوّل مايمرّ بقلب الإنسان يسمّى خاطرا ، فإذا قَوِي سمّي حديث نفس ، فإذا قوي سُمّي هَمّاً ، فإذا قوي سُمّي عزماً ، ثم بعده إما قول أو فعل "[2]٠ فصار الهمّ : وسطاً بين حديث النفس وبين العزم ، ولم يصل ذلك الهمُّ المذكور إلى درجة الفعل ، ومن المفسّرين[3] من مال إلى كونه همّةً وحديثَ نَفْسٍ لاتخلو منه النفوس عند الشدَّائد ، ثم تُرَدّ إلى الثّبات والصبر ، وتوطّن على احتمال المكروه ، والتوكل على الله تعالى ، وهذا ماوقع من بني سلَمَة من الخزرج وبني حارثة من الأوس وكانا جناحي العسكر يوم أحد[4] ، كما حَدّث بذلك جابر السّلمي – رضي الله عنه – حيث قال : " فينا نزلت [إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما] قال : نحن الطائفتان : بنو حارثة وبنو سلِمة ، ومانحب أنها لم تنزل ؛ لقول الله عز وجل : [والله وليُّهما] " ٠ والهمّ المذموم من الطائفتين هو بعد الخروج إلى أحد ؛ حيث خرج الرسول عليه الصلاة والسلام في ألف رجل ، فلما بلغوا الشوط رجع عبدالله بن أبي في ثلاث مائة وقال : علام نقتل أنفسنا وأولادنا ؟ فتبعهم أبو جابر السلمي فقال : أنشدكم بالله في نبيكم وفي أنفسكم ، فقال عبدالله بن أبي : لو نعلم قتالاً لاتبعناكم ، وهَمَّت بنو سلمة وبنو حارثة عندئذٍ بالانصراف مع عبدالله بن أبي ، فعصمهم الله فلم ينصرفوا ، فذكرهم الله عظيم نعمته ، وصار قرآنا يتلى [إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما ٠٠][5] ، والفَشِل : الرجل الضعيف الجبان والجمع أفشال وقد فَشِل من باب

(١) البقرة : ٢٥٥ ٠

(٢) الدرّ المصون : ٣٨٢/٣ ٠

(٣) كالزمخشري : ١٩٨/١ ، وأبي السعود : ٥٤٦/١ ٠

(٤) وفي مجمع البيان : ١-٢ /٨٢٤ مايلي : " قال بعض المحققين : هذا همّ خطرة لاهمّ عزيمة ؛ لأن الله تعالى مدحهما وأخبر أنه وليهما ولو كان همّ عزيمة وقصد لكان ذمّهم أولى من مدحهم " ٠

(٥) تفسير البغوي : ٣٤٧/١ بتصرف ٠

[طَرِب] أي جَبُنَ[١] . وتفاشل الماء : إذا سال . والهم بالفشل في الحرب : جُبْن وخَوَر[٢] .

والحكمة في تنكير الطائفتين وطيّ ذكرهما هو السَّتر عليهما ، إضافة إلى تآليفهما والرحمة الظاهرة بهما[٣] .

وأما العلّة في ذكر صفتهما وإشهارها وهي الهمّ بالفشل فلأمرين :

أولهما : - تأديب هاتين الطائفتين حتى ينْأيا هما ومن في حكمهما من المؤمنين عن مقاربة ذلك بَلْهَ التَّلَبُّسَ به . وهذا يفيده نظم الآية ، التي وُجِّه فيها صريح الخطاب إلى المؤمنين في قوله [طائفتان منكم] .

وثانيهما : - أن يكون ذلك توطئة لذكر نعمة الله عليهما ، حيث حفظهما الله بحفظه ، وتداركهما بولايته ؛ مما جعل الأمر يؤول مَنْقَبةً لهما ؛ فقد ظفرتا بولاية الله لهما ، وهذا مستفاد من وقوع الولاية خبراً عن لفظ الجلالة ، وهذا الخبر أضيف إلى ضميرتَيْن الطائفتين ، فرفعهما شرفاً وعزّاً ، ومن ثَمَّ حَدَّثُوا به راحة وسرورا[٤] .

وهذا غرض بلاغي من أغراض الإضافة ؛ حيث تُعلي الإضافة شأن المضاف إليه ، فيكتسب من المضاف مكانة وشأناً ، كما حصل هنا .

وأما الواو في قوله [والله وليّهما] فهي استئنافية ، وقد جزم بذلك أبو حيّان حيث قال : " وهذه الجملة لاموضع لها من الإعراب بل جاءت مستأنفة لثناء الله على هاتين الطائفتين "[٥] . وتكون الولاية على سبيل الإخبار والثناء من الله تعالى ، كما سبق بيانه آنفا . وجوّز أبو السعود أن تكون الواو حالية ، حيث قال : " ويجوز أن تكون حالاً من فاعل "همت " أو من ضميره في " تفشلا " مفيدة لاستبعاد فشلهما أو

---

(١) مختار الصحاح : مادة : فشل .

(٢) انظر : الدر المصون : ٣/٣٨٣ .

(٣) انظر : التفسير القرآني للقرآن : المجلد الأوّل : ٥٧٠ – ٥٧١ ففيه مزيد بيان وتفصيل .

(٤) لقد أورد الزمخشري مضمون سؤال في ذلك ثم أجاب عنه حيث قال : " فإن قلتَ : فما معنى ماروى من قول بعضهم عند نزول الآية : والله مايَسُرُّنا أنا لم نهم بالذي هممنا به وقد أخبرنا الله بأنه ولينا ؟ قلتُ : معنى ذلك فرط الاستبشار بما حصل لهم من الشرف بثناء الله وإنزاله فيه آيات ناطقة بصحة الولاية ، وأن تلك الهمّة غير المأخوذ بها لأنها لم تكن عن عزيمة وتصميم – كانت سبباً لنزولها " . الكشاف : ١/١٩٨ ، وفي البحر مثله : ٣/٤٧ .

(٥) البحر المحيط : ٣/٤٧ .

همهما به مع كونهما في ولاية الله تعالى "[(١)]. وعلى ذلك فيكون في النظم القرآني تعجّب وعتاب موجّه لهما تقديره : كيف يحصل ذلك الهمّ بالفشل منهما والحال أن الله وليهما بالنصر والتأييد ! ؟.

وقوله تعالى [وعلى الله فليتوكّل المؤمنون] فيه تقديم للجار والمجرور ، وقد أفاد ذلك قصر التوكّل المذكور على الله تعالى وحده دون ماعداه لاعلى سبيل الاستقلال ولاعلى سبيل الاشتراك[(٢)]. وإظهار لفظ الجلالة في موضع الإضمار ، والنصّ عليه بلفظ الألوهيّة دون ماسواه ؛ لكون القلوب قاطبة تألّهه[(٣)] وتتعلّق به وتطمئن إلى ذكره، فكيف بقلوب المؤمنين فإن إظهار ذكر الله أمامها أدعى إلى أن يثمر فيها يقيناً وتقوى وبخاصة أن المقام مقام توكّل واعتماد ، فلا يليق بتلك القلوب أن تعتمد على أحد سواه . ولاسيما أن من مقتضيات الإيمان التوكل على الله وتفويض الأمر إليه مع الأخذ بالأسباب . وهذا لاينافي فعل الأسباب والأخذ بها ، بل إن الإيمان بالله تعالى والتوكل عليه يقتضي الشروع في الأسباب الموصلة إلى الأغراض . جاء في تفسير القرطبي : " من قال إن التوكّل يكون بترك السبب فقد طعن في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الله عز وجل يقول : ﴿ **فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً** ﴾ [(٤)] فالغنيمة اكتساب ، وقال تعالى : ﴿ **فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ** ﴾[(٥)] فذا عمل ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم [إن الله يحب العبد المحترف] "[(٦)]. ثم قال : " وإن التوكل على الله هو الثقة بالله والإيقان بأن قضاءه ماض ، واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم في السعي فيما لابدّ منه من الأسباب

(١) تفسير أبي السعود : ٥٤٦/١ .

(٢) انظر : تفسير أبي السعود : ٥٤٦/١ .

(٣) المقصود بذلك سائر الخلق وليس المؤمنين فقط ؛ فالألف واللام في القلوب مراد بها الجنس واستغراق أفراده ، ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا الملاحدة ومن في حكمهم ممن ستروا فطرتهم بالإلحاد والكفر والعناد ، وإلاّ فأصل فطرة البشر على الإسلام كما قال تعالى : ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم** ﴾ الروم : ٣٠ . وفي صحيح الحديث : [مامن مولود إلاّ يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصران أو يمجسانه] . للبخاري ومسلم طرق في رواية هذا الحديث ؛ فانظرها مدوّنة في : جامع الأصول : ٢٦٨/١ - ٢٧١ .

(٤) الأنفال : ٦٩ .

(٥) الأنفال : ١٢ .

(٦) الجامع لأحكام القرآن : ١٨٩/٤ .

من مطعم ومشرب وتحرُّز من عدوّ وإعداد الأسلحة واستعمال ماتقتضيه سنة الله تعالى المعتادة .. " [١].

والألف واللام في [المؤمنون] للجنس[٢] ؛ فدخل في ذلك تلك الطائفتان من باب أولى ، وسائر المؤمنين بشكل عام في ذلك الوقت وفي ماعداه من سائر الأعوام . وحذف متعلَّق التوكل لغرض بلاغي وهو إرادة العموم أي : ليتوكلوا عليه سبحانه في جميع أمورهم جليلها وحقيرها سهلها وحزنها[٣] .

وفي فاصلة الآية تعريض وتلويح بأن من تجافى عن التوكل أو تركه ، أو فعل ماينافيه فإن اسم الإيمان حريٌ بألاّ ينطبق عليه ، ويكون قربه من الإيمان أو بعده عنه على قدر قربه من التوكل أو بعده عنه . ولكنَّ كُلَّ مؤمن حريص بأن يحقق الإيمان ويتّصف به ، ولهذا فحريٌ به أن يخلص توكله على الله وحده دون ماعداه ؛ حتى يظفر بوسم الإيمان وعون الرحمن .

وقوله تعالى [ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلّة] له علاقة بالآية المتقدمة آنفا[٤] ؛ حيث وُجه الخطاب - عبر ضميره - إلى المؤمنين في أعقاب الأمر بالتوكل على الله فقيل لهم : إن ذلك النصر المؤزر في بدر ليس من عند أنفسكم فأنتم أذلّة قلّة في عددكم وسلاحكم ، وإنما ذلكم من الله وحده حيث أمدّكم بجنده ورديف ملائكته ، وذلك كلّه أثر من آثار الصبر والتقوى التي من أظهر معانيها التوكّل على الله وحده واستنصاره والفزع إليه .

و [بدر]علم من الأعلام[٥] ، وسبب شهرته وذيوع اسمه هو وقوع الغزوة المشهورة فيه في السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة النبوية المباركة . والنصّ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ١٨٩/٤ .

(٢) ممن نصّ على هذا أبو السعود : ٥٤٦/١ ، والآلوسي : ٤٣/٤ .

(٣) انظر : روح المعاني : ٤٣/٤ .

(٤) وممن كشف عن هذه العلاقة ابن جرير الطبري في : جامع البيان : ٧٤/٤ ، والفخر الرازي : ٢٠٨/٨ ، وأبو حيان : ٤٧/٣ ، وأبو السعود : ٥٤٦/١ ، والآلوسي : ٤٣/٤ ، وغيرهم .

(٥) وهو اسم ماء بين مكة والمدينة سمّي بذلك لصفائه كالبَدْر ، وقيل : لاستدارته ، وقيل : باسم صاحبه وهو بدر بن كلدة . وقيل : هو اسم واد . وقيل : اسم بئر . الدر المصون : ٣٨٣/٣ . وانظر تلك الأقوال وغيرها في : الشرح الكبير : ٢٠٨/٨ ، وتفسير أبي السعود : ٥٤٧/١ ، وفي فتح البيان : ١٢٥/٢ . وقد جمع بين ذكر الأقوال بأسانيدها ابن جرير الطبري في جامع البيان : ٧٤/٤ - ٧٥ .

عليه بالاسم هنا ذكراً وتصريحاً أريد من ورائه استذكار نعمة الله تعالى على المؤمنين في ذلك اليوم العظيم ، عند سماع ذلك الاسم الذي وقعت فيه المعركة وتنزّل فيه نصر الله المؤزّر ؛ فكان فرقاناً مبيناً بين الحق الذي ظهر والباطل الذي اندحر ، فكان هذا الاسم قريناً في ذهن كل مسلم بذلك النصر المبين .

وإظهار لفظ الجلالة وذكره باسمه – مع تقدم ذكره في فاصلة الآية السابقة – دون ضميره ؛ لأن الجملة في قوة القسم بدخول الواو واللام وقد على رأس الآية ؛ فلا بدّ عندئذٍ من إسناد الفعل إلى فاعله صراحة ، ونسبة الفضل إلى صاحبه ؛ لأن ذلك من تمام الوفاء به ، إيذاناً بشكره والتسبيح بحمده ؛ فهو وحده الذي سَخَّر جميع عوامل النصر ويسَّرها ، وعدّد أضربها ، وكثّر أنواعها ؛ مابين مطر هاطل ، وملائكة تَنْزل وعدوّ يَرْتعِب ... فحريّ إذن بأن يُسْند فعل النصر إليه ، وينصّ عليه ، بأحبّ أسمائه لديه ، وأعظمها بين يديه ، وهو اسمه الأعظم ؛ الذي إذا ذكر لم ينقدح في القلب غيره ، ولم يلتفت العقل إلى سواه .

وقوله تعالى [وأنتم أذلّة] استحضار لحالهم عبر ضمير المخاطب ، والجملة واقعة حالاً من مفعول [نصركم] أي : نصركم وحالكم ماذكر [1]. ولفظة [أذلّة] جمع قلّة ، واحدها ذليل . والسّر في جمعه جمع قلة للإشعار باتصافهم حينئذٍ بوصفي القلّة والذّلّة [2].

وهنا يرد سؤال مضمونه : معلوم أن المقام مقام خطاب للمؤمنين ؛ فكيف يُخبر عنهم بالذّلة والله تعالى قد حكى حالهم فقال لهم : ﴿ **وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾[3] وقال أيضاً : ﴿ **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ** .. ﴾[4] فما سرّ ذلك ؟ .

---

(١) انظر : تفسير أبي السعود : ٥٤٧/١ .

(٢) وجمع الكثرة على [فُعْلان] ذُلّان . انظر : الكشاف : ١٩٨/١ ، والبحر : ٤٧/٣ ، والدر المصون : ٣٨٣/٣ ، وتفسير أبي السعود : ٥٤٧/١ .

(٣) آل عمران : ١٣٩ .

(٤) المنافقون : ٨ .

والسّر في ذلك تلمّسه بعض المفسرين ومنهم الفخر الرازي ؛ حيث أوّل الذّل المذكور في الآية " بقلّة العدد وضعف الحال وقلّة السلاح والمال وعدم القدرة على مقاومة العدوّ . ومعنى الذل : الضعف عن المقاومة ، ونقيضه : العزّ وهو القوّة والغلبة "[١] . فيكون هذا الذّل – وهو الضعف في العَدَد والعُدَد – وقتياً انقضى بوقته وارتفع بزوال زمنه ، ثم انضمّ إلى عِزَّة الإيمان عِزَّةُ الشوكة والسلاح بعد غزوة بدر الكبرى التي انبنى عليها مجد الإسلام وظهر سنامه .

ويورد الرازي تأويلاً آخر يراه محتملاً حيث يقول : " لعل المراد أنهم كانوا أذلّة في زعم المشركين واعتقادهم لأجل قلة عددهم وسلاحهم ، وهو مثل ماحكى الله عن الكفار أنهم قالوا[٢] [ليخرجن الأعزّ منها الأذل] "[٣] . وعلى ذلك فيكون وصفهم بالذلة من باب حكاية حالهم في نظر من حولهم من الكفار ومجاراة لظنّهم ، وليس ذلك حكماً دائما عليهم ، فتبقى عزّتهم المعنويّة والحسّية ظاهرة غير مرومة ، تدل عليها الآيات المذكورة .

وممن جمع بين التأويلين المذكورين في عبارة تلوح منها البلاغة : عبدالكريم الخطيب حيث قال : " والذّلة التي وصف القرآن بها المسلمين هنا ليست ذِلَّة نفسيَّة ، ولاضعفاً قلبياً ؛ وإنما هي ذلّة حاجة وعَوَز ، وقلَّة في المال والرجال ؛ بحيث يخفّ ميزان أصحابها في أعين الناس ، حين ينظرون إلى ظاهرهم هذا . فوصف المؤمنين بالذلّة هنا إنما هو وصف للحال الظاهر منهم للناس .. أما في حقيقة أنفسهم فهم من إيمانهم بالله وثقتهم فيه ، وتوكلهم عليه ، واستعلائهم على حاجات الجسد ومتاع الحياة – هم في عِزَّة عزيزة ، تستخف بكل قوى المادة وعتوّها "[٤] .

---

(١) الشرح الكبير : ٢٠٩/٨ .

(٢) هذه مقالة المنافقين ، ولهم حكم الإسلام ظاهرا ، وإن عقدوا على الكفر باطنا . ففي عبارة الفخر تساهل وجب التنبيه إليه .

(٣) الشرح الكبير : ٢٠٩/٨ . وبنحو ماقال الرازي ذهب الألوسي ، ولكن عبارته أوجز وأدل فقد قال : " والمراد بها عدم العُدّة لا الذل المعروف ؛ فلا يشكل دخول النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الخطاب إن قلنا به . وقيل : لامانع من أن يراد المعى المعروف ويكون المراد [وأنتم أذلة] في أعين غيركم وإن كنتم أعزّة في أنفسكم " . روح المعاني : ٤٥/٤ – ٤٦ . وما استشهد به الرازي جزء من آية في سورة : " المنافقون " : ٨ .

(٤) التفسير القرآني للقرآن : ٥٧٤/٤ .

وقوله تعالى [فاتقوا الله لعلكم تشكرون] جاء فاصلة للآية التي تحدثت عن نعمة الله على المؤمنين بنصرهم في بدر ؛ فاستحقت هذه النعمة الكبرى الشكر من المؤمنين بملازمة التقوى ؛ والشكر مَجْلَبَة للنعم مدفعة للنقم فقد قال تعالى : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾(١) . ويلاحظ أن الوصول إلى هذه الغاية مَرّ في فاصلة الآية عبر معارف أربع ، كلها تضافرت على المؤمنين فاستحضرت حالهم ، من أجل تمكين غرض الخطاب في نفوسهم ، وتلك المعارف هي :

١ - ضمير الخطاب الذي وجّه من خلاله الأمر بالتقوى [فاتقوا] . وقصد به المؤمنون ، فهم المقصودون بفعل التقوى واستشعارها .

٢ - لفظ الجلالة الذي هو مناط الأمر بالتقوى ؛ لأنه واهب النعم ورافع النقم وصاحب الأمر والنهي فهو المرتجى في الرخاء واللأواء .

٣ - ضمير الخطاب الواقع اسماً لحرف الترجّي [لعل] ، الذي يفيد أن فعل التقوى منكم أيها المؤمنون يُرجى منه أن يكون سُلَّماً لكم يفضي بكم إلى مقام الشاكرين لله تعالى على نعمه ، ومنها نصركم في بدر ؛ فيكون مؤذناً بتَفَتّح أبواب النصر عليكم ، إذا سلكتم ذلكم السبيل القويم .

٤ - ضمير الخطاب الواقع فاعلاً للفعل المضارع [تشكرون] ؛ ففعل الشكر هنا مسند إلى المخاطبين وهم المؤمنون ، واختير الفعل المضارع ليكون مسنداً هو دون غيره من الأفعال ؛ لكون صيغة المضارع تفيد التجدّد والحدوث في حاضر الزمان وفي مستقبل الأيام ؛ وبذلك يكون الشكر مطلوباً فعله في سائر الأوقات، ويتأكد أمره عند تجدّد أسبابه وحدوث دواعيه ، وهذا مايفيده الأمر بالتقوى الموجه إلى المؤمنين الشاكرين - عقيب ذكر نصرهم في بدر - حتى يرتفعوا إلى منزلة الشاكرين ، فكان الشُّكر علامةً على التقوى ، وثمرة لها ؛ فمن وصل إليه وتلبَّس به ، فقد اتّقى ، ومن لا فلا ، وهذا مايفيده النظم القرآني الكريم لمن تأمَّله ، وأنعم النظر في دقائقه .

---

(١) إبراهيم : ٧ .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾ . حكاية لحال الرسول صلى الله عليه وسلم مع المؤمنين واستحضار لها من خلال أسلوبين : -

الأول : - ضمير المخاطب الموجّه مباشرة إلى شخص الرسول الكريم تشريفاً له ، وإيذاناً بأنّ وقوع النصر يوم بدر كان ببشارته[١] عليه الصلاة والسلام بذلك المدد من الله جلّ وعزّ . كما أنّ في هذا تلويناً للخطاب ونقلاً له من أسلوب خطاب المؤمنين الذي انتهت به الآية المتقدمة [لعلكم تشكرون] إلى أسلوب خطاب الرسول وحده على سبيل التخصيص والتشريف ، الذي هو عين التكريم من الكريم جَلَّ عزّه وثناؤه .

والثاني : - كون تلك الحال التي وقعت أحداثها ومضى زمانها - قد حكيت بالفعل المضارع ، وصرف النظر عن التعبير عنها بالفعل الماضي مع أنه هو المناسب في الظاهر لكون الحدث قد مضى ؛ فيقال : إذ قلتَ.. ، ولكن العدول عن التعبير بالفعل الماضي إلى التعبير عن ذلك بالفعل المضارع لحكاية الحال الماضية واستحضار وقائعها وأحداثها، ولاسيما وأن المقام مقام خطاب ، وتقرير واستجواب ، فطبيعة الفعل المضارع هي التي تفي بغرض النظم وتأتي عليه ، ولهذا أوثر هو دون غيره .

والعامل في [إذ] هو الفعل [نصركم] وعلى ذلك فالمقالة المحكية عن النبي - عليه الصلاة والسلام - وماتلاها كانت في غزوة بدر . وهذا هو الذي عليه جمهور المفسرين ، وهو اختيار ابن جرير وابن كثير وأبي حيان وأبي السعود وغيرهم[٢] . يقول الخطيب عن غرض الآية بإجمال : " هو عَرْضٌ وتذكير لما كان في يوم بدر من إمداد السماء للمسلمين[٣] ، حين بشّرهم الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - بأن

---

(١) انظر : تفسير أبي السعود :١/٥٤٧ .

(٢) انظر : جامع البيان : ٤/٧٦ - ٨٠ ، تفسير القرآن العظيم : ١/٤٠١ ، البحر المحيط : ٣/٤٨ ، تفسير أبي السعود : ١/٥٤٧ .

(٣) هذا التعبير وهو إضافة الإمداد إلى السماء وماماثله كعدالة السماء ونحوه ، تجوّز غير مقبول في حق الله عز وجل ، بل الواجب هو نسبة الفضل إلى صاحبه ، والمدد إلى واهبه ، اقتداء بهدي القرآن ؛ حيث قال سبحانه على لسان رسوله : ﴿ **ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة ..** ﴾ فجعل فاعل المدد هو الربّ تبارك وتعالى ذكراً وتصريحاً ، ولم يسلك سبيل الكناية أو المجاز ، وإذا كان ذلك سائغاً في حق غيره ، فإن مقام الله عز وجل ينبغي أن يرفع ويجل وينسب إليه ماكان منه على سبيل التعبير الصريح إقراراً وشكرا ، فهو الواهب المعطي ، ومن كان كذلك فإن من شكره إعلاء ذكره ، بأسمائه الحسنى ، وتسميته بها تأسّياً بسنّته مع نفسه سبحانه في كتابه الكريم في آيات التفضّل على العباد وغيرها وعملاً بقوله تعالى : ﴿ **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه** ﴾ فإنّ ذلك أدق تعبيرا ، وأهدى سبيلا .

الله ممدهم بثلاثة آلاف من الملائكة منزّلين من عالمهم العلويّ ؛ ليشاركوا في معركة الحق ، ولينصروا أنصار الله المجاهدين في سبيله [١].

والألف واللام في [المؤمنين] قصد بها التعريف الحضوري ؛ فالمؤمنون الذين وُجّه لهم ذلك القول هم الذين حضروا غزوة بدر وليس كلّ المؤمنين زمن النبي عليه الصلاة والسلام ؛ فإن منهم من كان في المدينة من الرجال والنساء لم يخرجوا لملاقاة العير مع النبي صلى الله عليه وسلم ، لكونهم لم يُسْتَنْفَروا ، أو لكون الخروج لم يقصد به القتال في البداية ، ولكنه آل إليه في النهاية [٢].

والغرض من ذكر ذلك الوقت واستحضاره دون غيره هو تذكير المؤمنين بنعمة الله عليهم حيث تمثلت المعجزة الكبرى في نصرهم على عدوّهم بعون الله ومَدَده المنزّل من عنده سبحانه ، وذلك حتى يعتبروا هم وغيرهم بأن من سلك سبيل الصبر والتقوى فإن سنة الله ماضية في نصره وقهر عدوّه .

والغرض البلاغي من دخول الهمزة في الجملة وإيقاعها على حرف النفي [لن] هو إنكار عدم كفاية الإمداد بذلك العدد من الملائكة المذكور في الآية [٣]. والكفاية تكون بسدّ الخَلّة وبلوغ المراد في الأمر [٤]، وإيقاع الكفاية على المؤمنين مع مخاطبتهم بذلك في معرض الإنكار فيه تشريف ظاهر للمؤمنين ؛ حيث كفوا شرّ الأعداء ، والذي كفاهم هو ربهم سبحانه وتعالى .

وورود أداة النفي [لن] - التي تفيد توكيد النفي - وتسليطها على فعل الكفاية للإشعار بأنهم كانوا في ذلك الوقت كاليائسين من النصر لضعف عُدَدهم وقلّة عَددهم، في مقابل قوّة عدوّهم ، وكثرتهم [٥] .

---

(١) التفسير القرآني للقرآن : ٤/٥٧٤ - ٥٧٥ .

(٢) انظر تفاصيل أسباب غزوة بدر الكبرى في كتب السيرة ومنها : - السيرة النبوية لابن هشام : ١-٢/٦٠٦ ومابعدها . حدائق الأنوار لابن الربيع : ٢/٥٠١ ومابعدها . والبداية والنهاية لابن كثير : ٣/٢٥٦ ومابعدها . وغيرها .

(٣) انظر : البحر المحيط : ٣/٥٠ ، وتفسير أبي السعود : ١/٥٤٨ .

(٤) انظر : المفردات في غريب القرآن : ٤٣٧ .

(٥) انظر : الكشاف : ١/١٩٨ ، تفسير أبي السعود : ١/٥٤٨ ، روح المعاني : ٤/٤٤ .

والإمداد غير المدّ ؛ فأكثر مايكون الأوّل في الخيرات والمحبوبات ، وأكثر مايقع الثاني في العذاب والمكروهات [١]. وهو هنا في سياق النعمة والتفضّل على المؤمنين ، فوقع على بابه ، وإسناد الإمداد إلى الربّ تبارك وتعالى من باب إسناد الفضل إلى صاحبه ، والتعرض لعنوان الربوبية فيه إشارة إلى أن هذا المدد رأفة بكم وإصلاح لشأنكم ، ولهذا جاء إضافة [الربّ] إلى ضمير المؤمنين على سبيل مخاطبتهم بلغة الرحمة ، ففي هذه الإضافة إظهار لمزيد العناية بهم ، وإفصاح عن علّة إمدادهم[٢] ، وهي كونه رباً لهم ، يرحمهم وقت ضعفهم ، فيزيد من قوتهم بمدده وجنده . وهذه نهاية التشريف ، وغاية الكرامة في الحياة الدنيا ، ولهم في الآخرة طوبى وحسن مآب .

والملائكة جمع ملَك ، وهذا الاسم علم على خلق من خلق الله تعالى ، وخير مايقال تعريفاً بهم هو ماقاله تعالى عنهم : ﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَايَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَابَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَاخَلْفَهُمْ وَلَايَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ** ﴾[٣] وهم جند الله سبحانه لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون ، ومن هنا تأتي حكمة ذكر هذا العلم بصيغة الجمع في سياق خطاب المؤمنين ومساءلتهم على لسان نبيهم قبيل بداية غزوة بدر الكبرى ، والغرض من ذلك كله هو طمأنة قلوب المؤمنين ، وتبشيرهم بنصر الله ، لأن المدد حاصل من ربهم ، ونوع هذا المدد هم الملائكة ، وهم من هم غلظة وشدّةً على أعداء الله ، ولذلك فلا جرم بأن يذهب عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الرّوع ، وتسكن نفوسهم إلى ربهم ، وتتعلق قلوبهم به ، وتأتمر بأمر نبيه ، ولهذا فغرض الاستفهام التقريري في النظم كان " تلقيناً لمن يخالج نفسه اليأس من كفاية ذلك العدد من الملائكة بأن يصرّح بما في نفسه ، والمقصود من ذلك لازمه وهو إثبات أن ذلك العدد كاف ، ولأجل كون الاستفهام غير حقيقي كان جوابه

(١) انظر : المفردات : ٤٦٥ . مثال الإمداد : [وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون] وهذا في المحبوب . ومثال المدّ : [ونَمُدُّ له من العذاب مدّاً] وهذا في المكروه .

(٢) انظر : تفسير أبي السعود : ٥٤٨/١ . يقول ابن القيم : " صفات الفعل والقدرة والتفرد بالضر والنفع ، والعطاء والمنع ، ونفوذ المشيئة وكمال القوة ، وتدبير أمر الخليقة أخص باسم "الرب" . التفسير القيم : ٣٣ .

(٣) الأنبياء : ٢٦ - ٢٨ .

من قبل السائل بقوله [بلى] لأنه مما لاتسع المماراة فيه ... فكان [بلى] إبطالاً للنفي وإثباتاً لكون ذلك العدد كافياً ، وهو من تمام مقالة النبي - صلى الله عليه وسلم - للمؤمنين "[١] .

ولفظة [مُنْزَلين] وصف لثلاثة آلاف أو هي حال من الملائكة [٢] ، وعلى كلا الاحتمالين فإن فائدتها ظاهرة وهي إلقاء المهابة على هذا المدد بكونه غير عادي ولامألوف ، بل هو مدد له مكانته وقيمته ، مما يجعل الممدودين به في ثقة وأمان من أيّ عدوّ كان . وقرئ [مُنَزَّلين] بتشديد الزاي [٣] ، وعلى هذه القراءة يكون المعنى إفادة كثرتهم ، أو التدرج في نزولهم[٤] . وقرئ أيضاً [مُنَزِّلين] تشديداً وتخفيفاً على البناء للفاعل ، على معنى منزّلين الرعب في قلوب أعدائكم ، أو النصر لكم [٥] .

وقوله تعالى [بلى] " إيجاب لما بعد " لن " ، بمعنى بلى يكفيكم الإمداد بهم فأوجب الكفاية " [٦] . وعن فائدة " بلى " يقول ابن عطية : " ومن حيث كان الأمر بيّناً في نفسه ؛ أنّ الملائكة كافية بادر المتكلم إلى الجواب ليبني مايستأنف من قوله عليه ، فقال : بلى . وهي جواب المقرّرين ، وهذا يحسن في الأمور البيّنة التي لامحيد في جوابها ، ونحوه قوله تعالى :﴿ **قل أيّ شيء أكبر شهادة قل الله** .. ﴾ "[٧] .

وقوله تعالى :﴿ **إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ** ﴾ مخاطبة للمؤمنين عبر ضمائر الخطاب من خلال صيغة الفعل المضارع ، فكأنما قيل لهم : إنّ تحليكم بالصبر والتقوى ومفاجأة العدوّ لكم وأنتم على هذه الحالة لايضركم فإن مدد ربكم لكم يستتبع هذه الأحوال . يقول صاحب البحر : " رتب تعالى على مجموع الصبر والتقوى وإتيان العدو من فورهم إمداده تعالى المؤمنين بأكثر من العدد السابق ، وعلّقه على وجودها بحيث

---

(١) التحرير والتنوير : ٤/٧٣ .
(٢) انظر : الدّر المصون : ٣/٣٨٦ .
(٣) انظر : الدّر المصون : ٣/٣٨٦ .
(٤) انظر : روح المعاني : ٤/٤٤ .
(٥) انظر : روح المعاني : ٤/٤٤ ، وانظر : البحر المحيط : ٣/٥١ .
(٦) الكشاف : ١/١٩٨ .
(٧) المحرّر الوجيز : ٢/٢٢١ .

لايتأخر نزول الملائكة عن تحليهم بثلاثة الأوصاف "[١].

وأصل الفَوْر : " العجلة والسرعة ، ومنه : فارت القدر : اشتد غليانها وسارع مافيها إلى الخروج ، يقال : فار يفور فورا ، ويعبّر به عن الغضب والحِدَّة ؛ لأن الغضبان يسارع إلى البطش بمن يغضب عليه ، فالفور في الأصل مصدر ، ثم يُعبَّر به عن الحالة التي لاريث فيها ولاتعريج عن شيء سواها " [٢]. فتأمّل شدّة ارتباط المعنى اللغوي بالمعنى القرآني المعبّر عنه ؛ فإنّ مَنْ بقي من قريش في مكة قد عزموا على حزم أمرهم ، والخروج من فورهم نصرة لقومهم في بدر بقيادة : كرز بن جابر المحاربي ؛ فشَقّ ذلك على المسلمين [٣]، لأن هذا مدد للعدوّ ، وزيادة قوة إلى قوّتهم ، والمسلمون قلّة في عددهم وعُدَّتهم ، فجاء وعد ربهم جلّ وعلا غوثاً لهم ، وشداً لمآزرهم، في ساعة هم أحوج مايكونون لذلك .

والإضافة ضرب من المعرفة تكسب ماتضاف إليه تخصيصاً وتعريفاً ، وهكذا كان في إضافة الفور إلى ضمير الغيبة العائد على كفار قريش ، يقول ابن عاشور : " وإضافة الفور إلى ضمير الآتين لإفادة شدَّة اختصاص الفور بهم ، أي شدّة اتصافهم به حتى صار يعرف بأنّه فورهم ، ومن هذا القبيل قولهم : خرج من فوره ، و [من] لابتداء الغاية " [٤].

وأما اسم الإشارة [هذا] فقد فعل فعله في هذا المقام ، فكان ذكره تنبيهاً إلى هذا الفور ونصاً عليه وتنزيلاً له منزلة المشاهد القريب [٥].

---

(١) البحر المحيط : ٥١/٣ .

(٢) الدر المصون : ٣٨٧/٣ .

(٣) قال الشعبي : " إن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر يمد المشركين ؛ فشقّ ذلك عليهم فأنزل الله تعالى : ﴿ **ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين** - إلى قوله - **مسوّمين** ﴾ قال : فبلغت كرزاً الهزيمة فلم يمُد المشركين ولم يَمُد المسلمين بالخمسة . تفسير القرآن العظيم : ٤٠١/١ . وقد يكون معنى [من فورهم] أي من غضبهم هذا فيكون المعنى : ويأتيكم كفار قريش وتبّاعهم يوم أحد من ابتداء غضبهم الذي غضبوه لقتلاهم الذين قتلوا يوم بدر .. انظر : جامع البيان : ٨١/٤ .

(٤) التحرير والتنوير : ٧٦/٤ .

(٥) انظر : المصدر السابق : ٧٦/٤ .

وأما قَرْن إتيان الأعداء بسرعة في سلك شرط الصبر والتقوى فقد وقف عنده أبو السعود قائلاً : " ونظم إتيانهم بسرعة في سلك شرطي الإمداد المُسْتَتْبِعَين له وجوداً وعدماً – أعني الصبر والتقوى – مع تحقق الإمداد لامحالة سواء أسرعوا أو أبطأوا لتحقيق سرعة الإمداد لا لتحقيق أصله ، أو لبيان تحققه على أيّ حال ، فُرض على أبلغ وجه وآكده بتعليقه بأبعد التقادير ليعلم تحققه على سائرها بالطريق الأولى ، فإن هجوم الأعداء وإتيانهم بسرعة من مظان عدم لحوق المدد عادة ؛ فعلّق به تحقق الإمداد إيذاناً بأنّه حيث تحقق مع ماينافيه عادة فَلأن يتحقق بدونه أولى وأحرى ، كما إذا أردت وصف درع بغاية الحصانة تقول : إنْ لبستها وبارزت بها الأعداء فضربوك بأيد شداد وسيوف حداد لم تتأثّر منها قطعا "[١] .

وفي إظهار اسم الرب – مرة أخرى – وإسناده إلى المدد الثاني ، وإضافة هذا الاسم الكريم – هو دون غيره من الأسماء – إلى ضمير المخاطبين المتوجّه إلى المؤمنين – في ذلك كله إشعار بحسن النظر لهم ، واللطف بهم [٢]، كما أن فيه تشريفاً وتكريماً لهم .

وأمّا زيادة عدد المدد إلى خمسة آلاف فقد قصد منه تهدئة روعهم ، وزيادة طمأنة قلوبهم ، وسوق عاجل البشرى بنصرهم على عدوّهم المتكالب عليهم ، فضلاً على التأكيد الأقصى بأهمية الصبر والتقوى بذكرهما والنّص على ضرورة وجودهما حتى يترتب عليه النصر والمدد [٣] .

وإظهار اسم الملائكة مرة أخرى وعدم الاكتفاء بذكرهم في الآية السابقة لمزيد الاعتناء بأهميتهم ، ولكونهم مدداً غير عادي ولاجار في عرف البشر ، وفي ذلك إشارة إلى توجيه الاهتمام الكامل بتحقيق الشرط حتى يتحقق المشروط . وفي قوله تعالى [مسوَّمين] قرئ بفتح الواو المشدَّدة بالبناء للمفعول على معنى أن الله تعالى سَوَّم الملائكة أي أرسلها معلمة لقتل الكفار[٤] . وقرئ بكسر الواو المشدَّدة بالبناء للفاعل ،

---

(١) تفسير أبي السعود : ٢/٨٠ .
(٢) انظر : البحر المحيط : ٣/٥١ .
(٣) انظر ص : ٧٠ – ٧٣ من هذا البحث ففيه فصّل الكلام على الصبر والتقوى .
(٤) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٤/١٩٦ .

وهـذا هـو المختار وقـد رجح ذلك الطـبري بدليل شرعي ، وتعليل بلاغي حيث قال : " وأولى القراءتين بالصّواب قراءة من قرأ بكسر الواو ؛ لتظاهر الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأهل التأويل منهم ، ومن التابعين بعدهم ، بأن الملائكة هي التي سوّمت أنفسها من غير إضافة تسويمها إلى الله عز وجل ، أو إلى غيره من خلقه . ولامعنى لقول من قال : إنما كان يختـار الكسر في قـوله [مسوّمين] لو كان في البشر ، فـأما الملائكة فوصفـهم غير ذلك ظنّاً منه بأنّ الملائكة غير ممكن فيـها تسـويم أنفسـها إن كانوا ذلك في البشر ؛ وذلك أنه غير مستحيل أن يكون الله عز وجل مكّنها من تسويم أنفسـها بحق تمكينه البشر من تسويم أنفسـهم ؛ فسوّموا أنفسـهم بحق الذي سوّم البشر طلباً منها بذلك طاعة ربّها ؛ فـأضيف تسويمها أنفسـها إليـها ، وإن كان ذلك عن تسبيب الله لهم أسبابه ، وهي إذا كانت موصوفة بتسويمها أنفسها تقرّباً منها إلى ربّها كان أبلغ في مدحها لاختيارها طاعة الله من أن تكون موصوفـة بأن ذلك مفعـول بها " [١].ولايخفى أن في قوله تعالى عن الملائكة [مسوّمين] كناية عن كونهم شدادا [٢].

وهنا يرد تساؤل وهو : ما الحكمة في تدرّج ذكر المدد من الله تعالى للمؤمنين من ألف في سورة الأنفـال [٣] ، إلى ثلاثة آلاف ، وإلى خـمسـة آلاف في سورة آل عمران ؟ وممن كتب في ذلك بعيداً عن خلاف المفسّرين ابن عاشور ؛ حيث أوجز الجواب باحثاً عن الحكمة فقال : " وأحسب أنّ الأعداد المذكورة هنا مناسبة لجيش العدوّ ؛ لأن جيش العدوّ يوم بدر كان ألفا ؛ فوعدهم الله بمدد ألف من الملائكة ، فلمّا خشوا أن يلحق بالعدوّ مددٌ من كُرْز المحاربي وعدهم الله بثلاثة آلاف أي : بجيش له قلب وميمنة وميسرة كل ركن منها ألف ، ولمّا لم تنقشع خشيتهم من إمداد المشركين لأعدائهم وعدهم الله بخمسة آلاف ، وهو جيش عظيم له قلب وميمنة وميسرة ومقدّمة وساقـة ، وذلك هـو الخميس ، وهو أعظم تركيباً ، وجعل كل ركن منه مساوياً لجيـش

---

(١) جامع البيان : ٨٢/٤ .

(٢) انظر : التحرير والتنوير : ٧٦/٤ .

(٣) آية : ٩ .

العدوّ كلّه "[١] . وشَرَط ذلك بثلاثة شروط : بالصبر والتقوى وإتيان المزيد من الأعداء . فانظر كيف تدرّج معهم بالعدد في المدد حتى هدأت نفوسهم وتمكّن حبّ الله في قلوبهم ؛ فتقدّموا للنّزال ، ونزلوا ساحة القتال ، معلنين راية الله ، لايعبأون بعدوّ الله ، فكان النصر ينتظرهم ، والشهادة شرفاً لهم . ويؤيّد هذا التدرج في المدد والزيادة في العدد لفظة [مردفين] في آية الأنفال [٢] : ﴿ **إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ** ﴾ فمن معانيها : " مردفين ملائكة أخرى "[٣] . وبذلك يكون الجمع بين الأعداد المذكورة في الآيات يسيراً ، كما أن الأغراض البلاغية من تلك الأعداد تتفق تماماً مع سياقها في مواضعها ؛ لأنّ كل عدد ذكر يعالج الحالة التي سيق من أجلها ؛ بحيث لايسدّ غيره مسدّه ، انسجاماً مع سنّة الله في التدرّج بالمؤمنين في المدد من حالة إلى أعلى منها .

وفي قوله تعالى [وماجعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به ..] يعود ضمير الغيبة في [جعله] و [به] على المدد المتقدم ، والذي يرجحه أمران :

١ - كونه قد ذكر مرتين .

٢ - كون الملائكة وأعدادهم ونصرهم للمؤمنين قائماً عليه ، فأصبح أصلاً في ذلك جديراً بأن يشار إليه .

---

(١) التحرير والتنوير : ٧٦/٤ - ٧٧ . وهل وقع مدد الله تعالى للمؤمنين بالملائكة ؟ خير من ذكر الأقوال في ذلك وجمع بينها هو ابن جرير الطبري ؛ وقد انتهى إلى ثمرة ذلك قائلاً ومرجحاً : " وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : إن الله أخبر عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال للمؤمنين : [ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة ...] ؟ فوعدهم الله بثلاثة آلاف من الملائكة مددا لهم ، ثم وعدهم بعد الثلاثة الآلاف خمسة آلاف إن صبروا لأعدائهم واتقوا الله ، ولا دلالة في الآية على أنهم أمدّوا بالثلاثة آلاف ، ولا بالخمسة آلاف ، ولاعلى أنهم لم يمدّوا بهم . وقد يجوز أن يكون الله عز وجل أمدّهم على نحو مارواه الذين أثبتوا أنه أمدّهم . وقد يجوز أن يكون لم يمدّهم على نحو الذي ذكره من أنكر ذلك ، ولاخبر عندنا صحّ من الوجه الذي يثبت أنهم أمدّوا بالثلاثة الآلاف ولا بالخمسة الآلاف . وغير جائز أن يقال في ذلك قول إلا بخبر تقوم الحجة به ، ولاخبر به كذلك ، فنسلم لأحد الفريقين قوله ، غير أن في القرآن دلالة على أنهم قد أمدّوا يوم بدر بألف من الملائكة وذلك قوله ﴿ **إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين** ﴾ . فأما في يوم أحد ؛ فالدلالة على أنهم لم يمدّوا أبين منها في أنهم أمدّوا ؛ وذلك أنهم لو أمدّوا لم يهزموا وينال منهم مانيل فيهم . جامع البيان : ٧٩/٤-٨٠ .

(٢) آية : ٩ .

(٣) المفردات في غريب القرآن : ١٩٣ . وانظر : التحرير والتنوير : ٧٣/٤ .

وفائدة إرجاع الضميرين إليه استحضاره في أذهان المؤمنين في معرض مخاطبتهم ، وذكر منّة الله عليهم بالنصر ومقدّماته . وإظهار لفظ الجلالة في موضع الإضمار من باب نسبة الفعل إلى فاعله ، وردّ الفضل إلى صاحبه ، حتى يذكر فيشكر بما هو له أهل .

وتقديم البشرى على الطمأنينة لكون الأخيرة قائمة على البشارة ناتجة عنها ؛ فإن الملحوظ في طباع الخائف أن قلبه يضطرب ويقلق ولايهدأ له بال حتى تساق البشرى إليه ، فالبشرى رسول الطمأنينة إلى القلب ومفتاحها ، ولهذا قدّمت عليها . والتوجه بهذه البشرى للمؤمنين وذكرهم عبر ضمير الخطاب تشريفاً لهم ، وإيذاناً باستحقاقهم لها ، وفيه إشعار بأنهم محتاجون إلى ذلك غير مستغنين عنه[1] .

وقوله تعالى [وما النصر إلا من عند الله] فيه دقيقة من دقائق النظم القرآني ؛ حيث إنه بعد ذكر سوق البشرى لهم بالنصر من ذلك المدد وكون هذه البشرى بريد الطمأنينة القلبية عندئذٍ ناسب النّص على أن النصر بجميع صوره إنما حقيقته من الله عزّ وجل ليس إلاّ ، ويدخل في ذلك دخولاً أوليّاً النصر المعهود الواقع للمؤمنين في بدر، فبعد ذكر اطمئنان القلوب بذلك المدد خُشي أن يتسرّب الشّك إليها في أن النصر من ذلك المدد الملائكي ، فطُرد ذلك بأقوى أسلوب بلاغي لائق وهو القصر بما وإلاّ ؛ حتى يُعلم علم اليقين أن ماكان هو من الله تعالى ، وهو النصر ومقدماته التي هيّأها الله تعالى بين يدي عباده ؛ من قذف الرعب في قلوب الأعداء ، وإنزال الملائكة من السماء، وسواها مما حصل في بدر ؛ فكل ذلك من الله تعالى وحده ولايملكه أحد سواه ، ولهذا فلا ينبغي أن تركن نفس المؤمن إلاّ إليه ، ولاتعتمد إلاّ عليه ، وهذا أصل من أصول العقيدة .

وغير خاف أن اسمي [العزيزالحكيم] في فاصلة الآية وقعا بمثابة التعليل لما سبق ؛ فإنه سبحانه عزيز لايغالب ، وحكيم يضع الأمور في مواضعها المناسبة لها ومن ذلك ماحصل من مدد المؤمنين ونصرهم على الكافرين .

---

(١) انظر : تفسير أبي السعود : ٢/٨١ ، وروح المعاني : ٤/٤٦ .

وهـذه الآيـه الـتي نحـن بصددهـا تذكّرنـا بآيـة الأنفـال وهـي قوله تعالى : ﴿ وَمَاجَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(١) فبينهما تشابه كبير يصل إلى حدّ التطابق مع الاختلاف اليسير في النظم وفي التقديم والتأخير فما سرّ هذا الاختلاف مع اتحاد الغرض ؟

ومواضع الاختلاف ثلاثة وهي : -

١ - ذكر [لكم] في آية آل عمران وتركه في آية الأنفال .

٢ - تأخير الجار والمجرور [به] عن الفاعل [قلوبكم] في آل عمران ، وتقديمه عليه في الأنفال .

٣ - تجريد فاصلة الآية من حرف التوكيد المشدّد [إنّ] في آل عمران ، وذكره في الأنفال .

وقد أجيب عن ذلك بجوابين حسنين نذكرهما لوجاهة علّتهما ، فمن ذلك ماقاله ابن الزبير الغرناطي : [والجواب عن الأوّل والثاني - والله أعلم - أن آية آل عمران لما تقدم قبلها قوله تعالى [ويأتوكم من فورهم] والإخبار عن عدوّهم ؛ فاختلط ذكر الطائفتين وضمّهما كلام واحد ؛ فحرّرت البشارة لمن هي منهما وأنها لأولياء الله المؤمنين ؛ فجيء بضمير خطابهم متّصلاً بلام الجر المقتضية للاستحقاق فقيل : [بشرى لكم] وبيّن أن قلوبهم هي المطمئنّة بذلك فقيل [ولتطمئن قلوبكم به] ، فقدمت القلوب على المجرور اعتناء وبشارة ؛ ليمتاز أهلها ممن ليس له فيها نصيب . أما آية الأنفال فلم يتقدم فيها ذكر لغير المؤمنين فلم يُحتّج إلى الضمير الخطابي في [لكم] ، وأيضاً فإن آية الأنفال قد تقدم قبلها قوله تعالى [وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم] فأغنى عن عودته فيما بعده اكتفاء بما قد حصل فيما تقدم من تخصيصهم بذلك](٢).

ويجيب عبدالكريم الخطيب جواباً آخر له وجاهته حيث يقول : " وقوله تعالى : [وماجعله الله إلا بشرى لكم] وقوله في سورة الأنفال [وماجعله الله إلا بشرى] بزيادة [لكم] هناك لاختلاف المقامين .. حيث إن الخطاب في آية الأنفال كان

---

(١) الأنفال : ١٠ .

(٢) ملاك التأويل : ١/١٧٠ .

والمسلمون يواجهون الحدث مواجهة واقعية ، ويتلقون بشريات السماء وهم مشتبكون مع العدوّ ؛ فلا حاجة إلى تعيينهم بقوله سبحانه [لكم] على خلاف ماجاء في آية آل عمران إذ كان نزولها والمسلمون مقدمون على حرب المشركين في أحد ؛ فجاءت هذه الآية مع أخواتها لتذكرهم بفضل الله عليهم في يوم بدر ؛ فكان التعيين بقوله [لكم] هنا لازماً ؛ إذ كان كثير من المسلمين الذين يشهدون أحداً اليوم لم يشسهدوا بدراً بالأمس . كذلك ماجاء في قوله تعالى في آل عمران [ولتطمئن قلوبكم به] وفي الأنفال [ولتطمئن به قلوبكم] فلاختلاف المقامين اختلف الأداء للمعنى المراد ؛ فالمسلمون الذين خوطبوا في سورة الأنفال كانوا في مواجهة المعركة في بدر وقلوبهم مضطربة واجفة تنظر إلى مايطلع عليها من فضل الله ورحمته ؛ فقدم مابشّروا به من أمداد السماء ، وهو المشار إليه بالضمير في [به] على القلوب ؛ لأنه هو المطلوب لها ، أما في آية آل عمران ؛ فهو تذكير بهذا الحدث ، فجاء ذكره على الأسلوب الذي يقتضيه النظم المعتاد في لغة العرب ؛ الفعل فالفاعل فالمتعلّقات : [ولتطمئن قلوبكم به] "[1].

وفي الجواب عن الموضع الثالث المتعلّق بفاصلة الآية يقول ابن الزبير :

" والجواب عن السؤال الثالث : أن آية الأنفال تقدم فيها أوعاد جليلة كقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾[2] ثم قال : ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾[3] ثم قال : ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾[4] فهذه أوعاد عليّة ، لم يتقدّم إفصاح بمثلها في آية آل عمران فناسبها تأكيد الوصفين العظيمين ، من قدرته جلّ وتعالى على كل شيء وحكمته في أفعاله ، فقال [إنّ الله عزيز حكيم] ولمّا لم يقع في آية آل عمران إفصاح بما في آية الأنفال وردت الصفتان تابعتين دون تأكيد ، وجاء كلٌّ على مايناسب ، ولم يكن عكس الوارد في تعقيب الآيتين ليناسب ، وذلك واضح والله أعلم "[5].

---

(١) التفسير القرآني : ٤/٥٧٧-٥٧٨ .

(٢) الأنفال : ٧ .

(٣) الأنفال : ٧ .

(٤) الأنفال : ٨ .

(٥) ملاك التأويل : ١/١٧٠-١٧١ .

في حين كان جواب الخطيب عن ذلك بالآتي : " في آية الأنفال تقرير وتوكيد لعزّة الله وحكمته : [إنّ الله عزيز حكيم] وهذا التقرير والتوكيد لازمان في هذا الموقف الذي كان يقفه المسلمون في قلّتهم وضآلة شأنهم إزاء الجيش القوي الزاحف عليهم ؛ فإذا جاءتهم البشرى بنصر الله محمولة بما وعدهم على لسان نبيّه ثم أُتبعت هذه البشرى بالتذكير بعزّة الله وحكمته في هذا الأسلوب المؤكد [إن الله عزيز حكيم] كان لذلك وقعه في القلوب وأثره في النفوس .

أما في آية آل عمران فالشأن مختلف إنها حديث عن أمر وقع ، رأى منه المسلمون رأيَ العين كيف كانت عزّة الله ، وكيف كانت حكمته ؛ فيكفي هنا أن يُذكَر الله وعزّته وحكمته [العزيز الحكيم] دون توكيد ؛ إذ كان يعيش المسلمون مع الحدث الواقع الذي هو أثر من آثار عزّة الله وحكمته "(١).

وأنت ترى وجاهة هذين التعليلين المختلفين من باحثَين كريمين في نظم القرآن وتفسيره ، ومع اختلاف السبيل الذي سلكه كل واحد منهما إلا أن حيثيّاتهما مقنعة ، ونتائجهما مثمرة ، ولاغرو في ذلك فمادة بحثهما هو كلام الله عز وجل الذي لاتشبع منه العلماء ، وما أجمل ماقال الخطيب في نهاية بحثه عن الفروق بين الآيتين المتقدمتين: " وطبيعي أن مثل هذه الفروق الدقيقة في الصور اللفظية التي تعرض لموضوع واحد ؛ فيقع في النظم تقديم وتأخير ، أو زيادة وحذف – لايُلتفت إليها ، ولايقام لها وزن في معايير البلاغة ، إلاّ أن يكون ذلك في نظم القرآن الكريم ؛ حيث كل شيء بحساب وتقدير ، ولكل حرف وزنه ، الذي يَرجُح موازين الدنيا جميعا ؛ وذلك وجه مشرق من وجوه الإعجاز القرآني [تنزيل من عزيز حكيم] فسبحان من هذا كلامه " (٢).

وقد اختلف العلماء في متعلّق اللام في قوله تعالى [ليقطع طرفاً من الذين كفروا ٠٠] ولكن ماذهب إليه أبو حيّان هو الأولى بالصّواب لحسن تأويله حيث قال : " والذي يظهر أن تتعلّق بأقرب مذكور وهو العامل في [من عندالله] وهو خبر المبتدأ: كائن ٠ التقدير : وما النصر إلا كائن من عند الله لامن عند غيره لأحد أمرين : إما

(١) التفسير القرآني للقرآن : ٥٧٨/٤ .
(٢) التفسير القرآني للقرآن : ٥٧٨/٤-٥٧٩ .

قطع طرف من الكفار بقتل وأسر ، وإما بخزي وانقلاب بخيبة ، وتكون الألف واللام في [النصر] ليست للعهد في نصر مخصوص بل هي للعموم أي لايكون نصر أي نصر من الله للمسلمين على الكفار إلا لأحد أمرين "[١] .

والقطع : هو الاستئصال والإهلاك[٢] . والطَّرَف : قصد به الطائفة أو الجماعة ، يقول الراغب : " فتخصيص قطع الطَّرَف من حيث إن تنقيص طرف الشيء يتوصّل به إلى توهينه وإزالته "[٣] .

وتسمية المقتولين طرفاً لكونهم هم الذين كانوا يلون المؤمنين فقتلوا ؛ وفي ذلك يقول تعالى :﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً . . ﴾[٤] ، فلكونهم أشرافاً في أقوامهم فقد تقدموهم فكانوا أطرافهم مما يلي المؤمنين فوقع عليهم القطع المهلك ؛ وهكذا كان في بدر فقد قتل من صناديدهم سبعون ، وأسر مثلهم آخرون[٥] . فيكون ذلك استعارة لأشرافهم[٦] .

ولايخفى أن تنكير [طرفاً] قصد منه التفخيم[٧] ، فهم طائفة غير عادية بل من رؤوس القوم ومن كبار زعمائهم .

واسم الموصول من أنواع المعارف ويؤتى به لأغراض بلاغية دقيقة منها أن تُضَمَّن الصلّة العلّة التي يبنى عليها الحكم بحيث يكون مافي حيّز الصلة أصلاً وأساساً ينبني عليه المعنى المذكور قبلها، والشاهد على هذا هو الآية التي بين أيدينا ؛ فقد وقع القطع والهلاك على الكفار لكونهم مقيمين على هذه الصفة ، حيث قال تعالى : [ليقطع طرفاً من الذين كفروا . .] فالعلّة في قطع أولئك الأطراف هو كفرهم ومُشَاقَّتهم لله ورسوله كما بين ذلك سبحانه في الأنفال حيث قال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[٨] وبذلك حقّق

---

(١) البحر المحيط : ٣/٥٢-٥٣ .
(٢) انظر : جامع البيان : ٤/٨٥ .
(٣) المفردات : ٣٠٢ .
(٤) التوبة : ١٢٣ .
(٥) انظر : روح المعاني : ٤/٤٩ .
(٦) انظر : التحرير والتنوير : ٤/٧٩ .
(٧) انظر : التحرير والتنوير : ٤/٧٩ .
(٨) الأنفال : ١٣ .

الاسم الموصول في الآية أغراضاً بلاغية منها : -

١ - الإيجاز ، والعرب ترى البلاغة في الإيجاز .

٢ - تجاهل أولئك الأقوام وطيّ ذكرهم ، ولهذا أُشير إليهم بصيغة الغيبة ، فلم يذكر إلاّ صفتهم الجامعة لهم وهي صفة الكفر .

٣ - التنفير من تلك العلّة التي أهلكوا بسببها وهي كفرهم ، وعدم استجابتهم للدعوة التي وجّهت لهم من قبل الرسول عليه الصلاة والسلام .

٤ - التعريض بمن هذه حاله من الكفار في زمان النبي صلى الله عليه وسلّم ، وماتلاه من الأزمان بأنّ مصيره قريب من ذلك المصير إن لم يكن هو بعينه .

٥ - أن صلة الموصول قد اشتملت على ضمير الجمع الغائب وفي ذلك دلالة على أن الهلاك قد وقع عليهم وهم جماعة لهم شوكتهم ، ومع ذلك عذّبوا وقطع دابرهم ، كما قال تعالى :﴿ **وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ** ﴾[١] . فإذا كان هذا حال الكفار وهم مجتمعون فإن غيرهم من الكافرين أحرى بأن ينزل بهم البأس إذا كانوا فرادى أو آحادا ، وفي ذلك عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

وقوله تعالى [أو يكبتهم] الكبت : الصرع على الوجه[٢]، وقد يكون المراد إصابتهم بالغم والكَمَد ، وأصل كَبَت : كبد بالدال إذا أصابه في كبده ، ويؤيد هذا المعنى قراءة من قرأ [أو يكبدهم] بالدال مكان التاء أي يصيب الحزن أكبادهم[٣] .

والمعنى الجامع للكبت هو الردّ بعنف وتذليل[٤]وخزي وعار ، وهذا بعينه هو الذي وقع للكفار بسبب محادّتهم الله ورسوله ؛ فهذا هو السبب الجالب للكبت المستوجب له كما قرره عزّ وجل في آية المجادلة حيث قال:﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ** ﴾[٥].

---

(١) الأنفال : ٧ .
(٢) انظر : التفسير الكبير : ٢١٧/٨ .
(٣) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ١٩٨/٤ ، والبحر المحيط : ٥٢/٣ ، والتحرير والتنوير : ٧٩/٤ .
(٤) انظر : المفردات في غريب القرآن : ٤٢٠ .
(٥) المجادلة : ٥ .

فهذه هي سنة الله تعالى – التي لاتبديل لها – مع الكفّار عندما يحادّونه ويردّون دعوة رسله ·وماحصل في بدر صورة واحدة من صور تلك السُّنة الماضية ·

ونتيجة الكبت معروفة وهي الرجوع بالخيبة والندامة ولهذا ناسب أن تكون فاصلة الآية [·· فينقلبوا خائبين] ·

والذي لاريب فيه أن قطع أطراف الكفار وإهلاك أشرافهم وإصابتهم بالذل والهوان ورجوعهم بالخيبة والخسران كل ذلك أفعال وقعت في غزوة بدر ومضت أوقاتها إلاّ أنها حكيت في غزوة أحد بصيغة الفعل المضارع لاستحضار تلك الأحوال العجيبة[١] ، وللإشعار بأن الله جلّ ثناؤه الذي فعل ذلك بهم في بدر في ذلك الزمان قادر على أن يفعله بهم وبأمثالهم في أيّ وقت كان ·

وقوله تعالى [ليس لك من الأمر شيء] جملة معترضة وقعت وسطاً بين المعطوف عليه المتعلّق بالعاجل وهو القطع والكبت ، والمعطوف المتعلّق بالآجل وهو أمر توبة الله عليهم أو تعذيبهم[٢] ، ومن أغراض هذا الاعتراض كشف الأمر في حقيقة ماحصل من النصر يوم بدر : بأنه لاتأثير للمنصورين في ذلك وهم المؤمنون بعد بيان أن لاتأثير للمدد وهم الملائكة في النصر بدليل قوله تعالى [وما النصر إلا من عند الله ··] ويؤيد ذلك قوله تعالى في سورة الأنفال : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[٣] ·

فلفظ [الأمر] في الآية معناه الشأن ، وأل فيه للعهد أي من الشأن الذي عرفتموه وهو النصر ، وقد يحمل [الأمر] في الآية بأنّه الشأن بشكل عام ويدخل فيه النصر دخولاً أوّلياً ، ويندرج فيه ماذكر في الآية من القطع أو الكبت أو التوبة أو التعذيب ، فكلّ ذلك ليس للنبي عليه الصلاة والسلام ولالغيره فيه شيء بل إن الشأن في ذلك وفي غيره لله تعالى كما قال سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ·· ﴾[٤] فتكون أل في [الأمر] لاستغراق أجناسه ، فإن ذلك موكول إلى الله وحده ·

---

(١) انظر : التحرير والتنوير : ٧٩/٤ ·

(٢) انظر : تفسير أبي السعود : ٨٢/٢ ·

(٣) الأنفال : ١٧ · وممن ذهب إلى التأويل المذكور أبو السعود : ٨٢/٢ ، والألوسي : ٥٠/٤ ، وابن عاشور: ٧٩/٤ ·

(٤) آل عمران : ١٥٤ · ممن أشار إلى المعنى المتقدم ابن عاشور : ٨٠/٤ ·

وإنّما خوطب الرسول صلى الله عليه وسلم بالنفي التفاتاً إليه على سبيل التكريم له ؛ فقد كُفي أمرهم بالعزيز الحكيم ، هذا من وجه ، ومن وجه آخر تبياناً له وللمؤمنين بأن ذلك الشأن إذا لم يكن للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ فإن غيره من باب أولى ألاّ يكون له فيه افتراض أو اعتراض [١] . واللام في [لك] لام الملك [٢] أي لايملك ذلك أنت ولاغيرك .

ولكن ماسرّ تخصيص الجملة الاعتراضية بهذا الموقع في الآية الكريمة ؟ .

يجيب أبو السعود عن ذلك قائلاً : " وإنّما خُصّ الاعتراض بموقعه ، لأنّ ماقبله من القطع والكبت من مظانّ أن يكون فيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولسائر مباشري القتال مدخل في الجملة " [٣] .

ويرد سؤال آخر ؛ منطوقه : لماذا أدرج ذكر التوبة والتعذيب في سلك العلل الغائية للنصر المؤزّر في غزوة بدر الكبرى ؟

ممن أجاب عن ذلك الألوسي حيث قال : " ونظم التوبة والتعذيب الأخروي في سلك العلّة الغائيّة للنصر المترتبة عليه في الوجود : من حيث إنّ قبول توبتهم فرعُ تحقُّقها الناشيء من علمهم بحقّية الإسلام بسبب غلبة أهله المترتبة على النصر الذي هو من الآيات الغرّ المحجّلة ، وأن تعذيبهم المذكور شيء مسبَّب على إصرارهم على الكفر بعد تبيُّن الحق على الوجه المذكور ؛ كما ينبيء عن ذلك قوله تعالى : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَن بَيِّنَةٍ . ﴾ [٤] " [٥] . ولايخفى حسن جوابه ووجاهة استدلاله .

ولايخفى أن تنكير [شيء] ونظمها في سياق النّفي يفيد العموم ؛ ويدخل في ذلك صغائر الأمور وكبائرها ، دقيقها وجليلها ؛ فإنّ من كمال العقيدة وتمام الأدب مع الله عزّ وجل إسنادَ الأمور إلى الله تعالى ، والرضا بما قضى فيها سواء أجاء على

---

(١) ممن أشار إلى المعنى المذكور بعبارة مغايرة أبو السعود : ٨٢/٢ ، والألوسي : ٥٠/٤ .
(٢) انظر : التحرير والتنوير : ٨٣/٤ .
(٣) تفسير أبي السعود : ٨٢/٢ .
(٤) الأنفال : ٤٢ .
(٥) روح المعاني : ٥١/٤ . وانظر : تفسير أبي السعود : ٨٣/٢ ، ففيه المعاني نفسها إلى حدّ التطابق في الألفاظ ، ولم يكن للألوسي إلاّ فضل الاستدلال بالآية المذكورة .

مايتمنّى العبد أم على خلاف أُمْنيَّته ، وذلك كُلُّه بعد فعل الأسباب المطلوبة في كل أمر على حسبه ٠

ويطرح ابن عاشور افتراضاً يتوقعه من القارىء نصّه : " فإن قلتَ : هلاّ جَمع العقوبات متواليةً ؛ فقال : ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين أو يتوب عليهم أو يعذّبهم "[1]٠ ومعنى ذلك : أن تُرفع الجملة المعترضة أو تُؤخّر ٠

ثم يجيب بقوله : " روعي قضاء حقّ جمع النظير أولا ، وجمع الضدّين ثانيا ، بجمع القَطْع والكَبْت ، ثم جمع التَّوبة والعذاب "[2]٠ويزاد على هذا الجواب ماذُكر آنفاً من الأغراض البلاغية في الجملة الاعتراضية عندما جاءت في هذا الموقع بالذات ٠

ولما ذكر تعذيبهم ناسب أن يختم الآية بعلّة ذلك التعذيب فقال [فإنّهم ظالمون] ؛ فأكّد استحقاقهم للعذاب وظلمهم بعدّة مؤكدات منها : —

١ – الجملة الإسميّة وهذا يفيد أن ظلمهم ثابت مستقر مرئي مشاهد لامجال لتأويله أو تحمّله ٠

٢ – إدخال [إنّ] المثقّلة لتأكيد الظلم الذي تضمنته الجملة ٠

٣ – إيقاع التوكيد على ضميرهم وتخصيصهم به وإسناده إليهم ، وفي ذلك زيادة تمحضهم في الظلم وانتصابهم له ٠

٤ – الإخبار عن ذلك الظلم بصيغة اسم الفاعل وهو من أقوى صيغ التعبير ، تنبيهاً إلى أنّ ظلمهم وتعدّيهم قد بلغ مبلغاً لايمكن السكوت عنه ، فالعذاب إذا وقع عليهم كان جزاءً وفاقا ٠ قال تعالى :﴿ **وَمَاظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾[3] ٠

وقوله تعالى [ولله مافي السموات ومافي الأرض] استئناف سيق لبيان اختصاص ملكوت كل الكائنات به عز وجل إثر بيان اختصاص طرف من ذلك به

---

(١) التحرير والتنوير : ٨٣/٤ ٠

(٢) التحرير والتنوير : ٨٣/٤ ٠

(٣) النحل : ١١٨ ٠

سبحانه تقريراً لما سبق وتكملة[١] . فهذه الآية تفصيل وبيان لما أجمل في الاعتراض المتقدم في الآية السابقة [ليس لك من الأمر شيء] فالآية تعليل لذلك الاعتراض المتضمّن اختصاص الله عز وجل بالشّأن كلّه ، ولهذا قدّم الجار والمجرور على سبيل قصر أمر مافي السموات والأرض على الله وحده لايشاركه فيه لاملك مقرّب في السموات ولانبي مرسل في الأرض . يقول أبو حيّان : " لما قدّم [ليس لك من الأمر شيء] بيّن أن الأمور إنما هي لمن له المَلك والمُلك فجاء بهذه الجملة مؤكدة للجملة السابقة "[٢].

وإظهار علمية لفظ الجلالة دون ضميره لأن المقام يقتضيه ؛ فقد ذكر في الآية العقلاء وغيرهم ، وبرز اسم السموات مجموعة مما يزيد في عظمتها ، وكذا الأرض ومايعيش على ظهرها .. فالمقام مقام عظام المخلوقات ؛ فناسب ذكر الخالق العظيم جلّ اسمه ، بأعظم أسمائه وأعرفها وهو لفظ الجلالة الذي كلّ المخلوقات تألهه وترنوا إليه وتخرّ ساجدة بين يديه كما حكى الله تعالى ذلك عنها فقال : ﴿ **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَافِي السَّمَاوَاتِ وَمَافِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَايَسْتَكْبِرُونَ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَايُؤْمَرُونَ** ﴾[٣] وفي ذلك أيضاً تربية للمهابة في قلوب العباد .

واللام الداخلة على لفظ الجلالة لام الملكية قاطعة بأن ماذكر في ملك الله لايخرج عنه شيء إلى غيره .

وأما استعمال [ما] الموصولية التي هي لغير العاقل أصلا ، فقد نُظر في استعمالها إلى غير العاقل تغليبا ، ويدخل في ذلك العاقل أيضا ؛ لأن مخلوقات الله العقلاء بجانب غيرهم لايشكّلون إلا نَزْراً يسيرا ، ولذلك روعي هذا الجانب في التعبير القرآني الكريم .

واستعمال [في] الظرفية وإدخالها على السموات والأرض للإشعار بأنّ السموات والأرض تَظْرف تلك المخلوقات جميعاً ، وأنه لم يعد شيء منها خارج عنها ،

---

(١) انظر تفسير أبي السعود : ٨٢/٢ ، وكذا روح المعاني : ٥١/٤ .
(٢) البحر المحيط : ٥٣/٣ .
(٣) النحل : ٤٩ - ٥٠ .

ولذلك فجميعها في ملك الله وتحت مشيئته .

يقول صاحب البحر عن قوله تعالى [يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء] " لما تقدّم قوله [أو يتوب عليهم أو يعذّبهم] أتى بهذه الجملة موضحة أن تصرفاته تعالى على وفق مشيئته ، وناسب البداءة بالغفران والإرداف بالعذاب ماتقدم من قوله [أو يتوب عليهم أو يعذّبهم] ولم يشرط في الغُفْران هنا التوبة ؛ إذ يغفر تعالى لمن يشاء من تائب وغير تائب ماعدا ما استثناه تعالى من الشرك "[١] . وأبو حيّان يشير بذلك إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ .. ﴾[٢] .

وفصل جملة [يغفر لمن يشاء] عما قبلها لكونها وقعت جواباً عن سؤال ناشيء عن الجملة السابقة ؛ فإنّه لما قيل [ولله مافي السموات ومافي الأرض] استُفهم عن شأن مَنْ هذه صفته ؛ فقيل [يغفر لمن يشاء ..] . وأما قرن جملة التعذيب بجملة المغفرة وعطفها عليها فلما بينهما من المغايرة فالمغفرة على الضّد من العذاب ، ولكن الجامع بينهما هو اتحاد المسند إليه وهو الله سبحانه ، ولذلك حسن العاطف هنا .

وإيثار لفظة [مَنْ] في الموضعين دون [ما] لاختصاص المغفرة والتعذيب بالعقلاء[٣] ، فهم الذين يجري في حقّهم ذلك .

وتقديم فعل المغفرة على فعل التعذيب لأمرين :

أولهما : - أنّه من باب التناسب مع الآية السابقة حيث قدّمت التوبة على التعذيب في قوله [أو يتوب عليهم أو يعذبهم] .

وثانيهما : - للإشعار بأنّ رحمته سبحانه قد سبقت عذابه وأنّها قد وسعت كلّ شيء كما قال تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[٤] .

ويؤيّد ذلك ماجاء في آخر سورة الأنعام ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٥] فقد أكّد سبحانه رحمته بمؤكّدات منها : -

١ - اسمية الجملة .

---

(١) البحر : ٣/٥٣ .
(٢) النساء : ٤٨ .
(٣) انظر : تفسير أبي السعود : ٢/٨٤ .
(٤) الأعراف : ١٥٦ .
(٥) الأنعام : ١٦٥ .

٢ - إن المؤكدة ٠

٣ - لام الابتداء الداخلة عل خبر [إنّ] وهي في قوّة القسم المؤكّد ٠

٤ - الإخبار عن [الربّ] جلّ وعلا باسمين كريمين أُتبع أحدهما الآخر ، وقد تضمّنا صفتين عظيمتين وهما: المغفرة والرحمة ٠ وهذا بخلاف ماوقع في شأن العقاب٠

ومن الدلائل النَّصّيَّة على أنّ رحمة الله قد سبقت عذابه فاصلة هذه الآية فقد خُتمت بما يؤكّد جانب المغفرة ويقرّرها ، وذلك بإظهار لفظ الجلالة مرة أخرى ، ثمّ الإخبار عنه بأنّه [غفور رحيم] ، في حين أنّ جانب العذاب قد تُرك وسكت عنه ، واكتفي بما تقدّم ٠ وفي ذلك إطماع بالإسلام لمن ضلّ وجانب الهدى ، كما أنّ فيه حَدْواً للفُسّاق وسوقاً لهم إلى أبواب التوبة والإنابة قبل أن تغلق دونهم ، ولات ساعة مندم [1]٠

---

(١) لمزيد من الوقوف على صور التعريف في هذا البحث ؛ انظر : ٥١ ، ٨٨ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢١٨ ، ٢٢٥ ، ٢٦٩ ، ٣٠٧ ، ٣١٦ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٦ ، ٣٤٥ ، ٣٥٥ ، ٣٨٠ ، ٤١٢ ، ٤٣٤ ، ٤٣٧ ، ٤٥٠ ، ٤٥٦ ، ٤٦٨ ، ٤٧٢ ، ٤٨٧ ، ٤٩٥ ، ٥٣١ ، ٥٤٤ ، ٥٧٣ ٠

الإظهار والإضمار

من المسلَّم به عند البلغاء أن الكلام يورد على مقتضيات الأحوال ، وبحسب مايقتضيه المقام ، وعلى ذلك يجري نظم الكلام ، ويكون ظاهر الحال هو الذي يحكم المتكلم ؛ وضابط ذلك كله هو قانون النحو العربي وقواعده . فيراعي قواعدَ العربية من تحدّث بها ، إظهاراً أو إضماراً ، تقديماً أو تأخيراً ، حذفاً أو ذكرا ...

ومعلوم أن الأصل في مسألة الإضمار والإظهار هو وضع كلّ من المضمر والمظهر في مكانه اللائق به ؛ وعلى وفق قواعد النحو المعروفة ؛ بحسب مقتضى القياس الوضعي الذي عليه سَنَن العرب في كلامها ، والسير على ذلك سير على الظّاهر . والخروج عنه خروج على خلاف مقتضى الظاهر الذي هو القياس الوضعي في كلام العرب .

والإظهار والإضمار في الكلام إذا خرج على خلاف مقتضى الظاهر . فإنّما يخرج لنكتة بلاغية ، ولغرض في سياق الكلام يريد المتكلم زيادة تقريره ، أو تعميمه أو تعظيمه أو الاعتناء به أو العناية بما أسند إليه ، أو لغرض آخر يُسهم في تحديده سياق الحديث ، وقرائن الأحوال ، ويُدرك ذلك من أوتي حظاً من البصر بأساليب البيان ، وكان ذاحسٍّ بلاغي مرهف .

إنه من غير اليسير حصر الأغراض البلاغية التي تتخلل الإظهار والإضمار عند خروجهما على خلاف مقتضى الظاهر[1] ؛ لكونها متعلقة بالشواهد نفسها ، ولأنها خاضعة لسياق النظم ، ولذوق المتدبّر . وسينجلي بعض نكاتها البيانية من خلال تحليل بعض الشواهد القرآنية في الآيات المتضمّنة لمعاني الجهاد ؛ ومنها قوله تعالى :

---

(١) حاول بعض العلماء أن يحصروا تلك الأغراض وساقوا شواهد لها ، انظر ذلك في : البرهان : ٣/٥٩-٧٦، والإتقان : ٣/٢١٦-٢٢٠ ، ومعترك الأقران : ١/٢٧٤-٢٧٨ ، والمثل السائر : ٢/٢١٣-٢١٥، والطراز : ٢/١٤١-١٤٥ ، وشروح التلخيص :١/٤٤٧-٤٦٠ ، وأثر النحاة في البحث البلاغي : ١٠٧-١٠٩ وغيرها .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾(١).

لقد ورد لهذه الآية سبب نزول يزيد في توضيح نظمها ، وخلاصته : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سرية من المسلمين ، وأمّر عليهم عبدالله بن جحش الأسدي ، فانطلقوا حتى هبطوا نخلة بين مكة والطائف ، ووجدوا بها عير تجارة لقريش عليها عمرو بن الحضرمي ؛ فشدّوا على ابن الحضرمي فقتلوه وغنموا عيره وكانوا يظنون أن اليوم من جماد الآخرة فبان أنه من رجب ؛ فبلغ ذلك قريشا – وكان ابن الحضرمي أول قتيل بين المسلمين والمشركين – فركب وفد من قريش حتى قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : أتحل القتال في الشهر الحرام ؟ فأنزل الله تعالى الآية (٢).

وعلى ذلك فإن فاعل السؤال في قوله [يسألونك] هم المشركون ، تعجباً من فعل سرية ابن جحش وتعييباً عليهم ، ورغبة في تعظيم الانتقام منهم ٠وقيل :إن السائل هو عبدالله بن جحش وصحبه لما عظم عليهم الأمر لكون فعلهم في رجب المحرّم(٣).

ولكن الراجح هو القول الأول لأن سياق النظم متوجه إليه ؛ فإن ضمير [ولايزالون يقاتلونكم] عائد إلى المشركين بلا خلاف (٤).

والألف واللام في [الشهر الحرام] قد تكون للعهد ، وذلك لأن القتل قد وقع في رجب المعهود حرمته في أذهانهم ٠ ويحتمل كونها للجنس ؛ فيراد به الأشهر الحرم ، وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ، ثلاثة سرد وواحد فرد ، وسميت حرماً لتحريم القتال فيها (٥).

---

(١) البقرة : ٢١٧ ٠

(٢) انظر : أسباب النزول للواحدي : ٩٩ ٠ وانظر : جامع النقول في أسباب النزول : ١/٢٥٩-٢٦٣ ٠

(٣) غرر التبيان في مَنْ لم يسمَّ في القرآن : ٢١٦ ٠

(٤) انظر : البحر : ٢/١٤٩ ٠

(٥) انظر : البحر : ٢/١٤٥ ٠

وإنمـا أُبهـم السـؤال ليكـون للنفس إليـه التـفـات واعـتناء ؛ ولذلك بينه بـبـدل الاشتمال [(١)] في قوله [قتالٍ فيه] ، ونظراً لما بين البدل والمبدَل منه من كمال الاتصال فقد وقع الفصل بينهما بترك العاطف ٠

وهاهنا سـؤال وهو : لم قدم الشـهر الحـرام في الذكر ، ولم يقل : يسـألونك عن قتـال فـي الشـهر الحرام وهم لم يسـألوا عن الشـهـر إلا من أجل القتـال فـيه ؛ فكان الاهتمام بالقتال وتقديم ذكره أولى في الظاهر ؟٠

والجواب أن يقال : إن هذا السـؤال لم يقع إلا بعد وقـوع القتـال في الشـهـر ، وتشنيع الكفرة عليهم انتـهاك حـرمة الشهر ؛ فاغتمـامهم واهتمامهم بالسؤال إنما وقع من أجل حـرمـة الشـهر ؛ فلذلك قدم في الذكر وأخّر القتـال ؛ مع أنهما متـآيلان ، لكن التقديم حصل لقضاء حق الاهتمام ، على أن في النظم الجاري عليه نسق الآية تشويقاً وذلك عن طريق الاجمال ثم التفصيل [(٢)] ٠

وهنا نكتة في تنكير [قتـال] الذي وقع عنه السؤال ؛ فإن الغرض من ذلك إرادة الجنس الذي يفيد العموم ؛ إذ ليس المسؤول عنه قتـالاً مـعيناً ولافي شـهر مـعيّن ، بل المراد هذا الجنس في هذا الجنس [(٣)] ٠

ولما انتـهى السـؤال شُرع في إيراد الجـواب بتـوجيـه الخطاب إلى من وُجّه إليـه السؤال أصـلاً ، وهذا أسلوب رفيع في الأدب القرآني الكريم ؛ فلم يُجب عنه ، ولم يطوَ ذكره ، وإنما وجّه إليـه الخطاب ، ثم خُلّيَ بينه وبين السـائلين ليكون هـو المجيب ؛ وفي ذلك إكبار له في أعين المستجوبين أيّاً كانوا ٠ وفيـه تشريف له وتكريم ، حيث خاطبه مولاه الذي اصطفاه من بين الخق أجمعين ليكون رسوله الأمين ؛ فقال [قل قتال فيه كبير] ؛ وفي هذا الموضع سؤال وهو أنه أعاد لفظ القتال على سبيل الإظهار ، وكان القياس أن يعاد بلفظ الإضمار ؛ فيقال – مثلاً – : قل هو كبير ؛ كما لو سئل إنسان عـن رجـل في الدار ؛ فإن مقتضى الظاهر أن يكون سياق الجواب : هو فلان ، بلفظ المضمر ؛ لأن الإضمار – إذا عرف المعنى – أوجز وأولى [(٤)] ، فما سرّ ذلك ؟

---

(١) انظر : نظم الدرر : ٣/٢٢٦ ٠
(٢) انظر : نتائج الفكْر : ٣١٣ ، والتحرير : ٢/٣٢٥ ٠
(٣) انظر : التحرير : ٢/٣٢٥ ٠
(٤) انظر : نتائج الفكْر : ٣١٣ ٠

والجواب أن يقال : إن في إعادة لفظ الظاهر في الآية فائدة ونكتة بلاغية ؛ وهي تحصيل عموم الحكم ، ولو جاء بلفظ المضمر فقيل - مثلاً - : هو كبير - على مقتضى الظاهر - لاختص الحكم بذلك القتال الواقع في تلك القصة ؛ لكون الضمير معرفة ينصرف إلى القتال المسؤول عنه ، وليس الأمر كذلك ، وإنما هو عامّ في كل قتال وقع في شهرٍ حرام[(١)] ، يضاف إلى ذلك : طلب الصراحة في الجواب ، حتى لايُتَوهَّم أنّ الشهر الحرام هو الكبير ، وليكون الجواب على طبق السؤال في اللفظ[(٢)] ، وفي ذلك منتهى الدقة . وذلك أنه حين قال : [قتال فيه كبير] جعل الاسم المخبَر عنه [قتال] ، وخصَّه بالمجرور الذي هو ضمير الشهر ؛ فتعلّق الحكم به على العموم متى وقع ؛ لأن اللفظ المضمر لاتقتضي صيغته إلا تخصيص الخبر بما يعود عليه[(٣)] .

ومهما يكن من أمر فإن الجواب في الآية تشريع إن كان السؤال من المسلمين ، واعتراف وإبكات إن كان السؤال إنكاراً من المشركين ؛ لأنهم توقّعوا أن يجابوا بإباحة القتال فيثوّروا بذلك العرب ومن في قلبه مرض[(٤)] .

والذي يسترعي الانتباه في نظم الآية تنكير [قتال] الثاني ؛ والإعراض عن تعريفه ؛ ذلك أن من حق النكرة إذا تكررت أن تجيء باللام ، حتى يكون المذكور الثاني هو الأول ، ومع ذلك فقد نكّر [قتال] مرتين فما الغرض من ذلك ؟

ممن أجاب عن ذلك الفخر الرازي فكان من جوابه : أن في التنكير الثاني تنبيهاً على أن القتال الذي يكون كبيراً ليس هو هذا الذي سألتم عنه ، بل هو قتال آخر ؛ لأن هذا القتال كان الغرض منه نصرة الإسلام وإذلال الكفر ؛ فكيف يكون هذا من الكبائر ؟ إنما القتال الكبير هو الذي يكون الغرض فيه هدم الإسلام وتقوية الكفر؛ فكان اختيار التنكير في اللفظين لأجل هذه الدقيقة ، ولو وقع التعبير عنهما أو عن أحدهما بلفظ التعريف لبطلت هذه الفائدة الجليلة[(٥)] .

---

(١) انظر : نتائج الفكر : ٣١٣ .
(٢) انظر : التحرير : ٣٢٥/٢ .
(٣) انظر : نتائج الفكر : ٣١٣ - ٣١٤ .
(٤) انظر : التحرير : ٣٢٥/٢ .
(٥) انظر : التفسير الكبير : ٣١/٦ .

والظاهر المتبادر أن إثبات كون القتال في الشهر الحرام كبيراً تمهيد للحجة على أن مافعله عبدالله بن جحش - رضي الله عنه - وماعسى أن يفعله المسلمون من القتال فيه مبني على قاعدة لاينكرها عقل ، وهي ارتكاب أخفّ الضررين إذا لم يكن بدّ من أحدهما ، ولاشك أن القتال في نفسه أمر كبير وجرم عظيم ، وإنما يرتكب لإزالة ماهو أعظم منه(١) ؛ ولذلك ناسب أن يليَ ماتقدم من الآية قولُه [وصدّ عن سبيل الله] ؛ وصدّ وماعطف عليه مرفوع بالابتداء وخبرها [أكبر عند الله] (٢).

والمعنى : أن القتال الذي سألتم عنه - وإن كان كبيراً - إلا أن هذه الأشياء أكبر منه وأعظم جرما ؛ فإذا لم تمتنعوا عنها في الشهر الحرام فكيف تعيبون عبدالله ابن جحش على ذلك القتال الذي لم يقصد إيقاعه في الشهر الحرام أصلا (٣).

والصّد : الصرف والمنع ، والغالب أنه يصحبه إكراه وإعنات (٤).

والمراد بالصد عن سبيل الله منع من يريد الإسلام من الدخول فيه (٥).

وقيل : سبيل الله الحج ؛ لأنهم صدّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مكة(٦) . والأوّل أولى لكون الثاني داخلاً فيه ومتفرّعاً عنه . وقد نكّر [صد] لإرادة العموم فهو شامل لأيّ صد مهما كان(٧) مادام مقيداً بكونه صداً [عن سبيل الله] .

[وكفر به] أي بالله فالضمير عائد إلى أقرب مذكور (٨) . وإنما سلك سبيل الإضمار ولم يُظهر جرياً على مقتضى الظاهر .

[والمسجد الحرام] معطوف على [سبيل الله] فهو متعلّق بـ [صدّ] تبعاً لتعلّق متبوعه به ، فيكون المعنى : وصد عن المسجد الحرام ....

---

(١) انظر : تفسير المنار : ٢/٣١٦ .
(٢) انظر : التفسير الكبير : ٦/٣٢ .
(٣) انظر : التفسير الكبير : ٦/٣٢ .
(٤) انظر : المفردات : ٢٧٦ ، ونظم الدرر : ٣/٢٢٦ .
(٥) انظر : التحرير : ٢/٣٢٩ .
(٦) انظر : البحر : ٢/١٤٦ .
(٧) انظر : نظم الدرر : ٣/٢٢٦ .
(٨) انظر : تفسير المنار : ٢/٣١٦ .

وفي نظم الآية نكتة نبّه إليها ابن عاشور فقال : " واعلم أن مقتضى ظاهر ترتيب نظم الكلام أن يقال : وصد عن سبيل الله وكفر به وصد عن المسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله ، فخولف مقتضى هذا النظم إلى الصورة التي جاءت عليها الآية ؛ بأن قدم قوله [وكفر به] فجعل معطوفاً على [صد] قبل أن يستوفي [صد] ماتعلّق به وهو [والمسجد الحرام] فإنه معطوف على [سبيل الله] المتعلّق بـ [صد] إذ المعطوف على المتعلّق متعلّق فهو أولى بالتقديم من المعطوف على الاسم المتعلّق به ؛ لأن المعطوف على المتعلَّق به أجنبي عن المعطوف عليه ، وأما المعطوف على المتعلّق فهو من صلة المعطوف عليه ، والداعي إلى هذا الترتيب هو أن يكون نظم الكلام على أسلوب أدق من مقتضى الظاهر ، وهو الاهتمام بتقديم ماهو أفظع من جرائمهم ؛ فإن الكفر بالله أفظع من الصدّ عن المسجد الحرام ؛ فكان ترتيب النظم على تقديم الأهمّ فالأهمّ ؛ فإن الصد عن سبيل الإسلام يجمع مظالم كثيرة ؛ لأنه اعتداء على الناس في مايختارونه لأنفسهم ، وجحد لرسالة رسول الله ، والباعث عليه انتصارهم لأصنامهم : ﴿ **أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَاهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ** ﴾[١] فليس الكفر بالله إلا ركنا من أركان الصدّ عن الإسلام ؛ فلذلك قُدِّم الصدّ عن سبيل الله ، ثم ثُنِّيَ بالكفر بالله ليفاد بدلالة المطابقة بعد أن دَلّ عليه الصدّ عن سبيل الله بدلالة التضمّن ، ثم عَدَّ عليهم الصدّ عن المسجد الحرام ثم إخراج أهله منه "[٢] .

[وإخراج أهله منه] المراد بأهل المسجد هم النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون ، وسمّاهم أهلاً وأضافهم إلى ضمير المسجد لكونهم هم الأحق والأجدر والأخص به من المشركين ، فقد قصر الله عز وجل ولاية المسجد عليهم وحدهم دون سواهم في قوله : ﴿ **وَمَالَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَاكَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ** ﴾[٣] فأخبر تعالى أن المشركين قد خرجوا بشركهم عن أن يكونوا أولياء المسجد ثم قصر ولايته على المتقين .

---

(١) ص : ٥ .
(٢) التحرير : ٢/٣٢٩ - ٣٣٠ .
(٣) الأنفال : ٣٤ .

[أكبر عند الله] أفعل تفضيل واقع خبرا عن المذكوات السابقة ، وهو تفضيل في الإثم ، أي كل واحد من المذكورات السابقة أعظم إثماً مما سألتم عنه (١) ، وقد حذف المفضل منه لظهور العلم به ولإرادة العموم والعندية المضافة إلى الله تعالى عندية العلم والحُكم (١) .

ولما كان ماذكر آنفا ضروباً من الفتن ناسب نظم اسم الفتنة بعد ذلك والنصّ عليها ؛ فقال [والفتنة أكبر من القتل] .

والفتنة : التشغيب والإيقاع في الحيرة واصطراب العيش ؛ فهي اسم شامل لما يعظم من الأذى الواقع على فرد واحد أو جماعة من غيرهم . وقد أريد بها مالقيه المسلمون من المشركين من المصائب في الدين بالتعرض لهم بالأذى قولاً أو فعلاً (١) .

يقول ابن القيم إجمالاً لمعنى ماتقدّم : " والمقصود أن الله سبحانه حكم بين أوليائه وأعدائه بالعدل والإنصاف ولم يبرئ أولياءه من ارتكاب الإثم بالقتال في الشهر الحرام ، بل أخبر أنه كبير ، وأن ماعليه أعداؤه المشركون أكبر وأعظم من مجرد القتال في الشهر الحرام ؛ فهم أحقّ بالذّم والعيب والعقوبة ، لاسيما وأولياؤه كانوا متأوّلين في قتالهم ذلك أو مقصّرين نوع تقصير يغفره الله لهم في جنب مافعلوه من التوحيد والطاعات والهجرة مع رسوله وإيثار ماعند الله ؛ فهم كما قيل :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد * جاءت محاسنه بألف شفيع

فكيف يقاس ببغيضٍ عدوٍّ جاء بكل قبيح ولم يأت بشفيع واحد من المحاسن ؟ " (٢) .

ولما أخبر سبحانه أن الفتنة عن الدين وتعذيب المسلمين أكبر من القتل ، وأن فعل ذلك صادر من المشركين على المسلمين ناسب عندئذٍ أن ينتظم بما تقدم قوله [ولايزالون يقاتلونكم حتى يردّوكم عن دينكم إن استطاعوا] ليكون بياناً لاستحكام عداوتهم وإصرارهم على الفتنة في الدين (٣) .

---

(١) انظر : التحرير : ٣٢٩/٢ - ٣٣٠ . ولابن القيم كلام نفيس في معنى الفتنة وأنواعها ، وذلك في : زاد المعاد : ١٦٨/٣ - ١٧٠ .

(٢) زاد المعاد : ١٧٠/٣ .

(٣) انظر : تفسير أبي السعود : ٢١٧/١ .

وفيـــه لطائـف : -

١ - معنى [لايزالون] أي أنهم يدومـون على ذلك الفعل ؛ لأن الزوال يفيد النفي ؛ فإذا أدخلت عليه " ما " كان ذلك نفياً للنفي ؛ فيكون دليلاً على الثبوت الدائم[١] .

٢ - التعبير عن المقاتلة بصيغة المضارع [يقاتلونكم] تنبيه إلى أنهم يجدّدون ذلك الفعل تارة بعد أخرى ، كلّما لاحت لهم الفرصة ؛ فهذا شأنهم ؛ فكونوا على حذر منهم[٢] .

وفي تسليط فعل المقاتلة وإيقاعه على ضمير المخاطبين تهييج لهم .

٣ - أن علّة المقاتلة المذكورة وغايتها هي إخراج المسلمين من دينهم الحق وقد كشف عن ذلك أداة الغاية في قوله [.. حتى يردوكم عن دينكم]، والمعنى : أن فتنتهم وقتالهم يدوم إلى أن يحصل غرضهم ، وهو أن يردّوكم عن دينكم[٣].وليس هذا مقصوراً على كفار ذلك الزمان ، وإنما هو دأب الكفار في كل الأزمان ؛ فالعبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب[٤] .

٤ - إضافة الدين إلى المخاطبين فيه إلهاب لحماستهم على التمسك به ، وأنه من النفاسة بمكان ، مما حمل الكفار على ارتكاب تلك الأفعال ، فقد أكسبت الإضافة المضاف إليه تشريفاً وتعريفاً ، حتى عرفوا بهذا الدين ونسبوا إليه ، فصاروا ينادون بـ " المسلمين" .

٥ - في قوله [إن استطاعوا] تعريض بأنهم لايستطيعون ردّ المسلمين عن دينهم ؛ فموقع هذا الشرط موقع الاحتراس مما قد توهمه الغاية في قوله [حتى يردوكم عن دينكم]، ولهذا جاء الشرط بحرف [إن] المشعر بأن شرطه يفيد الشك في

---

(١) انظر : التفسير الكبير : ٣٥/٦ .
(٢) انظر : نظم الدرر : ٢٣١/٣ .
(٣) انظر : نظم الدرر : ٢٣١/٣ ، والتحرير : ٣٣١/٢ .
(٤) يقول الشيخ عبدالرحمن السعدي : " وهذا الوصف عام لكل الكفار ، ولايزالون يقاتلون غيرهم حتى يردوهم عن دينهم ، وخصوصاً أهل الكتاب من اليهود والنصارى . ألفوا الجمعيات ونشروا الدعاة وبثوا الأطباء وبنوا المدارس لجذب الأمم إلى دينهم وإدخالهم عليهم كل مايمكنهم من الشبه التي تشككهم في دينهم " .تفسير كلام المنان : ٢٦٧/١ .

وقوع جوابه [١]. يقول الزمخشري : " [إن استطاعوا] استبعاد لاستطاعتهم ؛ كقول الرجل لعدوّه : إن ظفرت بي فلا تبق عليّ . وهو واثق بأنه لايظفر به " [٢].

ومن عرف الإسلام معرفة صحيحة - وهو الحق الصراح - لايرجع عنه إلى الكفر - وهو الباطل المفضوح - ، وهكذا كان ، وهكذا يكون فلا يزال الكفار يقاتلوننا ليردّونا عن ديننا إن استطاعوا ، ولم يستطيعوا ، ولن يستطيعوا بحول الله تعالى وقوّته [٣].

وقوله [ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر] جملة معترضة أو معطوفة على ماقبلها ؛ قصد منها التحذير الشديد للمخاطبين من خطر الردّة ؛ لأنه لما ذكر حرص المشركين على ردّ المسلمين عن الإسلام ، وعقّبه باستبعاد أن يصدر ذلك من المسلمين - أعقبه بالتحذير منه [٤] ، حتى لاتهوي نفوس ضعفة المسلمين إلى الكفر تحت وطأة ضروب الفتن .

وجيء بصيغة [يرتدد] - مفكوكة الإدغام - وهي صيغة مطاوعة تفيد التعمّل والتكسّب - إشارة إلى أن مَنْ ذاق حلاوة الإيمان لايسهل عليه رجوعه عنه ، وأن ذلك يكون بتكلّف وعناء [٥].

وقوله [منكم] زيادة في استحضار المخاطبين وتهديد الخارجين عن الدين ، ومن تبعيضية [٦].

ولم يذكر الدين المرجوع إليه لعدم العبرة به ، وإنما العبرة بالارتداد عن الدين والخروج منه إلى أي دين مهما كان ، ومن يومئذٍ صار اسم الردة لقباً شرعياً على الخروج من دين الإسلام ، وإن لم يكن في هذا الخروج رجوع إلى الدين الذي كان عليه الخارج [٧].

---

(١) انظر : التحرير : ٢/٣٣١ .
(٢) الكشاف : ١/١٢٦ .
(٣) انظر : تفسير المنار : ٢/٣١٨ .
(٤) انظر : التحرير : ٢/٣٣٢ .
(٥) انظر : البحر : ٢/١٥٠ ، والتحرير : ٢/٣٣٢ .
(٦) انظر : البحر : ٢/١٥٠ .
(٧) انظر : التحرير : ٢/٣٣٢ .

وقوله [عن دينه] فيه إظهار في مقام الإضمار ؛ فقد كان مقتضى الظاهر أن يقال : عنه ؛ بقرينة قوله [حتى يردوكم عن دينكم] وبتكرار لفظ الردة مرة أخرى في قوله [ومن يرتدد منكم] وهذا ينصرف إلى الردة عن الدين عندما يذكر الضمير : عنه . ولكن خولف ذلك ، ولم يجر التعبير الكريم على مقتضى الظاهر ؛ وإنما أظهر لفظ الدين مرة أخرى وأضيف إلى ضمير المرتد لنكتة بلاغية ؛ وهي تذكير المرتد بعظمة هذا الدين ، وأنّه هو الذي اختاره ودخل فيه بطواعيته واختياره من غير قسر ولا إكراه ، ولذلك أضيف إليه ؛ فقيل : [دينه] ، كما أن في ذلك إثارة لحميته ، ودغدغة لغيرته ؛ إذ كيف يغيّر وسمه الذي وُسِم به ، وينخلع من دينه الذي تعامل مع الناس من خلال آدابه وتوجيهاته ؛ فذلك عار دينوي ناهيك عن الشنار الأخروي .

وقوله [فيمت] معطوف على الشرط المتقدم بالفاء المشعرة بتعقيب الموت على الكفر بعد الردة واتصاله بها ، ورتّب على ذلك حبوط عمل الفاعل في الدنيا والآخرة (١) .

يقول ابن عاشور : " وقد أشار العطف في قوله [فيمت] بالفاء المفيدة للتعقيب إلى أن الموت يعقب الارتداد ، وقد علم كل أحد أن معظم المرتدين لاتحضر آجالهم عقب الارتداد ؛ فيعلم السامع حينئذٍ أن المرتد يعاقب بالموت عقوبة شرعية ؛ فتكون الآية بها دليل على وجوب قتل المرتد .. "(٢) .

ولكن ماحكمة تشريع قتل المرتد مع أن الكافر بالأصالة لايقتل ؟

يجيب عن ذلك ابن عاشور قائلاً : " وحكمة تشريع قتل المرتد – مع أن الكافر بالأصالة لايقتل – أن الارتداد خروج فرد أو جماعة من الجامعة الإسلامية ؛ فهو بخروجه من الإسلام بعد الدخول فيه ينادي على أنه لما خالط هذا الدين وجده غير صالح ، ووجد ماكان عليه قبل ذلك أصلح ؛ فهذا تعريض بالدين واستخفاف به ، وفيه – أيضاً – تمهيد طريق لمن يريد أن ينسلّ من هذا الدين ؛ وذلك يفضي إلى انحلال الجامعة ؛ فلو لم يجعل لذلك زاجر ما انزجر الناس ، ولانجد شيئاً زاجراً مثل توقع

---

(١) انظر : البحر : ٢/١٥٠ .

(٢) التحرير : ٢/٣٣٥ . ثم أفاض ابن عاشور في ذكر أقوال العلماء في المرتد . انظر : التحرير : ٢/٣٣٥ – ٣٣٦ . وانظر : الجامع لأحكام القرآن : ٣/٤٦ – ٤٨ .

الموت ؛ فلذلك جُعل الموت هو العقوبة للمرتد حتى لايدخل أحد في الدين إلاّ على بصيرة ، وحتى لايخرج منه أحد بعد الدخول فيه .. "(١).

قوله [وهو كافر] جملة حالية من ضمير [فيمت] مفيدة أن الوعيد مقيدٌ بالموت على الكفر ، وفي ذلك ترغيب في الرجوع إلى الإسلام بعد الارتداد(٢) ، وأن الفرصة متاحة قبل غرغرة الموت .

وقوله [فأولئك] إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيّز الصلة من الارتداد والموت عليه ، ومافي اسم الإشارة من معنى البعد للإشعار ببعد منزلتهم في الشرّ والفساد (٣).

وأتى باسم الإشارة مجموعاً حملاً على معنى الموصول وفقاً لسنة الله في كتابه يقول الزركشي : " إذا اجتمع الحمل على اللفظ والمعنى بدئ باللفظ ثم بالمعنى ؛ هذا هو الجادّة في القرآن " (٤)، وعلى هذا جرى نسق التعبير الكريم فقد روعي لفظ الموصول [من] فأفرد [يرتدد فيمت وهو كافر] ثم روعي معناه فجمع [فأولئك] . يقول أبو حيان : " وعلى هذا الأفصح جاءت هذه الآية "(٥).

وقوله [حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة] إخبار عن مصير أعمالهم في الدارين ؛ وأصل الحبَط – بفتح الباء – أن تأكل الإبل شيئاً يضرها فتنتفخ بطونها فتهلك (٦)، وإطلاق الحبط على الأعمال استعارة ، فقد استعير الحبط المذكور أصله لبطلان الأعمال بجامع الضرر والهلاك في كليهما ، ثم اشتق من الحبط الفعل الماضي حبطت على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

وحَبَط الأعمال في الدنيا بأن يقتل عند الظفر به بعد استتابته ، ولايستحق من المؤمنين موالاة ولانصراً ولاثناء حسناً ، وتبين منه زوجته ، ولايستحق الميراث من المسلمين (٧).

---

(١) التحرير : ٢/٣٣٦ .
(٢) انظر : تفسير أبي السعود : ١/٢١٧ .
(٣) انظر : تفسير أبي السعود : ١/٢١٧ .
(٤) البرهان : ٣/٤٤٠ .
(٥) البحر : ٢/١٥١ .
(٦) انظر : التفسير الكبير : ٦/٣٧ .
(٧) انظر : التفسير الكبير : ٦/٣٨ .

وأما حبط العمل الأخروي فهو فساده وزواله ألبتة[١] فلم يعد صاحبه من المسلمين الذين لهم في الآخرة النعيم والتكريم ، وإنما مصيره في الآخرة مستفاد من الجملة اللاحقة وهي قوله [وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون] وفي الإتيان باسم الإشارة مرة أخرى تنبيه على أنهم أحرياء بما ذكر بعد اسم الإشارة من أجل ماذكر قبل اسم الإشارة [٢] ، وأنهم قد تميّزوا بذلك أكمل تميُّز ، وفي ذلك إشعار بأن الردة أقبح أنواع الكفر ؛ حيث كرّر المناداة بالبعد على أهلها ، واختار مادة الصحبة إشارة إلى كونهم أحق الناس بها ؛ فهم غير منفكين عنها [٣] ، ويرشد إلى ذلك - أيضاً - التعبير عن خلودهم فيها باسم الفاعل المؤذن بدوام ذلك واستمراره الأبدي إلاّ ماشاء الله[٤] .

وفي الجملة الأخيرة من الآية وجهان إعرابيان :

الأول : - يحتمل كونها ابتداء مسوقاً على سبيل الإخبار من الله تعالى ، يفيد خلود هؤلاء المذكورة أوصافهم في النار ؛ وعلى ذلك لاتكون الجملة داخلة في الجزاء ؛ وإنما تكون معطوفة على الجملة الشرطية المتقدمة في الآية [٥] .

الثاني : - ويحتمل كونها معطوفة على قوله [فأولئك حبطت أعمالهم ..] ؛ فتكون داخلة في الجزاء ؛ لأن المعطوف على الجزاء جزاء ، وهذا الوجه يجري على مقتضى القياس اللغوي لكونه أقرب مذكور ، والقرب مرجح ، وهذا ترجيح أبي حيّان [٥] .

ومما جرى فيه وضع المظهر موضع المضمر لنكتة بلاغية قوله تعالى مخاطباً الكافرين الذين دارت عليهم دائرة بدر الكبرى : ﴿ **ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ** ﴾[٦] .

---

(١) تفسير سورة البقرة : ٣٧٧ . للدكتور أمير عبدالعزيز .

(٢) انظر : التحرير : ٢/٣٣٣ .

(٣) انظر : نظم الدرر : ٣/٢٣٥ .

(٤) قال تعالى : ﴿ **فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك إن ربك فعال لما يريد** ﴾ هود : ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٥) انظر : البحر : ٢/١٥١ .

(٦) الأنفال : ١٤ .

وعن علاقة هذه الآية بما قبلها يقول الفخر: " إنه تعالى لما بين أن من يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب [(١)]- بين من بعد ذلك صفة عقابه ، وأنه قد يكون معجَّلاً في الدنيا ، وقد يكون مؤجَّلاً في الآخرة "[(٢)] .

وفي [ذلكم] التفات من سياق الغيبة الوارد في الآية السابقة إلى الخطاب إهانة وتبكيتاً وتحسيرا . ويكون [ذلكم] خبراً لمبتدأ محذوف تقديره : العقاب ، أو مبتدأ والخبر محذوف : أي : ذلكم العقاب [(٣)] .

ولكن لم سَمَّى العقاب الدنيوي ذوقاً ؟

يقول الرازي : " ونبَّه بقوله [ذلكم فذوقوه] وهو المعجل من القتل والأسر على أن ذلك يسير بالإضافة إلى المؤجّل لهم في الآخرة ، فلذلك سمّاه ذوقاً ؛ لأن الذوق لايكون إلاّ تعرف طعم اليسير ليعرف به حال الكثير ؛ فعاجل ماحصل لهم من الآلام في الدنيا كالذوق القليل بالنسبة إلى الأمر العظيم المعدّ لهم في الآخرة "[(٤)] .

وفي التعبير عن الذوق بصيغة الأمر إظهار الشماتة وإلحاق مزيد الإهانة بهم ، أي باشروا ذلكم العقاب الذي أصابكم فذوقوه عاجلاً مع أن لكم عذاب النار آجلاً [(٥)] .

وبهذا التأويل تكون الواو في [وأن للكافرين ..] للمعية ، وعلى ذلك يكون فيها وضع للظاهر موضع المضمر لغرض التوبيخ وتعليل الحكم[(٦)] ، وتعميمه[(٧)] ليكون شاملاً لكل أجناس الكفار ويدخل فيه المخاطبون دخولاً أوّلياً . ولايخفى أن في ذلك – أيضا – تنفيراً من الكفر وأهله الذين مصيرهم هو ذلك المصير المشؤوم ، وفيه – كذلك – دعوة إلى الإسلام وترغيب للناس أجمعين في الدخول فيه والاستمساك بعروته الوثقى ، فمن كان كافراً فإن أمامه فرصة سانحة لخلع ربقة الكفر واعتناق هذا

---

(١) في قوله تعالى : ﴿ **ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب** ﴾ الأنفال : ١٣ .

(٢) التفسير الكبير : ١٥/١٣٦ .

(٣) انظر : الكشاف : ٢/١٦٠ ، والبحر : ٤/٤٧٢ .

(٤) التفسير الكبير : ١٥/١٣٦ . وانظر : البحر : ٤/٤٧٢ .

(٥) انظر : تفسير أبي السعود : ٤/١١ ، والتحرير : ٩/٢٨٣ .

(٦) انظر : تفسير أبي السعود : ٤/١١ .

(٧) انظر : نظم الدرر : ٨/٢٤٠ .

الديـن ؛ ليكون من جملة المسلمين ، ومن كان مسلماً فإنّه يزداد تمسكّاً بدينه ، لأنه يوقن بأن دين الإسلام ينجي صاحبه من النار ، ويفضي بسالكه إلى الجنان ؛ وذلك بمشيئة الرحمن .

ويجوز في [ذلكم] ؛ أن تكون هي ومافي حيّزها في محل رفع مبتدأ والخبر محذوف ؛ والتقدير : استقرار عذاب النار للكافرين محتّم . أو تكون الجملة خبراً ، والمبتدأ محذوف ، والتقدير : المحتم أو الواجب أن للكافرين عذاب النار[١] .

وعلى هذين التقديرين تكون الجملة من باب الإخبار بمصير الكافرين في الآخـرة ، ولاجرم أن المخاطبين منهم ، ؛ لكون الألف واللام للاستغراق ، فيكون الكلام تبكيتاً وتحسيراً بالإخبار عن مصائر الكفار وأن ماتقدم من عذاب المخاطبين يهون إذا قورن بالعذاب الأخروي الأليم .

ومـن الإظهـار في مقام الإضمار مايكون الغرض منه تربية المهابة وإدخال الروعة في ضمير السامع كقوله تعالى : ﴿ **كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾[٢] .

هذه الآية واردة في معرض البيان لعزة المؤمنين ، بعد بيان ذلّ الكافرين والمنافقين[٣] في قوله : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ** ﴾[٤]. وقد تكون الآية السابقة تعليلاً لكون الذين يحادون الله ورسوله في الأذلّين[٥] ، ولذلك فصلت عنها . ومعنى [كتب الله] أي قضى وأثبت في اللوح المحفوظ . والجملة جارية مجرى القسم ؛ ولذلك أجيب بما يجاب به القسم[٥] فقال [لأغلبنّ أنا ورسلي] ، وكان مقتضى الظاهر ألاّ يظهر ضمير المتكلم [أنا] لأن المعنى يستقيم بدلالة الضمير المستتر في [لأغلبنّ] ولكن إظهار ضمير المتكلم [أنا] في مقام الإضمار قد زاد فعل الغلبة توكيداً وتقريراً[٦] ، وأكسبه مهابة وتوقيرا .

---

(١) انظر : الفتوحات الإلهية : ٢/٢٣٣ . وفيه تقديرات إعرابية أخرى .
(٢) المجادلة : ٢١ .
(٣) انظر : التفسير الكبير : ٢٩/٢٧٥ .
(٤) المجادلة : ٢٠ .
(٥) انظر : تفسير أبي السعود : ٨/٢٢٣ .
(٦) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ١٧/٣٠٦ .

وقد أكّد فعل الغلبة بعدّة مؤكّدات :

أولها : - وقوعه جواباً للقسم المفهوم من [كتب الله] .

والثاني : - وقوع اللام في صدر الفعل .

والثالث : - نون التوكيد المثقلة .

والرابع : - تقوية فعل الإسناد بضمير المتكلم البارز [أنا] .

وعطف [رسلي] على ضمير المتكلم من الله عز وجل تشريف للرّسل حيث قرنوا من خلال حرف العطف ليكونوا تبعاً لغلبة الله عز وجل ، وهذا شرف عظيم لهم ولأتباعهم فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون . كما أن إضافة الرسل إلى ضمير المتكلم - سبحانه وتعالى - زادهم تشريفاً وتعريفاً وتخصيصاً ؛ فهم الذين اصطفاهم الله عز وجل من بين خلقه أجمعين ، وعرّف بهم خلقه عندما أرسلهم إليهم وأمرهم بأن يرشدوا الخلق إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة ، كما أنه خصهم بوحيه وكلماته .

وغلبة الرسل إما بالحجة والبرهان أو بالسيف والسّنان وظهور الدولة والسلطان، أو بهما معاً كما وقع لمحمد بن عبدالله عليه أفضل الصلاة والتسليم (١) .

وقوله [إن الله قويٌ عزيز] تعليل لما تقدم ؛ ولذلك فصلت عنها بترك العاطف ، وفيها إظهار في مقام الإضمار ؛ فإن مقتضى الظاهر أن يقال : إني قوي عزيز . ولكن خولف ذلك وانتقل السياق من مقام التكلم إلى مقام الغيبة ؛ بإظهار لفظ الجلالة ؛ روماً لتربية المهابة ، وإدخال الروعة في ضمير السامع ؛ فإن كان السامع كافراً فإن نفسه تضطرب ، وقلبه ينخلع أمام ذكر لفظ الجلالة ، الذي اجتمعت فيه صفات الكمال والجلال ، ولاسيما وأن المقام مقام غلبة وقوة وعزّة .

وإن كان السامع مسلماً فإن نفسه تشرئب ، وقلبه يخفق ، وجانبه يعتزّ عندما يسمع هذه الآية الكريمة ، ويمعن فيها فكره تدبّراً وتأمّلاً ، ولاسيما في مقامات

---

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٣٠٦/١٧ ، وروح المعاني : ٣٤/٢٨ .

الحروب ؛ عند جهاد الأعداء وفي ساحات القتال ؛ فإن ذلك أدعى لعلوّ همته ، ومضاء عزمته ، وصدق رميته ؛ فإنّه يستند إلى ركن شديد ، وبذلك يعلم أنّ انتصار المجاهدين وغلبتهم متوقف على مقدار إقبالهم على القوي العزيز ؛ فإنهم إذا استندوا إليه واعتمدوا عليه ؛ فإن وعده لايتخلّف ، وإن حصل تقصير منهم في ذلك فإنهم أو بعضهم سبب تأخّره ؛ فعليهم أن يُمَحّصُوا صفوفهم ، ويراجعوا نفوسهم ، وسيجدون علّة تداخلهم ، كما وقع ذلك في أحد وحنين[١] ؛ ففيهما وفي غيرهما عِبْرة للمسلمين في كل زمان ومكان[٢] .

---

(١) انظر من هذا البحث : ٩١ – ١٢٢ ، ١٥٠ – ١٦١ ، ٤٢٧ – ٤٤٠ .

(٢) ولمزيد من صور الإظهار والإضمار في هذا البحث : انظر : ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠٨ ، ١١١ ، ١٢٠ ، ١٦٠ ، ١٩٥ ، ٢٠٤ ، ٢٥٠ ، ٣٤١ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٤٣٣ ، ٤٣٨ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٣٤ ، ٥٣٥ .

التعبير عن الماضي بالمستقبل وعكسه

ومما يجري على خلاف مقتضى الظاهر أن يُعبَّر عن الأحداث الماضية بصيغة المستقبل ، أو يعبّر عما سيقع بصيغة الماضي الذي يفيد وقوعه والفراغ منه ، وهذا العدول عن مقتضى ظاهر التعبير لايكون في الأسلوب العربي إلاّ لنكتة يريد المتكلّم إبرازها وتحقيق مقصوده من ورائها ٠

إن من أوائل من تناول هذا المبحث تناولاً فيه شيء من التعليل والتأصيل ابن جني ؛ فقد أورد في كتابه [الخصائص] جواباً لأبي بكر السّراج عن سؤال من أبي علي الفارسي حول التجوّز في التعبير عن المستقبل بالمضيّ وعكسه ؛ فكان مما قال أبو الفتح : " فأمّا هذه المواضع المتجوّزة ، وماكان نحوها ؛ فقد ذكرنا أكثرها فيما حكيناه عن أبي عليّ ، وقد سأل أبا بكر عنه في نحو هذا ؛ فقال أبو بكر : كان حكم الأفعال أن تأتي كلها بلفظ واحد ؛ لأنها لمعنى واحد : غير أنه لمّا كان الغرض في صناعتها أن تفيد أزمنتها - خولف بين مُثُلها ؛ ليكون ذلك دليلاً على المراد فيها ٠قال : فإن أُمِنَ اللَّبس فيها جاز أن يقع بعضها موقع بعض ، وذلك مع حرف الشرط ؛ نحو: إن قمت جلست ؛ لأن الشرط معلوم أنه لايصحّ إلا مع الاستقبال ٠ وكذلك : لم يُقَم أمس ، وجب لدخول لم مالولا هي لم يجز ٠ قال : ولأن المضارع أسبق في الرّتبة من الماضي ؛ فإذا نفي الأصل كان الفرع أشدّ انتفاء ٠ وكذلك - أيضاً - حديث الشّرط في نحو : إن قمت قمت ، جئتَ فيه بلفظ الماضي الواجب ؛ تحقيقاً للأمر ، وتثبيتاً له ، أي : إن هذا وعد مَوْفِيّ به لامحالة ؛ كما أن الماضي واجب ثابت لامحالة٠ ونحو من ذلك لفظ الدعاء ومجيئه على صورة الماضي الواقع ؛ نحو : أيّدك الله ، وحرسك الله ؛ إنّما كان ذلك تحقيقاً له ، وتفاؤلاً بوقوعه أنّ هذا ثابت بإذن الله ، وواقع غير ذي شك ، وعلى ذلك يقول السامع للدعاء إذا كان مريداً لمعناه : وقع إن شاء الله ٠٠ "[1] .

---

(١) الخصائص : ٣/٣٣٤-٣٣٥ ، وانظر : المحتسب : ٢/٢٧٤ ٠

وعلماء البلاغة لايختلفون عن علماء النحو في نكتة التعبير عن الماضي بالمستقبل وعكسه ؛ كيف يقع الخُلْف بين الطائفتين وكلتاهما تبحث في إقامة الكلام على وَفق سَنَن العرب في بيانها ؛ وتلتمس النكات البيانية في تعبيراتها ، غير أن البلغاء أكثر وقوفاً من النحاة على ذلك ؛ ولهذا فقد وجدنا لدى ابن الأثير تعليلاً بلاغياً لسرّ التعبير عن الماضي بالمستقبل ، وقد كان أكثر وضوحاً وأبهى إشراقاً ؛ حيث قال : " اعلم أن الفعل المستقبل إذا أُتي به في حالة الإخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي ؛ وذلك لأن الفعل المستقبل يُوضّح الحال التي يقع فيها ، ويستحضر تلك الصّورة ؛ حتى كأنّ السامع يشاهدها ، وليس كذلك الفعل الماضي "[١].

ويستشهد على هذا الضّرب بقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾[٢].

ويعرض السّر البلاغي الوارد في التعبير بالمستقبل عن الماضي في الآية قائلاً : " فإنه إنما قال [فتثير] مستقبلاً وماقبله ومابعده ماضٍ ؛ لذلك المعنى الذي أشرنا إليه ، وهو حكاية الحال التي يقع فيها إثارة الريح السحاب . واستحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة . وهكذا يفعل بكلّ فعل فيه نوع تميّز وخصوصية كحالٍ تُستْغرب ، أو تُهِمّ المخاطب ، أو غير ذلك "[٣].

ويطرح ابن الأثير سؤالاً مضمونه : أن الفعل الماضي – أيضاً – يتخيَّل منه السّامع مايتخيّله من المستقبل ؛ فأيّ بلاغة في الصيرورة إليه ؟ ! .

ثم يجيب قائلاً : " إنّ التخيّل يقع في الفعلين معاً ، لكنّه في أحدهما – وهو المستقبل – أوكد وأشدّ تخيُّلاً ؛ لأنّه يَستَحضر صورة الفعل ، حتى كأنّ السامع ينظر إلى فاعلها في حال وجود الفعل منه "[٤].

وأما عن بلاغة الإخبار عن المستقبل بالفعل الماضي ؛ فيقول : " وأما الإخبار بالفعل الماضي عن المستقبل فهو عكس ماتقدّم ذكره ؛ وفائدته : أن الفعل الماضي إذا

---

(١) المثل السائر : ٢/١٩٤ .
(٢) فاطر : ٩ .
(٣) المثل السائر : ٢/١٩٥ .
(٤) المثل السائر : ٢/١٩٦ .

أخبر به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجد بَعْدُ كان ذلك أبلغ وأوكد في تحقيق الفعل وإيجاده ؛ لأن الفعل الماضي يُعْطي من المعنى أنه قد كان ووُجِد ، وإنّما يُفْعل ذلك إذا كان المستقبل من الأشياء العظيمة التي يُسْتَعْظم وجودها . والفرق بينه وبين الإخبار بالفعل المستقبل عن الماضي أن الغرض بذاك تَبيْين هيئة الفعل ، واستحضار صورته ؛ ليكون السامع كأنّه يشاهدها ، والغرض بهذا هو الدلالة على إيجاد الفعل الذي لم يوجد بعد ؛ فمن أمثلة الإخبار بالفعل الماضي عن المستقبل قوله تعالى : ﴿ **وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ** .. ﴾ (١) .

فإنه إنما قال : [ففزع] بلفظ الماضي بعد قوله [يُنفخ] - وهو مستقبل - للإشعار بتحقيق الفزع ، وأنّه كائن لامحالة ؛ لأنّ الفعل الماضي يدلّ على وجود الفعل، وكونه مقطوعاً به "(٢) .

وأكثر الدراسات البلاغية تتداول تلك النكتة البيانية السابقة عن التعبير بالماضي عن المستقبل وعكسه ، ولكن بعضها يفصّل وبعضها الآخر يُشير ويُجمل (٣) .

ومن الشواهد التي ورد فيها التعبير عن الماضي بلفظ الاستقبال ماورد في شأن غزوة الأحزاب ، ولن نتناول الآيات المُسْتَشْهد بها على طريقة الدراسة التفصيلية التحليلية ؛ وذلك نظراً لأنها سترد في موضعها من البحث في مبحث " تصوير المعارك من خلال القصص " (٤)، وسنقتصر على ذكر الشاهد المناسب لهذا الموضع .

يقول الله عز وجل في وصف حال المؤمنين - وهو العليم بهم - وقت نزول جموع أحزاب الكفر بهم حول المدينة : ﴿ **إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا** ﴾ (٥) .

---

(١) النمل : ٨٧ .
(٢) المثل السائر : ٢/١٩٨-١٩٩ .
(٣) انظر في ذلك على سبيل المثال : البرهان في علوم القرآن : ٣/٤٣١ - ٤٣٥ ، والطراز : ٢/١٣٧ - ١٤٠ ، والإيضاح بشرح د / خفاجي، ط دار الكتاب اللبناني : ١٦٤ - ١٦٥ ، وشروح التلخيص : ١/٤٨٤ - ٤٨٦ ، ٢/٥٧ - ٦٧ ، والإكسير في علم التفسير للطوفي : ١٤٥ - ١٤٨ ، والمعاني في ضوء أساليب القرآن : ٢١٤ - ٢١٦ .
(٤) انظر : ٥٨١ - ٦٠٠ .
(٥) الأحزاب : ١٠ .

والشاهد هنا هو التعبير عن ظنّ المؤمنين ، وهو حدث قد مضى بدليل عطفه على أفعال مضت [زاغت] و [بلغت] - بفعل المستقبل فقال [وتظنّون] ولم يُقَل : وظننتم .. ؛ لأنها أحداث وأفعال مضت فمقتضى الظاهر هو التعبير عنها جميعاً بفعل المضي وفق طبيعة كل حدث . قد يكون الغرض من التعبير بالمضارع الدلالة على تجدّد تلك الظنون بتجدّد أسبابها كناية عن طول مدة هذا البلاء[1].

وممن التمس نكتة ذلك عبدالكريم الخطيب ؛ فقد قال : " وفي قوله تعالى : [وتظنّون بالله الظنونا] .. وفي التعبير عن هذا الحدث بفعل المستقبل دون الفعل الماضي الذي جاء تعبيراً عن الحَدَثين : [زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر] - في هذا مايشير إلى أن زَيَغَان الأبصار ، واضطراب القلوب ، إنما هما حال لبست المسلمين مَرّة واحدة عند استقبالهم لهذا المكروه .. ، أما الظنّ بالله فهو أحوال متجدّدة تعاود المسلمين حالاً بعد حال ، حيث يتردّدون بين الرجاء واليأس ، وبين اليقين والشك ، حسب الأحوال النفسية أو المادية التي تعرض لهم "[2].

ويزيد الأمر عمقاً واستقصاء الدكتور أبو موسى حين يقول : " وقد جيء هنا بالفعل المضارع ، والأصل أن يكون ماضياً ؛ لأنه معطوف على : زاغت الأبصار ولأن الحدث قد انتهى زمانه ، والمقام مقام تذكير بالنعمة ، والسرّ في ذلك - كما يقول البلاغيون - أن المضارع يدل على استحضار الصورة ؛ أي أن صيغته تحمل الحدث من قلب الزمان الغابر ؛ لتضعه أمام الحاضر الراهن في جلاء ووضوح ؛ ولهذا تراهم يؤثرون صيغة المضارع عند ذكر الحدث الأهم ، والظّن هنا أهم الأحداث في قصّتنا ؛ لأن القضيّة قضية ابتلاء وتمحيص ، ابتلاء إيمان وتمحيص عقيدة ، والإيمان والعقيدة من أعمال القلوب ؛ فكلاهما يتربى في القلب تربية صحيحة راسخة أو يحيا على هامشها حياة سطحية تافهة ؛ لذلك كان حديث القلوب وهمس النفوس وحركة الشعور وكل ماهو داخل الكيان النفسي وينتمي إليه من أهمّ مايعنينا في هذا الموقف ، ومن أجل ذلك خالف القرآن نسق الأفعال ، وجاء بهذا الفعل مضارعاً ومؤكّداً بمصدره ،

---

(١) انظر : التحرير : ٢١/٢٨١ .

(٢) المجلد السادس : ٦٦٣ .

ومجموعاً على خلاف المألوف في المصادر ؛ وذلك ليكشف أتم كشف ، ويصوّر أوضح تصوير مستترّ مافي نفوس هذه الجماعة في هذا الموقف الرهيب ، والمضارع - أيضاً - يدل على الاستمرار والتجدّد ؛ فكأن الظّن هنا حدث يتتابع وقوعه وتتوالى صوره ؛ فهي ظنون منطلقة من خيال قلق ووجدان مهموم ، وقد يُخَيَّل إليك وأنت تسمع هذه الجملة [وتظنون بالله الضنونا] إذا أحسنت الإصغاء النفسي والوجداني إليها - أنّك تسمع هذه الهمهمات ، وهذه الوسوسات التي تهمس بها نفوسهم في خفاء ، وكأنّ هذه الألف في [الظنونا] تؤذن بإطلاق العنان للخيال الفزع والخواطر الشّرد حين زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر "(١).

وفي غزوة الأحزاب بلغت الشدّة ذروتها ؛ ولذلك فقد انكشفت أحوال المنافقين ، وظهرت أقوالهم المخزية التي منها قوله - عز وجل - عنهم : ﴿ **وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا** ﴾(٢) . فقد جاء بصيغة المضارع مكان الماضي : " زيادة في تصوّر الحدث وحضوره ، حتى كأنّ القارئ قد استحضر هذه الصورة فهو يرى هذه الفئة وهي تتحرك حركة المرتاب ، وتنفث سمومها في صفوف المسلمين ، وتتفوّه بهذه الكبيرة التي هي أدخل في الهدم ، وفي باب الكفر ، وفي هذا المضارع - أيضاً - إشارة إلى أنّ مثل هذا القول المتخاذل اليائس من الله ومن رحمته يتكرّر كثيراً ، ويتجدّد مع الزمان والأجيال من مثل هذه الفئة في كل زمان ومكان "(٣).

ومما استحُضرت صورته الماضية بفعل الاستقبال في غزوة الأحزاب استئذان بعض المنافقين وقت الحاجة الماسّة لهم ؛ والغرض من ذلك الاستحضار تقبيح ذلك الفعل ، وازدرائه ، والتنفير من صورته ، يقول تعالى في معرض ذكر مخازي المنافقين في تلك الغزوة : ﴿ **وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا** ﴾(٤).

(١) من أسرار التعبير القرآني : ٥٠ - ٥١ .
(٢) الأحزاب : ١٢ .
(٣) من أسرار التعبير القرآني : ٥٦ .
(٤) الأحزاب : ١٣ .

يقول الدكتور أبو موسى : " جيء فيه – أي الاستئذان – بصيغة الفعل المضارع لإحضاره مصوّراً – كما قلنا – فيرى القارئ كيف تتمحّل النفوس الواهية المريضة ، وكيف تفتعل العلل والمعاذير ، وتكذب على نفسها وعلى الناس ؛ لتتخاذل عن نصرة الحق وتنكص في ميدان الشرف "(١) .

ومن شواهد التعبير عن الأحداث المستقبلة بلفظ الماضي قوله تعالى – في شأن فريق من المنافقين أو الذين في قلوبهم مرض كانوا عاهدوا الله قبل الأحزاب بألاّ يفروا(٢) ومع ذلك فقد فرُّوا ؛ فقال تعالى فيهم : ﴿ **وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا** ﴾ (٣) .

لقد أضيف العهد إلى الله تعالى إشارة إلى وجوب مراعاته ، وأنه عهد ليس كالعهود الأخرى بل هو عهد مع الله عز وجل الذي يعلم السِّر وأخفى . " وفيه التعبير بالماضي عن المضارع ؛ لأن العهد سيسأل يوم القيامة ؛ وذلك للإشارة إلى تحقّق الوقوع ، وفيه – أيضاً – إشارة إلى قوة الاقتدار حتى كأن ما أخبر الله بوقوعه قد وقع ومضى ؛ لأنه لايتخلّف له أمر سبحانه ، وهذه طريقة مشهورة في أسلوب القرآن "(٤) .

ومما وقع التعبير فيه عن المستقبل بلفظ الماضي قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا** ﴾(٥) وهذا على كون الفتح المذكور في الآية هو فتح مكة ، قال الزمخشري : " هو فتح مكة ، وقد نزلت مرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مكة عام الحديبية عِدَة له بالفتح ؛ وجيء به على لفظ الماضي على عادة ربّ العزّة سبحانه في أخباره ؛ فكأنّها في تحققها وتيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة ، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علوّ شأن المخبِر مالا يخفى "(٦) .

---

(١) من أسرار التعبير القرآني : ٥٩ .
(٢) انظر : النكت والعيون : ٣٨٤/٤ . وانظر : صفوة التفاسير : ٥١٥/٢ .
(٣) الأحزاب : ١٥ .
(٤) من أسرار التعبير القرآني : ٦٦ .
(٥) الفتح : ١ .
(٦) الكشّاف : ٢/٦ .

وقال أبو السعود : " المراد به فتح مكة - شرّفها الله - ، وهو المروي عن أنس - رضي الله عنه - بشّر به رسول الله صلى الله عليه وسلم عند انصرافه من الحديبية، والتعبير عنه بصيغة الماضي على سنن سائر الأخبار الربانية للإيذان بتحققه لامحالة تأكيداً للتبشير ، كما أن تصدير الكلام بحرف التحقيق لذلك ، وفيه من الفخامة المنبئة عن عظمة شأن المخبر جل جلاله وعزَّ سلطانه مالا يخفى "(١) .

ويقول الشّهاب الخفاجي : " إذا كان المُخْبِر هو العليم الخبير والمُخْبَر به فعل مستقبل عُبّر عنه بلفظ الماضي يدل ذلك حتماً على كمال علمه تعالى لابتنائه على كمال إحاطته بجميع أحوال الوجود وأحوال كل موجود ، وتفاصيل المباديء المؤدية إلى ذلك، وعلى أن الحال والاستقبال بالنسبة إليه سيّان ، وماسيكون كما قد كان "(٢) .

وبذلك يكون الشّهاب قد دقّق النّظر في النكتة التي تتعلّق بالتعبير عن الأحداث المستقبلة بصيغة الأفعال الماضية ؛ ولامرية في أن كلام الشّهاب المتقدم لايصدق تمام الصدق ولاينطبق إلاّ على عالم الغيب والشهادة الذي يعلم ماكان ، ومالم يكن لو كان كيف يكون . وأما البشر فإن علمهم نسبي وتقريبي ، ولايملكون الجزم بالعلم التفصيلي الغيبي في أمورهم الدنيوية ، وأما علم الغيب المطلق فلا يعلمه إلا الله عز وجل وحده دون سواه ، قال تعالى : ﴿ **قُل لَّايَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَايَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ** ﴾(٣).

وإذا أريد بالفتح المذكور صلح الحديبية(٤) فليس في التعبير خروج على مقتضى الظاهر ، وإنما قد يكون فيه تجوّز على اعتبار ماسيؤول إليه من فتح مكة الذي كان صلح الحديبية مقدّمة له وباباً أفضى إليه(٥).

والفتح في الأصل إزالة غلق الباب أو الخزانة ، ويطلق على النصر المترتب على دخول الغازي بلاد عدوّه ، لأنه بذلك يشبه إزالة غلق البيت أو الخزانة(٦).

---

(١) تفسير أبي السعود : ١٠٣/٨ . وانظر : روح المعاني : ٨٨/٢٦ ، والتحرير : ١٤٤/٢٦ .
(٢) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي : ٥٤/٨ .
(٣) النمل : ٦٥ .
(٤) انظر أقوال المفسرين في المراد بالفتح في : تفسير البغوي : ١٨٨/٤ ، والتفسير الكبير :٧٧/٢٨ ، وروح المعاني : ٨٣/٢٦-٨٩ وغيرها .
(٥) انظر : التحرير :١٤٥/٢٦ .
(٦) نظر : التحرير : ١٤٣/٢٦ .

يقول الزمخشري : " والفتح الظفر بالبلد عنوة أو صلحاً بحرب أو بغير حرب ؛ لأنه منغلق مالم يظفر به ؛ فإذا ظفر به وحصل في اليد فقد فتح "[١].

وإسناد الفتح إلى نون العظمة لاستناد أفعال العباد إليه تعالى خلقاً وإيجاداً[٢]، وفيه من تعظيم هذا الفتح والاعتناء بشأنه مالا مزيد عليه .

والملحوظ أن مفعول الفتح محذوف ، ولعل من مقاصد حذفه الإعلام بالفتح والإخبار بمادته ، وإرادة تعميمه ، وليس القصد تحديد جنس المفتوح وتعينه [٣]. ليعلم بذلك أن المراد التبشير بالفتح نفسه الصادر عن المتكلم سبحانه ، لاخصوصية المفتوح [٤].

واللام في [لك] لام العلّة ؛ أي فتحنا لأجلك فتحاً عظيماً . وتقديمها مع مجرورها على المفعول المطلق [فتحاً ..] لقصد الاهتمام والاعتناء بهذه العلّة[٥] ؛ وفي ذلك مزيد تكريم وتشريف للمصطفى صلى الله عليه وسلم .

و [مبيناً] من أبان بمعنى : بان اللازم ؛ أي : فتحاً بيناً ظاهر الأمر ، مكشوف الحال ، أو فارقاً بين الحق والباطل[٦] . وكذلك كان فتح مكة ؛ فقد دانت بعده العرب ، وظهر أمر الدين وعلا شأن المسلمين ، ودخل الناس بعده في دين الله أفواجا ، وصدق الله العظيم حيث قال : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابَا ﴾[٧].

---

(١) الكشاف : ٢/٦ .
(٢) انظر : تفسير أبي السعود : ١٠٣/٨ .
(٣) انظر : التحرير : ١٤٦/٢٦ .
(٤) انظر : روح المعاني : ٨٩/٢٦ .
(٥) انظر : التحرير : ١٤٦/٢٦ .
(٦) انظر : روح المعاني : ٨٩/٢٦ .
(٧) النصر : ١ – ٣ . ولمزيد من صور التعبير عن الماضي بالمستقبل وعكسه في هذا البحث ؛ انظر : ١٠٣، ١١٧ ، ٣١٦ ، ٥١٠ ، ٥٢٣ .

الالتفـــــات :

إنّ من صور التعبير عن المعنى المراد وتمكينه في النفس مايكون بأسلوب الالتفات . وهو في الأصل مأخوذ من التفات الإنسان عن يمينه وشماله ؛ فهو يقبل بوجهه تارة كذا ، وتارة كذا [1]. ولايخفى أن الذي حدا الإنسان على هذا التصرف هو أمر استحق تلك الحركة ، وإلاّ فإن ذلك الفعل من غير سبب ضرب من العبث يربأ العاقل بنفسه عنه .

ومن ذلك المعنى الوصفي اللغوي أخذ مصطلح الالتفات البلاغي ؛ والمشهور من تعريفه أنه : " التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة بعد التعبير عنه بطريق آخر منها "[2].

والالتفات من الأساليب البلاغية الدقيقة ، التي لايفطن إلى استعماله وتلوين الكلام من خلاله إلاّ الأريب ، ولذلك فقد سُمّي " شجاعة العربية " ، وعلل ابن الأثير ذلك قائلاً : " وإنّما سُمّي بذلك لأن الشجاعة هي الإقدام ، وذاك أنّ الرجل الشجاع يركب مالايستطيعه غيره ، ويتورّد مالا يتورّده سواه ؛ وكذلك هذا الالتفات في الكلام؛ فإن اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات "[3].

ودواعي الالتفات في الكلام تجري خلف المعاني المراد تقريرها ؛ ولهذا فإن المتكلم يغاير بين كلامه ، وينتقل من حال إلى حال حسبما يراه من مقامات المخاطبين ومقتضيات أحوالهم . ولهذا فإن " الغرض الموجب لاستعمال هذا النوع من الكلام لايجري على وتيرة واحدة ، وإنّما هو مقصور على العناية بالمعنى المقصود ، وذلك المعنى يتشعب شُعباً كثيرة لاتنحصر ، وإنّما يؤتى بها على حسب الموضع الذي ترد فيه "[4].

---

(١) انظر : المثل السائر : ١٨١/٢ . وانظر : لسان العرب : مادة " لفت " .

(٢) الإيضاح : ٨٦/٢ . ومراد الخطيب القزويني بالطرق الثلاثة هي : التكلم ، أو الخطاب ، أو الغيبة .

(٣) المثل السائر : ١٨١/٢ . ولايخفى أن إطلاق ابن الأثير اختصاص العربية بالالتفات دون سائر اللغات فيه نظر ؛ فإن ذلك الإطلاق يتوقف على استقراء أساليب اللغات الأخرى ؛ فإن خلت منه قيل به ، وإلاّ فلا ، وليس هذا نيلاً من لغة القرآن ولاقدحاً بها ، وإنما لكل ادعاء دليل يثبته ويقطع به .

(٤) المثل السائر : ١٨٣/٢ .

وإذا كانت أغراض الالتفات تبدو في كلام البشر فإنّها أجلى ماتكون في كلام خالق البشر – جلّ وعزّ – ولكنّ الأذهان تتفاوت في إدراكها والوصول إلى أغراضها ؛ فقد تقترب منها وقد تصل إلى بعضها ، وذلك مقرون بتوفيق الله عز وجل ثم بالجهد المبذول في هذا السبيل .

وسنتناول بعض النصوص القرآنية الكريمة الواردة في معاني الجهاد ، والتي اشتملت على صور من الالتفات لنقف على بعض لطائفها .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ **لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ** ﴾ (١).

ففي هذه الآية الكريمة نهى الله – عز وجل – جميع المؤمنين بألاّ يوالوا أجناس الكفار – مهما كانوا – موالاة قلبيّة وحسيّة استقلالاً عن موالاة المؤمنين أو مشاركة لهم في الولاية (٢) ، ثم كان التحذير الأعظم بأنّ مَنْ درَج على ذلك وتلبّس به فهو خارج عن ولاية الله حقير منبوذ ، وهذا مستفاد من قوله [فليس من الله في شيء] فإن النكرة هنا تفيد التحقير (٣) . أي : فليس من ولاية الله في شيء ، وعلّة ذلك قوله تعالى : ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ** ﴾ (٤) . وكل ذلك النهي وماتلاه قد جرى بأسلوب خطاب الغيبة وفي ذلك إشعار بأن الكفر ومن تلبّس به كافٍ لصرف أنظار المؤمنين عنه وعن أصحابه ، وإنّما محط أنظار المؤمنين ومهوى أفئدتهم إلى ربهم ، فيوالون أولياءه ويعادون أعداءه ، فلمّا فرغ من تقرير ذلك التفت إليهم ليستثني حالة قد تُلمّ بالمؤمنين من ضعفٍ أو غربة أو تسلّط عدوّ مما يضطرهم إلى إظهار مداراتهم باللّسان مع كره الجنان لهم ولأفعالهم فكان ذلك الالتفات رحمة بهم وشفقة عليهم وتقديراً لحالهم . يقول صاحب البحر :"وفي قوله [إلاّ أن تتقوا ..] التفات ؛ لأنّه خرج من الغيبة إلى الخطاب ، ولو جاء على نظم الأوّل لكان : إلا أن يتقوا بالياء المعجمة من أسفل ، وهذا النوع في غاية الفصاحة ؛ لأنّه لما كان المؤمنون

---

(١) آل عمران : ٢٨ .

(٢) انظر : تفسير أبي السعود : ٢/٢٣ .

(٣) انظر : روح المعاني : ٣/١٢١ .

(٤) محمد : ١١ .

نهوا عن فعل مالا يجوز جعل ذلك في اسم غائب فلم يواجَهوا بالنهي ، ولما وقعت المسامحة والإذن في بعض ذلك ووجهوا بذلك إيذاناً بلطف الله بهم وتشريفاً بخطابه إيّاهم"[١] .وبعبارة أخرى توافق مراد أبي حيّان يقول صاحب " الدّر المصون " : " وفي قوله : [إلاّ أن تتقوا] التفات من غيبة إلى خطاب ، ولو جرى على سَنَن الكلام الأوّل لجاء بالكلام غيبة ، وأبدوا للالتفات هنا معنىً حسناً : وذلك أن موالاة الكفار لمّا كانت مستقبحة لم يواجه الله عباده بخطاب النهي ، بل جاء به في كلام أُسْنِد الفعل المنهيُّ عنه لغيب ، ولمّا كانت المجاملة في الظاهر والمحاسنة جائزة لعذر وهو اتّقاء شرّهم حَسُن الإقبال إليهم وخطا بهم برفع الحرج عنهم في ذلك "[٢] .

ويزيد من لطف الله بالمؤمنين ورحمته بهم أنّه لمّا استثنى تلك الحالة من عموم النهي عن موالاة الكفار أعقبها في سياق الالتفات بقوله [ويحذركم الله نفسه] الذي " فيه من التهديد مالايخفى عظمه "[٣] تنبيهاً على أن أمر الموالاة شأن قلبي خفي ؛ فإذا أُذن للمؤمنين فيها في حالة مستثناة فلا يجوز أن يواطئ فيها عملُ القلب قولَ اللسان فيقع المؤمن في المحذور فيؤْتى من حيث لايحتسب .

ولهذا كان التحذير من ذلك بأبلغ أسلوب اجتمعت فيه عدة أمور تؤكّده منها :-

١ - أن التحذير وقع بلفظ المضارع الدال على التجدّد والحدوث ، فهو يدل على أن التحذير والتخويف يتجدّد ويحدث كلما دعت دواعيه وظهرت أسبابه ، فلا بد للمؤمنين من أن يصطحبوا ذلك التحذير ويستشعروا هذا الأمر كلما وقعت لهم تلك الأحوال . كما تدل صيغة هذا الفعل على أن موعدهم - إذا خالفوا ذلك - يوم القيامة ففيه الحساب والعقاب .

٢ - أنّه استحضر حالهم وخاطبهم - عبر كاف الخطاب - خطاب المشفق عليهم المحذّر لهم ، وهذا أدعى لقبولهم وأوقع في قلوبهم .

٣ - إسناد التحذير إلى الاسم الأعظم وهو لفظ الجلالة ، وذلك لتربية المهابة في قلوبهم ، وإشعارهم بأن الأمر محمول على الجدّ مأخوذ بالعزم .

---

(١) البحر المحيط : ٢/٤٢٣ - ٤٢٤ .

(٢) الدر المصون : ٣/١٠٩ .

(٣) تفسير أبي السعود : ٢/٢٣ .

٤ - إظهار لفظ [النفس] وإضافتها إلى الضمير العائد على لفظ الجلالة ، وهذا يدل على أن الله - تعالى - قد نصب ذاته الشريفة في موضع التحذير مما يدل على أن الأمر بلغ غايته ، وهذا إشعار بأن الوقوع في ذلك المحذور له عقاب هائل لايؤبه دونه(١) ولايعرف كنهه . وكفى بذلك الأسلوب زجراً وردعاً . ومما يعزّز ذلك ويقرره فاصلة الآية حيث ختمت بقوله تعالى [وإلى الله المصير] ففيه قصر بأسلوب تقديم الجار والمجرور ؛ فالمصير في ذلك كله إلى الله تعالى وحده دون سواه . وهذه الفاصلة " تذييل مقرر لمضمون ماقبله ومحقق لوقوعه حتما "(٢). وفي هذه الفاصلة أيضاً إظهار في موضع الإضمار ، حيث أظهر لفظ الجلالة وصرف النظر عن ضميره ، وهذا يضفي على المقام مهابة وجلالا .

ومن بديع الالتفات مايكون علاجاً لموقف من المواقف المؤلمة ، فبه تكون المراوحة في الأسلوب بين خطاب وغيبة وخطاب مرة أخرى من أجل التخفيف من وطأة أمر ما، أو تسلية المخاطبين وإذهاب مافي نفوسهم إلى أن يصل الأمر إلى إقناعهم بالحكمة الربّانية في أمر من الأمور قد تخفى عليهم حكمته ، وهذا ماجرى للمؤمنين في غزوة أحد ، فعندما نصروا في غزوة بدر حسبوا أن النصر سيكون ديدناً لهم في سائر الغزوات ولو فرّطوا أو قصّروا ، ولكن الأمر اختلف عليهم في غزوة أحد التي تلت بدرا، فقد كان النصر حليفهم في أوّلها ثم نزل كثير من الرماة من فوق الجبل وراحوا يجمعون الغنائم مخالفين أمر نبيهم فكانت الدائرة عليهم فنزلت هذه الآيات الكريمة تسليهم وتشفي نفوسهم حيث قال تعالى : ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ** ﴾(٣).

---

(١) انظر : تفسير أبي السعود : ٢/٢٣ .
(٢) تفسير أبي السعود : ٢/٢٣ .
(٣) آل عمران : ١٣٧ - ١٤١ .

لقد بدأت تلك الآيات الكريمات بتوجيه الخطاب إلى المؤمنين الذين خاضوا مع النبي صلى الله عليه وسلم غزوة أحد فأصابهم القرح ووقع فيهم الجرح ؛ فكانت هذه الآيات تسلية لنفوسهم ، وبعثاً لأذهانهم على النَّظر في سنن الله في الناس : مؤمنهم وكافرهم فكأنما قيل لهم : " انظروا إلى من تقدَّمكم من الصالحين والمكذبين ؛ فإذا سلكتم سبيل الصالحين فعاقبتكم كعاقبتهم ، وإن سلكتم سبيل المكذبين فعاقبتكم كعاقبتهم . وفي هذا تذكير لمن خالف أمر النبي صلى الله عليه وسلم في أحد ، ففي الآية مجارى أمن ومجاري خوف ، فهو على بشارته لهم فيها بالنصر وهلاك عدوِّهم ينذرهم عاقبة الميل عن سننه ، ويبيِّن لهم أنَّهم إذا ساروا في طريق الضالين من قبلهم فإنَّهم ينتهون إلى مثل ما انتهوا إليه ؛ فالآية خبر وتشريع ، وفي طيِّها وعد ووعيد "[١].

وقد افتتحت الآية الأولى بـ " قد " التي تفيد تحقق وقوع مدخولها وتأكيده بما لايصح أن يتردد الذهن في قبوله والتسليم به .

ومن دقائق التعبير في هذه الآية ، ومن لطائفه تثبيت الله للمؤمنين فيها أن سَمَّى النَّهْجَ الذي يحكم الخليقة والطُّرق التي يتقلَّبون فيها بين نصر وهزيمة – سمَّاها سُنَناً ، وهذا أدعى إلى تقريرها في النفوس ، كما أنَّه حثٌّ على النظر في نواميسها ، ذلك أن هذه اللفظة مأخوذة من قولهم : سَنَّ الماء إذا والى صَبَّه على طريقة واحدة ، فاستعير ذلك لأحوال الأمم بجامع التوالي على نهج واحد [٢].

فلله في خلقه حِكَم وسُنَن من عرفها وسار عليها في الحروب – مثلاً – فإنَّه يصل إلى الظَّفر وإن كان كافرا [٣]، ومن تنكَّبها وقصَّر في معرفة أسبابها والأخذ بها من ترك الاستعداد ونحوه فاته النصر وإن كان مؤمنا ، وعلى ذلك تتخرَّج حال المؤمنين في غزوة أحد ، فقد وقع الرماة في مخالفتين :

الأولى : شرعية ذات بعد عسكري ، حينما خالفوا أمر الرسول القائد الذي أمرهم بأن يثبتوا حتى يؤذن لهم ، فخالفوا أمره وأمر قائدهم : عبدالله بن جبير .

---

(١) تفسير المنار : ٤/١٣٩ – ١٤٠ .

(٢) ممن أشار إلى ذلك : تفسير المنار : ٤/١٤٠ ، وتفسير المراغي : ٢/٧٤ .

(٣) لايخفى أن في الأمر الوارد بالنظر في عاقبة المكذبين إشارة إلى قرب هزيمة الكفار ، كما أن فيه تبشيراً بقرب نصر المؤمنين ، وذلك ماوقع للمؤمنين في زمن النبي صلى الله عليه وسلم بعد غزوة أحد حيث نصرهم الله وفتح لهم كنوز الأرض .

والثانية : عسكرية محضة ؛ حيث أخلوا المكان فَطُعن المسلمون من ظهورهم من قبل أعدائهم ، فكانت هذه الآيات تسليهم ، وتشير إلى مواضع الخلل في صفوفهم وليس هذا مقصوراً عليهم وحدهم بل ينسحب على غيرهم أيضاً ممن يخالف السنن ، ولهذا ناسب أن ينتقل السياق الكريم من خطاب المؤمنين إلى عموم الناس أجمعين ومن جملتهم المؤمنون ؛ وذلك بأسلوب الغيبة ليندرج فيه كل إنسان ذي عقل يتبيّن به سنن الله الثابتة في البشر وطرائقه المحكمة في الهزائم والظفر ، حيث قال : [هذا بيان للناس] والإشارة عائدة إلى أقرب مذكور وهو " السّنن " وأريد بذلك استحضاره والاعتناء به ، ولما كان المتقون هم أقرب الناس اتعاظاً بتلك السنن واهتداء إلى لطائفها خصّوا بذلك فقيل في حقهم بعد ذلك العموم : [وهدى وموعظة للمتقين] وفي ذلك تعريض بأهل الإسلام ممن لم تكن تلك صفته ، فحريّ به أن يراجع نفسه وإيمانه، فذلك مؤشّر ضعف فيه ، إذ التقيّ يعتبر ويتعظ بحال الأمم الغابرة ، ويتفقّد سُنَن الله تعالى فيهم .

ولما استوفى السياق الكريم – من خلال أسلوب الغيبة – غرض العموم في الآية حيث انتهت الآية إلى صفات المتقين ، فالأجدر بالمؤمنين – في زمن التنزيل – أن يكونوا منهم في الاتعاظ بمصارع الغابرين والاهتداء إلى مسالك الصالحين – حينئذٍ ناسب أن يلتفت إليهم مرة أخرى ويخصّهم بالخطاب حيث بلغت غاية التسلية ذروتها وأوشكت أن تصل إلى نتيجتها بعد تلك التهيئة فقال تعالى [ولاتهنوا ولاتحزنوا] ولما كان الحزن قريناً للهوان – وهو الضعف – ومصاحباً له ولايكاد ينفك عنه قرن بينهما فنهى عنهما معاً عَبْر الفعل المضارع ، الذي تفيد صيغته النهي عن أن يكون منكم هوان أو حزن الآن أو في مستقبل الأزمان ، وكيف يحصل منكم ذلك وحالكم أنكم الأعلون من كل مَنْ على وجه الأرض من البشر ، حيث إنّ حذف المفضّل منه قد أفاد العموم المطلق ، فلا أحد أعلى منهم في ذلك الزمان ولافيما تلاه من الأزمان ، وهذا مشروط بتحقق الإيمان ، ولهذا وقع النّص على هذا الشرط في فاصلة الآية في سياق الخطاب حيث قال تعالى [إن كنتم مؤمنين] وقد حذف جواب هذا الشرط ، ويدل عليه الكلام الذي قبلـــه ، والتقدير : إن كنتم مؤمنين فلا تهنوا ولاتحزنوا ، أو إن كنتم

مؤمنين فأنتم الأعلون [١]. والغرض منه تهييج الإيمان في نفوسهم ، والتعريض بحالهم ، حتى لايقع منهم هوان أو حزن وهم من هم في علوّهم بإيمانهم على من حولهم ، حتى في ساعة هزيمتهم فربما ذلك بسبب مخالفتهم سنن الله في النصر ، ولكنها برهة ثم تكون الدّولة لهم ، فالعاقبة للتقوى ولمن لازمها .

يقول ابن عاشور : " وقوله [وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين] الواو للعطف ، وهذه بشارة لهم بالنصر المستقبل ؛ فالعلوّ هنا علوّ مجازي وهو علوّ المنزلة . والتعليق بالشرط في قوله [إن كنتم مؤمنين] قصد به تهييج غيرتهم على الإيمان إذ قد علم الله أنهم مؤمنون ولكنهم لمّا لاح عليهم الوهن والحزن من الغلبة كانوا بمنزلة من ضعف يقينه فقيل لهم : إن علمتم من أنفسكم الإيمان ، وجيء بإن الشرطية التي من شأنها عدم تحقيق شرطها إتماماً لهذا المقصد "[٢].

وواضح أن ابن عاشور قد اختار كون الواو عاطفة في قوله تعالى [وأنتم الأعلون] وعلى ذلك فهي تحمل البشارة للمؤمنين بالنصر في المستقبل . وأكثر المفسرين على أنها حالية ، وعليه فهي من تتمّة التسلية الربّانية للمؤمنين ، والنص القرآني الكريم يتّسع لهذا وذاك[٣].

وعن الشرط الواقع في فاصلة الآية المخاطب به المؤمنون يقول صاحب المنار : "ومثل هذا الشرط كثير في القرآن وهو ليس للشك ، وإنّما يراد به تنبيه المؤمن إلى حاله ومحاسبة نفسه على أعماله "[٤].

ويستمر سياق الالتفات في خطاب المؤمنين وتسليتهم حيث يقول تعالى :[إن يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله ..] وهذه الآية بيان منه تعالى لوجه جدارتهم بأن لايهنوا ولايحزنوا [٥]، ولذلك فصلت عنها .

---

(١) انظر : تفسير أبي السعود : ٢/٨٩ .
(٢) التحرير والتنوير : ٤/٩٨-٩٩ .
(٣) انظر : تفسير المنار : ٤/١٤٦ ، والبيان في غريب إعراب القرآن : ١/٢٢٢ .
(٤) تفسير المنار : ٤/١٤٦ .
(٥) انظر : تفسير المنار : ٤/١٤٦ .

والقَرح والقُرْح : عَضّ السلاح ونحوه مما يجرح الجسد ، وقيل في الفرق بينهما؛ إن القَرح : الآثار ، والقُرْح : الآلام [١]. وقد قرئ بفتح القاف وضمّها على التأويل السّابق ، ولكن الذي رجّحه ابن جرير هو الفتح ؛ لإجماع أهل التأويل على أن معناه : القتل والجراح [٢].

والتعبير بالفعل المضارع وإسناده إلى القرح وإيقاعه على المخاطبين من مقاصده استحضار صورة تلك الأحداث المؤلمة ، وحكاية حالها وكأنها مرئية مشاهدة فعْلاً ووَقْعاً ، كما أنّ من مقاصد هذا النظم الكريم استفراغ مافي نفوس المؤمنين من آلام وجراح عن طريق التصريح بوقائعها ثم تسليتهم بأنّ عدوّهم قد ناله مثل مانالهم بل أعظم من ذلك ؛ لأن الفريقين وإن اشتركا في الألم إلاّ أن المؤمنين يرجون من الله مالايرجوه الكفار كما قال تعالى :﴿ **وَلَاتَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَالَايَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً** ﴾ [٣]. وعند النظر في آية النساء هذه ، وفي آيتي آل عمران المتقدمتين [٤] نجد الآتي : -

١ - أن موضوع الآيات واحد ، وهو الحديث عن الجهاد ، وكشف مايجري في عرصات القتال من آلام وجراح .

٢ - أن الحديث في الآيات قد بدئ بالنهي ثم كان الشرط تعليلاً له ، ولهذا فقد وقع الشرط مفصولاً عما قبله .

٣ - أن الخطاب في الآيات قد وُجّه إلى المؤمنين ؛ فهم الحاضرون المعنيّون بكلام الرحمن ، ولهذا فتشريف المؤمنين في الآيات ظاهر ، وفي المقابل فذمّ الكفار وإهانتهم لاتحتاج إلى تدليل ، فقد كانوا هم الفريق المغيَّب الذي يجري الحديث عنه ، فهو المطلوب بالقتل .

---

(١) انظر : لسان العرب : مادة : قَرَح .
(٢) انظر : جامع البيان : ١٠٣/٤ .
(٣) النساء : ١٠٤ .
(٤) ١٣٩ ، ١٤٠ .

٤ - أنّ مادة الحديث في الآيات كانت جراح القتال وآلامه ، ومايستتبعها من هوان وتوان ، وكان الغرض من ذلك الحديث هو تقرير حقيقة الألم وأنه واقع فعلاً وحِساً على الجميع ، ولكن الهدف الأبعد من ذلك هو سوق التسلية للمؤمنين ، وإذهاب مسّ جراحهم ؛ وذلك بذكر البون الشاسع بينهم وبين الكفار في عواقب الأمور ، فالمؤمنون إلى جنان الرحمن إذا صدقوا في جهادهم ، والكفار إلى النيران كما قال تعالى تبكيتاً لهم : ﴿ **ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ** ﴾[١].

٥ - أن أوّل فعل وقع النهي عنه في الآيات جميعاً كان : الهوان والجبن في طلب الكفّار ، ولكن هذا الموضوع كان مقصوداً في آيتي آل عمران بُعَيد هزيمة " أحد" ؛ ولهذا استحق عناية وتفصيلا أكثر ؛ فضُمّ إلى الهوان النهي عن الحزن ، ثم أتبع بذكر حال المؤمنين التي هي الأعلى دائماً في النصر أو الهزيمة بحكم إيمانهم وتعلّقهم بربهم جلّ وعلا ، وفي ذلك من التسلية وتخفيف النهي مالا يخفى . قال القرطبي : "عزّاهم وسلاّهم بما نالهم يوم أحد من القتل والجراح ، وحثّهم على قتال عدوّهم ونهاهم عن العجز والفشل "[٢].

وأما النهي الوارد في سورة النساء فقد كان الحديث عنه متمّماً للحديث عن صلاة الخوف - وقت معاينة الأعداء - بعد ذكر صورتها الفعلية ، وذلك من أجل نفي التوّهم عند بعض المسلمين من أنّه إذا صلّى تلك الصلاة فهو في ذمّة الله ؛ فيجبُن في طلب العدوّ ؛ فدُفع ذلك وغيره بأقوى أسلوب يسمعه المؤمن وهو أسلوب النهي ، وعلّل ذلك بأحكم علّة وأرجاها وهو ماجاء في حيّز جملة الشرط وجوابها وماعطف عليها .

٦ - أن في الآيات الكريمة تشبيهاً ، وقد كان وجه الشّبه فيه هو الاشتراك في الألم والأذى ، ولكن حكمة ذلك وعاقبته جاءت مفصّلة في: آل عمران ؛ لكونه مقصود تلك الآيات ، ومجملة في " النساء " لكونه متمّما للمقاصد الشرعية من صلاة الخوف .

---

(١) الأنفال : ١٤ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن : ٢١٦/٤ .

٧ - أنّ آية " النساء " تضمنت التفاتاً ؛ فقد كان الخطاب في أوّلها موجَّهاً إلى المؤمنين مقصوراً عليهم ، ثم أُطلق وأُريد به عموم الخلق أجمعين ، ومن حِكَم ذلك إفادة عموم علم الله - عز وجل - وشمول حكمته ، فذلك غير مقصور على المؤمنين بل هو منسحب على سائر الخلق فجميعهم يألمون ؛ فإنّ علم الله تعالى محيط بهم ، وحكمته تشملهم .كما أنّ في آيتي آل عمران لفتة أخرى من لفتات الالتفات ، حيث قال تعالى [وتلك الأيّام نداولها] فهو التفات ؛ حيث أشار الله عز وجل إلى أيام الظفر والانتصار بين الأمم باسم الإشارة [تلك] ولم يتقدم شيء يشار إليه ، وإنما أريد بهذا الأسلوب تعظيم مابعد المشار إليه وتفخيمه ، وأنّه أمر ذو بال وغير عادي ، كما أنّ تعريف [الأيام] عهدي ، وهي الأيام التي يعهدها الناس في الانتصار والغلبة، ويدخل فيها يوما بدر وأحد دخولاً أوّلياً [(١)] ، ولمّا أشير إلى الأيّام العظيمة بذلك ناسب أن يكون الالتفات والانتقال بنون العظمة .

يقول أبو حيّان عن ذلك : " وقرئ شاذا [يداولها] بالياء وهو جار على الغيبة قبله وبعده [(٢)] ، وقراءة النون فيها التفات وإخبار بنون العظمة المناسبة لمداولة الأيام " [(٣)] .

وهناك التفات آخر في الآية نفسها وهو انتقال السياق الكريم من خطاب المؤمنين إلى بيان سنّة الله في المداولة بين الناس أجمعين حيث قال [نداولها بين الناس] ولم يقل بينكم ، وذلك حتى تتحقق سنة الله في المداولة فهي تارة للمؤمنين وتارة لغيرهم ، كما أنّه بذلك يتحقق غرض سياق الآية وهو التسلية .

يقول أبو السعود : " وصيغة المضارع - نداولها - الدالة على التجدد والاستمرار للإيذان بأن تلك المداولة سنة مسلوكة فيما بين الأمم قاطبة سابقتها ولاحقتها ، وفيه ضرب من التسلية " [(٤)] .

---

(١) انظر : روح المعاني : ٦٨/٤ .

(٢) يريد أبو حيان بقوله : " وهو جار على أسلوب الغيبة قبله " قوله تعالى : ﴿ **ومن يغفر الذنوب إلا الله** .. ﴾ : ١٣٥ ، وبعده قوله تعالى : ﴿ **وليعلم الله الذين آمنوا** .. ﴾ من الآية نفسها .

(٣) البحر المحيط : ٦٣/٣ .

(٤) تفسير أبي السعود : ٨٩/٢ .

كما أن في الآية التفاتاً ثالثاً هو قوله تعالى :[وليعلم الله الذين آمنوا ٠٠] ولم يقل : ولنعلم الذين آمنوا حتى يتفق مع قوله [نداولها] فعدل من ضمير العظمة إلى أسلوب الغيبة بإظهار اسمه الكريم الأعظم وإسناد العلم إليه وحده في هذا المقام تربية للمهابة في قلوب عباده ، وإلماعاً إلى أنّ الذي داول الأيّام هو العظيم الواحد لحكمة يريدها ؛ فيُرى المؤمن الصادق مع ربّه من المنافق الذي يخادع نفسه ؛ لأن البلوى والمحن تميّز الصفوف ، وتظهر للعيان الخبيث من الطيب ، وقيل : ليعلم صبر المؤمنين العلم الذي يقع عليه الجزاء الحسن كما علمه – عز وجل – في الغيب قبل تكليفهم(٢) ٠

وفي قوله تعالى [ويتّخذ منكم شهداء] التفات أيضا ؛ ففي السياق انتقال من الغيبة إلى خطاب المؤمنين ، ومن فوائد هذا الالتفات تخصيص المؤمنين بالشهادة وتشريفهم بها ، ومن فوائده النّص على أنّ من قتل من المؤمنين في أحد شهيد ، لكون الآية قد نزلت عقيب غزوة أحد تحكي ماحصل ، وتُسلّي المؤمنين ، وهذا لايعني أنّ مَن قتل في غير أحد من المؤمنين ليس بشهيد ، كلاّ ؛ فالعبرة بعموم اللفظ لابخصوص السَّبب ، فالآية فيها تشريف خاصّ لأهل أحد ، وتشريف عام للمؤمنين من غير أهل أحد فقتلاهم شهداء إذا استوفوا شروط الشهادة ، ومن أعظمها كون المقتول قد خرج في سبيل الله ؛ لعموم هذه الآية وغيرها من الآيات(٣) ٠

يقول ابن عاشور : " وقوله [ويتخذ منكم شهداء] عطف على العلّة السابقة ، وجعل القتل في ذلك اليوم الذي هو سبب اتّخاذ القتلى شهداء علّة من علل الهزيمة –

---

(١) انظر : روح المعاني : ٦٨/٤ ٠

(٢) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٢١٨/٤ ٠ يرجّح أبو البركات ابن الانباري أن الواو في قوله تعالى ﴿ **وليعلم الله** ٠٠ ﴾ عاطفة : عطفت فعلاً على فعل مقدر ، والتقدير : وتلك الأيام نداولها بين الناس لئلاّ يغتروا وليعلم الله الذين آمنوا ، انظر : البيان : ٢٢٢/١ ٠ وعلى ذلك فيكون في الآية حذف جملة ، وفائدته التعميم ثم التخصيص بالنص على المذكور ٠

(٣) ومن أظهارها قوله تعالى : ﴿ **ولاتحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾ آل عمران : ١٦٩ ٠ يقول القرطبي عن هذه الآية : " أخبر الله تعالى فيها عن الشهداء أنهم أحياء في الجنة يرزقون ، ولامحالة أنهم ماتوا وأن أجسادهم في التراب وأرواحهم حية كأرواح سائر المؤمنين وفضلوا بالرزق في الجنة من وقت القتل حتى كأن حياة الدنيا دائمة لهم " ٠ انظر: الجامع لأحكام القرآن : ٢٦٩/٤ ٠

لأنّ كثرة القتلى هي التي أوقعت الهزيمة ٠ والشهداء هم الذين قتلوا يوم أحد ، وعُبّر عن تقدير الشهادة لهم بالاتخاذ لأن الشهادة فضيلة من الله ، واقتراب من رضوانه ، ولذلك قويل بقوله [والله لايحب الظالمين] أي الكافرين فهو في جانب الكفار ، أي فقتلاكم في الجنة وقتلاهم في النار "(١)٠

وقوله تعالى [والله لايحب الظالمين] تبشير للمؤمنين بأنه تعالى يحبّهم في مقابل بغضه للكافرين ٠ والألف واللام في [الظالمين] استغراقية ، يدخل فيها كلّ ظالم ، ويندرج فيها كفار قريش - زمن التنزيل - قال تعالى :﴿ **وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾(٢) ٠

وفي الفاصلة المتقدمة أيضاً تلويح بقرب نصر الله للمؤمنين ، وأنه وليّهم ؛ لأن المُبْغَض مهزوم إن عاجلاً أو آجلا ، والمحبوب منصور كذلك ، يقول أبو حيّان عن معنى الآية : " فيه إشارة إلى أنّ من انخذل يوم أحد كعبدالله بن أبي وأتباعه من المنافقين ؛ فإنهم بانخذالهم لم يظهر إيمانهم بل نجم نفاقهم ، ولم يَصْلُحوا لاتخاذهم شهداء بأن يقتلوا في سبيل الله ، وذلك إشارة أيضاً إلى أن مافعل من إدالة الكفار ليس سببه المحبة منه تعالى بل ماذكر من الفوائد من ظهور إيمان المؤمن وثبوته ، واصطفائه من شاء من المؤمنين للشهادة ، وهذه الجملة اعترضت بين بعض العلل وبعض ؛ لما فيها من التشديد والتأكيد ، وأنّ مناط انتفاء المحبة هو الظّلم ، وهو دليل على فحاشته وقبحه من سائر الأوصاف القبيحة "(٣)٠ويقول الألوسي : " الجملة معترضة لتقرير مضمون ماقبلها ، وفيها تنبيه على أنّه تعالى لاينصر الكافر على الحقيقة وإنما يُغَلّبه أحياناً استدراجاً له ، وابتلاء للمؤمن ، وأيضاً لو كانت النصرة للمؤمنين لكان الناس يدخلون في الإيمان على سبيل اليُمْن والفأل والمقصود غير ذلك "(٤)٠

وقوله تعالى في تتمة علل المداولة :[وليمحّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين] ذلك في غاية اللُّطف بالمؤمنين الذين حضروا مع النبي صلى الله عليه وسلم أحداً في

---

(١) التحرير والتنوير : ١٠٤/٤ ٠
(٢) البقرة: ٢٥٤ ٠
(٣) البحر المحيط : ٦٣/٣ ٠ وانظر : تفسير المنار : ١٥١/٤ ٠
(٤) روح المعاني : ٦٩/٤ ٠

مقابل ذلك التكريم العظيم لهم ؛ حيث خاطبهم في مقام اصطفاء الشهداء منهم فقال لهم : [ويتخذ منكم شهداء] ثم ترك خطابهم في مقام تمحيص الذنوب والخطايا وكأنّهم – وهو العليم بهم – لم يقع منهم شيء من ذلك ، وسلكهم في جملة عامّة المؤمنين الذين يوجد في عَرْضهم من يكون منه التقصير فقال في ذلك : [وليمحّص الله الذين آمنوا] ولم يقل : منكم ، بل ترك ذلك وغيَّبه ؛ لإفادة العموم ، وللسَّتر على من وقع منه الزَّلل حَذْواً له نحو التوبة والإنابة .

وفي اصطفاء فعل " التَّمحيص " وإسناده إلى الله – تعالى – ثم إيقاعه على المؤمنين المجاهدين سرّ عجيب من أسرار التنزيل ؛ ذلك أنّ " أصل المَحْص : تخليص الشيء مما فيه من عيب كالفَحْص ، لكن الفحص يقال في إبراز شيء من أثناء مايختلط به وهو منفصل عنه ، والمَحْص يقال في إبرازه عمّا هو متصل به ، يقال : مَحَصْتُ الذهب ومَحَّصْتُه : إذا أزلتُ عنه مايشوبه من خَبَث ، قال [وليمّحص الله الذين آمنوا] – ﴿ وَلِيُمَحِّصَ مَافِي قُلُوبِكُمْ ﴾[١] فالتمحيص هاهنا كالتزكية والتطهير ونحو ذلك من الألفاظ "[٢] .

فإذا كان التَّمحيص تزكية وتطهيراً لنفوس المؤمنين فلا يمكن أن يتولّى ذلك غير الله – عزّ وجل – ؛ ولهذا أسند فعل التمحيص إلى نفسه الكريمة ، وخصّه بذاته الشريفة ، وجعله واقعاً على المؤمنين ليس في زمن التنزيل فحسب بل في سائر الأزمان ، والذي أفاد ذلك أمران : –

الأول : صيغة الفعل المضارع [وليمحّص] التي تفيد التجدد والحدوث ؛ فكلّما علقت بنفوس المؤمنين أو ببعضهم مايكدّر صفو إيمانهم أجرى الله الأقدار عليهم ؛ كلٌّ بحسب ماعلق به ، فأزالت أوضارهم ، وجلّت مابهم ، وهو مقتضى رحمة الله لهم ، حتى يلاقوا ربَّهم وقد زكت نفوسهم وطهرت قلوبهم .

الثاني : اسم الموصول وماطوته الصلة من صفة الإيمان التي لاتقتصر على أهل زمان بعينه بل هي تنسحب على مَنْ هذه صفته إلى نهاية الأزمان .

---

(١) آل عمران : ١٥٤ .
(٢) المفردات : ٤٦٤ .

كما أنّ شأن الذنوب والمعاصي شأن غيبي لايمكن أن يحيط به إلاّ الله عز وجل، وإنْ ظهر للناس شيء منه لكنهم لايمكن أن يحيطوا به ولابمقداره ، وهذا سرّ من أسرار إسناد التمحيص إليه . وأمر آخر هو أنّ المؤمنين يتفاوتون في الوقوع في المحذورات الشرعية ؛ فأمر علم ذلك ومقدار مايُطَهّره عائد إلى الله وحده ؛ لذلك ولغيره كان إظهار لفظ الجلالة فضلاً على الاعتناء بجانب التمحيص [١].

وأمّا الغرض من تكرير لام التعليل وعدم الاكتفاء بالعاطف فللتذكير بالتعليل بعد الانقطاع الحاصل من الجملة المعترضة في فاصلة الآية المتقدمة [٢].

ويرد تساؤل عن سبب تأخّر علّة المداولة الأخيرة وهي تمحيص المؤمنين ومحق الكافرين ، فأخّرت هذه عن بقية العلل وقدم عليها الجملة المعترضة السابقة وهي قوله تعالى [والله لايحب الظالمين] ، وممن أجاب عن ذلك أبو السعود حيث قال : " ولعل تأخير العلّة الأخيرة عن الاعتراض لئلاّ يتوهّم اندراج المذنبين في الظالمين "[٣].وعلّل تعليلاً آخر حيث قال : " أو ليقترن بقوله عز وجل [ويمحق الكافرين] ؛ فإنّ التمحيص فيه محو الآثار وإزالة الأوضار ، كما أنّ المحق عبارة عن النقص والإذهاب "[٤]. وهذا المعنى هو الذي سمّاه الزّجاج : مقابلة في المعنى حيث قال : " معنى الآية أن الله تعالى جعل الأيّام مداولة بين المسلمين والكافرين ؛ فإن حصلت الغلبة للكافرين على المؤمنين كان المراد تمحيص ذنوب المؤمنين ، وإن كانت الغلبة للمؤمنين على هؤلاء الكافرين كان المراد مَحْق آثار الكافرين ومحوهم ؛ فقابل تمحيص المؤمنين بمحق الكافرين ؛ لأن تمحيص هؤلاء بإهلاك ذنوبهم نظير محق أولئك بإهلاك أنفسهم. وهذه مقابلة لطيفة في المعنى "[٥].

وترك الإظهار والاكتفاء بالإضمار في جانب الكافرين حَطٌّ من شأنهم ، وإشعار بأنّ محقهم من أيسر الأمور وبأتفه الأسباب بصَعْق أو حَرْق أو حَصْب أو غرق أو بأيدي المؤمنين .

---

(١) انظر : تفسير أبي السعود : ٩١/٢ .

(٢) انظر : تفسير أبي السعود : ٩١/٢ .

(٣) تفسير أبي السعود : ٩١/٢ .

(٤) تفسير أبي السعود : ٩١/٢ .

(٥) التفسير الكبير : ١٨/٩ .

وإظهار لفظ [الكافرين] وترتيب المحق عليه لكون الكفر هو السبب الموجب للمحق ، فلم يقل مثلاً : ويمحق المعتدين ، وفي ذلك اللّفظ من التنفير من الكفر وذمّ أهله مالايخفى ٠

وكون علل مداولة الأيّام تنتهي بمحق الكافرين من أعظم البشائر للمؤمنين ، بنصرهم وإظهار دولتهم ، وبكسر جناح عدوّهم وإدالة دولتهم ، والذي يرشد إلى ذلك من لفظ الآية أمران : -

الأول : - الفعل المضارع [ويمحق] المفيد تجددّ المحق واستمراره في مستقبل الأيام ، وفي سائر الأمكنة ، مع كون الفاعل له هو الله عزّ وجل ، فهو الذي وعد بذلك وتكفل به ٠

والثاني : - الألف واللام في [الكافرين] ؛ فالصحيح أنّها جنسيّة استغراقية يدخل فيها كلّ الكافرين وليس قريشاً وحدهم[١] - زمن التنزيل - بل كل من هذه صفته ؛ لعموم هذه الآية ولعموم غيرها كقوله تعالى : ﴿ **ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ** ﴾[٢] وقوله تعالى : ﴿ **وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾[٣] ولايكون ذلك إلاّ في مقابل هزيمة الكافرين ٠ ومحق الكفّار لايعني : فناءهم بالكليّة ، لأنّ معنى المحق : " النقصان ، ومنه المِحَاق لآخر الشهر إذا انمحق الهلال وامتحق وانمحق ، يقال : محقه إذا نَقّصه وأذهب بركته "[٤] ٠ وبذلك ندرك سرّ التعبير بالفعل : " يمحق " فلا يعني : زوال الشيء بالكليّة ، بل يظهر عليه النقصان شيئاً فشيئاً إلى أن يزول خطره ولايمنع من بقاء بعض أثره ، وهذه حال الكفر والكفّار مع دولة الإسلام فما زال الكفر في تناقص وانمحاق حتى عمّ الإسلام الآفاق ، ولم يظهر الكفر مرة أخرى إلاّ بسبب ضعف اليقين عند المسلمين وتركهم أسباب العزّ والتمكين ٠

---

(١) خلافا لبعض من رأى أن المراد بالكافرين : الذين حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ٠ انظر : تفسير أبي السعود : ٩١/٢ ، وروح المعاني : ٧٠/٤ ٠

(٢) الأنفال : ١٨ ٠

(٣) الروم : ٤٧ ٠

(٤) المفردات : ٤٦٤ ٠

ومن الالتفات ماتكون صورته بالانتقال من أسلوب الغيبة إلى أسلوب التكلم لغرض يراد تحقيقه وتقريره ؛ ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾(١) . فالآية خطاب للنبي – صلى الله عليه وسلم – وللمؤمنين في غزوة بدر ، وتذكير لهم بنعمته عليهم ، وبيان لكيفيّة نصره لهم ؛ فكان مقتضى نظم الكلام على أسلوب الغيبة أن يكون على هذه الصورة : إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنّه أو أنّ الله مُمدّكم .. ، ولكن عُدل عن ذلك فوقع الالتفات للمؤمنين بضمير التكلّم [أنّي] ، والمتكلم هو الله جلّ وعلا ، والوقت الذي وقع فيه ذلك الأمر وقت شدّة وكرّ وفرّ ، فهم مقبلون على عدوّ قد أعدّ لهم العَدَد والعُدَد، وفاقهم في ذلك ، بل ومن خلفه المدد(٢) ، فانطرح الرسول صلى الله عليه وسلم بين يدي ربّه يناشده أشدّ المناشدة ؛ وسقط رداؤه وهو يطيل الدعاء ويلحّ في الرجاء حتى أشفق عليه الصحابة ، وقالوا له : " بعض مناشدتك ؛ فإن الله منجز لك ماوعدك "(٣) . حتى أنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة تحكي تلك الحالة الرهيبة العجيبة ، من خلال ظرف الزّمان [إذ] والفعل المضارع [تستغيثون] فقد استحضر تلك الأحوال وصوّرها بصورة جماعة ضعيفة تستغيث وتلحّ لافرد واحد فقط ، وهم يرجون من ؟ يرجون ربهم الذي ربّاهم بالنّعم . فكان الجواب وكانت الاستجابة بأبلغ خطاب وعلى الفور [فاستجاب لكم] ، إذ الفاء تفيد فوريّة الاستجابة بعد فعل الاستغاثة ، كما أنّ السين والتاء تدلّ على المبالغة في تحقيق ذلك المطلوب(٤) . وحتى تقع تلك الاستجابة موقعها فقد أكّدت بحرف التوكيد [أنّ] ثم بذلك الالتفات من المتكلم جلّ وعزّ تمكيناً لتلك الاستجابة وتحقيقاً لها ، وإشعاراً للمخاطبين بأنّ دعاهم قد أجيب ، وأنّ مَنْ لجؤوا إليه بطلب المدد قد حقق مرادهم ، فأمدّهم بما لايعهده البشر وليس في طاقتهم، أمدّهم بملائكة يردف بعضهم بعضا .

---

(١) الأنفال : ٩ .

(٢) انظر ص :

(٣) السيرة النبوية لابن هشام : المجلد الأول : ٦٢٧ .

(٤) انظر : التحرير والتنوير : ٢٧٤/٩ ؛ فقد أشار إلى قيمة السين والتاء .

وقد يكون الانتقال في الالتفات من الغيبة إلى التكلم والخطاب في آن واحد احتفاءً بالمعنى الملتفَت إليه واعتناء بشأنه ؛ ومن ذلك قوله تعالى للملائكة المنزَلين في بدر مَدَداً للمؤمنين ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾[١] .

وكان مقتضى سياق النظم في الآية – من غير التفات – أن يكون هكذا : إذ يوحي ربك إلى الملائكة أنّ الله معهم ٠٠ ولكنّ الأمر اختلف ؛ فتُرك ذلك الأسلوب وعدل عنه إلى أسلوب التكلم ، اعتناءً بشأن المعيَّة ، ومراعاة للمعنى الدقيق الخفيّ للوحي ، إذ يقتضي معنى الوحي قُرب الموحِي من الموحَى إليه ، وشعور الموحَى إليه بذلك القرب ، كيف ذلك وهذا كلّه يقع من العزيز الجبّار الذي بيده ملكوت كلّ شيء ؟ فلا مرية في أنّ ذلك سيزيد الملائكة قوّةً إلى قوّتهم ، فقد كلّمهم مولاهم وخالقهم ، وخاطبهم خطاب المعتَنِي بهم ، وصرّح بمعية النصر والتأييد لهم ، وذلك كلّه يحقّق الغاية من إنزالهم ويُتَمّمها ٠ فتأمّل سرّ هذا الالتفات فهو دقيق مكين في المعنى الذي وقع فيه ٠

وفي إضافة اسم الربّ جلّ وعلا إلى ضمير الخطاب الموجّه إلى النبي عليه الصلاة والسلام تشريف للنبي وتنويه بشأنه[٢] ، وإشعار بأنّ الذي حصل من الوحي وما أعقبه لطف بالنبي صلى الله عليه وسلم ورحمة بالمؤمنين ٠

وأمّا تخصيص الملائكة بالوحي هم دون غيرهم فيعلّله ابن عاشور قائلاً : " وإيحاء الله إلى الملائكة بهذا مقصود منه تشريفهم وتشريف العمل الذي سيكلفون به "[٣] .

ومن مقاصد إيقاع فعل التثبيت على المؤمنين وتعريفهم باسم الموصول الإشعار بأنّ سبب ذلك التثبيت وملابسه هو ماتضمّنته الصلة ونصّت عليه وهو الإيمان ، فهو الباعث على هذه العناية[٤] ، وسبب تلك الرعاية ، ومن لوازم ذلك تطمين المؤمنين ،

---

(١) الأنفال : ١٢ ٠

(٢) انظر : التحرير والتنوير : ٢٨٠/٩ ٠

(٣) التحرير والتنوير : ٢٨١/٩ ٠

(٤) انظر : التحرير والتنوير : ٢٨١/٩ ٠

وزيادة ثقتهم بربهم الذي أسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ، كما أنّ من لوازم ذلك التعريضَ بالكافرين ، وإشعارهم بأنّ الدوائر سوف تدور عليهم ، مادام الكفر شعارهم .

ومن لطائف النظم القرآني في هذه الآية أنْ أُسند إلقاء الرعب إلى الله عز وجل وحده من خلال ضمير التكلم ، وذلك لأمور منها : -

١ - أنّ الرُّعْب أمر قلبي لايملك قَذْفه في قلوب الناس إلاّ الذي خلقهم وبيده تقليب قلوبهم ، وهو الله تعالى وحده لايشاركه في ذلك لاملك مقرب ولارسول مرسل ؛ ولهذا كان سياق الآية [سأُلقي] بالإفراد .

٢ - أنّه لو قيل [سنُلقي] بنون العظمة لتطرّق الاحتمال الوهمي إلى أنّ للملائكة المخاطبين يَدَاً في ذلك ، والأمر ليس كذلك (١)؛ فهم خلق من خلق الله لايملكون من أمر ذلك السرّ الإلهي شيئاً ، وإن كانوا طَرَفاً من أسبابه .

يقول عبدالكريم الخطيب : " وقوله تعالى [فثبتوا الذين آمنوا] إشارة إلى أن الملائكة وإن كانوا على قوّة لاحدود لها بالنسبة لقوة البشر إلاّ أنّهم مع ذلك يستمدّون القوة والعون من الله سبحانه وتعالى ، شأنهم في ذلك أضعف مخلوفات الله وأقلّها حولاً وحيلة "(٢).

واختيار القلوب لتكون وعاء للرعب وظرفاً له مقصود لذاته ؛ وذلك لأنّ القلب أمير النفس(٣) ؛ فإذا اضطرب وارتعب تبعته النفس وانخلعت معه ، يقول الرازي متحدثاً عن نعمة الله على المؤمنين بإلقاء الرعب في قلوب الكافرين : " وهذا من النعم الجليلة ؛ وذلك لأنّ أمير النفس هو القلب ، فلمّا بيّن الله تعالى أنّه ربط قلوب المؤمنين، بمعنى أنّه قوّاها وأزال الخوف عنها ذكر أنّه ألقى الرعب والخوف في قلوب الكافرين، فكان ذلك من أعظم نعم الله تعالى على المؤمنين "(٤).

وغير خفي أنّ التعريف بالموصول والنّص على الكفر في صلته قصد منه

---

(١) انظر : التحرير والتنوير : ٢٨٢/٩ .

(٢) التفسير القرآني للقرآن : ٥٧٨/٩ .

(٣) وفي الصحيحين : " ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب " . انظر تخريج الحديث وشرحه في : جامع العلوم والحكم لابن رجب : ٥٨ - ٦٦ .

(٤) التفسير الكبير : ١٣٥/١٥ .

التشهير ببشاعة الكفر وأنّه مجلب للرعب ، كما قصد منه تسجيل الذم على الكفار ، وأنّ سجاياهم القبيحة قد تناهت في النكير حتى استحقت ماذكر .

وإذا ثُبّت المؤمنون ، وألقي الرعب في قلوب الكافرين فقد اضطربت حبالهم وحان جلادهم ، ولهذا ناسب الأمر بذلك فقال : [فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كلّ بنان] فهذا تفريع على ماتقدّم قائم على حصوله .

وأراد بما فوق الأعناق : " أعالي الأعناق التي هي المذابح ؛ لأنّها مفاصل ؛ فكان إيقاع الضرب فيها حَزّاً وتطييراً للرؤوس ، وقيل أراد الرؤوس ؛ لأنها فوق الأعناق ، يعني ضرب الهام "[١] .

ولكن ماسرّ تخصيص الأعناق والبنان بذلك المضرب ؟ : يقول ابن عاشور : " وإنّما خُصّت الأعناق والبنان ، لأنّ ضرب الأعناق إتلاف لأجساد المشركين ، وضرب البنان يبطل صلاحية المضروب للقتال ؛ لأنّ تناول السّلاح إنّما يكون بالأصابع "[٢] .

ويقول ابن عطيّة : " ويحتمل عندي أن يريد بقوله [فوق الأعناق] وصف أبلغ ضربات العنق وأحكمها ؛ وهي الضربة التي تكون فوق عظم العنق ودون عظم الرأس في المفصل "[٣] .

ويقول أبو حيّان في معنى جامع : " وضَرْب الكفّار مشروع في كلّ موضع منهم، وإنّما قصد أبلغ المواضع وأثبت مايكون المقاتل ؛ لأنه إذا عمد إلى الرأس أو الأطراف كان ثابت الجأش متبصّراً فيما يضع فيه آلة قتاله من سيف ورمح وغيرهما مما يقع به اللقاء ، إذ ضرب الرأس فيه أشغل شاغل عن القتال ، وكثيراً مايؤدي إلى الموت ، وضرب البنان فيه تعطيل القتال من المضروب بخلاف سائر الأعضاء "[٤] .

ويلاحظ أنّ الأمر بالضرب قد تكرر ، فلم يكتف بالأوّل ، بل عطف عليه آخر من جنسه ولفظه ، ويعلل أبو السعود ذلك قائلاً :"وتكرير الأمر بالضرب لمزيد التشديد والاعتناء بأمره"[٥] .ويضاف إلى ذلك إلهاب حماس المخاطبين، وتهييج نفوسهم، ونزع الرحمة من قلوبهم عند مقابلة الكفار؛ فقد شاقّوا الله ورسوله؛ فاستحقّوا ذلك كلّه[٦] .

---

(١) الكشاف : ١٥٩/٢ .

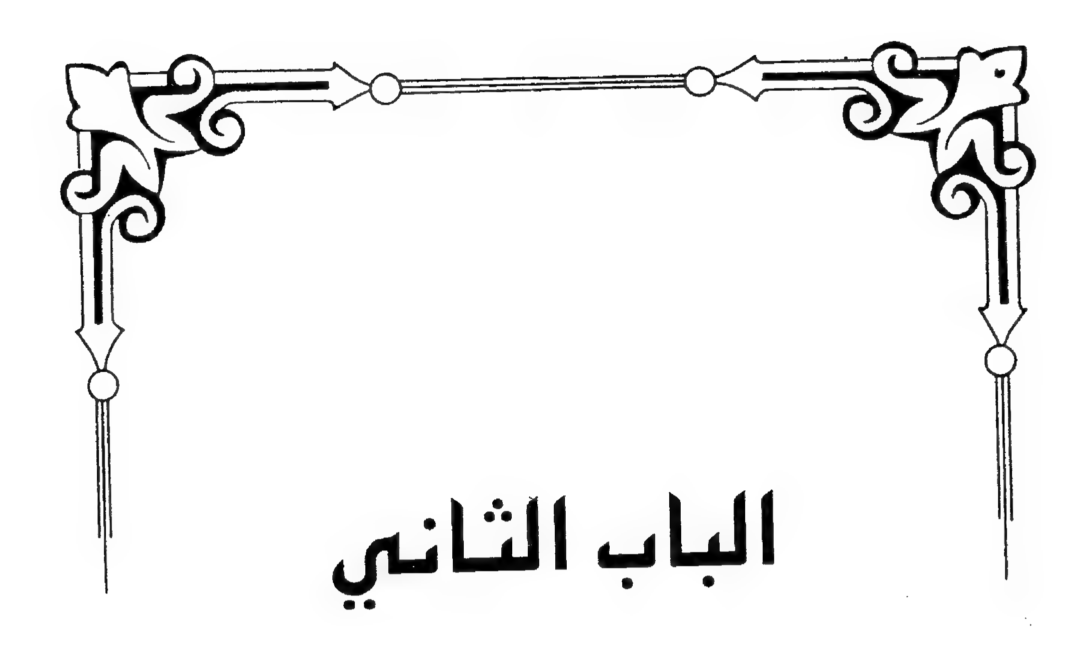
(٢) التحرير والتنوير : ٢٨٣/٩ .

(٣) المحرر الوجيز : ٢٨/٨ .

(٤) البحر المحيط : ٤٧١/٤ .

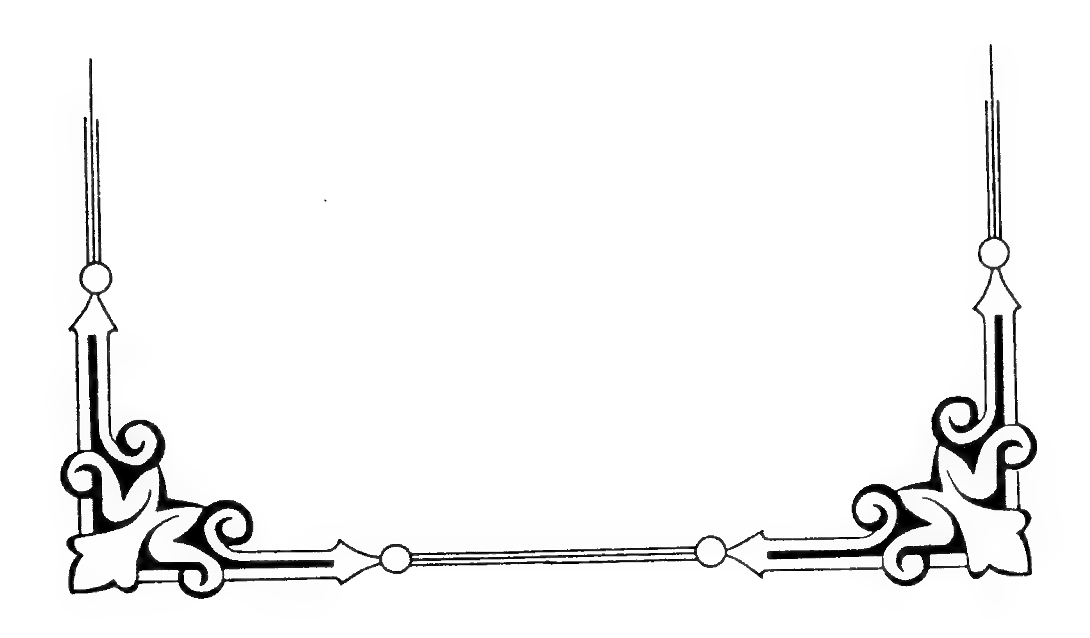
(٥) تفسير أبي السعود : ١١/٤ .

(٦) ولمزيد من الوقوف على صور الالتفات : انظر : ٧٨ ، ١٣٥ ، ١٩٩ ، ٢١٨ ، ٢٣٦ ، ٢٤٣ ، ٢٩٩ ، ٣٤١ ، ٣٥٥ - ٣٥٦ ، ٣٧٦ ، ٣٧٨ ، ٤٠٨ ، ٤١٨ ، ٥٦٢ ، ٥٩٣ .



الباب الثاني

خصائص التركيب في آيات الجهاد



توطئــة : -

يراد بالتركيـب : الجملة التي تفيد معنىً يحسن السكوت عليه[(١)]، والجملة لاتكون كذلك إلاّ إذا اشتملت على ركنين هما : المسند والمسند إليه[(٢)]، وقد قال عنهما سيبويه : " وهما مالايستغني واحد منهما عن الآخر ، ولايجد المتكلم منه بُدّاً ؛ فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبني عليه ، وهو قولك : عبدالله أخوك وهذا أخوك ، ومثل ذلك قولك : يذهب زيد ، فلابد للفعل من الاسم ، كما لم يكن للاسم الأوّل بُدٌّ من الآخر في الابتداء "[(٣)]. ويزيد عبدالقاهر الأمر تقريراً فيقول : " المبتدأ لم يكن مبتدأ لأنّه منطوق به أوّلاً ، ولاكان الخبر خبراً لأنّه مذكور بعد المبتدأ ؛ بل كان المبتدأ مبتدأ لأنّه مسند إليه ومُثْبَتٌ له المعنى . والخبر خبراً لأنّه مسند ومُثْبَت به المعنى "[(٤)].

وعرف البلاغيون الإسناد فقالوا : " هو ضم كلمة أو مايجري مجراها إلى أخرى بحيث يفيد الحكم بأن مفهوم إحداهما ثابت لمفهوم الأخرى أو منفي عنه "[(٥)].

فعلم من ذلك أنّ المعاني ترتبط بالإسناد ارتباطاً دقيقاً ، وهذا الإسناد هو مايتركب منه الكلام ، يقول الدكتور أبو موسى : " إنّ الإسناد أصل الفائدة ومناطها؛ فليست معاني الشعر وقضايا الفكر وروايات التاريخ وأصول العلوم كلها إلاّ فِكَراً ومعاني ، ودلالات هي ولائد الإسناد وبناته ، والإسناد يعني أن تثبت الشيء للشيء أو تنفيه عنه ؛ كقولك : جاشت أشواقه ؛ فقد أثبتَّ الجيشان للأشواق ؛ فالجيشان مثبت، والأشواق مثبت له ؛ فلو قلت : الأشواق ... الجيشان .. لم تفد شيئاً ، وإنّما أفدت بالإثبات وبأن قلت جاشت أشواقه ، فأثبت للأشواق فعلاً وحدثاً هو الجيشان "[(٦)].

وإذا أريد تمكين ذلك الشيء الذي بصدده الإسناد - في النفس وقُصد تقريره سُمّي هذا الأسلوب توكيداً .

---

(١) انظر : شرح ابن عقيل : ١٩/١ . ط ١٤٠٩هـ وهذا التعريف في اصطلاح النحويين ، وأمّا اللغويون فلا يجعلون الإفادة شرطاً في تركيب الجملة ، ومعلوم أن البلاغة هي ثمرة النحو ونتيجة العلاقات بين الكلم بعد مراعاة مقتضى الحال .

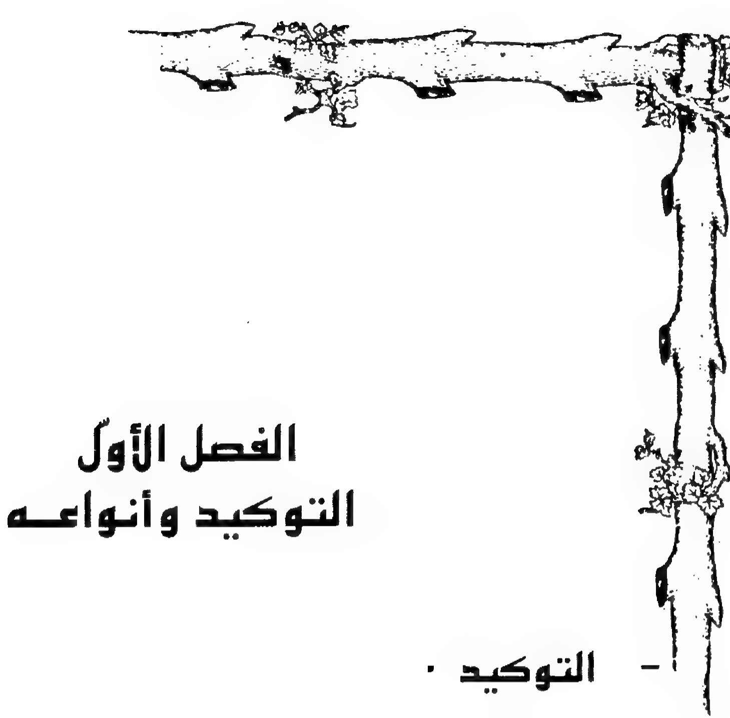
(٢) انظر : بلاغة الكلمة والجملة والجمل : ١٠٣ .

(٣) الكتاب : ٧/١ .

(٤) دلائل الإعجاز : ١٨٩ .

(٥) شروح التلخيص : ١٩٠/١-١٩١.

(٦) خصائص التراكيب : ٤٥ .



الفصل الأول
التوكيد وأنواعه

- التوكيد .
- أدوات التوكيد .
- التوكيد بالتكرار .
- القصر وطرقه .

التوكيـــد : -

يقال وكّد الشيء وأكّده ، والواو أفصح[١] ، والواو والكاف والدّال : كلمة تدل على شدٍّ وإحكام ٠ وأوكِدْ عقدك أي : شُدَّه ، والوِكاد : حبل تُشَدّ به البقرة عند الحلب[٢]٠

وعلى ذلك فهذه المادة تدل على تمكين المعنى وتقويته في الذّهن وتقرير مدلوله ، وذلك من خلال أدوات التوكيد وطرقه ٠

ويلخّص العلوي مفهوم التوكيد والغرض منه قائلاً : " اعلم أن التأكيد تمكين الشيء في النّفس وتقوية أمره ؛ وفائدته : إزالة الشكوك ، وإماطة الشّبهات عمّا أنت بصدده ، وهو دقيق المأخذ ، كثير الفوائد "[٣]٠

وهل التوكيد مقصور على حال المخاطب ؛ فإن كان خالي الذهن لم يؤكد الكلام له ، وإن كان متردّداً فيه حسن تقويته بمؤكّد ، وإن كان منكراً وجب تأكيده ؟[٤]٠

لقد أجاب عن هذا السؤال جواباً ضمنياً الدكتور محمد أبو موسى في بحثه عن " البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري " فكان مما قال عن مبحث التوكيد : " ويعنيني في بحث التوكيد أن أبيّن أمرين :

الأول : دواعي التوكيد وأغراضه ٠

والثاني : عناصر التوكيد أو مظاهره ٠

أما الأمر الأول ؛ فقد ضاق صدري بحديث المتأخّرين حينما أداروه حول مواجهة إنكار المخاطب التحقيقي أو الاعتباري ، وكأنّ جواب أبي العباس المبرد على سؤال الكندي المتفلسف كان محيطاً بدواعي التوكيد وأسراره في هذه اللغة ؛ فجاء كلامهم ترديداً أو شرحاً لهذا الجواب ٠ وهذا قصور كثير في

---

(١) انظر : مختار الصحاح ٠ مادّة : أكد ٠
(٢) انظر : معجم مقاييس اللغة : مادة : وكد ٠
(٣) الطراز : ٢/١٧٦ ٠
(٤) ممن ذكر ذلك الزركشي في : البرهان : ٢/٤٩٠ ٠

فهم هذه الخصوصية التي هي من أدقّ الخصائص البلاغيّة ، وأكثرها صلة بالحسّ والشّعور .

وقد ذكر الزمخشري دواعي كثيرة للتوكيد تجاوزت هذا الأفق الذي حدّدته إجابة أبي العباس المبرد ؛ منها : أن التوكيد قد يكون لتقرير المعنى في نفس المخاطب وتثبيته ، وإن كانت خالية من كلّ أثر للإنكار أو الشكّ ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً ﴾[1] . يقول الزمخشري : تكرير الضمير بعد إيقاعه اسماً لـ [إنّ] تأكيد على تأكيد لمعنى اختصاص الله بالتنزيل ؛ ليتقرّر في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه إذا كان هو المنزّل لم يكن تنزيله على أيّ وجه نزل إلاّ حكمة وصوابا ، ولقد دعتني حكمة بالغة إلى أن أنزل عليك الأمر بالقتال والانتقام بعد حين "[2] .

ومما ذكره الدكتور أبو موسى من دواعي التوكيد وأغراضه :

أن التوكيد قد يكون لتحقيق المعنى عند المتكلم ، وهو يريد أن يوطّن نفس المخاطب لتلقيه ، ومنها مواجهة إنكار المخاطب ، ومنها إماطة الشّبهة ؛ لغرابة الخبر ، وحاجته إلى التقرير والتحقيق ، وقد يكون التوكيد مظهراً لتعلّق النفس بالخبر ، واهتمامها به ، وأنّه جدير عندها بالتقوية والتقرير اهتماماً به ، وشداً للأذهان إليه ، وقد يكون التوكيد لمواجهة تطلعات النفس ، وحسم آمالها وأطماعها ، وقد يكون لتقرير وعد الله وتثبيته حتى تزداد النفوس اطمئناناً إليه ووثوقاً به ، فلا تلتفت إلى أماني الشيطان وتزيينه[3] .

ومهما يكن من أمر فإن الكلام إذا تأكّد تقرر ، وصار حقيقة لامراء فيها ، وصار قبوله مسلّماً به ، ولايردّه إلا معاند أو مكابر[4] .

---

(١) الإنسان : ٢٣ .
(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري : ٣٤٢ .
(٣) انظر : البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري : ٣٤٢ – ٣٤٤ .
(٤) انظر : أساليب التوكيد في القرآن : ١٤ .

والتوكيد له طرق وصور ؛ فقد يكون بأدواته المشهورة ، وقد يكون بالتكرار المؤكّد، وقد يكون من خلال القصر . وسنتناول كلّ موضوع على حدة من خلال التحليل البلاغي حتى تستبين صورة التوكيد فيه على النحو الآتي : -

أدوات التوكيد : -

يخضع أسلوب التوكيد وأدواته للمقام الذي يساق فيه المعنى المراد تقريره ، وذلك وفق أحوال المخاطبين ؛ فربّما لاتستدعي حال المخاطبين توكيداً أصلاً ، لكون نفوسهم تستقبل ذلك المعنى استقبال خالي الذهن العامل بالحكم الملقى إليه من غير تردد أو شك ، وقد يصل الأمر بآخرين إلى التردّد والاضطراب في شأن أمر ما فهنا يكون غرض أداة التوكيد فتعمل عملها ، وتحقق غايتها ، وقد ينضم إليها غيرها رديفاً لها ؛ لزيادة تقرير الأمر وتثبيته في نفوس المخاطبين ، وقد ينتهي الأمر إلى الإنكار فلا سبيل إلاّ إلى التوكيد بمؤكّدات تجتمع وتتضافر لتصل بالمعنى المراد إلى درجة التمكن والاستقرار في نفوس المخاطبين . وقد يكون التوكيد لدوا ع وأغراض أخرى سبق ذكر بعضها آنفا .

وأدوات التوكيد كثيرة متنوّعة[(١)] وردت في كثير من الآيات القرآنية الكريمة ، وإذا كان ذلك كثيراً في عموم القرآن فإن آيات الجهاد منه لاتكاد تخلو منها ، ومن أسباب ذلك مافي الجهاد من المشقّة والألم والمعاناة ، فإن ذلك ومافي معناه يحتاج إلى دفع النفوس وحفزها نحو عراك عدوّها ومنازلته ، وفي مقابل ذلك يجري إغراؤها

---

(١) ممن عدّد كثيراً منها الدكتور بدوي طبانة حيث قال : " مؤكدات الحكم في الضربين الطلبي والإنكاري من أضرب الخبر هي : إنّ وأنّ والقسم ونونا التوكيد ولام الابتداء واسمية الجملة عند قصد التأكيد بها وتكرير الجملة . وأما الشرطية وحروف التنبيه . وحروف الزيادة ، وضمير الفصل ، وتقديم الفاعل المعنوي في نحو : محمد يكتب ، والسين إذا دخلت على فعل محبوب أو مكروه ؛ لأنها تفيد الوعد أو الوعيد بحصول الفعل ، وقد التي للتحقيق ، وكأن ، ولكن ، وإنما ، وليت ، ولعل وتكرير النفي " . ثم قال : " واسمية الجملة تكون مؤكداً إن قصد التأكيد بها ، على أن تأكيدها ليس على سبيل الاستقلال بل على سبيل التبعيّة ؛ فإن كان هناك مؤكد آخر جعلت اسمية الجملة من المؤكدات ، وإلاّ فلا . وقد اختلف في أنّ المفتوحة وجعلها من مؤكدات الحكم ، فلم يعدّها بعضهم من المؤكدات لأن مابعدها في حكم المفرد ، والتأكيد المقصود هو تأكيد النسبة لا تأكيد المسند إليه ولاتأكيد المسند ، ولكن ابن هشام يعدّ أنّ المفتوحة من مؤكدات النسبة " . معجم البلاغة العربية : ١/٤٥-٤٦ .

بالثواب وحسن المنقلب والمآب ، وكلّ ذلك تتخلّله أدوات التوكيد وأساليبه وفق المقام الذي ترد فيه ، حتى إذا تغلّبت النفوس على ضعفها ، وزاد التوكيد من يقينها انطلقت لاتبغي سوى رضى ربّها فتكون في عداد الشهداء السعداء ، ونعم القوم هم ، نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم .

وسوف أتناول بعض ماورد من أدوات التوكيد بالتحليل والعرض وفق ترتيب الآي في المصحف الكريم .

من ذلك قوله تعالى في النبي عليه الصلاة والسلام والذين خرجوا معه من أصحابه - بعد غزوة أحد - إلى حمراء الأسد في طلب أبي سفيان ومن معه من المشركين فقال الله عز وجل في الثناء عليهم وذكر حالهم[1] : ﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ** ﴾[2]. والشاهد هو القول الذي اندرج في صلة الموصول ؛ ومن زيادة الاعتناء بالمقول لهم - وهم النبي ومن معه - أن قُدّم ضميرهم على فاعل القول وقائله ؛ فهم الذين في محور الاهتمام ، وهم الأجدر بأن يعرف موقفهم ويهتم بردّهم ؛ فعليه مناط مدحهم وسرّ الثناء عليهم . وزاد من حساسية الموقف ورهبته أنّ القائل مع أنّه واحد أو جماعة من الناس[3] إلاّ أنّه قد ذاع وشاع وأصبح حديثَ الناس وقيلَهم ،

---

(١) اختلف المفسرون في وقت نزول الآيات المذكورة ، والمذكور آنفاً هو ترجيح ابن جرير ، وإنما اختير دون غيره لكون تعليله يتوافق مع روح الآية ونصّها . انظر الأقوال والترجيح المذكور في : جامع البيان : ٤/١٧٦-١٨٣ . وممن رجح ذلك وانتصر له ابن عطية . ونسب إلى الجمهور القول به ، وجعل القول بغيره شاذاً . انظر : المحرر الوجيز : ٣/٢٩٨-٢٩٩ .

(٢) آل عمران : ١٧٣ ، ١٧٤ .

(٣) قيل إن القائل هو : معبد الخزاعي ، وقيل نعيم بن مسعود ، وقيل أعرابي ، وقيل : نفر من عبدالقيس ، وقيل غير ذلك . انظر : جامع البيان : ٤/١٧٩-١٨١ . ونسبة القول إلى الناس مع أن قائله في الأصل واحد لأمرين :

١- أنه قد جاءهم من جهة الناس فأقيم كلامه مقام كلامهم وسمي باسمهم .

٢ - أنه لتفخيم الشأن .

انظر : مجمع البيان : ١-٢/٨٨٩ . وقد ضعّف ابن عطية قول ابن قتيبة وغيره من أنّ لفظة [الناس] مطلقة على لفظ واحد ، وعنده أن المراد بهم الركب من عبدالقيس . انظر : المحرّر الوجيز : ٣/٢٩٧ ، ٢٩٩ .

فكأن الناس في صفٍّ والجماعة المؤمنة في صفٍّ آخر ترشقهم سهام الإرجاف ، وتقرع أسماعهم كلمات التخذيل وإشاعات التهاويل لشأن العدوّ في عَدده وعُدَّته ؛ ولهذا أسند هذا القول وجعل فاعله هم [الناس] ، وصريح قولهم الموجّه إلى النبي والمؤمنين هو : ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ﴾ وقد جاء هذا القول الذي يحمل الإرجاف والتخذيل معزَّزاً بعدّة مؤكّدات هي : -

١ - حرف التوكيد المُثَقَّل [إنّ] الذي يؤكد نسبة الحشد والجمع إلى الناس .

٢ - الألف واللام الداخلة على لفظ [الناس] في هذا المقام ، فمع كون المراد بهم قريشا[1] إلاّ أنّ دخول "ال" على ذلك اللّفظ في سياق الإرجاف يوحي بأنّ عدوَّهم ليس قريشاً فحسب بل قد انضم إليهم غيرهم ، حتى تحوّل كل من سوى المؤمنين من الناس عدواً يُحشد ضد محمد وصحبه إمعاناً في الرعب وتمكيناً له في نفوس الفئة المؤمنة .

٣ - [قد] الداخلة على فعل الجمع الماضي مما يؤكّد حقيقته ويقرّر مضمونه ، فهو أمر قد فرغ منه وانتهى تجميعه ، وصيغة الجمع بالماضي هنا أبلغ منها بالمضارع إذ لو قيل : إن الناس يجمعون لكم لخفَّ التوكيد في الجملة ؛ بذهاب " قد " التحقيقية ، وبآنيّة الجمع بمعنى أنه لم يكتمل بعد .

٤ - إسناد فعل الجمْع المؤكّد بـ " قد " إلى ضمير الجماعة العائد على اسم إنّ المؤكّدة ، فهو في قوّة تكرار المسند إليه ، حيث قُدّم الفاعل في المعنى [الناس] ثم أعيد ضميره إليه ، فتضاعف التوكيد في الإسناد .

٥ - حذف مفعول [جمعوا] فلم يذكر بل غاب وصار مجهولاً مُنَكراً ، وهذا يضفي على المقالة تأكيداً لها وإرجافاً في الصفوف ، في أوساط السامعين ؛ " فلم يقل : جمعوا جيشاً كبيراً أو جمعوا أنفسهم وعددهم وأحلافهم ، وذلك ليذهب الخيال كلّ مذهب في مقدار ماجمعوا من رجال وسلاح وأموال "[2] .

---

(١) فتكون " أل " هنا للعهد ، وكذلك في لفظة [الناس] الأولى المنصرفة إلى الركب من عبدالقيس . انظر : التفسير الوسيط : ٢/٤٥٤ .

(٢) التفسير الوسيط : ٢/٤٥٤ .

٦ - لام العلّة الداخلة على ضمير المخاطبين [لكم] فهي مفيدة بأنّ ذلك الحشد من أجل استئصالكم أنتم دون غيركم .

٧ - اسميّة الجملة ، فقد افتتح القول بمبتدأ وخبر حفل بالمؤكّدات المتقدمة .

٨ - ومن مكملات التوكيد في المقالة ختمها بالأمر بالخشية من أولئك الذين جمعوا الجموع ؛ فقد نصب أصحاب المقالة أنفسهم ناصحين للمخاطبين من أمر مفزع محقّق الوقوع يستحق الخشية والفزع ، بوصفهم قد علموا ذلك وعاينوه وجاؤوا ناصحين مشفقين ، وهذا من شأنه أن يضفي على قولهم الصدق والموضوعية في زعمهم ، والاضطراب النفسي والخور في جموع المخاطبين .

وبعد تلك المؤكّدات التي عمرت بها مقالة الإرجاف ؛ يرد سؤال عن وقع ذلك القول في نفوس المؤمنين ، هل فتّ في عضدهم أو نال من إيمانهم ؟

إنّ الجواب عن ذلك هو قوله تعالى :﴿ **فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ** ﴾ . وممن تأمّل لطف هذا الجواب وبلاغته أبو حيّان حيث قال : " ولمّا تقدّم من المُثَبّطين إخبار بأنّ قريشاً قد جمعوا لكم ، وأمر منهم لهم بخشيتهم لهذا الجمع الذي جمعوه ترتّب على هذا القول شيئان :

أحدهما : قلبي وهو زيادة الإيمان ، وهو مقابل للأمر بالخشية ؛ فأخبر بحصول طمأنينة في القلب تقابل الخشية ، وأخبر بَعْدُ بما يقابل جمع الناس وهو أنّ كافيهم شرّ الناس هو الله تعالى ، ثم أثنوا عليه تعالى بقوله :﴿ **وَنِعْمَ الْوَكِيلُ** ﴾ فدلّ على أنّ قولهم : حسبنا الله هو من المبالغة في التوكل عليه وربط أمورهم به تعالى ؛ فانظر إلى براعة هذا الكلام وبلاغته ؛ حيث قوبل قول بقول ، ومتعلّق قلب بمتعلّق قلب "(١).

والذي يظهر - والله تعالى أعلم - هو أنّ الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين قد نَزّلوا المرجفين ومن في حكمهم منزلة خالي الذّهن الذي يساق له الخبر فيحصل على فائدته من غير توكيد في إسناده ، بمعنى أنّ إيمانهم بالله تعالى وثقتهم به وبنصره قد استولى على قلوبهم وملك عليهم مشاعرهم ، وصار من ظهور ذلك ووضوحه أنّ الآخرين من كفّار أو مرجفين يدركونه ويلحظونه في عبادات المؤمنين ،

---

(١) البحر المحيط : ١١٨/٣ .

وفي طاعتهم لربّهم ، وفدائهم نبيَّهم بالغالي والنفيس ؛ ولذلك فقد وكَلُوا أمرهم إلى الله تعالى فهو حسبهم ونعم الوكيل ؛ فكلام المؤمنين للمرجفين خرج على خلاف مقتضى الظاهر ، وهو يناسب الحال التي أطلقت فيها تلك المقالة كما ينسجم مع اللحظة التي اتسم بها موقف أهل الإيمان عندما ازداد إيمانهم إيماناً ، فإيمانهم من زيادته وقوّته يدركه كلّ من له أدنى بصيرة بأحوال المؤمنين وبخاصّة وقت الشدائد ، بحيث إن هذا الأمر لايحتاج إلى مؤكِّدٍ يؤكّده ولايفتقر إلى أسلوب يقرّره ، ولهذا خلا كلام أهل الإيمان في ردّهم من صور التوكيد ثقة واطمئنانا . وكان عاقبة تفويض أمرهم إلى الله تعالى أن جازاهم بنعمته وفضله وسلامتهم واتباعهم رضاه ، حيث قال عز وجل يحكي حالهم : ﴿ **فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ** ﴾ ولاشك في أنّ هذا ثمرة الطاعة المنبثقة عن اليقين الراسخ .

وقد اشتملت هذه الآية على عدّة أحوال تبيّن نتائج ذلك الموقف الإيماني العظيم؛ فالباء الداخلة على النعمة المنكّرة التي أفادت التعظيم هذه الباء للمصاحبة والتقدير : فانقلبوا ملتبسين بنعمة ومصاحبين لها [١] . وقد أفادت توكيد ذلك وتقريره . وقوله [من الله] صفة لهذه النعمة وتوكيد لفخامتها ، [وفضل] عطف على تلك النعمة وهو الربح في التجارة[٢] . وجملة [لم يمسسهم سواء] حالية ، أي انقلبوا سالمين من السوء [٣] ، فلم يصبهم أدنى سوء ؛ فالنكرة في [سوء] الواردة في سياق النفي المسلّط على الجملة تفيد نفي أقلّ السوء وأدناه . وجملة [واتبعوا رضوان الله] حاليّة والتقدير : وقد اتبعوا رضوان الله ، أي وحالهم كذلك [٤] . فتأمّل هذه الفضائل العظيمة التي انقلب بها المؤمنون عندما صدقوا الله ورسوله ، وفضل الله عظيم لايُحدّ بحدّ ولايقتصر على قوم بأعيانهم ، بل إن من اتبع رضوان الله وصدق معه حريّ بأن يصيب من فضل الله تعالى ماشاء الله ، ولهذا فقد ختمت هذه الآية

---

(١) انظر : الدر المصون : ٣/٤٩٠ .

(٢) انظر : روح المعاني : ٤/١٢٨-١٢٩.

(٣) انظر : الدر المصون : ٣/٤٩٠ .

(٤) انظر : الدر المصون : ٣/٤٩٠ . ويجوز في الجملة العطف على [فانقلبوا بنعمة ..] . انظر المصدر السابق : ٣/٤٩١ .

بقوله : ﴿ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ تطميعاً للمؤمنين في الخيرات والمسرّات ، وتعريضاً بالكافرين والمنافقين الذين فوّتوا على أنفسهم نصيبهم من الخير بكفرهم ونفاقهم . يقول الألوسي : " وفيما تقدم مع تذييله بهذه الآية المشتملة على الاسم الكريم الجامع وإسناد [ذو فضل] إليه ، ووصف الفضل بالعظم إيذان بأن المتخلفين فوّتوا على أنفسهم أمراً عظيماً لايكتنه كنهه ، وهم أحقاء بأن يتحسّروا عليه تحسّراً ليس بعده "(١).

والتوكيد في النظم القرآني عصب أساس ، يزيد المعاني تقريراً وتثبيتا ، وكثيراً ماكان سبيلاً لرسم قواعد تعامل المؤمنين مع طوائف الناس وفئاتهم ؛ فهم لايستوون في قربهم أو بعدهم من أهل الإيمان أو في عداوتهم ومودتهم لهم ؛ ولهذا فإنّ مجيء ذلك مؤكداً مقرراً يرسّخ صورة كل طائفة ويرسم حقيقة موقفها ، ولاسيما في المواقف المصيريّة كالحياة أو الموت ؛ فيأخذ المؤمنون حذرهم من كلّ فئة ، ويعدّون لكل طائفة مايناسبها .

فإذا أخذنا قضية عداوة الناس ومودتهم للمؤمنين نجد أنّها من القضايا المصيريّة التي حسمها القرآن الكريم ، وكشف القناع عن حقيقتها بأسلوب صريح مؤكّد حيث قال تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾(٢).

والخطاب ابتداء " موجّه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم هو خطاب من بعده لكلّ من هو أهل لأن يخاطب من المؤمنين وغير المؤمنين ؛ فاليهود والنصارى هم فيمن دخل في هذا الخطاب "(٣)؛ فالخطاب لكل أحد يصلح أن يكون مخاطباً والحكمة من تعميم هذا الخطاب وإطلاقه الإشعار بأن حال المذكورين بذلك لاتخفى على أحد من الناس(٤).

---

(١) روح المعاني : ١٢٩/٤.
(٢) المائدة : ٨٢ .
(٣) التفسير القرآني للقرآن : ٣/٧ .
(٤) انظر : روح المعاني : ٢/٧ .

وقد افتتح هذا الخطاب بالقسم المؤكّد لمضمونه ، والذي تنبئ عنه اللام الداخلة على الفعل المضارع ، وهي لام يُتَلَقَّى بها القسم [١] .

والتقدير : قسماً إنّك تجد اليهود والمشركين أشدّ الناس عداوة للمؤمنين [٢] .

ومعنى " تجد " ترى ، وتبصر ، وتتحقق ، وفيها معنى : علم ؛ لأنّها قد نصبت مفعولين : الأوّل " أشدّ " . والثاني : اليهود وماعطف عليه [٣] . وزاد من توكيد الفعل النون المثقّلة ، وهي بمثابة تكرير الفعل ثلاث مرات ، والنون الخفيفة بمثابة تكريره مرتين [٤] .

وكون الحكم بعداوة المذكورين سيق بالفعل المضارع المفيد للحال والاستقبال ، وكونه - أيضاً - غير معلّق بشرط ، بحيث لايقع الجواب إلاّ إذا وقع الشرط .. كلّ ذلك يزيد في توكيد الجملة ، ويقرر حكمها في ذهن المخاطب ، ذلك أنّه إذا شك في عداوة المذكورين في وقت من الأوقات ، فإن الزمن اللاحق سيزيل ذلك الشك ويرفعه بما يطلعه عليه من حقائق الوقائع ، وحبائل المكر التي يفتلها المذكورون وبخاصة الصنف الأوّل منهم وهم اليهود .

والمقصود بـ " الناس " هم الكفار [٥] ، وإضافة " أفعل " التفضيل إلى الكفار دليل على تناهي عداوة المذكورين للمؤمنين في صور متعدّدة . وإيراد المؤمنين بصيغة الموصول أريد به العموم ، كما أريد به الاعتناء بما جاء في حيّز الصلة وهو الإيمان ، وفيه إشعار بأنّه مناط العداوة ومقصدها . وفي ذلك تنبيه للمؤمنين بأنّهم مستهدفون من تينك الطائفتين على وجه الخصوص ؛ فعليهم أخذ الحيطة والحذر منهما ، فقد كُشف أمرهما .

ولكن ماسرّ تقديم اليهود على المشركين ، وترك اسم الموصول في حقّهم مع قرنهم بالمشركين بعاطف واحد وهو الواو المؤذن بالتسوية ؟ .

أما جعل اليهود أوّل الطائفتين ذكراً في جانب العداوة للمؤمنين فلتمكّن تلك العداوة فيهم ولتقدّمهم فيها على غيرهم حسداً من عند أنفسهم حيث كانت رسالة الإسلام في غيرهم ، وهذا يؤذن بأنّهم قادوا حملة تلك العداوة وأجّجوها ، فهم القادة

---

(١) انظر : الدر المصون : ٣٨٧/٤ .
(٢) انظر : التفسير الكبير : ٦٦/١٢ .
(٣) انظر : التفسير القرآني : ٤/٧ ، والدر المصون : ٩/٢-١٠ .
(٤) انظر : البرهان : ٥١٦/٢ .
(٥) انظر : البحر المحيط : ٤/٤ . و [عداوة] منصوب على التمييز . انظر : الدر المصون : ٣٨٧/٤ .

وغيرهـم تبع ولهذا قُدّموا هنا ، كما قُدّموا في الحرص المذموم هناك في قوله تعالى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (١).

يقول عبدالكريم الخطيب : " ونكاد نقف عند قوله تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ ﴾ .. أما [الذين أشركوا] فهم من صنع اليهود ؛ إذ هم الذين أفسدوا على كثير من المؤمنين دينهم ، وساقوهم إلى الشرك ، كما أنهم – وقد سبقوا إلى الإيمان بالله بما أرسل الله إليهم من رسل ، وما أنزل عليهم من كتب – لم يفتحوا للمشركين طريقاً إلى الإيمان بالله ، ولم يدعوهم إليه ، بل ضنوا بما في أيديهم ، وحجبوه عن كل عين .. بل وأكثر من هذا ؛ فإنّهم زيّنوا الشرك للمشركين ، ويسّروا لهم سبله بما أذاعوا في المجتمعات الإنسانية من مفاسد وشرور "(٢).

ويستعرض صاحب " الظلال " صوراً من عداوة اليهود للمؤمنين ، والتي بها كانوا الأشد عداوة للإسلام وأهله فيقول : " إن الذي ألّب الأحزاب على الدولة المسلمة الناشئة في المدينة وجمع بين اليهود من بني قريظة وغيرهم ، وبين قريش في مكة ، وبين القبائل الأخرى في الجزيرة .. يهودي . والذي ألّب العوام وجمع الشّراذم وأطلق الشائعات في فتنة مقتل عثمان – رضي الله عنه – وماتلاها من النكبات .. يهودي . والذي قاد حملة الوضع والكذب في أحاديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وفي الروايات والسّيَر .. يهودي . ثم إنّ الذي كان وراء إثارة النعرات القوميّة في دولة الخلافة الأخيرة ، ووراء الانقلابات التي ابتدأت بعزل الشريعة عن الحكم واستبدال " الدستور " بها في عهد السلطان عبدالحميد ، ثم انتهت بإلغاء الخلافة جملة على يدي " البطل " أتاتورك .. يهودي . وسائر ماتلا ذلك من الحرب المعلنة على طلائع البعث الإسلامي في كل مكان على وجه الأرض وراءه يهود ، ثم لقد كان وراء النزعة المادية الإلحادية يهودي ووراء النزعة الحيوانية الجنسية يهودي .. ووراء معظم النظريات الهدامة لكل المقدسات والضوابط يهود "(٣).

---

(١) البقرة : ٩٦ .
(٢) التفسير القرآني للقرآن : ٦/٧ .
(٣) في ظلال القرآن : ٩٦١/٢ .

وأما تجريد اليهود من اسم الموصول والإخبار عن عداوتهم باسمهم مباشرة فإنّ ذلك يحقق غايتين :

أولهما : الإيجاز بسرعة إيقاع أوّل الخبرين في ذهن السامع بعدما تشوّق إلى ذلك بفعل المؤكدّات الداخلة على الفعل .

وثانيهما : الإشعار بتمكّن اليهود في العداوة وصلابتهم فيها ، بحيث إنّها استغرقتهم أجمعين ، وهذا ماتنبئ عنه " ال " ؛ فهي لاستغراق جنس اليهود قديماً وحديثاً ، وليست العداوة مقصورة على فئة معينة منهم ولافي زمن محدّد[١] .

ومن شواهد تمكّن العداوة فيهم وصدود أنفسهم عن الحق وصلابتهم في الكفر أنْ قلّ إسلام اليهود[٢] ، بخلاف غيرهم من الطوائف فقد دان كثير منهم وأسلم .

وأمّا التعبير بـ [الذين أشركوا] دون المشركين - مع أنه أخصر - فللمبالغة في الذّم [٣] ، كما أن في ذلك تنفيراً مما انطوى في حيّز الصلة ، وقد يراد به العموم في حق سائر المشركين الذين تعددت طوائفهم ومللهم .

وتلاحظ دقة التعبير القرآني في جانب النصارى ، حيث سلك معهم مسلك اسم الموصول، وجعل المراد بهم من اندرج في حيّز الصلة ممن قالوا إنّا نصارى ، لاكلّ من انتسب إلى النصرانية ، لظهور عداوتهم للمسلمين[٤] . ولهذا لم يكن التعبير : ولتجدن أقربهم مودة النصارى ، بل أضرب عن ذلك صفحاً، لينفي الجهلة والمثلّثين وسائر الضالين ممن ينتسب إلى النصرانية وإن كان هؤلاء في جملتهم أقرب مودة إلى المؤمنين من اليهود والمشركين . وتبقى فئة واحدة هي أقرب طوائف النصارى مودة إلى المؤمنين ، أولئك هم الحواريُّون الذين عناهم الله تعالى وأثنى عليهم خيراً بقوله : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾**[٥] .

---

(١) ممن ذهب إلى التعميم في شأن اليهود أبو حيّان . انظر البحر المحيط : ٤/٤ .

(٢) انظر : البحر المحيط : ٤/٤ .

(٣) انظر : روح المعاني : ٢/٧ .

(٤) انظر : التفسير الكبير : ٦٦/١٢ .

(٥) الصف : ١٤ .

ويدخل في هؤلاء ملك الحبشة وطائفة من قومه ؛ فقد سمعوا الحق ، وفاضت عيونهم بالدمع ، وأسلموا ، ولهذا فقد صلى النبي عليه الصلاة والسلام على النجاشي، ودعا له [١].

والتعبير عنهم بـ [الذين قالوا إنّا نصارى] " إشارة إلى أنهم ليسوا متمسكين بحقيقة النصرانية ، بل ذلك قول منهم وزعم "[٢].

وتعليل قرب مودّة النصارى للمؤمنين ظاهر مؤكّد في قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ . فالباء سببية دخلت لبيان سبب قرب تلك المودّة وتأكيد العلّة ، فضلاً على [أنَّ] التي أكدت وجود أولئك القسس والرهبان فيهم ، مما يجعلهم ألين عريكة وأقرب ودّاً . ولاسيما أن المذكورين قادتهم ورؤوسهم .

والقسيسون : جمع قِسّ وقِسّيس ، وهو : "العالم العابد من رؤوس النصارى .. وأصل : القَسّ : تتبع الشيء وطلبه بالليل . يقال : تقسست أصواتهم بالليل . أي تتبعتها "[٣].

وأما الرهبان : فأصله من الرَّهبة . والرُّهب : مخافة مع تحرّز واضطراب . والترهُّب : التعبد . وهو استعمال الرهبة . والرهبانيّة : غلو في تحمّل التعبد من فرط الرّهبة . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ﴾[٤] . والرُّهبان : يكون واحداً وجمعاً ، فمن جعله واحداً جمعه على رهابين ورهابنة بالجمع أليق . وسمي الرهبان بذلك لأنهم كانوا يترهبون بالتخلي من أشغال الدنيا وترك ملاذّها والزهد فيها والعزلة عن أهلها[٥].

ومن كان كذلك فإنّه معرض عن الدنيا مقبل على العبادة ، فيكون ليّن العريكة سهل الانقياد ، وهذا هو الفرق بين اليهود والنصارى على وجه الإجمال[٦].

---

(١) انظر : البحر المحيط : ٤/٥ . وروح المعاني : ٤/٧ . ولسيدٌ قطب في الظلال كلامٌ حسنٌ فيه زيادة تفصيل وبيان ، انظر : في ظلال القرآن : ٢/٩٦٢-٩٦٧ .
(٢) البحر المحيط : ٤/٤ .
(٣) المفردات في غريب القرآن : ٤٠٣ .
(٤) الحديد : ٢٧ .
(٥) انظر : المفردات : ٢٠٤ ، وروح المعاني : ٣/٧ .
(٦) انظر : التفسير الكبير : ٦٦/١٢ .

وإذا اجتمع في قوم علم وزهادة مع فضل عبادة فإنّ ذلك يلطّف القلب ويرققه ويزيل عنه الجفاء والغلظة ، ولذلك لم يكن في أولئك غلظة اليهود ولاشدّة النصارى ، والغالب أنّ من هذا شأنه لايكون مستكبراً ولاعاتياً ، ولهذا كان من صفاتهم قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[(١)].

ويلاحظ أن التعبير القرآني لم يصف النصارى بالود للمؤمنين وإنما جعلهم أقرب مودة لهم وذلك في مجال الموازنة مع عداوة اليهود والمشركين ، وهذا يدل على أن فيهم أعداء للمسلمين ، وبخاصة بعد تحريف التوراة وتغيير نصوصها ، ولذلك فقد ناصب قوم من النصارى المسلمين العداء وجيّشوا الجيوش لهم ووقعت معارك فاصلة وجرت دماء غزيرة ، تقوم شاهدة عليها الحروب الصليبية في بلاد الشام في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، وكذلك مافُعل بالمسلمين على يد النصارى في بلاد الأندلس السليبة ، ومايزال اليهود والنصارى يعملون سراً وجهراً حتى يصدّوا المسلمين عن دينهم إن استطاعوا [(٢)]، وأنّى لهم التناوش من مكان بعيد ، فقد تعهّد الله بإظهار دينه وإعلاء كلمته ولو كره الكافرون كما قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾[(٣)] ، فالمرسِل هو الله تعالى ، والمرسَل هو محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام ، والهدى الذي دعا إليه هو الإسلام وهو دين الحق الذي لاحقّ سواه ، والغاية من هذه الرسالة هي ظهور الإسلام على سائر الأديان ، والمتعهّد بذلك هو الله تعالى فهو الذي يمكّن لهذا الدين ويظهره ، وكره الكارهين حاصل واقع من اليهود أو النصارى أو الشيوعيين أو

---

(١) انظر : تفسير كلام المنان : ٢/٣٣٢-٣٣٣ . ومما جاء في تتمة نعوتهم قوله تعالى : ﴿ **وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحقّ يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ومالنا لانؤمن بالله وماجاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربّنا مع القوم الصالحين فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين** ﴾ المائدة : ٨٣-٨٥ .

(٢) قال تعالى : ﴿ **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى** .. ﴾ الآية . البقرة : ١٢٠.

(٣) التوبة : ٣٣ ، الصف : ٩ ، وفي سورة الفتح جاء قوله تعالى : ﴿ **هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلّه وكفى بالله شهيدا** ﴾ . الفتح : ٢٨ . فجعل الله - عز وجل - نفسه شاهداً على إظهار دينه وإعلائه على سائر الأديان . انظر : كتاب التسهيل لعلوم التنزيل : ٤/٥٦ .

البوذيين أو سائر فرق الكفر والضلال ، وكلّ أولئك لايردّون قدر الله ولايؤخّرونه ، بل إنّ أمر الله ماض ماض ، علِمه من علمه وجهله من جهله ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون .

إن مما يثير العجب والدهشة في النظم القرآني هو أنّ غرض النظم في آية يكون قطب الرحى فيها ، بحيث إن سائر مكوّنات النظم من كلمات وحروف تتساوق نحو ذلك الغرض وتتّجه إلى إبرازه وتقريره وتعمل على إخراجه في أجمل صورة وأقوى تعبير .

فإذا كان غرض النظم الترغيب في شيء والحث عليه فإنك تجد أمارات ذلك ظاهرة في النّص الذي بين عينيك ، فما عليك إلاّ أن تنعم نظرك ، وتمعن فكرك في أدوات التعبير اللغوية التي تتكوّن منها الآية الكريمة حتى تقع على حاجتك وتظفر بمرادك .

وإليك شاهداً على ذلك ، وليكن آية " الشراء " في سورة " التوبة " التي رغّبت في الجهاد ، وبعثت النفوس إليه بما لامزيد عليه ، فقد قال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾[١] .

لقد كان لهذه الآية الكريمة سبب نزلت فيه وقد حكت الآية بعض أحواله ، فكان سببها خاصاً بذلك الموقف ، ولكن لفظها وفضلها عامٌ في كل من صدقت عليه صفاتها إلى قيام الساعة . فقد ذكر القرطبي : أن هذه الآية نزلت في الأنصار ، وذلك في البيعة الثانية ، وهي بيعة العقبة الكبرى ، حين قال عبدالله بن رواحة – في جمع من الأنصار[٢]– للنبي صلى الله عليه وسلم : اشترط لربّك ولنفسك ماشئت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " اشترط لربي أن تعبدوه ولاتشركوا به شيئاً ، واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم " . قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : " الجنة " قالوا : ربح البيع ، لانقيل ولانستقيل ؛ فنزلت الآية . قال القرطبي:

---

(١) التوبة : ١١١.

(٢) ينوف عددهم على السبعين . انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٢٦٧/٨ .

" ثم هي بعد ذلك عامّة في كل مجاهد في سبيل الله من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة "(١).

والآية الكريمة أنموذج قرآني رائع تضافرت فيه جميع حروفها وألفاظها في سبيل إبراز الغرض من نظمها ، فالغرض من سياق الآية هو ترغيب كل مؤمن في الجهاد والحث عليه وتقرير فضله في النفوس وبيان كيفيته في الدنيا ، وإظهار عظيم فضله في الآخرة .

وأما الوسائل التي قادت إلى هذا الغرض وأفضت إليه فهي مادة التعبير اللّغوي التي استخدمت في الآية الكريمة ابتداء بالحروف وانتهاء بالجمل ، فعناصر التعبير في جملتها تؤكّد ذلك الغرض وتقرره ، حتى صار مالم يكن توكيداً منها في الأصل توكيداً، وذلك عندما اندرج في سلك النظم الذي غرضه في الآية هو التوكيد والتقرير. وإليك التحليل والبيان :-

١ - حرف التوكيد المثقّل [إنّ] الذي افتتحت به الآية ، مما زاد من قوّة الإسناد في الجملة ، وجعله في منزلة تكرير المسند إليه والمسند مرّتين ، وهما لفظ الجلالة ، وفعل الشراء ، وهذا الأسلوب من شأنه أن يثبّت الحكم في نفس خالي الذهن ، كما من شأنه أن يرفع الشكّ عن المرتاب بما سيق له من مؤكّدات الحكم التي تعالج الرّيَب وتقضي على التّردّد .

ومن المفسّرين المعاصرين من التمس تعليلاً لافتتاح الآية بحرف التوكيد ، فقد قال ابن عاشور : " وافتتحت الجملة بحرف التوكيد للاهتمام بالخبر ، المتضمّنة على أنّه لمّا كان فاتحة التحريض على الجهاد بصيغة الاستفهام الإنكاري وتمثيلهم بحال من يُستنهَض لعمل فيثّاقل إلى الأرض في قوله تعالى : ﴿ مَالَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ .. ﴾(٢) ناسب أن ينزّل المؤمنون منزلة المتردّد الطالب في كون جزاء الجهاد استحقاق الجنّة "(٣).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٨/٢٦٧ . وانظر : أسباب النزول للواحدي : ١٨١ - ١٨٢ .
(٢) التوبة : ٣٨ .
(٣) التحرير والتنوير : ١١/٣٧ .

ولو أنّ ابن عاشور اقتصر على ذكر الاهتمام بالخبر واكتفى به غرضاً من أغراض افتتاح الآية بالتوكيد لكان أوفق ؛ ذلك أنّ استطراده في التعليل ، وترتيبه تنزيل المؤمنين منزلة المتردّد وجعل ذلك كلّه بعد آية " التثاقل " ذهول منه - عفا الله عنه - ؛ فإنّ تاريخ نزول الآية التي أوردها ورتّب عليها حكمه البلاغي كان في السنة التاسعة من الهجرة كما نصّ على ذلك القرطبي نافياً خلافه ؛ حيث قال : " ولاخلاف أنّ هذه الآية نزلت عتاباً على تخلُّف من تخلّف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ، وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام "[1].

وأما نزول الآية التي نحن في ضوئها فهو متقدّم فقد كان في بيعة العقبة الكبرى وهي البيعة الثانية ، وذلك قبل الهجرة[2] ، فكيف يُستَنبط حكم بلاغي من نصّ قرآني متأخّر النزول لنصّ آخر متقدّم عليه في النزول عدّة أعوام ؟ ! .

ثم كيف يُحكم على المؤمنين كلّهم بأنّهم نُزّلوا منزلة المتردّد ؟ !.

والذي يردّ هذا الحكمَ أمران ظاهران : -

أولهما : - أنّ آية " التّثاقُل " قد نزلت في المُخَلَّفين عتاباً وتقريعاً ، ولوماً وإيلاما . وهي بعد آية " الشراء " في النزول بأعوام وإن كانت قبلها في ترتيب آي السورة . ثم إنّها في قوم تخلّفوا أصلاً ، ولم يخرجوا وهم متردّدون[3].

وثانيهما : - أن آية " الشراء " قد نزلت في قومٍ لم يتردّدوا ولاوقع منهم التردّد ، وهم الأنصار : عبدالله بن رواحة وصحبه ، بل إنّها قد تضمّنت - فيما تضمّنت - صريح البيع الذي سمّاه الأنصار بيعاً واستثمنوه عندما قالوا :" ربح البيع لانقيل ولانستقيل " فبارك الله ذلك البيع وأقرّه وأمرهم بأن يستبشروا به

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٨/١٤٠ .

(٢) انظر : ص ١٨٢ .

(٣) وهم المنافقون الذين فرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكذا المعذّرون من الأعراب ، وأما من آمن من الضعفاء والمرضى والذين لايجدون ماينفقون فقد رفع عنهم الحرج وعن الذين لم يجدوا لهم موطئ قدم في ركب الجهاد فرجعوا وأعينهم تفيض من الدمع لهفة على الجهاد وحزناً على فراقه ، وهذا من صريح الإيمان . اقرأ آيات التوبة : ٨١-٩٦ . ففيها تفصيل ماذكر ، وفضح لأحوال أولئك الأقوام ، وكشف عن دخائل نفوسهم المريضة ، كما فيها رفق بالمؤمنين المعذورين ، ورفع الحرج عنهم . وانظر : ٥٦١ - ٥٧٠ .

فقال الله في حقّهم وفي حقّ كُلّ من استنّ بهديهم : ﴿ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ .. ﴾ وإذا كان ثَمَّ تردّد فهو في غيرهم حينما كثر أهل الإسلام وانداحت دولته ، ولهذا فإن المقام يقتضي من ابن عاشور أن يسلك سبيل التبعيض لاسبيل التعميم ؛ فلا ينزّل جميع المؤمنين منزلة المتردّد في قبول الخبر، إذ لامسوّغ لذلك ، فالتعبير الأدق أن يُقَال : " ناسب أن ينزّل بعض المؤمنين منزلة المتردّد .. » حتى تُسْتَصْحَبَ الحال التي سيكون عليها شأن بعضهم في الأزمان المتعاقبة ، وفي الوقت نفسه تسلم حال المستيقنين من المؤمنين ، فيبقون على مقتضى الظاهر من إيمانهم وهو اليقين ، والاستبشار بالفوز العظيم .

٢ - ومن مؤكّدات الحكم في فاتحة الآية : اسميّة الجملة ؛ فقد افتتحت بلفظ الجلالة ؛ حيث أخبر الله تعالى عن نفسه ، وأكّد خبره بإسناد فعل الشراء إليه ، وهو مطلب عظيم من مطالب المؤمنين ترنو إليه قلوبهم وتصبو إليه أفئدتهم ؛ فإذا وقع ذلك من الله تعالى وتكلّم به هو ، فهو خبر مؤكدٌ من الذي لايأتي كلامَه باطل لامن بين يديه ولامن خلفه ، وإذا اشتمل ذلك الكلام العظيم على التوكيد وتصدّر به فقد وقع موقعه وأصاب غرضه واستبشرت به نفوس المتقين .

٣ - وقوع المسند جملة فعليّة فعلها ماض دليل على أنّ فعل الشراء قد وقع في الزمن الماضي ، وفرغ منه ، وليس فيه مجال لاحتمال وقوعه أو عدم وقوعه ، لأنّ فعل المضي يدل على حصول ذلك الأمر واستقراره ، وكونه قد فُعل منذ زمن ، ويدل على قِدَمه الزمني قوله تعالى : ﴿ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ .. ﴾ كما سيأتي بيانه لاحقا . فأفاد التعبير بالماضي أن البيع قد تمّ وأبرم منذ زمن بين الله عزّ وجل وبين المؤمنين ، ولم يبق على البائع إلاّ تسليم السلعة وهي النفس والمال في ميدان الجهاد حتى يقبض الثمن ويتبوّأه وذلك هو الجنة .

ولكن ماسرّ التعبير القرآني بمادة فعل الشراء دون غيره من الأفعال ؟

وماعلاقة البيع والشراء بالنفوس البشرية حتى تُسْتَنزل من خلاله ؟

ممن اهتدى إلى جواب عن ذلك " القاسمي " حيث قال : " لمّا هَدَى الله المؤمنين إلى الإيمان ، والأنفس مفتونة بمحبّة الأموال والأنفس ، استنزلهم -

لفرط عنايته بهم - عن مقام محبّة الأموال والأنفس ، بالتجارة المربحة ، والمعاملة المرغوبة ، بأن جعل الجنة ثمن أموالهم وأنفسهم ؛ فَعَوَّض لهم خيراً مما أخذ منهم "[(١)] . ويقول أبو السّعود : " ولقد بولغ في ذلك - أي في الترغيب في الجهاد - على وجه لامزيد عليه ؛ حيث عبّر عن قبول الله تعالى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم التي بذلوها في سبيله تعالى وإثباته إيّاهم بمقابلتها الجنة بالشّراء على طريقة الاستعارة التبعيّة ، ثم جعل المبيع الذي هو العمدة والمقصد في العقد أنفس المؤمنين وأموالهم ، والثمن الذي هو الوسيلة في الصفقة الجنة ، ولم يجعل الأمر على العكس بأن يقال : إن الله باع الجنة من المؤمنين بأنفسهم وأموالهم ليدلّ على أن المقصد في العقد هو الجنة ، ومابذله المؤمنون في مقابلتها من الأنفس والأموال وسيلة إليها إيذاناً بتعلّق كمال العناية بهم وبأموالهم "[(٢)] .

ويقول أبو حيان : " وفي لفظة [اشترى] لطيفة وهي : رغبة المشتري فيما اشتراه واغتباطه به ، ولم يأت التركيب : أن المؤمنين باعوا . . "[(٣)] .

ومن الدلائل على تمكّن البيع والشراء في النفوس ، وتعلّقها بملابساته من التجارة والربح أنّ الله تعالى قد أطلق لفظ " التجارة " على العمل الصالح ، المتمثّل في الإيمان والجهاد في سورة " الصّف " فقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾[(٤)] فيلاحظ في هذا النصّ القرآني الكريم : -

أنّه قد افتتح بنداء الإشفاق والرحمة وخُصّ به المتصفون بما جاء في حيّز الصّلة وهم المؤمنون وحدهم وليس الناس كلّهم ، وهذا حافز من حوافز الاستجابة والعمل بما جاء في مضمون النداء ؛ لأنّ من خُص بشيء دون غيره

---

(١) تفسير القاسمي : ٣٢٧٢ .

(٢) تفسير أبي السعود : ١٠٥/٤ .

(٣) البحر المحيط : ١٠٢/٥ .

(٤) الصف : ١٠ ، ١١ .

زاده ذلك حباً له وتعلّقاً به ، ومن ثمّ عمل بما يميّزه عن غيره ٠ ثم مجيء الاستفهام عقب النداء مباشرة بصيغة العرض المجازي ، الذي يحمل في طيّاته خيراً كثيراً ، يستوحى ذلك من عبارة [أدلّكم] فهي ترشد إلى الخير بالدلالة على سبيله وموضع حيازته ، فهو كنز ثمين ضلّ عنه الناس ، ولم يجدوا من يرشدهم إليه ، وقد انتهى فعل الدلالة فأفضى إلى صريح " تجارة " منكّرة ، تجعلها ذات شأن جليل عظيم في سياق الإرشاد إلى كنوز الخير والفضل العظيم[1] ٠ فاستعيرت التجارة للعمل الصالح لما بينهما من الكد والكدح والثمرة المربحة في خاتمة الأمر ٠

ولمكان التجارة وأسبابها من النفوس فقد اختير لفظها هنا في سورة " الصف "، كما اختير فعلها المفضي إلى المرابحة والفوز العظيم في سورة " براءة " فقيل هنا [تجارة] ، وقيل هناك [اشترى] ومعلوم أن التجارة هي ثمرة البيع والشراء ، وأنّه لايكون بيع ولاشراء إلاّ بالأخذ والعطاء ، بتسليم السلعة تامّة غير معيبة ولامنقوصة ، ثم يكون ثمنها والمكافأة عليها وفيراً كثيرا ٠

وحتى لاتذهب النفوس في هذه " التجارة " مذهباً مادياً فقد جرّدت الاستعارة ، فجعل قوله تعالى : ﴿ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ من خصائص وصفات المشبَّه وهو العمل الصالح[2]، تنويهاً بشأن الوصف المذكور ، وأنّه هو الأجدر بأن يُعتَنى به ويرابح في سبيله ، وليس الربح المادي قريناً له ولاقريباً منه ولامستقلاً عنه ، بل إن الربح المادي ينبغي أن يكون سبيلاً إلى الظفر بالفوز الأخروي ، ولهذا كشفت الآية اللاحقة عن ذلك وبيّنته بعدما اشتاقت النفوس إلى البيان متسائلة : ماسبيل ذلك ؟ وكيف نصل إليه ؟ فكان الجواب قوله تعالى : ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ[3] وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ٠ والبيان جاء بقَرْن الجهاد مع الإيمان بعاطف، وهذا إعلان صريح بضرورة تلازم الأمرين معاً وعدم انفكاك

---

(١) وقد يكون تنكير [تجارة] مراداً به النوعية ؛ أي نوع متميز من أنواع التجارة جدير بأن يُعتنى به ٠

(٢) ممن نصّ على تجريد الاستعارة ابن عاشور : انظر : التحرير والتنوير : ١٩٤/٢٨٠

(٣) وقد يكون الفصل لكمال الانقطاع لأن [تؤمنون] بمعنى آمنوا ؛ فهو خبر لفظاً ٠ إنشاء معنى ٠

أحدهما عن الآخر ، وأن تأخّر أحدهما عن الآخر دليل على خلل في الطاعة ونقص في الاستجابة ، فإيمان بلا جهاد إرجاء ونقص ظاهر في إيمان صاحبه مالم يكن معذورا ، وجهاد بلا إيمان رياء وكسب للثناء من الناس في الدنيا، وليس لصاحبه في الآخرة من خلاق ، كما يشرح ذلك ويوضحه حديث أبي موسى الأشعري ؛ حيث قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل : يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله "٠ وهو في الصحيحين [١]٠

والإيمان والجهاد – المطلوبان – جيء بهما على لفظ الخبر في معنى الأمر – بمعنى آمنوا وجاهدوا – والغرض من ذلك : الإيذان بوجوب الامتثال وسرعة التلبّس به وفعله ؛ وكأنّه امتُثل [٢] ؛ فهو يخبر عن إيمان وجهاد موجودين مجتمعين فيهم[٣] ؛ تنويهاً بشأن الإيمان والجهاد وشدّة تلازمهما ٠

وقد أفاد التعبير بصيغة المضارع في حق الإيمان ، الإشعار بضرورة تجديد الإيمان في كل وقت بعمل الصالحات ، وفي ذلك تعريض بالمنافقين وتحذير من الغفلة عن الطاعات ، وأفاد التعبير بالمضارع في حق الجهاد أنّ الجهاد ليس وقتاً ثم ينتهي بل هو ماض إلى قيام الساعة ؛ فليهيئوا أنفسهم لذلك ؛ فإذا استُنفروا فعليهم بالنفير[٤]٠

وبذلك يتبيّن مدى الارتباط بين آية " التوبة " وآية " الصف "؛ فموضوعهما ينتهي إلى أنّ الجهاد في سبيل الله هو التجارة الرابحة في ميزان الآخرة ، والفرق بينهما هو أن آية " التوبة " بدأت بذكر العقد وحدّدت أطرافه وغاياته وصكوكه ، وكأن تقدّم نزولها على آيات " الصف " يجعل موضوعها هو ذلك[٥] ،

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما ٠ انظر تخريج الحديث بطرقه في كتاب الجهاد لابن أبي عاصم ٢/٥٨٨ – ٥٩٠ ٠

(٢) انظر : الكشاف : ٦/١١٠ ٠

(٣) انظر : التحرير والتنوير : ٢٨ / ١٩٤ ٠

(٤) انظر : التحرير والتنوير : ٢٨ / ١٩٤ ٠

(٥) فقد نزلت الآية المشار إليها في الأنصار في بيعة العقبة الثانية قبل الهجرة ٠ وأما سورة الصف فهي مدنية في قول الجميع ؛ كما ذكر ذلك الماوردي؛ انظر : النكت والعيون : ٥/٥٢٧ ، وفتح القدير :٥/٢١٨٠

وأمّا ماجاء في " الصف " فقد كان ذكراً لنتيجة البيع وهي التجارة العظيمة ، وتفصيلاً لمكاسبها ، وتَعداداً لصورها ، نقرأ ذلك في قوله تعالى: ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[١]، وكأنّ تأخّر نزولها عن آية " التوبة "[٢] يجعلها تفصّل أرباح ذلك البيع ، وتعرض صور ثماره ٠ وبذلك يظهر التكامل بينهما ٠

وعود على تحليل بدائع النظم في آية " التوبة " لاستجلاء صور التوكيد فيها ، ومنها :

٤ - أن فعل [اشترى] وهو المسند قد تضمّن ضميراً مستتراً يعود إلى المسند إليه المتقدم ، وهو لفظ الجلالة [الله] فكان بمثابة تكرار المسند إليه مرة أخرى ، وهذا يزيد في قوّة الإسناد بخلاف مالو اكتفي بأحدهما ٠

٥ - النصّ على أنّ الطَّرف المُتَعاقَد معه هم المؤمنون بصفتهم وجنسهم ، وهذا شرف لهم وإعلاء من شأنّهم ، وبذلك يُنْفَى المرجفون والمنافقون ، وكل من تمسّح بالإسلام أو زعمه ، فدائرة الإسلام واسعة ، وأما دائرة الإيمان فضيّقة لايدخل في نطاقها إلاّ من عقد قلبه على الإيمان ، وانطلقت جوارحه بالأعمال المشروعة[٣] ، ولذلك لمّا ادعت طائفة من الأعراب الإيمان نفى الله عزّ وجل عنهم ذلك الادعاء ، لعلمه - تعالى - بأنّ الإيمان لم يستقر في قلوبهم ، وإنّما هم - حتى ذلك الحين - في دائرة الإسلام ولم يخلصوا منه إلى الإيمان ، الذي ذكرت

---

(١) الصف : ١٢، ١٣ ٠

(٢) والذي روى حديث نزولها هو عبدالله بن سلام رضي الله عنه - الذي أسلم أول قدوم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة مهاجرا ٠ انظر حديث عبدالله بن سلام مسلسلاً ومخرجا في كتاب الجهاد لابن أبي عاصم: ١/٣٩٧-٤٠٦ وإسناده صحيح ٠ وانظر : الإصابة : ٢/٣٢٠٠.

(٣) لشيخ الإسلام ابن تيمية كلام دقيق نفيس في مسائل الإيمان والإسلام : تحديداً وتفريقاً ، وذلك في : مجموع الفتاوى : كتاب الإيمان ٠

صفاته وحدّدت أمارات أصحابه ، فقال تعالى : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾(١).

والذي يخصّص آية " التوبة " ويجعل فعل الشراء مقصوراً على المؤمنين وحدهم دون سائر المسلمين هما آيتا " الحجرات " و " الصفّ " : ففي آية " الحجرات " وقع قصر الإيمان على المؤمنين بالله ورسوله – صدقاً لاريب فيه – وجعل الجهاد بالأموال والأنفس من السّمات العملية المؤذنة بصدق ذلك الإيمان في قلوب المتّصفين به ٠ ولم يجعله عاماً في المسلمين ٠ وأمّا آية الصفّ فقد نطقت بصريح لفظ الإيمان بالله ورسوله وقرنت معه الجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ٠٠٠ ﴾ وبذلك يكون عقد الشراء مقصوراً على المؤمنين مزية لهم وفضلا ٠

٦ – ذكر المتعاقَد عليه الذي تمّ شراؤه ، وهو الأنفس والأموال بلفظ : [أنفسهم وأموالهم] وفيه مسائل : –

الأولى : ماسرّ تقديم الأنفس على الأموال في آية التوبة هذه ؟ في حين قُدّمت الأموال على الأنفس في غير هذه الآية ؛ كما في " الحجرات ، والصف " المتقدمتين آنفا ٠

لقد ساق أبو حيّان جواباً عن ذلك مختصراً فقال : " وقَدَّم الأنفس على الأموال ابتداء بالأشرف ، وبما لاعوض له إذا فُقد "(٢).

---

(١) الحجرات : ١٤ ، ١٥ ٠ يقول السهيلي : " نزلت في بني أسد بن خزيمة ، وهي قبيلة كانت تجاور المدينة ، أظهروا الإسلام ، وكانوا إنما يحبون المغانم وعرض الدنيا فأكذبهم الله في قولهم آمنا ، وصدقهم لو قالوا أسلمنا ٠ وهذا يدل على أن الإيمان هو التصديق بالقلب ، والإسلام هو الانقياد بالنطق بالشهادتين والعمل بالجوارح ؛ فالإسلام والإيمان في هذا الموضع متباينان في المعنى ، وقد يكونان متفقين ، وقد يكون الإسلام أعم من الإيمان ، فيدخل فيه الإيمان حسبما ورد في مواضع أخر " ٠ التسهيل : ٦١/٤ ٠

(٢) البحر المحيط : ١٠٢/٥ ٠

أمّا عبدالكريم الخطيب فقد قال : " إنّ بعض السّر في هذا هو أنّ الله سبحانه وتعالى هو الذي يطلب الأنفس والأموال في هذا المقام ، على حين أنه في جميع المواضع التي ذكرت فيها الأنفس والأموال في القرآن الكريم - كانت مبذولة من المسلمين ، أو مطلوباً منهم بذلها ٠٠ ولاختلاف المقام اختلف النظم ؛ ففي شراء الله سبحانه وتعالى مايشتري من المؤمنين يقدم الأنفس على الأموال؛ لأنها عند الله أكرم وأعزّ من المال ، على حين أن المال عند الناس أعزّ من الأنفس ؛ إذ يتقاتلون من أجله ، مخاطرين بأنفسهم ، ويقتلون أنفسهم في سبيله ، وفي اختلاف النظم هنا إلفات للناس إلى ماذُهلوا عنه من أمر أنفسهم؛ إذ استرخصوها إلى جانب المال على حين أنها شيء كريم عزيز عند الله "[1].

ويمكن أن يضمّ إلى ماتقدم لطيفة أخرى من لطائف تقديم الأنفس على الأموال وذلك أن القتال قد ذكر صريحاً هنا بلفظه ومادته وكرّر ثلاث مرات فقيل : ﴿ **يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُون** ٠٠﴾ فالحاكم في القتال والفاعل في ميدانه هو الأنفس ؛ فإذا أعدّت بالتدريب ، وشحنت بالإيمان فعلت العجائب ، وما الأموال إلا وسائل يشترى بها مايجعل الأنفس تحسم مادة الشّر وترفع راية الخير ، ولهذا قُدّمت هنا ٠ وأمّا تأخيرها في غير هذه الآية فلتفاوت النظم ؛ فقد طلب من المؤمنين أن يجاهدوا ، ومعلوم أن الجهاد عام والقتال أخص منه ، ولايمكن أن ينهض قتال أو تقوم مظاهره قبل أن تُهيّأ أسبابه ، وتبذل الأموال في إعداد العُدّة له وجلب ذخيرته ومعدّاته ، وهذا الباب ومافي معناه المال أدخل فيه من الأنفس ، وأجدى وأنفع ؛ ولهذا فقد ناسب تقديم ماهو أهم وأنجع ، كما وقع في غير آية التوبة ، فإذا اكتملت مظاهر الجهاد وجيّشت جيوشه ، شَرعت الأنفس في استخدام أدوات القتل ، فعالجت العدوّ بما ينازله ، ويقضي على شوكته ؛ فعند الإعداد للجهاد يكون المال مُقَدَّماً، وعند الشروع في ضرب الرّقاب تكون الأنفس هي الفاعلة المقدّمة ٠ وهذا ماجرى عليه النظم القرآني الكريم ٠

---

(١) التفسير القرآني للقرآن : ٨٩٩/١١ ٠

المسألة الثانية : ماسرّ إضافة الأنفس والأموال إلى ضمير المؤمنين ؟ مع أنّ الله تعالى هو الذي خلق الأنفس ووهب الأموال ٠؟ فلم يقل : اشترى منهم الأنفس والأموال ٠٠٠

ومن الأجوبة عن ذلك أن يقال : إنّ الله عز وجل قد أضاف تلك الأنفس المخلوقة ، والأموال الموهوبة إلى المؤمنين تشريفاً لهم من جهة ، ومن جهة أخرى إشعاراً بأنّ ذلك الشراء إنما هو على سبيل الاختيار لاعلى سبيل الإكراه ، فإنّ نفسك ملكك أيها المؤمن ، وكذا مالك فإن شئت فأقدم على تلك الصفقة العظيمة حتى تحظى بأربح الأرباح ، وإن شئت فلا ، فأنت بالخيار ، والخاسر هو أنت ، وأما الله عزّ وجل فهو أغنى الأغنياء بيده مفاتيح كنوز الأرض والسماء ، كما قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** ﴾[(١)].

المسألة الثالثة : - ماسرّ مجيء الأنفس والأموال بصيغة الجمع ؟ مع قرنها بعاطف واحد ؟ ٠

وجواباً عن ذلك يمكن أن يقال : إنّ في هذا إشارة إلى أهمية تراصّ الصفوف ، وائتلاف النفوس ، واجتماع الكلمة ، وبذل الأموال مجتمعة في هذا السبيل ، فإنّ أيّ فُرجة من فُرقة أو اختلاف أو تَنَابُذ ، فإنّه يفضي إلى الهزيمة والتناحر وتشتيت الشمل ، فضلاً على أنّه مجلبة لبغض الله تعالى وبعد عن محبّته كما قال عز وجل : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾[(٢)] ؛ فاختلاف الصفوف وعدم رصّها واضطراب انتظامها في القتال مُؤْذِنٌ بزوال محبة الله للمقاتلين ، ومؤشّر هزيمة قادمة ؛ فمن لم يكن الرحمن له معينا ؛ كان الشيطان له قرينا ، فيخذله على رؤوس الأشهاد ثم ينكص على عقبيه ٠

ثم إن في ضمّ الأموال إلى الأنفس وعطفها عليها إشعاراً بأن ساق الجهاد وسوقه لاتنهض في صورتها المكتملة إلاّ بأموال يُشْترى بها آلات القتال وعدّته ، وأنفس أُعدّت لتُمْضي تلك الآلات في العدوّ ، فتكسر بيضته وتخضد شوكته ٠

---

(١) فاطر : ١٥ ٠
(٢) الصف : ٤ ٠

٧ – ومن عناصر التوكيد في الآية الكريمة ماجاء في ثمن المجاهدة بالأنفس والأموال ، وهو قوله تعالى : ﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ ، وهذه الجملة وحدها تضمّنت عدّة مؤكّدات : –

أولها : – الباء التي تدخل – عادة – على الثّمن في البيع ؛ فإنك تقول : اشتريت الدار بألف ؛ فدخولها في الآية دليل على تقرير ذلك الثّمن واستحقاق أصحابه له ٠

وثانيها : – تأكيد جملة الثمن بـ " أنّ " المؤكّدة ؛ وذلك مبالغة في تقرير وصول الثمن إليهم(١) وتمكّنهم منه ، ومن الممكن أن يتم ذكر الثمن بمثل أن يقال : بالجنة ٠٠٠ ؛ ولكن شتان مابين التعبيرين ٠

وثالثها : – إبراز ضمير القوم الذين تَمَّ معهم العقد ، وإظهاره في معرض ذكر أثمان أنفسهم وأموالهم ، وفي ذلك تكريم آخر لهم ، وتنويه بشأن مابذلوه ، كما أنّ فيه تأكيداً على استحقاقهم ماوعدوا به ٠

ورابعها : – إدخال لام الملكيّة على ضميرهم ، وفي ذلك إشارة صريحة إلى أنّ ذلك الثّمن ملك لهم ، وهم أحقّاء في تملكهم له ، وتمتعهم بنعيمه ، فليس عارضاً ولامؤقتا ، بل هو على مقتضى قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَاشَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾(٢).

وخامسها : – تقديم الجار والمجرور [لهم] على صريح لفظ الثمن وهو [الجنة] ؛ وفي ذلك تشويق لأنفسهم ودغدغة لتطلّعاتهم ، واستشراف لهممهم بعد أن أكّد أوّل الجملة ثم ملّكوا – عبر لام التمليك – شيئاً اشرأبّت له أفئدتهم ؛ فإذا بهم يقعون على الغاية ، وينتهون إلى النهاية وهي " الجنة " ٠

وسادسها : – مجيء الثمن وهو [الجنّة] محلّى بالألف واللام أغنى عن ذكر الأوصاف ؛ فإنّ الألف واللام " الاستغراقية " قد وفّت بالصفات وزادت

---

(١) انظر : تفسير أبي السعود : ٤/١٠٥ ٠
(٢) هود : ١٠٨ ٠

عليها ؛ فإنها " الجنة " الكاملة الصفات ، والتي فيها " مالاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر " ؛ فهي الجنة التي لايكتنه كنهها ، ولايحيط وصف بها .

٨ - قوله تعالى :﴿ **يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ..﴾ تحديد ظاهر لاغموض فيه للغرض الذي من أجله اشتريت الأنفس والأموال ؛ فالجملة مستأنفة لبيان غرض ذلك البيع وصورته ؛ فكأنما قد قيل : كيف يبيعون أنفسهم وأموالهم بالجنة ؟ فقيل : يقاتلون في سبيل الله (١) ..

وفي جملة [يقاتلون في سبيل الله ..] وقفات بلاغية : -

الأولى : اختيار بيان ذلك البيع وشرح مضمونه بمادة الفعل [قاتل] دون [جاهد] ؛ مع أن الجهاد يتضمن القتال ويزيد عليه ، ولعل من مقاصد ذلك : أن يوقن المؤمن في قرارة نفسه أن من أعظم مايحبّه الله تعالى ويبتغيه من ذلك الشراء هو فعل القتال ونسيان حظّ النفس في البقاء ، وتقديم الأنفس في هذا السبيل من غير إحجام ولاتردّد ؛ لأنّ النفس إذا داخلها حبّ البقاء واستشراف الحياة ضنّت بصاحبها ، فتأخّرت ، وربّما أحجمت عن المعامع ، ولكن استقرار المراد من الشراء في النفس بأنّه " المقاتلة " و" القتال " يجعل الأمر ظاهرا ، وأن أي تأخّر عن تحقيق ذلك الهدف البارز هو رجوع في البيع ، وضنّ بالسلعة ؛ فأريد تخليص النفوس من حظوظها ؛ بالتصريح بأعظم مكروهاتها وهو " القتال " ليهلك من هلك عن بينة ، ويحي من حيّ عن بيّنة .

الثانية : - مجيء [يقاتلون] بصيغة المضارع دون الأمر - وإن كان في معناه(٢)- دليل على أنّ حال(٣) المؤمنين ينبغي أن تكون على استعداد وفي ترقّب؛ فإذا مادعى داعي الجهاد ورُفع لواؤه قفزوا وراءه وانضمّوا تحت رايته ، فهم في هيئة من يلبي الطلب ، ويتجدّد فعله بتجدّد السّبب ، وليس مرّة فتنتهي ، بل ذلك

---

(١) انظر : تفسير أبي السعود : ١٠٥/٤ ، وروح المعاني : ٢٧/١١ .

(٢) كما أشار إليه الزمخشري في الكشاف : ٢١٥/٢ .

(٣) ممن جعل [يقاتلون] في موضع الحال أبو حيان . انظر : البحر المحيط : ١٠٢/٥ .

مدة بقاء الأنفس والأموال ، لأنّها مادة عقد الشراء ، وساحات القتال هي أمكنة تسليمها - كما قاله " الطيبي "[١].

الثالثة : - مشروعية الإخلاص في القتال ، وتمحّضه لله وحده لاشريك له من رياء أو سمعة أو جاه أو مال أو سواه٠٠ وهذا ما أفاده تعليق فعل "المقاتلة" بالظرف [في] وكون المظروف هو [سبيل الله] ، فقد اختص فعل القتال بذلك ولم يعد لغيره متسع ، ومايبنغي له ؛ فإذا داخلت نية المقاتل نية أخرى أفسدت العقد وكدّرت السبيل ؛ فلم يكن في " سبيل الله " بل زاحمه سبيل آخر ، ولذلك فحريّ بعمل صاحبه الحَبَط والخسران ، وليس له سبيل إلى الجنان ٠

الرابعة : - إضافة " السبيل " إلى " اللّه " زادت المضاف تعريفاً وتشريفاً ؛ وجعلت المقاتلين في ذلك السبيل يستشرفون تلك الغاية فقط ، فلا تتشتت بهم الغايات أو تعصف بنفوسهم الشهوات ، أو تحدّ من انطلاقتهم الهزائم أو الشتائم ، وإنّما هم في ذلك السبيل القويم فإذا نُصروا فمن الله ، وإن قتلوا ففي ذمّة الله ، ولهم عنده زلفى وحسن مآب ٠

الخامسة : - إظهار لفظ الجلالة - المضاف إليه - والعدول عن ضميره[٢] في مقام ذكر القتال وطلبه من المؤمنين - إلهاب لحماس نفوسهم ، وتعليق لأمل قلوبهم بخالقهم ، وبمن تعمل في سبيله قدراتهم ، وفي ذلك - أيضاً - رفع لدرجة شجاعتهم ، وإعلاء من شأن عملهم ، وأنّه مطلب إلهي ، وعمل شرعي ، فيه الأجر والثواب ٠

٩ - قوله تعالى :﴿ **فيَقتُلون ويُقتَلون** ﴾ ؛ مافائدة العطف بالفاء المؤذنة بالفوريّة هنا ، دون غيرها من حروف العطف ؟٠

ولعل من فوائد ترتيب ذكر الفاء بعد تحديد الغاية من شراء الأنفس والأموال وهي أنهم [يقاتلون في سبيل الله ٠٠] التنبيه الفوري إلى أنّهم إذا أدركوا تلك الغاية وبرزوا في الميدان ، فهم فوراً على واحدة من حالين : -

---

(١) انظر : روح المعاني : ١١/٢٦ ، ٢٧ ، والتحرير والتنوير : ١١/٣٨ ٠

(٢) في قوله : [في سبيل الله] فلم يُقل : في سبيله ، مع أنّه أوجز ٠

أولاهما : - أن يشرعوا في قتل أعدائهم مُعْملين أسلحتهم فيهم ؛ فلا يسوغ لهم أن يتقاعسوا عن ذلك ، أو يترددوا فيه .

والأخرى : - أن يقع عليهم القتل فيقع فيهم الموت أو القَرح ؛ فعندئذٍ لاينبغي لهم أن يستغربوا ذلك أو يستنكروه ، فهذه حال مَنْ بَرَز للقتال أو بارز .

وهنا مسألة وارد طرحها : وهي : ماسرّ تكرار مادة القتل ثلاث مرات : الأولى : مجملة ، والثانية ، والثالثة مفصلّة ؟ .

ومما يرد جواباً عن ذلك : أن يقال : إن المراد هو حمل نفوس المؤمنين على الجدّ ، وأن الموضوع لاهَزْل فيه ، وأنّ مادته هي القتل ، بحيث تكون نفوسكم إما : قاتلة أو مقتولة ، فلا يذهبنّ الظنّ بأحد ، فيسلك نفسه مع أولئك الذين قدموا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله .. ثم يطمع في السلامة ، أو يقول : إن الله سيدفع عنّي الموت ؛ لأنني أجاهد في سبيله ، فذلك وأشباهه من الظنون يزيله فعل القتل المكرّر ، فالأمر محمول على الجدّ ، وميدان الجهاد يعجّ بالقتل والذبح والجرح ؛ فمن آنس من نفسه رُشْداً ونضجاً ؛ ورجا ماعند الله فإنّ الله سيكرمه على نيته وعزمته ، ومن قدّم رجلاً وأخّر أخرى فإن الله تعالى غنيّ عن فعلته .

وقد قرأ الجمهور : ﴿ **فيَقْتلون ويُقْتلون** ﴾ ببناء الفعل الأوّل على الفاعلية ، والثاني على المفعولية ، وفي ذلك إشارة إلى أنّ زمام المعركة ينبغي أن تكون بأيدي المؤمنين ؛ بحيث يكونون هم الذين يبدأون بفعل القتل أولاً ؛ فيعملون أسلحتهم في رقاب العدوّ ؛ حتى يثخنوهم ويفرقوا شملهم ، وهذا أملك لأمرهم ، وأقوى لجانبهم . وعطف الثاني على الأوّل يجعل في أذهانهم أن قتل من قُتل من المؤمنين وارد وغير مستغرب .

وأما قراءة من قرأ ببناء الفعل الأوّل على المفعولية ، والثاني على الفاعلية ففيه إشارة إلى عراقة الشهادة في سبيل الله وعظم أمرها ، وأنها من نفوس المؤمنين بمكان ؛ بحيث إنهم يسعون إليها ويطلبونها قبل غيرها ، وهذا له وجهه ووجاهته . يقول أبو السعود : " وقرئ بتقديم المبني للمفعول رعاية لكون الشهادة عريقة في الباب ، وإيذاناً بعدم مبالاتهم بالموت في سبيل الله تعالى، بل

بكونه أحبّ إليهم من السلامة "[١].

ولكن : لم حذف المفعول به وهو المقتول ؛ فلم يبيِّن نوعه[٢] ! ؟.

لعل الحكمة من ذلك هي : أن يعمّ جنسه ونوعه ؛ فليس عدوّ المؤمنين واحداً بعينه ، وإنما هو متعدد بحسب نزعته وصفته ؛ فمنهم : الكافر كفراً على ملة اليهود أو النصارى ، ومنهم المشرك ، ومنهم البوذي والشيوعي ، ومنهم البعثي والباطني ، بل ومنهم من يزعم الإسلام ، ويجرّ رداءه ولكنه يكيد لأهله ، ويمكر بهم ، وفئة أخرى تخرج على جماعة المسلمين وإمامهم ، وتمرق منهم ، وتبغي على حرماتهم يستوي في ذلك الخوارج والبغاة وقاطعو السبيل .. وسواهم فأولئك المذكورون ومن في حكمهم دخلوا في المفعول به المطوي ؛ فتأمّل سرّ ذلك التعبير القرآني .

١٠- قوله تعالى : ﴿ **وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً** .. ﴾ فيه مؤكّدات ثلاثة : -

أولها : - [وعداً] ، فهو مصدر مؤكّد ، يدل على أن الثمن مؤجل[٣] ، وأن تسليمه وَعْدٌ حصوله مؤكّد .

وثانيها : - [عليه] ؛ فقد دخل حرف الجر المفيد للوجوب[٤] على الضمير العائد على لفظ الجلالة ، وهذا يفيد القطع بذلك الوعد وتأكيده .

وثالثها : - [حقّا] ؛ فهو مصدر مؤكدّ ، وفعله من مادته محذوف ، والتقدير : وعدهم وعداً ، وحقّ ذلك الوعد حقا ، أي : تحقق وثبت[٥] .

١١- قوله تعالى : ﴿ **فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ** ﴾ تأكيد لذلك الوعد بأنه مذكور في تلك الكتب الكبار، ومنزل على أولئك الرسل العظام ، والنّص على ذكر الكتب السابقة فيه احتمالان : -

الأول : - أن هذا البيع ليس خاصّاً بالمؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، بل هو لهم ولغيرهم ، وهذا المعنى يظهر بوضوح إذا علّق الجار المتقدم بالفعل [اشترى][٦] .

---

(١) تفسير أبي السعود : ١٠٥/٤ .

(٢) فلم يقل : تقاتلون في سبيل الله الكفار . أو : فيَقْتلون المشركين ...

(٣) انظر : تفسير أبي السعود : ١٠٥/٤ .

(٤) انظر : التفسير الكبير : ٢٠١/١٦ .

(٥) انظر : فتح البيان : ٢٠٣/٤ .

(٦) انظر : البحر المحيط : ١٠٣/٥ .

الثاني : - أنّ هذا البيع مما اختص به المؤمنون من أمة محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم ، وهذا شرف لهم قد ذكر في الكتب المتقدمة على القرآن كالتوراة والإنجيل ، فيكون تقدير المتعلّق : وعداً عليه حقاً مذكوراً في التوراة والإنجيل والقرآن [١].

والذي يظهر الأوّل وأن مشروعية الجهاد ومثوبته ثابتة في شرع من قبلنا[٢]. وفي ذلك تسلية للمؤمنين ، ودفع لمواكبهم حتى يلحقوا بركب المجاهدين الأوّلين من الأمم السابقة .

١٢- قوله تعالى :﴿ **وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ** ﴾ جملة معترضة مقررة مضمون ماقبلها ، جاءت في صورة استفهام انكاري ، غرضه النفي على جهة التقرير ؛ أي : لا أحد [٣]. مبالغة في توكيد ذلك وتقريره : بل إن ذلك غاية في التأكيد ، كما ذهب إليه الرازي [٤].

ولكن لم نقل ذلك الوعد من اسمه الأوّل [وعدا] إلى كونه " عهدا " ؟

يقول أبو حيان : " ولما أكد الوعد بقوله [عليه حقا] أبرزه هنا في صورة العهد الذي هو آكد وأوثق من الوعد ، إذ الوعد في غير حق الله تعالى جائز إخلافه ، والعهد لايجوز إلا الوفاء به ؛ إذ هو آكد من الوعد " ؛ فكانت التسمية الجديدة له توثيقاً وتوكيدا فوق مامضى .

١٣- قوله تعالى : ﴿ **فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ** ﴾ فيه مسائل : -

الأولى : - الفاء فائدتها هنا ترتيب مابعدها على ماقبلها، فهي ترتب الأمر بالاستبشار على حصول ذلك البيع وتمام الشراء ، أي : فإذا كان كذلك فأظهروا السرور بما فزتم به من الجنة ، وهذه لها دلالة نفسية ، فهي علامة على إيقانهم وشدّة إقبالهم على مراد الله تعالى ، وتسابقهم في طاعته .

الثانية : - هل السين في الفعل للطلب ؟

---

(١) انظر : البحر المحيط : ١٠٣/٥ .

(٢) انظر : تفسير القاسمي : ٣٢٧٣ .

(٣) انظر : البحر المحيط : ١٠٣/٥ ، تفسير أبي السعود : ١٠٥/٤ .

(٤) انظر : التفسير الكبير : ٢٠١/١٦ .

والجواب عن ذلك بالنفي ، كما جزم به أبوحيان وغيره ، بل هي بمعنى أفعل ، كاستوقد وأوقد[١] . وعلى ذلك فتكون تلك السين من أحرف التوكيد الداخلة على الفعل ، والقاضية بتوكيد التلبُّس بالاستبشار وإعلان مظاهره .

والثالثة : - في قوله [فاستبشروا] التفات إليهم ، على سبيل التكريم لهم ، والتشريف لمقامهم[٢] . وفي هذا المعنى بشارة أخرى حملها ذلك الفعل ؛ فقد حمل بشارتين :

إحداهما : من مادته اللغوية . والأخرى : من دلالته الأسلوبية في نظم الآية على طريقة الالتفات في تلوين الخطاب من الغيبة إلى التكلّم .

والرابعة : - ما الغرض من إضافة البيع إلى ضمير المؤمنين ونسبته لهم ، فقال : [ببيعكم] ! ؟.

وممن أجاب عن ذلك ابن عاشور حيث قال : " وأضيف البيع إلى ضميرهم إظهاراً لاغتباطهم به "[٣] . ويقول أبو السعود : " وإنما قيل [ببيعكم] مع أن الابتهاج به باعتبار أدائه إلى الجنة لأن المراد ترغيبهم في الجهاد الذي عبر عنه بالبيع ، وإنما لم يذكر العقد بعنوان الشراء لأنّ ذلك من قبل الله سبحانه لامن قبلهم ، والترغيب إنما يكون فيما يتمّ من قبلهم "[٤] . ويضاف إلى ذلك ماتحمله تلك الإضافة من الإشارة إلى أنّ هذا البيع قد تم من قبلهم طواعية واختيارا ، من غير إكراه ولا إلزام ، ولهذا صحت نسبته إليهم ، وفي ذلك إشعار لهم بضرورة وفائه ، وحسن إتمامه ؛ ويزيد من تقرير هذا المعنى أنّه قد وصف بالموصول بعده ، وجعلت صلة الموصول من أفعال المطاوعة فقيل : [الذي بايعتم به] . ولايخفى أن صلة الموصول تأكيد لفظي لمعنى [بيعكم] بلفظ مرادف[٥] . وفي هذا إشعار بكون هذا البيع مغايراً لسائر البيعات ؛ فإنه بيع للفاني بالباقي ، وكلا البدلين له سبحانه وتعالى[٦] .

---

(١) انظر : البحر المحيط : ٥/١٠٣ ، وروح المعاني : ١١/٢٩ .
(٢) انظر : البحر المحيط : ٥/١٠٣ ، وتفسير أبي السعود : ٤/١٠٦ .
(٣) التحرير والتنوير : ١١/٤٠ .
(٤) تفسير أبي السعود : ٤/١٠٦ .
(٥) انظر : التحرير والتنوير : ١١/٤٠ .
(٦) انظر : تفسير أبي السعود ٤/١٠٦ ، وفتح البيان : ٤/٢٠٤ .

١٤- قوله تعالى : ﴿ وذلك هو الفوز العظيم ﴾ ؛ مرجع الإشارة إما إلى الجنة ، أو إلى البيع الذي ربحوا فيه الجنة [١] . والإشارة إليه بلام البعد مع قربه وكاف الخطاب ؛ إشارة إلى بعد منزلة المشار إليه ، وسموّ رتبته في الكمال [٢] ، كما قصد استحضار منزلته الرفيعة في نفوس المؤمنين ، حتى يعتنوا به .

وضمير الفصل مؤكد لمضمون اسم الإشارة مبرز لشأنه ، و [الفوز] أريد به : " الظفر للحصول على الربح التام والغبطة في البيع لحطّ الذنب ودخول الجنة " [٣] . وتحلية الفوز بالألف واللام قصد منه استغراق صفات الكمال وقصرها عليه ، أي الفوز الذي لافوز أعظم منه [٤] . ووصفه بـ [العظيم] من " العظيم " جل وعلا تناهٍ في عظمة ذلك الفوز ، وتأكيد لاستحقاقه ذلك [٥] .

---

(١) انظر : فتح البيان : ٢٠٤/٤ .
(٢) انظر : تفسير أبي السعود : ١٠٦/٤ .
(٣) البحر المحيط : ١٠٣/٥ .
(٤) انظر : تفسير أبي السعود : ١٠٦/٤ .
(٥) ولمزيد من الوقوف على صور التوكيد في هذا البحث ؛ انظر : ١١٩ ، ١٢١ ، ١٣٦ - ١٣٧ ، ١٤٩ ، ٢٢٥ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٣٠٣ ، ٣٧٢ ، ٣٧٥ ، ٣٩٠ ، ٣٩٩ ، ٤١٥ ، ٤٢٧ ، ٤٥٩ ، ٤٨٧ ، ٤٩١ ، ٥١٦ ، ٥٢٤ . ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٣٦ ، ٥٦٢ ، ٥٨٨ .

التوكيد بالتكرار : -

التكرار من صور التوكيد ، وإن كان داخلاً في مفهوم الإطناب . وقد حدَّه ابن الأثير فقال : " هو دلالة اللفظ على المعنى مردَّدا " . ثم قال : " وربّما اشتبه على أكثر الناس بالإطناب مرّة وبالتطويل أخرى "(١) .

ولكن ابن الأثير أزال ذلك الاشتباه بأن ألحق التكرار المفيد بالإطناب ، وجعل ماليس مفيداً من التكرار جزءاً من التطويل (٢) .

وعن الغرض البلاغي من التكرير يقول ابن الأثير : " واعلم أن المفيد من التكرير يأتي في الكلام تأكيداً له وتشييداً من أمره ، وإنّما يفعل ذلك للدلالة على العناية بالشيء الذي كرَّرتَ فيه كلامك ؛ إمّا مبالغة في مدحه ، أو في ذمّه أو غير ذلك "(٣) . ويقول في موضع آخر : " إن التكرير إنّما يأتي لما أهَمَّ من الأمر ؛ بصرف العناية إليه ؛ ليثبت ويتقرّر "(٤) .

فالتكرير إذاً أسلوب من أساليب العربية ، يؤتى به لتأكيد القول وتقرير المعنى ، وتثبيته في الذهن ، وذلك حينما يستلزم المقام ذلك ويقتضيه (٥) .

وإذا لم يكن ثَمَّ غرض من التكرار في الكلام فإنّه ينال من قيمته البلاغية ، ويصبح منقصة وتطويلاً معيباً . وهذا النقصان في البيان يرد في الجملة على كلام البشر ، وأمّا كلام الله تعالى فهو منزّه عن ذلك ، مرتفع عنه ، لأنّه وإن كان من جنس كلام العرب في أحرفه وعباراته ، إلاّ أنّ قائله والمتكلم به هو ربّ العرب وخالق البشر – سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً ﴾(٦) . يقول ابن الأثير : " وبالجملة فاعلم أنّه ليس في القرآن مكرّر لافائدة في تكريره ؛ فإن رأيت شيئاً منه تكرّر من حيث الظاهر فأنعم نظرك فيه فانظر إلى سوابقه ولواحقه ؛ لتنكشف لك الفائدة منه "(٧) .

---

(١) المثل السائر : ٧/٣ .

(٢) انظر : المثل السائر : ٣٩٤/٢ .

(٣) المثل السائر : ٨/٣ .

(٤) المثل السائر : ١٥/٣ .

(٥) انظر : البلاغة فنونها وأفنانها : ٣٧٩/١ .

(٦) النساء : ٨٢ .

(٧) المثل السائر : ١٢/٣ .

وسأتناول بعض ماورد في آيات الجهاد مكرّراً من أسماء أو مصادر أو أفعال أو حروف ، ثم أنقب عن الأغراض البلاغية من تكرار ذلك ، وذلك حسب ترتيب ورود الآيات في المصحف الكريم .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾(١) .

والشاهد من الآية الكريمة هو تكرير اسم الموصول [الذين] بعد أن ذكر في أوّل الآية . فما سرّ هذا التكرير ؟

يقول أبو السعود : " كرر الموصول مع أن المراد بهما واحد ؛ لتفخيم شأن الهجرة والجهاد ؛ فكأنهما مستقلان في تحقيق الرجاء "(٢) .

ويقول أبو حيّان : " وليس تكرير الموصول بالعطف مشعراً بالمغايرة في الذوات ، ولكنه تكرير بالنسبة إلى الأوصاف ، والذوات هي المتصفة بالأوصاف الثلاثة ؛ فهي ترجع لمعنى عطف الصفة بعضها على بعض للمغايرة ، لا أن الذين آمنوا صنف وحده مغاير للذين هاجروا وجاهدوا "(٣) . فكان تكرير الموصول الثاني تقريراً لأهمية الهجرة والجهاد ، وتنويهاً بشأنهما .

ولكن لم أفرد الإيمان وحده بموصول ، وجعل الهجرة والجهاد في موصول آخر مستقل ؟ .

---

(١) البقرة : ٢١٨ .

(٢) تفسير أبي السعود : ٢١٨/١ . وانظر : روح المعاني : ١١١/٢ .

(٣) البحر المحيط : ١٥٢/٢ . وقد رأى المغايرة عبدالكريم الخطيب في : التفسير القرآني للقرآن : ٢٤٢/٢ . والراجح هو ماذكر آنفاً وأن الموصولين في وصف فئة واحدة من المؤمنين اجتمع فيها الإيمان والهجرة والجهاد ، ويدل على ذلك سبب نزولها ؛ فقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدالله بن جحش رضي الله عنه على سرية في جمادى الآخرة قبل غزوة بدر بشهرين ليترصدوا عيراً لقريش فيها عمرو بن الحضرمي وثلاثة معه ، فأدركوهم بين مكة والطائف وقتلوا ابن الحضرمي وأسروا اثنين ، في أول رجب المحرم ؛ فشق ذلك على المسلمين ، فنزلت الآية التي قبل هذه الآية ، ثم قال : عبدالله بن جحش : يارسول الله هب أنه عقاب علينا فيما فعلنا : فهل نطمع منه أجراً وثوابا ؛ فنزلت ﴿ **إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا** ﴾ .. الآية قال أبو حيّان : " لأن عبدالله كان مؤمناً وكان مهاجرا وكان بسبب هذه المقاتلة مجاهدا ، ثم هي عامة في من اتصف بهذه الأوصاف " . انتهى ملخصاً .

انظر : أسباب النزول للواحدي : ٤٩-٥١ ، الكشاف : ١٢٥/١ ، البحر المحيط : ١٥١/٢ .

يقول أبو حيّان جواباً عن ذلك : " ولما كان الإيمان هو الأصل أفرد به موصول وحده ، ولما كانت الهجرة والجهاد فرعين عنه أفردا بموصول واحد ؛ لأنهما من حيث الفرعية كالشيء الواحد "(١).

ويرد سؤال آخر وهو : ما الحكمة من ترتيب ذكر الثلاثة : الإيمان ثم الهجرة ثم الجهاد ؟.

يقول أبو حيّان عن الآية : " وقد احتوت هذه الجملة على ثلاثة أوصاف ، وجاءت مرتبة بحسب الوقائع والواقع ؛ لأن الإيمان أولها ، ثم المهاجرة ، ثم الجهاد في سبيل الله "(١). وفي " روح المعاني " : " وقدم الهجرة على الجهاد لتقدمها عليه في الوقوع تقدم الإيمان عليهما "(٢).

وفي البدء بالإيمان وتأكيد موصوله بـ " إنّ " ثم التثنية بالهجرة والانتهاء إلى الجهاد – إشعار بأنّ الإيمان الصادق هو الذي يقود إلى ذلك ، ويثمر تلك الثمرة ، ويؤيّد ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾(٣) فغيرهم إذا لم يفعل فعلهم فليس صادقاً في ادعائه الإيمان . وبذلك يكون في الآية تعريض بمن يدعي الإيمان ثم لايهاجر – إذا كان في بلد كفر لايستطيع فيه أداء الشعائر – ولايلحق بركب الجهاد إذا نُدب إليه بغير عذر شرعي ، فمن كانت تلك صفته فليس مؤمناً بل إيمانه ناقص ، وفي تناقص إذا بقي على تلك الحال . وجعل خبر [إنّ] اسم الإشارة [أولئك] – الذي هو للبعيد مع قرب المشار إليهم – إيذان بجمعهم بين تلك الصفات ، وإشعار بقيمة ما اتصفوا به .

وقوله تعالى : ﴿ يرجون ﴾ الرجاء : ظنّ يقتضي حصول مافيه مسرّة ، وغالباً مايلازم الرجاءَ الخوف(٤). ويقول ابن عطية : " والرجاء أبداً معه خوف ، كما أن

---

(١) البحر المحيط : ١٥٢/٢ .
(٢) روح المعاني : ١١١/٢ .
(٣) الحجرات : ١٥ .
(٤) انظر : المفردات : ١٩٠ .

الخوف معه رجاء "[١].

وأخبر عنهم بـ [يرجون] بالفعل المضارع ؛ " ليدل على التجدّد وأنّهم في كلّ وقت يحدثون رجاء "[٢].

ولكن لم أثبت لهم الرجاء ولم يقطع لهم بالفوز ؟

يجيب أبو السعود عن ذلك جواباً مجملاً فيقول : " أثبت لهم الرجاء دون الفوز بالمرجو للإيذان بأنهم عالمون بأن العمل غير موجب للأجر ، وإنما هو على طريق التفضل منه سبحانه ، لا لأن في فوزهم اشتباها "[٣]. وعند أبي حيّان جواب أكثر تفصيلاً حيث يقول : " وأتى بلفظة [يرجون] لأنه مادام المرء في قيد الحياة لايقطع أنه صائر إلى الجنة ولو أطاع أقصى الطاعة ؛ إذ لايعلم بما يختم له ولايتكل على عمله ؛ لأنه لايعلم أقبل أم لا ؟ . وأيضاً فلأن المذكورة في الآية ثلاثة أوصاف ولابد مع ذلك من سائر الأعمال وهو يرجو أن يوفقه الله لها كما وفقه لهذه الثلاثة ؛ فلذلك قال [أولئك يرجون] أو يكون ذكر الرجاء لما يتوهمون أنهم ماوفوا حق نصرة الله في الجهاد ولاقضوا مالزمهم من ذلك فهم يقدمون على الله مع الخوف والرجاء كما قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ** .. ﴾[٤] "[٥].

وإضافة الرحمة إلى لفظ الجلالة بعنوان الألوهية من غير اكتفاء بالضمير اعتناء بشأنها وتفخيم لها ، وإشعار بأنّها مستحقة ذلك الرجاء .

وختم الآية بالاسمين الكريمين مع إظهار لفظ الجلالة في قوله تعالى :﴿ **والله غفور رحيم** ﴾ تذييل لما تقدم وتأكيد له[٦]، وفي ذلك إشعار بأن الله تعالى عند ظنّ عبده به إذا عمل بما أمره الله عز وجل .

يقول أبو حيّان : " لما ذكر أنهم طامعون في رحمة الله أخبر تعالى أنه متصف بالرحمة ، وزاد وصفاً آخر وهو أنه تعالى متصف بالغفران ؛ فكأنه قيل : الله تعالى

---

(١) المحرر الوجيز : ٢/١٦٥ .
(٢) الدر المصون : ٢/٤٠٢ .
(٣) تفسير أبي السعود : ١/٢١٨ .
(٤) المؤمنون : ٦٠ وتتمة الآية ﴿ .. أنهم إلى ربهم راجعون ﴾ .
(٥) البحر المحيط : ٢/١٥٢ .
(٦) انظر : روح المعاني : ٢/١١١ .

عندما ظنّوا وطمعوا في ثوابه ؛ فالرحمة متحققة ؛ لأنها من صفاته تعالى "[١].

ومن الآيات التي وقع التكرار فيها بالفعل قصداً إلى التوكيد قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[٢].

إذ الملاحظ في نظم الآيات المثبتة يجد أنه يتناول غرضاً محدّدا ؛ ذلك هو حياة المجاهدين بعد تركهم الدنيا ، وقد تدرّج النظم القرآني في هذا السبيل من نفي الموت عنهم إلى إثبات الحياة لهم المستتبعة للرزق ، ثم الإخبار بفرحهم بهذه الأحوال ، والإشعار بأن هذا الفرح قد وصل إلى درجة الاستبشار بإخوانهم الذين هم في أثرهم ومن خلفهم ، وأن نعمة الله عليهم عظيمة ، وفضله كبير ، وتلك نعم وفضائل تستحق الفرح والاستبشار ؛ ولهذا كرّر الفعل بلفظه إقراراً لتلك الحقيقة وتوكيداً لها في نفوسهم ، وفي نفوس من يتلوها ويؤمن بها من المؤمنين في الدنيا تطميعاً لهم في الجهاد وترغيباً فيه ؛ وذلك من خلال نقل صورة مايجري للمجاهدين من النعيم بعد فراق الدنيا إلى إخوانهم الأحياء ، وهذا ماتصوره تلك الآيات الكريمات .

والذي يوضح الآيات ويزيد في بيانها هو سبب نزولها ؛ فقد أورد " القرطبي " وجه نظمها[٣] وسبب نزولها فقال : " لما بين الله تعالى أنّ ماجرى يوم أحد كان امتحاناً يميّز المنافق من الصادق[٤] بين أنّ من لم ينهزم فقتل له الكرامة والحياة عنده ؛ والآية في شهداء أحد ، وقيل : نزلت في شهداء بئر معونة ، وقيل : بل هي عامة في جميع الشهداء ، وفي مصنف أبي داود بإسناد صحيح عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في جوْف طير خضر ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديل من ذهب

---

(١) البحر المحيط : ١٥٢/٢ .

(٢) آل عمران : ١٦٩-١٧١ .

(٣) وكذا فعل الفخر الرازي ، ولكن القرطبي أوجز . انظر : التفسير الكبير : ٨٨/٩ .

(٤) وذلك في الآيات : ١٦٥-١٦٨ من السورة نفسها .

معلَّقة في ظل العرش ؛ فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا مَنْ يبلِّغ إخواننا عنَّا أنَّا أحياء في الجنة نرزق لئلاَّ يزهدوا في الجهاد ولايَنْكُلُوا عند الحرب ؛ فقال الله سبحانه : أنا أبلِّغهم عنكم " – قال – فأنزل الله : ﴿ **وَلَاتَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا** .. ﴾ إلى آخر الآيات .. "[١] . وقد افتتحت الآية بتسليط النهي على فعل " الحِسْبان " من نفس كل حاسب [٢] ، وكونه سلَّط على الفعل المضارع دون غيره دفعاً لفكرة طروئه وتجدده فلا يرد بعد ذلك الحسبان في الأذهان مطلقا[٣] . ويزيد في قوة النهي توكيد الفعل بالنون الثقيلة . والحِسْبان أقوى من الظَّن ؛ ولذلك قُصد نفيه والنهي عنه ؛ والنهي عمَّا دونه من باب أولى .

يقول الراغب :" الحِسْبان : أن يَحْكُم لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله : فيَحْسِبه ويعقد عليه الأصبع ، ويكون بمعَرْضٍ أن يعتريه فيه شكٌ ، ويقارب ذلك الظَّن ، لكن الظَّن أن يُخْطِر النقيضين بباله ؛ فيغلِّب أحدهما على الآخر "[٤] .

وقوله تعالى :﴿ **الَّذِينَ قُتِلُوا** ﴾ قرِيء مخفَّفاً ومشدَّدا ؛ وقراءة التخفيف أكثر وأشهر ، ولم يقرأ بالتشديد إلا ابن عامر وحده[٥] . وهل هناك فرق بين القراءتين ؟ نعم! فالتشديد يفيد التكثير في القتلى ، وأما التخفيف فهو صالح للتقليل والتكثير [٥] .

وقوله تعالى :﴿ **فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ قيد أخرج من لم يكن كذلك ؛ فإنَّ من لم يقصد بجهاده وجه الله ثم قتل فهو في حكم الأموات ، ولاينال مايتنعَّم به المجاهدون

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٢٦٨/٤ . وقد أورد القرطبي روايات أخرى في أسباب النزول ثم أفاد بأن النزول قد يكون محتملاً بسبب مجموعها : المصدر السابق : ٢٦٩/٤ .

(٢) الخطاب في الآية يجوز أن يكون للنبي عليه الصلاة والسلام تعليماً له ، وليُعَلِّم المسلمين ، ويجوز أن يكون جارياً على طريقة العرب في عدم إرادة مخاطب معيَّن . انظر : التحرير والتنوير : ١٦٥/٤ .

(٣) علماً بأن الذي حسب ذلك وظنَّه هم المنافقون ؛ والدليل على ذلك قوله تعالى في الآية التي قبلها : ﴿ **الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ماقتلوا قل فادرؤا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين** ﴾ آل عمران :١٦٨.

(٤) المفردات : ١١٧-١١٨ . وانظر : بصائر ذوي التمييز : ٤٦٣/٢ .

(٥) انظر : علل القراءات للأزهري : ١٣٠/١ . وانظر : مجمع البيان : ١-٨٨٠/٢.

كما هو منطوق الآية ولازم مفهومها ٠ بل سيحاسب على فساد نيته وانحراف مقصده ٠

وفي قوله تعالى :﴿ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ ﴾ طباق ، فهما ضدّان ، وحسنه البلاغي يكمن في تحقيق الفرق بين الضدين ، ومن ثمّ بعث همّة السامع إلى الخيّر منهما وهو الحياة ، وذلك بسلوك سبيل الجهاد والانضمام إلى المجاهدين ، و [بل] هنا حرف عطف للاستدراك ، وفائدته : تقرير حكم ماقبلها وهو النهي المتقدم ، وجعل ضدّه لما بعدها ، والعطف هنا ليس من قبيل عطف المفردات ، وإنما هو عطف جملة على جملة، فصار في حكم الاستئناف ، وجاز حذفه ؛ لأن الكلام دال عليه (١)، والتقدير : بل هم أحياء ، واختيرت اسمية الجملة دلالة على استمرار هذه الحياة ودوامها ٠

وعن طبيعة هذه الحياة وصفتها يقول ابن عطية - جمعاً بين هذه الآية والأحاديث الواردة في ذلك - : - " أخبر الله تعالى في هذه الآية عن الشهداء : أنهم في الجنة يرزقون ، هذا موضع الفائدة ، ولامحالة أنهم ماتوا وأن أجسادهم في التراب وأرواحهم حية كأرواح سائر المؤمنين ، وفضلوا بالرزق في الجنة من وقت القتل ؛ حتى كأن حياة الدنيا دائمة لهم "(٢) ٠

والذي أطمئن إليه هو التحقيق الذي كتبه " الشوكاني " في تفسيره حيث قال : " ومعنى الآية عند الجمهور : أنهم أحياء حياة مُحَقَّقَة ٠ ثم اختلفوا ؛ فمنهم من يقول إنها تُرَدّ إليهم أرواحهم في قبورهم فينعمون ، وقال مجاهد : يرزقون ثمر الجنة : أي يجدون ريحها وليسوا فيها ، وذهب من عدا الجمهور إلى أنها حياة مجازية ٠ والمعنى : أنهم في حكم الله مستحقون للتنعم في الجنة ٠ والصحيح الأول ، ولاموجب للمصير إلى المجاز ، وقد وردت السنة المطهرة بأن أرواحهم في أجواف طيور خضر ، وأنهم في الجنة يرزقون ويأكلون ويتمتعون "(٣) ٠

وقد سئل الحافظ ابن حجر العسقلاني عن أرواح الشهداء : أهي في السماء أم في الأرض ؟

---

(١) الفتوحات الإلهية : ١/٣٣٥ ٠
(٢) المحرر الوجيز : ٢/٢٩٢ ٠
(٣) فتح القدير : ١/٣٩٩ ٠

فأجاب : " إنها تسرح حيث شاءت ، وتأوي إلى قناديل معلَّقة بالعرش ؛ كما ثبت في صحيح مسلم عن ابن مسعود ، وروى أحمد بإسناد حسن عن ابن عباس : [أرواح الشهداء على بارقٍ نهرٍ على باب الجنة ، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيَّة] ...."(١). والحديث الذي أورده ابن حجر آنفا ، والحديث الآخر الذي أورده القرطبي سابقا(١) ، هما وماورد في معناهما(٢) يفسّران الرزق الوارد في الآية: ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ .

ولكن ما المقصود بالعنديَّة ؟ ولم قُدِّمت على الرزق ؟.

والجواب يتوقّف على موقع [عند ربهم] الإعرابي ؛ وفيه أوجه :

منها أن يكون خبراً ثانياً للمبتدأ المحذوف : [هم] والخبر الأوّل : [أحياء].

ومنها : أن يكون ظرفاً لـ [أحياء] والمعنى : يحيون عند ربهم .

ومنها : أن يكون ظرفاً لـ [يرزقون] أي : يقع رزقهم في هذا المكان الشريف.

ومنها : أن يكون صفة لـ [أحياء] في محل رفع ، تبين هذه الحياة ، وتصف موقعها .

ومنها : أن تكون حالاً من الضمير المستكن في [أحياء] ؛ فيكون بياناً لحال حياتهم(٣).

يقول أبو السعود : " المراد بالعندية التقرب والزلفى "(٤) . وقال ابن عطية : " فيه حذف مضاف تقديره : عند كرامة ربهم ؛ لأن عند تقتضي غاية القرب ، ولذلك لم تصغّر . قاله سيبويه "(٥).

---

(١) فتاوى الحافظ ابن حجر : ٤٨ ، ٤٩ . وقد اكتفيت بجزء من الفتوى ، وتمامها في المصدر المذكور . وانظر الحديث الوارد في سبب النزول :٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٢) انظر مزيداً من الأحاديث الواردة في ذلك بتخريج أحمد محمد شاكر في : عمدة التفاسير : ٣/٧٢-٧٥. وقد قال ابن كثير بعد أن ساق الحديث الذي أورده ابن حجر - مع شيء من الاختلاف في الألفاظ - " وكأن الشهداء أقسام : منهم من تسرح أرواحهم في الجنة ، ومنهم من يكون على هذا النهر بباب الجنة ، وقد يحتمل أن يكون منتهى سيرهم إلى هذا النهر ، فيجتمعون هنالك ، ويُغْدى عليهم برزقهم هناك ويراح . والله أعلم " . عمدة التفاسير : ٣/٧٤ .

(٣) هذه الأوجه وردت مفصلة في : الدر المصون : ٣/٤٨٣ ، الفتوحات الإلهية : ١/٣٣٥ .

(٤) تفسير أبي السعود : ٢/١١٢ .

(٥) المحرر الوجيز : ٣/٢٩٣ .

والذي أراه في ذلك أن النص القرآني قد أطلق حقيقة هذه العندية ولم يحدّدها ، ومن الأدب مع الله تعالى ومع كتابه الكريم أن نستن به فنطلق الأمر في ذلك ولانحدّده ، فهي عندية مطلقة مغيّبة لايفسّرها إلا الوحي ؛ بنصّ الكتاب أو بصحيح السّنة ، فنقبل ماورد فيهما مما يفسّر ذلك من غير تأويل يخرج النصوص عن ظاهرها، ولاينال من شرفها عدم تحديدها ؛ فكون المجاهدين المقتولين أحياء عند ربهم تكريم لهم في أعلى درجات الشرف والكرامة [١]، والذي يشير إلى ذلك ويرشد إليه إضافة الظرف [عند] إلى عنوان الربوبية ، ثم إضافة لفظ الربوبية إلى ضمير المقتولين ؛ مما أفاد مزيد تكرمة لهم [٢].

والتعبير بالرزق من خلال الفعل المضارع [يرزقون] يفيد حدوث رزقهم ومباشرتهم إياه بعد القتل ، كما يفيد تجدّده كلما اشتهت أرواحهم ، وإطلاقه يدل على كثرة أنواع الرزق وترادفها ، فليست مقصورة على نوع محدد . كما أن جملة [يرزقون] تأكيد لـ [أحياء] في المعنى ؛ لأن من يُرزق فهو حي .

وأما الجواب عن السؤال الثاني في مسألة تقديم الظرف على الرزق ؛ فظاهر ؛ وذلك أن [عند ربهم] ظرف له حقّ الصدارة على الجملة التي بعده ، ولأن المعنى في الوصف بالزّلفى عند الله والقرب منه أشرف من الوصف بالرزق [٣]. كما أن هذا التقديم يفيد الاختصاص ؛ كأن الله تعالى خصّهم بذلك دون غيرهم .

وقوله [فرحين] حال من الضمير في [يرزقون] [٤]، والفرح : انشراح الصدر، وابتهاج النفس بحصول اللّذة والنعيم [٥]. وهل يتعارض قوله تعالى : ﴿ فَرِحِينَ ﴾ مع قوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ [٦] ؟.

---

(١) يقول الفخر الرازي : " ولفظ [عند] فكما أنه مذكور ههنا فكذا في صفة الملائكة مذكور وهو قوله : ﴿ ومن عنده لايستكبرون عن عبادته ﴾ الأنبياء : ١٩ ؛ فإذا فهمت السعادة الحاصلة للملائكة بكونهم عند الله فهمت السعادة الحاصلة للشهداء بكونهم عند الله ، وهذه كلمات تفتح على العقل أبواب معارف الآخرة ". التفسير الكبير : ٩٣/٨ .

(٢) انظر : تفسير أبي السعود : ١١٢/٢.

(٣) انظر : البحر المحيط : ١١٣/٣ .

(٤) انظر : البحر المحيط : ١١٤/٣.

(٥) انظر : المفردات : ٣٧٥ .

(٦) القصص : ٧٦ .

يجيب عن ذلك أبو حيّان نافياً التعارض بينهما، ويعلل ذلك بأن الفرح الوارد في قصة قارون إنما هو فرح بالملاذ الدنيوية ، وهذا فرح بالملاذ الأخروية [١]، ولذلك جاء قوله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [٢] وهؤلاء قد فرحوا بما آتاهم الله من فضله ، وهنا يكون التوافق . وفَضْلُ الله الذي آتاهم هو الشهادة وما أعقبها من التكريم والنعيم .

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ . الواو : عاطفة على [فرحين] ، من باب عطف الفعل على الاسم في المعنى ، فهي جملة حالية ؛ لأن الصفة المشبهة تشبه المضارع ، والتقدير : فرحين ومستبشرين [٣]. وهل السين في الفعل للطلب ؟ .

يرى " ابن عطية " أنها ليست للطلب بل بمعنى الفعل المجرد ، كاستغنى الله بمعنى : غني ، واستمجد المَرْخ والعفار ، بمعنى مَجُد [٤].

ويجوّز أبو حيّان أنها فعل مطاوع لأفْعل [٥]، ويرى أن هذا هو الأظهر ، ويعلل مذهبه هذا قائلاً : " وإنما كان هذا الأظهر هنا لأنّه من حيث المطاوعة يكون منفعلاً عن غيره ؛ فحصلت له البشرى بإبشار الله له بذلك ، ولايلزم هذا المعنى إذا كان بمعنى " المجرّد " ؛ لأنّه لايدل على المطاوعة " [٦]. وماذهب إليه أبو حيّان أنسب لغرض النظم في الآية ، وأليق بذي الفضل جلّ وعلا ؛ إذ فيه نسبة فضل التبشير إليه سبحانه . وحقيقة البشارة : الإخبار بخبر سار يبسط بشرة الوجه ؛ لأن النفس إذا سُرّت انتشر الدم فيها انتشار الماء في الشجر [٧].

---

(١) انظر : البحر المحيط : ٣/١١٤ .
(٢) يونس : ٥٨ .
(٣) انظر : الدر المصون : ٣/٤٨٤ ، وإعراب القرآن وبيانه لمحي الدين الدرويش : ٢/١٠٨ .
(٤) انظر المحرر الوجيز : ٣/٢٩٥ .
(٥) أي أبشره الله فاستبشر ، كقولهم أكانه فاستكان ، وأراحه فاستراح .
(٦) البحر المحيط : ٣/١١٥ .
(٧) انظر : المفردات : ٤٨ ، وبصائر ذوي التمييز : ٢/٢٠٠ ، وقد توسع الفيروزآبادي في أوجه البشارة في القرآن وأوصلها إلى اثني عشر وجها . انظر : بصائر ذوي التمييز : ٢/٢٠٠-٢٠٢ . وأما مضمون استبشارهم فقد ذكر فيه الماوردي قولين ؛ " أحدهما : – يقولون : إخواننا يقتلون كما قتلنا فيصيبون من كرامة الله ما أصبنا ، وهو قول قتادة وابن جريج .
والثاني : – أنه يؤتى الشهيد بكتاب فيه ذكر من يقدم عليه من إخوانه فيبشر بذلك فيستبشر كما يستبشر أهل الغائب في الدنيا بقدومه ، وهذا قول السّدي ". النكت والعيون : ١/٤٣٧ .

ولكن ما المراد بـ [بالذين لم يلحقوا بهم] ؟ أهم المجاهدون في الدنيا أم جميع المؤمنين ويدخل فيهم المجاهدون دخولاً أوليًا ؟ ٠

هناك رأيان للمفسرين ؛ ذهب إلى الأوّل الجمهور ، وقَوَّى الثاني " الشوكاني " حيث قال : " وقيل المراد بإخوانهم هنا جميع المسلمين الشهداء وغيرهم ؛ لأنهم لمّا عاينوا ثواب الله وحصل لهم اليقين بحقيّة دين الإسلام استبشروا بذلك لجميع أهل الإسلام الذين هم أحياء لم يموتوا ، وهذا أقوى ؛ لأنّ معناه أوسع ، وفائدته أكثر ، واللفظ يحتمله ، بل هو الظاهر ، وبه قال الزجاج وابن فورك "[١]٠ وتعميم الشوكاني يعضّده ماجاء في تفسير ابن كثير حيث قال : " وقد روينا في مسند الإمام أحمد حديثاً فيه البشارة لكل مؤمن بأنّ روحه تكون في الجنة ، تسرح أيضاً فيها وتأكل من ثمارها ، وترى مافيها من النضرة والسرور ، وتشاهد ما أعدّه الله لها من الكرامة ، وهو بإسناد صحيح عزيز عظيم " ٠ ثم ساق مَتْن الحديث ، ونصّه : " [نسمة المؤمن طائر يَعْلَق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه] ٠ قوله [يعلق] أي : يأكل ٠ وفي هذا الحديث : أن روح المؤمن تكون على شكل طائر في الجنة ٠ وأما أرواح الشهداء – فكما تقدم – في حواصل طير خضر ؛ فهي كالكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين ؛ فإنها تطير بأنفسها "[٢]٠ وترجيح الشوكاني مع تحقيق ابن كثير هو ماتطمئن إليه النفس ٠ وفي إعراب جملة [ألاّ خوف عليهم ولاهم يحزنون] وفي إظهار بلاغتها يقول أبو السعود : " بدل من [الذين] بدلَ اشتمال مبيِّن لكون استبشارهم بحال إخوانهم لابذواتهم ، وأنْ هي المخففة من أنّ ، واسمها ضمير الشأن المحذوف ، وخبرها الجملة المنفية ، أي ويستبشرون بما تبين لهم من حسن حال إخوانهم الذين تركوهم ، وهو أنهم عند قتلهم يفوزون بحياة أبديّة ، لايكدرها خوف وقوع محذور ، ولاحزن فوات مطلوب ، أو لاخوف عليهم في الدنيا من القتل فإنّه عين الحياة التي يجب أن يُرغب فيها فضلاً عن أن تُخاف وتُحذر ، أي لايعتريهم مايوجب ذلك ، لا أنّه يعتريهم ذلك لكنهم لايخافون ولايحزنون ، والمراد بيان

---

(١) فتح القدير : ٣٩٩/١ ٠ وانظر : الجامع لأحكام القرآن : ٢٧٥/٤ ٠

(٢) عمدة التفاسير : ٧٤/٣ ، ٧٥ ٠

دوام انتفاء الخوف والحزن ، لابيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر في الجملة الثانية مضارعا ؛ فإن النفي وإن دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام "[١].

ولكن مافائدة ذكر حال الشهداء واستبشارهم بمن خلفهم ؟.

يجيب عن ذلك الزمخشري فيقول : " وفي ذكر حال الشهداء واستبشارهم بمن خلفهم بعث للباقين بعدهم على ازدياد الطاعة والجد في الجهاد والرغبة في نيل منازل الشهداء وإصابة فضلهم ، وإحماد لحال من يرى نفسه في خير فيتمنّى مثله لإخوانه في الله ، وبشرى للمؤمنين بالفوز في المآب "[٢].

وكلام الزمخشري هذا حسن جامع .

قوله تعالى : ﴿ **يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ** .. ﴾ كرّر فعل الاستبشار هنا توكيداً لاستبشارهم السابق ، وهذا قول ابن عطية [٣] ، والشوكاني [٤] .

ويقول أبو السعود : " كرّر لبيان أن الاستبشار المذكور ليس بمجرد عدم الخوف والحزن بل به وبما يقارنه من نعمة عظيمة لايقادر قدرها ، وهي ثواب أعمالهم " . وأورد رأياً آخر للغرض من التكرير فقال : " وقد جُوّز أن يكون الأوّل متعلقاً بحال إخوانهم ، وهذا بحال أنفسهم بياناً لبعض ما أجمل في قوله تعالى : ﴿ **فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾ "[٥].

والذي يظهر أن الاستبشار الثاني كُرّر توكيداً للاستبشار الأوّل ؛ لأنّه يتضمّن معناه ويزيد عليه ببيان أنّ كل ماحصل لهم وماسيحصل لإخوانهم من بعدهم إنما هو نعمة من الله وفضل وتكرّم .

---

(١) تفسير أبي السعود : ١١٢/٢-١١٣ .

(٢) الكشاف : ٢١٣/١ .

(٣) انظر : المحرر الوجيز : ٢٩٥/٣ .

(٤) انظر : فتح القدير : ٣٩٩/١ .

(٥) تفسير أبي السعود : ١١٣/٢ . ويذكر أبو حيّان رأياً آخر هو البدلية ولذلك لم يدخل عليه العاطف ، ثم قال : والظاهر أن قوله [يستبشرون] ليس بتأكيد للأوّل بل هو استئناف متعلق بهم أنفسهم لا بالذين لم يلحقوا بهم ؛ فقد اختلف مُتَعلّق الفعلين فلا تاكيد ، لأن هذا المستبشَر به هو لهم وهو نعمة الله عليهم وفضله " . البحر : ١١٦/٣ . ورأي أبي حيّان له وجاهته .

وتنكير [نعمة] وكونها [من الله] قصد به تفخيمها [١]. وتنكير [فضل] غرضه التعظيم ؛ أي زيادة عظيمة [٢]؛ كما في قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ [٣]، يقول أبو حيّان : " وفي التنكير دلالة على بعض غير معيّن ، وإشارة إلى إبهام المراد تعظيماً لأمره ، وتنبيهاً على صعوبة إدراكه ، كما جاء " فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر "[٤].

وهل هناك فرق بين الفضل والنعمة ؟ .

يجيب عن ذلك أبو حيّان ذاكراً الأقوال في ذلك ؛ فيقول : " والظاهر تباين النعمة والفضل للعطف ، ويناسب شرحهما أن ينزّل على قوله ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ ؛ فالحسنى هي النعمة ، والزيادة هي الفضل ؛ لقرينة قوله [أحسنوا] وقوله ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [٥]. وقال الزجاج : النعمة هي الجزاء ، والفضل : زائد عليه قدر الجزاء ، وقيل : النعمة قدر الكفاية ، والفضل : المضاعف عليها مع مضاعفة السرور بها واللّذة ، وقيل : الفضل داخل في النعمة دلالة على اتّساعها ، وأنها ليست كنعم الدنيا " [٦]. والنص القرآني يتّسع لهذه التأويلات .

وقوله تعالى : ﴿ وأنّ الله لايضيع أجر المؤمنين ﴾ قرأ الجمهور والسبعة ماسوى الكسائي بفتح الهمزة [وأنّ] فيكون معطوفاً على مايُسْتَبْشَر به داخلاً فيه[٧]. وقرأ الكسائي وجماعة بكسر الهمزة [وإنّ] على الاستئناف[٧] ؛ فيكون دالاً على أن ذلك أجر لهم على إيمانهم مشعر بأن من لا إيمان له أعماله محبطة لا أجر له [٨].

ولكن ما المقصود بالمؤمنين أهم الشهداء أم عامة المؤمنين ؟ .

---

(١) تفسير أبي السعود : ١١٣/٢.

(٢) تفسير أبي السعود : ١١٣/٢.

(٣) وتمام الآية ﴿ ولايرهق وجوههم قتر ولاذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ يونس : ٢٦ .

(٤) البحر المحيط : ١١٦/٣ .

(٥) آل عمران : ١٧٢ .

(٦) البحر المحيط : ١١٦/٣ .

(٧) انظر : البحر المحيط : ١١٦/٣ .

(٨) تفسير أبي السعود : ١١٣/٢ .

يقول أبو السعود : " والمراد بالمؤمنين : إما الشهداء ، والتعبير عنهم بالمؤمنين للإيذان بسموّ رتبة الإيمان ، وكونه مناطاً لما نالوه من السعادة . وإمّا كافة أهل الإيمان من الشهداء وغيرهم ذكرت توفية أجورهم على إيمانهم ، وعدّت من جملة مايستبشر به الشهداء بحكم الأخوّة في الدين "[1] . والرأي الأخير الذي ذكره أبو السعود يؤيّد ما انتصر له الشوكاني[2] في أن المراد بـ [الذين لم يلحقوا بهم] هم كافة المؤمنين ، وليس الشهداء وحدهم ، وإن كان الشهداء لهم مزيد فضل وتنعيم .

وبمناسبة الكلام على ماورد عن " الشهداء " في سورة " آل عمران " يرد تساؤل عما ورد في سورة " البقرة " عن " الشهداء " أيضاً وهو قوله تعالى : ﴿ **وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ** ﴾[3] .

والسؤال هو : لم كان النهي هنا عن القول ، وهناك عن " الحِسْبَان " ؟ وكانت صلة الموصول هنا بالمضارع المبني للمجهول ، وهناك بالماضي ، ثم ختمت الآية هنا بالتعليل بعدم الشعور ، وهناك فُصِّل القول في حياتهم الأخرويّة ؟ فما سرّ اختلاف النظم في الموضعين مع اتفاق الغرض ؟ .

والجواب عن ذلك يعود شيء[4] منه إلى اختلاف سبب النزول في الموضعين ؛ ولهذا فقد اختلف لفظ النظم فيهما . وبيان ذلك : أن سبب النزول في آية " البقرة " هو على ما أورده الواحدي في كتابه[5] ، أنها : " نزلت في قتلى " بدر " وكانوا بضعة عشر رجلاً ، ثمانية من الأنصار وستة من المهاجرين ؛ وذلك أن الناس[6] كانوا يقولون للرجل يقتل في سبيل الله مات فلان ، وذهب عنه نعيم الدنيا ولذتها ؛ فأنزل الله هذه الآية " .

---

(١) تفسير أبي السعود : ١١٦/٣ .
(٢) انظر : ٢١١ .
(٣) البقرة : ١٥٤ .
(٤) إنما قلتُ ذلك ؛ لأن القطع بالجواب كاملاً لا أدّعيه ، وإنما الذي يعلمه هو الله عز وجل .
(٥) أسباب النزول : ٣٤ .
(٦) قيل إن قائل ذلك هم المشركون والمنافقون . انظر : التفسير الكبير : ١٤٥/٤-١٤٦ ، روح المعاني : ٢٠/٢ .

وقال أبو حيّان : " وظاهر قوله [لمن يقتل في سبيل الله] العموم ، وقيل نزلت في شهداء بدر كانوا أربعة عشر ، ولايخصص هذا العموم بهذا السبب ، بل العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب ، وفي هذه الآية تسلية لأقرباء الشهداء وإخوانهم من المؤمنين بذكر أنهم أحياء مغبوطون لامحزون عليهم "(١) .

فالنهي الوارد عن ذلك القول المذكور نهي عن اعتقاد ذلك القول ، وذلك لأن الإنسان – في الغالب – لايقول إلاّ مايعتقد ؛ فالمعنى : لاتعتقدوا ذلك ، بل الصواب خلافه ، وهو أنهم أحياء ؛ فالنّص على نفي القول هنا لورود سببه ولتصويب الخطأ في تصوّر حال الشهداء ؛ فناسب المقام نفي ذلك بالنّص عليه .

وأمّا ماورد في " آل عمران " فكان حسباناً وظناً روّجه المنافقون بعد أن كثر القتلى في غزوة " أحد " ، فلمّا خُشي أن يصير اعتقاداً بودر إلى نفيه وهو في مرحلة الحِسْبان ، بتوجيه الخطاب إلى كلّ حاسب وظان ؛ فقال تعالى : ﴿ **ولاتحسبنّ** .. ﴾ ؛ ومن جهة أخرى فإنّ الحياة والنعيم اللذين وجدهما الشهداء بعد أن قتلوا .. فرغبة منهم بإشعار أحبابهم وإخوانهم في الدنيا بذلك طلبوا من ربهم جلّ وعلا أن يبلغ عنهم ماهم فيه ، فكانت تلك الآيات(٢) ؛ ولايرد على ذلك أنّ ماجاء في سورة " البقرة " كافٍ لنفي اعتقاد موتهم والإخبار بحياتهم ، فيكون ماجاء في سورة " آل عمران " تكرارا ، ؟ كلا ! ، فإنّ ماجاء في سورة " البقرة " عام مجمل ، وهو قد مهّد لأن يبنى عليه ماجاء عن الشهداء في " آل عمران " ؛ فإن المؤمنين لم يعتقدوا موت الشهداء ، وإنّما لم يخطر على بالهم ذلك التكريم ، والنعيم العظيم الذي رزقوه من الله تعالى ؛ ولذلك فقد ناسب أن يُصَحّح حِسْبانهم بأنْ نُفِي وأثبت خلافه ، مع تفصيل يليق بالمقام ويشرح حال الشهداء ، ويفصّل ما أجمل في سورة " البقرة " .

وأما كون صلة الموصول قد جاءت في آية البقرة بـ [يُقْتل] ، وفي " آل عمران " [قُتِلوا] فمراعاة للحال ومايستقبل من الزمان ؛ فإنّه معلوم أن أوّل الغزوات الكبرى التي غزاها النبي عليه الصلاة والسلام هي غزوة بدر ، ولم يقتل فيها سوى نزر يسير بلغ أربعة عشر رجلاً ، ولما كانت الآية قد نزلت بُعيد هذه الغزوة ولم يمض من القتلى

---

(١) البحر المحيط : ٤٤٩/١ .
(٢) انظر : ٢٠٥ – ٢٠٦ .

سوى ذلك ناسب التعبير بالمضارع المشعر بما سيجد ويحدث من القتلى في الغزوات القادمة . ويرى الألوسي رأياً آخر حيث يقول : " وعدل سبحانه عن [قتلوا] المعبر عنه في " آل عمران " إلى [يقتل] روماً للمبالغة في النهي ، وتأكيد الفعل في تلك السورة يقوم مقام هذا العدد هناك " (١).

وأمَّا ماوقع في " أحد " فقد كثر القتل واستعر في المؤمنين حيث قُتل سبعون ، وأسر مثلهم ؛ ولذلك فقد روعي جانب مامضى من القتلى ، ونُظر إلى كثرة الماضين منهم ؛ فعبّر عنهم بالماضي فقيل [الذين قتلوا ..] تشريفاً لهم ، ورفعاً لمنازلهم ، وإنهاضاً لبقية المؤمنين في أن يفعلوا مثل مافعلوا .

وأما نفي الشعور بحياة الشهداء في آية "البقرة " وترك ذكره في " آل عمران " ؛ فلكون المقام يقتضي ذلك ؛ فإنّ قول مَنْ قال : إن المقتولين في سبيل الله أموات ناتج عن جهلهم بحياتهم بعد القتل ، وعدم شعورهم بذلك ، وعلى هذا بنوا مقالتهم ؛ ولهذا ناسب النّص على فساد مُقَدّمتهم وبطلانها ، وبذلك لم يعد لقولهم أصل ولا أساس صحيح . يقول الألوسي : " [ولكن لاتشعرون] أي لاتحسّون ولاتدركون ماحالهم بالمشاعر ؛ لأنّها من أحوال البرزخ التي لايُطّلع عليها ، ولاطريق للعلم بها إلاّ بالوحي " (٢).

وأما ماجاء في " آل عمران " فقد كان بياناً لما أجمل في آية " البقرة " ؛ وذلك ببيان طبيعة حياة المقتولين في سبيل الله ، بعد إبهامها في سورة " البقرة " ، فلمّا نفى شعور الناس جميعاً في الحياة الدنيا بطبيعة حياة القتلى في سبيل الله في " البقرة " طفق النّص القرآني الكريم يبيّن تلك الحياة ، وينعت حال أصحابها في " آل عمران " ؛ فكان هذا من إيضاح القرآن بالقرآن ؛ وذلك بمقتضى الأحوال ، وعلى حسب المقامات ، وفق الحكم البالغة من الحكيم الخبير .

بقي سؤال وهو : هل يُقطع لأحد بالشهادة في سبيل الله ؛ بحيث يقال : فلان استشهد ، أو فلان : شهيد ؟.

---

(١) روح المعاني : ٢/٢٢ .

(٢) روح المعاني : ٢/٢٠ ، وبنحو ذلك قال أبو السعود ، ولعل الأوّل أخذ عن الثاني ، لتقدّمه عليه . انظر : تفسير أبي السعود : ١/١٧٩ .

لقد أجاب عن مضمون هذا السؤال الشيخ محمد بن صالح العثيمين فقال : " لايجوز لنا أن نشهد لشخص بعينه أنه شهيد حتى لو قتل مظلوماً ، أو قتل وهو يدافع عن الحقّ ؛ فإنّه لايجوز أن نقول : فلان شهيد ، وهذا خلافاً لما عليه الناس اليوم حيث رخّصوا هذه الشهادة وجعلوا كل من قتل حتى ولو كان مقتولاً في عصبية جاهلية يسمونه : شهيداً ، وهذا حرام ؛ لأن قولك عن شخص قتل هو شهيد يعتبر شهادة سوف تسأل عنها يوم القيامة ، سوف يقال لك : هل عندك علم أنه قتل شهيداً ؟. ولهذا لما قال النبي صلى الله عليه وسلم : [مامن مكلوم يُكْلم في سبيل الله - والله أعلم بمن يكلم في سبيله - إلاّ جاء يوم القيامة وكَلْمه يَثْعب دما ، اللّون لون الدم ، والريح ريح المسك] . ؛ فتأمّل قول النبي صلى الله عليه وسلم : [والله أعلم بمن يكلم في سبيله] - يُكْلم : يعني يجرح - ؛ فإن بعض الناس قد يكون ظاهره أنّه يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، ولكن الله يعلم مافي قلبه ، وأنّه خلاف مايظهر من فعله ، ولهذا بوّب البخاري - رحمه الله - على هذه المسألة في صحيحه فقال : [باب لايقال : فلان شهيد] ؛ لأن مدار الشهادة على القلب ، ولايعلم مافي القلب إلاّ الله عز وجل . فَأَمْر النّية أمر عظيم ، وكم من رجلين يقومان بأمر واحد يكون بينهما كما بين السماء والأرض ؛ وذلك من أجل النية ؛ فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : [إنّما الأعمال بالنيات وإنّما لكل امرئ مانوى ؛ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ماهاجر إليه] . والله أعلم "[1].

وقد يكون الغرض البلاغي كامناً وراء تكرار عدّة ألفاظ ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾[2].

(١) فتاوى الشيخ محمد بن صالح العثيمين : ١/١٩٩، ٢٠٠ .
(٢) النساء : ٧٥ .

فقد خوطب المسلمون بأسلوب الإنكار على تركهم الجهاد في سبيل الله أمراً لهم به من أجل استنقاذ الضعفاء الذين تلك حالهم وذلك دعاؤهم ؛ فأوّل الآية استئناف مسوق للحث على الجهاد بطريق الاستفهام[١] ، وقد انتقل النص القرآني من أسلوب الغيبة[٢] ، إلى أسلوب الخطاب بالقتال على طريقة الالتفات ، وذلك مبالغة في التحريض عليه ، وتأكيداً لوجوبه[٣] .

وقوله :[والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان] الواو عاطفة إما على لفظ الجلالة ، أي في سبيل خلاص المستضعفين من الأعداء ، أو عطف على السبيل بحذف المضاف ، أي في خلاص المستضعفين [٤] .

والمستضعف : هو من وجد ضعيفاً [٥] لاحول له ولاقوّة وقد قصد بهم من بقي من المؤمنين في مكة ومَنَعَهم المشركون من الهجرة إلى المدينة [٦] . و [مِنْ] بيانية بَيّنت المراد بالمستضعفين [٧] .

وقد ذكر [الولدان] وهم الصبيان الصغار – مع أنهم داخلون في عموم الرجال والنساء " تكميلاً للاستعطاف ، واستجلاب الرحمة ، وتنبيهاً على تناهي ظلم المشركين بحيث بلغ أذاهم الصبيان لإرغام آبائهم وأمهاتهم ، وإيذاناً بإجابة الدعاء الآتي ، واقتراب زمان الخلاص ؛ ببيان شركتهم في التضرع إلى الله تعالى ، كل ذلك للمبالغة في الحث على القتال " [٨] .

والفائدة من صلة الموصول التعريف بهم ، وكشف المزيد من أحوالهم مما يستدرّ العطف عليهم ، ويثير الغيرة لحالهم . وتوجيه الدعاء منهم بعنوان الربوبية أرادوا به إظهار ضعفهم وقلّة حيلتهم ؛ فلجأوا إلى من ربّاهم بنعمه وأكرمهم بخيراته وإفضاله

---

(١) انظر : إعراب القرآن وبيانه : ٢/٢٦٣ .
(٢) في قوله تعالى في الآية السابقة :﴿ فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما ﴾ . النساء : ٧٤ .
(٣) انظر : تفسير أبي السعود : ٢/٢٠١ .
(٤) انظر : تفسير أبي السعود : ٢/٢٠١ ، ٢٠٢ .
(٥) انظر : المفردات : ٢٩٦ .
(٦) انظر : التحرير والتنوير : ٥/١٢٢.
(٧) انظر : تفسير أبي السعود : ٢/٢٠٢ .
(٨) تفسير أبي السعود : ٢/٢٠٢ .

بأن يتمّم عليهم ذلك ويدفع عنهم نقمة الظالمين ٠ لأن من معاني الرّب : أنّه المتكفل بمصلحة الموجودات [١]٠

وقوله [أَخْرِجنا] أمر صدر من الأدنى إلى الأعلى ؛ فكان دعاء وتضرعا ٠

وقوله [من هذه القرية] من : حرف جار مفيد ابتداء الخروج ، ولم تحدّد غايته ولانهايته مبالغة في أنّ الظّلم كلّ الظلم إنما هو في هذه القرية ، بحيث إن خروجهم منها إلى أيّ مكان يرفع عنهم الظلم ، ويكشف عنهم التعذيب ٠

وفائدة اسم الإشارة [هذه] الإشعار بتمكّن أهلها من الظلم ، وقربهم منه ومقارفتهم له في جلّ أعمالهم ٠

والقرية في الأصل من قَرَيتُ الماء في الحوض ، وقَرَى الشّيءَ في فمه : جَمعه ، وقَرَيان الماء مُجْتَمعه ؛ وقد سميت القرية بذلك لاجتماع الناس فيها [٢]٠ والمراد بها هنا : مكة بالإجماع[٣]٠

وقوله [الظالمِ أهلُها] وصف للقرية ، ولكنّه ذكّر لكونه مسنداً إلى مذكّر وهو الأهل ٠ و " أل " في الظالم موصولية : أي التي ظَلَم أهلُها [٤]؛ فالظّلم جار على القرية لفظاً وهو لما بعدها معنى [٥]٠

وظلم أهل مكة بأمرين : بكونهم مشركين ، والشرك ظلم عظيم كما قال تعالى : ﴿ **إن الشرك لظلم عظيم** ﴾ [٦]٠

والثاني : منعهم المؤمنين من الهجرة إلى المدينة ، وأذيّتهم لهم وتعذيبهم على إسلامهم [٧]٠

ولم ينسب الظّلم إلى القرية مجازاً كما نسب إلى غيرها مثل قوله تعالى : ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا** ﴾[٨] وقوله ﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ** ٠٠ ﴾[٩] وذلك لأن المراد

(١) انظر : المفردات : ١٨٤ ٠
(٢) انظر : المفردات : ٤٠٢ ، ٤٠٣ ٠
(٣) انظر : الكشاف : ٢٥٧/١ ٠
(٤) انظر : الكشاف : ٢٥٧/١ ، والبحر المحيط : ٢٩٦/٣ ، والدر المصون : ٣٨/٤ ٠
(٥) انظر : الدر المصون : ٣٨/٤ ٠
(٦) لقمان : ١٣ ٠
(٧) انظر : روح المعاني : ٨٢/٥ ٠
(٨) القصص : ٥٨ ٠
(٩) النحل : ١١٢ ٠

بالقرية هنا مكة كما قاله ابن عباس والحسن والسدي وغيرهم ؛ فوُقّرت عن نسبة الظلم إليها تشريفاً لها (١)، وهي أشرف بقاع الأرض ، وأحبّها إلى الله تعالى.

وقوله تعالى : ﴿ وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً ﴾ فيه مسائل :

الأولى : أن قوله [واجعل] دعاء ثان معطوف على الدعاء الأوّل ، يدل على صدق إيمانهم ، وشدّة لَجئهم إلى الله تعالى وحده ، كما يدل على مبلغ ماهم فيه من ضعف وقلة حول .

الثانية : تقديم الجارين اللام ومن المتعلقين بـ [اجعل] على المفعول الصريح " لإظهار الاعتناء بهما ، وإبراز الرغبة في المؤخّر بتقديم أحواله "(٢).

الثالثة : تقديم اللام ومجرورها على [من] وذلك " للمسارعة إلى إبراز كون المسؤول نافعاً لهم مرغوباً فيه لديهم "(٣).

الرابعة : تقديم [من لدنك] وإضافته إلى ضمير الخطاب العائد على المدعو سبحانه ، وذلك إظهاراً لشدّة تعلّقهم بما عند الله ، ورغبة في أن يكون ذلك ولاية نهائية تثبت وتدوم لكونها من عند الله تعالى هيأها وأرسلها كرامة منه سبحانه .

الخامسة : اختيار [لدن] في جملة الدعاء دون [عند] لكون الأولى أخص من الثانية ، فلدن توضع موضع نهاية الفعل ، فهي أخص من عند وأبلغ (٤) ، والجملة الدعائية الثانية معطوفة على الجملة الدعائية الأولى ، ويلاحظ تكرارها بألفاظ الأولى نفسها ، ولم تختلف عنها إلاّ في المفعول ؛ فهو في الثانية [نصيرا] وفي الأولى [وليّا].

وللقاريء أن يسأل فيقول : ما الغرض من تكرار الدعاء بألفاظه دون سواها ؟ ثم ما الفرق بين الولي والنصير ؟ ولم قدّمت الولاية على النصرة ؟ ثم هل أجيبت هذه الدعوة ؟ .

---

(١) انظر : روح المعاني : ٨٢/٥ .
(٢) روح المعاني : ٨٢/٥ .
(٣) المصدر السابق : ٨٢/٥ .
(٤) انظر : المفردات : ٤٤٩ .

أما الغرض من تكرير الفعل ومتعلقيه فهو للمبالغة في التضرّع والابتهال [١]، وهذا أحرى لقبول الدعاء، وسرعة الإجابة؛ فإنّ من يلحّ في طرق الباب حريّ بأن يفتح له . هذا من وجه، ومن وجه آخر فإنّ من يسمع دعاءهم من المؤمنين ويتصوّر حالهم تثور لديه غيرة الإيمان، وتنبعث عنده همّة الجهاد انتصاراً لحالهم، واستنقاذاً لهم .

وفي الدعاء المذكور تلويح بأنّ من انتصر لحالهم، وجاهد في سبيل الله من أجل رفع الظلم عنهم – هو من جنس الولي والناصر الذي قيّضه الله لهم استجابة لدعائهم؛ فينال بذلك نهاية الشرف والكرامة .

والفرق بين الولاية والنصرة تستبين من كلام ابن الجوزي فقد قال: " قال أبو سليمان: سألوا الله وليّاً من عنده يلي إخراجهم منها، ونصيراً يمنعهم من المشركين، قال ابن عباس: فلما فتح رسول الله مكة، جعل الله عزّ وجل النبيّ عليه السلام وليّهم، واستعمل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عتّاب بن أسيد فكان نصيراً لهم؛ ينصف الضعيف من القوي "[٢] .

فكأنّ الولاية هي مقدّمة النّصرة وأصلها؛ ولهذا بدأوا في دعائهم بها، ثم إن الولاية أدق معنى من النصرة وأعمق منها؛ لأن الولاية تتضمّن تفقّد الشؤون الخاصة من قبل الولي واستصلاح الفاسد منها وإقامة المعوجّ، ومنه ولاية اليتيم؛ ففيها نصرة وزيادة، ولاتكون النّصرة إلاّ عند عدم وجود الولاية؛ لأنّ النصرة تقيم العدل من الناصر، وتزيل الظلم عن المنصور، ولاتكاد تطلب النّصرة إلا عند حدوث الظلم وضعف الوالي؛ ولهذا فقد طلب أولئك الضعفة في دعائهم الولاية أوّلا؛ إذ بوجودها لايقع الظلم أصلا، فلمّا وقع الظلم وانتشر طلبوا النّصرة حتى ترفعه وتزيله .

فبين الولاية والنصرة عموم وخصوص؛ فكلّ ولاية نصرة وزيادة؛ ولهذا طلبت أوّلا، وليس كلّ نصرة ولاية، فقد يكتفى بها من أجل إزالة الظلم وردع الظالم وإقامة العدل، ثم تأخذ الولاية مجراها، وتمارس عملها . وقد ينبثق من النصرة وال يقيم

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ٢/٢٠٢ .
(٢) زاد المسير في علم التفسير: ٢/١٣٣ .

العدل ويتولى أمور الناس بالحق ، كما هي حال مكة بعد الفتح مع عتاب بن أسيد الذي ولاه الرسول عليه الصلاة والسلام إمارتها .

والجواب عن السؤال الأخير ؛ - وهو إجابة دعائهم - يقول عنه الألوسي : " ولقد استجاب الله تعالى شأنه دعاءهم ، حيث يسّر لبعضهم الخروج إلى المدينة ، وجعل لمن بقي منهم خير وليّ وأعزّ ناصر ؛ ففتح مكة على يدي نبيه صلى الله عليه وسلم فتولاّهم أيّ تولٍ ، ونصرهم أيّ نصرة ، ثم استعمل عليهم عتاب بن أسيد وكان ابن ثماني عشرة سنة فحماهم ونصرهم حتى صاروا أعزّ أهلها "(١).

ومن صور التكرار لغرض التوكيد ؛ أن يكون ذلك من خلال حرف يكرّر ليناط به تحقيق معنى من المعاني في النظم القرآني ، من ذلك قوله تعالى في تصوير موقف " الشيطان " من المشركين حين قابلوا جيش المؤمنين يوم " بدر " ﴿ **وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾(٢).

والظرف [إذ] منصوب بفعل محذوف تقديره [اذكر] خوطب به النبي عليه الصلاة والسلام(٣)، قصد منه استحضار ذلك الوقت ، وماجرى فيه من الخزي والعار على المشركين ، ومبعث ذلك هو فعل الشيطان وتزيينه ، وفي ذلك تحذير من اتباع الشيطان أو الأخذ بوساوسه .

والتعبير بالماضي في [زَيَّن] جرى على مقتضى الظاهر من حكاية أحوال مضت قبل نزول الآية .

والزَّين : في الأصل ضد الشَّين(٤)، وهو مايستحسن من الفضائل كالمعارف والمعتقدات ، ومن المظاهر كحال الإنسان وماله وجاهه(٥).

---

(١) روح المعاني : ٨٢/٥ .

(٢) الأنفال : ٤٨ .

(٣) انظر : تفسير أبي السعود : ٢٦/٤ .

(٤) انظر : اللسان : مادة : زين .

(٥) انظر : بصائر ذوي التمييز : ١٥٥/٣ .

ومن هنا بنى الشيطان وسوسته وتزيينه للمشركين في جلّ أعمالهم بأنّهم إذا اتبعوه وأطاعوه فسيَنْبُهُ شأنهم ، ويرتفع ذكرهم ، فنكبوا من هذا الوجه ؛ لأن تزيين الشيطان شرّ ، واتباعه غواية تفضي إلى الهاوية كما قال تعالى عنه ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾(١).

وأمّا تزيين الرحمن فخير وحكمة كما قال تعالى :﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢).

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ (٣).

وتقديم الجار والمجرور [لهم] على الفاعل فيه لطيفتان : -

الأولى : أنها تزيد في تحديد المقصود من فعل الشيطان وتزيينه بأنه لهؤلاء المشركين ؛ فقد أنيطوا بغرض هذا التزيين واختُصوا به في تلك الحادثة ، عندما تقدم ضميرهم ، وجُرّ بلام الاختصاص ، المؤذنة بأنّ التزيين المذكور يخصهم دون غيرهم .

الثانية : أنّه لو قُدّم الفاعل وأُخّر الجار والمجرور فقيل - في غير القرآن - " وإذ زين الشيطان لهم أعمالهم " - فإنّه سينال من بلاغة النظم ويُذهب طلاوة الآية ؛ لما في الجمع بين الضميرين المتصلين " لهم أعمالهم " من ثقل ، ونوع تكرار ، بحكم التجاور، وعدم الفاصل ، ولكن لمّا وقع الفصل بينهما بالفاعل فقد انتفى التجاور ، وارتفع الثقل، وارتاح بوساطته اللّسان في أثناء التلاوة ، والذي مكّنَ لهذه الراحة اشتمال الفاعل على المدّ الطبيعي على الألف ؛ ومقداره حركتان ؛ فكان بذلك راحتان عند التلاوة ؛ إحداهما على أذن السامع ، والأخرى على حركة اللسان .

وقوله [الشيطان] أصله من : " شَطَنَ أي : تباعد ، ومنه : بئر شَطون ... وقيل : بل النون فيه زائدة من شاط يشيط : احترق غضباً ؛ فالشيطان مخلوق من

---

(١) الحجر : ٣٩ ، ٤٠ .
(٢) الحجرات : ٧ ، ٨ .
(٣) الحجر : ١٦ .

النار ، كما دلّ عليه ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾[(١)] ولكونه من ذلك اختَص بفرط القوّة الغضبيَّة والحميَّة الذَّميمة ، امتنع من السجود لآدم ٠ قال أبو عبيدة : الشّيطان اسم لكل عَارِمٍ من الجنّ والإنس والحيوانات "[(٢)]٠ ولمّا كان الشيطان كذلك كان بعيداً عن الحقّ واقعاً في الضَّلال ، يتزيّا به ، ويُزَيِّنه في النفوس ؛ فمن أطاعه كان معه ، ومن عصاه نجى منه إلى واحة الإيمان وجنان الرحمن ٠

قوله [أعمالهم] : إضافة الأعمال إليهم ، وكونها نتيجة تزيين الشيطان إشارة ظاهرة إلى أنّ جلّ أعمال الكفرة والمشركين هي من نَتَاج وسوسة الشيطان وتزيينه ؛ ولهذا يرون المعروف منكراً والمنكر معروفا ، يستوي في ذلك كثير من المطعوم والمشروب ، والمنكح والملبس ، وكثير من المعتقدات ، والسياسات الحربية والمالية ٠ قال تعالى : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾[(٣)]٠ فما كلّ مااستحسن عند الضُّلال يكون حسناً عند الله وعند المؤمنين ، بل هو في جملته سيء كما هو صريح الآية في بنائها على الاستفهام الإنكاري لغرض النفي[(٤)]٠

وقوله ﴿ وقال لاغالبَ لكم اليوم من الناس وإنّي جار لكم ﴾ : قال القرطبي : " روي أن الشيطان تمثّل لهم يومئذٍ في صورة سراقة بن مالك بن جُعْشم ، وهو من بني بكر بن كنانة ، وكانت قريش تخاف من بني بكر أن يأتوهم من ورائهم ؛ لأنهم قتلوا رجلاً منهم ، فلما تمثّل لهم قال ما أخبر الله به عنه "[(٥)]٠

وماورد من قول الشيطان المذكور في الآية مفصّل لذلك التزيين المجمل الوارد في أوّل الآية نفسها ٠

وإدخال [لا] النافية للجنس في معرض القول ، وتصدّرها لذلك ، أريد منه نفي جنس الغالب المتصوَّر وقوعه من الناس سواء أكانوا من المسلمين أم من بني كنانة ؛

---

(١) الرحمن : ١٥ ٠

(٢) المفردات : ٢٦١ ٠ والعَرَامة : شراسة وصعوبة في الخُلُق وتظهر بالفعل ٠ ومنه عُرَام الجيش : المصدر السابق : ٣٣٢ ٠

(٣) فاطر : ٨ ٠

(٤) انظر : إعراب القرآن وبيانه : ١٢٥/٨ ٠ وانظر : تفسير النسفي : المجلد الثاني /٣٣٤ ٠ وانظر : تجريد البيان : ٢٨١/٢ ٠

(٥) الجامع لأحكام القرآن : ٢٦/٨ ٠

وفي ذلك نفي للرّعب من نفوس الكفار ؛ وتحسينُ فكرة المسيرة إلى قتال المسلمين . وقال الألوسي : " ألقى في روعهم وخيَّل لهم أنهم لايغلبون ؛ لكثرة عَددهم وعُدَدهم ، وأوهمهم أنّ اتّباعهم إيّاه فيما يظنّون أنها قربات مجير لهم وحافظ عن السوء حتى قالوا : اللهم انصر أهْدى الفئتين وأفضل الدّينَين "[(١)] .

و [اليوم] المقصود به يوم بدر ؛ فأل فيه للعهد الحضوري ؛ والمقصود بالناس هم المسلمون ، وقد ينضمّ إليهم بنو كنانة ، من حيث إن قريشاً تخشى منهم أن ينتقموا لقتيلهم ، كما في رواية القرطبي المتقدمة آنفا ؛ وعلى ذلك فأل في [الناس] للعهد الذهني ؛ فهم الناس الذين في أذهان قريش وقت مقولة الشيطان لهم ، وليسوا سوى المسلمين وبني كنانة .

قوله [وإنّي جار لكم] ، يحتمل أن تكون الواو عاطفة ؛ فيكون الكلام من سلسلة الكلام المتقدم ، ومن تزيين الشيطان . ويحتمل أن تكون الواو حاليّة : أي كيف تُغلبون وأنتم في جواري أدْفع عنكم وأمْنع ؟ أي : هذا لايقع .

ومعنى الجار في الآية : " الدافع عن صاحبه أنواع الضّرر كما يدفع الجار عن جاره ، والعرب تقول : أنا جار لك من فلان أي : حافظ لك من مضرّته ؛ فلا يصل إليك مكروه منه "[(٢)] .

ومع هذا المعنى للجوار فقد أكّد تحقيقه لهم بـ [إنّ] حتى يزيل ماقد يكون في نفوس بعضهم من تردّد في ذلك الوقت الحاسم .

قوله [فلمّا تراءت الفئتان] ، الترائي : التوافق والتقابل ؛ بحيث ترى كل واحدة الأخرى[(٣)] ، وتبصرها بأمّ أعينها ؛ فهو مفاعلة من الرؤية[(٤)] .

والفئتان : هما فئة المؤمنين ، وفئة الكافرين ؛ فأل فيها للعهد الحضوري ؛ أي : الفئتان المعودتان الحاضرتان في ذلك اليوم .

---

(١) روح المعاني : ١٠/١٥ .
(٢) التفسير الكبير : ١٥/١٧٥ .
(٣) انظر : معاني القرآن وإعرابه للزجاج : ٢/٤٢١ .
(٤) انظر : التحرير والتنوير : ١٠/٣٦ .

قوله [نكص على عقبيه] ؛ نكص : أحجم[١] ، ورجع في ضدّ إقباله[٢] في وقت هم أحوج مايكونون إليه ، وهو وقت التلاقي والترائي ؛ ونكص جواب لمّا الظرفية المتضمّنة معنى الشرط ؛ أي : وقع نكوصه وقت الترائي .

يقول أبو السعود : " رجع القهقرى ، أي : بطل كيده وعاد ماخُيّل إليهم أنّه مجيرهم سبباً لهلاكهم "[٣].

و[على عقبيه] في موضع الحال[٤] ، أي : رجع هارباً . وفائدة هذه الحال تأكيد معنى النكوص ؛ ذلك أن النكوص لايكون إلاّ على العقبين[٥] .

وذكر [على] مفيدة للتمكّن من السّير بالعقبين[٦] ، كما أنّ فيها إشارة إلى سرعته في ذلك النكوص .والعقب مؤخر القدم ؛ والحكمة من ذكر العقبين : تفظيع التقهقر المذكور وتشنيعه ؛ لأن عقب الرجل أخسّ القوائم ؛ لملاقاته الغبار والأذى والقذى[٧] .

وقوله [وقال إنّي بريء منكم] الواو عاطفة هذا القول ومابعده على جواب [لمّا] وهو [نكص] ؛ فيكون ذلك الكلام قد وقع وقت الترائي وفي أثناء عمليّة النكوص .

وقيل في سبب إعلانه البراءة منهم إنّه قد عُنّف على هربه[٨] ، ذلك أنّه لما رأى أمارات النصر مع المسلمين بإمداد الله لهم بالملائكة[٩] ، وقد كان يعرفهم ويعرفونه[١٠] عند ذلك هرب ؛ فقيل له : أين ؟! أتخذ لنا في هذه الحال ؟ فقال ماقال[١١] .

ولم يكتف بذلك بل أعلن براءته وتخليه عنهم وكأنّه لايعرفهم ، إمعاناً في خذلانهم ،

---

(١) انظر المفردات : ٥٠٦ .
(٢) انظر : البحر المحيط : ٥٠٥/٤ .
(٣) تفسير أبي السعود : ٢٦/٤ .
(٤) انظر : روح المعاني : ١٥/١٠ .
(٥) انظر : التحرير والتنوير : ٣٧/١٠ .
(٦) انظر : التحرير والتنوير : ٣٧/١٠ .
(٧) انظر : التحرير والتنوير : ٣٧/١٠ .
(٨) انظر : معاني القرآن وإعرابه : ٤٢١/٢ .
(٩) انظر : فتح القدير : ٣١٥/٢ .
(١٠) انظر : مجمع البيان : المجلد الثاني /٨٤٣ .
(١١) البحر المحيط : ٥٠٥/٤ .

والانفصال عنهم ، يقول أبو حيّان : " لم يكتف بالفعل حتى أكّد ذلك بالقول "[١].

وقوله [إني أرى مالا ترون] تعليل[٢] وبيان لبراءته منهم ؛ ولذلك فقد فصلت عنها بترك العاطف . قال أبو حيّان : " رأى خرق العادة ونزول الملائكة "[٣].

والغرض من هذا التعليل إلقاء الرعب في قلوب مخذوليه ؛ وقد ساعده على ذلك حذف المفعول من [أرى] وتنكيره ؛ أي : أرى أمراً مهولاً لايُطاق ، وهم الملائكة الشّداد الغلاظ . وزاد من رعبهم أنه وصفهم بالجهل في قوله [مالا ترون] ؛ أي : أنتم جهلة يخفى عنكم أمر حَتْفكم مما هو أمامكم كامن لكم .

وقوله [إني أخاف الله] تعليل آخر[٤] وبيان مفصح عن سرّ تلك البراءة وذلك الخذلان ؛ ولذلك تُرك العاطف .

وهل خوفه من الله حقيقة ؟

يقول أبو حيّان : " قال قتادة وابن الكلبي : معذرة كاذبة ؛ لم يخف الله قط . وقال الزجاج وغيره : بل خاف مما رأى من الهول أنّه يكون اليوم الذي أُنظر إليه "[٥].

وقد يكون صادقاً في ذلك لكنه خالف عناداً ، وقد يكون الخوف هنا بمعنى العلم : أي أعلم صدق وعد الله نبيّه النصر[٦].كما في قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ﴾[٧].

وقوله [والله شديد العقاب] يحتمل أن تكون الواو عاطفة ، عطفت هذا الخبر على ماتقدم ؛ فيكون من جملة الكلام الذي حكي عن الشيطان الرجيم ، وكان غرضه من ذلك : " بسطاً لعذره عندهم وهو متحقق أنّ عذاب الله شديد "[٨]. ويحتمل أن تكون الواو استئنافية ؛ فيصبح من كلام الله تعالى " استؤنف تهديداً لإبليس ومن تابعه من مشركي قريش "[٩].

---

(١) البحر المحيط : ٥٠٥/٤ .
(٢) انظر : فتح القدير : ٣١٥/٢ .
(٣) البحر المحيط : ٥٠٥/٤ .
(٤) انظر : فتح القدير : ٣١٥/٢ .
(٥) البحر المحيط : ٥٠٥/٤ .
(٦) ذكرت هذه التأويلات في : فتح الرحمن بكشف مايلتبس في القرآن : ٢٢١ .
(٧) البقرة " ٢٢٩ .
(٨) البحر المحيط : ٥٠٥/٤ .
(٩) البحر المحيط : ٥٠٥/٤ .

والملاحظ أنّ حرف التوكيد المثقّل قد استعمل في هذه الآية أربع مرات : في المرة الأولى يؤكد الشيطان حقيقة ماقاله للمشركين من أنهم لن يغلبوا يوم بدر وهو جارهم المانع عنهم كلّ ضار ؛ وغرضه من ذلك تحسين فكرة خروجهم إلى قتال المؤمنين ؛ فلمّا نجح في ذلك والتقى الجمعان رجع هو القهقرى وأدبر على عقبيه واستعمل تسويغاً لذلك الإدبار وتعليلاً لهذا النكوص أربع جمل اسميّة ، وهي : براءته منهم ، وكونه يرى مالا يرون ، وكونه يخاف الله ، وكون الله شديد العقاب ، واختار اسمية الجملة في أخباره المتقدمة ليقطع أملهم فيه ، حتى يعلموا أنّ مايقوله لارجعة فيه . ولم يقتصر على ذلك بل صعد في كلامه إلى درجة أعلى لها أثرها على القوم في ذلك الموقف الحرج ، وذلك أنّه أكّد أخباره تلك بـ [إنّ] وكرّر حرف التوكيد المؤكّد في جمل ثلاث، وكان هذا التوكيد في الجمل بمثابة تكرار آخر لمقالاته ، فكان في قوّة ستّ جمل مكرّرة ، تجعل نفوس قادتهم في حيرة واضطراب ، ليس أمامها إلاّ الهزيمة المنكرة ، ولاسيما أنّه ختم مقالته بالجملتين الأخيرتين ، حيث أعلن أمامهم أنه يخاف الله ، كيف لا ؟ والله شديد العقاب ، فأيقنوا أنّهم على باطل ، وأنّ عذاب الله ينتظرهم بعد لحظات على أيدي الجموع التي أمامهم ؛ فكان ماكان ، وهزم الجمع وولّوا الدّبر ، وهذا ديدن الشيطان مع كل ضال من بني الإنسان كشف الله عنه في قوله :

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١).

---

(١) الحشر : ١٦ .

القصر وطرقه :ـ

إنّ من خصائص تركيب الجملة العربية القصر ؛ فهو من الأساليب البليغة في لسان العرب ؛ وبلاغته تكمن في كونه يفيد الإيجاز مع تقرير الأمر المراد ، " وهو مع إيجازه يفيد التوكيد والمبالغة ، والإيجاز والتوكيد والمبالغة من أسرار بلاغته "(١).

ويُجْمل الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي وجوه بلاغة القصر في الجمل الآتية :

"١ – الإيجاز .

٢ – تقرير الكلام وتمكينه في الذهن لدفع مافيه من إنكار أو شك .

٣ – الرد على المخاطب في قَصْرَي الإفراد والقلب .

٤ – تعيين المبهم في قصر التعيين .

٥ – مجاراة الخصم .

٦ – التعريض .

٧ – ذكر الواقع في القصر الحقيقي .

٨ – المبالغة في القصر الادعائي "(٢).

تلك بعض أغراض القصر البلاغية ، وأما تعريفه في الاصطلاح البلاغي فله من عنوانه اللغوي نصيب وافر ؛ فقد جاء في " أساس البلاغة " : " قصرته : حبسته ، وقصرت نفسي على هذا الأمر لم تطمح إلى غيره ، وقصرتُ طرفي إذا لم أرفعه إلى مالا ينبغي ، وهن قاصرات الطرف : قَصَرْنَه على أزواجهن .. "(٣).

وفي اصطلاح البلغاء ، القصر : " تخصيص شيء بشيء بوسيلة معيّنة "(٤). فأسلوب التخصيص هو القصر ، والشيء المخصَّص هو المقصور عليه ، والشيء المُخَصّص هو المقصور ، والمقصور والمقصور عليه هما طرفا القصر في الجملة . والوسيلة المعيَّنة التي يتم بها القصر هي طرق القصر ، وهي كثيرة (٥). والمتفق عليه منها أربعة وهي : –

---

(١) البلاغة الاصطلاحية : ٢٥١ .

(٢) الإيضاح بشرح د . خفاجي : ٣/٥ .

(٣) أساس البلاغة : مادة : قصر .

(٤) شرح التلخيص لمحمد نويدري : ٧٣ .

(٥) أوصلها السيوطي في الإتقان إلى أربعة عشر طريقاً . انظر : الإتقان : ٢/٥٠ .

١ - العطف ويكون بكل من " لا " والمقصور عليه هو المقابل لما بعدها ، والعطف بـ " لكنّ " و " بل " والمقصور عليه يأتي بعدهما .

٢ - النفي والاستثناء ، والمقصور عليه هو مابعد الاستثناء وهو من أقوى طرق القصر لما فيه من وضوح معنى القصر ، ولذا يستخدم في الأمور التي هي مجال للشك والإنكار [١].

٣ - " إنّما " ويقول عنها السكاكي : " لما كانت " إنّ " لتأكيد المسند للمسند إليه ثم اتصلت بها " ما " المؤكّدة ؛ ناسب أن تضمن معنى القصر ؛ لأن قصر الصفة على الموصوف وبالعكس ليس إلاّ تأكيداً للحكم على تأكيد " [٢]. والمقصور عليه بـ " إنّما " هو المتأخّر .

٤ - تقديم المسند أو المسند إليه أو بعض متعلّقات الفعل أو مافي معناه .

والقصر ينقسم من حيث طرفاه إلى قسمين : قصر صفة على موصوف والعكس [٣].

وينقسم القصر من حيث عموم النفي وخصوصه إلى حقيقي وإضافي ؛ فما كان النفي فيه عاماً كان حقيقياً ، وماكان خاصاً كان إضافيا . ثم إن الحقيقي ينقسم باعتبار المطابقة للواقع وعدمها إلى حقيقي تحقيقي وحقيقي ادعائي ؛ فمثال الأوّل : مامن خالق إلاّ الله . ومثال الثاني : مافي الفصل إلا طالب ، ومرادك طالب مجتهد مستوعب ، مع أنّه يوجد غيره في الفصل ولكنهم لايبلغون منزلته في طلب العلم ، فكأن لم يكن إلا هو في الفصل ادعاء .

وأما القصر الإضافي فينقسم باعتبار حال المخاطب إلى ثلاثة أقسام : -

أ - إفراد : يخاطب به من يعتقد الشِّركة بين أمرين أو أكثر .

ب - تعيين : ويخاطب به المتردد في صفتين أو أكثر أو موصوفين أو أكثر .

---

(١) انظر : من بلاغة القرآن : ١٥٧ .

(٢) مفتاح العلوم: ١٤٠ .

(٣) ينبغي التنبه إلى أن الصفة المذكورة أعم من الصفة التي يذكرها النحاة ؛ فهي في القصر الصفة المعنوية ، أي المعنى الذي يقوم بغيره ، والمراد بالموصوف مايحتمل وصفه بهذه الصفة سواء كان إنساناً أو حيواناً أو جماداً أو نباتا ، وقد يكون معنى نحو : إنما الإيمان حياة . انظر : البلاغة الاصطلاحية : ٢٥١ ، وبلاغة الكلمة والجملة والجمل : ٢٠٤ .

جـ - قلب : ويخاطب به من يعتقد أمراً هو على ضد ماتخبره به [١].

والقرآن يستخدم ألواناً من القصر ، وذلك عندما يراد إثبات حكم معيّن لمذكور ونفيه عما عداه [٢]، وخصوصاً في مجال تقرير العقيدة وتأسيسها ؛ فيكون القصر الحقيقي هو الطريق إلى ذلك ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ .. ﴾[٣] أي : لامعبود بحقّ في الوجود إلاّ الله وحده .

وفي مجال الجهاد وساحات القتال يختلط الحابل بالنابل ، وتبلغ القلوب الحناجر ، وتتوارد الظنون على الخواطر ؛ وحينئذٍ لابد من تثبيت النفوس وإرشاد العقول إلى الصراط السّويّ ، بأسلوب يسترعي الانتباه ويخاطب القلب والعقل معاً ، كأسلوب القصر ، الذي به يُحقّق المراد ، وينفى ماسواه ، ومثل هذا قد وقع في غزوة " أحد " ؛ عندما انقلب ميزان المعركة إلى كفة المشركين ، ومالوا على المسلمين ، وبلغ الأمر ذروته : " لما رمى ابن قميئة رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر فكسر رباعيته أقبل يريد قتله فذبّ عنه مصعب بن عمير وهو صاحب الراية حتى قتله ابن قميئة وهو يرى أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : قتلت محمداً وخرج صارخ قيل : هو الشيطان ألا إن محمداً قد قتل ؛ ففشا في الناس خبر قتله ؛ فانكفؤوا وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو : " إليَّ عباد الله " حتى انحازت إليه طائفة من أصحابه ؛ فلامهم على هربهم ؛ فقالوا : يارسول الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا أتانا خبر قتلك فولّينا مدبرين فنزل "[٤] : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِين مَاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ

---

(١) مثال ذلك : ماجاهد زيد لكن بكر ؛ فمن شرّك بينهما في الجهاد كان قصر إفراد ، ومن شك فيمن المجاهد منهما كان قصر تعيين ، ومن اعتقد أن المجاهد زيد كان قصر قلب .
ولمزيد من التوسع في بحث أسلوب القصر ؛ انظر : دلائل الإعجاز : ٣٢٨ -٣٥٨ بتحقيق محمود شاكر . والإيضاح ٣/٤-٤٧ بتحقيق د . خفاجي ، ودلالات التراكيب للدكتور أبو موسى : ٣١-١٨٤ وهو من أوسعها بحثاً ، والبلاغة فنونها وأفنانها : ٢٧٦/١ - ٢٩٩ . وغيرها .

(٢) انظر : من بلاغة القرآن : ١٥٦ .

(٣) وتتمة الآية : ﴿ .. واستغفر لذنبك وللمؤمنين وللمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم ﴾ محمد : ١٩ .

(٤) تفسير النسفي : ١٨٥/١ .

اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ وَمَاكَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ (١).

والقصر في الآية الأولى قد وقع بـ " ما " و " إلاّ " وهو قصر موصوف على صفة. وهو قصر إضافي(٢) ؛ لأنّ النبي عليه الصلاة والسلام مع اتصافه بكونه رسولاً؛ فهو كذلك قائد ومعلم ... وهذا وغيره هو الذي يشهد له واقع حياته عليه الصلاة والسلام .

ولكن مانوع هذا القصر أهو إفراد أم قلب ؟

يذهب صاحب " مفتاح العلوم " إلى أنه قصر إفراد حيث يقول : " ومن الوارد في التنزيل على قصر الإفراد قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ .. ﴾ فمعناه : محمد مقصور على الرسالة لايتجاوزها إلى البعد عن الهلاك نُزِّل المخاطبون لاستعظامهم أن لايبقى لهم منزل المُبْعِدين لهلاكه وهو من إخراج الكلام لاعلى مقتضى الظاهر "(٣).

وذهب بعض المفسِّرين – كأبي السعود – إلى أن القصر في الآية قصر قلب ؛ حيث يقول – معلّلاً مذهبه – : " والقصر قلبي ؛ فإنّهم لما انقلبوا على أعقابهم فكأنهم اعتقدوا أنّه عليه الصلاة والسلام رسول لاكسائر الرسل في أنّه يخلو كما خلوا أو يجب التمسك بدينه بعده كما يجب التمسك بدينهم بعدهم ؛ فردّ عليهم بأنّه ليس إلا رسولاً كسائر الرسل فسيخلو كما خلوا ويجب التمسك بدينه كما يجب التمسك بدينهم "(٤).

والخلاف في كون القصر إفرادا أو قلبا راجع إلى أحد اعتبارين :

أ – فمن نظر إلى كونه رسولا وذهل مع هذا عن موته فإن القصر يكون إفرادا حيث أفرده بالرسالة ونفى عنه صفة عدم الموت .

---

(١) آل عمران : ١٤٤ ، ١٤٥ .

(٢) انظر : التحرير والتنوير : ٤/١١٠ .

(٣) مفتاح العلوم : ٢٨٩ .

(٤) تفسير أبي السعود :٢/٩٢ .

ب - ومن نظر إلى الانقلاب على الأعقاب بعد شيوع خبر الموت فإنه يعتبر أن القصر للقلب ؛ حيث نزلوا منزلة من اعتقد أنه باق فجاءت الآية لتقلب هذا المعتقد إلى ضده ؛ فقررت أنه ميت لاباق كما خلا جميع الرسل ·

والذي يظهر من نظم الآية ومن سبب نزولها أن القصر فيها قلبي ؛ وذلك أنّ انكفاء كثير منهم ناتج عن حسبانهم أنّه لايموت مادام رسولا ؛ ويدل على ذلك وصفه بجملة [قد خلت من قبله الرسل] فهي من تتمة القصر ؛ لكونها صفة ، والصفة تتبع الموصوف ؛ ولم تكن هذه الصفة واردة إلاّ طرداً لاعتقاد من ذهب إلى عدم خلوّه وموته عليه الصلاة والسلام ، فالقصر منصبّ على هذه الصفة [1]·

ويدل على ذلك - أيضاً - أنّه لمّا توفي صلى الله عليه وسلم فعلاً لاظنّاً وأشيع خبر وفاته غفل عمر رضي الله عنه - وهو من هو في العلم والفقه - عن هذه الآية وطفق يهدّد كل من قال بوفاة النبي عليه الصلاة والسلام ؛ حتى قام أبو بكر رضي الله عنه في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : " أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله ؛ فإن الله حيّ لايموت ثم تلا : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ·· ﴾ الآية ؛ قال الراوي : والله لكأنّ الناس لم يعلموا أنّ هذه الآية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تلاها أبو بكر ، وقال عمر رضي الله عنه : والله ماهو إلا أن سمعت أبا بكر رضي الله عنه يتلوها فعقرت حتى ماتحملني رجلاي ، وعرفت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات "[2]· وخرج الناس يردّدونها في سكك المدينة [3]·فإذا كانت هذه حال بعض الصحابة والدين قد كمل واستقر ؛ فكيف بهم في السنة الثالثة من الهجرة - زمن غزوة أحد - ؟!· لاشك في أن ذهولهم عن فكرة موته سيكون أعظم ·

ودليل آخر على كون القصر في الآية قلبياً هو ترتيب الإنكار على ماوقع من بعضهم من الفرار والانقلاب على العقبين عندما أشيع خبر قتله عليه الصلاة

---

(١) انظر : روح المعاني : ٤/٧٣ ·
(٢) تفسير أبي السعود : ٢/٩٣ ·
(٣) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٤/٢٢٣ ·

والسلام ،وذلك في قوله تعالى : ﴿ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ .. ﴾ ثم أتبع بالتهديد ، والوعيد الشديد[١] في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً ﴾ من الضرر وإن قل ، وإنما يضرّ نفسه ، ويدل على أنّه يضر نفسه " توجّه النفي إلى المفعول ؛ فإنّه يفيد أنّه يضر غير الله تعالى ، وليس إلا نفسه "[٢]. ولكن هل ارتد أحد من المسلمين زمن أحد ؟ ينفي ذلك أبو حيّان سوى ماكان من قول المنافقين وفعلهم[٣] ، ويوجز ابن عاشور مقصود الآية فيقول : " والمقصود من الآية العتاب على ماوقع من الاضطراب ، والثناء على الذين ثبتوا ووعظوا الناس ، والتحذير من وقوع الارتداد عند موت الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، وقد وقع ماحذّرهم الله منه بعد وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - إذ ارتد كثير من المسلمين وظنّوا اتباع الرسول مقصوراً على حياته ، ثم هداهم الله بعد ذلك ؛ فالآية فيها إنباء بالمستقبل "[٤].

وقوله : ﴿ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ متصل بما قبله اتصال الوعد بالوعيد[٥] ؛ فإنّه لما توعدّ المنقلبين وعد الثابتين على دين الإسلام بحسن الجزاء ، وجيء بالسين في فعل الاستقبال دلالة على تحقق وقوع الجزاء وعدم تأخّره عنهم[٦] . وإظهار لفظ الجلالة في موقع الإضمار لإبراز مزيد الاعتناء بجزائهم[٧] ، ولم يُذكر جزاؤهم ليدل على كثرته وعظمته ، وليعلم أن الجزاء على قدر الشكر قلة وكثرة وحسنا[٨] ، فيقع بذلك التنافس بين الشاكرين في فعل الشكر وأدائه على الوجه الشرعي المطلوب .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ مرتبط بما قبله ، ومقرر حقيقة الموت ، كاشف كيفية وقوعه ؛ يقول أبو السعود : " [وماكان لنفس أن تموت] كلام مستأنف سيق للتنبيه على خطئهم فيما فعلوا حذراً من قتلهم ، وبناء

---

(١) انظر : البحر المحيط : ٦٩/٣ .
(٢) روح المعاني : ٧٥/٤ .
(٣) انظر : البحر المحيط : ٦٩/٣ .
(٤) التحرير والتنوير : ١١٣/٤ .
(٥) انظر : روح المعاني : ٧٥/٤ .
(٦) انظر : البحر المحيط ٦٩/٣ .
(٧) انظر : تفسير أبي السعود : ٩٤/٢ .
(٨) انظر : تفسير كلام المنان : ٤٣٢/١ .

على الإرجاف بقتله عليه الصلاة والسلام ببيان أن موت كل نفس منوط بمشيئة الله - عز وجل - لايكاد يقع بدون تعلقها به ، وإن خاضت موارد الحتوف واقتحمت مضايق كل هول ومخوف "[١].

والقصر في الآية قصر حقيقي تحقيقي ؛ لأنّ النفي في الآية نفي عام منسحب على كلّ الأسباب التي يمكن أن تموت بها نفس من الأنفس ولم يستثن سوى سبب واحد ، وهو أذن الله لها بالموت في الأجل المحتوم ؛ وفي ذلك يقول أبو السعود : " وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ استثناء مفرّغ من أعم الأسباب ؛ أي وماكان الموت حاصلاً لنفس من النفوس بسبب من الأسباب إلا بمشيئته تعالى "[٢].وعلى ذلك فالقصر هنا قصر موصوف على صفة قصراً حقيقياً تحقيقياً ؛ ويؤكّد ذلك ويقرّره قوله تعالى : ﴿ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا ﴾ ، فهو مصدر مؤكّد لعامله المستفاد من الجملة السابقة ، والمعنى : كتب ذلك الموت المأذون فيه كتاباً [مؤجَّلاً] - وهو صفة لكتاب - ، أي : مؤقتاً بوقت معلوم لايتقدم وقت موتها ولايتأخّر ولو ساعة واحدة[٣]؛ فكلّ نفس لها أجلها المؤقّت ، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[٤] ، ويدخل في تنكير [نفس] نفوس الأنبياء ، وغيرهم من باب أولى .

وبذلك يكون القصر الوارد في هذه الآية قد عالج الاضطراب في صفوف المسلمين - يوم أحد - عندما أشيع مقتل النبي عليه الصلاة والسلام ، كما قرّر هذا القصر بصيغة جازمة أن موت أي نفس لايقع إلا بأجل في كتاب لايقدّمه إقدام ، ولايؤخّره إحجام . يقول الزمخشري عن ثمرة هذا القصر : " وهو على معنيين : أحدهما تحريضهم على الجهاد ، وتشجيعهم على لقاء العدوّ ؛ بإعلامهم أن الحذر لاينفع ، وأنّ أحداً لايموت قبل بلوغ أجله وإن خَوَّض المهالك واقتحم المعارك .

---

(١) تفسير أبي السعود : ٢/٩٤ .
(٢) تفسير أبي السعود : ٢/٩٤ .
(٣) انظر : تفسير أبي السعود : ٢/٩٤ ، وروح المعاني : ٤/٧٦ .
(٤) الأعراف : ٣٤ .

والثاني : ذكر ماصنع الله برسوله عند غلبة العدوّ والتفافهم عليه وإسلام قومه له نَهْزَة للمختلس – من الحفظ والكلاءة وتأخير الأجل "[١]. ويزيد أبو حيّان في المعنى فيقول : " وفي هذه الجملة – جملة القصر – تقوية للنفوس على الجهاد ، وفيها تسلية في موت النبي صلى الله عليه وسلم "[٢]. والواو في قوله تعالى : ﴿ **وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا** ﴾ استئنافية ، ومن أغراض هذا الاستئناف التعريض[٣] بمن اشتغلوا بجمع الغنائم في غزوة أحد عن أمر النبي عليه الصلاة والسلام لهم بعدم فعل ذلك حتى يؤذن لهم ، وهذه القاعدة المذكورة في الآية عامة في المجاهدين وفي غيرهم ، بل وفي سائر الأعمال ؛ " لأن المؤثر في جلب الثواب أو العقاب هو النيات والدواعي ، لاظواهر الأعمال " [٤]، كما هو صريح حديث عمر – رضي الله عنه – الصحيح : " إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ مانوى ".

وقوله في جواب الشرط [نؤته منها] بنون العظمة التفات من الغيبة إلى التكلم جرياً على سنن الكبرياء اللائقة بالخالق العظيم – جل وعلا – ، ومن فوائد هذا الالتفات إظهار كمال غنى الخالق سبحانه عن المخلوق وعمله ، ومنها : إبراز حقيقة ثابتة ؛ وهي أن المتصدّر لعطاء خيري الدنيا والآخرة هو الله سبحانه وتعالى ؛ وأنّ الجميع مفتقر إليه : ﴿ **يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني** ﴾[٥].

وقوله : ﴿ **وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا** ﴾ عطف على الشرط الأوّل وجوابه؛ لبيان حال طائفة أخرى هي على الضّد من الطائفة الأولى ، وقد أجمل أمر الطائفتين هنا ولكنه فُسّر وفصّل في موضع آخر بما لامزيد عليه ؛ فقد قال تعالى : ﴿ **من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب** ﴾[٦]. وقد قدّم في هذه الآية الأفضل من الطائفتين . وقال

---

(١) الكشاف : ٢٠٤/١ .
(٢) البحر المحيط : ٦٩/٣ – ٧٠ .
(٣) انظر : الكشاف : ٢٠٤/١ ، والبحر المحيط : ٧٠/٣ .
(٤) تفسير القاسمي : ٣-٩٨٩/٤ .
(٥) فاطر : ١٥ .
(٦) الشورى : ٢٠ .

تعالى في موضع آخر : ﴿ **من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحورا ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا** ﴾ (١) ، وقد قدّم في الآية الأخيرة الأعجل حظّاً من الطائفتين نظراً لدنوّ داره ولخسرانه في الآخرة ، وأخّرت الطائفة المشكور سعيها لتمكّنها من حظّ الآخرة ، ولأنّ رتبة الآخرة في الحساب الزمني التأخّر عن الدنيا ، ولهذا سميت بذلك .

وقد جاء ترتيب الطائفتين في الآية الأخيرة على الترتيب الوارد ذكره في آية " آل عمران " التي نحن في ظلال بيانها ، ولما كان سعي الطائفة الثانية مشكورا عند الله تعالى نصّ - سبحانه - في آية " آل عمران " على ذلك فقال : ﴿ **وسنجزي الشاكرين** ﴾ تنبيهاً على أن الشاكرين هم الذين يسعون للآخرة سعيها المطلوب شرعاً وهم مؤمنون بالله راغبون فيما عنده ، وهكذا فكلام الله تعالى بعضه يبيّن بعضا .

وجملة [وسنجزي الشاكرين] " اعتراض مقرّر لمضمون ماقبله ، ووعد بالمزيد عليه (٢) ، وفي تصديرها بالسين ، وإبهام الجزاء من التأكيد والدلالة على فخامة شأن الجزاء وكونه يقصر عنه البيان مالا يخفى "(٣) .

ومن القصر بتقديم المعمول قوله تعالى : ﴿ **وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ** ﴾(٤) ، والآية في سياق خطاب المؤمنين خاصة ، ويدخل فيها الخلق عامة ، وهي قاضية بأن الحشر إلى الله تعالى لا إلى أحد سواه ، وذلك بعد الموت أو القتل ، وهذا القصر قصر حقيقي تحقيقي ، وهو قصر صفة على موصوف ، وقد أشار إليه الزمخشري وصفاً لانطقاً حيث قال : " ولوقوع اسم الله تعالى هذا الموقع مع تقديمه وإدخال اللام على الحرف المتصل به شأن ليس بالخفي "(٥) . وليس هذا الشأن إلا

---

(١) الإسراء : ١٨ ، ١٩ .

(٢) ودليل آخر صريح في ذلك هو الآية المتقدمة آنفا : ﴿ **من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه** .. ﴾ حيث نطق بالزيادة في مستقبل الدار الآخرة .

(٣) تفسير أبي السعود : ٢/٩٥ .

(٤) آل عمران : ١٥٨ .

(٥) الكشاف : ١/٢٠٩ .

القصر ٠ وممـن نطق بذلك الفخر الرازي فقال : " لم يقل : تحشرون إلى الله ، بل قال : [لإلى الله تحشرون] وهذا يفيد الحصر ؛ معناه : إلى الله يحشر العالمون لا إلـى غيره ، وهذا يدل على أنّه لاحاكم في ذلك اليوم ولاضار ولانافع إلا هو ، قال تعالى : ﴿ **لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** ﴾ [١] وقال تعالى : ﴿ **والأمر يومئذٍ لله** ﴾[٢] " [٣] ٠ وإدخال لام القسم على المعمول المقدّم مشعر بتأكيد الحصر والاختصاص ، ومعلم بأنّ ألوهيته تعالى هي التي تقتضي ذلك [٤]٠ واللام الأولى موطئة للقسم ، والثانية واقعة في جواب القسم ، وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه ووفائه بمعناه [٥]، وقد زاد القسم في الجملة من قوّة القصر ٠

وقد لخّص الألوسي ثمرة هذا القصر قائلاً : " والمعنى أنكم بأيّ سبب اتفق هلاككم تحشرون إلى الله تعالى لا إلى غيره ؛ فيجزي كلاً منكم كما يستحق ؛ فيجازي المحسن على إحسانه ، والمسيء على إساءته ، وليس غيره يرجى منه الثواب، أو يتوقع منه دفع عقاب ؛ فآثروا مايقرّبكم إليه ويجرّ لكم رضاه من العمل بطاعته والجهاد في سبيله ولاتركنوا إلى الدنيا "[٦].

ويلاحظ أنّه في هذه الآية قد قُدّم الموت على القتل ، وأمّا في الآية التي قبلها فقد قدّم القتل على الموت ؛ ولهذا اختلف نسق النّظم هناك فقيل : ﴿ **ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون** ﴾ ؛ فلمّا قدّم القتل في الآية وقيدّ بكونه في سبيل الله ثم ذكر الموت في أثره - أبرزت مغفرة الله ورحمته ونُصّ على كونهما خيراً مما يجمع الكفار من حطام الدنيا ، وذلك لمكانة الجهاد والمجاهدين عند الله تعالى ، وفي ذلك حَثّو للمجاهدين على طلب ماعند الله من النعيم والرضا ؛ فتقديم القتل هنا تقديم للأشرف والأهم ، ولهذا ذكر بعده مايلائمه ويليق بـه ٠ والموت بغير قتل هـو الأكثر شيوعاً ؛ ولهـذا فقد قُدّم في الآية اللاحقة للآية

---

(١) غافر : ١٦ ٠
(٢) الانفطار : ١٩ ٠
(٣) التفسير الكبير : ٥٩/٩ ٠
(٤) انظر : روح المعاني : ١٠٥/٤ ٠
(٥) انظر : روح المعاني ١٠٤/٤ ٠
(٦) روح المعاني : ١٠٥/٤ ٠

السابقة ، واختلف النظم من أجل ذلك فقيل : ﴿ وَلَئِن مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ ؛ فجعلت غاية الحشر ونهايته إلى الواحد الأحد، بذكر أعظم أسماء الله تعالى وهو لفظ الجلالة ؛ الدال على كمال الرحمة وكمال القهر؛ فهو لدلالته على كمال الرحمة يحمل أعظم أنواع الوعد والرجاء ، ولدلالته على كمال القهر يشير إلى أشدّ أنواع الوعيد والتهديد[1] ؛ فمن أحسن فسينال جزاء إحسانه ، ومن أساء فسيجد مايستحق ٠

واختيار فعل الحشر في جملة القصر مقصود ؛ وذلك لأن أصل الحشر في اللغة لايكون إلاّ للجماعة ويداخله إزعاج واضطراب ، في وقت شدّة من الأمر ٠ يقول الراغب : " الحشر إخراج الجماعة عن مقرّهم ، وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها ٠٠٠ يقال : حشرت السَّنة مال بني فلان أي أزالته عنهم ٠٠ "[2]٠ ويوم القيامة أعظم مايجمع له الناس ؛ فهم محشورون إلى ربّهم لا إلى سواه ٠

وقد جاء فعل الحشر غير مسمّى الفاعل " مع أنّ فاعل الحشر هو الله ، وإنما لم يقع التصريح به ؛ لأنه تعالى هو العظيم الكبير الذي شهدت العقول بأنه هو الله الذي يبدئ ويعيد ، ومنه الإنشاء والإعادة ؛ فترك التصريح في مثل هذا الموضع أدل على العظمة ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ﴾[3] "[4]٠ كما أنّ الخطاب في فعل الحشر عام لجميع العالمين ، برّهم وكافرهم ، ليتم الفصل بين الخلائق ، ويوضح ذلك ويبيّنه قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَن لَن نَجْعَلَ لَكُم مَوْعِداً ٠٠ ﴾[5]٠

ومن القصر بـ " إنّما " قوله تعالى : ﴿ لَايَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾[6]٠

---

(١) انظر : التفسير الكبير : ٩/٥٩ -٦٠٠
(٢) المفردات : ١١٩ ٠
(٣) هود : ٤٤ ٠
(٤) التفسير الكبير : ٩/٦٠ ٠
(٥) الكهف : ٤٧ ، ٤٨ ٠
(٦) التوبة : ٤٤ ، ٤٥ ٠

يقول الفخر :" والمقصود من هذا الكلام تمييز المؤمنين عن المنافقين ؛ فإنّ المؤمنين متى أمروا بالخروج إلى الجهاد تبادروا إليه ولم يتوقفوا ، والمنافقون يتوقفون ويتبلّدون ويأتون بالعلل والأعذار . وهذا المقصود حاصل سواء عبر عنه بلفظ المستقبل أو الماضي ، والمقصود أنه تعالى جعل علامة النفاق في ذلك الوقت الاستئذان "(١).

فلما نفي فعل الاستئذان - أصلاً - في أمر الجهاد عن المتقين قصر تحققه وظهوره على المنافقين ؛ فكان الاستئذان عن الجهاد علامة النفاق . ولما كان الأمر في ذلك من الظهور بمكان اختيرت " إنما" لتكون هي طريق القصر المفضي إلى ذلك ؛ لأنّ " إنما" تستعمل في الواضحات من الأمور التي ليست مجالاً للشك أو الإنكار .

والقصر في الآية قصر إضافي ، وهو قصر صفة على موصوف قصر تعيين ؛ فبعد أن كان تعيين المنافقين عسيراً جعلت من علاماتهم هذه الصفة ، وهي الاستئذان في التخلّف عن ركب الجهاد ، فتعيّنوا بذلك (٢).

يقول ابن عاشور : " وأفادت " إنما " القصر ، ولما كان القصر يفيد مفاد خبرين بإثبات شيء ونفي ضده كانت صيغة القصر هنا دالة باعتبار أحد مُفَاديَها على تأكيد جملة [لايستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر] وقد كانت مغنية عن الجملة المؤكَّدة لولا أن المراد من تقديم تلك الجملة التنويه بفضيلة المؤمنين" (٣).

---

(١) التفسير الكبير : ١٦/٧٦ .

(٢) من المعلوم أن أمر النفاق الاعتقادي أمر قلبي مغيَّب ؛ فصاحبه يظهر الإسلام ويبطن الكفر ؛ ولهذا لايعلم حقيقته ولايقطع بأمر كفره ونفاقه أحد من البشر سوى خالق البشر عزّ وجل ، ومن جملة البشر الذين لايعلمون المنافقين الرسل ، فلا يعلمون نفاق المنافقين إلا مايأتيهم من الله تعالى عنهم وفي ذلك يقول الله عز وجل مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ **وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لاتعلمهم نحن نعلمهم سنعذّبهم مرّتين ثم يردّون إلى عذاب عظيم** ﴾ التوبة : ١٠١ ، يقول القاسمي :" لاينافي قوله تعالى :(لاتعلمهم نحن نعلمهم) قوله تعالى :﴿ **ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول** .. ﴾ محمد: ٣٠ - ؛ لأن هذا من باب التوسيم فيهم بصفات يُعرَفون بها ، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين ، وقد كان يعلم أن في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقاً ، وإن كان يراه صباحاً ومساء .. " . محاسن التأويل : ٣٢٤٥ . وبذلك يعلم أنه لما جعل الاستئذان في ترك الجهاد أمارة تنبيء عن نفاق المستأذن تعيّن وسمه بالنفاق دون غيره .

(٣) التحرير والتنوير : ١٠/٢١٢ .

ويلاحـظ أن الإيمـان بالله واليـوم الآخر قـد كـرّر في الآيتين ؛ فـأثبت في حق المتقين ، ونفي عن المنافقين ؛ وفائدة التنصيص عليهما في الموضعين : " الإيذان بأن الباعث على الجهاد والمانع عنه الإيمان بهما وعدم الإيمان بهما ؛ فمن آمن بهما قاتل في سبيل دينه وتوحيده وهان عليه القتل فيه لما يرجوه في اليوم الآخر من النعيم المقيـم ، ومن لم يؤمن بمعزل عن ذلك ، على أن الإيمان بهما مستلزم للإيمان بسائر مايجب الإيمان به "(١).

وكـون النفي منصبّـاً على صيغة المضارع في جملة الصلة [الذين لايؤمنون بالله ..] دليل على تجدّد نفي إيمان هؤلاء المنافقين بالله وباليوم الآخر في كل حين وزمـان. وأمّا شـأنهم في أمـر النبي صلى الله عليه وسلم من حـيث ظهـور أمـره وانتصاره على أعدائه فقلوبهم مـرتابة ؛ ولذلك أسند الريب إلى قلوبهم لتمكّنه منها ، وجاء الإسناد بالفعل الماضي دلالة على قدم ذلك الشك ورسوخه وانعقاد قلوبهم عليه ، وهو أثر من آثار اسـتمرار عدم إيمانهم بالله وباليوم الآخر ، ولهذا تـأخّر عنه وعطف عليه . " ولمّا كان الارتياب ملازماً لانتفاء الإيمان كان في الكلام شبه الاحتباك ، إذ يصير بمنزلة أن يقال : الذين يؤمنوا ولايؤمنون ، وارتابت وترتاب قلوبهم "(٢).

وأما قوله تعالى : ﴿ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ فهي جملة اسمية ناتجة عن صفاتهم المتقدمة من عدم الإيمان ، ومن استقرار الريب في قلوبهم ؛ ولهذا كلّه أخبر عنهم بهذا الوصف الدال على الثبات والاستمرار في حالة التردّد في الريب ؛ " فإن التردد ديدن المتحيّر كما أن الثبات ديدن المستبصر ، والتعبير عنه به مما لايخفى حسن موقعه "(٣)، يقـول ابـن عاشور : " وفرّ ع قوله [فهم في ريبهم يتردّدون] على [وارتابت قلوبهم] تفريع المسبَّب على السبب ؛ لأن الارتيـاب هو الشك فـي الأمـر بسبب التردّد في تحصيله ؛ فلتردّدهم لم يصارحوا النبي – صلى الله عليه وسلم – بالعصيان لـه ، فسلكوا مسلكاً يصلـح للأمرين ، وهـو مسلك الاستئذان في العقود ؛ فالاستئـذان مسبَّب على التردّد ، والتردّد مسبب على الارتياب ، وقد دلّ هذا علـى أنّ

---

(١) روح المعاني : ١١٠/١٠ .

(٢) التحرير والتنوير : ٢١٣/١٠ .

(٣) تفسير أبي السعود : ٧٠/٤ .

المقصود من صلة الموصول في قوله [الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر] هو قوله [وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون] لأنه المنتج لانحصار الاستئذان فيهم " [١] لافي غيرهم ؛ فتلك الصفات من متممات القصر .

ومن مواضع القصر بـ " لكن " قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[٢] . مازال النص القرآني الكريم يلاحق المنافقين ، ويكشف سوآتهم ، ويفضح زعماءهم ، فالآيات المثبتة آنفاً تبرز موقف رؤوس المنافقين إذا دعوا إلى الجهاد في سبيل الله ، وقد سلك النظم القرآني في كشف هذا الموقف مسلكاً دقيقاً ؛ فقد بدأ بهم بأمر لاريبة فيه وهو مايتنزّل من عند الله تعالى من سور القرآن الكريم وفيها أمر صريح بالإيمان والجهاد [٣] ، وهذا إشعار بأنّهم يشكّون فيما لامرية فيه أصلاً ، وقد قدّم الأمر بالإيمان على الأمر بالجهاد تنبيهاً للمنافقين وغيرهم من جهّال المسلمين أن الإقدام على الجهاد قبل الإيمان لايفيد فائدة أصلا ؛ فالإيمان أوّلاً ثم الاشتغال بالجهاد وغيره من الصالحات ثانيا [٤] ، وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ .. ﴾[٥] فبدأ بالأمر بعلم التوحيد والإيمان بالله ورجاء ماعنده ثم أتبعه بالاشتغال بطلب المغفرة من الذنوب والخطايا ؛ تنبيهاً إلى سنّة الله تعالى في قبول الأعمال ، وعلامة صلاحها .

---

(١) التحرير والتنوير : ١٠/٢١٣ . ولايخفى أن الإخبار عنهم بـ [في ريبهم] مفيد إحاطة الريب بهم إحاطة الظرف بما فيه ؛ فهو لايفارقهم في حضورهم مجالس الإيمان أو في خلوهم إلى معاشهم . انظر المصدر السابق : ١٠/٢١٤ .

(٢) التوبة : ٨٦-٨٩ .

(٣) انظر : جامع البيان : ١٠/٢٠٧ .

(٤) انظر : التفسير الكبير : ١٦/١٥٦ . والمقصود في الآية : أخلصوا إيمانكم لله وحده . انظر : روح المعاني : ١٠/١٥٦ .

(٥) محمد : ١٩ وتتمة الآية ﴿ .. واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم] . ﴾ . وقد بوّب البخاري لهذه الآية قائلاً باب العلم قبل القول والعمل . وذلك في صحيحه : ١/٢٥ .

وعطف فعل الجهاد على الإيمان بالله تعالى ، وقَرْن ذلك الجهاد بالرسول – عليه الصلاة والسلام – معيَّةً وصحبةً ، فيه شرف ظاهر للمجاهد الذي ينضم إلى ركب الرسول ويسير مع قافلته ؛ ومن ثَمَّ لايأبى ذلك ولايردّه إلاّ منافق معلوم النفاق ؛ ولذلك كان رفض ماجاء في معرض جملة فعل الشرط مستوجباً التشنيع على الفاعل ، وسمة من سمات نفاقه وكفره مالم يكن معذوراً عذراً شرعيا ؛ ولذلك شُرِع في جملة جواب الشرط ومابعدها في سرد التفاصيل الدقيقة لصورة إعراضهم عن الجهاد ، تسجيلاً عليهم بالذّم ، وفضحاً لدخائل نفوسهم المريضة .

ويبدأ خيط ظاهرهم الذي يكشف عما في قلوبهم بحكاية فعل الاستئذان من ذوي الوجاهة والغنى ، وقد خُصّوا بالذكر لأنّهم الملومون أكثر من غيرهم[١] لتحقق كمال القدرة على الجهاد فيهم من صحة الأبدان وكثرة الأموال . ومعلوم أن من لامال له ولاقدرة لديه لايحتاج إلى الاستئذان ؛ لظهور عذره ؛ ولهذا كان الاستئذان مع توافر القدرة واكتمالها أقبح وأفحش[٢] .

وانتقال السياق القرآني من الغيبة في [وجاهدوا مع رسوله] إلى الخطاب في [استأذنك أولو الطول منهم] التفات إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تكريماً له وإشعاراً بأنّه هو القائد الذي يستأذن وتنتهي إليه الأمور ، كما أن في السياق – أيضاً – التفاتاً عن المنافقين وتغيباً لهم بعد خطابهم ، تمهيداً لذكر مقالتهم القبيحة التي تبيّن الغرض الحقيقي من استئذانهم ، ولهذا فقد عطفت جملة [وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين] على [استأذنك ..] ؛ " لما بينهما من المغايرة في الجملة ؛ بزيادة في المعطوف ؛ لأن الاستئذان مجمل ، وقولهم إيذان بتلفيق معذرتهم ، وأنّ الحقيقة هي رغبتهم في القعود ؛ ولذلك حكي قولهم بأن ابتدأ بـ [ذَرْنا] المقتضي الرغبة في تركهم بالمدينة ، وبأن يكونوا تبعاً للقاعدين الذين فيهم العُجَّز والضعفاء والجبناء ؛ لما تؤذن به كلمة [مع] من الإلحاق والتبعيّة "[٣] .

---

(١) انظر : روح المعاني : ١٠/١٥٦ .

(٢) انظر : البحر المحيط : ٥/٨٢ .

(٣) التحرير والتنوير : ١٠/٢٨٩ .

وجملة [رضوا بأن يكونوا مع الخوالف] استئنافية مسوقة لبيان سوء صنيعهم [١]؛ وفيها تهجين لهم ومبالغة في ذمّهم ؛ لأنّهم نزّلوا أنفسهم منزلة النساء العجزة اللواتي لامدافعة عندهن ولاغنى [٢].

وقوله [وطُبع على قلوبهم] عطف على [رضوا ..] وفيه إشعار بأنّ علّة الاستئذان عن الجهاد وقبله عدم الإيمان إنما سببه أن قلوبهم قد طبع عليها فأصبحت لاتقرّ معروفاً ولاتنكر منكرا ولاتستجيب إلى صيحة الجهاد . يقول ابن عطية : " وطبع في هذه الآية مستعار ؛ ولما كان الطبع على الصوان والكتاب مانعاً منه وحافظاً عليه شبّه القلب الذي قد غشيه الكفر والضلال حتى منع الإيمان والهدى منه بالصوان المطبوع عليه " [٣]. وبناء فعل الطبع للمجهول في هذا الموضع مع أن فاعله هو الله تعالى [٤] للإشعار بأن هؤلاء المنافقين من الهوان على الله تعالى بمكان بحيث لايستحقون إظهار هذا الاسم الجليل في حقهم . أو للإيذان بأن تعاظم ذنوبهم وكثرتها قد فعل ذلك بهم .

ومن خير من تناول الختم والطبع تناولاً شرعياً وبيانياً ابن جرير حيث قال : " والحق عندي في ذلك ماصحّ بنظيره الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : [إنّ المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتةٌ سوداء في قلبه ؛ فإن تاب ونزع واستعتب صقل قلبه ، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه ؛ فذلك الرّان الذي قال الله تعالى : ﴿ **كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون** ﴾ [٥]] فأخبر صلى الله عليه وسلم أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها ، وإذا أغلقتها أتاها حينئذٍ الختم من قبل الله تعالى والطّبع ؛ فلا يكون للإيمان إليها مسلك ، ولا للكفر عنها مخلص ؛ فذلك هو الختم والطبع الذي ذكره الله في قوله : ﴿ **ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم** ﴾ نظير الطبع والختم على ماتدركه الأبصار من الأوعية والظروف " [٦].

---

(١) انظر : إعراب القرآن وبيانه : ١٤٩/٤ .

(٢) انظر : البحر المحيط : ٨٣/٥ .

(٣) المحرر الوجيز : ٢٤٩/٨ . والمراد بالصِّوَان : الوعاء الذي يحفظ فيه الشيء ويُصان . انظر : مختار الصحاح ، مادة : صون .

(٤) وقد صرح به في موضع آخر فقد قال تعالى : ﴿ **وطبع الله على قلوبهم** ﴾ التوبة : ٩٣ .

(٥) المطففين : ١٤ .

(٦) جامع البيان : ١١٢/١-١١٣ .

ولما وقع الطبع على مصدر الفقه والعلم ، وهو القلب فقد تعطّل عمله وأصبح لايفرّق بين مافيه خير لصاحبه أو مضرّة له ، ولهذا ناسب أن تختم الآية بقوله : ﴿ **فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ** ﴾ " وجيء في إسناد نفي الفقاهة عنهم بالمسند الفعلي للدلالة على تقوّى الخبر وتحقيق نسبته إلى المخبر عنهم وتمكّنه منهم "[١] . وتجدده وقتاً بعد وقت فلا يرجى منهم خير . ولما ذكر الله تعالى قعود المنافقين عن الجهاد قصر القيام به على الرسول والذين آمنوا معه فقال : ﴿ **لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ** .. ﴾ .

وعلماء البلاغة يشترطون تقدم النفي أو النهي على " لكن " حتى يقصر بها [٢]، وقد تحقق هذا الشرط معنى لا لفظا ؛ لأن مقتضى استئذان المنافقين وتخلفهم عن الجهاد هو أنهم لم يجاهدوا ولكن الرسول والذين معه جاهدوا ، يقول ابن عطية : " الأكثر في " لكن " أن تجيء بعد نفي وهو هاهنا في المعنى ؛ وذلك أن الآية السالفة معناها : أن المنافقين لم يجاهدوا ؛ فحسن بعدها لكن الرسول والمؤمنون جاهدوا "[٣] .

وفائدة القصر هنا تشريف الرسول – عليه الصلاة والسلام – والمؤمنين بالثناء عليهم وعلى صدق جهادهم ، وإظهار الاستغناء عن نصرة المنافقين وأن رفع راية الجهاد لاتتوقف عليهم ، كما قال تعالى :﴿ **فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين** ﴾[٤]. وفي ذلك إيلام نفسي يصطلى به المنافقون في الدنيا ، وهم في الآخرة في دركات النار كما قال تعالى : ﴿ **إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا** ﴾[٥]. وقد ترتب على اختصاص الرسول والذين آمنوا معه بالجهاد أن خصّوا بالمكارم العظام ومنها [الخيرات] وهي المنافع التي تسكن النفس إليها وترتاح لها ؛ وهل هذه في الآخرة فقط ؟ ظاهر اللفظ عمومها لمنافع الدارين كالنصر والغنيمة في الدنيا ، والجنة ونعيمها في الأخرى[٦] . والإشارة

---

(١) التحرير والتنوير : ٢٩٠/١٠ .
(٢) انظر : المعاني البلاغية في الأساليب العربية : ٥٦/٢ . د . محمد عبدالرحمن شعبان .
(٣) المحرر الوجيز : ٢٤٩/٨ . وانظر : البحر المحيط : ٨٣/٥ والتفسير الكبير : ١٦ / ١٤٧ .
(٤) الأنعام : ٨٩ .
(٥) النساء : ١٤٥ .
(٦) انظر : التحرير والتنوير : ٢٩١/١٠ .

إليهم بـ [أولئك] إشارة إلى بعد منازلهم في الفضل ورفعة الشأن ، وتعريف المسند بأل وإسناده إلى ضميرهم المنفصل يعني قصر الخيرات عليهم دون سواهم ممن خالف منهجهم الرباني ، كما أن الإتيان باسم الإشارة هنا وترتيب الخبر عليه إشعار بأن استحقاقهم الخيرات ومابعدها كان لأجل جهادهم [(١)] . وتكرير اسم الإشارة [أولئك] إظهار بأنّهم قد بلغوا منزلة علمية من الرفعة استحقوا بها أن يكونوا هم المفلحين لاسواهم ، فهو قصر آخر ، فقد قصر الفلاح المعرف بأل عليهم وحدهم ، وفي ذلك تعريض بالمنافقين ممن أعرض عن الجهاد ، فهم ليسوا من الفلاح في شيء .

وأما مجيئ الآية التالية : ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ ... ﴾ مفصولة عما قبلها فلكونها استئنافاً بيانياً جواباً عن سؤال ناشيء عن الإخبار بفلاحهم ؛ فكأنّه قيل : ماطبيعة فلاحهم ؟ وماذا أُعدّ لهم حتى يكونوا هم المفلحين ؟ فكان الجواب هو الآية التالية : ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ ... ﴾ .

والإعداد التهيئة [(١)] ، وكون ذلك من الله تعالى وإسناد الفعل إليه مع إظهار لفظ الجلالة فيه غاية التكريم لهم ونهاية الاحتفاء بهم بما لامزيد عليه والإشارة إلى هذا النعيم المُعَدّ باسم الإشارة البعيد مع قرب ذكره للدلالة على عظم مافيه عند المنعم به سبحانه ، ومن ثَمّ فهو لانظير له في تصورات البشر ، ولهذا ففيه مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر. وتعريف هذا الفوز بـ " أل " فيه معنى القصر على ماذكر فلا فوز يدانيه ولايقاربه ، ولهذا وصف بأنّه [العظيم] . وهذا الوصف يزيد في عظمته ؛ أنّه صادر عن " العظيم " سبحانه وتعالى ؛ فما استعظمه العظيم فلا أعظم منه .

ومن القصر بـ " إنّما " قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[(٢)] . فقد وردت هذه الآية بعد افتراض حدوث القتال بين فئتين من المؤمنين ، وقد أمر الله تعالى بالسعي بينهما صلحاً حقناً للدماء وصوناً للحمة الدين ، وإن أدى أمر الصلح إلى مقاتلة الفئة الباغية فليكن حتى ترجع إلى أمر الله وتستقيم عليه وتضع السلاح عن رقاب المؤمنين ، وأمر تعالى أن يكون

(١) انظر : التحرير والتنوير : ٢٩١/١٠ .
(٢) الحجرات : ١٠ .

ذلك الصلح بالعدل من غير جور على إحداهما[1] ؛ ثم استؤنف قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ٠٠ ﴾ تقريراً لما قبله من الأمر بالإصلاح[2] ، فهذه الجملة موقعها موقع التعليل لما تقدم ، وقد بني هذا التعليل على كون حال المسلمين بعضهم مع بعض كحال الإخوة [3] ٠ وقد " جيء بصيغة القصر المفيدة لحصر حالهم في حال الإخوة مبالغة في تقرير هذا الحكم بين المسلمين ؛ فهو قصر ادعائي أو هو قصر إضافي ؛ للردّ على أصحاب الحالة المفروضة الذين يبغون على غيرهم من المؤمنين "[4] ٠ وهو قصر موصوف على صفة ؛ فالمؤمنون جميعا مقصورون على صفة الأخوّة ؛ قصراً حقيقياً بليغاً ؛ فكأنه لا أخوة أصلاً في الوجود إلا بين المؤمنين ، وعلى ذلك فلا يخرج مؤمن واحد عن صفة الأخوة بل الجميع متلبّس بها لايخرج عن وصفها ، وهذا موجب للنهوض بالصلح بين المؤمنين فيما لو شجر بينهم خلاف خشية من أن يصل إلى القتال ، وهو في الإسلام حرام حرمة قطعية فقد صحّ الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال : [المسلم أخو المسلم لايظلمه ولايخذله ولايكذبه ولايحقره ، التقوى هاهنا ، ويشير إلى صدره ثلاث مرات ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه] رواه مسلم[5] ٠

وقوله : [سباب المسلم فسوق وقتاله كفر][6] ٠

وقد يحمل القصر في الآية على كونه قصراً إضافياً ؛ أي إنما المؤمنون إخوة لاكسائر الناس غير المؤمنين ففيهم التباين والتباغض والتعادي ، وأما المؤمنون فلا ، بل هم إخوة يتراحمون ٠ وهذا القصر الإضافي قد يكون قصر قلب لمن وقع في ذهنه ذهول حال اقتتال المؤمنين ؛ فحسب عندئذٍ أنهم أعداء ؛ فيصحّح فهمه بهذا القصر

---

(١) وذلك في قوله تعالى : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين** ﴾ الحجرات : ٩ ٠ وسوف نتناول النظم في هذه الآية الكريمة في موضع " الشرط والجزاء " لأنها به ألصق ٠ انظر : ٣٧٥-٣٨٢ ٠

(٢) انظر : روح المعاني : ١٥١/٢٦ ٠

(٣) انظر : التحرير والتنوير : ٢٤٣/٢٦ ٠

(٤) التحرير والتنوير : ٢٤٣/٢٦ ٠

(٥) انظر نص الحديث وتخريجه وشرحه في : جامع العلوم والحكم : ٢٨٥ – ٢٩٤ ٠

(٦) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي ٠ انظر : جامع الأصول : ٧٦٠/١٠ ٠

الإضافي القلبي ؛ بكون المؤمنين إخوة بسبب إيمانهم أصلا فلا عداوة بينهم تبعاً لذلك ؛ وماوقع بينهم من التقاتل إنما هو عرضي وليس طَبَعِيًا .

وقد يكون قصر تعيين لمن تردّد في إخوّة المؤمنين عندما يرى بينهم شجاراً أو قتالاً ؛ فتعيّن بهذا القصر كونهم إخوة لايصحّ أن يقع بينهم ذلك ، بل الواجب الإصلاح بينهم ، وتأليف ذات بينهم . كما قد يكون قصر إفراد لمن ظنّ أن المؤمنين إخوة حال الوفاق ، أعداء وقت التباغي والقتال ؛ فأفرد حالهم بأنهم إخوة في الحالتين، يجب السعي في رأب صدعهم ولمّ شملهم ؛ حتى يكونوا متحابين .

وفي اختيار القصر بـ " إنّما " في هذا الموضع دلالة قويّة على تقرير وجوب الأخوة بين المسلمين وتأكيد ثبوتها ، لأن شأن " إنما " أن تجيء لخبر لايجهله المخاطب ولايدفع صحته أو لما ينزّل منزلة ذلك (١).

كما أن اختيار صفة الأخوّة لتكون مقصوراً عليها له مقصد ربّاني حكيم ؛ ذلك أنّه من المتعارف عليه بين الناس " أنّه إذا نشبت مشاقّة بين الأخوين لزم بقية الإخوة أن يتناهضوا في إزاحتها مشياً بالصلح بينهما ؛ فكذلك شأن المسلمين إذا حدث شقاق بين طائفتين أن ينهض سائرهم بالسعي بالصلح بينهما ، وبثّ السفراء إلى أن يُرَقّعوا ماوهى ، ويرفعوا ما أصاب ودهَى "(٢).

يقول صاحب " الكشاف " في تحليل معنى القصر على " الأخوّة " : " والمعنى : ليس المؤمنون إلاّ إخوة ، وأنهم خلّص لذلك متمحضون ، قد انزاحت عنهم شبهات الأجنبيّة ، وأبى لطف حالهم في التمازج والاتحاد أن يقدموا على مايتولّد منه التقاطع؛ فبادروا قطع مايقع من ذلك إن وقع واحسموه "(٣).

وفي الآية تشبيه مؤكد مجمل ؛ وممن ذكره إسماعيل حقي حيث قال : "والمعنى : إنّما المؤمنون منتسبون إلى أصل واحد هو الإيمان الموجب للحياة الأبديّة كما أنّ الإخوة من النسب منتسبون إلى أصل واحد هو الأب الموجب للحياة الفانية ؛ فالآية

---

(١) انظر : دلائل الإعجاز : ٢٥٤ تصحيح رشيد رضا ، والتحرير والتنوير : ٢٤٣/٢٦ .
(٢) التحرير والتنوير : ٢٤٤/٢٦ .
(٣) الكشاف : ١٨/٦ .

من قبيل التشبيه البليغ[١] ، المبتني على تشبيه الإيمان بالأب في كونه سبب الحياة كالأب "[٢].

وقد ذكر الألوسي وجهاً في الآية يجوّز أن يكون فيها استعارة تصريحية أصلية حيث قال : " وجُوّز أن يكون هناك استعارة ، وتُشَبَّه المشاركة في الإيمان بالمشاركة في أصل التوالد ؛ لأنّ كلاً منهما أصل للبقاء ؛ إذ التوالد منشأ الحياة ، والإيمان منشأ البقاء الأبدي في الجنان "[٣]. والذي يجري على قواعد البلاغة في الآية هو التشبيه المؤكد المجمل ؛ لكون طرفي التشبيه قد ذُكرَا وأُسقطت الأداة ووجه الشبه ، والأصل : إنّما المؤمنون مثل إخوة في توادّهم وتراحمهم .

هذا وقد استُنبط من أسلوب القصر في الآية حكم فقهي ؛ وممن أوضحه الرازي حيث قال : " إنما للحصر ؛ أي لا أخوّة إلا بين المؤمنين ، وأما بين المؤمن والكافر فلا؛ لأنّ الإسلام هو الجامع ، ولهذا إذا مات المسلم وله أخ كافر يكون ماله للمسلمين ولايكون لأخيه الكافر "[٤] ؛ وعلى ذلك ففي الآية دلالة – من خلال أسلوب القصر – على أنّ أخوّة الإسلام أقوى من أخوّة النسب ؛ بحيث لاتعتبر أخوّة النسب إذا خلت عن أخوّة الإسلام[٥].

وقد أورد " الرازي " تساؤلاً عن أخوّة الإسلام : لماذا لم تقدّم مطلقاً في التوارث على أخوّة النسب ؛ لكونها أقوى منها ؛ بحيث يكون مال المسلم للمسلمين لا لإخوته من النسب ؟[٦].

ثم أجاب عن ذلك قائلاً : " هذا سؤال فاسد ؛ وذلك لأن الأخ المسلم إذا كان أخاً من النسب فقد اجتمع فيه أخوّتان ؛ فصار أقوى ، والعصوبة لمن له القوّة ، ألا ترى أن الأخ من الأبوين يرث ولايرث الأخ من الأب معه؛ فكذلك الأخ المسلم من النسب له

---

(١) هذه عبارة المؤلف والأولى أن نسميه تشبيهاً مؤكداً مجملاً أو فيه قوة إثبات حتى لايظن أن في القرآن تشبيهاً بليغاً وغير بليغ ؛ فتلك عبارة بعض علماء البلاغة في غير مجال القرآن الكريم . أما تشبيهات القرآن فكلها بلغت الذروة في البلاغة من حيث وفاء كل تشبيه في موضعه بالغرض الذي نيط به .

(٢) روح البيان : ٧٧/٩ . وانظر : روح المعاني : ١٥١/٢٦ .

(٣) روح المعاني : ١٥١/٢٦.

(٤) التفسير الكبير : ١٣٠/٢٨ .

(٥) انظر : صفوة التفاسير : ٢٣٥/٣ .

(٦) التفسير الكبير : ٢٨ / ١٣٠ .

أخوّتان ؛ فيقدم على سائر المسلمين ، والله أعلم "[١].

وقوله تعالى : ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ دخول الفاء في هذا الموضع بعد جملة القصر المتقدمة مؤذنة بأنّ أخوّة الدين التي تقررت بأبلغ أسلوب وآكده موجبة للإصلاح بين المؤمنين ورفع ماطرأ من فساد ذات البين .

ولفظ [بين] موضوع – في أصل اللغة – للخلالة بين الشيئين ووسطهما[٢]. فكأنّه قيل : تخلّلوا إخوانكم وادخلوا في أوساطهم ساعين من أجل إصلاح ما أفسد ودّهم بسبب قتال بعضهم بعضا ؛ بناء على ماتقرر من أخوّة الإسلام وعصمة الدين .

وإضافة البينيّة إلى الأخوَين مع التثنية والإظهار وعدم الاكتفاء بالضمير فيه مقاصد بلاغية : –

أولها : – في ذلك إيماء إلى دعاة الإصلاح وسعاته بضرورة التمكّن من المتخاصمَين ، والتلطّف معهما من أجل سلّ سخائمهما وإزالة مابينهما من جفوة ، فلا يكتفي بمجرّد المحاولة الأولى ، بل تردف بمحاولات أخرى حتى يقع الصلح .

وثانيهما : – في تثنية الأخوين وتخصيصهما بصيغة التثنية دون الجمع نكتة أوردها بعض المفسّرين ومنهم الزمخشري ؛ فقال : " لأنّ أقلّ من يقع بينهم الشقاق اثنان ؛ فإذا لزمت المصالحة بين الأقل كانت بين الأكثر ألزم ؛ لأن الفساد في شقاق الجمع أكثر منه في شقاق الاثنين "[٣].

وثالثهما : – في التنصيص على لفظ الأخوّة بالإظهار وعدم الاكتفاء بالضمير تحضيض على النهوض بواجب الصلح [٤]، وعدم التباطؤ فيه ؛ لأن الجميع إخوة لايصلح أن تسود بينهم الجفوة النفسية ولا الوساوس الشيطانيّة .

---

(١) التفسير الكبير : ١٣٠/٢٨ .

(٢) انظر : المفردات : ٦٧ .

(٣) الكشاف : ١٨/٢ ، وانظر : التفسير الكبير : ١٢٩/٢٨ ، وروح المعاني : ١٥١/٢٦-١٥٢.

(٤) انظر : روح المعاني : ١٥١/٢٦ . يرى ابن عاشور أن قوله تعالى : ﴿ بين أخويكم ﴾ وصف جديد نشأ عن قوله : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ فتعيّن إطلاقه على الطائفتين ؛ فليس هذا – عنده – من وضع الظاهر موضع الضمير . وهو ملمح وجيه . انظر : التحرير والتنوير : ٢٤٥/٢٦ .

وقوله :[واتقوا الله] قال عنه الطيبي : " هو تذييل للكلام ؛ فكأنه قيل : هذا الإصلاح من جملة التقوى ؛ فإذا فعلتم التقوى دخل فيه هذا التواصل "[(١)] . وجوّز الألوسي أن يكون الأمر بالتقوى معطوفاً على [فأصلحوا] أي : واصلوا بين أخويكم بالصلح ، واحذروا الله من أن تتهاونوا فيه[(٢)] . وقد يكون الأمر بالتقوى عامّاً للمتخاصمين حتى يكفّوا عن شجارهم ، ولبقية المؤمنين حتى يسعوا للتأليف بين المتنابذين . وختم هذه الآية بحرف الترجي المخبر عنه بفعل الرحمة في غاية المناسبة؛ إذ فيه تطميع للمؤمنين عامة ولسعاة الصلح منهم خاصة برحمة الله الواسعة ، وأنّهم قمنون بها في كل وقت . وفي ذلك فضيلة خاصة لمن يسعى للإصلاح بين الخصوم . وأنّه أقرب من غيره إلى رحمة الله ، كما أن في ذلك إيماء إلى أن الأصل في أهل الإيمان أن يسود بينهم التراحم والتلاطف ، وليس التقاطع والتدابر ، وفي هذا المعنى تعريض بمن يبدر منه ذلك ؛ بأنّ عليه أن يرعوي عنه ، ويتبرّأ منه ؛ فليس من أخلاق المؤمنين في شيء .

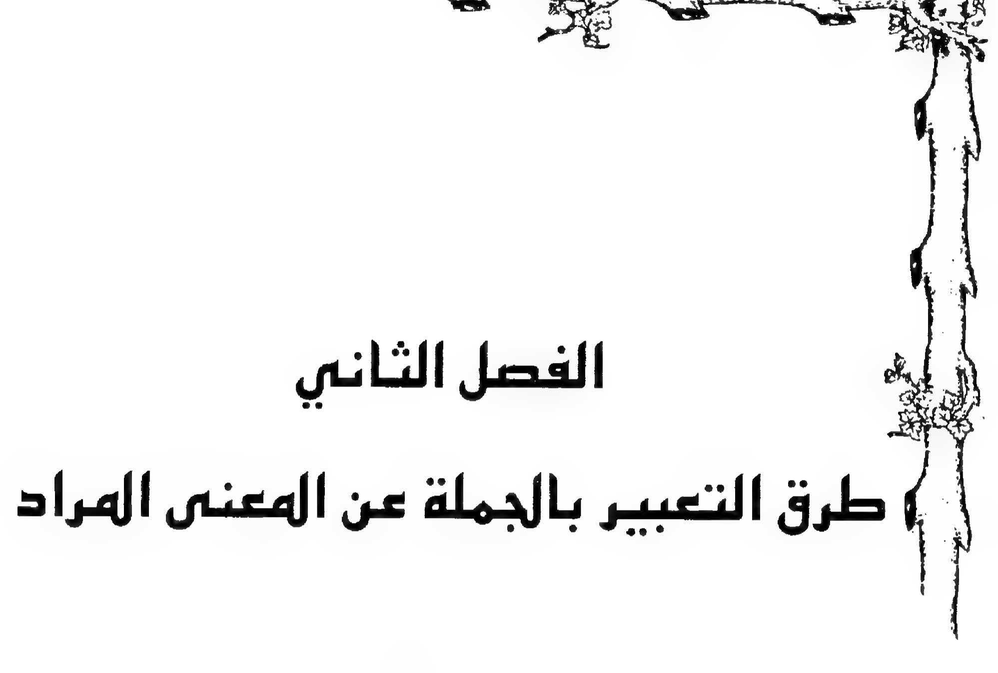
كما أن في ختم الآية بفعل الرحمة إيماء إلى أن القتال الواقع بين الإخوة مجافٍ للرحمة مضاد لها ؛ فينبغي الإسراع بإيقافه ؛ حتى تسود الرحمة بينكم وتقع المودة فيكم ؛ فذلك سبيل إلى أن يرحمكم رحمـــن الدنيا والآخرة[(٣)] .

---

(١) روح المعاني : ١٥٢/٢٦ .

(٢) انظر : روح المعاني : ١٥٢/٢٦ .

(٣) ولمزيد من الوقوف على صور القصر في هذا البحث ؛ انظر : ٦٥ ، ٨٥ ، ٩٨ ، ١١١ ، ١٢٠ ، ١٥٠ ، ٢٠٠ ، ٢٠٩ ، ٣١١ ، ٤٩٩ ، ٥٦٧ ، ٥٧٢ ، ٥٨٨ ، ٥٩٢ .



الفصل الثاني

طرق التعبير بالجملة عن المعنى المراد

- التعبير بالجملة الخبرية والإنشائية ·
- التعبير بالجملة الاسميّة والفعليّة ·
- التقديم والتأخير
- الذكر والحذف ·
- الشرط والجزاء ·

الجملة الخبريّة والجملة الإنشائيّة

الجملة هي : أقلّ مايفيد من الكلام معنى مستقلاً ٠ وقد عرّفها الدكتور إبراهيم أنيس فقال إنّها : " أقلّ قدر من الكلام يفيد السامع معنىً مستقلا بنفسه ؛ سواء تركب هذا القدر من كلمة واحدة أو أكثر " (١)٠

فالجملة تتضمن أمرين : التركيب ، والإفادة المستقلة (٢)٠

والجملة تنقسم بحسب مضمونها قسمين ؛ فقد تغلب عليها الأخبار والإفادة المباشرة بأي أمر من الأمور فهذه هي الجملة الخبرية ٠

وعلى ذلك فيمكن تعريف الخبر بأنّه : ماتركّب من جملة أو أكثر وأفاد فائدة مباشرة أو ضمنيّة ٠ والفائدة المباشرة هي مايسميه البلغاء : فائدة الخبر ، والفائدة الضمنيّة هي مايسمونه : لازم الفائدة ٠

ومن الجمل مايكون الغالب عليها الأوامر أو النواهي ، أو يكون بها الاستفهام أو التمني أو النداء (٣) ، أو تتضمّن صيغاً للعقود أو المدح أو الذم أو الرجاء أو التعجب أو القسم (٤) ، فهذه هي الجملة الإنشائية ٠

وعلى ذلك فيمكن تعريف الإنشاء بأنه : ماسوى الخبر مما أفاد طلباً أو قسيمه (٥)٠

فالطلب هو الأساليب المتضمّنة له كالأمر والنهي والاستفهام والتمني والنداء ٠

والمراد بقسيم الطلب هو مالم يفد طلبا كصيغ العقود والقسم والتعجب والرجاء والمدح والذّم ٠

وتقسيم الجملة إلى ذينك القسمين راجع إلى طبيعتهما الذاتية ، ومعناهما

---

(١) من أسرار اللغة : ٢٧٦ ٠ ويلحظ على التعريف المثبت آنفاً أنّه أورد كلمة " السامع " والأولى إسقاطها حتى يعم التعريف غير السامعين كالقراء ومن في حكمهم ٠

(٢) انظر : المعجم المفصّل في اللغة والأدب : ٥٣٢/١ ٠

(٣) وتسمى هذه الإنشاء الطلبي ؛ لأن أساليبها تتضمّن طلبا ٠

(٤) وتسمى هذه الإنشاء غير الطلبي ؛ لأن أساليبها لاتتضمن طلبا ٠

(٥) جاء في لسان العرب من معاني قسيم قول ابن منظور : " قسيمك الذي يقاسمك أرضاً أو داراً بينك وبينه ٠٠٠ وهذا قسيم هذا أي شطره ٠٠ " ٠ فالجامع بين الطلب وقسيمه هو الإنشاء ٠

اللّغوي ؛ فإنّ الخبر في اللغة هو : " النّبأ . والجمع أخبار ، وأخابير جمع الجمع ، فأمّا قوله تعالى : ﴿ يومئذٍ تحدّث أخبارها ﴾(١) فمعناه : يوم تَزَلزل تخبر بما عُمِل عليها ، وخبّره وأخبره : نبّأه ... "(٢).

وأما طبيعة الخبر الذاتية فإنها فيما يحمله للمتلقي من الأنباء المفيدة والمعاني الجديدة ، سواء أكانت تلك جديدة ابتداء ، أم كانت غير ذلك فحصل منها لازم الفائدة من تلك الأنباء ؛ فلم تخل من فائدة الإخبار . ويتفنّن المخبرون في عرض هذه الأخبار تفنّناً بلاغياً مؤثّراً في النفوس ، وذلك بحسب منزلة المخبر من البلاغة .

وأما الإنشاء فمعناه اللغوي هو الإبداع والابتداء والابتكار . يقول الزجاج : " يقال : أنشأ الله الخلق إذا خلقه وأبدأه وكل من ابتدأ شيئاً فقد أنشأه ، ومن ذلك قولك فأنشأ الشاعر يقول أي : ابتدأ من نفسه "(٣).

وأما طبيعة الإنشاء الذاتية فهي من القول به ابتداء من قبل المتكلم ؛ فهو الذي أمر أو نهى أو تمنّى أو استفهم أو نادى ، أو مدح أو ذمّ أو تعجّب أو أقسم ... ، وهذه الجمل من خلال مافيها من قرائن الأحوال ودلالات الألفاظ تتضمّن نكات بيانية وأغراضاً بلاغية .

وبهذا المفهوم لكل من الخبر والإنشاء في البيان العربي المشرق نتخلّص من تلك الفلسفة في تعريفهما ، ونبتعد عن تلك المنطَقة التي شابت مفهومهما ، فعكّرت صفوهما ، وعقّدت مسلكهما ، فقد حدّوا الخبر بأنّه : مايحتمل الصدق والكذب ، والإنشاء ماليس كذلك . ثم طفقوا جرياً وراء ضابط الصدق والكذب ، أهو الواقع الخارجي الذي إذا طابقه الخبر كان صدقا وإن خالفه كان كذباً كما رآه الجمهور ؟ أم هو معتقد المخبر فلا يكون الخبر صادقاً إلاّ إذا طابق معتقد المخبر به وإن خالف الواقع ، وهو كذب إذا خالف معتقد المخبر وإن كان مطابقاً للواقع وهذا هو رأي النظام شيخ الاعتزال ؟ ولتلميذه الجاحظ رأي ثالث لانرى فائدة من ذكره(٤).

---

(١) الزلزلة : ٤ .

(٢) المحكم والمحيط الأعظم في اللغة : ٥/١١٠ . وانظر : لسان العرب : مادة : خبر .

(٣) معاني القرآن وإعرابه : ٢/٢٩٣ .

(٤) انظر تفاصيل تلك الآراء في : شروح التلخيص : ١/١٦٣-١٩٠ ، وعلم المعاني للدكتور درويش الجندي : ١٣-١٧ ، وعلم المعاني للدكتور : عبدالعزيز عتيق : ٤٣ - ٤٩ ، ومناهج بلاغية للدكتور أحمد مطلوب : ٣٨٢ - ٣٨٦ . وفي البنية والدلالة للدكتور سعد أبو الرضا : ٧٧ - ٨٣ . ودراسات في المعاني والبديع للدكتور عبدالفتاح عثمان: ٤٣ - ٤٨ ، ودلالات التراكيب للدكتور محمد محمد أبو موسى : ١٨٥ - ١٩٤ . وسواها .

ولما أورد على ذلك التعريف كلام الله تعالى وكلام رسوله خرّجوهما بالقول : إننا ننظر إلى الخبر من حيث هو خبر بغض النظر عن قائله : أهو صادق أم كاذب ؛ ولذلك أضافوا كلمة في التعريف زاعمين أنها تخرج الأخبار المقطوع بصدق قائليها أو كذبهم وهو قولهم : " لذاته " أي بغض النظر عن قائله ، ولو لم يكن من هذا القيد الذي أثبتوه إلاّ سوء الأدب مع كلام الله تعالى وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام ، إذ جعلوا كلامهما - المقطوع بصدقه - يحتمل الكذب والصدق ، مع أنّ مصدره أصدق القائلين، ثم كيف يوضع كلام أصدق القائلين في كفة ، وفي الكفّة الأخرى يوضع كلام أكذب الكاذبين كمسيلمة ، ثم يجرى عليهما ميزان الصدق والكذب احتمالا ؟ إنَّ هذا لشيء عجاب ! فضلاً على أن في هذا المنهج جرأة على كلام الله تعالى من حيث ترك نسبته إليه بدعوى أن ذلك على سبيل الجدل والافتراض والزعم بأنه يحتمل الكذب والصدق حتى يدخل في تعريف الخبر ، مع أن واقع الأمر وحقيقته أنّه كلام الله جملة وتفصيلاً ، نهاية وابتداء ، فلا يجوز افتراض قطع كلامه عنه عز وجل والنظر إليه من جهة كونه مقطوعاً عن القائل ، ومهما تمودي في ذلك الافتراض ، كيف وقد قال تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً** ﴾[1] وقال أيضا : ﴿**وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً** ﴾[2] وقال كذلك : ﴿ **قُلْ صَدَقَ اللَّهُ** . . ﴾[3].

فكلام الله تعالى لم يشرف لذاته ، وإنما شرف بسبب نسبته إلى قائله سبحانه، ولكونه هو المتكلم به حقيقة وواقعا ، فليس من الأدب شرعاً ولاعرفاً أن نفترض في كلام الله أنّه منقطع عن قائله ، أو أنّه كلام عادي يحتمل الصدق والكذب كغيره من كلام البشر ؛ ذلك تمحّل نهينا عنه شرعاً، وهو منهج يوناني الأصل ، اعتزالي النّشأة، منطقي الفكرة ، مباين للفطرة التي جبل عليها لسان العرب وبيانهم المشرق .

لقد ذكر الدكتور درويش الجندي أن " فروتاغوراس " اليوناني هو أوّل من عني بالبحث في ضروب القول والأحوال التي تصاغ عليها العبارة باختلاف أحوال الشخص ، ثم عرض " أرسطو " لأساليب الخبر والإنشاء في بحوثه المنطقية كما في

---

(١) النساء : ٨٧ .

(٢) النساء : ١٢٢ .

(٣) آل عمران : ٩٥ .

كتابه [المقولات] حيث ذكر أن الجمل الموجبة أو السالبة هي المحتملة للصدق والكذب ، وأما الألفاظ غير المؤلفة فليس شيء منها صادقاً ولاكاذبا " . ثم يقول الباحث : " وأول ماظهر الكلام في هذا الموضوع في ميدان الفكر العربي إنما كان في أغلب الظن في رحبة الاعتزال وساحة علم الكلام ؛ حيث نجمت فتنة القول بخلق القرآن ، واستدل فيما استدل به على أن القرآن مخلوق - بأنّه أمر ونهي وخبر ؛ وذلك ينفي عنه صفة القدم ، وفي بيئة الاعتزال هذه ظهر رأيان يدوران حول صدق الخبر وكذبه ؛ أحدهما يعزى إلى " النظام " ، والآخر ينسب إلى تلميذه " الجاحظ " وكلاهما من زعماء المعتزلة وعلماء الكلام " (١).

فما كان من نتائج تلك الفلسفة اليونانية ، والمنطَقة العقلية ، والجدل العقيم في كلام الله تعالى إلاّ أن تولّدت فكرة القول بخلق القرآن ، وهي ضلال مبين ، وهذا مصداق لقوله صلى الله عليه وسلم : " ماضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ؛ ثم تلا ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾(٢) " (٣). والجدال واللّسن من أمارة الضلال ، فنشأ عن ذلك أمران مذمومان : - الأول : في كتاب الله وهو القول : " إنه مخلوق " ، وهو كلام الله منزل غير مخلوق منه بدا وإليه يعود .

والثاني : الإسهام في النأي بالأبحاث البلاغية في الخبر والإنشاء عن خطّها البياني المشرق ، والزّجّ بها في متاهات التجريد الذهني واللجاج العقلي . يقول الدكتور عبدالفتاح عثمان : " وهذا الحديث عن طبيعة الصدق والكذب وارتباطهما بالواقع أو الاعتقاد هو حديث يغلب عليه التجريد ، والطابع الذهني ، والحجاج العقلي، وهو مانجده كثيراً في كتابات شراح السكاكي " (٤). ويقول الدكتور درويش الجندي : " ثم انتهى الأمر إلى البلاغيين ففصّلوا الكلام في هذا الموضوع تفصيلاً فيه كثير من العقم والجمود وجفاف الفلسفة والمنطق والنحو " (٥).

---

(١) علم المعاني : ١٤ . وانظر : دراسات في المعاني والبديع : ٤٣ - ٤٨ .
(٢) الزخرف : ٥٨ .
(٣) أخرجه الترمذي وأحمد وابن ماجه ، وإسناده صحيح . انظر : جامع الأصول : ٢/٧٤٩ .
(٤) دراسات في المعاني والبديع : ٤٧ .
(٥) علم المعاني : ٢٢ - ٢٣ .

ومما يدل على عقم البحث في موضوع الخبر والإنشاء بذلك الجدل والمنطق أنّ معظم حذّاق البلاغة والمشتغلين بتطبيقاتها لم ينجرفوا في ذلك بل نأوا بأبحاثهم عنه ، كعبدالقاهر الجرجاني ، وابن الأثير صاحب " المثل السائر " ، وغيرهما ، مع أنهم قد درسوا أساليب الخبر وأضربه ، كما تناولوا فنون الإنشاء وصوره . مع أننا لو ناقشنا الحدّ الذي حدّوه للخبر وهو كونه يحتمل الصدق والكذب لذاته (١) ؛ لوجدنا أن الإنشاء يندرج فيه أيضاً ؛ وبيان ذلك أنني عندما أقول : واعمّاه ، فهي استغاثة صدرت مني إلى عمّي ؛ تفيد بأنني في حاجة إلى إنقاذ ، وقد أكون صادقاً في ذلك أو كاذباً ، بالنظر إلى الواقع الذي أنافيه ؛ فإن كان ظرفي يستحق الغوث والنجدة كنت صادقاً ، وإلاّ فأنا في حكم الكاذب . وكذلك الخبر .

وعندما أقول : هل في الدار زيد ؟ فأُجاب بنعم . أو لا . فإنّ سؤالي هذا يتضمّن كوني جاهلاً بمعرفة مكان زيد . وهذا الجهل يحتمل الصدق والكذب متولّد من ذلك الأسلوب الإنشائي ، وهكذا دواليك ؛ فالحد المذكور للخبر والإنشاء مخروق ابتداء ؛ فلا يصحّ أن ينهض فارقاً بينهما .

ومن لطيف ما أورد على ذلك التعريف قول أبي البقاء الحسيني بعد أن ساق تعريف الخبر : " وهذا التعريف يحتمل الصدق والكذب أيضا " (٢) ! . وعلى ذلك فإنّه يلزم الدور بهذا التعريف ، كما ذكر ذلك الرازي (٣) .

وممن ناقش ذلك الحدّ للخبر الدكتور منير سلطان حيث قال : " وقبل أن نناقش هذا الحدّ – نسأل أنفسنا : مامعنى الجملة التي تحتوي على معلومة تحتمل الصدق والكذب لذاتها بغضّ النظر عن قائلها ؟ كيف يكون المتكلم صادقاً والخبر الذي يلقيه كاذبا أو العكس ؟ كيف ؟ . لقد وجدوا أمامهم القرآن الكريم والحديث الشريف والمسلّمات من الأحكام فماذا يقولون فيها ؟ إنّ جملة : بغض النظر عن قائلها ،

---

(١) لقد أورد السيوطي عدة تعريفات للخبر في : الإتقان : ٢٢٥/٣ – ٢٢٦ . وانظر الكليات : مادة : خبر .

(٢) الكليّات : ٤١٥ .

(٣) انظر : نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز : ١٤٩ . وقد عرف الرازي الخبر تعريفاً خرج به عن مسألة الصدق والكذب فقال : هو القول المقتضي بصريحه نسبة معلوم إلى معلوم بالنفي والإثبات " . انظر : نهاية الإيجاز : ١٤٩ . ولايخلو هذا التعريف من منطق الفلسفة .

لاتوقعهم في الحرج ، ثم أرادوا أن يريحوا أنفسهم فأخرجوا القرآن الكريم والحديث الشريف والمسلّمات من القاعدة ، وقالوا : هذه الأخبار علم مُسَبَّقاً أنّها صادقة ، ونسوا أن القاعدة التي تعجز عن احتواء القرآن الكريم قاعدة عابثة " (١).

إنّ القرآن الكريم نزل من عند الله تعالى بلسان عربي مبين ومايـنطبق على لغة العرب من ضوابط البلاغة والبيان ينطبق عليه ، بل هو الضابط للعربية والرافع لشأنها ، وبه شرفت وعلت على سائر اللغات ؛ قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ (٢).

وبناء على ماتقدم فقد سقط حدّ الخبر المذكور لقصور دلالته ولتناقضه وعدم استيعابه لما جرى على لسان العرب .

وإنما كان ذلك التوسع وتلك المناقشة في حَدّ الخبر والإنشاء ؛ لأنّ موضوعهما يمسّ أصدق كلام وأعزّه وهو كلام الله تعالى الذي هو مادة هذه الرسالة ومدار أبحاثها ؛ فلا يمكن التسليم بما ينال من كلام الله تعالى من قريب أو بعيد ، بل لابد من وضعه تحت مجهر البحث العلمي مناقشة وتمحيصاً حتى نصل إلى مايطمئن له القلب عسى أن يُرضي الربّ جلّ وعلا .

وما أرتضيه من مفهوم للخبر والإنشاء هو ماتقدم في صدر هذه القضية فأغنى إثباته هناك عن إعادته هنا (٣).

وسوف أتناول بالتحليل البلاغي مايظهر لي من أساليب الخبر والإنشاء فيما يتيسّر من آيات الجهاد سواء ماكان على بابه وحقيقته أم ماخرج منها لنكتة بيانية وغرض بلاغي ، ولن يكون ثَمَّ تخصيص لآيات لكونها تتضمّن أخبارا ، ولا لأخرى لكونها تشتمل على فنون الإنشاء ؛ وإنّما سوف أعرض الآية مستنبطاً مافيها من صور الخبر أو من فنون الإنشاء ؛ ذلك لأن كلام الله تعالى ، وكلّ كلام عربي ، تتداخل فيه أساليب الإنشاء مع أساليب الخبر ، وتتعاضد في نظم الكلام ، حتى يتحقق الغرض المقصود منه .

---

(١) بلاغة الكلمة والجملة والجمل : ١١٧-١١٨ .
(٢) الزخرف : ٤٤ .
(٣) انظر : ٢٥٣ .

فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [1]. لقد أحسن أبو حيّان في بيان وجه العلاقة في النظم بين هذه الآية وماقبلها حيث قال : " ولمّا أخبر تعالى قَبْلُ : أن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم وأنّهم وقود النار ناسب ذلك الوعد الصادق اتباعه هذا الوعد الصادق ، وهو كالتوكيد لما قبله ؛ فالغلبة تحصل بعدم انتفاعهم بالأموال والأولاد ، والحشر لجهنم مبدأ كونهم يكونون لها وقودا "[2]. كما تنبّه لهذه العلاقة وأجاد عرضها ابن عاشور ؛ فقد قال عن هذه الآية : " استئناف ابتدائي للانتقال من النذارة إلى التهديد ، ومن ضرب المثل لهم بأحوال سلفهم في الكفر إلى ضرب المثل بهم بسابق أحوالهم المؤذنة بأنّ أمرهم صائر إلى زوال ، وأنّ أمر الإسلام ستندكّ له صُمّ الجبال . وجيء في هذا التهديد بأطنب عبارة وأبلغها لأن المقام مقام إطناب لمزيد الموعظة ... "[3].

والأمر الذي صدّرت به الآية غرضه سوق التهديد للمقول لهم كما أشار إليه " ابن عاشور " آنفا .

وفي المراد بالمهدَّدين فيما انطوى عليه اسم الموصول خلاف ؛ أهم يهود المدينة ؟ أم هم كفار مكة ؟ أم هم هؤلاء وأولئك ؟ وقد وردت روايات فيما تقدّم تحتمل الفريقين، ولم يجزم لفريق بعينه أنه هو المعنيّ[4]، ولهذا يبقى اللفظ القرآني مطلقاً يعم كفار مكة ويهود المدينة وكلاهما قد غلب واندحر ، وهذا مارجّحه أبو حيّان ، فقد قال : " والظاهر أنّ [الذين كفروا] يعمّ الفريقين المشركين واليهود ، كلّ قد غلب بالسيف والجزية والذّلة وظهور الدلائل والحجج "[5]. والتنصيص على كفرهم الوارد في حيّز

---

(١) آل عمران : ١٢ . وقبل هذه الآية آيتان لهما بها علاقة. وهما قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النار كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذّبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب** ﴾ . آل عمران : ١٠ ، ١١ .

(٢) البحر المحيط : ٣٩٢/٢ .

(٣) التحرير والتنوير : ١٧٥/٣ .

(٤) انظر : زاد المسير : ٣٥٥/١ - ٣٥٦ ، التفسير الكبير : ١٨٧/٧-١٨٨ .

(٥) البحر المحيط : ٣٩٣/٢ . وقد أورد الفخر الرازي رواية تفيد " أن هذه الآية واردة في جمع من الكفار بأعيانهم ، علم الله تعالى أنهم يموتون على كفرهم ، وليس في الآية مايدل على أنهم من هم " . انظر : التفسير الكبير : ١٨٨/٧ . وهناك من عممها على سائر الكفار ؛ انظر : النكت والعيون : ٣٧٣/١ .

الصلة أريد منه التنفير من الكفر ، وفيه إشارة إلى أن مبعث تهديدهم ووعيدهم هو إقامتهم على الكفر ، وفي ذلك ترغيب في الإسلام أيّما ترغيب .

وفي قوله تعالى :﴿ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ ﴾ قراءتان ؛ بالتاء على سبيل الخطاب ، وبالياء على سبيل الغيبة [1] ، ولكن ما الفرق بين القراءتين من حيث المعنى ؟ يجيب عن ذلك الزمخشري فيقول : " معنى القراءة بالتاء : الأمر بأن يخبرهم بما سيجري عليهم من الغلبة والحشر إلى جهنم ، فهو إخبار بمعنى سيغلبون ويحشرون ، وهو الكائن من نفس المتوعّد به ، والذي يدل عليه اللّفظ . ومعنى القراءة بالياء : الأمر بأن يحكي لهم ما أخبره به من وعيدهم بلفظه ؛ كأنّه قال : أدّ إليهم هذا القول الذي هو قولي لك : سيغلبون ويحشرون " [2] .

وأولى القراءتين بالصّواب مَنْ قرأ بالتاء ؛ فيكون خطاباً قد وجّه إلى السامعين مباشرة بلفظ المتوعدّ به ؛ فهو أنكى بهم وأبلغ في الدلالة على مضمون الخَبَرين ؛ وهما : الغلبة في الدنيا ، والحشر إلى النار في الآخرة . هذا من وجه ، ومن وجه آخر فإن القراءة بالتاء تشمل الفريقين معاً اليهود والمشركين ؛ فيدخلان في الوعيد والتهديد والذّم ؛ يقول "الفراء" :" مَنْ قرأ بالتاء جعل اليهود والمشركين داخلين في الخطاب" [3] . فيكون التقدير: قل للذين كفروا ستُغلبون أنتم وهم وتحشرون إلى جهنّم .

ولايخفى أن في الآية خبرين مفيدين ، وهما : الإخبار بغلبة الكفار في الدنيا ، والإخبار بحشرهم إلى النار في الآخرة ؛ وقد قُدّم الخبر الأوّل في الذكر على الثاني ؛ لتقدّم وقته ؛ فالدنيا قبل الآخرة ، وأُخّر الثاني وهو الحشر إلى جهنم لتأخّر زمنه ؛ في يوم الحشر بعد زوال الدنيا ومن عليها . يقول الفخر " قوله [ستغلبون] إخبار عن أمر يحصل في المستقبل ، وقد وقع مخبره على موافقته ؛ فكان هذا إخباراً عن الغيب وهو معجز ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾[4] " .

---

(١) انظر : علل القراءات : ١/١٠٦ .
(٢) الكشّاف : ١/١٦٣ .
(٣) معاني القرآن : ١/١١٩ .
(٤) التفسير الكبير : ٧/١٨٨ . والآية في سورة : الروم : ٢ ، ٣ .

وفائدة السين في [ستغلبون] تقريب وقوع فعل الغلبة بهم ، أي : تغلبون عن قريب في الدنيا [١] . وقد صدق الله وعده فنصر عبده ، وهزمت جموع الكفر من يهود وغيرهم ، وانداح الإسلام في الجزيرة والرسول عليه الصلاة والسلام حيٌّ يسمع ويرى ، بل وصلت رايات التوحيد إلى حدود الروم في الشام ، وهذا من شواهد النبوة وصدق الرسالة .

وقوله تعالى : ﴿ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ﴾ أي هي غاية حشرهم ومنتهاه [٢] .

والتعبير بفعل الغلبة المؤذن باندحازهم في الدنيا ، وعطف فعل الحشر إلى النار عليه المؤذن بكونهم وقود جهنّم في الآخرة – في ذلك كلّه تبكيت لهم وتنفير من أعمالهم بأبلغ عبارة ، وهذا مدعاة للاعتبار بأحوالهم ، باجتناب الكفر وترك مايقرّب إليه ، والدخول في الإسلام وسؤال الله تعالى التثبيت عليه . وفي ذلك – أيضاً – رفع لهمم المجاهدين ودفع لعزائمهم على سلوك سبل الجهاد ، بعد أن قرّ في أذهانهم ووقر في قلوبهم خبر اندحار الكفار في الدنيا ، وسوقهم إلى النار في الآخرة ، وهذا هو مقتضى العلم بهذا الخبر الرباني الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه . والعمل بهذه الأخبار وأمثالها هو ثمرة الإيمان ؛ فمن عمل بذلك فقد صدَق وصدَّق ، ومن اثّاقل عنه فيخشى عليه أن ينخرط في سلك المنافقين والمرجفين ، وساء أولئك رفيقا .

وقوله تعالى : ﴿ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ أسلوب ذمّ معطوف على [ستغلبون] ومابعده ؛ من باب عطف الإنشاء على الخبر [٣] ؛ فيكون ذلك تتميماً لما يقال لهم [٤] ؛ ذماً لمآلهم وعاقبة أمرهم . وقد يكون كلاماً مستأنفاً منه تعالى ؛ الغرض منه : تهويل جهنّم وتفظيع حالها [٥] ، وقد نبأنا بذلك الخبير بها : ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [٦] .

---

(١) انظر : روح المعاني : ٩٤/٣ .
(٢) انظر : روح المعاني : ٩٥/٣ ، وانظر : البحر المحيط : ٣٩٣/٢ .
(٣) انظر : التحرير والتنوير : ١٧٦/٣ .
(٤) انظر : البحر المحيط : ٣٩٣/٢ ، وتفسير أبي السعود : ١١/٣ ، وروح المعاني : ٩٥/٣ .
(٥) انظر : تفسير ألبي السعود : ١١/١ . وانظر : روح المعاني : ٩٥/٣ .
(٦) فاطر : ١٤ .

والمخصوص بالذّم محذوف لدلالة ماقبله عليه ، والتقدير : وبئس المهاد جهنّم ، وكثيراً مايحذف لفهم المعنى (١)؛ وفي ذلك إيجاز فالذّم على هذا متوجّه إلى مقرّهم وماسينتهون إليه وهو جهنّم ، وهذا هو المشهور ؛ ولكن ذهب مجاهد إلى أنّ المعنى : بئس مامهدوا لأنفسهم ، وقد علّق عليه القرطبي قائلاً : " فكأنّ المعنى بئس فعلهم الذي أدّاهم إلى جهنم " (٢)؛ فيكون المخصوص بالذّم على هذا هو الفعل والمنهج الذي سلكوه ؛ وقد ذُمّ تنفيراً منه ، وتحذيراً من سلوك سبيله ، وهذا هو الغرض البلاغي من أسلوب الذم هنا .

وبهذا الختم الذي ختمت به الآية يتحقق الربط في النظم القرآني بين أساليب الخبر والإنشاء في سبيل الوصول إلى المعنى ؛ فقد افتتحت الآية بأمر كريم ثم تلاه خبران عن مصائر الكفار دنيا وأخرى ؛ ثم ذُمّ ذلك المصير ، وهكذا يتراوح الخبر والإنشاء عبر أساليبهما في الوصول إلى المعاني في تضافر عجيب وترابط تام .

ومما ورد من الآيات وفيها استفهام وأخبار قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣).

والخطاب في الآية موجّه إلى المؤمنين الذين قاتلوا مع النبي صلى الله عليه وسلم في " أحد " ثم هزموا في آخر الغزوة . وليس متوجّهاً إلى المنافقين كما ذهب إليه الفخر الزاري (٤)؛ وذلك لأن المنافقين قد انسحبوا خلف زعيمهم عبدالله ابن أبي قبل وقوع القتال فلم تقع عليهم المصيبة مباشرة ، اللهم إلاّ في بني عمومتهم وأقربائهم وهذا بعيد وهذا ترجيح أبي حيّان (٥). وهو ظاهر الاستدلال من نظم الآية وماتلاها من الآيات .

---

(١) انظر : البحر المحيط : ٣٩٣/٢ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن : ٢٤/٤ .
(٣) آل عمران : ١٦٥ .
(٤) انظر : التفسير الكبير : ٨١/٩ .
(٥) انظر : البحر المحيط : ١٠٨/٣ .

وهمزة الاستفهام هي أصل أدواته ، ولذا اختصت من بين ما اختصت به [١] - أنها يطلب بها التصوّر [٢] ، أو التصديق [٣] ، بخلاف بقية أدوات الاستفهام فلا تجمع بين التصوّر والتصديق ؛ بل تنفرد بأحدهما ؛ فـ " هل " يطلب بها التصديق فقط ، وبقية الأدوات يطلب بها التصوّر ، وهي : ما ، ومن ، وأي ، وكم ، وكيف ، وأين ، وأنّى ، ومتى ، وأيّان ؛ وهذا التصوّر يختلف بحسب ماوضعت له كل أداة [٤] .

وهمزة الاستفهام في الآية المتقدمة خرجت عما وضعت له إلى غرض بلاغي يدرك من السياق ؛ وهو هنا التقرير والتقريع [٥] المرتب على تعجبهم من هزيمتهم وهم في جيش النبي عليه الصلاة والسلام يقاتلون معه ويدفعون عنه وينتظرون النصر والمدد .

وأما توسيط الظرف [لما] ومايتعلق به بينه وبين الهمزة مع أنه المقصود إنكاره والمعطوف بالواو حقيقة لتأكيد النكير وتشديد التقريع ؛ فإن فعل القبيح في غير وقته أقبح ، والإنكار على فاعله أدخل ؛ وعلى هذا يكون المعنى : أحين نالكم من المشركين نصف ماقد نالهم منكم قبل ذلك رجعتم وقلتم : كيف حصل لنا هذا ونحن مسلمون نقاتل غضباً لله تعالى وفينا رسوله ، وهؤلاء مشركون أعداء الله ورسوله أوَ قد وعدنا الله تعالى بالنصر ؟ [٦] .

وقد يكون الاستفهام إنكارياً ينصبّ على استبعادهم الهزيمة مع مباشرتهم لأسبابها . وعلى هذا فالمعنى : أفعلتم مافعلتم من الفشل والتنازع وترك الجبل ، وجمع حطام الدنيا مخالفة للأمر النبوي - ولمّا أصابكم غائلة ذلك قلتم [أنّى هذا ؟] ؛

---

(١) انظر ما اختصت به همزة الاستفهام ، وماتخرج له من معان في : المعجم المفصل في اللغة والأدب : ١/١١-١٣ . وانظر : البلاغة فنونها وأفنانها : ١/١١٧ - ١٢٨ .

(٢) وهو تعيين المفرد المسؤول عنه ، ولذلك يكون الجواب بالتعيين ؛ نحو : أمحمد ذهب أم علي ؟ .

(٣) وهو تعيين النسبة بين أمرين إثباتاً أو نفياً ؛ نحو : أقام زيد ؟ ويكون الجواب بنعم أو لا .

(٤) انظر : الإيضاح : ٣/٥٥-٨٠ .

(٥) انظر : الكشاف : ١/٢١١ ، وتفسير أبي السعود : ٢/١٠٨ .

(٦) انظر : تفسير أبي السعود : ٢/١٠٨ ، وروح المعاني : ٤/١١٥ والاستفهام عندهما في [أنى هذا] بمعنى : من أين هذا ؟ وكذا عند الزمخشري ، وأمّا أبو حيان فيرى أنه بمعنى : كيف أصابنا هذا ؟ وقد ردّ على الزمخشري في ذلك : انظر : الكشاف : ١/٢١١ ، والبحر المحيط : ٣/١٠٧ . وهو المختار كما أثبت ؛ لأن السؤال ليس عن مكان ولازمان وإنما هو عن الكيفية التي صاروا إليها من الهزيمة ووقع المصيبة . انظر : البحر : ٣/١٠٧ .

فأنتم السبب فيما أصابكم من المصيبة التي تتعجبون من وقوعها فيكم [١].

وقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا ﴾ خبر أكّد للسامعين بحرف التوكيد [قد] الداخل على الفعل الماضي ؛ مما يزيد في حقيقة وقوعه ؛ والسامعون الذين سبق لهم ذلك الخبر لايشكّون في أمر حصوله ولايجهلونه وإنما أريد تذكيرهم به بعد ذهولهم عنه ، كما أريد تقريرهم من خلاله وبناء الاستفهام الإنكاري عليه .

وفائدة أخرى من هذا الخبر تنبّه لها الفخر الرازي حيث قال : " الفائدة في قوله : ﴿ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا ﴾ هو التنبيه على أنّ أمور الدنيا لاتبقى على نهج واحد ؛ فلما هزمتموهم مرتين ؛ فأيّ استبعاد في أن يهزموكم مرة واحدة "[٢]. والهزيمة التي يشير إليها الفخر هي هزيمة المشركين في بدر وفي أوّل غزوة أحد ، فهاتان هما المرّتان ، والهزيمة التي هزم فيها المسلمون هي بعد نزول الرماة من الجبل في آخر الغزوة .

وهناك تأويل آخر للإصابة المذكورة في الآية على أنها القتل ؛ فقد قتَل المسلمون من المشركين في " بدر " سبعين مقاتلاً ، وأسروا مثلهم ، واعتبر المأسورون في حكم القتلى ؛ لكونهم مقدوراً عليهم لا أحد يمنع من قتلهم . وأما المشركون فلم يقتلوا من المسلمين إلا سبعين مقاتلاً [٣]. وتنكير [مصيبة] غرضه الإفراد ؛ بدليل التثنية عند إسناد الإصابة إليهم .

وإسناد الإصابة إلى المصيبة توسّع ؛ إذ لايعقل الفعل منها ، ولكنها مُسَبَّبة عن تقصير ومعصية . وإسنادها إلى المخاطبين بعد ذلك حقيقة ؛ لأنّهم قد باشروها . وأكرمهم الله بها في " بدر " .

" ولم يؤت بالإسنادَين من باب واحد زيادة في التقريع "[٤]. وتذكير اسم الإشارة [هذا] مع أنه مشار به إلى مؤنث لفظاً وهو المصيبة ؛ لكون التأنيث مجازياً . مراعاة للمعنى [٥]. " أو لِمَا أن إشارتهم ليست إلا إلى ماشاهدوه في المعركة من

---

(١) انظر الهامش السابق .
(٢) التفسير الكبير : ٨١/٩ .
(٣) انظر : التحرير والتنوير : ١٦١/٤ .
(٤) روح المعاني : ١١٦/٤ .
(٥) انظر : روح المعاني : ١١٦/٤ .

حيث هو هو من غير أن يخطر ببالهم تسميته باسم ما ، فضلاً عن تسميته باسم المصيبة ؛ وإنما هي عند الحكاية " (١) . وفي [أصابتكم مصيبة] جناس اشتقاق ؛ إذ يجمع بينهما مادة الفعل : صَوَب .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ أمر من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ، والغرض منه هو : " أن يجيب عن سؤالهم الفاسد إثر تحقيق فساده بالإنكار والتقريع ويبكتهم ببيان أن مانالهم إنما نالهم من جهتهم ؛ بتركهم المركز ، وحرصهم على الغنيمة " (٢) . لينبّه بذلك سائر المجاهدين في عموم الأزمنة أن تقديم حظوظ الأنفس على أمر الله وأوامر القائد المسلم فيه مزلق خطير وانحراف ظاهر وتغيير لميزان القوى في المعركة ؛ فإنّ مقتضى ذلك أن يتخلى المولى جلّ وعلا عنهم بنصره وتأييده ويكلهم إلى أنفسهم الضعيفة ، فيتفوق عليهم العدوّ بالعَدَد والعُدَد . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (٣) فقد رتّب تعالى نصره لعباده وتثبيت أقدامهم عند لقاء الأعداء – على نصرهم لدينه وتنفيذهم أوامره واجتنابهم نواهيه ، وهكذا تتحقق سنة الله تعالى في نصر العباد ؛ فمن لزمها ظفر بالنصر ، ومن تنكّبها وجد نتيجة فعله من الهزيمة والذل والخذلان ؛ كما هي حال كثير من بلدان المسلمين في هذه الأزمان .

والملحوظ في الجواب الذي ساقه الله تعالى إلى المؤمنين عندما تعجّبوا من هزيمتهم – أن هذا الخبر ورد عُطْلاً من المؤكّدات التي تقرره ، مع أنّ القوم في موقف يقتضي التوكيد وإزالة آثار سؤال التعجب الآنف ؛ فكأنّما نُزّلت حالهم منزلة البيّن

---

(١) تفسير أبي السعود : ١٠٩/٢ . وانظر : روح المعاني : ١١٦/٤ فقد نقل ذلك عنه .

(٢) تفسير أبي السعود : ١٠٩/٢ . ولابن القيم ملمح دقيق حول هذه الآية حيث يقول : " وذكر – سبحانه – هذا بعينه فيما هو أعم من ذلك في السورة المكية ؛ فقال ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ الشورى : ٣٠ ، وقال ﴿ وما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ النساء : ٧٩ ؛ فالحسنة والسيئة ههنا النعمة والمصيبة ؛ فالنعمة من الله منّ بها عليك ، والمصيبة إنما نشأت من قبل نفسك وعملك ؛ فالأوّل : فضله ، والثاني : عدله ، والعبد يتقلب بين فضله وعدله ، جارٍ عليه فضله ، ماضٍ فيه حكمه ، عدل فيه قضاؤه " . عن : محاسن التأويل : ١٠٢٩ .

(٣) محمد : ٧ .

أمره ، الظاهرة أحواله ، مما لايستدعي شأنه مزيد تأكيد أو تقرير . والمعنى : لو فتّشتم عن سبب هزيمتكم وعجمتم[(١)] أصحابكم لوجدتم أن مكمن البلاء في أنفسكم ، فلا تذهبوا بعيدا .

ولكن ما الحكمة في أمر الله – تعالى – رسوله – عليه الصلاة والسلام – بأن يبكّت المتعجبين بذلك الجواب ؟

يرى " أبو السعود " أن ذلك أبلغ في النفس وأشدّ تأثيرا ؛ فإنّ توبيخ الفاعل على الفعل إذا كان ممن نهاه عنه فهو آلم وأزجر [(٢)]، ناهيك عن أنّ لازم إعلامهم بذلك الجواب فيه إشعار لهم بأن الله لايرضى عن تقصيرهم ومخالفتهم أمر نبيه لقوله تعالى : ﴿ **مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا** ﴾[(٣)].

وقوله تعالى في فاصلة الآية ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ تذييل مقرر لمضمون ماقبله ؛ ولذلك فصل عنه بترك العاطف ، وقد أكّد هذا الخبر بأمرين : – أولهما : – اسمية الجملة . وثانيهما : – [إنّ] المشدّدة .

والغرض من هذا التوكيد في الجملة هو استدعاء المقام له ؛ فإنّ المقام مقام تربية لنفوس المؤمنين ، ومراجعة لما وقع منهم ، لمعالجة القصور وتقويم العوج – ولهذا فقد ناسب أن يؤكّد لهم قدرة الله تعالى في جميع الأحوال على كلّ شيء ؛ فالذي قدر على نصرهم في " بدر " ، وقدّر هزيمتهم في نهاية " أحد " – قادر على أن يجعل النصر دَيْدَناً لهم في سائر معاركهم إذا عالجوا قصورهم وأخذوا بأسباب النصر . وهذا كلّه يعالج ماعسى أن يكون قد تسرّب إلى نفوس بعضهم من شك في النصر بعد أن حلّت بهم مصيبة " أحد " .

يقول أبو حيّان : " ونبه بذلك على أن ما أصابهم كان لوهن في دينهم لا لضعف في قدرة الله ؛ لأن من هو قادر على كل شيء هو قادر على دفاعهم على كل حال[(٤)].

---

(١) جاء في " مختار الصحاح " في مادة : [عجم] : " العَجْم : العَضّ . وقد عجم العود من باب : نصر . إذا عضه ليعلم صلابته من خوره " . وهذا المعنى مستعار في شأن الأصحاب .
(٢) انظر : تفسير أبي السعود : ٢/١٠٩ .
(٣) النساء : ٨٠ .
(٤) البحر المحيط : ٣/١٠٨ .

ويقول "القاسمي" : " وفي ذكر قدرته ههنا نكتة لطيفة ؛ وهي : أن هذا الأمر بيده وتحت قدرته ، وأنّه هو الذي لو شاء لصرفه عنكم ، فلا تطلبوا كشف أمثاله من غيره ، ولاتتكلوا على سواه " (١).

ويورد " الألوسي " غرضاً آخر لهذه الفاصلة فيقول : " وقيل : المراد منها تطييب أنفسهم ، ومزج مرارة التقريع بحلاوة الوعد ؛ أي : أنه سبحانه قادر على نصرتكم بَعْدُ ؛ لأنه على كل شيء قدير ؛ فلا تيأسوا من روح الله " (٢). ولايخفى حسن هذا التوجيه ، مع أنه يلتقي في مضمونه مع ماتقدم .

وبعد ذلك قال تعالى في بيان حادثة " أحد " وإظهار مافيها من الحكم : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّالَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ (٣).

يقول " الألوسي " في بيان العلاقة من حيث المعنى بين هاتين الآيتين والآية المتقدمة مانصّه : " واعتناءً بشأن التطييب ، وإرشاداً لهم إلى حقيقة الحال فيما سألوا عنه ، وبياناً لبعض مافيه من الحكم ، ورفعاً لما عسى أن يتوهّم من الجواب من استقلالهم في وقوع الحادثة – رجع إلى خطابهم ؛ برفع الواسطة (٤)، وجواب سؤالهم بأبسط عبارة .. " (٥). وإعادة ذكر المصيبة على سبيل إظهار فعلها [وما أصابكم] والعدول عن ضميرها – قصداً للتهويل ، وزيادة التقرير ؛ ببيان وقتها وحكمة وقوعها(٦)، وفي هذا الأسلوب تفنّن في عرض أسباب هذه القضية على سبيل الإطناب (٧).

---

(١) محاسن التأويل : ١٠٣٠ .

(٢) روح المعاني : ١١٧/٤ .

(٣) آل عمران : ١٦٦ ، ١٦٧ .

(٤) يريد " الألوسي " بالواسطة أمر الله تعالى نبيّه بأن يقول لهم : [هو من عند أنفسكم] . وأما في الآية التالية فقد شرع سبحانه في خطابهم بقوله ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان .. ﴾.

(٥) روح المعاني : ١١٧/٤ . وانظر : تفسير أبي السعود : ١٠٩/٢ .

(٦) انظر : تفسير أبي السعود : ١٠٩/٢ .

(٧) انظر : التحرير والتنوير : ١٦٢/٤ .

و[ما] موصولية مستعملة هنا فيما يكثر استعمالها فيه ، وهو غير العاقل لأن المصيبة أو الهزيمة مما لايَعقل ، ولكنّ [ما] ضمنت معنى الشرط ؛ ولذلك اقترن الخبر بالفاء ؛ كأنّه قيل : وأما ما أصابكم[١] ... فبإذن الله ؛ وذلك على سبيل البيان والتفصيل .

ويرى ابن عطية رأياً آخر ، وهو أن الفاء في قوله [فبإذن الله] رابطة مشدّدة ؛ وذلك للإبهام في [ما] ؛ فأشبه الكلام الشرط ؛ فالمعنى : وما أذن الله فيه فهو الذي أصاب ، لكن قدّم الأهم في نفوسهم والأقرب إلى حسّهم ، وهو فعل الإصابة[٢] .

وأحسن ما أوّل قوله تعالى :﴿ فَبِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ماقال ابن عباس : " فبإرادته وقضائه "[٣] ، أي قضى ذلك وقدّره لحِكَم منها ماهو ظاهر تدركونه ، ومنها ماليس كذلك . وتقديم هذا الخبر على مابعده لتقدّم تقديره في الأزل ، ولأنّه أصل انبنى عليه مابعده من الحِكَم . ثم إنّ له وقعاً حسناً في نفوس المؤمنين ، فإذا سيق إليهم هذا الخبر وعلموا أن ماوقع مقدّر في الكتاب سكنت نفوسهم ، واطمأنت قلوبهم ، وانقطعت أسئلتهم ، ولم يكن أمامهم إلاّ التسليم بقضاء الله وقدره رضىً بذلك وصبراً عليه ، وهذا هو شأن المؤمن الصادق ، الذي تعجّب من حاله المصطفى عليه الصلاة والسلام ، حيث قال : [عجبت للمؤمن إن أصابه خير حمد الله وشكر ، وإن أصابته مصيبة احتسب وصبر][٤] .

وقوله [وليعلم المؤمنين] معطوف على [فبإذن الله] عطف المسبَّب على السبب[٥] . والمراد بالعلم هنا : التمييز والإظهار فيما بين الناس[٦] ، أي : ليُظهر للناس ماكان في علمه[٧] عن حقيقة هؤلاء وهؤلاء ؛ لأن علمه سبحانه ثابت قبل ذلك[٨] .

---

(١) نظر : التحرير والتنوير : ١٦٢/٤ .
(٢) انظر : المحرّر الوجيز : ٢٨٩/٣ - ٢٩٠ .
(٣) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس : ٦٠ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ١٨٢/١ .
(٥) انظر : تفسير أبي السعود : ١٠٩/٢ .
(٦) انظر : تفسير أبي السعود : ١٠٩/٢ .
(٧) انظر : الدر المصون : ٤٧٦/٣ .
(٨) انظر : فتح القدير : ٣٩٦/١ .

وهنا سؤالان : - الأوّل : لم أعيد فعل العلم في جانب المنافقين ، ولم يكتف بالعطف على الفعل الموجود في حق المؤمنين ؟ .

والثاني : - لم عُبّر عن المؤمنين باسم الفاعل ، ولم يكن كذلك في جانب المنافقين بل اختير الموصول وجعلت صلته فعلاً دالاً على الحدث ؟ .

وممن أجاب عن السؤال الأوّل " الألوسي " حيث قال : " وإعادة الفعل : إمّا للاعتناء بهذه العلّة ، أو لتشريف المؤمنين وتنزيههم عن الانتظام في قرن المنافقين ، وللإيذان باختلاف حال العلم بحسب التعلّق بالفريقين ؛ فإنّه متعلّق بالمؤمنين على نهج تعلقه السابق ، وبالمنافقين على نهج جديد " [1] ؛ وهذا من أسرار إيردا المؤمنين بصيغة اسم الفاعل الدال على الثبات والاستمرار على هذا الوصف ، وإيراد المنافقين باسم الموصول وجعل صلته فعلاً ماضياً [2] منبئاً عن أنهم قد شرعوا في الأعمال اللائقة بالنفاق في ذلك الوقت [3] شروعاً ظاهراً لايخفى على الناظر . ولايخفى الطباق بين [المؤمنين] و [الذين نافقوا] ، وإذا نُظر إلى تقدير مَنْ قدّر : اختلاف العلم ومناطه ؛ فيكون مقابلة ؛ لأنّه وقع بين أكثر من معنى ومايقابله ؛ إذ التقدير : وليعلم إيمان المؤمنين ، ونفاق الذين نافقوا . وفائدة ذلك الطباق أو هذه المقابلة شَدُّ الأنظار إلى مابين الفريقين من اختلاف وتضادٌ في الصفات والطّبا ع ؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحي من حيي عن بيّنة .

وقوله [وقيل لهم] يحتمل في الواو العطف [4] ؛ فيكون مابعدها داخلاً في حيّز الصلة مندرجاً في سلك المعلوم ؛ أي : وليعلم الذين حصل منهم النفاق والقول بكذا .. ، ويحتمل فيها الاستئناف [5] ؛ فيكون ذلك شروعاً من الله تعالى في الإخبار عن واحدة من صور نفاقهم في غزوة " أحد " .

وطيّ ذكر اسم القائل يدل على أنّه ليس مقصوداً هنا في نظم الآية ؛ وإنّما المقصود هو مضمون القول وهو ماذكر ؛ فيكون في الآية إيجاز بالحذف. والذي قال

---

(١) روح المعاني : ١١٨/٤ . وانظر : تفسير أبي السعود : ١٠٩/٢ .
(٢) انظر : تفسير أبي السعود : ١٠٩/٢ ، وروح المعاني : ١١٨/٤ .
(٣) انظر : التفسير الكبير : ٨٤/٩ .
(٤) انظر : الدر المصون : ٤٧٦/٣ .
(٥) انظر : المصدر السابق .

للمنافقين ذلك القول هو عبدالله بن عمرو بن حزام والد جابر بن عبدالله . كما نصّ عليه الشوكاني[1] .

وقوله تعالى : ﴿ تَعَالَوْا قَاتِلُوا ﴾ أمران تُرك العطف بينهما ، وقد علل ذلك : لكون المقصود بهما أمراً واحداً وهو القتال ؛ وإنّما جيء بالأوّل تمهيداً للثاني وترغيباً في فعل المقاتلة ؛ لما فيه من الدلالة على التظاهر والتعاون[2] . والذي يظهر أن الأمر الثاني : وهو طلب المقاتلة منهم تعليل وبيان للغرض من الأمر الأوّل وهو طلب إقبالهم؛ ولذلك فصل عنه بترك العاطف ، وكلا الأمرين يستدعيه النظم ؛ لأنّ طلب إقبالهم من غير تحديد واضح للغرض منه سيعدّونه ضرباً من العبث يأبونه . وأمّا طلب فعل المقاتلة منهم مباشرة فهو أمر صدر قبل أوانه ، ولم يحن وقته بعد . وبذلك يتبيّن أن وقوع الأمرين معاً هو ماتقتضيه سلامة النظم ودقته ؛ فإنّهم طلبوا من أجل التجهّز للقتال ومدافعة العدوّ إذا هجم .

و [أو] في قوله [أو ادفعوا] على بابها من التخيير والإباحة[3] . فيكون الغرض من الأمرين تخييرهم بين أحدهما ، ولكن طُلب منهم فعل المشروع الأفضل وهو المقاتلة في سبيل الله ؛ ولهذا بدئ به تنشيطاً لإيمانهم وتعريضاً بحالهم المنصرفة عن هذا الفضل العظيم .

واختلف في المراد بالدّفع أهو : تكثير السّواد حتى يندفع العدوّ مهابة وخوفاً ؟ أم هو : المرابطة على الثغر حتى لايتسلّل العدوّ إلى المدينة ؟ أم أن المراد بذلك هو استثارة حميتهم وتحريك مروءتهم على الوجه الذي يحَشمهم ويبعث الأنفة عندهم ؛ بعد أن أعرضوا عن إعلاء كلمة الله[4] . وهذا الوجه أقرب .

وجاء قوله تعالى : ﴿ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً .. ﴾ مفصولاً عمّا قبله ؛ لكونه جواباً عن سؤال مقدّر ؛ فكأنه قيل : فما قالوا لما قيل لهم ذلك ؟ فأجيب بأنهم قالوا

---

(١) انظر : فتح القدير : ٣٩٦/١ .

(٢) انظر : تفسير أبي السعود : ١١٠/٢ .

(٣) انظر : الدر المصون : ٤٧٦/٣ ، جعل صاحب الدّر التخيير والإباحة مترادفين ، وبينهما فرق معروف ؛ فالتخيير يقتضي عدم الجمع بين ماخير فيه ، وأما الإباحة فتجيز الجمع .

(٤) انظر تلك الأحوال في : الجامع لأحكام القرآن : ٢٦٦/٤ .

ذلك القول [1]. وعلى هذا فيكون استئنافاً مبيّناً لردّهم عندما طلب منهم المقاتلة أو الدّفع .

" و [نعلم] هنا في معنى علمنا ؛ لأن [لو] من القرائن التي تخلص المضارع لمعنى الماضي ؛ إذا كانت حرفاً لما كان سيقع لوقوع غيره " [2].

وقد أحسن أبو حيّان في تحليل مضمون مقالتهم حيث قال : " ومضمون هذا الجواب أنّهم علّقوا الاتباع على تقدير وجود علم القتال ، وعلمهم للقتال منتف ؛ فانتفى الاتباع . وإخبارهم بانتفاء علم القتال منهم إمّا على سبيل المكابرة والمكايدة ؛ إذ معلوم أنّه إذا خرج عسكران ، وتلاقيا ، وقد قصد أحدهما الآخر من شقّة بعيدة في عدد كثير وعُدَد ، وخرج إليهم العسكر الآخر من بلدهم للقائهم قبل أن يصلوا بلدهم واثقين بنصر الله مقاتلين في سبيل الله ، وإن كانوا أقل من أولئك – أنّه سينشب بينهم قتال لامحالة ؛ فأنكروا علم ذلك رأساً لما كانوا عليه من النفاق والدّغل، والفرح بالاستيلاء على المؤمنين ، وإمّا على سبيل التخطئة لهم في ظنّهم أنّ ذلك قتال في سبيل الله ، وليس كذلك ؛ إنّما هو رمي النفوس في التهلكة ، إذ لامقاومة لهم بحرب الكفار ؛ لكثرتهم وقلة المؤمنين ؛ لأنّ رأي عبدالله بن أبي كان في الإقامة بالمدينة وجعلها ظهراً للمؤمنين ، وماكان يستصوب الخروج " [3].

وتنكير [قتالاً] قصدوا من ورائه التقليل، واستبعاد حصوله ؛ أي : قتالاً ما [4]. أو أيّ قتال .

وقوله تعالى : ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ إخبار عن حالهم يوم انخذالهم عن جيش المؤمنين عندما قالوا مقالتهم المتقدمة [5].

يقول " أبو حيّان " في تفسير خبر [هم] : " وجه الأقربيّة التي هي الزيادة في القرب أنّهم كانوا يظهرون الإيمان ، ولم تكن تظهر لهم أمارة تدل على الكفر ؛ فلمّا

---

(١) انظر : الدر المصون : ٤٧٦/٣ . وانظر : روح المعاني : ١١٨/٤ .
(٢) البحر المحيط : ١١٠/٣ .
(٣) البحر المحيط : ١١٠/٣ .
(٤) انظر : الدر المصون : ٤٧٦/٣ .
(٥) ومعنى ذلك : أن في [يومئذٍ] تنوين عوض أغنى عن جملة محذوفة قدّرت بالمعنى المتقدم . انظر : الدر المصون : ٤٧٨/٣ .

انخذلوا عن المؤمنين وقالوا ماقالوا زادوا قرباً للكفر وتباعداً عن الإيمان "[١].

وفائدة الخبر الذي أخبر الله تعالى به عن أولئك المنافقين بعدما قالوا مقالتهم المذكورة ، وكان منهم ذلك الموقف المشين في " أحد " - هي أنه قد يجتمع في قلب المسلم كفر وإيمان ؛ فيزيد أحدهما على الآخر بمقدار مايعمله أو يقوله المسلم مما هو من جنس الإيمان أو الكفر ، وأنّه لايحكم بخروجه من الإسلام إلا بمكفّر ظاهر ، وأنّ الأصل هو بقاؤه على الإسلام مادام موحّدا ، ولايُخرج منه إلا بدليل شرعي أو بما يقتضيه الدليل .

يقول الواحدي : " هذه الآية دليل على أن مَنْ أتى بكلمة التوحيد لم يكفر ، ولم يطلق القول بتكفيره ؛ لأنّه تعالى لم يطلق القول بكفرهم مع أنهم كانوا كافرين ؛ لإظهارهم القول بلا إله إلا الله محمد رسول الله "[٢]. وبين الكفر والإيمان طباق ؛ لوقوع التضاد بينهما ؛ وثمرة هذا الطباق تكمن في بيان أن التناقض والتذبذب من أخلاق المنافقين .

وقوله تعالى : ﴿ **يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّالَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ** ﴾ استئناف مبيّن لمغزى قربهم من الكفر ؛ لأنهم في ظاهر حالهم مؤمنون فكيف جعلوا إلى الكفر أقرب ؛ ؟ . فقيل : إن الذي يبدونه ليس موافقاً لما في قلوبهم ..[٣] ؛ ولذلك وقع الفصل ؛ فلم تعطف على ماقبلها[٤].

يقول الزمخشري : " وذكر الأفواه مع القلوب تصوير لنفاقهم ؛ وأن إيمانهم موجود في أفواههم معدوم في قلوبهم ، خلاف صفة المؤمنين في مواطأة قلوبهم لأفواههم "[٥]. وماذكره الزمخشري هو فائدة الخبر .

ولما كان مافي قلوبهم مكتوماً وأنّ مايقولونه بألسنتهم هو خلاف ذلك - ناسب أن تختم الآية بقوله : ﴿ **وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ** ﴾ أي من الكفر وعداوة الدين . ولكن لم جيء بأفعل التفضيل هنا ؟ هل ثَمّ مشاركة في علم الله بهم ؟

---

(١) البحر المحيط : ١١٠/٣ .

(٢) التفسير الكبير : ٨٦/٩ . وانظر : النكت والعيون : ٤٣٥/١ ، فقد قال الماوردي : " لأنهم بإظهار الإيمان لايحكم عليهم بحكم الكفار ، وقد كانوا قبل ذلك بإظهار الإيمان أقرب إلى الإيمان ، ثم صاروا بما فعلوه أقرب إلى الكفر من الإيمان ".

(٣) انظر : التحرير والتنوير : ١٦٣/٤ .

(٤) انظر : روح المعاني : ١١٩/٤ .

(٥) الكشاف : ٢١٢/١ .

يقول أبو حيّان : " وقال [أعلم] ؛ لأنّ علمه – تعالى – بهم علم إحاطة بتفاصيل مايكتمونه وكيفيّاته ، ونحن نعلم بعض ذلك علماً مجملا ، وتضمنت هذه الجملة التوعّد الشديد لهم ؛ إذ المعنى : ترتب الجزاء على علمه – تعالى – بما يكتمون "[١].

ويعرّف الله تعالى بالمنافقين بذكر مزيد من أقوالهم في " أحد " من خلال اسم الموصول وصلته ؛ فيقول سبحانه : ﴿ **الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾[٢]. واسم الموصول بدل من [الذين نافقوا] أو وصف له ، أو بدل من واو [يكتمون][٣] ؛ ولذلك وقع الفصل بينهما بترك العاطف .

والحكمة من زيادة ذكر هذا الوصف ليتميّزوا به كمال التميّز[٤] بضمّه إلى سابقه ؛ فلا ينطبق هذا الوصف المتكامل على أحد من الناس سواهم . والمقصود بالأخوّة المذكورة أخوّة نسب أو مجاورة[٥].

قوله [وقعدوا] حالية معترضة لبيان حالهم وقت مقالتهم تلك زيادة في التشنيع بهم ؛ لأنّ القعود وقت الجهاد – بلا عذر – مذمّة ومنقصة إيمانية . ومعنى هذا القعود : " القعود عن الجهاد ؛ يعني : من قتل بأحد لو قعدوا كما قعدنا ، وفعلوا كما فعلنا لسلموا ولم يقتلوا "[٦].

وقراءة [ماقتّلوا] بتشديد التاء تفيد المبالغة في التقتيل ، وهو مايتفق مع مراد المنافقين من تفظيعهم ما أصاب إخوانهم من القتل طعناً في طاعتهم النبي صلى الله عليه وسلم[٧]، وتصويباً لموقفهم الرافض للقتال وللخروج من المدينة أصلا .

---

(١) البحر المحيط : ١١١/٣ . وانظر : تفسير أبي السعود : ١١٠/٢ ففيه مزيد بيان .
(٢) آل عمران : ١٦٨ .
(٣) انظر : تفسير أبي السعود : ١١١/٢ ، والتحرير والتنوير : ١٦٤/٤ ، وانظر : الدر المصون : ٤٧٩/٣ ففيه إعراب مفصّل .
(٤) انظر : التحرير والتنوير : ١٦٤/٤ .
(٥) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٢٦٧/٤ . وانظر : التفسير الكبير : ٨٧/٩ ٩
(٦) التفسير الكبير : ٨٧/٩ .
(٧) انظر : التحرير والتنوير : ١٦٤/٤ .

وفي مقالتهم هذه إيذان بأنّهم أمروهم بالانخذال حين انخذلوا ، وأغووهم كما غووا [1] . ولكنهم لم يفلحوا في ذلك ؛ بل فضحهم الله على رؤوس الأشهاد ، ودحض مقالتهم بأبلغ عبارة حيث أمر نبيه عليه الصلاة والسلام أمر تشريف وتكريم أن يقول لهم تبكيتاً وتكذيباً لمقالتهم [فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين] فهم قد قعدوا فراراً من الموت ؛ فأمروا أمر تعجيز بأن يدفعوا عن أنفسهم الموت إذا وقع بهم، وليس ذلك في مكنتهم . وقد علّق شرط صدقهم بدفعهم الموت عن أنفسهم[2] ؛ فإن فعلوا كانوا صادقين ، وإلاّ فهم في زمرة الكاذبين ، ولاجرم أنهم قد هلكوا أجمعين وهم أكذب الكاذبين .

وفي هذه الفاصلة تعجيز لهم على أسلوب التحدي المعجز ، كما أنّ فيها تعريضاً بهم بأنّهم لايصدقون في أقوالهم ، وذلك من جملة نفاقهم .

وقد يكون الغرض من الأمر في قوله [فادرؤوا ..] السخرية بهم ؛ وقد أوضح " الزمخشري " هذا الوجه حيث قال : " إن كنتم صادقين في قولكم : لو أطاعونا ماقتلوا ؛ يعني : أنهم لو أطاعوكم وقعدوا لقتلوا قاعدين ؛ كما قتلوا مقاتلين ، وقوله [فادرؤوا عن أنفسكم الموت] استهزاء بهم ؛ أي : إن كنتم رجالاً دفّاعين لأسباب الموت فادرؤوا جميع أسبابه حتى لاتموتوا " [3].

ومن فوائد ما أخبره تعالى عن المنافقين وماقصّه من أقوالهم ماذكره ابن القيم حيث قال : " وكان من الحكمة تقديره تعالى في هذه الواقعة تكلم المنافقين بما في نفوسهم ؛ فسمعه المؤمنون ، وسمعوا ردّ الله عليهم ، وجوابه لهم ، وعرفوا موادّ النفاق، ومايؤول إليه ، وكيف يحرم صاحبه سعادة الدنيا والآخرة ؛ فيعود عليه بفساد الدنيا والآخرة ؛ فلله كم من حكمة في ضمن هذه القصة بالغة، ونعمة على المؤمنين

---

(١) انظر : تفسير أبي السعود : ١١١/٢ .

(٢) في فاصلة الآية شرط محذوف دل عليه مابعده ؛ كما أن فيها جواب شرط محذوف دلّ عليه ماقبله ؛ بتقدير شرط قبل [فادرؤوا ..] وجواب بعد [إن كنتم صادقين ..] ؛ انظر : تفسير أبي السعود : ١١١/٢ .

(٣) الكشاف : ٢١٣/١ . قيل مات يوم قيل هذا سبعون منافقاً : انظر : الكشاف : ٢١٣/١ ، والجامع لأحكام القرآن : ٢٦٧/٤ .

سابغة ، وكم فيها من تحذير وتخويف ، وإرشاد وتنبيه ، وتعريف بأسباب الخير والشر ومآلهما وعاقبتهما " (١) .

ومن الآيات الكريمة التي عمرت بأساليب الإنشاء آخر آية في سورة " آل عمران " وهي قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ (٢) .

فقد افتتحت هذه الآية بنداء ثم أتبع بأربعة أوامر ثم ختمت برجاء .

والمتأمل في كتاب الله تعالى يجد في آياته كثرة كاثرة في أساليب النداء ، وقد يكون النداء عاماً إلى كل الناس مؤمنهم وكافرهم ، وقد يتوجّه إلى المؤمنين خاصة ويندرج فيهم الرجال والنساء ، وقد ينفرد النساء بنداء يخصّهن لأحكام تتعلّق بهن خاصة من دون الرجال ، وقد يشرف النبي – عليه الصلاة والسلام – بنداء يخصّه ربّه به من بين سائر الخلق ، وهكذا . فما الأسرار البلاغية في أسلوب النداء الذي شغل حيّزاً من فواتح آي القرآن الكريم ؟ !

لقد وقف " الزمخشري " في " كشّافه " وقفة متذوق لبلاغة النداء في القرآن الكريم ؛ فكشف عن شيء من لطائفه ، وأبان بعض أسراره ؛ حيث قال : " .. « ياء » حرف وضع في أصله لنداء البعيد ؛ صوت يهتف به الرجل بمن يناديه . وأما نداء القريب فله " أي " والهمزة ، ثم استعمل في مناداة من سها وغفل وإن قرب تنزيلاً له منزلة من بَعُد ؛ فإذا نودي به القريب المفاطن فذلك للتأكيد المؤذن بأنّ الخطاب الذي يتلوه معنيّ به جداً " . ويقول في تحليل كلمة [أيها] : – " و « أي » وصلة إلى نداء مافيه الألف واللام ؛ كما أن " ذو " و " الذي " وصلتان إلى الوصف بأسماء الأجناس، ووصف المعارف بالجمل ، وهو اسم مبهم مفتقر إلى مايوضحه ويزيل إبهامه ؛ فلابد أن يردفه اسم جنس أو مايجري مجراه يتصف به حتى يصح المقصود بالنداء ؛ فالذي يعمل فيه حرف النداء هو " أي " والاسم التابع له صفته " .ثم يقول : " وفي هذا التدرّج من الإبهام إلى التوضيح ضرب من التأكيد والتشديد . وكلمة التنبيه المقحمة بين الصفة وموصوفها لفائدتين : معاضدة حرف النداء ومكانفته بتأكيد معناه ،

---

(١) محاسن التأويل : ١٠٣٢/٢ .

(٢) آل عمران : ٢٠٠ .

ووقوعها عوضاً مما يستحقه " أي " من الإضافة . فإن قلتَ : لم كثر في كتاب الله النداء على هذه الطريقة مالم يكثر في غيره ؟ قلتُ : لاستقلاله بأوجه من التأكيد وأسباب من المبالغة ؛ لأن كلّ مانادى الله له عباده من أوامره ونواهيه ، وعظاته وزواجره ، ووعده ووعيده ، واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم .. وغير ذلك مما أنطق به كتابه - أمور عظام ، وخطوب جسام ، ومعان عليهم أن يتيقظوا لها ، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها ، وهم عنها غافلون ؛ فاقتضت الحال أن ينادَوا بالآكد الأبلغ "(١).

فالنداء في الآية المتقدمة قد توجه إلى المؤمنين ليستنهض إيمانهم ، ويسترعي أبصارهم لأمر جليل هو من متمّمات إيمانهم ومن لوازمه . ويلاحظ أن صلة الموصول قد وردت بالفعل الماضي المشعر بحصول فعل الإيمان وانعقاد قلوب المنادَين عليه ، وأنّه بمقتضاه قد صدر هذا النداء . وفي ذلك تعريض بمن لم يستجب لمضمون ماوقع في حيّز النداء ؛ فإنّه حريّ بألاّ يتصف بما جاء في حيّز الصلة ؛ ذلك بأن مناط الاستجابة إنما باعثها هو الإيمان ؛ فتَقْوَى إذا قوي وتمكّن في قلب صاحبه ، وتضعف إذا ضعف ، وتنعدم إذا عدم ولم يكن . وأوّل أمر أعقب ذلك النداء الربّاني هو الأمر بالصبر [اصبروا] ؛ وذلك لعظم شأنه ، ولأنّه جماع الفضائل ، ورأس كل كمال ، ومابعده في هذه الآية ينبني عليه .

ولكن ما المقصود بالمصبور عليه ؟

ظاهر النص المطلق في الأمر بالصبر أنه عام متوجّه إلى الصبر على التمسّك بالدين والقيام على طاعة الله تعالى على الوجه الشرعي ، وهذا هو اختيار " ابن جرير الطبري " ، وقد علّل ذلك بقوله : " وذلك أنّ الله لم يخصص من معاني الصبر على الدين والطاعة شيئاً فيجوز إخراجه من ظاهر التنزيل ؛ فلذلك قلنا : إنه عنى بقوله [اصبروا] الأمر بالصبر على جميع معاني طاعة الله فيما أمر ونهى ؛ صعبها وشديدها ، وسهلها وخفيفها "(٢).

---

(١) الكشاف : ٤٦/١ .

(٢) جامع البيان : ٢٢٢/٤ .

ويقول " الألوسي " : " والظاهر أن المراد الأمر بما يعمّ أقسام الصبر الثلاثة المتفاوتة في الدرجة الواردة في الخبر ، وهو الصبر على المصيبة ، والصبر على الطاعة ، والصبر عن المعصية " (١).

ومما لامرية فيه أن تكاليف الجهاد ، ومكابدة العدوّ ، ومصاولته من الأمور الشّاقة على النفس البشرية ؛ ولهذا فهي داخلة في الأمر دخولاً أوّلياً ؛ لأن أمور القتال وتحصيل النصر على العدوّ مما يحتاج إلى الصّبر ، وحبس النفس على مجاهدة العدوّ ومنازلته ، وكان ذلك سنّة لله تعالى في أمور القتال التي تجري بين الناس . ولكن الذي يميّز المؤمنين عن سائر الناس أنّهم إذا صدقوا الله وأخذوا بالأسباب تنزّل عليهم توفيق الله وعونه فكانوا هم العالين .

ولما كان العدوّ يحتاج إلى مزيد صبر غير عادي أفرد بالذكر وعطف على الصبر الأوّل بلفظ يفيد مزيد تخصيص وعناء ؛ فقال تعالى : ﴿ وَصَابِرُوا ﴾ ، والمصابرة : مفاعلة بين اثنين فصاعدا ، ويكون الظّفر والنّجح لمن كان أطول صبرا .

يقول " ابن عاشور " عن المصابرة : " هي الصبر في وجه الصابر ؛ وهذا أشدّ الصبر ثباتاً في النفس ، وأقربه إلى التزلزل ؛ ذلك أن الصبر في وجه صابرٍ آخر شديد على نفس الصابر ؛ لما يلاقيه من مقاومة قِرْن له في الصبر قد يساويه أو يفوقه، ثم إنّ هذا المصابر إن لم يثبت على صبره حتى يملّ قرنه فإنّه لايجتني من صبره شيئا ؛ لأنّ نتيجة الصبر تكون لأطول الصابرين صبرا " (٢).

والفرق بين الصبر والمصابرة ذكره " ابن القيم " حيث قال عن الصبر : " هو حال الصابر في نفسه . والمصابرة : مقاومة الخصم في ميدان الصبر ؛ فإنها مفاعلة، تستدعي وقوعها بين اثنين ؛ كالمشاتمة والمضاربة ؛ فهي حال المؤمن في الصبر مع خصمه " (٣).

ولذلك كانت المصابرة أعلى درجة في الصبر من الصبر عينه ؛ لأنها تتضمّن صبراً وزيادة ، وهذه الزيادة هي المحافظة على دوام الصبر حتى تتحقّق عاقبته

---

(١) روح المعاني : ١٧٥/٤ .

(٢) التحرير والتنوير : ٢٠٨/٤ .

(٣) التفسير القيّم : ٢١٧ .

الحميدة ، ولهذا كانت المصابرة أفضل من الصبر ؛ وكان عطفها عليه في النظم الكريم من باب عطف الخاص على العام ؛ تنويهاً بشأنها ، وترغيباً فيها .

يقول " الألوسي " عن [وصابروا] : " أي : اصبروا على شدائد الحرب مع أعداء الله تعالى صبراً أكثر من صبرهم ، وذكره بعد الأمر بالصبر العام ؛ لأنه أشدّ ؛ فيكون أفضل ؛ فالعطف كعطف [جبريل] على [الملائكة] ، و [الصلاة الوسطى] على [الصلوات] ، وهذا وإن آل إلى الأمر بالجهاد إلاّ أنه أبلغ منه " [(١)]. فكانت المصابرة أمراً بالجهاد من وجه أعلى ؛ فقد حُصِّل الجهاد بطريق أوفى ؛ لأنّ المصابرة جهاد يفضي إلى ملازمة العدوّ ودوام مواجهته ، والحذر منه ، واليقظة له ، وهذا يعني المرابطة في الثغور وملازمتها ؛ ولذلك جاء العطف على المصابرة بالمرابطة ، فالمرابطة مصابرة دائمة ومراقبة للعدوّ طويلة ، وتيقّظ تام لما يمكن أن يفعله أو يفجأ المسلمين به ، وهي أقصى درجات المصابرة فأخذت اسم المرابطة ؛ لطول ملازمة الثغور والإقامة فيها محافظة عليها من نفوذ عدوّ منها .

يقول " الألوسي " : " [ورابطوا] أي : أقيموا في الثغور رابطين خيولكم فيها ، حابسين لها مترصدين للغزو ، مستعدين له ، بالغين في ذلك المبلغ الأوفى أكثر من أعدائكم " [(٢)]. ويقول " ابن القيم " : " المرابطة : هي الثبات واللزوم ، والإقامة على الصبر والمصابرة " [(٣)]. فالنظم القرآني الكريم قد تدرّج بالمؤمنين في منازل الصبر من المراحل الدنيا إلى ماهو أعلى تمشيّاً مع سنن الله في الضعف البشري ؛ فإن الإنسان لايصعد إلى منزلة عليا إلا بعد أن يمر على ماهو أدنى منها ؛ فيستعين بالأدنى صعوداً إلى الأعلى . وهكذا يريد الله بالمؤمنين خيراً وكمالاً ؛ فأمرهم بالأدنى وتدرج بهم نحو الكمال الأعلى رفقاً بهم ووصولاً بشأنهم إلى العزّة المهابة . ولن يسهل عليهم الصَّعب ، أو يلين لهم الصُّلب إلاّ إذا استشعروا ثواب الله تعالى ، واحتسبوا كلّ مايصيبهم عند خالقهم رغبة ورهبة ؛ وهذه الحال هي حال المتقين ؛ ولهذا كان الأمر الرابع والأخير في هذه الآية الكريمة – أمراً بالتقوى عطفاً على

---

(١) روح المعاني : ١٧٥/٤ .

(٢) روح المعاني : ١٧٥/٤ .

(٣) التفسير القيّم : ٢١٧ .

الصبر والمصابرة والمرابطة ؛ إيذاناً بأنّ فعل تلك الأوامر المتقدمّة ينبغي أن يكون تعبُّداً لله جل شأنه وطمعاً في إحسانه وخشية من عقابه ، وبذلك يحلو الصبر ، وتهون المصابرة ، ويستبق المؤمنون إلى المرابطة مادام ذلك كلّه عبادة وتعبّدا ٠

يقول ابن القيّم : " قد يصبر العبد ولايصابر ، وقد يصابر ولايرابط ، وقد يصبر ويصابر ويرابط من غير تعبّد بالتقوى ؛ فأخبر سبحانه : أن ملاك ذلك كله : التقوى ٠ وأن الفلاح موقوف عليها فقال [واتقو الله لعلكم تفحلون] "[١]. فخشية من أن يضيع جهد المؤمنين سدى إذا صبروا وصابروا ورابطوا من غير أن يتعبّدوا لله ذكّرهم الله بلزوم التقوى في ذلك كله ؛ أي باستحضار نيّة التعبّد لله في جميع أفعالهم ؛ فـ " إنّما الأعمال بالنّيات ، وإنّما لكل امريء مانوى ٠٠ " ؛ فتأمّل كيف تدارك الله تعالى عباده بهذا التذكير وجعله منتظماً في سلك تلك الأوامر الشّاقة تخفيفاً منها ، وتثويباً لهم عليها ؟ ! ٠

وفي ختم ماجاء في حيّز النداء بجملة الرجاء [لعلكم تفلحون] نكتة : وهي : أنّ عليكم أن تفعلوا ما أمرتم به راجين الفلاح والفوز عند ربّكم ٠ وهذا يجعل العبد يجتهد حتى يحظى بذلك الفلاح ، كما يجعله يحذر من ألا يكون من المفلحين ، فالرجاء هنا على بابه من جهة المخاطبين من البشر ، كما رآه سيبويه وسواه من أهل اللغة[٢] ، وهذا مايؤيّده واقع المؤمن في حال عبادته أو بعد مماته ؛ فإنّ أحداً من البشر لايمكن أن يقطع بأنه هو أو مَنْ سواه من المؤمنين مقبول العمل عند اللـه أو أنّه

---

(١) التفسير القيّم : ٢١٨ ٠

(٢) لخص القرطبي ماورد من تأويلات العلماء في مثل قوله تعالى :﴿ **لعلكم تفلحون أو تتقون أو تشكرون ٠٠** ﴾ على ثلاثة أوجه :

الأول : أن لعل على بابها من الترجي والتوقع في حيّز البشر ، فيكون المعنى : افعلوا ذلك على الرجاء منكم والطمع أن تفلحوا وأن تتقوا وأن تشكروا ٠٠ وهذا رأي سيبويه ورؤساء اللسان ٠

الثاني : استعمال لعلّ مجردة من الشك بمعنى لام كي ، أي : لتفلحوا ولتتقوا ولتشكروا ، وهذا اختيار ابن جرير الطبري ، وقطرب النحوي ٠

الثالث : أن تكون " لعل " بمعنى التعرّض للشيء كأنه قيل : افعلوا ذلك متعرضين لأن تفلحوا أو لأن تتقوا أو لأن تشكروا ٠٠ ولم ينسبه القرطبي إلى أحد ٠ انظر : الجامع لأحكام القرآن : ١/٢٢٦ - ٢٢٧ ٠

مقطوع له بالجنة في الآخرة ماسوى الذين شهد لهم الله تعالى بذلك في كتابه أو شهد لهم النبي عليه الصلاة والسلام من العشرة المبشرين بالجنة وغيرهم من الذين صحّ الخبر وحياً من الله تعالى فيهم ، وهذا معلوم من عقيدة أهل السنة [(١)]: من أنّه لايقطع لمعيَّن من أهل القبلة بجنّة أو نار ، وإنما يرجى لهم ويخاف عليهم ماداموا موحّدين ، وعليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[(٢)] فقال : يرجون رحمة الله . ولم يقل : يقطعون بها ، ومثله قوله تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحا ولايشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ وبذلك يعلم أن [لعل] على بابها في الرجاء في حق البشر ، وهذا لايعني الشك في وقوع وعد المتكلّم بها سبحانه ؛ فقد قال ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾[(٣)] وقال ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ . . ﴾[(٤)].

ومن حكم تغييب هذه المسألة العظيمة وجعلها في حق العباد رجاء إيقاع التنافس بينهم في الخيرات ونفي التواكل على الأعمال ، وتعليق المؤمنين بالله تعالى وبما عنده من الرضى والنعيم ، والترقي في الدرجات العلا في منازل الآخرة . وغير ذلك مما ليس هذا مقام بسطه .

وينبغي أن يعلم أن الفلاح المذكور في قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ يشمل فلاح الدنيا والآخرة . يقول " الراغب" : " الفلاح : الظَّفر وإدراك بُغْية ؛ وذلك ضربان :

---

(١) يقول الطحاوي : " نرجو للمحسنين من المؤمنين أن يعفو عنهم ويدخلهم الجنة برحمته ، ولانأمن عليهم ، ولانشهد لهم بالجنة ، ونستغفر لمسيئهم ونخاف عليهم ولانقنطهم . . " وقد علّق الشيخ : عبدالعزيز بن عبدالله بن باز على قول الطحاوي : " ولانشهد لهم بالجنة " قائلاً : " مراده رحمه الله إلا ممن شهد له الرسول صلى الله عليه وسلم بالجنة كالعشرة ونحوهم ، كما يأتي ذلك في آخر كلامه ، مع العلم بأن من عقيدة أهل السنة والجماعة الشهادة للمؤمنين والمتقين على العموم بأنهم من أهل الجنة ، وأن الكفار والمشركين والمنافقين من أهل النار ؛ كما دلت على ذلك الآيات الكريمات والسنة المتواترة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ومن ذلك قوله سبحانه : ﴿ إن المتقين في جنات ونعيم ﴾ الطور : ١٧ . . . " : العقيدة الطحاوية : ١٧ ، ١٨ بتعليق الشيخ : عبدالعزيز بن عبدالله بن باز . ويحسن التنبيه إلى الفرق بين العموم والتعيين في الشهادة للمؤمنين بالجنة ؛ فالتعميم على ماذكر الشيخ عبدالعزيز – وفقه الله – ، والتعيين على ماذكر سابقاً ، من أنّه لايجوز القطع لمعيّن بالجنة ولو كان مقاتلاً في سبيل الله في ظاهر حاله .

(٢) البقرة : ٢١٨ .

(٣) الذاريات : ٥ .

(٤) لقمان : ٣٣ .

دنيوي وأخروي ؛ فالدنيوي : الظفر بالسعادات التي تطيب بها حياة الدنيا ، وهو : البقاء والغنى والعزّ " [١]. وهذا نتيجة من نتائج الجهاد في الدنيا ؛ فيه العزّة والمنعة وإرهاب العدوّ . ثم يقول : " وفلاح أخروي : وذلك أربعة أشياء : بقاء بلا فناء ، وغنى بلا فقر ، وعزّ بلا ذُلّ ، وعلم بلا جهل " [٢]. وهذا عند الرحمن في جنان الآخرة . كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً وَكَأْساً دِهَاقاً** .. الآيات ﴾ [٣]، وقوله : ﴿ **وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ** ﴾ [٤].

وممن أجْمَل المعاني والأوامر الواردة في هذه الآية التي نحن بصددها وربط بينها ؛ " الألوسي " حيث قال : " إنه تعالى أمر بالصبر العام أولاً ؛ لأنه كما في الخبر بمنزلة الرأس من الجسد ، وهو مفتاح الفرج ... ثم إنّه تعالى أمر ثانياً بنوع خاص من الصّبر ، وهو المجاهدة التي يحصل بها النفع العام والعزّ التام . وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [إذا تركتم الجهاد سلّط الله تعالى عليكم ذلاً لاينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم] ، ثم ترقى إلى نوع آخر من ذلك هو أعلى وأغلى ، وهو المرابطة التي هي الإقامة في ثغر لدفع سوء مترقّب ممن وراءه ، ثم أمر سبحانه آخر الأمر بالتقوى العامة ؛ إذ لولاها لأوشك أن يخالط تلك الأشياء شيء من الرياء والعُجْب ، ورؤية غير الله سبحانه فيفسدها ؛ وبهذا تَمّ المعجون الذي يبريء العلّة ، وروق الشّراب الذي يروي الغلّة ؛ ومن هنا عقب ذلك بقوله عزّ شأنه : ﴿ **لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾[٥]. [٦]

---

(١) المفردات : ٣٨٥ .

(٢) المفردات : ٣٨٥ .

(٣) النبأ : ٣١ – ٣٦ .

(٤) هود : ١٠٨ .

(٥) روح المعاني : ٤/١٧٥-١٧٦ .

(٦) ولمزيد من الوقوف على الجمل الخبرية والإنشائية ؛ انظر : ٤١ ، ٤٤ ، ٥٢ ، ٦١ ، ٦٥ ، ٧٦ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٩٨ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٣٢١ ، ٣٣٦ ، ٣٥٨ ، ٣٦٣ – ٣٦٤ ، ٣٩٩ ، ٤١٢ ، ٤٧٣ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٣١ ، ٥٣٤ ، ٥٣٥ ، ٥٤٧ ، ٥٨٩ .

التعبير بالجملة الاسمية والفعليّة

من المعلوم في العربية أن الاسم هو الذي يدلّ على ذات أو معنى ، وأن الفعل هو الذي يدلّ على حدث مرتبط بزمان . ومن المعلوم - أيضاً - أنّ الذّات ثابتة ، والفعل متغيّر ، وأنّ الذّات سبقت وجود الحدث ، وليس الفعل إلاّ دليلاً على وجود الذات أو نتيجة من أفعال صاحبها . ومن هنا جاز بناء الجملة من اسمين ، هما المبتدأ والخبر ، ولم يجز بناؤها من فعلين ، وقد أفادت الجملة الاسمية معنى التوكيد ؛ لأنّ وجود الذات ثابت ، وأمّا الحدث فمتغيّر [١] .

ولقد دقّق علماء اللغة والبلاغة في طبيعة الاسم والفعل ؛ فوجدوا بينهما فروقا ؛ فهذا ابن فارس عقد في كتابه " الصاحبي " فصلاً عن مابين الفعل والنعت من الفروق ؛ فقال : " النعت يؤخذ من الفعل نحو : قام فهو قائم .. وهذا يُسَمِّيه بعض النحويين الدائم ، وبعض يُسَمِّيه اسم الفاعل ، وتكون له رتبة زائدة على الفاعل ، قال جل ثناؤه : ﴿ **وَلَاتَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ** ﴾[٢] ، ولم يقل : ولاتغل يدك ؛ وذلك أن النعت ألزم ، ألا ترى أنّا نقول : ﴿ **وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى** ﴾[٣] ، ولانقول : آدم عاص غاو ؛ لأن النعوت لازمة ، وآدم وإن كان عصى في شيء فإنه لم يكن شأنه العصيان فيُسَمَّى به ؛ فقوله جلّ ثناؤه [ولاتجعل يدك مغلولة] أي : لاتكوننّ عادتك المنع ؛ فتكون يدك مغلولة "[٤] .

وما أراد ابن فارس تقريره هو أنه إذا أريد الدوام والاستمرار وأن هذا الشيء المعبَّر عنه يجري مجرى العادة والإلف فالتعبير الأقوم باسم الفاعل . وإذا كان المراد التجدّد والحدوث ، وأن هذا الشيء يتصل مرة ثم ينقطع أخرى ، أو أنه مؤقت لايجري على سنن واحد ، أو أنه قد فرغ منه وانتهى فالتعبير السليم عنه يكون بالفعل[٥] .

---

(١) انظر : بناء الجملة بين منطق اللغة والنحو : ٢٩ . د/ نجاة الكوفي .
(٢) الإسراء : ٢٩ .
(٣) طه : ١٢١ .
(٤) الصاحبي : ٤٦٣ - ٤٦٤ .
(٥) انظر : أثر النحاة في البحث البلاغي : ٢٥٤ .

وقد تناول عبدالقاهر الجرجاني هذه المسألة تناولاً حسناً ، ووقف عندها وقفة تأمل لما بين الاسم والفعل من فروق في الخبر بهما ؛ وقد فرّق بينهما ، ووسم هذا الفرق بأنه " فرق لطيف تمسّ الحاجة في علم البلاغة إاليه " . ثم شرع في بيانه قائلاً : " وبيانه : أنّ موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدُّده شيئاً بعد شيء . وأمّا الفعل ؛ فموضوعه على أنه يقتضي تجدّد المعنى المثبت به شيئاً بعد شيء ؛ فإذا قلت : زيد منطلق ؛ فقد أثبت الانطلاق فعلاً له من غير أن تجعله يتجدّد ويحدث منه شيئاً فشيئاً ؛ بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك : زيد طويل وعمرو قصير ؛ فكما لايقصد ههنا إلى أن تجعل الطول أو القصر يتجدّد ويحدث ، بل توجبهما وتثبتهما فقط ، وتقضي بوجودهما على الإطلاق ، كذلك لاتتعرض في قولك : زيد منطلق لأكثر من إثباته لزيد ؛ أما الفعل فإنّه يقصد فيه إلى ذلك ؛ فإذا قلت : زيد هاهو ذا ينطلق ؛ فقد زعمت أن الانطلاق يقع منه جزءاً فجزءاً ، وجعلته يزاوله ويُزَجّيه ... "[1].

ويطبّق عبدالقاهر كلامه المتقدم على آية كريمة فيقول :"وإذا أردت أن تعتبره بحيث لايخفى أن أحدهما لايصلح في موضع صاحبه فانظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾[2]فإن أحداً لايشك في امتناع الفعل ههنا وأنّ قولنا : كلبهم يبسط ذراعيه ؛ لايؤدي الغرض ، وليس ذلك إلاّ لأن الفعل يقتضي مزاولة وتجدّد الصفة في الوقت ، ويقتضي الاسم ثبوت الصفة وحصولها من غير أن يكون هناك مزاولة وتزجية فعل ، ومعنى يحدث شيئاً فشيئاً ، ولافرق بين [وكلبهم باسط] وبين أن يقول : وكلبهم واحد ، مثلاً في أنك لاتثبت مزاولة ، ولاتجعل الكلب يفعل شيئاً ، بل تثبته بصفة هو عليها ؛ فالغرض - إذن - تأدية هيئة الكلب "[3].

ولسوف يستبين المعنى المذكور - إن شاء الله - بين الجملة الاسمية والجملة الفعلية[4] من خلال تحليل بعض الآيات الكريمة التي تحمل المعاني الجهادية ، بحيث

---

(١) دلائل الإعجاز : ١٣٣ - ١٣٤ ، تعليق رشيد رضا .

(٢) الكهف : ١٨ .

(٣) دلائل الإعجاز : ١٣٤ ، تعليق رشيد رضا .

(٤) لمزيد من الوقوف على الفروق بين الجملتين الاسمية والفعلية . انظر : المثل السائر : ٢/٢٦٩ - ٢٧٥ ، والطراز : ٢/٢٥-٣٢ ، والتبيان في علم البيان : ٤٩ ، وتجديد النحو : ٢٥٣ - ٢٥٥ . وغيرها .

نرى الفرق بين الجملتين الاسمية والفعلية وأثرهما في المعنى المراد تحقيقه ، علماً بأنّه قد سبق شيء من ذلك ، وسيرد طائفة أخرى جرى فيها التعبير بالأسماء أو الأفعال ، وذلك في تضاعيف هذا البحث[(١)] ، بحسب طبيعته التحليلية التي تقتضي التدقيق في دقائق النظم ، والوقف على أسراره ما أمكن .

قال عزّ وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ * أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[(٢)] .

روي في سبب نزول الآية الأولى من المقطع المتقدم أن المؤمنين لما كثروا بمكة وآذاهم الكفّار وهاجر من هاجر إلى أرض الحبشة ؛ أراد بعض مؤمني مكة أن يقتل مَنْ أمكنه من الكفّار ، ويغتال ويَغْدر ويحتال ؛ فنزلت الآية ، وقد وعد فيها سبحانه بالمدافعة ، ونهى أفصح نهي عن الخيانة والغدر[(٣)] .

لقد تضمنت الآية الكريمة خبراً سيق إلى المؤمنين ، والملحوظ على هذا الخبر هو وروده محققاً مؤكّداً فما سرّ ذلك ؟ .

يقول ابن عاشور : " الكلام موجّه إلى المؤمنين ؛ ولذلك فافتتاحه بحرف التوكيد إمّا لمجرّد تحقيق الخبر ، وإمّا لتنزيل غير المتردّد منزلة المتردّد لشدّة انتظارهم النصر واستبطائهم إيّاه "[(٤)] .

ويقول الألوسي : " وتصديره بكلمة التحقيق لإبراز الاعتناء التام بمضمونه "[(٥)] .

وقوله [يدافع] من الدَّفع ، والدال والفاء والعين أصل واحد مشهور يدل على تنحية الشيء ؛ يقال دَفَعْت الشيء ، أدفعه دَفْعاً ، ودافع الله عنه السّوء دِفاعا[(٦)] ،

---

(١) انظر : ٨٢ ، ٩٣ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٩٤ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢٢٨ ، ٢٤١ ، ٢٦٦ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩ ، ٣٦٧ ، ٣٨٠ ، ٣٨٨ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤٢٠ ، ٤٣٨ ، ٤٥٨ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٥١٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٥ ، ٥٢٧ ، ٥٣٧ .

(٢) الحج : ٣٨ – ٤٠ .

(٣) انظر : المحرّر الوجيز : ١١/٢٠٤ .

(٤) التحرير : ١٧/٢٧١ .

(٥) روح المعاني : ١٧/١٦١ .

(٦) انظر : معجم مقاييس اللغة : مادة : دفع .

قال الخليل : يقال : دفع الله المكروه عنك دفعاً، ودافع عنك دفاعاً ، والدفاع أحسنهما، وعلى ذلك فمن قرأ [يدافع] فمعناه : يبالغ في الدفع عنهم . ومن قرأ [يدفع] فهو من دفع يدفع [١] . وإذا عُدّي الدّفع بعن اقتضى معنى الحماية ؛ كما في الآية ، وإذا عُـدّي بإلى اقتضى معنى الإنالة نحو قوله تعالى : ﴿ فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ .. ﴾[٢].

وقد جاء خبر [إنّ] جملة فعلية فعلها مضارع [يدافع] لتفيد تجدّد المدافعة وحدوثها آناً بعد آن ؛ وذلك بحسب طروء الأذى من الكفار على المؤمنين ؛ فكلّما تجدّد منهم القصد إلى الإضرار بعباد الله وامتدّت أيديهم أو ألسنتهم بالسّوء وقع من الله مايدفع ذلك ويرفعه ؛ كما قال تعالى : ﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ .. ﴾[٣].

قال ابن عطية : " فحسن في الآية يدافع لأنه قد عَنَّ للمؤمنين من يدفعهم ويؤذيهم ؛ فتجيء معارضته ودفعه مدافعة عنهم "[٤].

ومن فوائد وقوع المسند جملة فعلية فعلها مستقبل سوق البشارة للمؤمنين ؛ بإعلائهم على الكفّار ، وكفّ بوائقهم عنهم[٥] . ثم إنّ المؤمنين يستيقنون من هذا التعبير أنّ الله معهم يدافع عنهم كلّ مايؤذي في حاضر أمرهم ، فإن لم يقع ذلك فإنّه واقع في مستقبلهم بمقتضى هذا الوعد الصادق ؛ ولذلك فإنّ عليهم أن يعلّقوا أملهم بالله ورجاءهم فيه ، ولايجوز لهم أن يسمحوا لليأس بأن يتسرّب إلى قلوبهم في أوقات الشّدائد والكربات ؛ فلعلّ تأخير الدّفع عنهم تمحيص لذنوبهم ، أو تمييز للمنافقين من المؤمنين ، أو لإقامة الحجّة على الكافرين حتى ينهض المؤمنون عليهم بعزمة رجل واحد ، وقد يكون سبب ذلك ماوقع منهم أو من بعضهم من إفراط أو تفريط في دين الله ؛ ولذلك قيّد الدفاع من الله تعالى [عن الذين آمنوا] بموصول صلته فعل ماض

---

(١) انظر : علل القراءات : ٢/٤٢٥ ، وانظر : التفسير الكبير : ٣٨/٢٣ .

(٢) النساء : ٦ . وانظر : المفردات : ١٧٠ .

(٣) المائدة : ٦٤ . وانظر : روح المعاني : ١٧ /١٦١ .

(٤) المحرّر الوجيز : ٢٠٤/١١ .

(٥) انظر : التفسير الكبير : ٣٨/٢٣ .

ترغيباً في الإيمان ، إشارة إلى أنّ من طمع في ذلك الدفاع فليتسلّح بسلاح الإيمان ، وإعلاماً بأن ذلك الخبر لايقع مضمونه إلاّ على مَنْ حقّق الإيمان وتلبّس به قلباً وقالباً ، وليس ادّعاءً وتقوّلا . وعلى ذلك ففي الخبر الربّاني المذكور تعريض بمن تأخرّ عنهم الدّفاع ؛ بأن سببه قد يكون هو عدم تحقُّق مايستوجب الدّفاع ويستنزله وهو الإيمان الحق الموافق لما جاء في الكتاب وثابت السّنّة ؛ ولهذا فعلى هؤلاء القوم الذين لم يقع في حقهم الخبر الصادق أن يراجعوا أنفسهم ، ويتحقّقوا من منهجهم ؛ فقد لايكون صواباً ، وقد يكون عملهم ليس لله خالصاً . فإن لم يكن هذا ولاذاك فقد يكون لحكمة ربّانية ذكر طرف منها في صدر هذه الفقرة .

والملاحظ أن التعبير الكريم لم يذكر فيه جنس المدفوع ولاطبيعته فما سرّ ذلك ؟

يقول الفخر : " ولم يذكر مايدفعه حتى يكون أفخم وأعظم وأعم ، وإن كان في الحقيقة أنه يدافع بأس المشركين ؛ فلذلك قال بعده [إنّ الله لايحبّ كل خوّان كفور] فنبّه بذلك على أنّه يدفع عن المؤمنين كيد من هذا صفته "[1].

وقوله [إن الله لايحب كلّ خوّان كفور] تعليل لما في ضمن الوعد الكريم من الوعيد للمشركين ، وإيذان بأنّ دفعهم لطريق القهر والخزي[2] ؛ فصلته بما تقدّمه ظاهرة ؛ ولذلك سقط العاطف المؤذن بالتغاير .

وأوثر لفظ [لايحب] على : يبغض تنبيهاً على مكان التعريض ، وأنّ المؤمنين هم أحبّاء الله تعالى . وصيغة المبالغة في [خَوَّان كفور] لبيان أن المشركين كذلك ، وأنهم قد بلغوا الغاية في ذينك الوصفين ، أو لقصد بيان أن خيانة أمانة الله تعالى وكفران نعمته لايكونان حقيرين ، بل هما أمران عظيمان ، أو لإظهار كثرة ماخانوا فيه من الأمانات وماكفروا به من النعم ، أو قد يكون المراد المبالغة في المحبّة ، على اعتبار النفي أوّلاً ، وإيراد معنى المبالغة ثانياً ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[3]. وأيّاً كان فالمراد نفي الحب عن كل فرد من الخونة الكفرة[4]. وبذلك

---

(١) التفسير الكبير : ٣٨/٢٣ .
(٢) انظر : روح المعاني : ١٦١/١٧ .
(٣) فصلت : ٤٦ .
(٤) انظر : روح المعاني : ١٦١/١٧ .

تعلم مقدار الثراء في ذلك التعبير الكريم ؛ فعلى أيّ وجه قلّبته تجد المعنى تحته بليغاً مؤثّرا .

ولمّا كان كأنّه قد قيل : كيف تكون المدافعة وبمن ؟ فقيل : بعباده المؤمنين ، عبَّر عن ذلك بقوله(١) : [أُذن للذين يُقَاتَلون بأنهم ظلموا ..] وفيه لطائف :

١ - هذه الآية في جملتها بدل اشتمال من جملة [إن الله يدافع ..] لأن دفاع الله عن الناس يكون بالإذن لهم بمقاتلة من أراد الله مدافعتهم عنهم ؛ فإنّه لمّا أذن لهم بمقاتلتهم كان متكفّلاً لهم بالنّصر(٢) ؛ ولمّا كانت بدلاً مما تقدّمها فصلت عنها ؛ لكمال الاتصال بها .

٢ - قرئ [أُذِن] بالبناء للمجهول(٣) ؛ وفي ذلك إشارة إلى سهولة الإذن والدفع والنصر عليه سبحانه وتعالى(٤) . وقرئ [يقاتَلون] بالبناء للمفعول(٥) ؛ فيكون القتل واقعاً عليهم ، وهذا أظهر في وقوع الظلم عليهم ؛ فيكون ذلك منسجماً مع مابعده [بأنّهم ظلموا] من حيث المعنى ، واستحضرت صورة ظلمهم من خلال الفعل المضارع المبني للمجهول ؛ الذي يستدرّ الرحمة على هؤلاء الواقع بهم القتل ، ولاسيما أن فاعل القتل بهم مبني للمجهول ، مما يوحي بتعدّده وكثرة الفاعل له ، فتكون صورة ظلمهم أوقع وأشنع .

كما قُرئ بالبناء للفاعل في [أذِنَ] و [يُقَاتِلون] وقد مال إلى هذه القراءة ابن جرير ووجّهها قائلاً : " .. غير أنّ أحبّ ذلك إليّ ؛ أن أقرأ به أَذِنَ بفتح الألف ؛ بمعنى : أذن الله ؛ لقرب ذلك من قوله : [إنّ الله لايحبّ كلّ خوّان كفور] أذن الله في الذين لايحبّهم للذين يقاتلونهم بقتالهم ؛ فيردّ أَذِن على قوله [إنّ الله لايُحب] ، وكذلك أحبّ القراءات إليّ في يقاتِلون كسر التّاء ؛ بمعنى: الذين يقاتلون من قد أخبر الله عنهم أنّه لايحبهم ؛ فيكون الكلام متصلاً

---

(١) انظر : نظم الدرر : ١٣/٥٥-٥٦ .

(٢) انظر : التحرير : ٢٧٢/١٧ .

(٣) انظر : علل القراءات : ٢/٤٢٥ - ٤٢٦ .

(٤) انظر : نظم الدرر : ١٣/ ٥٦ .

(٥) انظر : علل القراءات : ٤٢٦/٢ .

معنى بعضه ببعض "(٦) .

والذي يبدو أن القراءة الأولى أدل على معنى الآية ، وأسبق بمعناها إلى قلب تاليها ، وإن كان بناء يقاتِلون للفاعل فيه إظهار لفعل القتال عند من ورد في شأنهم النص الكريم ، كما أن فيه تقوية لجانبهم ، ولكن سياق نظم الآية يقرّر كونهم قد ظلموا ، وذلك بكثرة ماوقع عليهم من صنوف القتل والتشريد ، والقراءة الأولى تجلّي هذا المعنى وتزيد في تقريره . والله تعالى أعلم .

٣ - مما جاء في سبب نزول هذه الآية قول الواحدي :" كان مشركو أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فلا يزالون يجيئون من بين مضروب ومَشْجُوج ؛ فشكوهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فيقول لهم : اصبروا فإني لم أومر بالقتال حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية "(٢) . فهذه أوّل آية أذن فيها بالقتال بعدما نهى عنه في نيّف وسبعين آية (٣) .وفي ذلك إعلام بأن المسلمين إذا لم تكن لهم شوكة ، ولاحِدّة سلاح ، وكانوا بين ظهراني المشركين - أيّاً كان شركهم - فإنّ من الحكمة أن يوادعوا الكفّار ويصبروا على أذاهم ؛ حتى تقوى شوكتهم ويتميّز جمعهم ويحتدّ سلاحهم ويصيروا في مكنة من منازلتهم ؛ فعندئذٍ فلهم الإقدام على مواجهتهم والشروع في فعل مقاتلتهم مستعينين بالقويّ العزيز عليهم .

٤ - في الآية محذوف يفهم من سياق النظم ، والتقدير : أذن للذين يقاتلون في القتال ؛ فحذف المأذون فيه لدلالة يقاتَلون عليه (٤).

٥ - لقد كان الإذن في القتال قائماً على سبب وعلّة في أوّل الأمر ، وهي مذكورة في قوله [بأنهم ظلموا] ؛ فالجملة علّة للإذن ؛ ولذلك فصلت عما قبلها ، والباء سببية(٥) ، و " إنّ " مؤكّدة وقوع الظلم عليهم ، وزاد في التوكيد كون مادة خبر ظلمهم وردت بصيغة الماضي المفيدة وقوع الظلم عليهم ومضيّه فيهم منذ زمن

---

(١) جامع البيان : ١٧/١٧١ - ١٧٢ .

(٢) أسباب النزول للواحدي : ٣٥٧ .

(٣) انظر : البحر : ٦/٣٧٤ .

(٤) انظر : التفسير الكبير : ٢٣/٣٩ .

(٥) انظر : البحر : ٦/٣٧٣ ، ونظم الدرر : ١٣/٥٦ ، وروح المعاني : ١٧/١٦١ .

فليس عارضاً ولاطارئاً ، بل قد ثبت إيقاع الظلم بهم ، وعرف عنهم أنهم كانوا مظلومين . وهذا الأسلوب أمكن في تأسيس حكم الإذن بالقتال ، وكون مشروعيته على حقّ ظاهر ؛ لإزالة ظلم قاهر ، وفي ذلك شحن إيماني ونفسي على القتال في جانب المأذون لهم ، وأنهم يفعلون فعلاً مشروعاً يثابون عليه ؛ لكون الآذن لهم هو الله عز وجل ، ولكون قتالهم عن حقّ وفي سبيل الله .

قوله [وإنّ الله على نصرهم لقدير] وعد من المولى – جل وعلا – بنصر عباده المؤمنين (١) ، وهو معطوف على جملة [أذن للذين يقاتلون] (٢) ، والذي سوّغ العطف كونها جملة خبريّة سيقت في معنى الإذن بالقتال فاقتضى الأمر الوعد بالنصر تحقيقاً لمعنى رفع الظلم عن المظلومين ، والجملتان الخبريّتان وإن كان معناهما في الأصل واحداً إلاّ أنّ بينهما نوع تغاير ؛ فإن الإذن بالقتال يقتضي كون المظلومين هم الذين يدفعون الظلم عن أنفسهم وبأيديهم ، والخبر الثاني يفيد تقرير قدرة الله تعالى على نصرهم ودفع ظلم أعدائهم ، فهو تعالى معهم بنصره وتأييده ، ولذلك اقتضى المقام دخول الواو عاطفة الخبر الثاني على الأوّل .

وقد تضمّنت جملة [وإنّ الله على نصرهم لقدير] عدّة مؤكّدات :

منها : إنّ المشدّدة واللام الواقعة في خبرها ، واجتماعهما في الجملة الخبرية بمثابة تكريرها ثلاث مرّات (٣) .

ومنها : اسمية الجملة الدالة على ثبات اتصاف الله عز وجل بذلك على الدوام والاستمرار ، في جميع الأحوال .

ومنها : تقديم الجار ومجروره على الخبر ؛ وذلك اعتناء بالمنصورين وكونهم بمقام عظيم عند ناصرهم .

ومنها : صيغة المبالغة في [لقدير] بمعنى قادر ، فهي فعيل بمعنى : فاعل .

وكل تلك المؤكّدات تضافرت في تقرير ذلك الوعد الكريم من الله عز وجل بما لايمكن الوصول إلى تقريره بغير هذا الأسلوب البليغ . وعلى ذلك فإنّ شك أحد من

---

(١) انظر : التفسير الكبير : ٣٩/٢٣ ، والبحر : ٣٧٤/٦ .

(٢) انظر : التحرير : ٢٧٤/١٧ .

(٣) انظر : الإتقان : ١٩٥/٣ .

المنصورين المجاهدين في ذلك الوعد الصادق طعن في إيمانه وخلل في يقينه ، ينبغي عليه ألاّ يلقى ربَّه وهو على ذلك .

يقول ابن عاشور : " وتوكيد هذا الخبر بحرف التوكيد لتحقيقه ، أو تعريض بتنزيلهم منزلة المتردّد في ذلك ؛ لأنهم استبطأوا النصر "(١).

ثم شرع سبحانه في بيان بعض صور ظلمهم(٢) فقال : [الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلاّ أن يقولوا ربنا الله] . وفيه لطائف :

١ - هذا الموصول في موضع جرّ نعتاً لـ [الذين يقاتَلون] أو بدلاً منه (٣)؛ ولذلك وقع فصله عما قبله لكمال اتصاله به .

٢ - في إجراء صلة الموصول عليهم إيماء إلى أنّ المراد بالمقاتَلة المذكورة في الآية السابقة – هو الأذى ؛ وأعظمه إخراجهم من ديارهم وتفريق شملهم ، وفتنهم في دينهم ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ (٤).

٣ - في مجيء مادة الإخراج فعلاً ماضياً مبنياً للمجهول إخبار بما وقع لهم وثبت واستقر في حقّهم ، وأنّهم قد أجبروا على ترك أوطانهم قسراً وإكراها .

يقول ابن عطية : " ونسب الإخراج إلى الكفار ؛ لأن الكلام في معرض تقرير الذنب وإلزامهم "(٥).

٤ - لم يذكر فاعل الإخراج ، ولعل طيّ ذكره من باب كونه أشهر من أن يذكر ، فإنّه إذا ذكر فعل الإخراج لم ينصرف الذهن – وقت التنزيل – إلاّ إلى كفار قريش ؛ فاكتفي بشهرته عن ذكره ، ولعل المراد هو تقرير الظلم الواقع عليهم بسبب هذا الإخراج ولذلك ذكر هو ولم يذكر سواه ، لأنه هو المقصود في النظم الكريم .

---

(١) التحرير : ٢٧٤/١٧ .

(٢) انظر : التفسير الكبير : ٣٩/٢٣ .

(٣) انظر : البحر : ٣٧٤/٦ .

(٤) البقرة : ١٩١ . انظر : التحرير : ٢٧٤/١٧ .

(٥) المحرّر الوجيز : ٢٠٥/١١ .

٥ - لم تسمَّ الجهة التي أُخرج إليها المُخْرَجون ؛ لكونها ليست غرضاً في الكلام ، بل المقصود إثارة المشاعر نحو قوم أُلجئوا إلى ترك بلادهم أذيَّة وقهرا .

ومعلوم أن المؤمنين في بداية الأمر لجأ منهم طائفة إلى شعب أبي طالب ، وأخرى إلى الحبشة ، ثم إلى المدينة [(١)] .

٦ - [بغير حقّ] حال من ضمير [أخرجوا] ؛ أي : أخرجوا متلبّسين بعدم الحق عليهم الموجِب إخراجهم ؛ فإنّ للمرء حقّاً في وطنه ومعاشرة قومه ، وهذا الحق ثابت بالفطرة ؛ لأن من الفطرة أن الناشيء في أرض والمتولّد فيها فله حقّ القرار في وطنه وبين قومه ، بل إن ذلك ثابت للحيوان فكيف بالإنسان ؟ ولهذا كان من العقوبات الشرعية الرادعة التّغريب والنّفي ، لما فيه من مرارة الحرمان[(٢)] .

٧ - من الوارد أن يُسْأَل : كيف استثنى من غير حق قولهم [ربنا الله] وهو من الحق ؟

يقول الفخر مجيباً عن ذلك : " تقدير الكلام أنّهم أخرجوا بغير حق موجب سوى التوحيد الذي ينبغي أن يكون موجب الإقرار والتمكين لاموجب الإخراج والتسيير .. "[(٣)] .

ويقول ابن عاشور : " والاستثناء في قوله [إلا أن يقولوا ربنا الله] استثناء من عموم الحق ، ولما كان المقصود من الحق حقّاً يوجب الإخراج ، أي الحقّ عليهم - كان هذا الاستثناء مستعملاً على طريقة الاستعارة التَهَكُّمِيَّة ؛ أي إن كان عليهم حقّ فهو أن يقولوا ربّنا الله ؛ فيستفاد من ذلك تأكيد عدم الحق عليهم بسبب استقراء ماقد يُتَخيَّل أنّه حق عليهم ، وهذا من تأكيد الشيء بما يوهم نقضه ، ويسمى عند أهل البديع : تأكيد المدح بما يشبه الذّم "[(٤)] .

---

(١) انظر : نظم الدّرر : ١٣/٥٦ .

(٢) انظر : التحرير : ١٧/٢٧٤ - ٢٧٥ .

(٣) التفسير الكبير : ٢٣/٣٩ .

(٤) التحرير : ١٧/٢٧٥ .

٨ - كون قولهم [ربنا الله] جملة اسمية فيه دلالة على ثباتهم على ذلك ، وديمومتهم عليه، على الرغم مما وقع عليهم من الظلم كالإخراج من الديار والفتنة في الدين والأذيّة في النفس والمال والأهل والولد ، وذلك كلّه بسبب اعتصامهم بهذا القول وثباتهم عليه ، وفي ذلك من الثناء عليهم ، وإعلاء شأن مقالتهم تلك ماهو جليّ ظاهر .

وقوله [ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا] تحريض على القتال وتقوية للأمر به وإيماء للمصلحة الكامنة وراءه ، وإخبار بقدمه ، وأنّ به إقراراً للشّرائع ، وصوناً لمواضع العبادة في سائر الأمم . وكأنّه لما قيل : [أذن للذين يقاتلون ..] قيل : فليقاتل المؤمنون ولولا القتال والجهاد لتُغلّب على الحق في كلّ أمّة ولذهب أصحابه شذر مذر [١].

ثم إن النص المتقدم فيه لطائف : -

١ - ما المراد بهذا الدّفاع الذي أضافه الله تعالى إلى نفسه ؟ .

يقول الفخر في جوابه عن ذلك : " هو إذنه لأهل دينه بمجاهدة الكفار ؛ فكأنه قال تعالى : ولولا دفاع الله أهل الشرك بالمؤمنين من حيث يأذن لهم في جهادهم ، وينصرهم على أعدائهم لاستولى أهل الشرك على أهل الأديان ، وعطّلوا مايبنونه من مواضع العبادة ، ولكنه دفع عن هؤلاء بأن أمر بقتال أعداء الدين ؛ ليتفرغ أهل الدين للعبادة ، وبناء البيوت لها، ولهذا المعنى ذكر الصوامع والبيع والصلوات وإن كانت لغير أهل الإسلام "[٢].

وإذا تبيّن أنّ المجاهدين هم الذين يواجهون أعداء الحق وهم الذين يدفع الله بهم أعداءه وتُصان بهم مواضع العبادة فإن ذلك شرف عظيم لهم وفضل تميّزوا به عن غيرهم ، ينبغي أن يَستَبق العباد إليه ، وينتصبوا له فإنّه ذروة سنام الدّين .

---

(١) انظر : المحرر الوجيز : ١١/٢٠٥ ، والتفسير الكبير : ٢٣/٣٩ ، والبحر : ٦/٣٧٤ ، وروح المعاني : ١٧/١٦٢ .

(٢) التفسير الكبير : ٢٣/٣٩ - ٤٠ .

وللماوردي رأي في المراد بالدفع في الآية جعله محتملاً ؛ أي : ولولا دفع الله المنكر بالمعروف[١] ؛ وعلى ذلك يكون الفضل والشرف شاملاً لكل آمر بالمعروف وناه عن المنكر ؛ إذ يكون ممن نصبه الله دفّاعاً عن الحق ٠

٢ - قرئ [لهدّمت] بتشدي الدال وتخفيفها[٢] ، والتشديد أبلغ ؛ وأمكن للمعنى في سياق النظم ، لأن التشديد يفيد تكرّر الهدم لكثرة المواضع المخصصه للعبادة[٣] ٠ والمراد إظهار فضل الله على المؤمنين ؛ بالإذن لهم بالجهاد ، ووعدهم بالنصر والتمكين لدفع ذلك التهديم العظيم المنتظر وقوعه لولا نصب راية الجهاد ، وقراءة التشديد تفضي إلى هذا المعنى وتحصّله ٠

٣ - لماذا جمع الله بين مواضع عبادات اليهود والنصارى وبين مواضع عبادة المسلمين ؟ ٠

يقول " الجمل " جواباً عن ذلك : " المراد بهذه المواضع مواضع عبادات المؤمنين منهم ، والمعنى : لهدم في شرع كل نبي المكان الذي يُصلّى فيه ؛ فلولا الدفع لهدم في زمن موسى الكنائس التي كانوا يصلون فيها في شرعه ، وفي زمن عيسى الصّوامع والبِيَع ، وفي زمن نبينا المساجد ؛ فعلى هذا إنما دفع عنهم حين كانوا على الحق قبل التحريف ، وقبل النَّسْخ " [٤] ٠ ويؤيد التأويل المتقدم قول ابن عطية : " هذه الأسماء هي للأمم التي لها كتاب على قديم الدهر ، ولم يذكر في هذه المجوس ، ولا أهل الإشراك ؛ لأن هؤلاء ليس لهم ماتجب حمايته، ولايوجد ذكر الله إلاّ عند أهل الشّرائع "[٥] ٠

٤ - الصوامع جمع صَوْمعة على وزن فَوعلة ، وهي بناء مستطيل مرتفع يُصعد إليه بدرج وبأعلاه بيت ، يتعبد فيه الرهبان بُعداً عن مشاغلة الناس إياهم ، وتوقد فيه المصابيح ليلاً إعانة على السهر من أجل العبادة ٠

---

(١) انظر : النكت والعيون : ٢٩/٤ ٠

(٢) انظر : علل القراءات : ٤٢٦/٢ ٠

(٣) انظر : البحر : ٣٧٥/٦ ، وانظر : الفتوحات الإلهية : ١٧٠/٣ ٠

(٤) الفتوحات الإلهية : ١٦٩/٣ ٠

(٥) المحرر الوجيز : ٢٠٦/١١ - ٢٠٧ ٠

والبِيع : جمع بِيعة - بكسر الباء - مكان عبادة النصارى ، ولايعرف أصل اشتقاقها ولعلها معربة عن لغة أخرى .

والصلوات : جمع صلاة ، وأريد بها كنائس اليهود ، أصلها : صلوثا بالثاء ، ثم صارت صلوتا بالتاء بعد التعريب ثم جمعت على صلوات .

والمساجد : اسم لمحل السجود ، وهي أمكنة العبادة عند المسلمين [١].

٥ - لماذا وقع تأخير المساجد في الذكر ، وكان حقها أن تقدم ، لأن الشريف رتبته التقديم ؟ .

مما يجاب عن ذلك أن تأخير المساجد ؛ إمّا لأجل قدم تلك المذكورات قبلها من حيث الزمان ، فهي قد حدثت بعدها ؛ لكون الإسلام آخر الأديان ، وإما لأن التعبير عن تلك المواضع انتقل من شريف إلى أشرف حتى انتهى إلى المساجد فكانت أشرف المواضع [٢] ، وهي كذلك ، فهي بيوت الله في الأرض .

وقد يقال : إن تأخير ذكر المساجد لتكون في جوار الصفة المادحة وهي : [يذكر فيها اسم الله كثيرا] ، ولتكون بعيدة عن فعل التّهديم [٣] ، فتكون أصون من غيرها وأحفظ .

٦ - جملة النعت [يذكر فيها اسم الله كثيرا] أهي خاصة بالمساجد أم عامة ؟ .

يقول ابن عاشور : " وجملة [يذكر فيها اسم الله كثيرا] صفة ، والغالب في الصفة الواردة بعد جمل متعاطفة فيها أن ترجع إلي مافي تلك الجمل من الموصوف بالصفة ، فلذلك قيل برجوع صفة [يذكر فيها اسم الله] إلى [صوامع وبيع وصلوات ومساجد] للأربعة المذكورات قبلها ، وهي مَعاد الضمير [فيها] . وفائدة هذا الوصف الإيماء إلى أن سبب هدمها أنها يذكر فيها اسم الله كثيرا ، أي ولاتذكر أسماء أصنام أهل الشرك .. " [٤].

---

(١) التعريف بالأسماء المذكورة عن : التحرير : ١٧/٢٧٧ - ٢٧٨ .

(٢) انظر : البحر : ٦/٣٧٥ .

(٣) انظر : حاشية الشهاب : ٦/٣٠١ .

(٤) التحرير : ١٧/٢٧٨ . وماذهب إليه ابن عاشور هو ما استظهره أبو حيان ؛ إلاّ أن ابن عاشور علّل وأبا حيّان سكت عن ذلك . انظر : البحر : ٦/٣٧٥ .

٧ - في إيثار الإخبار عن الذكر بالفعل المضارع - استحضار لهيئة الذكر وحالته ، وإيذان بحدوثه وتجدُّده فيها وقتاً بعد وقت ، وإشعار بأن وظيفة تلك المواضع هي الذكر المتجدِّد من آن لآخر ؛ فهجرها قطيعة لها ، وتعطيل لوظيفتها ، وفي هذا من اللوم والذّم مالايخفى .

٨ - في العدول عن الإضمار إلى الإظهار - في قوله [اسم الله] - تفخيم لتلك المواضع ، وإظهار لهيبتها ، وإشعار بعلّة شرفها .

وقد يكون من أسرار هذا العدول ماذكره " البقاعي " وهو : " الإشارة إلى اختلاف ذكره تعالى في الأماكن المذكورة بالإخلاص وغيره "[١].

قوله [ولينصرنّ الله من ينصره] معطوف على جملة [ولولا دفع الله الناس] ؛ فيكون المعنى : أن الله أذن للمسلمين بالدفاع عن دينهم ، وحثّهم عليه ، وضمن لهم النصر في هذا السبيل ؛ لكونهم ينصرون دين الله عز وجل[٢].

وهذه الجملة مؤكّدة بالقسم المقدّر الذي دلّت عليه اللام الواقعة في جواب القسم ، وأكّدت أيضاً بنون التوكيد الثقيلة[٣]، التي هي بمثابة تكرير الجملة مرّتين[٤].

والجملة تذييل لما تقدم ووعد منه تعالى بنصر نَصَرة دينه وشرعه[٥] ، وأنهم متى التزموا بذلك وعملوا به ؛ فإنّ نصره سبحانه واقع لامحالة ، ونصر الله لأوليائه هو أن يظفرّهم بهم جلاداً وجدالا[٦].

يقول الألوسي : " ولقد أنجز الله تعالى وعده ؛ حيث سلّط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرة الروم ، وأورثهم أرضهم وديارهم "[٧].

---

(١) نظم الدّرر : ٥٧/١٣ .
(٢) انظر : نظم الدّرر : ٥٨/١٣ . وانظر : التحرير : ٢٧٩/١٧ .
(٣) انظر : البحر : ٣٧٥/٦ ، والتحرير : ٢٧٩/١٧ .
(٤) انظر : الإتقان : ١٩٥/٣ .
(٥) انظر : المحرر الوجيز : ٢٠٧/١١ ، والتفسير الكبير : ٤١/٢٣ ، والتحرير : ٢٧٩/١٧ .
(٦) انظر : البحر : ٣٧٦/٦ .
(٧) روح المعاني : ١٦٤/١٧ .

يقول ابن عطية : " ثم الآية تعمّ كل من نصر حقّاً إلى يوم القيامة " [(١)].

ولعل ابن عطية استنبط ذلك من صيغة فعل النصر الذي وقع به الوعد ، والتي تفيد تجدّد مادة النصر على مدى الزّمان إلى يوم القيامة .

وقوله [إنّ الله لقوي عزيز] تعليل لجملة [ولينصرنّ الله من ينصره] [(٢)]؛ ولذلك فصلت عنها بترك العاطف ؛ لما بينهما من غاية الاتصال في المعنى . والمعنى : أنّ نصر من ينصر الدين مضمون ؛ لأن ناصرهم قدير على ذلك [(٣)] ، كامل القوة عزيز لايرام ، قد قهر الخلائق ، وأخذ بنواصيهم ؛ فأبشروا يامعشر المسلمين ؛ فإنكم وإن ضعف عَددكم وقلّت عُدَدكم وقويَ عدوّكم - فإن ركنكم هو القوي العزيز ، ومعتمدكم على من خلقكم وخلق ماتعلمون ومالاتعلمون ؛ فاعملوا بالأسباب المأمور بها ، ثم اطلبوا النصر من ناصركم ، فلابد من أن ينصركم بمقتضى وعده المؤكّد المتقدم [(٤)]، وبمقتضى خطابه لعباده المؤمنين بنصرهم إذا حققوا ماجاء في جملة فعل الشرط ، فقد قال : ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** ﴾ [(٥)].

وقد اجتمعت عدّة مؤكّدات في قوله [إنّ الله لقوي عزيز] فمنها : إنّ المشدّدة واللام الواقعة في خبرها ، واسمية الجملة التي تفيد دوام اتصاف الله عز وجل بذلك ، وفي هذا من شحذ الهمم نحو الجهاد والتعلّق بالقوي العزيز واستنصاره على الأعداء مالايخفى .

---

(١) المحرر الوجيز : ٢٠٧/١١ .
(٢) انظر : نظم الدّرر : ٥٩/١٣ ، والتحرير : ٢٧٩/١٧ .
(٣) انظر : التحرير : ٢٧٩/١٧ .
(٤) انظر : تفسير كلام المنّان : ٣٠٢/٥ .
(٥) محمد : ٧ .

التقديم والتأخير

يمكن تحديد مفهوم التقديم في نظم الكلام وتأليفه بأنّه : تبادل في مواقع الكلمات ؛ بحيث تترك كلمة مكانها في المقدمة ؛ لتحلّ كلمة أخرى محلّها ؛ وذلك لتؤدي غرضاً بلاغياً ماكانت لتؤديه لو أنها بقيت في مكانها الذي اقتضته قاعدة الضبط اللغوي(١) .

والتقديم والتأخير متلازمان ؛ بمعنى أنّ كل تقديم يستلزم تأخيراً ، وكلّ تأخير ينبني عليه تقديم ؛ فتقديم المفعول - مثلاً - يقتضي تأخير الفاعل ؛ وهكذا ...

والذي حمل البلاغيين على الاهتمام بهذا الموضوع هو جريانه على خلاف المعتاد في تأليف الكلام ؛ ذلك أن الأصل في الجملة الفعلية أن يأتي الفعل أوّلاً ، والفاعل ثانيا والمفعول به أو غيره من القيود ثالثا ، والأصل في الجملة الاسمية أن يأتي المبتدأ أوّلاً والخبر ثانيا .

وكان المنتظر أن الكلام إذا جاء على الأصل يكون أمراً مألوفا لايحتاج إلى تعليل ؛ لكن الدواعي البلاغية - وهي جماليّة - قد تجد لتقديم ماحقه التأخير ولتأخير ماحقه التقديم وجهاً أو أكثر من وجوه الحسن فتقرّره ، وأكثر من ذلك ترغب فيه وتدعو إليه ، كما قد تجد في جريان الكلام على خلاف الأصل دقائق بلاغية ومؤثرات أدائية تقرّرها وتدعو إليها . ولمّا كان السبب في تقديم ماقدّم هو بعينه السبّب في تأخير ما أخّر كان تعليل هذا العمل المزدوج تعليلاً واحدا ؛ يقال مرّة واحدة ولايتكرّر(٢) .

وعن الأثر النفسي في ظاهرة التقديم يقول الدكتور : منير سلطان : " حين نقدّم مالا حقّ له في التقديم ؛ نكون قد أحدثنا تغييراً في المواقع ، وفي الصلاحيّات ، وفي الأضواء ، وفي الأثر النفسي ؛ لأن المقدّم يحتل مركزاً ممتازاً ؛ فهو أوّل ماتقع عليه العين ، وأوّل ماتتأثّر به ، وأول ماتعجب به ، وأوّل ماتقع النفس تحت أضوائه ؛ فتنشغل به ؛ لأنّه يستحق هذا ، ولأنه في غير مكانه الذي تعوّدنا نراه فيه ، ثم تأتي

---

(١) انظر : بلاغة الكلمة والجملة والجمل : ١٣٨ .

(٢) انظر : البلاغة الاصطلاحيّة : ٢٠٨ .

الألفاظ الأخرى ؛ فتكون الشّحنة التي استحوذ عليها اللفظ المقدّم قد قلّت "[١].

وقد عني عبدالقاهر الجرجاني بالتقديم والتأخير ، وفصل القول فيه وضرب الأمثلة عليه ، وحلّل بعض الشواهد القرآنية مُبرزاً نكاتها البيانية ؛ ومما قال في مقدمة عرضه للتقديم والتأخير : " هو باب كثير الفوائد ، جَمّ المحاسن ، واسع التصرّف ، بعيد الغاية ، لايزال يَفْتَرّ لك عن بديعه ، ويفضي بك إلى لطيفة ، ولاتزال ترى شعراً يروقك مسمعه ، ويلطف لديك موقعه ؛ ثم تنظر فتجد سببَ أن راقك ولطف عندك ؛ أن قدّم فيه شيء ، وحوّل اللفظ عن مكان إلى مكان "[٢].

وإذا كان عبدالقاهر قد أبرز أهمية التقديم والتأخير في الكلام والشعر من خلال ماتقدم ؛ فإنك تجد هذه الأهمية تعظم في كلام الله تعالى ، فما قدّم لفظ فيه ولا أخّر إلاّ لغرض بلاغي ولقصد بياني علمه من علمه وجهله من جهله ؛ ذلك أن الجملة القرآنية تتبع المعنى ؛ " فتصوّره بألفاظها ؛ لتلقيه في النفس حتى إذا استكملت الجملة أركانها ؛ برز المعنى ظاهراً فيه المهم والأهم ؛ فليس تقديم كلمة على أخرى صناعة لفظية فحسب[٣] ، ولكن المعنى هو الذي جعل ترتيب الآية ضرورة لامعدى عنه، وإلاّ اختل وانهار "[٤].

ولن نفصّل في أغراض التقديم والتأخير تفصيلاً ذهنيّاً مجرّدا ؛ وإنّما سوف نفسح المجال أمام ماتيسّر من الآيات الكريمة ذات المعاني الجهاديّة لتكون مجالاً للدراسة التحليلية التي توضح الأغراض البلاغيّة الكامنة وراء تقديم ماقدّم فيها أو تأخير ما أخّر ، والله المستعان . من ذلك قوله تعالى : ﴿ **سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ** ﴾ [٥].

---

(١) بلاغة الكلمة والجملة والجمل : ١٣٨ .

(٢) دلائل الإعجاز : ١٠٦ ، وقد لام عبدالقاهر النحاة على تهوينهم من شأن التقديم والتأخير وعدم عنايتهم به عناية تعليل وتحليل؛ انظر : الدلائل : ١٠٧ فما بعدها .

(٣) هذه العبارة فيها تجوّز من صاحب النص : أحمد بدوي ؛ - لايليق بكلام الله تعالى أن يوصف بأنه صناعة لفظية ؛ لأن معنى كلمة ؛ فحسب : أنه زائد على كونه صناعة لفظية .. ؛ فكلام الله - تعالى - محكم التنزيل ، مفصّل الآي من لدن حكيم خبير وكفى .

(٤) من بلاغة القرآن : ١٠٥ .

(٥) آل عمران : ١٥١ .

هذه الآية مما نزل في غزوة " أحد " ففيها تسلية للمؤمنين ، ووعد بنصرهم على الكفّار ؛ لأنّ إلقاء الرعب من قبله – سبحانه – في قلوب الكفار مقتضاه فرارهم وإدبارهم وتغلّب المسلمين عليهم ، وقد افتتحت الآية بأسلوب العظمة المؤكّد فعله بالسّين ؛ تربية للمهابة في القلوب ؛ وهو أسلوب التفات جرى من الغيبة إلى التكلّم جرياً على سنن الكبرياء [١] .

وفعل الإلقاء في الأصل يستعمل في حق الأجسام التي تتحمل الرّمي والقذف ؛ لأنهما من صفات هذا الفعل ، قال تعالى : ﴿ **وألقى الألواح** .. ﴾ [٢] . وقال : ﴿ **فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ** .. ﴾ [٣] ؛ ولكن الإلقاء في الآية استعمل في أمر معنوي وهو الرعب ، ووضع في موضع رقيق حسّاس وهو القلب ، وأسند هذا الفعل – ذي القوّة والغلظة – إلى العزيز الجبّار من خلال نون العظمة ؛ فاكتسى المعنى قوّة ورعبا قبل أن يُعلم حقيقة الملْقى ؛ فلما علم المفعول ازدحم ظلال الآية خوفاً وفرقا . وهو من بدائع النظم القرآني في تقرير المعاني في النفوس .

وقوله [سنلقي] فعل وفاعل يقتضي أن يليه المفعول مباشرة ؛ ولكنّه أُخّر ، وقدّم عليه غيره ، وهو الظّرف الذي سيستقر فيه فعل الإلقاء ، وأما المادة التي وقع عليها ذلك الفعل فقد أخّرت ؛ فقال سبحانه : ﴿ **سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ** ﴾ ؛ فقُدّم الوعاء الذي سيتمكّن فيه الرّعب ؛ لأنّ الأوعية التي استقر فيها الكفر ابتداء هي مبعث فعل الإلقاء ، وهي الحامل عليه ، فكانت أولى بالذكر ، من باب تقديم ذكر الظّرف على المظروف . ويكفي ذمّاً لهذه القلوب أنّ صلة موصولها جملة فعلية فعلها ماض دال على حصول كفر أصحابها وتمكّنه ؛ مما يؤذن باستحقاق أربابها مايناسب الكفر ويليق به من أفعال الذم وألوان العذاب ، والتي الرعب واحد منها في الحياة الدنيا .

---

(١) انظر : تفسير أبي السعود : ٩٨/٢ . والآية التي قبلها الجارية على الغيبة هي قوله تعالى : ﴿ **بل الله مولاكم وهو خير الناصرين** ﴾ آل عمران : ١٥٠ .

(٢) الأعراف : ١٥٠ .

(٣) الشعراء : ٤٤ .

وأصل الرّعب : الملء ؛ يقل : سيل راعب أي : يملأ الوادي ، ورعبت الحوض ملأته ؛ فيكون المعنى : سنملأ قلوب الكافرين رعبا : أي خوفاً وفزعا [1]. وإذا امتلأت قلوب الكفار فرقاً من الإسلام وأهله - بذلك الإلقاء الرباني - فهو مايفسّر الحديث الصّحيح الثابت عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء من قبلي : نصرت بالرّعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهورا ، وأيّما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة ، وأعطيت الشفاعة] [2]. وبذلك تكون الآية الكريمة عامة في جنس الكفّار ، وليست خاصّة بكفار مكة ؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السّبب ، جاء في تفسير القاسمي : " .. كأنّه قيل : إنه وإن وقعت لكم هذه الواقعة في يوم أحد إلا أن الله تعالى سيلقي الرعب منكم بعد ذلك في قلوب الكافرين ، حتى يقهر الكفار ، ويظهر دينكم على سائر الأديان ، وقد فعل الله ذلك ؛ حتى صار دين الإسلام قاهراً لجميع الأديان "[3]. ومازالت الشواهد تترى على رعب الكفار من المسلمين على مدار التاريخ الإسلامي وإلى أيّامنا هذه ، وخير برهان على ذلك هو رعب الشيوعيين الروس ومن في حكمهم من الكفار من المجاهدين المسلمين في أفغانستان حتى هزموا وولّوا الدّبر [4].

ومن ذلك أيضاً فَرَق اليهود في فلسطين من شباب صحوة الجهاد الإسلامي ؛ فلا يواجهون الحجارة إلاّ بالمدرّعات والأسلحة الحديثة ومن وراء الجدر ، وصدق الله تعالى فيهم حيث قال : ﴿ **لَايُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ** ﴾ [5].

---

(١) انظر : الدر المصون : ٣/٤٣٥ ، الجامع لأحكام القرآن : ٤/٢٣٢ ، فتح القدير : ١/٣٨٩ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة - باب : قول النبي صلى الله عليه وسلم [جعلت الأرض مسجدا وطهورا] . صحيح البخاري : ١/١١٣ ، باب رقم : ٥٦ .

(٣) محاسن التأويل : ٩٩٤ ، وانظر : التفسيري الكبير : ٩/٣٢ .

(٤) دخل المجاهدون الأفغان كابل عاصمة أفغانستان يوم السبت ١٤١٢/١٠/٢٣هـ عند الساعة التاسعة صباحاً بتوقيت كابل ، انظر : جريدة الشرق الأوسط الصادرة يوم الأحد ١٤١٢/١٠/٢٤هـ .

(٥) الحشر : ١٤ .

وقوله تعالى : ﴿ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً ﴾ زيادة بيان لسبب إلقاء الرعب في قلوبهم ؛ فالسّبب الأوّل هو وصفهم بالكفر الذي جاء في حيز الصلة. وقد اقتصر عليه في سورة الأنفال ؛ فقد قال تعالى : ﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾[(١)]. وأمّا في آية " آل عمران " التي نحن بصددها فقد زيد في بيان نوع كفرهم ؛ لكونها متأخّرة النزول عن آية الأنفال[(٢)] ؛ والتأخر في النزول فيه زيادة بيان لنوع كفرهم ، وهو إشراكهم مع الله آلهة أخرى لم يأذن بها الله عز وجل ، ويلاحظ أن النفي في الآية قد سلّط على الإنزال والمقصود نفي السُّلطان ؛ فأريد نفيه بتسليط النفي على شرعيّته ومصدره ، فينتفي هو تبعاً لنفي أصله وأساسه ؛ استئصالاً لجذره ، وذلك تسجيلاً عليهم بالشناعة وعظم الظلم . وسُميت الحجة سلطاناً لوضوحها وإنارتها ، أو لقوتها وحدّتها[(٣)]. والإتيان بها للإشارة إلى أن المتبع في باب التوحيد هو البرهان الإلهي دون الآراء والأهواء الباطلة[(٤)] . والعدول عن الإضمار إلى الإظهار ، واصطفاء لفظ الجلالة الدال على الوحدانية من بين سائر الأسماء الكريمة – لأن المقام مقام تسجيل على الكفّار بالذّم على شركهم المنافي للتوحيد ؛ ولذلك أتي به دون غيره[(٥)] .

وتأخير المفعول عن موضعه وتقديم المجرور عليه العائد على الشرك ؛ اعتناء بذمّه ؛ تنفيراً للنفوس منه ، وتسجيلاً على المشركين بفعله وأنه ليس لهم حجّة على الله بذلك الفعل الذميم ، ويدل على ذلك تنكير لفظة [سلطاناً] وكونها في سياق النفي ؛ فأفادت عموم نفي ذلك .

ولكن لماذا كان الإشراك بالله سبباً لإلقاء الرعب في قلوب الكفار ؟

---

(١) الأنفال : ١٢ .

(٢) آيــة الأنفـال نزلت في غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة ، وآية آل عمران نزلت في أحد في السنــة الثالثــة مــن الهجــرة . انظر تفسير الآيتين في : الجامع لأحكام القرآن والبحر المحيط وغيرهما .

(٣) انظر : تفسير أبي السعود : ٢/٩٨ .

(٤) انظر : تفسير أبي السعود : ٢/٩٨ .

(٥) انظر : روح المعاني : ٤/٨٨ .

يقول أبو حيّان : " وكان الإشراك بالله سبباً لإلقاء الرعب لأنهم يكرهون الموت ، ويؤثرون الحياة ؛ إذ لم تتعلق آمالهم بالآخرة ، ولا بثواب فيها ولاعقاب ؛ فصار اعتقادهم ذلك مؤثراً في الرغبة في الحياة الدنيا ؛ كما قالوا : ﴿ **إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومانحن بمبعوثين** ﴾ "[١] .

وقال القاسمي : " أفادت الآية أن ذلك الرعب بسبب مافي قلوبهم من الشرك بالله ، وعلى قدر الشرك يكون الرعب ، قال القاشاني : جعل إلقاء الرعب في قلوب الكفار مسبَّباً عن شركهم ؛ لأن الشجاعة وسائر الفضائل اعتدالات في قوى النفس ؛ لتنوّرها بنور التوحيد ؛ فلا تكون تامة إلا للموحّد الموقن في توحيده . وأما المشرك فلأنه محجوب عن منيع القدرة بما أشرك بالله من الموجود المشوب بالعدم الذي لم يكن له بحسب نفسه قوة ، ولم ينزل الله بوجوده حجة ؛ فليس له إلا العجز والجبن وجميع الرذائل "[٢] .

وقوله تعالى : (**ومأواهم النار**) بيان لأحوال الكفار في الآخرة بعد بيان أحوالهم في الدنيا[٣] . والمأوى : هو المصير ومايؤدى إليه ، فأخبر الله تعالى عن مصيرهم في الآخرة بأنّه إلى النار . قال صاحب البحر : " فهم في الدنيا مرعوبون ، وفي الآخرة معذّبون ؛ بسبب إشراكهم ؛ فهو جالب لهم الشرّ في الدنيا والآخرة "[٤] .

وقوله تعالى : ﴿ **وبئس مثوى الظالمين** ﴾ أسلوب بليغ في ذم مثواهم ، والمخصوص بالذم محذوف ؛ أي وبئس مثوى الظالمين النار ؛ فجعل النار مصيرهم ومستقرهم ؛ وفرق بين المأوى والمثوى ؛ لأن المأوى : هو المكان الذي يأوي إليه الإنسان ، ولايلزم منه الثواء فيه ؛ لأن الثواء دال على الإقامة . فكانت النار مأوى للمشركين ومثوى لهم ، كما قال تعالى عنهم : ﴿ **والنار مثوى لهم** ﴾[٥] وقدّم المأوى على المثوى ؛ لكونه متقدماً في الوقوع والحصول ؛ لأن الإنسان يأوي ثم يثوي ، فنظر

---

(١) البحر المحيط : ٣/٧٧ ، ٧٨ ، والآية في : المؤمنون : ٣٧ .
(٢) محاسن التأويل : ٩٩٣ .
(٣) انظر : تفسير أبي السعود : ٢/٩٨ .
(٤) البحر المحيط : ٣/٧٨ .
(٥) محمد : ١٢ ، وانظر : البحر المحيط : ٣/٧٨ .

إلى الترتيب الوجودي [١] .

وفي إظهار وصفهم بالظّلم إشعار للسبب الذي استحقّوا به النار ، وإشهار هذا الوصف تنفيراً منه ، وتسميةً للمشرك بالفعل الذي قد تلبّس به وهو الظّلم ؛ لأن من عبد غير الله أو عبد معه غيره فقد أشرك وظلم خالقه ونفسه ؛ ولذلك فقد قال الله تعالى عن ذلك : ﴿ **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾ [٢] .

وختم الآية بهذا الذم للمشركين فيه دعوة للإسلام وترغيب فيه ؛ لأنه لامنجاة من ذلك الرعب وهذا المصير المخزي إلاّ بأمان الإيمان وحسن عواقبه .

وقال تعالى : ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ** ﴾ [٣] .

الخطاب في الآية عام لكل المسلمين ، ولذلك فالبلوى المسندة إلى العظيم المتكلّم – سبحانه وتعالى – عامة شاملة لجميع المسلمين ؛ كلٌّ بحسبه ، وبها يتمحّص الصّادق المحتسب من غيره ، وهذا التمحيص هو مقتضى فعل البلوى ؛ لأنّها من بَلِيَ الثّوب بلىً وبلاءً أي خَلَق ، ويقال : بلوتُه اختبرته ؛ كأنّي أَخْلَقْتُه من كثرة اختباري له [٤] ، ومنه المصائب التي يُمتحن بها العباد حتى يظهر الصابرون ممن ليسوا كذلك ؛ قال تعالى : ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ** ﴾ [٥] .

والذي يظهر أن البلوى أعم من العلم ، وإنّما العلم نتيجة من نتائجها ؛ ولذلك انتهت غاية البلوى إلى العلم في الآية من خلال [حتى] الغائية .

والبلوى من المولى جلّ وعزّ قد وردت مؤكّدة بعدّة مؤكّدات في الجملة الفعلية ؛ فإن الجملة في قوّة القسم بتقديره ؛ أي : والله لنبلونّكم ؛ والمؤكّد الثاني هو اللام ، والثالث نون التوكيد المشدّدة ، والرابع إسناد فعل البلوى إلى المتكلّم سبحانه بنون العظمة .

---

(١) انظر : الدر المصون : ٣/٤٣٦ .
(٢) لقمان : ١٣ .
(٣) محمد : ٣١ .
(٤) انظر : المفردات : ٦١ .
(٥) البقرة : ١٥٥ .

وغاية البلوى وهي العلم وقعت على المجاهدين والصابرين ، فأخّر ذكر الصابرين عن المجاهدين ؛ مع فضل الأوّلين المطلق بدليل قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ . فما السرّ في هذا التقديم والتأخير ؟ .

الذي يظهر – والله تعالى أعلم – أنّ من أغراض ذلك مراعاة جانب الكثرة ؛ فإنّ من يتقدّم إلى الجهاد وينضم إلى سواده كثرة كاثرة . ولاسيما في بدايات أمره، ولكن الجدّ إذا نزل بالسّاحة ، والتحمت الجيوش ، ورأى المقاتلون الموت فإنّه يفرّ من يفرّ ، وقليل من يَصْبر ؛ ولذلك نُظر في تأخير ذكر الصابرين إلى قلّتهم ، ولكن لعظم أمرهم وجلالة قدرهم ذكروا ونُصّ عليهم ، وعطفوا على المجاهدين إيماءً إلى أن الجهاد فعل يحتاج صاحبه ومُدَّعيه إلى صبر ومصابرة ، وبدون ذلك ينكشف مدّعي الجهاد وقد ينهزم .

وعلى ذلك جرى تقديم المجاهدين على الصابرين في سورة آل عمران فقد قال تعالى : ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ** ﴾ إلاّ أنّه يلاحظ أمران هنا : –

أولهما : التعبير عن المجاهدين بالموصول الذي صلته فعل ماض ، وهذا إشعار بأن دخولهم الجنة متوقف على تحقيق وقوع جهادهم ، وإذا تحقق فعلاً فقد تحقق صبرهم على مشاقه ومصائبه .

وثانيهما : التعبير عن الصابرين باسم الفاعل إيذاناً بأن المطلوب هو استمرار الصّبر والثبات عليه . كما يلحظ في هذه الآية إظهار فعل [يعلم] في حقّ الصّابرين ولم يكتف بعطفهم على الذين جاهدوا ؛ ولعل في ذلك إيذاناً بأنّ هناك قوماً صابرين على المصائب والأقدار وإن لم يكونوا في ساحات الجهاد ؛ فيدخلون في قيد المطلوب ظهور صبرهم واتّضاحه ، وقد يكونون هم المقصودين أكثر من غيرهم ؛ ولذلك فقد أظهر فعل العلم في جانبهم لكون مايصبرون عليه من المصائب يختلف عما يقع للمجاهدين .

وأما آية " محمد " فإنّ المقصودين هنا هم الصّابرون على معامع الجهاد ومشاقّه أكثر من غيرهم ، وإن كان غيرهم ممن لم يجاهد وصبر على المحن والشدائد

---

(١) الزمر : ١٠ .

(٢) آل عمران : ١٤٢ .

الدنيوية يندرجون في ذلك بحكم إطلاق وصف الصّابرين ، ولذلك لم يعد فعل العلم مرة أخرى بل اكتفي بعطف الصابرين على المجاهدين ٠

وقوله تعالى : ﴿ ونبلو أخباركم ﴾ لمعرفة الصادق منكم من الكاذب [(١)]، مع أن ذلك يشمل الأعمال أيضا بطريق الكناية [(٢)].

ولكن ما الغرض من إظهار فعل البلوى مرة أخرى وإيقاعه على الأخبار؟ ٠ ولم لم يكتف بالعطف كما هو الشأن مع الصابرين ؟ ٠

يقول ابن عاشور : " وإنما أعيد عطف فعل [نبلو] على فعل [نعلم] وكان مقتضى الظاهر أن يعطف [أخباركم] بالواو على ضمير المخاطبين في [لنبلونكم] ولايعاد [نبلو] ؛ فالعدول عن مقتضى ظاهر النظم إلى هذا التركيب للمبالغة في بَلْو الأخبار ؛ لأنّه كناية عن بلو أعمالهم ، وهي المقصود من بَلْو ذواتهم ؛ فذكره كذكر العام بعد الخاص ؛ إذ تعلَّق البَلْو الأوّل بالجهاد والصبر ، وتَعلّق البَلْو الثاني بالأعمال كلها ، وحصل مع ذلك تأكيد البَلْو تأكيداً لفظيّـاً " [(٣)].

فتقديم ذكر الجهاد والصبر على ذكر سائر الأخبار تقديم للأشرف والأهم ، فهو من باب تقديم الخاص على العام ، تنويهاً لمنزلته ، وتخصيصاً له من بين سائر ماندرج في العموم ٠

ومن الآيات التي حفلت بالتقديم والتأخير في نظم ألفاظها آخر آية في سورة الفتح ؛ الـواردة في نعت النبي صلى الله عليه وسلم ، ونعت أصحابه ؛ وهي قوله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ [(٤)].

---

(١) انظر : جامع البيان : ٢٦/٦١ ٠

(٢) انظر : حاشية الشهاب : ٨/٥٠ ٠

(٣) التحرير والتنوير : ٢٦/١٢٤ – ١٢٥ ٠

(٤) الفتح : ٢٩ ٠

والبداءة باسم النبي عليه الصلاة والسلام في صدر هذه الآية الكريمة – وهو المسند إليه – تشريف له وتعظيم ، واصطفاء اسم محمد من بين سائر أسمائه في هذا المقام الذي هو مقام مدح وثناء – فيه التئام للمعنى ، وتأكيد له ؛ ذلك أن محمدا مشتق من الحمد ، وهو الثناء بالفضائل على المحمود ، والحمد أخصّ من المدح وأعم من الشكر ، ويقال : فلان محمود إذا حُمد ، ومحمّد إذا كثرت خصاله المحمودة ، ومحمّد إذا وُجد محمودا[1].

وهذه المعاني منطبقة على المصطفى عليه الصلاة والسلام ؛ فإنّه محمود السِّيرة ، طيّب السَّريرة ، عند الخالق سبحانه وتعالى ، وعند المخلوقين ؛ مؤمنهم وكافرهم ، وحسبنا ثناء عليه قول الباري عز وجل فيه : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾[2] ؛ فقد امتطى الأخلاق العظام كلها ، وتمكّن من دقيقها وجليلها ، وأكّد ذلك بمؤكّدات قويّة في هذه الآية ؛ منها القسم المقدّر ، وإنّ المشدّدة ، ولام الابتداء ، وحرف الاستعلاء ، وتنكير [خلق] المفيد للتعظيم ؛ فشمل دقائق الأخلاق ولطائفها من باب أولى ، ووَصْف خلقه بأنّه [عظيم] وذلك الوصف صادر عن اللطيف الخبير العظيم المتعال ، واسمية الجملة في سياق المؤكّدات .

ثم إن الإخبار عنه عليه الصلاة والسلام بأنّه [رسول الله] وكون هذا الخبر مضافاً إلى لفظ الجلالة زاده تشريفاً على تشريف ، هذا من جهة . ومن جهة أخرى فإنّه تأكيد للمعنى المتقدم في الآية السابقة[3] ، وهي قوله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً** ﴾[4]؛ فشهد الله تعالى لرسوله بقوله : ﴿ **مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ** ﴾ فلا يسوغ إنكار رسالته ، ولايتسهّل طعن من طعن فيها مهما كان ؛ فإن الله الذي أرسله قد شهد له بها وكفى به شهيدا ؛ ولذلك جاء إسناد الرسالة إلى محمد خالياً من المؤكّدات ؛ وعلى ذلك فإنّ هذا الخبر إذا سيق إلى خالي الذهن فيكون على مقتضى الظاهر ، وإذا سيق إلى منكر أو شاك فإنّهما ينزّلان منزلة خالي الذهن ؛ فيجري الخبر على خلاف مقتضى

(١) انظر : المفردات : ١٣١ .
(٢) القلم : ٤ .
(٣) انظر : التفسير الكبير : ١٠٧/٢٨ .
(٤) الفتح : ٢٨ .

الظاهر ؛ فإنّ رسالة محمد صلى الله عليه وسلم من ظهورها وبيانها وشهادة مرسلِه – سبحانه – عليها لاتحتاج إلى تأكيد بل يدركها كل من لديه أدنى مسكة من عقل ، وفي ذلك تعريض بمن أنكر رسالته عليه الصلاة والسلام بأنّه لاعقل له ولافكر لديه ، أو أنّه قد أعار عقله غيره ، أو أنّه إمَّعَة يجري خلف الضالين على غير هدى ولابصيرة .

على أنّ في الآية إعراباً آخر له بيانه وحسنه ؛ ذكره ابن عاشور وفصّله ثم حَسَّنه ؛ حيث أفاد أن [محمد] خبر مبتدأ ، تقديره : هو محمد ، يعود هذا الضمير المحذوف على قوله [رسوله] في الآية قبلها ، وهذا من حذف المسند إليه(١) ، ثم قال : " وهذا المعنى هو الأظهر هنا ؛ إذ ليس المقصود إفادة أن محمداً رسول الله ، وإنما المقصود بيان رسول الله من هو ؛ بعد أن أجرى عليه من الأخبار من قوله : [لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق] إلى قوله [ليظهره على الدين كله ..] (٢)فيعتبر السامع كالمشتاق إلى بيان : مَنْ هذا المتحدَّث عنه بهذه الأخبار ؟ فيقال له : محمد رسول الله ؛ أي هو محمد رسول الله ، وهذا من العناية والاهتمام بذكر مناقبه صلى الله عليه وسلم ؛ فتعتبر الجملة المحذوف مبتدؤها مستأنفة استئنافاً بيانيا . وفيه وجوه أخر لاتخفى ، والأحسن منها هذا ؛ وفي هذا نداء على إبطال جحود المشركين رسالته حين امتنعوا من أن يكتب في صحيفة الصلح " هذا ماقاضى عليه محمد رسول الله . وقالوا : لو كنا نعلم أنك رسول الله ماصدَدناك عن البيت " . "(٣) .

والمقصود بالموصول في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ هم الصحابة على وجه العموم على الراجح(٤) ، وشرفهم وفضلهم إنما جاء بإسلامهم وصحبتهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي تفيده المعيّة الداخلة على الضمير العائد على النبي عليه الصلاة والسلام .

---

(١) انظر : التحرير : ٢٠٢/٢٦ .

(٢) وعلى هذا ؛ فقوله تعالى : ﴿ **رسول الله** ﴾ بدل أو بيان أو نعت . انظر : تفسير أبي السعود : ١١٤/٨.

(٣) التحرير والتنوير : ٢٠٢/٢٦ – ٢٠٣ .

(٤) انظر : فتح القدير : ٥٥/٥ .

والموصول مبتدأ وهو مسند إليه ، والمسند هو الخبر [أشداء على الكفار رحماء بينهم] ، ومعنى : أشداء على الكفار : جمع شديد ، أي يغلظون عليهم كما يغلظ الأسد على فريسته . والتنصيص على الكفار بلفظ الكفر ؛ إيذان بأن الموجب لهذه الشدّة هو كفرهم . ومعنى كونهم رحماء بينهم : أي يظهرون الرحمة والمودة بينهم ، وهو جمع رحيم ، بمعنى راحم (١) .

ووصفهم بكونهم أشداء على الكفار ، صفة مدح ؛ فهو دليل على أنهم عملوا بمقتضى أمر الله لهم عند مواجهتهم الكفّار ، في قوله تعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** ﴾ (٢) وما الغلظة إلا إفضاء إلى الشدّة ، فكأنّ تمام الشدّة لاتكون إلاّ من الغليظ(٣) ، قال تعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون** ﴾ (٤)؛ وعلى ذلك فقد جمع الصحابة رضي الله عنهم بين الغلظة والشدّة على الكفار ، فكان هذا مدحاً لهم وثناء عليهم .

والملحوظ في الآية هو تقديم [أشداء على الكفار] على [رحماء بينهم] في حين عكس الأمر في سورة المائدة(٥) . فقدم [أذلة على المؤمنين] على [أعزّة على الكافرين] مع أنّ المعنى يكاد يكون واحدا ؛ فما سرّ ذلك ؟ .

إن من أسرار ذلك – والله تعالى أعلم – أنّ آية المائدة وردت في سياق التهديد بالاستئصال الكلي للذين يرتدون عن الإسلام ؛ بحيث يستبدل الله بهم قوماً مغايرين

---

(١) انظر : فتح القدير : ٥/٥٥ .

(٢) التوبة : ١٢٣ .

(٣) لأن الشدّة هي القوة ، والغلظة ضد الرقة ، أو هما : الجفاء والقوة على الترتيب . انظر الكشاف : ٦/١٣٠ .

(٤) المتحنة : ٦ .

(٥) في قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزّة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولايخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم** ﴾ المائدة : ٥٤ .

لهم في الصفات والطبائع ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَيَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾[١] ، ومعلوم أن القوم الجدد يبدأون شيئاً فشيئاً حتى يقوى أمرهم وينْبُه شأنهم ؛ فيبدأ بصفاتهم الأولى المكوِّنة لهم ، فهم ينشأون على محبّة الله تعالى ، والعمل بما يرضيه ، وهم أذلاّء بينهم يتراحمون ويتعاونون على بناء مقوّمات حياتهم حتى يقوى شأنهم ، وهم ذوو شدّة وعزّة على أعدائهم الكفار ، يجاهدونهم في سبيل الله ، ولايخشون لومة لائم من أيٍّ كان ٠

فبدأ بنواة هؤلاء القوم الجدد ؛ فهي تبدأ بمحبة الله ثم التواضع والرحمة فيما بينهم ، ثم العزّة والشدّة على عدوّهم جهاداً في سبيل الله وطلباً لفضله ٠ وعلى ذلك جاء ترتيب صفاتهم في آية المائدة مراعاة لأصل تكوين المجتمع الجديد تكويناً قائماً على قواعد السّلامة والتدرّج ٠

وأمّا آية الفتح فإنّها قد نزلت بعد صلح الحديبية وقبل فتح مكة[٢] ، وعلى ذلك فهي تمهد لفتح مكة وتبشّر به ، وتنعت صفات الفاتحين الذين قد أُعدّوا واكتمل إعدادهم ، ولم يبق عليهم سوى مناجزة عدوّهم ؛ فبُدئ بأوّل الصفات التي يقتضيها المقام ؛ وهي صفة الشّدّة على الكفار ، ثم ثني بصفة الرحمة التي تتخلّل أفرادهم في تعاملهم مع بعضهم ، احتراساً من أن يُظنّ أن الغلظة والجفاء والشّدّة من سجاياهم الثابتة فيهم حتى مع بعضهم في علاقاتهم اليومية ؛ ولهذا كان التقابل المفرّق بين الأمرين [أشداء على الكفار رحماء بينهم] فكلّ له المعاملة اللائقة به ، فليسوا دائماً أشدّاء ولارحماء ؛ وإنما هم على الكفار أشداء ، وبين المؤمنين رحماء ، وهذا مقتضى أدب الدين ومنطق الرشد والحكمة[٣] .

---

(١) محمد : ٣٨ ٠

(٢) انظر : أسباب النزول للواحدي : ٢٧١ ٠

(٣) يقول الشهاب : " قوله تعالى : (رحماء بينهم) تكميل ، لو لم يذكر لربما توهم أنهم لاعتيادهم الشدة على الكفار قد صار ذلك لهم سجية في كل حال ، وعلى كل أحد ؛ فلما قيل : [رحماء بينهم] اندفع ذلك التوهم ؛ فهو تكميل واحتراس ، كما في الآية المتقدمة ؛ فإنّه لما قيل [أذلة على المؤمنين] ربّما توهم أن مفهوم القيد غير معتبر ، وأنهم موصوفون بالذّل دائما ، وعند كل أحد ، فدفع بقوله [أعزّة على الكافرين] ٠ " ٠ حاشية الشهاب : ٨/٦٩ ٠

ثم بعد ذلك جرى في نظم الآيتين ترتيب مايليق ببقية أوصافهم حسبما يقتضيه مقام المعنى ؛ فقال تعالى في آية " المائدة " بياناً لعزّتهم على الكافرين : ﴿ **أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولايخافون لومة لائم** .. ﴾ فإن عزّتهم على الكافرين ناتجة عن جمعهم بين الجهاد في سبيل الله وعدم هلعهم أو تردّدهم ، وفي ذلك تعريض بالمنافقين الذين ينهارون في ساحات الجهاد ويفرون منها [١] .

وأما في آية [الفتح] فقد ذكر أحوالهم التعبدية التي أنتجت الشدة على الكفار والرحمة البَيْنيَّة ؛ حيث قال : ﴿ **أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ** .. ﴾ .

بقي من لطائف النظم في آية " المائدة " أنه أوقع الوصف في جانب المحبة بالجملة الفعلية ؛ لأن الفعل يدل على التجدّد والحدوث وهو مناسب هنا ؛ فإن محبتهم لله تعالى تجدّد طاعته وعبادته كلّ وقت ، ومحبة الله إيّاهم تجدّد ثوابه وإنعامه عليهم كل وقت[٢] .

وقدم وصف محبته تعالى لهم على محبتهم له لكونها أشرف ، ولأن في ذلك تعجيلاً بسوق السّرور وإدخال الفرح في قلوبهم ، فإن من ظفر بمحبة خالقه ومولاه فقد فاز فوزاً عظيماً ؛ لأن ذلك له مابعده من النعيم والتكريم .

ووقع الوصف في جانب التواضع للمؤمنين ، والغلظة على الكافرين بالاسم الدال على المبالغة – دلالة على ثبوت ذلك واستقراره ، وعدم تذبذبهم في هذا الأمر ؛ بل هو عريق فيهم [٣].

وقدّم الوصف بالمحبة لهم ومنهم على وصفهم بأذلة وأعزّة لأنهما ناشئتان عن المحبتين المذكورتين [٤] . قال تعالى : ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [٥].

---

(١) انظر : تفسير أبي السعود : ٥٢/٣ .
(٢) انظر : الفتوحات الإلهية : ٥٠٢/١ .
(٣) انظر : الفتوحات الإلهية : ٥٠٢/١ ، ٥٠٣ .
(٤) انظر : الفتوحات الإلهية : ٥٠٢/١ ، ٥٠٣ .
(٥) آل عمران : ٣١ .

والخطاب في قوله [تراهم ركّعاً سجداً] لكل من تتأتّى منه الرؤية فهو لغير معيَّن بل لكل راءٍ[١] .

والتعبير بالمضارع للدلالة على تكرار ذلك منهم وتجدده في كلّ الأحوال ؛ أي : تراهم كلما شئت أن تراهم ركعاً سجدا ، والصورة هنا صورة بصريّة[٢] .

وفي سوق هذا في مساق الثناء عليهم إيماء إلى أن الله حقق لهم مايبتغونه[٣] .

وتقديم ذكر الركوع على السجود روعي فيه الترتيب الفعلي لأركان الصلاة . وتخصيص الركوع والسجود من بين سائر أفعال الصلاة ؛ لأنهما من أعظم مايميّز المصلي عن غيره ، كما أنهما من أفضل أركان الصلاة ، وبخاصة السجود ؛ فقد ورد في الحديث الشريف [أقرب مايكون العبد من ربّه عز وجل وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء][٤] .

وفي ذكرهما والتنصيص عليهما إيماء إلى ضرورة إقامتهما على الوجه الشرعي والاعتناء بشأنهما .

وقوله [يبتغون فضلاً من الله ورضواناً] خبر آخر للموصول المتقدم ، أو حال من [تراهم] أو استئناف مبني على سؤال نشأ من بيان مواظبتهم على الركوع والسجود ، كأنه قيل : ماذا يريدون بذلك ؟ فقيل : يبتغون فضلاً من الله ورضوانا[٥] .

وتقديم الفضل في هذه الآية على الرضوان جرى على نسق آيات أخر كقوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَتُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلاَئِدَ وَلاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانـاً .. ﴾[٦] الآية . وقوله : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانـاً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾[٧] .

---

(١) انظر : روح المعاني : ١٢٤/٢٦ ، التحرير والتنوير : ٢٠٥/٢٦ .
(٢) انظر : حاشية الشهاب : ٦٩/٨ .
(٣) انظر : التحرير والتنوير : ٢٦ / ٢٠٥ .
(٤) رواه مسلم وأبو داود والنسائي . انظر : جامع الأصول : ١٤٤/٤ .
(٥) انظر : تفسير أبي السعود : ١١٤/٨ .
(٦) المائدة : ٥ .
(٧) الحشر : ٨.

والفضل عام ، والرضوان خاص ، لكونه مشتملاً على الرضا الكثير ، والفضل يدخل فيه الإنعام والتفضل والتكريم ، ولكن الرضوان يدل على الرضا الكثير الصادر عن الله عزّ وجل ، وهو أعظم الرضا [١] ، ولذلك فهو أفضل وأكبر من سائر النعم ، فتأخير ذكره تأخير للأنفس الأغلى ، وهذا ماوقع في آية التوبة ، وهي قوله تعالى : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾[٢]. فكان مافي آية [الفتح] موافقاً للآيات المذكورة آنفا .

والمقصود بالسِّيما في قوله [سيماهم في وجوههم من أثر السجود] هو : الخشوع والتواضع والوقار[٣] ، فهذه الصفات من آثار السجود ومن نتائجه ، وبه مدح المؤمنون ، وتحقق فلاحهم ؛ قال تعالى :﴿ **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ** ﴾[٤].

والإشارة البعيدة في قوله [ذلك مثلهم في التوراة] عائدة إلى نعوتهم الجليلة المتقدمة ، والغرض من الإشارة البعيدة مع قرب العهد بالمشار إليه الإيذان بعلوّ شأنهم وبُعْد منزلتهم في الفضل [٥].

وتقديم ذكر التوراة على الإنجيل روعي فيه الترتيب الزمني في النزول ؛ فإن التوراة أنزلت على موسى عليه السلام ، والإنجيل أنزل على عيسى عليه السلام ، وعيسى متأخر عن موسى في البعث بالرسالة .

والتوراة من وري الزناد إذا قدح ففيها النور والهدى ، والإنجيل من نجل إذا ظهر ، فهو مستخرج من اللوح المحفوظ أو من التوراة [٦].

وإنما أخبر عن شأنهم في التوراة باسم المثل ؛ لأن المثل يطلق على الحالة العجيبة التي تثير الاستغراب والدهشة[٧] ؛ والصحابة بالصفات المتقدمة كذلك .

---

(١) انظر : المفردات : ١٩٧ .

(٢) التوبة : ٧٢ .

(٣) انظر : فتح القدير : ٥/٥٦ .

(٤) المؤمنون : ١ ، ٢ .

(٥) انظر : تفسير أبي السعود : ٨/١١٥ .

(٦) انظر : روح المعاني : ٣/٧٦ .

(٧) انظر : التحرير والتنوير : ٢٦/٢٠٧ .

وإنّما أعيد لفظ المثل مرة أخرى في الإنجيل ؛ لتأكيد غرابته وزيادة تقريرها[١] ؛ كأنهم لتفرّد حالهم وتميّز أوصافهم لم يصلح أن تروى أحوالهم إلاّ بصورة الأمثال وبألفاظها .

وإيثار الزرع من بين سائر النباتات ليكون الصحابة مشبّهين به - لكونه تتكاثر فروعه وتتعاظم سنابله ولهذا وقع التشبيه به في الإنفاق في سبيل الله ؛ حيث قال تعالى : ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾[٢]، والصحابة قد كثروا وتكاثر أبناؤهم وملؤوا الأرض علماً ونورا .

وأمر آخر في شأن الزّرع وهو كونه نافع الثمرة ، به أَوَد الحياة ، وعليه معاش الناس ، وهذا ماوقع في شأن الصحابة رضي الله عنهم من المنافع العظام ؛ فإنهم قد حفظوا لنا الدين ؛ فجمعوا القرآن وفسّروه ، وسمعوا السنّة ووعوها وعملوا بها ، وجاهدوا المرتدين ، ونصبوا الدين في الأمصار ؛ فكان منهم العلماء والقُرّاء ، والقادة والأمراء ؛ فرضي الله تعالى عنهم أجمعين .

ومن عجائب شأن الزرع أنه في طلعته واخضراره على الأرض يسرّ الناظرين ؛ ولهذا قال تعالى في آخر الآية : ﴿ **يعجب الزّراع** .. ﴾ وقوله تعالى :﴿ **أخرج شطأه** ﴾ ؛ شَطْءُ الزرع : فروخه ؛ وهو ماخرج منه وتفرّع في شاطئيه ؛ أي : في جانبيه ، وجمعه أشْطَاء[٣] .

وفي إسناد إخراج الشّطء إلى الزرع مجاز[٤] عقلي ؛ لأن المخرج في الحقيقة هو الله عزّ وجل ، وإنّما وقع الإسناد إلى الزرع لكونه ملابساً للشطء في الأصل والنشأة .

وقد يكون في الجملة استعارة تصريحية تبعية ؛ حيث استعير الإخراج إلى تفرّع الفراخ من الحبّة ؛ وذلك لمشابهة التفرّع بالخروج ومشابهة الأصل المتفرّع عنه

---

(١) انظر : تفسير أبي السعود : ٨/١١٥ . وانظر : روح المعاني : ٢٦/١٢٦ .
(٢) البقرة : ٢٦١ . وانظر : ٤٤٩ - ٤٥٦ .
(٣) انظر : المفردات : ٢٦١ .
(٤) انظر : روح البيان : ٢٦/١٢٦ .

بالذي يُخْرج شيئاً من مكان [١]، فالجامع بينهما هو الخروج والظهور .

وقوله [فآزره] أي قوّاه وأعانه وشَدّه ، فالمعنى : أن الشطء قوى الزرع ، وهو الأنسب ؛ لأن الأصل يتقوى بفروعه ؛ فهي تعينه وتقويه ، وقيل عكس ذلك [٢].

وقوله [فاستغلظ] أي صار غليظاً بعدما كان دقيقاً [٣] ، ويحتمل أن تكون السين والتاء للمبالغة أي : غلظ غلظاً شديداً في نوعه [٤].

وقوله [فاستوى على سوقه] من استوى الشيء إذا اعتدل في ذاته [٥]. أي : استقام على قصبه [٦] ، بمعنى بلغ غاتيه في النضج والتّمام ؛ ولهذا وقع إعجاب الزّرّا ع به في هذه المرحلة . فقال تعالى : ﴿ **يعجب الزُّرّاع** .. ﴾ ، أي : يعجبهم بقوته وكثافته وغلظه وحسن منظره [٧].

وخُصّ الزرّا ع من بين سائر فئات الناس ؛ لأنّهم أهل البخص والاختصاص ؛ فهم يعرفون عيوب الزرع وآفاته ؛ فإذا سلم منها استحق العجب ، وإذا نال إعجاب الزرّا ع فهو أحرى أن ينال إعجاب غيرهم [٨].

والملحوظ في ترتيب بناء هذا المثل هو مراعاة شأن المشبَّه به في نشأته ونموّه إلى أن اكتمل ونضج ، كما أنه يلحظ في الزّرع أن انتقاله من مرحلة إلى التي تليها هو انتقال لطيف دقيق ؛ فليس فيه طول تراخٍ حتى يعطف بين تلك المراحل بـ " ثُمَّ " ، وليس مجتمعاً مرة واحدة حتى يكون العاطف هو " الواو " ؛ ولهذا كان أليق الحروف بهذا التدرّج اللطيف هو " الفاء " فكأنّما جمع هذا الحرف بين شيء من خصائص " الواو " ، وشيء من خصائص " ثم " ؛ ولهذا كان أدقّ من غيره في تحقيق المعنى ؛ فاصطُفي دون سواه .

---

(١) انظر : التحرير والتنوير : ٢٠٨/٢٦ .
(٢) انظر : فتح القدير : ٥٦/٥ .
(٣) انظر : تفسير أبي السعود : ١١٥/٨ .
(٤) انظر : التحرير والتنوير : ٢٠٩/٢٦ .
(٥) انظر : المفردات : ٢٥١ .
(٦) انظر : تفسير أبي السعود : ١١٥/٨ .
(٧) انظر : تفسير أبي السعود : ١١٥/٨ .
(٨) انظر : روح المعاني : ١٢٧/٢٦ .

وقوله : [.. ليغيظ بهم الكفار] تعليل لذلك المثل العجيب المضروب لصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أي : كثَّرهم وقوّاهم ليكونوا غيظاً للكافرين ، فاللام متعلقة بمحذوف ؛ أي جعلهم الله بهذه الصفة ليغيظ بهم الكفار (١) .

وفي إسناد فعل الغيظ إلى الضمير المستتر العائد إلى الله تعالى ، وكون المُغَاظ بهم الصحابة وتقديم ضميرهم على المفعول به تشريف لايخفى لمقامهم ، وذبٌّ عن أعراضهم ، وتعريض بمن غاظه أو داخل قلبه شيء منهم ، وندب للمسلمين كافة بأن يترضَّوا عنهم ، ويحبّوهم ، ويظهروا فضلهم ، ويدفعوا ماقيل من الشّبه حولهم ، ويحسنوا تأويل ماوقع بينهم من خلاف أو اختلاف ؛ فكلٌّ محسن ومجتهد ؛ فمن أصاب فله أجران ، ومن أخطأ ارتفع عنه الإثم باجتهاده ، وبقيت له عدالته ، كما نربأ بأحدهم أن يقصد إلى الخطأ بعد أن يستبين له الحقّ ، ولانعتقد عصمتهم ، بل نرى الاجتهاد واقعاً فيهم والتأويل سائغاً في اجتهادهم ، وهم لفضلهم معذورون فأولئك قوم رضي الله عنهم ورضوا عنه .

قال القرطبي : " قال أبو عروة الزبيري من ولد الزبير كنا عند مالك بن أنس فذكروا عنده رجلاً ينتقص أصحاب رسول الله فقرأ مالك هذه الآية : ﴿ **محمد رسول الله** ﴾ حتى بلغ ﴿ **ليغيظ بهم الكفار** ﴾ فقال مالك : " من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أصابته هذه الآية ". "(٢) .

قوله تعالى : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً** ﴾ فيه لطائف بلاغية :

أولها : فصل هذه الجملة عما قبلها لما بينهما من شبه اتصال ؛ فكأنما قيل بعد تلك الأمثال المضروبة لهم : ماذا وعدوا ؟ فقيل ماذكر ..

---

(١) انظر : البحر المحيط : ١٠٣/٨ ، وفتح القدير : ٥٦/٥ - ٥٧ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن : ٢٩٦/١٦ - ٢٩٧ . قال ابن عاشور عن مقالة مالك السابقة : " رحم الله مالك ابن أنس ورضي عنه ما أدق استنباطه " . التحرير : ٢١٠/٢٦ . وانظر : الجامع لأحكام القرآن : ٢٩٦/١٦ - ٢٩٩ فقد ساق القرطبي طائفة من الأدلة وأقوال العلماء في فضل الصحابة .

وثانيها : مجيء فعل الوعد من الكريم سبحانه بصيغة الماضي دليل على ثبوته واستقراره وتقدمه ؛ ولذلك فهو آتٍ آت لامحالة ؛ ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾ (١).

وثالثها : إسناد فعل الوعد إلى لفظ الجلالة ، وإظهار ذلك اللفظ الجليل يجعل القلوب تطمئن إليه ، وتشتاق إلى موعوده ، وتقطع بوقوعه .

ورابعها : اصطفاء اسم الموصول [الذين] من بين سائر المعارف ، وكون صلته [آمنوا وعملوا الصالحات ..] يومىء ويشير إلى الموعود الحسن والفضل العظيم المدّخر لهم ، وفيه من التشويق والتطلّع إلى جزائهم الحسن مالايخفى . وهذا من براعة الاستهلال .

وخامسها : الجمع بين الإيمان وعمل الصالحات بواو العطف وبصيغة المضيّ - يدل على ضرورة اقتران الإيمان بالعمل الذي يصدّقه ويظهره ، وشرعية وقوعه وفعله، وأن تأخير العمل عن الإيمان أو إرجاءه عنه مصادمة للنصوص الشرعية وبدعة في الدين ، لايترتب عليها ذلك الجزاء الحسن بل ينتظر عكسه . وفي ذلك ردّ على المرجئة ومن عانق فكرتهم التي تقول : إن الإيمان في القلب فحسب وأنه لايزيد بعمل ولاينقص بتركه .

وسادسها : أنّ " أل " في [الصالحات] للعهد الذهني ؛ أي : عملوا الأعمال المعتبر في الشرع صلاحها ، وهو مايعهده المسلم ويحضر في ذهنه من أمور الدين ؛ كالصلاة والزكاة والصيام والحج وسائر الواجبات والمستحبات من قول أو فعل أو سلوك .. وضابطها : ما اجتمع فيه شرطان : ١ - خلوص النية لله في العمل .
٢ - وأن يكون ذلك العمل موافقاً للسنّة غير مُبتدع ؛ وقد جمعت هذين الشرطين آية " الكهف " وهي قوله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَيُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾(٢) فلمّا نصّت الآية على النهي عن الشرك دلّت على أن العمل الصالح هو الموافق للسنّة ؛ بدليل قول النبي عليه الصلاة والسلام : " من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ " (٣). والسنّة مبينّة للقرآن الكريم .

---

(١) التوبة : ١١١ .

(٢) الكهف : ١١٠ .

(٣) رواه مسلم : صحيح مسلم بشرح النووي : ١٢/١٦ ، باب نقض الأحكام الباطلة وردّ محدثات الأمور.

وفائدة التعريف بالأعمال الصالحة في الآية التي نحن بصددها هي إخراج المبتدَعات من الأقوال والأفعال فليست من الصالحات في شيء ، وإنما هي مردودة على صاحبها ، لاينتظر عليها ثوابا ؛ بل إنّ عليه بها وِزْرا ٠

وسابعها : إظهار الجار والمجرور [منهم] وتقديمه على المفعول به وهو الموعود، وهذا احتراس من أن يكون ذلك الموعود الحسن لغيرهم ؛ فلمّا قال [منهم] تبيَّن المراد بالموعودين ؛ فتكون [من] على هذا بيانيّة ؛ كما قال تعالى : ﴿ **فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ** ﴾[(١)] نص على ذلك ابن عطية وأبو حيّان ، وذهب ابن جرير إلى أن [منهم] يعني من الشَّطْء الذي أخرجه الزّرع ، وهم الداخلون في الإسلام إلى يوم القيامة ؛ فأعاد الضمير على معنى الشطء لاعلى لفظه ٠ ويؤيّد هذا التأويل قاعدة المفسّرين أن العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السّبب ٠

وثامنها : تقديم المغفرة على الأجر ؛ من باب التخلية قبل التحلية ؛ وتطهير النفس قبل تزكيتها ؛ فإنّ المغفرة محو للذنوب وتجاوز عن السّيّئات ، والأجر ثواب على الأعمال الصالحة وتكثير للحسنات ؛ ولايكثر الأجر ويتعاظم أثره إلاّ إذا محيت ذنوب صاحبه بالمغفرة ، ولذلك قدّمت المغفرة في الآية ، كما هو النَّسَق الجاري في آيات أخر ، جرى فيها تقديم المغفرة على الأجر ؛ ومنها قوله تعالى :﴿ ٠٠ **إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ** ﴾[(٤)]، وقوله : ﴿ ٠٠ **وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً** ﴾[(٥)] ، وقوله : (**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ** ﴾[(٦)]، وقوله : ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾[(٧)].

وتاسع هذه اللطائف وآخرها : هو تنكير [مغفرة وأجرا] لإفادة التكثير والتعظيم ؛ ولذلك وصف الأجر بأنّه عظيم ؛ إشارة إلى أن المغفرة كذلك [(٨)].

---

(١) الحج : ٣٠ ٠

(٢) وليست تبعيضية كما زعمت الشيعة ؛ انظر : البحر المحيط ١٠٣/٨ ، وانظر : روح المعاني ١٢٨/٢٦-١٢٩ حيث ناقش الشيعة في زعمهم المذكور ٠

(٣) انظر : جامع البيان : ١١٥/٢٦ - ١١٦ ٠

(٤) هود : ١١ ٠

(٥) الأحزاب : ٣٥ ٠

(٦) فاطر : ٧ ٠

(٧) الحجرات : ٣ ٠

(٨) ولمزيد من الوقوف على صور التقديم والتأخير في هذا البحث ؛ انظر : ١١١ ، ١٩٣ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٩٤ ، ٣٢٦ ، ٣٣٧ ، ٣٥٨ ، ٣٧٧ ، ٤٠٩ ، ٤٢٧ ، ٤٣٢ ، ٥١٩ ، ٥٢٧ ، ٥٣١ ٠

الذّكـر والحـذف

باديء ذي بدء عند طرح الذكر والحذف في جانب المسند أو المسند إليه ، قد يرد تساؤل عن ذلك ؛ فإذا كانت البلاغة في الحذف والإيجاز فكيف تكون البلاغة في الذكر والإطالة ؟ !

لقد نفى الدكتور محمد أبو موسى وقوع هذا التساؤل ابتداء ؛ وعلّلَ ذلك بقوله : " لأنه من المعلوم أن للحذف أغراضه التي لايغني الذكر غناءه فيها ، وأنّ للذكر أغراضه التي لايغني الحذف غناءه فيها ، وأن البلاغة مراعاة المقامات والأحوال ؛ فالذكر في موطنه بليغ مطابق ، والحذف في موطنه بليغ مطابق "(١) . ويضيف قائلاً : " على أنه لاتكون المنافاة بين الذكر والإيجاز إلا عند النظرة السريعة الدانية ، أما عند التحقيق فإن الذكر لاينافي الإيجاز – وأعني ذكر مايدل عليه المقام لو حذف – لأن وراء ذكر المسند إليه في هذه الحالة دافعاً نفسياً ومغزى يحرص المتكلم عليه ، فالذكر يحقق قيمة معنوية في الأسلوب ، وفوات هذه القيمة عيب في الكلام وإخلال بالمطابقة ، وقد يكون الكلام مع الذكر مبنياً على غَاية الإيجاز ؛ فليس الذكر الذي نتكلم فيه هو مايتمدّد به الأسلوب حتى يفيض عن المعنى ؛ فيصير التعبير فارغاً في بعض جوانبه ، وإنّما هو الذكر الموجز البليغ "(٢) .

إن المعنى في الجملة قائم على الإسناد ، والإسناد مؤسّس على المسند والمسند إليه ؛ فالأصل ذكرهما وعدم حذفهما ؛ مادام المعنى لايتم إلاّ بهما ، فهما عمدة الكلام .

ولكن الدارج في طبع اللغة أن تسقط من الألفاظ مايدل عليه غيره ، أو مايرشد إليه سياق الكلام أو دلالة الحال . وأصل بلاغتها في الوجازة التي تعتمد على ذكاء القاريء وتأمّل السامع ، كما تعوّل على إثارة حسّه ، وبعث خياله وتنشيط نفسه ؛ حتى يفهم بالقرينة ويدرك باللّمحة ويفطن إلى معاني الألفاظ التي طواها التعبير (٣) .

---

(١) خصائص التراكيب : ١٣٥ .

(٢) خصائص التراكيب : ١٣٥ .

(٣) أنظر : خصائص التراكيب : ١١١ .

وإذا اقتضى مقام الحال ذكر المسند أو المسند إليه فإن كمال البلاغة وحسن الأداء في الذكر ؛ لأن إدراك المعنى متوقف عليه ، وعلى ذلك فالحذف والحالة تلك ينال من حسن الكلام ويقدح في بلاغة المتكلم . وأما إذا قامت دلائل الحال وتوافرت قرائن الكلام على الاستغناء عن الذكر ؛ فإن الحذف يصبح مطلباً بلاغياً ، ويكون الذكر عندئذ مفسداً لنظم الكلام ثقيلاً على المتكلم والسّامعين .

ولقد بوّب ابن جني في كتابه " الخصائص " باباً قيّماً وسمه ؛ بـ " شجاعة العربية " ، ومما ضمه هذا الباب الحذف ويشمل حذف الجملة أو المفرد أو الحرف أو الحركة ، وربط هذا الحذف بقيام دليل يدل عليه ويرشد إليه وإلاّ عُدَّ ضرباً من التكلّف والعبث [1] .

وأما عبدالقاهر الجرجاني فقد افتتح باب الحذف بقوله : " هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسّحر ؛ فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصّمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ماتكون إذا لم تنطق ، وأتمّ ماتكون بياناً إذا لم تُبِن " [2] .

وقد جعل العلوي مدار الإيجاز على الحذف حيث قال : " اعلم أن مدار الإيجاز على الحذف ؛ لأن موضوعه على الاختصار ، وذلك إنما يكون بحذف مالا يخلّ بالمعنى، ولاينقص من البلاغة ، بل أقول : لو ظهر المحذوف لنزل قدر الكلام عن علوّ بلاغته ، ولصار إلى شيء مُسْتَرَكٍ مُسْتَرْذل ، ولكان مبطلاً لما يظهر على الكلام من الطلاوة والحسن والرقة " [3] .

ويجمل صاحب " البرهان " فوائد الحذف في القرآن الكريم خاصة وفي الكلام عامة بقوله : " منها : التفخيم والإعظام ؛ لما فيه من الإبهام ؛ لذهاب الذهن في كلّ مذهب ، وتشوّفه إلى ماهو المراد ؛ فيرجع قاصراً عن إدراكه ، فعند ذلك يعظم شأنه، ويعلو في النفس مكانه . ألا ترى أن المحذوف إذا ظهر في اللفظ زال ماكان يختلج

---

(١) انظر : الخصائص : ٢/٣٩٠ . وانظر : المثل السائر : ٢/٣١٦ .

(٢) دلائل الإعجاز : ١٤٦ . وقد نقل ابن الأثير كلام الجرجاني المتقدم عند كلامه عن الحذف ، انظر : المثل السائر : ٢/٣١٦ .

(٣) الطراز : ٢/٩٢ . وانظر : المثل السائر : ٢/٣١٦ .

في الوهم من المراد وخلص للمذكور ٠ ومنها : زيادة لذّة بسبب استنباط الذهن للمحذوف ، وكلّما كان الشعور بالمحذوف أعسر كان الالتذاذ به أشدّ وأحسن ٠ ومنها: زيادة الأجر ؛ بسبب الاجتهاد في ذلك ؛ بخلاف غير المحذوف ، كما تقول في العلة المستنبطة والمنصوصة ٠ ومنها : طلب الإيجاز والاختصار ، وتحصيل المعنى الكثير في اللفظ القليل ٠ ومنها : التشجيع على الكلام ، ومن ثَمَّ سماه ابن جني : " شجاعة العربية " ٠ "[١].

وفي القرآن الكريم تتعدّد أغراض الذكر والحذف ؛ فمنها مايكون جلياً ظاهراً ، ومنها مايحتاج إلى مزيد تدبّر وطول تأمّل في غرض الآية وموضوعها ، وصلتها بما قبلها ومابعدها ، مع استحضار للحال التي سيقت الآية لبيانها ٠٠ وغير ذلك من القرائن والدلائل ٠

وسوف نعرض طائفة من الآيات الكريمة الواردة في شأن الجهاد والمجاهدين مما وقع فيها ذكر أو حذف ، ثم نستعين بالله تعالى أولاً ، ثم بأساليب العربية وعمل المفسّرين من أجل الوقوف على بعض الأغراض البلاغية الكامنة وراء ذكر ماذكر أو حذف ماحذف ٠

يقول الله عزّ وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾[٢] ٠

لقد اختلف المفسّرون فيمن نزلت هذه الآية ؛ أكان نزولها في فريق مستضعف من المؤمنين كانوا في مكة فلما فرض الجهاد تأخّروا عنه ؟ أم كان نزولها في المنافقين جملة وتفصيلاً ؛ فهي تقرعهم وتفضح أحوالهم ؟ أم نزلت واصفةً أحوال قوم كانوا في الزمان المتقدم ؛ فحذّرت هذه الأمة من مثل حالهم[٣]٠٠؟ ٠

---

(١) البرهان في علوم القرآن : ٣/١٠٤-١٠٥ ٠ وانظر : الإتقان : ٣/ ١٧٠ -١٩٢ ٠

(٢) النساء : ٧٧ ٠

(٣) انظر تفاصيل ذلك في : زاد المسير : ٢/١٣٤٠

والأشبه بنظم الآية[(١)] ومدلول معانيها أنها في المنافقين ؛ وإلى هذا مال الفخر الرازي ، واستحسن حمل الآية عليه[(٢)]، وقبْله ابن عطية في " المحرر "[(٣)]، وأما القاسمي فقد رجّحه وصوّبه ، وطعن في الإسناد المنسوب إلى ابن عباس ، وذهب يدلّل ويعلّل على صواب سبيله من واقع سياق الآيات قبلها وبعدها إلى أن أزال اللّبس عنها ، وكشف الخفاء في أمرها[(٤)].

وقد صدّرت الآية بسؤال الغرض منه التعجب من حال هؤلاء القوم الذين جمعوا بين حالتين متناقضتين ، وخطاب التعجب موجّه في الأصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم الذي عاين هذه الحالة وسمعها ، يقول أبو السعود عن الاستفهام في الآية إنّه : " تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم من إحجامهم عن القتال مع أنهم كانوا قبل ذلك راغبين فيه حِرَاصاً عليه ؛ بحيث كادوا يباشرونه كما ينبيء عنه الأمر بكف الأيدي ؛ فإن ذلك مشعر بكونهم بصدد بسطها إلى العدو بحيث يكادون يسطون بهم "[(٥)].

وعلى ذلك فالمنادى الموجَّه إليه الخطاب محذوف لدلالة السياق عليه ؛ أي : ألم تر يامحمد إلى الذين ٠٠ ؟ ٠ والغرض من حذفه هو الإيجاز من جهة ، ومن جهة أخرى اتساع دائرة الرؤية ليدخل فيها كلّ من يتأتّى منه فعل الرؤية ؛ باستحضار هيئة هؤلاء المحكيّة حالهم المثيرة للعجب حتى يَعْتبر هو بذلك ، فيكون مشمولاً بخطاب التعجب والاعتبار ٠

والرؤية بصرية حقيقية في حق النبي صلى الله عليه وسلم[(٦)]، وهي في حق غيره علمية ذهنية قائمة على استحضار الحال في الذهن ٠ والغرض من التعبير بالموصول دون غيره هو الوصول إلى مافي حيِّز الصلة الذي قام عليه التعجُّب ٠

---

(١) نصّ على ذلك الشوكاني في كلام له ثم قال : " ويبعد صدور مثل هذا عن الصحابة " ٠ انظر : فتح القدير : ٤٨٨/١ ٠

(٢) انظر : التفسير الكبير : ١٨٤/١٠-١٨٥٠

(٣) انظر : المحرر الوجيز : ١٧٨/٤ ٠

(٤) انظر : محاسن التأويل : ١٤٠٠-١٤٠١٠

(٥) تفسير أبي السعود : ٢٠٣/٢ ٠

(٦) انظر : التحرير والتنوير : ١٢٧/٥ ٠

وطيّ ذكر القائل لكونه غير مراد في المقام هنا [(١)] ؛ وإنّما المراد هو القول ذاته دون قائله ؛ وهو المعتبر في التعجب ؛ لأن في قولهم ذلك مايشير إلى كمال رغبتهم في القتال إلى درجة احتاجوا معها إلى النهي عنه[(٢)] فلمّا أمروا به كفُّوا وتململوا منه .
وقوله [كفّوا أيديكم] أسلوب كنائي أريد به لازم كف الأيدي وهو ترك قتال العدوّ ؛ لأنه لم يحن وقته بعد .

وقد يكون التعبير على ظاهره فيكون فيه حذف تقديره : كفّوا أيديكم عن الشروع في قتال العدوّ ؛ فيكون في الحذف وجازة في التعبير ، وإرادة لترك الاشتغال بكل مايفضي إلى القتال ؛ من التحرّش بالعدوّ ، أو إثارته ، أو الاشتغال بأسباب القتال ؛ كجمع السّلاح ، وإظهار الشّوكة ؛ لأن الحكمة تقتضي ترك هذه الأمور إلى وقتها ، والذي يعلم تقدير ذلك الوقت هو العليم الحكيم .

وعطف الأمر بإقامة الصلاة ودفع الزكاة على الأمر بترك القتال في ذلك الوقت دلالة على تقدّم فرضهما قبل فرض الجهاد ، وفي ذلك إيماء إلى أنهما مُقَدّمتان للجهاد ؛ لأن في الصلاة توثيقاً للصلة بالله تعالى وتخليصاً للنفوس من حظوظها ومن شَرَك الرياء ، وفي إيتاء الزكاة تربية للنفس المؤمنة على التخلّص من حبّ المال ؛ فتجود به على المحتاجين ، ومن ثَمّ تتهيأ إلى دفعه في سبيل الله إذا ما أمرت ، وهذه خصال لاتفارق المجاهد في سبيل الله ، وهي الإخلاص لله والتضحية بالمال والنفس في سبيله .

وفي ذكر الصلاة والزكاة من بين شعائر الدين في ذلك المقام تنويه بشأنهما ، وإيعاز للقيام بهما على الوجه الشرعي من غير تقصير أو تأخير أو سَأَم ، كما أنّ في ذلك إشعاراً بأنّ من تقدّم إلى القتال - إذا فرض - وهو مخلّ بهما فإنّه حريّ بأن لايقبل عمله وأنه من المرائين ، لكون أعمال القتال ظاهرة عند جموع الناس أكثر من ظهور أعمال الصلاة والزكاة ؛ فمن لم يخلص فيهما كان في غيرهما أبعد عن الإخلاص .

---

(١) مع أن القائل هو النبي عليه الصلاة والسلام بوحي من الله تعالى .
(٢) انظر : تفسير أبي السعود : ٢/٢٠٣ .

وفي صرفهم عن مباشرة القتال عندما طلبوه إلى أمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ضرب من الأسلوب الحكيم ؛ فقد وجِّهوا إلى ماينفعهم وهو الأجدى لهم في تلك المرحلة ، وصرفوا عما ليس كذلك ، تنبيهاً لهم إلى أن الأولى هو ذلك لاسواه ٠

وقوله [فلمّا كتب عليهم القتال] ؛ في بناء فعل الكَتْب – وهو الفَرْض – حذف للفاعل ؛ مع أنّ فارض ذلك وكاتبه هو الله عزّ وجل ، ولعل في طيّ ذكر اسم الله تعالى في هذا المقام ، وهو مقام فرض القتال الذي تكرهه النفوس وتنفر منه طَبْعاً وجِبِلَّة – في ذلك تنزيه لمقام الألوهية من أن يناله شيء من تلك الكراهية ولو من ضعاف النفوس ؛ الذين لايعرفون قَدْراً ولا أدباً ؛ ولذلك ذكر الفعل المناط به الغرض ، وترك فاعله ويمكن حذفه لتعيُّنه وعدم اللبس في إدراكه ٠

وعلى هذا النسق جرى التعبير القرآني الكريم في الآيات التي ذكر فيها فرض القتال بهذا الاسم ، فقال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ٠٠ ﴾ (١) ، وقال سبحانه : ﴿ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا ٠٠ ﴾ (٢) ، وقال أيضاً : ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ ٠٠ ﴾ (٣) .

وتقديم الجار والمجرور [عليهم] على نائب الفاعل [القتال] لكونهم المقصودين امتحاناً لهم به بعد طلب كفّ أيديهم عنه ٠

وإيثار لفظ [القتال] من بين سائر معاني الجهاد كالنفير مثلاً ٠٠ لكونهم هم الذين طلبوا فعله ابتداء ؛ فأعطوا ماطلبوا بلفظه ومعناه ، وهذا أدخل في الابتلاء وإقامة الحجة عليهم ٠ ثم إنّه أريد مصارحتهم بالمطلوب بوضوح وجلاء ، حتى لايكون لهم مدخل في الالتواء ٠

وقوله [إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشدّ خشية ٠٠] فيه لطائف بلاغية : –

منها : – أنّ [إذا] فجائية مكانية (٤) ، واقعة في جواب [لما] ، مفيدة أن كَتْب

---

(١) البقرة : ٢١٦ ٠

(٢) البقرة : ٢٤٦ ٠

(٣) البقرة : ٢٤٦ ٠

(٤) انظر : الفتوحات الإلهية : ٤٠١/١ ٠ ويكون التقدير : ففي الحضرة فريق كائن منهم خاشون أ خاشين ٠ فيكون من باب تقديم خبر مقدّر ٠

القتال فاجأ فريقاً منهم فوقعت خشية الكفار في قلوبهم ، وفائدة تصدير جواب [لما] بإذا الفجائية : " بيان مسارعتهم إلى الخشية آثر ذي أثير من غير تلعثم وتردّد " [(١)]، ويدل هذا على أنّ طلبهم للقتال ابتداء لم يكن عن صدق ولاعن رغبة بدليل أنه لما فرض عليهم ذلك فاجأهم ووقعوا صرعى من خشية القتل على يد الكفار وهذا يعزّز كون الآية في المنافقين ؛ لأنهم هم الذين تدور أعينهم فرقاً من الموت على يد الكفار كما قال تعالى فيهم : ﴿ .. فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ .. ﴾ [(٢)].

ومن اللطائف : أن الفريق في الأصل هو اسم للجماعة المتفرّقة عن آخرين[(٣)] ؛ فكأنّهم لمفارقتهم أصحابهم وتفرُّدهم برأي أو صفة سُمّوا فريقاً ، وأولئك المنافقون كانوا كذلك فقد تفرّدوا من بين المؤمنين بما نعتوا به ، وافترقوا عنهم بذلك ، وأما توجيه التعجيب وبناؤه في شأن الكلّ مع صدور الخشية عن بعضهم فقط - فللإيذان بأنّه ماكان ينبغي أن يصدر عن أحدهم أصلاً ماينافي حالتهم الأولى عندما طلبوا القتال[(٤)] ، وفي ذلك استعظام لشأن ماحدث منهم وتهويل لأمره .

ومن اللطائف : أن حالهم قد وصفت بالخشية وقت فرض القتال ، ولم توصف بالخوف ؛ ذلك أن الخشية أدلّ على الخوف من لفظ الخوف ؛ فهي بمعنى الخوف وزيادة [(٥)]، ولذلك اصطفى التعبير بها عن العلماء العارفين بالله ، القائمين على حدوده ؛ فقال تعالى فيهم :﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [(٦)]؛ على سبيل قصرها عليهم ؛ فكون أولئك المنافقين يخشون الناس كخشية الله أو أشدّ خشية دليل على أن خوفهم من القتال قد بلغ منتهاه في قلوبهم ، وهذا دليل أيضاً على تمكنهم في الجهل وتمكن الجهل فيهم ، ولو كانوا على بصيرة وعلم لعلموا أن الأحق بالخشية هو الله تعالى وحده دون سواه .

---

(١) تفسير أبي السعود : ٢٠٣/٢ .
(٢) الأحزاب : ١٩ .
(٣) انظر : المفردات : ٣٧٧ .
(٤) انظر : تفسير أبي السعود : ٢٠٣/٢ .
(٥) انظر : معجم مقاييس اللغة : مادة : خشي .
(٦) فاطر : ٢٨ .

ومن اللطائف : أن في قوله [يخشون الناس كخشية الله ٠٠] تشبيهاً ، حذف فيه المشبه ووجه الشّبه ، فأما المشبه فقد دلّ عليه لفظ المشبه به ؛ وتقديره يخشون الناس خشية كخشية الله ؛ وعلى ذلك فالمشبه مفعول مطلق[١] مؤكّد لوقوع الخشية منهم ؛ ثم طوي ذكره إيجازاً ، واعتماداً على المشبه به ، وعلى هذا فيكون في هذا الموضع احتباك ؛ فقد حذف من الأوّل مادل عليه الثاني ٠ وأما وجه الشبه فقد حذف للتهويل ؛ ليذهب الذّهن فيه كل مذهب ؛ والتقدير : يخشون الناس خشية كخشية الله في وقوع البأس وصنوف العذاب بهم ٠

ومن اللطائف : موقع [أو] في قوله [٠٠أو أشدّ خشية] فلها عدّة احتمالات ؛ ولكلِ احتمال وجهه البلاغي ؛ فقد تكون على بابها من الشك في حق المخاطب لافي حق المتكلّم سبحانه ، وقد تكون للإبهام على المخاطب ؛ وفي هذا شحذ لذهنه في طلب تصوّر خشيتهم التي لايعلم حَدَّها ٠ وقد تكون للتخيير ؛ فإن شئت فخشيتهم من الكفار كخشيتهم الله وإن شئت أشد من ذلك ٠ وقد تكون بمعنى الواو ؛ وبهذا تضيف معنى جديداً أفاده التشريك والجمع ٠ وقد تكون بمعنى " بل " ؛ فتفيد إضراباً عن الأوّل إلى الثاني ؛ فتكون تلك الخشية في قلوبهم أشدّ من خشية الله فيها٠ وقد تكون للتنويع ؛ فيؤول أمرهم إلى أنّ منهم من يخشى الناس كخشية الله ومنهم من يخشاهم خشية تزيد على خشيتهم الله[٢] ؛ وهذا الأخير هو أقربها إلى الصواب ؛ لكون المتحدّث عنهم ليسوا على قلب رجل واحد ٠ وهناك حذف للمفضل منه دل عليه ماقبله والتقدير : أو أشد خشية من خشية الله ، وحذفه من باب الإيجاز٠

وقوله تعالى :﴿ **وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال ٠٠** ﴾ ؛ هذا القول منهم معطوف على جواب [لمّا] مندرج في سلك المفاجأة ؛ وكأنّه تتميم لوقائعها ٠ وهذا القول قد يكون بلسان المقال محكيّاً عنهم ؛ وأرادوا به وقت تكلمهم إيقاع الوهن في قلوب المستعدين للقتال[٣]٠ وقد يكون بلسان الحال في نفوسهم ؛ ففضحهم الله

---

(١) انظر : الفتوحات الإلهية : ٤٠١/١ ٠

(٢) عدّد تلك الاحتمالات لـ " أو " أبو حيّان من غير تعليل لها سوى الأخير منها ؛ انظر : البحر المحيط : ٢٩٨/٣ ٠

(٣) انظر : التحرير والتنوير : ١٢٦/٥ ٠

بإعلانه وذكره . وبذلك يكون هذا القول منهم اعتراضاً وجهلا ، وعلى القول بأن قائل ذلك فريق من المؤمنين فيكون ذلك القول بحثاً منهم عن علّة الأمر بالقتال ؛ فهم لم يهتدوا إلى الحكمة من فرضه [١] عليهم .

وفي قوله [ربنا] منادى محذوف الأداة ؛ لظهورها من السياق ، وذلك كثير في القرآن الكريم في مقامات الدعاء ، وفي ذلك إشعار بقرب المنادَى من المنادِي .

وتقديم [علينا] على المفعول ؛ إظهار منهم بأنّهم قد تضرّروا بهذا الذي فاجأهم فرضه عليهم وهو القتال .

وذكر القتال مرة أخرى وعدم الاكتفاء بضميره إيماء إلى أنّهم قد تبرّموا منه وضاقت به نفوسهم ؛ فبنوا عليه جملة الاستفهام الإنكاري . وهو خير مايعبّر عن ذلك المعنى النفسي عندهم . وذلك الاستفهام " ردّ في صدر أمر الله وعدم استسلام له " [٢]. ولايلجأ إلى هذا إلا منافق .

وقوله [لولا أخرتنا إلى أجل قريب] ، لم تعطف هذه الجملة على سابقتها ؛ لكونها كالبيان لها ، وقيل : إنما لم تعطف عليها للإيذان بأنهما مقولتان مستقلتان لهم ؛ فتارة قالوا الجملة الأولى ، وتارة الجملة الثانية ، ولو وقع العطف لتوهّم أنهم قالوا مجموع الكلامَين بعطف الثانية على الأولى [٣].

ولولا في الآية أداة تحضيض خلّصت الفعل الماضي بعدها إلى الاستقبال ؛ فيكون المعنى : لولا تؤخّرنا إلى أجل قريب . والأجل القريب هو موتهم على فرشهم حتف أنفسهم من غير قتال [٤]. وقد أرادوا بقولهم ذلك الاستزادة في مدة الكفّ عن قتال العدو ، والاستمهال إلى وقت آخر حذراً من الموت [٥]. وفي الكلام حذف أفاده السّياق ؛ أي : هلاّ تركتنا حتى نموت بآجالنا من دون مقاتلة [٦]. والغرض من

---

(١) انظر : التفسير الكبير : ١٨٦/١٠ ، البحر المحيط : ٢٩٨/٣ ، التحرير والتنوير : ١٢٦/٥ .
(٢) البحر المحيط : ٢٩٩/٣ ، وانظر : المحرر الوجيز : ١٧٩/٤ .
(٣) انظر : روح المعاني : ٨٦/٥ .
(٤) انظر : البحر المحيط : ٢٩٨/٣ .
(٥) انظر : تفسير أبي السعود : ٢٠٤/٢ .
(٦) انظر : التفسير الكبير : ١٨٦/١٠ .

وصف الأجل بكونه [قريب] الاستعطاف (١) .

ولما كان غرضهم من طلب تأخير فرض القتال - القعود والاستمتاع بالدنيا الفانية ؛ أمر النبي عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى :﴿ قُلْ ﴾ " أي تزهيداً لهم فيما يؤملونه بالقعود من المتاع الفاني ، وترغيباً فيما ينالونه من النعيم الباقي "(٢) .

وقوله :[متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى] ؛ في الإخبار عن متاع الدنيا بكونه قليلاً وبالجملة الاسمية دليل على دوام قلّة ذلك المتاع واستمرار هذه القلّة في كلّ شيء ؛ فإن الجمال يذهب ، والمال لايدوم ، والعمر يتناقص ، والنّعمة في كدر وتنغيص ... وتنكير [قليل] للتحقير ، والتزهيد .

[والآخرة خير] الأصل : ومتاع الآخرة ؛ قياساً على [متاع الدنيا] ولكن المضاف حذف ؛ وأقيم المضاف إليه مقامه ؛ تعظيماً لشأن الآخرة ، وإخباراً عن مجموعها كلها بأنّها خير لمن أطاع الله ورسوله . ومجيء المبتدأ والخبر جملة اسمية إشعار بدوام ذلك الخير ، وصفائه ، وعدم انقطاع الخيرات فيه .

وتنكير [خير] للتعظيم ؛ فهو خير لايكتنه كنهه ، ولاتحدّ أوصافه . والمقابلة ظاهرة بين [متاع الدنيا قليل والآخرة خير] وفائدتها التزهيد في الأولى ، والترغيب في الآخرة .

وقوله [لمن اتقى] قيد :خصّص ذلك الخير الذي في الآخرة بالمتقين ، ولازمه نفيه عن الكفار ؛ فإن لهم فيها نيراناً وأهوالاً (٣) .

وفي ذلك القيد تعريض بأولئك الذين صدر عنهم ماتقدم ؛ فهو منافٍ لسمت المتقين وأدبهم مع الله تعالى ، وفيه حث لهم على اتقاء المعاصي والعمل بالطاعات (٤) . كما أنّ في ذلك القيد أيضاً إيجازاً بالحذف ؛ فقد حذف المُتَّقَى ؛ إعظاماً لشأنه ، وإيذاناً بظهوره وكمال تعرُّفه .

وقوله [ولاتظلمون فتيلا] معطوف على محذوف مقدَّر ؛ أي : تجزون فيها ولاتبخسون هذا المقدار اليسير ؛ فضلاً على مازاد من الثواب والأجر العظيم ؛ فلا

---

(١) انظر : روح المعاني : ٥/٨٦ .
(٢) تفسير أبي السعود : ٢/٢٠٤ .
(٣) انظر : روح المعاني : ٥/٨٦ .
(٤) انظر : تفسير أبي السعود : ٢/٢٠٤ .

ترغبوا عن القتال ، ولاتركنوا إلى متاع الدنيا وغرورها [١].

والفتيل هو من فتلتُ الحبل فتلا ، وهو مايكون في شقّ النواة ، وسمّيَ بذلك لكونه على هيئة الحبل الدقيق المفتول ، ويطلق الفتيل على ماتفتله بين أصابعك من خيط أو وسخ ؛ ويضرب به المثل في الشيء الحقير[٢].

وتنكير [فتيلا] في الآية للتحقير ، ونظمه في سياق النفي لإرادة نفي العموم في أصغر الأشياء وأحقرها ؛ فهو في مازاد على ذلك أدخل في النفي .

وبناء فعل الظلم للمجهول ليعم نفي الظلم عن كلّ أحد ؛ فلا يقع في الآخرة بخس للحقوق ولاظلم من أحد على أحد .

ومجيء الفعل بالتاء [ولاتظلمون] فيه التفات لهم من الغيبة إلى الخطاب ؛ تذكيراً لهم بيوم الحساب ؛ وفيه يناقش العبد على أعماله ويخاطب ويذكّر بما كان عليه في الدنيا إن خيراً فخير وإن شراً فشر ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** ﴾ [٣].

وعلى قراءة ابن كثير وحمزة والكسائي بالياء [ولايظلمون][٤] ؛ فلا التفات على هذه القراءة ؛ ويجري الفعل على الغيبة اتّساقاً مع نسق الآية .

وفي الآية حفز ظاهر على القتال وترغيب فيه ؛ فقد عالجت الآية نفوس قوم داخلها مرض الوهن ، فزهّدت في الدنيا ، ورغبت في الآخرة ، وشحذت الهمم ؛ فلم يبق إلا استباق الخيرات ، وعمل الطاعات ، والنزول جهاداً في السّاحات .

ومما هو قريب من الآية المتقدمة في النظم والمعنى قوله تعالى :﴿ **وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ** ﴾ [٥].

---

(١) انظر : روح المعاني : ٥/٨٦ .
(٢) انظر : المفردات : ٣٧١ .
(٣) الزلزلة : ٧ ، ٨ .
(٤) انظر : علل القراءات : ١/١٥٠ .
(٥) محمد : ٢٠ ، ٢١ .

لقد صدّرت هذه الآية بالاستئناف المبيّن لحال جمع من المؤمنين في المدينة سألوا ربّهم أن ينزل سورة فيها ثواب القتال ؛ اشتياقاً منهم للوحي وحرصاً على الجهاد في سبيل الله (١).

والتعبير عن قولهم بصيغة المضارع لقصد استحضار الحالة ، أو للدلالة على تجدده وتكراره منهم رغبة وشوقا (٢).

وكون صلة الموصول ماضياً دليل على انعقاد قلوب أصحاب الموصول على الإيمان واستقراره فيها ؛ ولذلك نطقت ألسنتهم بذلك القول فكان صدقا لا نفاقا .

و [لولا] حرف مستعمل في هذا الموضع للتمني ، وأصل معناه التحضيض ؛ فأطلق وأريد به التمني ؛ لأن التمني يستلزم الحرص ، والحرص يدعو إلى التحضيض (٣).

ومما يجدر التنبّه إليه مجيء فعل التنزيل مضعَّفاً أولاً ثم غير مضعَّف ؛ فقيل [لولا نزّلت سورة] ثم قيل [فإذا أنزلت سورة ..] فأيّ فرق في التعبير بهما ؟ !

يقول ابن الزبير الغرناطي : " وجه ذلك – والله أعلم – أن المؤمنين هم الذين يودّون نزول السورة ، وطلبهم نزولها إنما هو على ما اعتادوه جارياً في غيرها من التنجيم (٤)، وتفصيل المنزل ؛ فالملائم هنا عبارة التضعيف ، وقوله [فإذا أنزلت سورة] إنما المراد تحصيلها بجملتها بعد كمال . وذلك مفهوم من سياق الكلام ، والملائم لما تحصّل عبارة الإنزال من غير تضعيف . فكلٌّ من الموضعين وارد على أنسب نظم ، والعكس غير ملائم . والله أعلم " (٥).

وتنكير [سورة] في الموضعين ؛ لإفادة التعظيم في ثوابها وأجر العمل بها . وزاد في تعظيمها تكرير مادة التنزيل في حقّها .

---

(١) انظر : زاد المسير : ٤٠٥/٧ ، الجامع لأحكام القرآن : ٢٤٣/١٦ ، التحرير والتنوير : ١٠٦/٢٦ .

(٢) انظر : التحرير والتنوير : ٢٦ /١٠٧ .

(٣) انظر : التحرير والتنوير : ٢٦ /١٠٧ .

(٤) معنى التنجيم : نزوله مفرقاً . قال ابن عباس رضي الله عنهما : " أنزل القرآن في ليلة القدر جملة واحدة إلى سماء الدنيا ، وكان بمواقع النجوم ، وكان الله ينزله على رسوله صلى الله عليه وسلم بعضه في إثر بعض " . الإتقان : ١١٦/١ .

(٥) ملاك التأويل : ٨٥٧/٢ .

وبناء الفعلين للمجهول ؛ بطيِّ ذكر الفاعل في الموضعين إيجاز للعلم به ؛ فإن المؤمنين يعلمون بالضرورة أن المنزِّل هو الله تعالى ، أو هو جبريل عليه السلام بأمر الله عز وجل . والغرض هو السورة ، وقد حصل ذلك بأوجز عبارة وأقصر طريق .

وقوله [سورة محكمة] أي متقنة الألفاظ والمعاني واضحة الدلالة لانسخ فيها ولاغموض في مرادها[١] ، وفي ذلك توطئة لإقامة الحجة على الذين لم يعملوا بما فيها، ووصف السورة بكونها [محكمة] وصف لآياتها بالإحكام ، أي عدم التشابه وانتفاء الاحتمال ؛ كما دلت عليه مقابلة المحكمات بالمتشابهات في قوله ﴿ .. مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ .. ﴾[٢] فآيات هذه السورة ليست من المتشابهات[٣]. ويرجح ابن عاشور أن المراد بهذه السورة هي سورة [محمد] وهي التي ذكر فيها القتال والأمر به كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾[٤]؛ ولذلك من أسمائها سورة [القتال] لكونه قد ذكر فيها[٥].

يقول قتادة : كل سورة ذكر فيها القتال فهي محكمة ، وهو أشد القرآن على المنافقين . وهذا أمر استقرأه قتادة من القرآن لابخصوصية هذه الآية ، والذي عليه التحقيق أن آيات القتال غير منسوخة إلى قيام الساعة[٦].

وقد طوي فاعل الذكر ، وأنيب [القتال] مناب الفاعل ومن أغراض ذلك ماتقدم[٧]. وتقديم الجار والمجرور [فيها] على نائب الفاعل لمزيد الاعتناء بشأن السورة ؛ لأنها هي التي تمنى المؤمنون نزولها . والمراد بذكر القتال فرضه[٨].

والخطاب في قوله [رأيتَ] للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنّه لاحق لقوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾[٩].

---

(١) انظر : أضواء البيان : ٧/٤٢٧ .
(٢) آل عمران : ٧ .
(٣) انظر : التحرير والتنوير : ٢٦/١٠٧ .
(٤) محمد : ٤ .
(٥) انظر : التحرير والتنوير : ٢٦ / ١٠٧ .
(٦) انظر : روح المعاني : ٢٦/٦٦ .
(٧) انظر : ٣٢٣ .
(٨) انظر : زاد المسير : ٧/٤٠٥ .
(٩) محمد : ١٦ . وانظر : التحرير والتنوير : ٢٦/١٠٨ .

وجملة [رأيت الذين في قلوبهم مرض ٠٠] جواب [إذا] الظرفية المضمنة معنى الشرط ٠ والمقصود بالمرض : النفاق ، وتقديم القلوب عليه لكونها وعاء له ، ومجيء [في] الظرفية دليل على تمكّنه منها ٠

وفي التعبير عن النفاق بالمرض استعارة ؛ فقد استعير المرض الخفي للنفاق بجامع أن كلاً منهما مضاد للسلامة والصحّة ، فإن المرض يأكل جسد صاحبه ، والنفاق يرعى الإيمان في القلب ويقضي عليه ٠ وهي استعارة تصريحية أصلية ٠

وقد خصّص النظر إلى النبي عليه الصلاة والسلام دون غيره في قوله [ينظرون إليك] لكونه هو الذي أنزلت عليه السورة المحكمة المذكور فيها القتال، ثم إنّه هو الذي سيأمر بالقتال ويرتّب صفوفه ؛ فإن خرجوا معه جزعوا من القتل ، وإن قعدوا مع الخوالف افتضح أمرهم، ولذلك دارت أعينهم من الحيرة كالذي يغشى عليه من الموت٠

وفي قوله [ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت] تشبيه وقع بالمصدر وهو مؤكّد مُجْمل ؛ حذفت فيه الأداة ووجه الشبه ؛ أي ينظرون إليك مثل نظر المغشي عليه من الموت حيرة واضطرابا من هول مانزل بهم عندما سمعوا ذكر القتال ، فهم ينظرون نظر المتحيّر بحيث يتجه إلى صوب واحد ولايشتغل بالمرئيات حوله ؛ لأنه في شاغل عن النظر [(١)] ٠

وقوله [فأولى لهم طاعة وقول معروف] مرتّب على حالتهم تلك فرع عنها ؛ وعلى ذلك فيجوز أن يكون لفظ [أولى] مستعملاً في ظاهره استعمال التفضيل على شيء غير مذكور يدل عليه ماقبله ، أي : أولى لهم من ذلك الخوف والجزع طاعة وقول معروف ؛ فتكون [أولى] مبتدأ ، [طاعة] وماعطف عليه خبر ، وعلى ذلك فلا يوقف على [فأولى لهم] ، لأنه لايتم المعنى إلا بما بعده ٠ وتكون اللام في [لهم] لمعنى الباء ، أي أولى بهم ٠ وإنما عديت باللام دون الباء للدلالة على أن ذلك أولى وأنفع ؛ فكان اجتلاب اللام للدلالة على معنى النفع ، وبهذا يرتبط بما بعده وهو قوله :[فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم] [(٢)] ٠

---

(١) انظر : التحرير والتنوير : ١٠٨/٢٦ ٠

(٢) انظر : التحرير والتنوير : ١٠٨/٢٦-١٠٩ ٠ وقيل إن [أولى لهم] محمول على التهديد والوعيد ، ثم اختلفوا في إعرابه وإعراب مابعده على وجوه عدة انظرها في : البحر المحيط : ٨١/٨ ٠

قوله تعالى :﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ ﴾ ؛ العزم : القطع وتحقق الأمر ، بكونه لامحيص عنه . وإسناد العزم إلى الأمر مجاز عقلي ؛ لأن الأمر لايعزم ، وإنما الذي يعزم أصحابه [(١)] .

والتعريف في [الأمر] تعريف عهد ، والمقصود به : أمر القتال المتقدم ذكره .

وجواب [إذا] محذوف ، تقديره : فإذا عزم الأمر نَكَلوا[(٢)] . ويدل عليه مابعده وهو قوله [فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم] وفي هذه الجملة حذف دلّ عليه ماقبله ، أي : فلو صدقوا الله في إيمانهم وجهادهم لكان خيراً لهم من المعصية والكراهة [(٣)] .

وفي إظهار لفظ الجلالة في مقام الصدق دليل على أن النفاق بضد ذلك ، وأن مقتضى الإيمان هو بالصدق مع الله تعالى في الأقوال والأفعال . وفي جعل فعل الكينونة جواباً لـ [لو] إشعار بأن فعل الصدق ينشأ عنه الخير كله في الدنيا بحسن الذكر ، وفي الآخرة بحسن العاقبة وهذا مستفاد من تنكير [خيراً] وإطلاق لفظه ؛ فإنّه يشمل خيري الدنيا والآخرة .

وفي الكلام إيجاز أيضاً ؛ لأن قوله [لكان خيراً لهم] يؤذن بأنه إذا عزم الأمر حصل لهم مالا خير فيه [(٤)] ، وهو افتضاحهم وانكشاف أمرهم في الدنيا ، وسوء المنقلب في الآخرة .

ومن الآيات التي بنيت على الذكر والحذف ، وعمر نظمها بهما ؛ قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ [(٥)] .

---

(١) انظر : تفسير أبي السعود : ٩٨/٨ ، وانظر : روح المعاني : ٦٨/٢٦ .
(٢) انظر : زاد المسير : ٤٠٦/٧ .
(٣) انظر : زاد المسير : ٤٠٦/٧ .
(٤) انظر : التحرير والتنوير : ٢٦ / ١١١ .
(٥) محمد : ٤ - ٦ .

وفي الآيات المتقدمة لطائف بلاغية نجملها في الآتي : -

١ - الفاء في قوله [فإذا لقيتم] تستدعي متعلّقاً تتعلق به وتترتب عليه ، فما وجه العلاقة والارتباط بما قبلها ؟ ، لقد ذكر الفخر الرازي جواباً عن ذلك أوجهاً ثلاثة ، نختار أولها لقربه من الصواب ، فقد قال : " لما بيّن أن الذين كفروا أضل الله أعمالهم(١) ، واعتبار الإنسان بالعمل ، ومن لم يكن له عمل فهو همج ؛ فإن صار مع ذلك يؤذي حسن إعدامه [فإذا لقيتم] بعد ظهور أن لاحرمة لهم ، وبعد إبطال أعمالهم ؛ فاضربوا أعناقهم "(٢).

والمقصود من الآية تهوين شأن الكفار في قلوب المسلمين ، وإغراؤهم بقطع دابرهم والحزم معهم ، ليكون الدين كله لله ، وإظهار العزة عليهم بعد ذلك ؛ إما بالمن على أسراهم بالإطلاق ، أو بفدائهم بالمال، وبذلك يعبد المسلمون ربهم آمنين ، وتكون لهم العزة في الأرض(٣).

٢ - اللقاء إذا أطلق ولم يقيد فإنه ينصرف إلى المقابلة في الحرب عند مواجهة العدوّ، و [إذا] ظرف لما يستقبل من الزمان مضمنة معنى الشرط ؛ فيكون المعنى : فإذا قاتلتم المشركين في المستقبل فأمعنوا في قتلهم ؛ حتى إذا رأيتم أن قد خضّدتم شوكتهم فأسروا منهم أسرى..(٤).

٣ - الغرض من استجلاب الموصول النصّ في صلة فعله الماضي على الباعث الذي ترتبت عليه الأوامر والأحكام في الآية ؛ وهو الكفر ؛ فهو مبعث ضرب الرقاب والإثخان ، وشدّ الوثاق ، والمن أو الفداء في الأسرى . وفي ذلك إلقاء للرعب في قلوب الكفار من جهة ، ودعوة ضمنية لهم للدخول في الإسلام حتى يغنموا ويسلموا من ذلك كلّه .

وفي التعبير عن الكفر بصيغة الماضي في صلة الموصول إشعار بأن أولئك الكفار قد مضى عليهم زمن وهم على الكفر ، فانعقدت عليه قلوبهم وأمهلوا ،

---

(١) وذلك في أول السورة .
(٢) التفسير الكبير : ٢٨ / ٤٢ .
(٣) انظر : التحرير والتنوير : ٧٨/٢٦ .
(٤) انظر : التحرير والتنوير : ٧٨/٢٦ .

ودعوا إلى الإسلام ، ولم يعد يعالجهم سوى الحزّ والاستئصال بعد ذلك الإمهال. فكان هذا التوجيه الكريم .

٤ - قوله [فضربَ الرقاب] جواب [فإذا لقيتم ..] ؛ وذلك كناية مشهورة عن القتل[١] ، عبر بذلك عن القتل لكونه من لوازمه غالبا [٢] ، وأوثرت على القتل ؛ لما فيها من تصوير القتل بأشنع صورة ، وهو حزّ العنق ، وإطارة العضو الذي هو رأس البدن ، وعلوّه وأوْجَه أعضائه[٣] وبقاء البدن ملقى على هيئة منكرة [٤] .

يقول الزمخشري عن [فضرب الرقاب] : " أصله فاضربوا الرقاب ضربا ؛ فحذف الفعل ، وقدم المصدر ، فأنيب منابه ، مضافاً إلى المفعول ؛ وفيه اختصار مع إعطاء معنى التوكيد ؛ لأنك تذكر المصدر وتدل على الفعل بالنصبة التي فيه "[٥] . وفي تقديم المصدر على المفعول به وإضافته إليه اعتناء بشأن الضرب وإغراء بفعله .

وفي التعبير بضرب الرقاب إشعار بغلبة المسلمين على الكفار وتمكنهم منهم [٦] . وأن الأصل في أهل الإسلام ذلك . ولكن ما الحكمة في اختيار ضرب الرقبة على غيرها من الأعضاء ؟

يقول الفخر الرازي في جوابه عن ذلك : " لما بين أن المؤمن ليس يدافع إنما هو دافع ؛ وذلك أن من يدفع الصائل لاينبغي أن يقصد أولاً مقتله ، بل يتدرج ويضرب على غير مقتل ؛ فإن اندفع فذاك ، ولايترقى إلى درجة الهلاك ، فقال تعالى ليس المقصود إلا دفعهم عن وجه الأرض ، وتطهير الأرض منهم ، وكيف لا ؟ والأرض لكم مسجد ، والمشركون نجس ، والمسجد يطهر من النجاسة ، فإذاً ينبغي أن يكون قصدكم أولاً إلى قتلهم بخلاف دفع الصائل ، والرقبة أظهر المقاتل ؛ لأن قطع الحلقوم والأوداج مستلزم للموت ، لكن في

---

(١) انظر : التحرير والتنوير : ٧٨/٢٦ .
(٢) انظر : حاشية شيخ زادة : ٣٤٥/٤ .
(٣) انظر : الكشاف : ٢٦١/٥ .
(٤) انظر : حاشية الشهاب : ٤١/٨ .
(٥) انظر : الكشاف : ٢٦١/٥ . ويريد بالنصبة الدلالة .
(٦) انظر : حاشية الشهاب : ٤١/٨ .

الحرب لايتهيأ ذلك ، والرقبة ظاهرة في الحرب ففي ضربها حزّ العنق ، وهو مستلزم للموت بخلاف سائر المواضع ولاسيما في الحرب ، وفي قوله [لقيتم] ماينبيء عن مخالفتهم الصائل ، لأن قوله [لقيتم] يدل على أن القصد من جانبهم بخلاف قولنا : لقيكم . ولذلك قال في غير هذا الموضع ﴿ **وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ** ﴾[١] " [٢]. وعلى ذلك فالتعبير بضرب الأعناق مجاز مرسل علاقته الجزئية [٣].

ويرد تساؤل آخر وهو أنه قال ههنا [فضرب الرقاب] بإظهار المصدر وترك الفعل ، وقال في الأنفال ﴿ **فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ** ﴾ [٤] بإظهار الفعل وترك المصدر ؛ فما الفرق بين التعبيرين[٥] ؟

نقول اختلفت أحوال المقامَين فاختلف التعبير ؛ فقد كانت آية الأنفال تحكي حال حرب قائمة وكان المؤمنون فيها والملائكة أنزلوا مترادفين لنصرة المؤمنين فلم يبق إلاّ أمرهم بفعل الضرب وإيقاعه فوق أعناق الكافرين ، وكرّر ذلك بطلب ضرب كلّ بنان منهم إيلاماً وتنكيلا . وقد كانوا مستعدين لتلبية طلب الفعل في المواضع المحدّدة ، ولذلك أمروا مرتين في موضعين مختلفين محدَّدين .

وأما في آية [محمد] فلم يكن الوقت وقت قتال بدليل قوله [فإذا لقيتم ..] فأريد إغراء المؤمنين بالكافرين وإثارة قواهم وشحذ هممهم وقت مقابلتهم لهم من أجل إيقاع أصل الضرب بهم ؛ فعبّر بمصدره ، وهو أقوى في الدلالة على الفعل من الفعل نفسه ؛ فقُصدَ إلى الغاية مباشرة بأدل الألفاظ وأقصر الطرق .

---

(١) البقرة : ١٩١ .

(٢) التفسير الكبير : ٤٣/٢٨ .

(٣) انظر : حاشية الشهاب : ٤١/٨ .

(٤) الأنفال : ١٢ .

(٥) لقد أجاب الفخر الرازي عن ذلك بجواب لم يكن وجه الصواب فيه ظاهرا ، وقد فتح لنا باب الجواب المذكور لاحقا . انظر : التفسير الكبير : ٢٨/٤٣-٤٤.

٥ - قوله [حتى إذا أثخنتموهم] كناية عن القضاء على شوكتهم ، لأن العدوّ إذا استعرّ فيه القتل ذهبت شوكته وقضي على قوته ، وفيه معنى إثقال العدو بالقتل والجراح حتى لايستطيع النهوض [١].

يقول الراغب : " يقال : ثَخُنَ الشيء فهو ثخين إذا غَلُظ فلم يَسِل ولم يستمرّ في ذهابه ، ومنه استعير قولهم : أثخنته ضرباً واستخفافا .. " [٢].

وفي التعبير بالإثخان من الدلالة على الرغبة في إنهاك العدوّ مالايخفى . ويجوز أن تكون همزة أثخن للإزالة والسلب كما في قولك أشكيته أي أزلت شكواه ، ويكون المعنى أزلتم ثخن الأعداء وقوتهم بالقتل [٣].

و[حتى] غائية ؛ يقول أبو حيّان : " وهذه غاية للضرب ؛ فإذا وقع الإثخان وتمكنوا من أخذ من لم يقتل وشدّوا وثاق الأسرى فإمّا مناً بالإطلاق وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها .. " [٤]. ومعنى ذلك استمرار القتل في العدوّ حتى تتحقق تلك الغاية .

٦ - [فشدُّوا الوثاق] الغرض من الأمر الإرشاد [٥] ، والشدّ : هو العقد القوي ، من شددت الشيء أي قوّيت عقده [٦].

والوَثاق ، والوِثاق : اسمان لما يوثق به الشيء [٧].

والجملة كناية عن الأسر ؛ لأن الأسر يستلزم الوضع في القيد [٨]، والأمر بشد وثاقهم تشديد على العدوّ وتضييق عليه ، وإظهار لعدم الرأفة به .

وتعريف [الوثاق] وقبله [الرقاب] يجوز أن يكون للعهد الذهني ، ويجوز أن يكون عوضاً عن المضاف إليه ، أي : فضرب رقابهم ، وشدّوا وثاقهم [٩].

---

(١) انظر : الكشاف : ٢٦١/٥ .
(٢) المفردات : ٧٩ .
(٣) انظر : حاشية الشيخ زادة : ٣٤٦/٤ .
(٤) البحر المحيط : ٧٤/٨ .
(٥) انظر : التفسير الكبير : ٤٤/٢٨ .
(٦) انظر : المفردات : ٢٥٦ .
(٧) انظر : المفردات : ٥١٢ .
(٨) انظر : التحرير والتنوير : ٨٠/٢٦ .
(٩) المصدر السابق : ٨٠/٢٦ .

٧ - وقوله [فإما منّا بعد وإما فداء] تفصيل لأحوال الأسرى ؛ فالمسلمون مخيرون بين حالتين :

الأولى : أن يُنْعَم عليهم بإطلاقهم بعد استرقاقهم ، مع أن استرقاقهم منّة عليهم؛ حيث لم يقتلوا .

والثانية : مفاداتهم ، وذلك بتخليصهم من الأسر بعوض من المال أو مبادلة بأسرى من المسلمين عند العدو (١) .

وتقديم المنّ على الفداء ترجيح له عليه ، لأنّه أعون على امتلاك ضمير الممنون عليه من أهل وعشيرة ، وفيه ترجيح لحرمة النفس على طلب المال (٢) ، كما أن في ذلك تأليفاً لقلوبهم واستمالة لها إلى الإسلام ، وفي ذلك أيضاً إشعار بعزّة الإسلام وأهله ، لأن الذي يمنّ هو صاحب المعروف والكرم .

وانتصاب [منّا وفداء] بإضمار فعل مقدر من لفظهما ؛ أي : فإما تمنون منّاً وإما تفدون فداء ، وذلك الفعل المحذوف واجب الإضمار ؛ لأن المصدر جاء لتفصيل عاقبة ؛ فعامله مما يجب إضماره (٣) . وبين المصدرين فنّ بديعي هو الطباق .

وقوله [بعْدُ] مضاف إلى محذوف مقدّر يفهم من السياق المتقدم ، أي : بعد الإثخان ، فهو تقييد لإباحة المن والفداء (٤) ، ولذلك ذكر في هذا الموضع .

بقي أمر في شأن الأسرى هل أحكامهم منسوخة بآية التوبة المتأخرة النزول وهي قوله : ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الحُرُمُ فَاقْتُلُوا المُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ .. ﴾(٥) ؟

للسلف قولان في ذلك أحدهما : النسخ وإطلاق القتل عملاً بآية " التوبة " لتأخر نزولها (٦) .

---

(١) انظر : التحرير والتنوير : ٢٦/٨٠ .

(٢) انظر : التحرير والتنوير : ٢٦/٨٠ ، والتفسير الكبير : ٢٨/٤٤ .

(٣) انظر : البحر المحيط : ٨/٧٤ .

(٤) انظر : التحرير والتنوير : ٢٦ / ٨٠ .

(٥) التوبة : ٥ .

(٦) روي ذلك عن ابن عباس وقتادة والضحاك والسدي ، وقالوا : لم يبق لأحد من المشركين عهد ولاذمة بعد [براءة] ، وانسلاخ الأشهر الحرم . فحملوها على الإطلاق .

والثاني : هو أن آية " محمد " محكمة ؛ لكونها مفصّلة لما جاء مجملاً في آيات الأمر بقتل المشركين ، ففي هذه الآية زيادة بيان وتفصيل في كيفية الجهاد (١).

والذي عليه المحققون من العلماء " أن الأمير يخيّر بعد الظَّفر تخيير مصلحة لاشهوة في الأسرى المقاتلين ؛ بين قتل واسترقاق ومنٍّ وفداء ، ويجب عليه اختيار الأصلح للمسلمين ؛ لأنه يتصرف لهم على سبيل النظر ، فلم يجز له ترك مافيه الحظ ؛ كولي اليتيم ، لأن كل خصلة من هذه الخصال قد تكون أصلح في بعض الأسرى ؛ فإن منهم من له قوة ونكاية في المسلمين ؛ فقتله أصلح ، ومنهم الضعيف ذو المال الكثير ؛ ففداؤه أصلح ، ومنهم حسن الرأي في المسلمين يرجى إسلامه ؛ فالمنّ عليه أولى ، ومن ينتفع بخدمته ، ويؤمن شرّه استرقاقه أصلح "(٢) . وبذلك يزول مابدا كأنّه تعارض بين ظاهر الآيتين ؛ فهما محكمتان ينزَّل العمل بهما على حسب أحوال المسلمين مع الكفار وَفْق المصالح المتحقّقة والمفاسد المندفعة تبعاً لما يقدّره أولو الأمر من أهل العلم ومن له البيعة والطاعة شرعا .

٨ - [حتى تضع الحرب أوزارها] حتى هنا غائية ؛ ولكن ما الغاية المرادة ؟

يقول ابن جَزِي الكلبي : " واختلف في الغاية المرادة هنا ؛ فقيل حتى يسلم الجميع ؛ فحينئذٍ تضع الحرب أوزارها ، وقيل : حتى تقتلوهم وتغلبوهم ، وقيل : حتى ينزل عيسى ابن مريم ، قال ابن عطية : ظاهر اللفظ أنها استعارة يراد بها التزام الأمر أبداً ؛ كما تقول : أنا فاعل ذلك إلى يوم القيامة " (٣).

---

(١) روي ذلك عن ابن عمر وعطاء والحسن وعمر بن عبدالعزيز ، وقالوا : إن القتل عند اللقاء ثم بعد انقضاء الحرب المن أو الفداء لاغير ، إلا أن تبدو مصلحة في القتل ، فتلك من باب آخر .
انظر تفاصيل أقوال السلف والعلماء في : الجامع لأحكام القرآن : ٢٢٧/١٦ - ٢٢٨ ، محاسن التأويل : ٥٣٧٥ - ٥٣٧٧ ، والتحرير : ٨٠/٢٦ - ٨٢ . وغيرها .

(٢) محاسن التأويل : ٥٣٧٧ . وهذا اختيار ابن جرير ، وحسّنه القرطبي ، انظر: جامع البيان :٤٢/٢٦ ، والجامع لأحكام القرآن : ٢٢٨/١٦ ، وعبارته : " قال النحاس : وهذا على أن الآيتين محكمتان معمول بهما ؛ وهو قول حسن ؛ لأن النسخ إنما يكون لشيء قاطع ؛ فإذا أمكن العمل بالآيتين فلا معنى للقول بالنسخ ، إذا كان يجوز أن يقع التعبّد إذا لقينا الذين كفروا قتلناهم ، فإذا كان الأسر جاز القتل والاسترقاق والمفاداة والمنّ ؛ على مافيه الصلاح للمسلمين " .

(٣) التسهيل : ٤٧/٤ .

والذي يظهر أن المعنى : حتى يضع الأعداء المحاربون أوزارهم ، وهو سلاحهم، وذلك بالهزيمة أو الموادعة [١] . وعلى هذا فتكون [أل] في [الحرب] عهدية تنصرف إلى الحرب الطارئة الناشبة بينكم وبين الكفار .

وليست [أل] لجنس الحرب التي بين المسلمين والكفار ؛ لأن ذلك يقتضي استمرار قيام الحرب إلى أن تتحقق غاية القضاء على شوكة الكفار وإثخانهم في الأرض . لأن هذا المطلب يقف دونه تأرجح أحوال المسلمين في الأزمان المتعاقبة بين القوّة والضعف ، ففيه تأثيم لهم ، وتكليف بما فوق طاقتهم ؛ وهذا مرفوع شرعاً ؛ حيث قال تعالى : ﴿ **لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** .. ﴾ [٢] .

أما إذا قويت شوكة المسلمين وعزّ سلطانهم فإنه يتعيّن عليهم العمل بالنصوص الشرعية الواردة في دعوة الكفار إلى الإسلام أولا ، فإن أبوا نوزلوا بقوة السلاح حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون .

وأوزار الحرب هي آلاتها وأثقالها التي لاتقوم إلا بها من السلاح [٣] والعتاد ؛ أسند وضعها إلى الحرب نفسها وهو في الأصل إلى أهلها إسناداً مجازيا [٤]، وهو مجاز عقلي .

وقد يكون في الآية استعارة تخييلية مكنية ؛ وذلك بتشبيه الحرب بإنسان يحمل أحمالا ، وإثبات الوضع للحرب تخييل ؛ لأن الحرب لاتضع ، وإنما الذي يضع الإنسان [٥] . يقول ابن عاشور : " ووضع الأوزار تمثيل لانتهاء العمل ؛ فشبهت حالة انتهاء القتال بحالة وضع الحمال أو المسافر أثقاله . وهذا من مبتكرات القرآن " [٦] . وقد يكون المراد بالأوزار الآثام الناشئة عن كفر الكفار وإشراك المشركين ؛ على المعنى المتقدم آنفاً من استمرار الحرب مع الكفار حتى يسلموا ويزول إثم كفرهم ، وهو مرجوح كما تقدم قبل أسطر [٧] .

---

(١) انظر : فتح القدير : ٣١/٥ .
(٢) البقرة : ٢٨٦ .
(٣) انظر : المفردات : ٥٢١ .
(٤) انظر : الفتوحات الإلهية : ١٤٢/٤ .
(٥) انظر : حاشية الشهاب : ٤١/٨ .
(٦) التحرير : ٨٢/٢٦ . واضح أن ابن عاشور أجرى الاستعارة في الفعل [تضع] وهو قرينة المكنية التخيلية ؛ فأجراها في التصريحية التبعية .
(٧) وانظر : تفسير أبي السعود : ٩٢/٨ .

٩ - قوله [ذلك] إما خبر لمبتدأ محذوف ، أو العكس ، أو مفعول به لفعل محذوف ، أي : الأمر ذلك ، أو : ذلك الأمر ، أو : افعلوا ذلك [١] . والمشار إليه ماتقدم من قوله : [فضرب الرقاب] وماتلاه ، والغرض من الإتيان باسم الإشارة تمييز المشار إليه أكمل تمييز تنويهاً به ، واستحضاراً له في الذهن لمزيد الاهتمام به. وقد أفاد اسم الإشارة تقرير الحكم ورسوخه في النفوس [٢] .

١٠- قوله [ولو يشاء الله لانتصر منهم] فيه حذف للمفعول به ؛ أي : لو يشاء الله النصر لانتصر منهم ؛ وقد حذف إيجازا واتكاء على مابعده في الدلالة عليه . والنصر هنا هو الانتقام ؛ ولذلك عُدّي بمن دون على [٣] ، والأصل أن يعدى النصر بعلى ، فيقال : انتصر عليه ، وأما الانتقام فيعدى بمن ؛ قال تعالى :﴿ **ومن عاد فينتقم الله منه** ﴾ ، والانتقام منهم ميسور ؛ وذلك ببعض أسباب الهلاك من خسف أو مسخ أو غرق أو صعق أو موت [٤] . . .

١١- قوله [ولكن ليبلو بعضكم ببعض] استدراك على فعل المشيئة المتقدم ، أي لم يقع الانتقام المذكور إلا لغرض حكمة البلوى والاختبار .وهذا هو المقدَّر المحذوف من سياق النظم ، وقد أفاده حرف الاستدراك ومابعده . وحقيقة البلو هنا بيّنها ابن عاشور فقال :"والبلو حقيقته : الاختبار والتجربة، وهو هنا مجاز في لازمه؛ وهو ظهور ما أراده الله من رفع درجات المؤمنين ، ووقع بأسهم في قلوب أعدائهم ، ومن إهانة الكفار ، وهو أن شأنهم بمرأى ومسمع من الناس "[٥]. وتنوين [ببعضٍ] تنوين عوض عن المضاف إليه ؛ أي : ببعضهم ، والمعنى : " ولكن أمركم بالقتال ليبلو المؤمنين بالكافرين ؛ بأن يجاهدوهم فيستوجبوا الثواب العظيم ، والكافرين بالمؤمنين ؛ بأن يعاجلهم على أيديهم ببعض عذابهم ؛ كي يرتدع بعضهم عن الكفر " [٦]؛ ففي الآية إيجاز حذف وقصر .

---

(١) انظر : تفسير أبي السعود : ٩٣/٨ ، والتحرير : ٨٢/٢٦ .
(٢) انظر : التحرير : ٨٢/٢٦ ، ٨٦ .
(٣) انظر : التحرير : ٨٣/٢٦ .
(٤) انظر : روح المعاني : ٤٢/٢٦ .
(٥) التحرير : ٨٣/٢٦ .
(٦) تفسير البيضاوي : ٤٠١/٢ .

وفي إيثار فعل البَلْو بصيغة المضارع إشعار بأن ذلك يتجدّد حدوثه إلى يوم القيامة ؛ لأن هذه الصيغة تفيد الحال والاستقبال ، ولذلك فلا ينبغي أن يقع استغراب المؤمنين من تجدّد الحروب والقتال مع الكفار في أزمان متلاحقة وفي أجيال متعاقبة ٠

١٢- ولما كان من لازم البلوى وقوع القتلى في جانب المؤمنين احترس من أن يُظَنّ بأنهم يموتون كالكفّار ؛ فدفع ذلك بقوله تعالى : ﴿ **والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم** ﴾، وهذه الجملة معطوفة على جملة ﴿ **فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ**٠٠﴾ فإنّه لمّا أمرهم بقتال الكفار أعقب الأمر بوعد الجزاء على فعله [١] ٠

وفي الموصول وصلته التفات من سياق الخطاب إلى سياق الغيبة ؛ ولعل الغرض منه إرادة العموم حتى يعم الوعد الكريم المخاطبين ومَنْ قبلهم ومَنْ بعدهم من المجاهدين في سبيل الله ٠

كما أن في ذكر الموصول وصلته عدولاً من الإضمار إلى الإظهار ؛ فقد كان مقتضى الظاهر أن يقال : ليبلو بعضكم ببعض ولن يضل الله أعمالكم ٠٠٠ ولكن عُدل عن مثل ذلك إلى الإظهار ؛ ليكون في تقديم المسند إليه - الموصول - على الخبر الفعلي إفادة تقوّي الخبر [٢] ، وليكون ذريعة إلى الإتيان بالموصول للتنويه بشأن ماحوته الصلة ، وللإيماء إلى وجه بناء الخبر على الصلة بأن تلك الصلة هي علّة ماورد بعدها من الخبر ، الذي سيق طمأنة للمجاهدين وحفزاً لهمم جهادهم ٠ وإضلال الأعمال : إبطالها وعدم الإثابة عليها ٠

وعلى ماتقدم فجملة [فلن يضل أعمالهم] خبر الموصول ، وقرنت بالفاء لإفادة السببية في ترتيب مابعد الفاء على صلة الموصول ، لأن الموصول كثيراً مايشرب معنى الشرط ؛ فيقرن خبره بالفاء [٣] ، وفي ذلك إيماء إلى أن عدم إضلال الأعمال مرهون بما جاء في حيّز الصلة ٠

---

(١) انظر : التحرير : ٨٣/٢٦ ٠

(٢) انظر : التحرير : ٨٣/٢٦ ٠

(٣) انظر : التفسير الكبير : ٤٧/٢٨ ، وانظر : التحرير : ٨٤/٢٦ ٠

وقد قريء [قاتلوا] قال الأزهري : " فالمعنى : أنهم جاهدوا الكفار وحاربوهم ، والمقاتلة تكون بين اثنين وبين الجماعة ؛ فأَعْلَم الله أن الذي يُقْتَل في سبيل الله لايحبط عمله ، وكذلك الذي يُقَاتل الكفار في سبيل الله " [1] . فشمل العموم المجاهد الحي والميت بالقيد المذكور في حيّز الصلة .

وقد فطن الفخر الرازي إلى نكتة اختلاف التعبير في حق الكافرين ؛ حيث أخبر عنهم بـ [أضل أعمالهم][2] ، وفي حق المؤمنين المجاهدين أخبر عنهم بـ [لن يضل أعمالهم] ، وطفق الفخر يبين سرّ ذلك فيقول : " لأن المقاتل داع إلى الإيمان ؛ لأن قوله [حتى تضع الحرب أوزارها] قد ذكر أن معناه حتى لم يبق إثم بسبب حرب [3] ، وذلك حيث يسلم الكافر ؛ فالمقاتل يقول : إما أن تسلم ، وإما أن تقتل ؛ فهو داع ، والكافر صاد ، وبينهما تباين وتضاد ؛ فقال في حق الكافر : أضل بصيغة الماضي ، ولم يقل : يضل ، إشارة إلى أن عمله حيث وجد عدم ، وكأنه لم يوجد من أصله ، وقال في حق المؤمن : فلن يضل ، ولم يقل : ما أضل ؛ إشارة إلى أن عمله كلما ثبت عليه أثبت له ؛ فلن يضل للتّأبيد ، وبينهما غاية الخلاف ، كما أن بين الداعي والصاد غاية التباين والتضاد" [4] .

١٣- قوله : [سيهديهم ويصلح بالهم] بيان لجملة [فلن يضل أعمالهم][5] ؛ ولذلك فصلت عنها .

يقول الراغب : " الهداية : دلالة بلطف ... والهُدَى والهداية في موضع اللغة واحد ، لكن قد خَصَّ الله عز وجل لفظة الهُدَى بما تولاّه وأعطاه واختص هو به دون ماهو إلى الإنسان ؛ نحو : ﴿ **هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾[6] ، ﴿ **أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ** ﴾[7] ... " [8] . ولذلك أسندت الهداية في الآية التي نحن بصددها

---

(١) علل القراءات : ٢/٦٣١ .

(٢) وذلك كما في أول سورة : محمد : ﴿ **الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم** ﴾ .

(٣) ماذكره الرازي هو أحد المعاني في وضع الحرب أوزارها . انظر : ٣٣٩ .

(٤) التفسير الكبير : ٢٨/٤٧ .

(٥) انظر : التحرير : ٢٦/٨٤ .

(٦) البقرة : ٢ .

(٧) البقرة : ٥ .

(٨) المفردات : ٥٣٨ ، ٥٤١ .

إلى الله عز وجل من خلال الضمير المستتر ، لأنها هداية توفيق وفلاح في الدنيا والآخرة[١] ، لايملكها إلا الله عز وجل ؛ فهي خاصة به سبحانه ٠

وقد قسّم الراغب الأصفهاني الهداية إلى أربعة أقسام ، وخلاصتها : -

الأول : - هداية عامة لكل مكلّف بما منحه الله من عقل وفطنة وإدراك للضروريات، ومنه قوله تعالى: ﴿ **ربُنا الذي أعطى كلّ شيء خلقه ثم هدى** ﴾[٢] ٠

الثاني : - هداية الدلالة إلى الخير والإرشاد إلى الحق وهي وظيفة الأنبياء والعلماء والدعاة ؛ يدعون الناس كافة إلى الله ، ومنه قوله تعالى :﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾[٣] ٠

الثالث : - هداية التوفيق والإلهام وهي مختصة بالله عز وجل ؛ قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾[٤] ٠

الرابع : - الهداية في الآخرة إلى الجنة ، وجعل منها الراغب قوله تعالى : ﴿ **سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ** ﴾ ٠ ثم قال : " وهذه الهدايات الأربع مترتبة ؛ فإن من لم يحصل له الأولى لاتحصل له الثانية ؛ بل لايصحّ تكليفه ، ومن لم تحصل له الثانية لاتحصل له الثالثة والرابعة ، ومن حصل له الرابع فقد حصل له الثلاث التي قبلها "[٥] ٠ وبذلك يكون المجاهدون الذين قتلوا في سبيل الله قد اجتمعت لهم الهدايات الأربع ؛ فقد كانت عقولهم راجحة ؛ فسمعوا الهدى وآمنوا به ، وصدقوا بالنبي عليه الصلاة والسلام واتبعوا النور الذي معه ، فوفقهم الله إلى الجهاد في سبيله ، وبلّغهم بمنّه وكرمه منازل الشهداء ، وسيدخلهم جنانه التي عرّفها لهم ، وهي آخر هداياتهم ٠ وعلى هذا تتوجّه القراءتان ؛ فقراءة [قتلوا] تكون هدايتهم بأن وفقهم الله إلى الدين الحق فجاهدوا في سبيله وسيرشدون في الآخرة إلى الجنة ٠

وعلى قراءة [قاتلوا] تكون هدايتهم في الدنيا إلى سبيل الرشاد في جميع أمورهم ومن أعلاها الجهاد في سبيل الله المفضي بهم إلى الجنة ٠

---

(١) انظر : فتح القدير : ٥/٣١ ٠
(٢) طه : ٥٠ ٠
(٣) السجدة : ٢٤ ٠
(٤) النور : ٤٦ ٠
(٥) المفردات : ٥٣٨ - ٥٣٩ ٠

وهذا كله جواب عن سؤال ناشيء عن كيفية تصوّر وقوع الهداية وصلاح البال في حق قوم قد قتلوا وفارقوا الدنيا على قراءة [قتلوا] ؟.

وقد أجاب صاحب " الفتوحات الإلهية " بجواب آخر حاصله : أن المراد بالذين قتلوا الذين قاتلوا بدليل القراءة الأخرى ، وهذا أعمل من أن يقتلوا بالفعل أولا ؛ فمن قتل بالفعل يهديه الله ويصلح حاله في الآخرة ، ومن لم يقتل يهديه ويصلح حاله في الدنيا ؛ فالكلام على التوزيع [1].

والبال هو الحال التي يكترث بها ، ويطلق على القلب ؛ أي العقل ومايخطر للمرء من التفكير ، وهو أكثر إطلاقه ، ولعله حقيقة فيه [2] ؛ ولهذا فصلاح بال المرء صلاح لأحواله في جميع أموره وشؤونه الدنيوية التي ينبني عليها مآله في الآخرة ؛ فمن صلح باله واستقام على الدين فهو بوعد الرحمن إلى الجنان ، ومن لا فلا .

وعطف [ويصلح بالهم] ومابعدها على [سيهديهم] لاتفاق الجمل الثلاث في الخبرية ؛ فهي أخبار وبشائر من الله عز وجل مسوقة للمجاهدين في سبيله .

وههنا يرد تساؤل آخر وهو لم عبَّر عن صلاح البال بالماضي في قوله : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ [3] ، ثم عبَّر عنه هنا بالمستقبل فقال : [سيهديهم ويصلح بالهم] مع أن الجميع مؤمنون ، متبعون للحق ؟ ! .

والجواب عن ذلك أن يقال : إن اختلاف التعبير هناك وهنا بحسب سياق المقام الذي قبله ؛ فإنّه في أوّل السورة وعدهم ماوعدهم بسبب الإيمان والعمل الصالح ، وذلك كان واقعاً منهم ؛ فأخبر عن الجزاء بصيغة تدل على الوقوع والتحقق ، وهي صيغة الماضي فقال : [أصلح بالهم] ، وأما مانحن فيه فقد وعدهم بسبب القتال المنتظر منهم والقتل الحاصل عليهم ؛ فكان في اللفظ مايدل

---

(١) انظر : الفتوحات الإلهية : ١٤٣/٤ .

(٢) انظر : المفردات : ٦٧ ، التحرير : ٧٥/٢٦ .

(٣) محمد : ٢ .

على الاستقبال ؛ لأن قوله تعالى :﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٠٠ ﴾ يدل على الاستقبال ؛ فلما كان الفعل لم يقع وإنما ينتظر وقوعه كان الجواب كذلك على الاستقبال فقال [٠٠ ويصلح بالهم] [(١)] ٠

١٤- قولـه تعالـى :﴿ ويدخلهم الجنـة عرفها لهم ﴾ ، الـذي يظهر أن [أل] في [الجنة] للعهد الذهني ؛ أي الجنة المعهود في أذهانهم أوصافها في القرآن والسنة ؛ بدليل قوله [عرّفها لهم] إذا فسّر بأنه تعالى لم يزل يمدحها لهم حتى عشقوها ؛ فاجتهدوا فيما يوصلهم لها [(٢)] ٠

ويجوز أن تكون [أل] لاستغراق صفات الكمال فيها ، أي يدخلهم الجنة الكاملة الصفات ٠ ويكون تعريفها لهم هو إلهام الله تعالى لكل أحد أن يعرف منزله فيها ؛ فيتوجّه إليه كما يتوجّه إلى داره في الدنيا [(٣)] ٠

وقيل : إن المقصود بتعريفها تطييبها لهم من العرف وهو طيب الرائحة ، والتطييب من تمام حسن الضيافة [(٤)] ، ومن علامة الرضى عن الضيف ، ورمز لتكريمه ٠

وتلك معان حسنة في تعريف الجنة ولكن أقربها إلى الصواب هو أوسطها وهو المعنى الثاني ، والذي يرشد إلى صوابه هو ورود الحديث بمعناه [(٥)] ٠

وتقديم الهداية في الذكر على إصلاح البال ، وإدخال الجنة إشعار بأهميتها ، ولكون مابعدها مُسَبَّباً عنها ، ونتيجة لها، فإنّ من لم يوفّق إلى الهداية لايحصل له مابعدها من كريم البشائر [(٦)] ٠

---

(١) انظر : التفسير الكبير : ٤٧/٢٨-٤٨ ٠

(٢) انظر : حاشية الشهاب : ٤٢/٨ ٠

(٣) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٢٣١/١٦ ، وحاشية الشهاب : ٤٢/٨ ٠

(٤) انظر : الفتوحات الإلهية : ١٤٣/٤ ، والتحرير : ٨٤/٢٦ ٠

(٥) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٢٣١/١٦ ٠

(٦) ولمزيد من الوقوف على صور الذكر والحذف في هذا البحث ؛ انظر : ٧٧ ، ٩٩ ، ١٩٧ ، ٢٢٧ ، ٢٣٤ ، ٢٣٩ ، ٢٤٤ ، ٢٦٩ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٣٧٩ ، ٤٠٥ ، ٤٥٠ ، ٤٥٤ ، ٤٦٠ ، ٤٧٠ ، ٤٧٢ ، ٤٨٨ ، ٤٩٧ ، ٥١٧ ، ٥٢٦ ، ٥٣٣ ٠

الشــــرط والجــــزاء

الشرط في اللغة هو العلامة والأمارة ، ومنه : أشراط الساعة : أي علاماتها. فكان وجود الشرط علامة لوجود جوابه (١).

ويمكن تعريف الشرط في اصطلاح النحاة بأنه : " قرن أمر بآخر مع وجود أداة شرط ؛ بحيث لايتحقق الثاني إلاّ بتحقق الأوّل "(٢).

والشرط متعلّق بالأفعال ويختص بها ؛ يقول العلوي : " واعلم أن جميع الشروط كلها مختصة بالأفعال ؛ لأنها تتجدّد ، والأفعال متجدّدة ، فلا جرم ناسب معناها الفعل ، فاختصت به " (٣).

ودخول حرف الشرط سبب في ربط فعل الشرط بجزائه ؛ بحيث يصبحان كالجملة الواحدة في الوفاء بالمعنى ، فلا يتم المعنى إلاّ بهما ، يقول ابن يعيش عن الجملة الشرطية : " فهذه الجملة وإن كانت من أنواع الجمل الفعلية وكان الأصل في الجملة الفعلية أن يستقل الفعل بفاعله ؛ نحو : قام زيد - إلاّ أنه لما دخل ههنا حرف الشرط ربط كل جملة من الشرط والجزاء بالأخرى حتى صارتا كالجملة الواحدة ؛ نحو المبتدأ والخبر ؛ فكما أن المبتدأ لايستقل إلا بذكر الخبر ؛ كذلك الشرط لايستقل إلا بذكر الجزاء .. "(٤).

وأدوات الشـرط كثيرة ؛ منها مايجزم فعلين مضارعين ؛ وتشمل حرفين هما : إنْ ، وإذ ما . وعشرة أسماء هي : مَنْ ، ما ، مهما ، متى ، أيّان ، أين ، أنّى ، حيثما ، أيّ ، كيفما . وكلها مبنيّة ماعدا أيّ ؛ فهي معربة . وأدوات غير جازمة ؛ وتشمل سبع أدوات ، وهي : إذا ، لو ، لولا ، لو ما ، أمّا ، كلّما ، كيف (٥).

وتلك الأدوات المذكورة لها معان تستعمل فيها ، وهي مفصّلة في مواضعها من كتب النحو (٦).

---

(١) انظر : اللسان : مادة : شرط . وانظر : المفصل : ٤١/٧ .
(٢) المعجم المفصّل : ٧٣٢/٢ .
(٣) الطراز : ٢٩٨/٣ .
(٤) المفصّل : ٨٩/١ . وانظر : البرهان : ٤٥٤/٢ .
(٥) انظر : المعجم المفصّل : ٧٣٢/٢ - ٧٣٣ .
(٦) انظر : شرح ألفية ابن معطي : ٣١٩/١ - ٣٣٤ ، وانظر : شرح التصريح على التوضيح : ٢٤٨/٢ -٢٦٣ وغيرهما .

ولكن الملحوظ أنّ " إنْ " هي أكثر أدوات الشرط استعمالا ؛ وربّما يعود سبب كثرة استعمالها في باب الشرط والجزاء إلى يُسْرها ، ولزومها معنى الشرطية وعدم خروجها عنه ، ولذلك استحقت أن تكون أمّ هذا الباب وعنوانه فقالوا : إنْ وأخواتها ، كما قالوا كان وأخواتها [١] . وقد كثر استعمالها في القرآن الكريم دون غيرها ، حيث وصل عدد المرات التي استعملت هي فيه إلى اثنتين وسبعين وخمسمائة مرة من أصل تسع وسبعين وثلاثمائة وألف مرة لأدوات الشرط كلها ؛ بحيث بلغت نسبة استعمالها: ٤٧ر٤١٪ [٢] .

إن التحليل البلاغي هو الذي يبرز مواطن الجمال في النظم القرآني وفي هذا المجال – مجال الشرط والجزاء – سوف أختار طائفة من آيات الجهاد تنوّع فيها التعبير القرآني بأدوات شرطية مختلفة في مواضع ومواقف متعدّدة وكان لكل منها موقعه الحسن ؛ بحيث لو استعمل غيره لاختل التعبير وفات المقصود .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ **أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لايَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً** ﴾ [٣] .

النص المتقدم له علاقة بما قبله [٤] ، فما زال النص الكريم يعالج نفوس قوم فزعوا من فرض الجهاد خشية الموت فطلبوا التأخر في فرضه ومنحهم فسحة من الوقت ؛ فكان هذا النّص الكريم مفيداً أن " هذا التأخر الذي سألوه لافائدة فيه ؛ لأنه لامنجى من الموت سواء أكان بقتل أم بغيره ؟ ، فلا فائدة في خور الطبع وحب الحياة

---

(١) انظر : المفصّل : ٤١/٧ ، والشرط في القرآن : ٢٧ ، والبرهان : ٤٦٠/٢ .

(٢) انظر : الشرط في القرآن : ٢٨ .

(٣) النساء : ٧٨ ، ٧٩ .

(٤) والآية التي قبل ذلك هي قوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاةفلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولاتظلمون فتيلا** ﴾ النساء : ٧٧ . وانظر : ٣٢٠ – ٣٢٨ .

.. ويحتمل أن يكون إخباراً من الله مستأنفاً ، بأنّه لاينجو من الموت أحد ..[(١)].

ولما كان الغرض تصحيح العقيدة في شأن الموت مكاناً وزمانا جيء بـ " أينما " التي هي لتعميم الأمكنة واستغراقها [(٢)]. ودخلت عليها " ما " لزيادة تأكيد معناها [(٣)]، فكأنه قيل : في أي مكان تكونون فيه أدرككم الموت [(٤)]. وإذا وقع الموت عليهم في أمكنتهم أيّاً كانت فإن الأزمنة تبع لذلك ؛ فحصّلت " أينما " المكان والزمان ؛ لتلازمهما في شأن الموت وعدم التفريق بينهما .

وفي إيراد فعل الكينونة وجعله فعلاً للشرط في هذا المقام إشعار باستغراق كينونتهم وأجناسهم وكبارهم وصغارهم حتى الأجنة في بطون إمهاتها ؛ لأنها موضع كينونتها ؛ فإذا دنت آجالها قضى عليها الموت ، وفي ذلك من غرس الإيمان بالقضاء والقدر في شأن الإنسان بما لامزيد عليه ، ومن ثماره الإنضواء تحت ألوية الجهاد واقتحام المعامع والصعاب وعدم التردّد ؛ لأن الآجال محسومة مكتوبة ؛ فإذا دنت سلّت روح صاحبها ولو كان على سريره نائما ، ولكن شتان مابين الميتين .

وفي التعبير بالإدراك وجعله جواباً للشرط " إشعار بأن القوم لشدة تباعدهم عن أسباب الموت وقرب وقت حلوله إليهم بممر الأنفاس والآنات كأنهم في الهرب منه وهو مجد في طلبهم لايفتر نفساً واحدا في التوجه إليهم "[(٥)]. كما أن اختيار فعل الإدراك دون غيره إظهار لمزيد فزعهم من الموت وفرارهم منه ؛ فلم يُقَل : أينما تكونوا تموتوا .. بل عبّر بالإدراك المفزع ، وجعله فعلاً مضارعاً يطارد صاحبه في الحال أو الاستقبال بحيث لايكاد يهنأ بعيش أو راحة ، ثم أسند هذا الفعل إلى معهود في أذهانهم وهو الموت الذي منه فرّوا فلم يزدهم خوفهم إلا فزعاً وهلعاً ؛ وكلّ ذلك من ضعف الإيمان واليقين ، وقلّة الرغبة فيما عند الله تعالى ، والزهد في الآخرة ، والركون إلى الدنيا ؛ فكان الجزاء أن خسروهما .

---

(١) البحر المحيط : ٢٩٩/٣ .
(٢) انظر : الطراز : ٣/٣ ، والتحرير : ١٢٨/٥ .
(٣) انظر : الفتوحات الإلهية : ٤٠٢/١ .
(٤) انظر : البحر : ٢٩٩/٣ .
(٥) روح المعاني : ٨٧/٥ .

وقوله [ولو كنتم في بروج مشيدّة] قال عنها أبو حيّان : " لو هنا بمعنى : إن، وجاءت لدفع توهّم النجاة من الموت بتقدير أن لو كانوا في بروج مشيدة ، ولإظهار استقصاء العموم في [أينما] " [١] .

فهذه الجملة الشرطية ضرب من الاحتراس لدفع التوهّم المتولّد من حرصهم البالغ على البقاء ومدافعة الموت ولو بالتحصّن ، "وجواب لو محذوف اعتماداً على دلالة ماقبله عليه ؛ أي لو كنتم في بروج مشيدة يدرككم الموت ، والجملة معطوفة على أخرى مثلها ؛ أي : لو لم تكونوا في بروج مشيدة ولو كنتم الخ ، وقد اطرد حذفها لدلالة المذكور عليها دلالة واضحة ؛ فإن الشيء إذا تحقق عند وجود المانع فلأن يتحقق عند عدمه أولى ، وعلى هذه النكتة يدور مافي لو الوصلية من التأكيد والمبالغة " [٢] .
والبروج : هي الحصون الرفيعة ، أو القصور المحصنة ، وتنكيرها للدلالة على النوعية[٣] بدليل وصفها بكونها [مشيّدة] أي ولو كنتم في نوع خاص من البروج تلك صفته . وشاد البناء وشيّده وأشاده رفعه ، وقد قرئ [مشِيدة] بكسر الشين وصفاً لها بفعل فاعلها مجازاً كما في قولهم قصيدة شاعرة ، والقصيدة لاتشعر وإنما الشاعر ناظمها [٤] .

وقوله [وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك] يقول الفخر في وجه نظم هذا المعنى وضمه إلى ماتقدم ؛ " اعلم أنه تعالى لما حكى عن المنافقين كونهم متثاقلين عن الجهاد خائفين من الموت غير راغبين في سعادة الآخرة حكى عنهم في هذه الآية خصلة أخرى قبيحة أقبح من الأولى " [٥] .
الحسنة هنا : النصر والغنيمة والخصب وشبه ذلك من المحبوبات ، والسيئة : الهزيمة والجوع والقحط وشبه ذلك من المكروهات [٦] ؛ فتنكيرهما يفيد العموم في أي حسنة مهما كانت من الحسنات ، وأي سيئة مهما كانت من السيئات ، وهذا مايقتضيه السّياق .

---

(١) البحر : ٢٩٩/٣ .
(٢) تفسير أبي السعود : ٢٠٤/٢ - ٢٠٥ .
(٣) انظر : البلاغة فنونها وأفنانها : ٢٥٥/١ .
(٤) انظر : تفسير أبي السعود : ٢٠٤/٢ . وانظر : البحر : ٣٠٠/٣ .
(٥) التفسير الكبير : ١٨٧/١٠ -١٨٨ .
(٦) انظر : التسهيل لعلوم التنزيل : ١٤٩/١ . وانظر : المفردات : ١١٨ . وانظر : ٧٠ .

والأصل في استعمال " إنْ " أنها تستعمل في المحتمل المشكوك فيه ، ولكنها استعملت في الجملتين السابقتين في مقام المجزوم به في حق أولئك المنافقين وذلك لنكتة ؛ وهي تبيين حالهم وكشفها إظهاراً للتناصف في الكلام[١] ؛ فحال هؤلاء إذا أصابهم خير نسبوه إلى الله ، وإذا أصابهم شر نسبوه إليك تشاؤما منك وتطيراً بك ويمن معك . وقد روي أن اليهود والمنافقين قالوا لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة : مازلنا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا مذ قدم علينا هذا الرجل وأصحابه[٢]. وبذلك تتفق طريقة هؤلاء مع أسلافهم المكذبين كاليهود مع موسى عليه السلام حيث قال تعالى عنهم : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ .. ﴾[٣]، ويلاحظ في هذه الآية الأخيرة أن [إذا] الشرطية استعملت في المعنى المحقق الوقوع في جانب الحسنة ، ولهذا كان فعل شرطها ماضياً وجوابه كذلك ، لكون الماضي أدل على الوقوع باعتبار لفظه بخلاف المضارع ، ولهذا جاءت الحسنة معرفة تعريف عهد ، حيث أريد مطلق الحسنة ، وأما السيئة فقد نكرت ؛ لأن المراد به نوع منها[٤]، وهي قليلة الوقوع بجانب كثرة الخيرات والحسنات التي ترادفت على بني إسرائيل ؛ ولذلك كان فعل [إنْ] وجوابها مضارعاً؛ لكونه محتمل الوقوع وليس مقطوعاً به ؛ مما يتّفق مع استعمال [إنْ] في المعاني المحتملة لا المقطوعة ؛ فتطابق اللفظ والمعنى في الاستعمال .

قوله [قل كلٌ من عند الله] الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وهو أمر تشريف له بأن يرد على من نسب السيئة إليه ، فهو إعلام من الله تعالى بأن السيئة والحسنة والخير والشر من عند الله أي بقضائه وقدره[٥] ؛ فالتنوين الواقع على [كلّ] تنوين عوض عن كلام محذوف دلّ عليه السياق المتقدم فكان إيجازا .

---

(١) ممن أشار إلى ذلك المعنى لإنْ الزركشي في البرهان : ٣٦١/٢ .

(٢) انظر : البحر : ٣٠٠/٣ .

(٣) تتمة الآية ﴿ .. ألا إنّما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لايعلمون ﴾ الأعراف : ١٣١ ، وقال تعالى عن قوم صالح : ﴿ قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون ﴾ النمل : ٤٧ .

(٤) انظر : البرهان في علوم القرآن : ٣٦٢/٢-٣٦٣ .

(٥) انظر : التسهيل لعلوم التنزيل : ١٤٩/١ .

والجواب المجمل المسوق إليهم هو في معنى ماقيل رداً على أسلافهم من قوم موسى عندما دُفعت مقالتهم بقولـه تعالى :﴿ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ ٠٠﴾ بأسلوب القصر على الله وحده دون سواه ؛ أي إنما سبب خيرهم وشرهم أو سبب إصابة السيئة ذنوبهم عند الله تعالى لاعند غيره حتى يسندوها إليه ويطيروا به [(١)]. وكذا قال صالح لقومه : [قال طائركم عند الله ٠٠] ؛ فكان الجواب واحدا ؛ لكون المجيب والفاعل واحدا .

وقوله [فما لهؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثا] يقول أبو حيّان في تحليل معنى الاستفهام : " هذا استفهام معناه التعجب من هذه المقالة ، وكيف يُنسب ماهو من عند الله لغير الله ؛ أي أن هؤلاء كانوا ينبغي لهم أن يكونوا ممن يتفهم الأشياء ويتوقفون عما يريدون أن يقولوا حتى يعرضوه على عقولهم ، وبالغ تعالى في قلة فهمهم وتعقلهم حتى نفى مقاربة الفقه ، ونفي المقاربة أبلغ من نفي الفعل ، وهذا النوع من الاستفهام يتضمن إنكار ما استفهم عن علته ، وأنه ينبغي أن يوجد مقابله ؛ فإذا قيل : مالك قائما ؟ فهو إنكار للقيام ومتضمن أن يوجد مقابله ٠٠" [(٢)]. ويقول القاسمي : "والجملة اعتراضية مسوقة لتعييرهم بالجهل وتقبيح حالهم والتعجب من كمال غباوتهم؛ إذ لو فقهوا شيئاً لعلموا مما يوعظون به أن الله هو القابض الباسط وأن النعمة منه تعالى بطريق التفضيل والإحسان ، والبلية بطريق العقوبة على ذنوب العباد" [(٣)].

ونظراً لتشاكل طبيعة هؤلاء المنافقين مع قوم موسى عليه السلام الذين تطيّروا به ، وكذلك قوم صالح ؛ فقد نسب الجميع إلى الجهل ؛ ولكن تفاوتت منازلهم فيه ؛ وذلك بحسب تفاوت أحوالهم في قبول الحق وردّه ؛ ولهذا اختلف التعبير عنهم في هذه القضيّة ؛ فالمنافقون مظهرون للإسلام مبطنون للكفر ؛ فلم ينف عنهم العلم ولكن نفي عنهم مقاربة الفقه ؛ والفرق بين العلم والفقه دقيق ؛ ذلك أن الفقه " هو التوصّل إلى علم غائب بعلم شاهد ؛ فهو أخصّ من العلم " [(٤)] ؛ فهم في ظاهر حالهم يعلمون

---

(١) انظر : تفسير أبي السعود : ٢/٢٠٥ .
(٢) البحر : ٣/٣٠٠ .
(٣) محاسن التأويل : ٤/١٤٠٤ .
(٤) المفردات : ٣٨٤ .

ولكنهم لايفقهون ، كما أنهم في ظاهر حالهم مسلمون ، ولكنهم في حقيقة أمرهم كافرون ؛ ولهذا فهم قريبون من الضلال بعيدون عن الفهم في حيرة مضطربون ٠ ولهذا فالحديث البليغ المنزل لإحقاق الحق وإبطال الباطل لايفقهونه فيكون تنكير [حديثاً] للتعظيم ، وقد يكون للإبهام والتعميم (١) ؛ أي لايفقهون أي حديث ما ؛ فيكونون هم والعجماوات سواء في عدم الفهم ٠

وأما قوم موسى عليه السلام فإن الذين تطيّروا به كفار أصلاً ظاهراً وباطناً ، ولذلك نفي العلم عن أكثرهم ابتداء ؛ فقيل عنهم : [ولكن أكثرهم لايعلمون] ، ومقتضى ذلك أن العلم ثابت لبقية منهم ؛ لكونهم لم يرضوا بتلك المقالة أو أنهم أسلموا فيما بعد ، أو أريد التعريض بجهلهم حتى يفكروا فيما قالوا فيرجع عقلاؤهم عن ذلك ؛ فكان ذلك من باب تأليفهم على الدين ٠

وأما قوم صالح عليه السلام فقد قيل عنهم بعد تطيرهم منه [٠٠ بل أنتم قوم تفتنون] وقد جاء في تأويل فتنتهم تلك بأنها اختبارهم بتعاقب السراء والضراء ، أو تعذيبهم ، أو أن الشيطان يفتنهم فيوسوس لهم بالطيرة (٢) ، وعلى المعنى الأخير يكون اتباعهم له ضرباً من الجهل والغواية ٠ فانظر كيف اجتمع أولئك الأقوام في أزمنة متفاوتة على الجهل بسبب ردّهم الهدى واتباعهم الهوى ٠

ثم قال تعالى : **﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾** وهذا تفصيل لما أجمل ، وإخبار من الله تعالى وقطع بأن الحسنة أيّاً كانت منه بفضله وكرمه ، والسيئة من الإنسان بذنوبه وهي من الله بالخلق والاختراع (٣) ، ويؤيد ذلك ماجاء في مصحف ابن مسعود [٠٠ فمن نفسك وإنما قضيتها عليك] وقرأ بها ابن عباس (٤) ٠ كما يؤيده قوله تعالى : **﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾** (٥) .

---

(١) انظر : حاشية الشيخ زادة : ٥٢/٢ ٠

(٢) انظر : تفسير أبي السعود : ٢٩٠/٦ ٠

(٣) انظر : البحر : ٣٠١/٣ ٠

والأولى أن تستبدل بلفظة : الاختراع لفظة : التقدير ، لأن الاختراع ليس من أسماء الله ولامن صفاته الثابتة له في الكتاب أو في صحيح السنة ، ومعلوم أن أسماء الله وصفاته توقيفية وليست اجتهادية ٠ والتقدير هو المناسب للمقام المذكور أعلاه ؛ فقد قال تعالى : **﴿ وخلق كلّ شيء فقدّره تقديرا ﴾** الفرقان : ٢ ٠

(٤) المصدر السابق : ٣٠١/٣ ٠

(٥) الشورى : ٣٠ ٠

ولما أريد العموم في كل الحسنات والسيئات جيء بما الشرطية التي تفيد العموم في كل الأشياء [١]. و " ما " هنا شرطية لاموصولية على الراجح ؛ لكون الشرطية أصلاً في الإبهام ، والموصولية محمولة عليها [٢].

والخطاب في [أصابك] عام لكل من يقف عليه ، لا للنبي صلى الله عليه وسلم، ويدخل فيه المذكورون دخولاً أوّليّاً [٣]، وإنما أجري على لسان النبي صلى الله عليه وسلم ثم سيق البيان من جهته عز وجل وذلك بطريق تلوين الخطاب ، وتوجيهه إلى كل واحد من الناس ، والالتفات الوارد في النص لمزيد الاعتناء بما جاء فيه والاهتمام برد مقالتهم الباطلة ، والإيذان بأن مضمونه مبني على حكمة دقيقة بالغة ، جديرة بأنْ يتولى بيانها علاّم الغيوب [٤].

وتوجيه الخطاب إلى كل واحد منهم فرداً فرداً دون مجموعهم كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَاأَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ .. ﴾ إشعار بأنّ كل واحد منهم مستقل بحسناته وسيئاته عن الآخر ، وأن كل واحد يجري عليه قلم القضاء والقدر بمعزل عن غيره ؛ فما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وإن كان الذنب العظيم وتفشيه والسكوت عنه يعم الجميع كما قال تعالى : ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّاتُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [٥]؛ لأن عدم التناهي عن المعاصي يجعل الراضي بها كالفاعل لها ؛ قال تعالى : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَايَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَاكَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [٦] فكان عصيانهم واعتداؤهم على الحرمات وعدم نهي بعضهم بعضا عن المنكرات موجباً للعنهم وذمّ فعلهم هم ومن شاكلهم ؛ لأنّ العبرة بعموم النصوص لابخصوص أسبابها.

---

(١) انظر : الطراز : ٣/٣٠٠ .

(٢) انظر : الدر المصون : ٤/٤٧ ، وانظر : التبيان في إعراب القرآن للعكبري : ١/٣٧٤-٣٧٥ .

(٣) انظر : محاسن التأويل : ١٤٠٦ .

(٤) انظر : تفسير أبي السعود : ٢/٢٠٦ .

(٥) الأنفال : ٢٥ .

(٦) المائدة : ٧٨-٧٩ .

وهل ثَمَّتَ فرق بين أن يقول قائل : هذا من عند الله ، وبين قوله: هذا من الله ؟٠

لقد جاء في " روح المعاني " مايفيد التفريق بين الأسلوبين ؛ ذلك " أنه فرق بين قولك : هذا من عند الله تعالى ، وقولك : هذا من الله تعالى ؛ بأن من عند الله أعم من حيث إنه يقال فيما كان برضاه سبحانه وبسخطه ، وفيما يحصل وقد أمر به ونهى عنه ، ولايقال : من الله إلاّ فيم كان برضاه وبأمره ، وبهذا النظر قال عمر رضي الله تعالى عنه : " إن أصبت فمن الله وإن أخطأت فمن الشيطان " ٠ فتدبّر "(١)٠

وعلى ذلك جاء التعبير الكريم ، فأجمل الحسنات والسيئات وأخبر بأنها من عند الله ؛ بإظهار الظرف [عند] المفيد التقدير والتأثير ، وعند التفصيل نُسب إلى ذي الفضل فضله ، فنسبت الحسنات والخيرات إلى الله تعالى فقال : [ما أصابك من حسنة فمن الله] مباشرة من غير ظرف ؛ لكونه تعالى هو الذي باشرها وتفضّل بها ، في حين نسبت السيئات إلى المخلوق مباشرة من غير ظرف أيضاً لكونه هو الذي باشر سببها وفعلها فقيل [وما أصابك من سيئة فمن نفسك] ؛ ولكن المقدّر لها والقاضي بها هو الله تعالى لقوله :﴿ **كلٌ من عند الله** ﴾ ؛ وإنّما لم تنسب هنا إلى مقدّرها تعليماً للأنس الأدب مع الله تعالى ؛ كما تأدب مؤمنو الجن معه عز وجل ؛ فنسبوا الشرّ إلى مجهول فقال تعالى حكاية عنهم ﴿ **وإنّا لاندري أشرّ أريد بمن في الأرض**﴾ فأُسند فعل إرادة الشر إلى مجهول تأدباً مع الله تعالى وتوقيراً لمقامه ، في حين أُسند فعل إرادة الخير إلى معلوم ظاهر وهو الله عز وجل ، ذكراً وتصريحاً ؛ في قوله [أم أراد بهم ربهم رشدا] ٠ تنبيها إلى التأسي بهم في هذه المقامات ٠ يقول ابن جزي : " نسبة الحسنة إلى الله والسيئة إلى العبد تأدباً مع الله في الكلام ، وإن كان كل شيء منه في الحقيقة ، وذلك كقوله عليه الصلاة والسلام : " والخير كله بيديك والشر ليس إليك " ٠ وأيضا فنسبة السيئة إلى العبد لأنها بسبب ذنوبه ؛ لقوله [وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم] فهي من العبد بتسببه فيها ، ومن الله بالخلقة والاختراع "(٣)٠

---

(١) روح المعاني : ٩٠/٥ ٠

(٢) الجن : ١٠ ٠

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل : ١٤٩/١ ٠

[وما أصابك من سيئة فمن نفسك] فلم يؤت فيه بكلمة [عند] إيماءً إلى أن ابتداء مجيء الحسنة من الله ، ومجيء السيئة من نفس المخاطب ابتداء المتسبّب لسبب الفعل ، وليس ابتداء المؤثّر في الأثر "(١) . وجاء في " الفتوحات الإلهية "(٢): "وأما إضافة الأشياء كلها إلى الله تعالى في قوله تعالى : ﴿ كل من عند الله ﴾ فعلى الحقيقة ؛ لأن الله تعالى هو خالقها وموجدها ، وأما إضافة السيئة إلى فعل العبد في قوله [وما أصابك من سيئة فمن نفسك] فعلى سبيل المجاز ؛ تقديره : وما أصابك من سيئة فمن الله بسبب نفسك عقوبة لك " . وبذلك تلتئم النصوص الواردة في هذا المعنى ويندفع ماقد يظهر فيها من تعارض ، وتتجلى روعة النظم القرآني في التعبير عن تلك المعاني الدقيقة في مسائل القضاء والقدر ، وتستبين سبيل المؤمنين في السّراء والضراء ؛ فيحمدون ربّهم على الأولى ، ويراجعون أنفسهم في الثانية ، ويردّون التطير والتشاؤم .

وقوله [وأرسلناك للناس رسولا] معطوف على ماتقدم مسوق لبيان جلالة منصبه عليه الصلاة والسلام ومكانته عند الله عز وجل بعد بيان بطلان زعمهم الفاسد في حقه عليه الصلاة والسلام بناء على جهلهم بشأنه الجليل(٣)، وفي الالتفات بنون العظمة وتوجيه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم من خلال كاف الخطاب – إيناس له عليه الصلاة والسلام وإعلاء لقدره وبيان لمنزلة رسالته عند الله عز وجل .

وفي التعبير إبطال لتلك المقالة السابقة وتبكيت لأصحابها ؛ " أي : فمن أين يتصوّر لك الشؤم وقد أرسلت داعياً العمومَ إلى الخيرات ؟ ؛ فأنت منشأ كل خير ورحمة "(٤).

والألف واللام في [الناس] للاستغراق(٥) ؛ فيندرج فيه عمومهم .

و [رسولا] حال من [أرسلناك] فهي حال مؤكّدة : " أي بعثناك مبلّغاً لامؤثّراً في الحوادث ولا أمارة على وقوع الحوادث السيئة "(٦) فأفادت التأكيد وزيادة .

(١) التحرير : ١٣٤/٥ .
(٢) ٤٠٣/١ .
(٣) انظر : تفسير أبي السعود : ٢٠٦/٢ .
(٤) محاسن التأويل : ١٤٠٦ .
(٥) انظر : التحرير : ١٣٤/٥ .
(٦) التحرير : ١٣٤/٥ . وانظر : التبيان في إعراب القرآن : ٣٧٥/١ .

قوله [وكفى بالله شهيدا] فيه التفات من التكلم إلى الغيبة ؛ وذلك لغرض تربية المهابة الإيمانية ، وتقوية الشهادة الربّانية بإظهار لفظ الجلالة ، والجملة اعتراض تذييلي مقرر لما سبق ؛ أي : وإذا ثبتت رسالتك فاليُمن في طاعتك والشؤم في معصيتك [١].

وفي الجملة حذف دلّ عليه ماتقدم ؛ أي وكفى بالله شهيداً على رسالتك ؛ بنصب المعجزات التي من جملتها هذا النص الناطق والوحي الصادق [٢].

وقد يدخل شرط على شرط فيتقوّى عمل الأوّل بالثاني ويزيد من معنى الشرط في الجملة [٣] ؛ وذلك كقوله تعالى في الكفار الذين ينقضون عهدهم في كلّ مرة [٤] ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ [٥].

ومناسبة الآية الأولى من الآيتين المثبتتين هي الشروع في تفصيل أحكامهم العملية بعد تفصيل أحوالهم وصفاتهم السابقة ؛ فالفاء رتّبت مابعدها على ماقبلها [٦].

وأصل [إمّا] ، [إنْ] الشرطية مدغمة في [ما] وهي أبلغ في الشرط من [إنْ] ولذلك تُتلقى بنون التوكيد المبني عليها المضارع ؛ كما في الآية [٧]، يقول ابن عاشور : " وجاء الشرط بحرف [إنْ] مزيدة بعدها [ما] لإفادة تأكيد وقوع الشرط ؛ وبذلك تنسلخ [إنْ] عن الإشعار بعدم الجزم بوقوع الشرط ، وزيد التأكيد

---

(١) انظر : تفسير أبي السعود : ٢٠٦/٢ ، وانظر : محاسن التأويل : ١٤٠٦ .

(٢) انظر : تفسير أبي السعود : ٢٠٦/٢ .

(٣) انظر : البرهان في علوم القرآن : ٣٦٠/٢ .

(٤) هم بنو قريظة ، ويضم إليهم ابن عاشور بعض قبائل المشركين ؛ انظر : غُرَر التبيان : ٢٧٠ ، والتحرير: ٤٨/١٠ .

(٥) الأنفال : ٥٧ ، ٥٨ .

(٦) انظر : تفسير أبي السعود : ٣٠/٤ . وماقبلها هو قوله تعالى ﴿ **إنّ شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لايؤمنون الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لايتقون** ﴾ الأنفال : ٥٥ - ٥٦ .

(٧) انظر : البرهان في علوم القرآن : ٣٦٠/٢ .

باجتلاب نون التوكيد "(١) . وابن عطية يرى أنّ دخول نون التوكيد على فعل الشرط للتوكيد وللتفريق بينها وبين إمّا التفصيلية(٢) .

وقوله [تثقفنهم] من الثقف ؛ وأصله : الحذق في إدراك الشيء علماً كان أم عملا ، فهو يتضمّن معنى الغلبة ؛ ولذلك استعمل فيها (٣) . أي : إن ظفرت بهم وصادفتهم في أيّ حرب من الحروب . وفي التعبير بالثقف وجعله فعلاً للشرط إشعار بضرورة علوّ كعب المسلمين في الحرب وكونهم الطرف الأعلى الحاذق لفنونها حتى يمسكوا بزمام أمورها فتكون العقبى لهم .

وقوله [فشرّد بهم من خلفهم] جواب الشرط ، أي : " اجعلهم نكالاً لمن يعرض لك بعدهم "(٤)، أي عبرة لكل معتبر .

وفي جعل الجواب فعل أمر وكونه بمادة التشريد المفيدة للتطريد والتفريق – كل ذلك يضاعف من صور البطش بهم ، ويجعل المجاهدين يتعبّدون الله بذلك ويتفنّنون فيه .

يقول سيّد قطب في ظلال هذا الشرط وجوابه : " وإنه لتعبير عجيب يرسم صورة للأخذ المفزع ، والهول المرعب الذي يكفي السماع به للهرب والشرود ؛ فما بال من يحل به هذا العذاب الرعيب ؟ إنها الضربة المروّعة يأمر الله تعالى رسوله – صلى الله عليه وسلم – أن يأخذ بها هؤلاء الذين مردوا على نقض العهد ، وانطلقوا من ضوابط الإنسان ؛ ليؤمن المعسكر الإسلامي أولاً ، وليدمّر هيبة الخارجين عليه أخيراً، وليمنع كائناً من كان أن يجرؤ على التفكير في الوقوف في وجه المد الإسلامي من قريب أو من بعيد "(٥) .

ويقول أبو حيان عن مناسبة جواب الشرط لفعله : " ولما كان التشريد وهو التطريد والإبعاد ناشئاً عن قتل من ظفر به في الحرب من المعاهدين الناقضين جعل جواباً للشرط ؛ إذ هو يتسبّب عن الجواب "(٦) .

---

(١) التحرير : ١٠/٤٩ .
(٢) انظر : المحرر الوجيز : ٨/٩٤ .
(٣) انظر : تفسير القرآن وإعرابه وبيانه : ٥/٢٦٦ .
(٤) المفردات : ٢٥٨ .
(٥) في ظلال القرآن : ٣/١٥٤٢ .
(٦) البحر : ٤/٥٠٩ .

وقد قُدّم الجار والمجرور [بهم] على المفعول به [مَن خلفهم] ؛ لكون أولئك وأحوالهم سبباً في إيقاع الرعب في نفوس بقية من على شاكلتهم في الكفر ، فالتقديم جار مجرى تقديم السبّب على المسبّب والمؤثّر على الأثر ؛ فالباء سببيّة .

يقول ابن عاشور : " وجعلت ذوات المتحدَّث عنهم سبب التشريد باعتبارها في حال التلبّس بالهزيمة والنكال ؛ فهو من إناطة الأحكام بالذوات والمراد أحوال الذوات " (١). فإذا تسامع الناس بأحوال وقيعتهم وتناقلوا أهوال ما ألَمَّ بهم انزجروا حتى لايحلّ بساحتهم مثل ذلك ، وهذه الآية بما تضمّنت من ذلك المعنى البليغ الواقع في الشرط والجزاء تمثّل نتيجتها صورة من صور الرعب التي نصر بها النبي عليه الصلاة والسلام وأعطيتها أمته خاصة لهم من دون أمم الأرض ، وهي التي ورد فيها الحديث الصحيح (٢).

وقوله [لعلهم يذكرون] حرف الترجي داخل على ضمير المشرَّدين ، أي : ما أمرتَ بما أمرت إلا رجاء أن يتعظوا ، والعاقل من وعظ بغيره ، وفيه تعليل وتحصيل لعلّة الأمر المتقدم ؛ فإن التنكيل المترتب عليه تشريد البقية ؛ إنما أمر به بسبب الكفر المنضمّ إليه نقض العهد والخيانة ، ولهذا استحق الفاعلون لذلك هذه العقوبة جزاء لهم لدفع شرّهم عن المؤمنين ، ورحمة بغيرهم ؛ لأنّه يصدّهم ذلك الفعل عن التفكير في الخيانة بَلْهَ الإقدامَ عليها ، وإلاّ فهم الضحية الأخرى ، فهذه الشدّة على الخائنين من الكافرين لاتنافي كون الرسول صلى الله عليه وسلم أرسل رحمة للعالمين ؛ لأن المراد أنه رحمة لعموم العالمين ممن أسلم ودان لله ، وإن كان ذلك لايخلو من شدّة على من يستحق الشدّة منهم ، وهم قلّة (٣)، وربّما صحت الأجسام بالعلل ، وكان في كيّ الجسم حياة لصاحبه .

---

(١) التحرير : ١٠/٥٠ .

(٢) انظر : ٣٠٠ .

(٣) انظر : التحرير : ١٠/٥٠ . وقد ذكر القرطبي أن قريظة والنظير نقضوا العهد فأعانوا مشركي مكة بالسلاح ثم اعتذروا فقالوا : نسينا ؛ فعاهدهم ثانية فنقضوا يوم الخندق ، فحوصروا ثم نزلوا على حكم سعد بن معاذ ؛ فحكم بأن تقتل المقاتلة وتسبى الذرية . فقتلوا بالمدينة وكانوا أكثر من ثمانمائة رجل وهذا من العمل بالآية . انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٨/٣٠ ، والتحرير : ١٠/٥٠ .

ولقد كانت الغزوات والفتوح من قبل المسلمين من أسباب دخول الناس في دين الله أفواجا . وهذا من الرحمة وهذا المعنى مشابه لقوله تعالى :﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(١) ؛ فإن حياة السواد الأعظم من الناس واستتباب أمنهم يكمن في قتل القتلة حتى يحيا الجميع ويطمئن من على وجه الأرض ، ولايدرك ذلك ويعلمه إلا أرباب الألباب والعقول الراجحة ؛ ولذلك خوطبوا وجعلت التقوى ثمرة تنال بتطبيق ذلك الحدّ الشرعي ذي الأثر العظيم في حياة الأمة في الدنيا والآخرة .

وقوله تعالى :﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ .. الآية ﴾ ؛ مما يبدو من ظاهر النص القرآني الكريم أن هذه الآية استئناف من الله عز وجل على سبيل إخبار نبيه وإرشاده إلى الأسلوب الأمثل والطريقة الراشدة مع من يخاف منهم خيانة من الكفار المعاهدين إلى أبد الآبدين. وهذا ترجيح ابن عطية ؛ فعنده أن حكم بني قريظة قد انتهى بنهاية الآية السابقة ، وخيانتهم لم تكن مخوفة وإنما هي ظاهرة مشتهرة ؛ فهي ليست فيهم وإنما فيما يستقبل حاله من سائر الناس(٢). وقد انتصر لذلك أبو حيان مستدلاً بتنكير [قوم] ولو كانت في بني قريظة لقال : وإما تخافن منهم ، لأن الآية السابقة فيهم(٣).

ومهما يكن من أمر فإن شرط منابذة عهد المعاهدين من الكفار وإعلامهم بطرحه وإلقائه مرهون بظهور بوادر الشرّ منهم وتحسّس مظاهر الغدر عندهم ، وأمارات ذلك في أقوالهم أو في مناصرة أعداء المؤمنين ، أو تحريك أسلحتهم نحو ثغور المسلمين أو ماضارع ذلك من مظاهر الخيانة والعدوان . وفعل الشرط المؤكّد منعقد على خوف الخيانة ومنوط بها ، وأما تيقنها فليس من هذا الباب بل يرمون من قوس واحدة إلاّ أن يسلموا أو يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون ؛ كصنيع النبي عليه الصلاة

---

(١) البقرة : ١٧٩ .

(٢) انظر : المحرر الوجيز : ٩٥/٨ .

(٣) انظر : البحر : ٥٠٩/٤ . وقد جزم بعموم الآية ابن عاشور حيث قال : " عطف حكم عام لمعاملة جميع الأقوام الخائنين بعد الحكم الخاص بقوم معينين الذين تلوح منهم بوارق الغدر والخيانة " . التحرير : ٥١/١٠ .

والسلام مع كفار مكة لما ظاهروا بني بكر على قتل خزاعة الذين هم في عهد النبي وحلفه ، فلم ينابذهم بل زحف إليهم بجيشه فكان الفتح وانكشف الغطاء[١] .

وفي قوله [فانبذ إليهم] مجازاة للشرط وقد حذف فيه المفعول به ، أي : انبذ إليهم عهدهم . وقد حذف إيجازاً وإشعاراً بأن القوم لم يعد لهم عهد بذلك الفعل ؛ وأضحى عهدهم منبوذاً حتى في الذكر والكلام ؛ ولم يعد له قيمة الوفاء والاحترام . وفي التعبير من قوة النظم وشحن النفوس على القوم الخائنين وإعداد العدّة لمجازاتهم مالا يُعلى عليه .

والنبذ هو الرمي والطرح ؛ وفيه استعارة مكنية تخيلية ؛ فقد شُبه العهد بالشيء الذي يرمى لعدم الرغبة فيه ؛ وطوى ذكر المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو النبذ ، وأثبته له تخييلا[٢] .

يقول ابن عاشور في بيان الحكمة الشرعية في ترتيب جواب الشرط على فعله ؛ " وإنما رتّب نبذ العهد على خوف الخيانة دون وقوعها ؛ لأن شؤون المعاملات السياسية والحربية تجري على حسب الظنون ومخائل الأحوال ولاينتظر تحقّق وقوع الأمر المظنون ؛ لأنه إذا تريّث وُلاة الأمور في ذلك يكونون قد عرضوا الأمة للخطر أو للتورط في غفلة وضياع مصلحة ، ولاتُدار سياسة الأمة بما يدار به القضاء في الحقوق ؛ لأن الحقوق إذا فاتت كانت بليّتها على واحد ، وأمكن تدارك فائتها ، ومصالح الأمة إذا فاتت تمكّن منها عدوّها ؛ فلذلك علّق نبذ العهد بتوقّع خيانة المعاهدين من الأعداء ، ومن أمثال العرب " خذ اللص قبل يَأْخُذَكَ " أي وقد علمت أنه لصّ "[٣] . وهو استنباط دقيق حسن المأخذ .

وقوله [على سواء] " حال ، أي مستوياً أنت وهم في العلم بنقض العهد ، بأن تعلمهم به لئلا يتهموك بالغدر "[٤] . ووصف النبذ بأنه على سواء تمثيل بحال الماشي على طريق جادة لا التواء فيها ، فلا مخاتلة لصاحبها ، كما يقال في ضد ذلك : هو

---

(١) انظر : السيرة النبوية لابن هشام : ٣ - ٣٨٩/٤ - ٣٩٥ .
(٢) انظر : روح المعاني : ٢٣/١٠ ، حاشية الشهاب : ٢٨٦/٤ ، حاشية الصاوي : ١٢٢/٢ .
(٣) التحرير : ٥٢/١٠ .
(٤) تفسير الجلالين : ١٦٢/١ .

يتبع بنيات الطريق ، أي يراوغ ويخاتل [١] .

ولكن ما الحكمة في إعلام المعاهدين بنقض عهدهم إذا بدر مايوجب ذلك منهم ؟ أليست الحرب خَدْعة ؟ فلم لايُبْغتون ويُغْدرون ماداموا أعداء ؟ .

يقول القرطبي : " قال علماؤنا رحمة الله عليهم : إنما كان الغدر في حق الإمام أعظم وأفحش منه في غيره لما في ذلك من المفسدة ؛ فإنهم إذا غدروا وعُلم ذلك منهم ولم يَنْبِذوا بالعهد لم يأمنهم العدوّ على عهد ولاصلح ؛ فتشتدّ شوكته ويعظم ضرره ، ويكون ذلك منفّراً عن الدخول في الدين ، وموجباً لذم أئمة المسلمين ، فأما إذا لم يكن للعدوّ عهد فينبغي أن يتحيّل عليه بكل حيلة ، وتدار عليه كل خديعة ؛ وعليه يحمل قوله صلى الله عليه وسلم : " الحرب خَدْعة " ، وقد اختلف العلماء : هل يجاهد مع الإمام الغادر ؟ على قولين : فذهب أكثرهم أنه لايقاتل معه ، بخلاف الخائن والفاسق ، وذهب بعضهم إلى الجهاد معه ، والقولان في مذهبنا " [٢] .

وقوله تعالى :﴿ إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ تعليل للأمر بالنبذ على طريقة الاستئناف ؛ كأنه قيل : لم أمرتنا بذلك ونهيتنا عن المحاربة قبل نبذ العهد ؛ فأجيب بذلك ، على أنه يحتمل أن تكون هذه الفاصلة طعناً على الخائنين الذين عاهدهم الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ كأنه قيل : وإما تعلمن من وقم خيانة فانبذ إليهم ثم قاتلهم ؛ إن الله لايحب الخائنين وهم من جملتهم لما علمت من حالهم [٣] .

ويلزم من نفي محبة الخائنين إثبات مقتضاها ولازمها وهو البغض [٤] إثباتاً لائقاً بجلال الله تعالى وعظمته .

وفي الآية محسّن بديعي وهو ردّ العجز على الصدر ؛ وفي ذلك من ذم الخيانة والتنفير منها مالا يخفى ؛ فقد ذكرت الخيانة مرتين : الأولى في كونها صفة ذم علّق عليها فعل الشرط ووقوعه ، والثانية في سياق ذمّ الله تعالى الخائنين ونفي محبته لهم ولازمه إثبات البغض في حقهم وتسليطه عليهم تنفيراً من أفعالهم ، وزجراً لأمثالهم .

---

(١) انظر : التحرير : ٥٢/١٠ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن : ٣٣/٨ .
(٣) انظر : روح البيان : ٣٦٣/١ .
(٤) انظر : روح المعاني : ٢٣/١٠ .

هـذا وقد ذكر القرطبي عن النحاس أنّه قال عن معنى ماتضمّنته هذه الآية – : " هذا من معجز ماجاء في القرآن مما لايوجد في الكلام مثله على اختصاره وكثرة معانيه "[١].

وقد تضمنت الآية فنّاً يقال له : " فن الإشارة " ، وبعض البلاغيين يدرج هذا اللون في باب الإيجاز ؛ لأنه متفرع عنه ، إلاّ أن قدامة بن جعفر جعله من ائتلاف اللفظ مع المعنى ؛ وقال عنه : هو أن يكون اللفظ القليل مشتملاً على معان كثيرة بإيماء أو لمحة تدل عليها [٢] . والفرق بين الإيجاز والإشارة ؛ أن الإيجاز يكون بألفاظ المعنى الموضوعة له ، وأما الإشارة فألفاظها لمحة دالة ؛ فدلالة اللفظ على الإيجاز دلالة مطابقة ، ودلالة اللفظ في الإشارة إما دلالة تضمين أو دلالة التزام ؛ فقوله تعالى : ﴿ فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾ تشير إلى الأمر بالمقاتلة بنبذ العهد ونقضه كما نبذوا عهدك ونقضوه ، مع مايدل عليه الأمر بالمساواة في الفعل من العدل، ويضاف إلى ذلك ماتشير إليه كلمة [خيانة] من وجود معاهدة سابقة كانت مبرمة بين الفريقين[٣].

قال الله عز وجل :﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾[٤].

الواو الواقعة في أول الآية يجوز كونها عاطفة عطفت مدخولها على جملة [فإما تثقفنّهم في الحرب] أو على جملة [ولاتحسبنّ الذين كفروا سبقوا إنّهم لايعجزون] فتكون فائدتها البلاغية الاحتراس ؛ لأن الآية المعطوف عليها تفيد توهيناً لشأن المشركين ؛ فتعقب ذلك بالأمر بالاستعداد لهم ؛ لئلاّ يحسب المسلمون أن المشركين قد صاروا في مكنتهم على الدوام . ويلزم من ذلك الاحتراس تقرير مبدأ إعداد العدّة للعدوّ ؛ فهو سبب جعل الله إياهم لايعجزون الله ورسوله[٥] ؛ لأن الله تعالى قد سنّ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٣٢/٨ .
(٢) انظر في تعريف الإشارة وتطور مدلولها : معجم المصطلحات البلاغية وتطورها : ٢٠٤/١-٢٠٧ .
(٣) انظر : إعراب القرآن وبيانه : ٣٠/٤ .
(٤) الأنفال : ٦٠ .
(٥) انظر : التحرير : ٥٤/١٠ – ٥٥ .

سننا في الكون وفي الناس من أخذ بها كان ظافرا ، ومن قصّر مع مكنته وقدرته فقد يصبح خاسرا وإن كان وليّاً صالحا .

وعلى تقدير الاستئناف فهو تنبيه للمؤمنين كافة في ذلك الزمان وفي بقية الأزمان بعد أن اتفق للمؤمنين في بدر أن قصدوا الكفار من غير تكميل آلة للحرب ولاعدّة ، وخشية من تكالب قوى الشر وطمعها في المسلمين لضعفهم وقلة عتادهم – لذلك أمروا بما أمرو به (١) ...

والإعداد هو تهيئة الشيء للمستقبل (٢)، وفيه معنى الإرصاد والحشد . وتعليق ذلك بالاستطاعة تلطّف منه تعالى بالمؤمنين (٣).

والخطاب في الأمر للمؤمنين عامة ولولاة الأمر منهم خاصة ؛ لأن مايراد من الجماعة إنما يقوم بتنفيذه والأمر به ولاة الأمور ، الذين هم وكلاء الأمة على مصالحها (٤).

والضمير في [لهم] عائد على الكفار المتقدمي الذكر – في الآيات السابقة – وهم المأمور بحربهم في ذلك الزمان ، ويعم الكفار في كل زمان . واللام تعليلية ؛ فتكون علّة الأمر بالإعداد من أجلهم .

و [ما] في قوله [ما استطعتم] إما موصولية بمعنى الذي والفعل بعدها صلتها ، أو نكرة مبهمة موصوفة ، والفعل بعدها صفتها ، وتكون [من] مبنية للإبهام الوارد في [ما] (٥). والاستطاعة بذل الطاقة والقدرة الممكنة .

وتنكير [قوّة] غرضه التعميم ؛ فهي في جنس كل مايتقوى به على قتال العدو ، سواء أكان رجالاً أم عتاداً أم رأيا سديدا . وما الرمي الوارد في صحيح مسلم [ألا إن القوة الرمي] (٦) إلا مظهر من مظاهر القوة بل هو أنكاها ، على أن يكون مطلق الرمي لا الرمي بالقسي والرماح ، بل بنحو القصف والصاروخ كما هو المعهود من الرمي في هذا العصر .

---

(١) انظر : البحر : ٥١١/٤ .

(٢) انظر : لسان العرب : مادة : عدد .

(٣) انظر : البحر : ٥١١/٤ .

(٤) انظر : التحرير : ٥٥/١٠ .

(٥) انظر : تفسير القرآن وإعرابه وبيانه : ٢٧١/٥ .

(٦) صحيح مسلم بشرح النووي : ٦٤/١٣ ، باب الرمي والحثّ عليه وذمّ من علمه ثم نسيه . وانظر : تخريجات لهذا الحديث في النكت والعيون : ٣٢٩/٢ الهامش .

والأمر المتقدم على ظاهره وإطلاقه ؛ فهو واجب وجوباً كفائياً ؛ يلحق الأمة المسلمة إثم - كلّ بحسبه وموقعه - إذا قصّرت في إنفاذ ذلك الأمر والقيام به على الوجه الشرعي اللائق بكل زمان ومكان ؛ فالقوة في هذا العصر غيرها في ماتقدم ، وقوة البحار تختلف عن قوة القفار ، وهذه وتلك تباين قوة الأجواء والفضاء ، وقوة الإعلام بوسائله المتعددة لاينزل قدراً عن أنواع الأسلحة في الفتك بالنفوس وهكذا .

يقول سيد قطب : " فالاستعداد بما في الطوق فريضة تصاحب فريضة الجهاد ؛ والنص يأمر بإعداد القوة على اختلاف صنوفها وألوانها وأسبابها " .

وعن تخصيص [رباط الخيل] بالذكر يقول " سيد " : " ويخص [رباط الخيل] لأنه الأداة التي كانت بارزة عند من كان يخاطبهم بهذا القرآن أول مرة .. ولو أمرهم بإعداد أسباب لايعرفونها في ذلك الحين مما سيجدّ مع الزمن لخاطبهم بمجهولات محيّرة - تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيرا - والمهم هو عموم التوجيه "[١]. ولذلك سدّ تنكير قوة مسدّ ماكان مجهولاً وقت نزول القرآن وماأصبح معلوماً في هذه الأزمان وماسيجد في الأزمان اللاحقة . وهذا من أسرار التنزيل .

وغني عن الذكر أن عطف [رباط الخيل] على [قوة] من عطف الخاص على العام ؛ وذلك للاهتمام بذلك الخاص[٢] ، ولكونه أصلاً في القوّة في ذلك الزمان ومظهراً من أعظم مظاهرها ، ولذلك أقسم الله تعالى بها في قوله : ﴿ **وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً** ﴾[٣] تكريماً لها وتنويهاً بشأنها . والرباط صيغة مفاعلة أتي بها هنا للمبالغة لتدل على قصد الكثرة من ربط الخيل انتظاراً للغزو عليها[٤].

وموقع جملة [ترهبون به] أنها منصوبة على الحالية من فاعل [أعدوا] أي : أعدوا مرهبين به[٥]. وهذه هي علّة ماجاء في حيّز الأمر من إعداد القوّة ورباط الخيل؛ وما أجمل ماقال ابن سعدي في ذلك ونصّه :- " وهذه العلة موجودة فيها - أي رباط

---

(١) في ظلال القرآن : ١٥٤٣/٣ .
(٢) انظر : التحرير : ٥٥/١٠ .
(٣) العاديات : ١ .
(٤) انظر : التحرير : ٥٥/١٠ .
(٥) انظر : البحر : ٥١٢/٤ ، وتفسير أبي السعود : ٣٢/٤ .

الخيـل - فـي ذلك الزمـان ، وهي إرهـاب الأعداء . والحكـم يدور مع علّتـه ؛ فـإذا كان شيء موجوداً أكثر إرهاباً منها كالسيارات البرية والهوائية المعدّة للقتال التي تكـون النكاية فيها أشدّ كانت مأموراً بالاستعداد بها ، والسعي لتحصيلها ، حتى إنها إذا لم توجد إلاّ بتعلم الصناعة وجب ذلـك ؛ لأن " مـالا يتمّ الواجـب إلاّ بـه فـهـو واجب ... "(١).

ومن لطائف التعبير القرآني أن جعل غاية إعداد القوّة هي إيقاع الرهبة والخوف في نفوس الأعداء ، وليس الغرض إبادتهم أو قتلهم ؛ فلم يُقَل : تقتلون ، أو تبيدون .. بل جعل الغاية ماذكر . لأن الغاية من دين الإسلام هي نشر الهداية بين الناس حتى يكون الدين في الأرض كله لله ، وبذلك تتـحـقق الغـاية التي من أجلهـا خلقت الجن والإنس وهي المذكورة في قوله تعالى :﴿ **وماخلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون** ﴾(٢) بأسلوب القصر ، وماخرج عن هذه الغاية فهو شذوذ وانحراف لايُقَوِّمه ولايعيده إلى جادّة الصّواب إلا الجهاد ، ولاجهاد إلاّ بقوّة ترهب العدوّ وتجعله يدين دين الحق ويتأدّب مع أهله ، ولذلك فهذه الآية من أسباب تحقيق الغاية التي من أجلها خلق الناس . يقول الفخر الرازي : " إن الكفار إذا علموا كون المسلمين متأهبين للجهاد ومستعدين له مستكملين لجميع الأسلحة والآلات خافوهم ؛ وذلك الخوف يفيد أموراً كثيرة : أولها : - أنهم لايقصدون دخول دار الإسلام .

وثانيها : - أنه إذا اشتد خوفهم فربّما التزموا من عند أنفسهم جزية .

وثالثها : - أنه ربّما صار ذلك داعياً لهم إلى الإيمان .

ورابعها :- أنهم لايعينون سائر الكفار .

وخامسها : - أن يصير ذلك سبباً لمزيد الزينة في دار الإسلام "(٣).

ودخول الباء على الضمير العائد على الإعداد أو على مفعوله - لكونه سبباً لإيقاع الرعب والرهبة في قلوب الأعداء .

---

(١) تفسير كلام المنان : ٣/١٨٣ .

(٢) الذاريات : ٥٦ .

(٣) التفسير الكبير : ١٥/١٨٦ .

وقوله [عدوٌّ الله وعدوّكم] المراد بهم كل من تحققت فيه هذه الصفة على مدار الزمان ، ويجمعهم الكفر والإعراض عن الحق ، وقد عُرِّفوا بالإضافة لكونها أخصر طريق لتعريفهم .

وتقسيم عداوتهم إلى قسمين لبيان مزيد قبح فعلهم وأنهم قد عادوا خالقهم ومن تفضل عليهم بالنعم ، ففي ذلك إقناع لعقول المؤمنين بصريح عداوتهم وتهييج لنفوسهم عليهم .

وذكر عداوتهم لله أوّلاً تعظيم لما هم عليه من الكفر وتقوية لذمّهم ، وإشعار بأنّه يجب لأجل عداوتهم لله أن يقاتلوا ويبغضوا [١] .

والتثنية بذكر عداوتهم للمؤمنين على سبيل الخطاب بالكاف فيه تحريض على قتالهم ؛ إذ في الطبع البشري أن يعادي الإنسان من عاداه ، ويتحرك لدفع غوائله إذا قطع بعداوته له [٢] .

وعطف عداوتهم للمؤمنين على عداوتهم لله تعالى لكون الأولى هي الأصل والثانية تبع له ؛ لأن المؤمنين أولياء الله والقائمون على دينه[٣] .

وقوله [وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم] فيه احتراس ، بتحذير المؤمنين وتنبيه قادتهم من أن يحسنوا الظن بمن لم تظهر عداوته لهم ؛ فقد يبطنونها أو يبيّتون شراً أو غَدْرا ، وهؤلاء الآخرون لايعلمهم إلا الله عزّ وجل ؛ ولهذا فإن التمحّل في تعينهم ضرب من التكلّف الذي لم نؤمر به ولايمكن القطع به لقوله [لاتعلمونهم] ولكون نسبة العلم بهم قد انفرد بها الله عز وجل حيث قال ﴿ **اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ** ﴾ فأكّد هذه النسبة بالابتداء بلفظ الجلالة ثم بعود الضمير المستكن في جملة الخبر إلى ذلك اللفظ الجليل ، فنفى العلم بهم عن المؤمنين وأثبته له عز وجل [٤] . ولذلك

---

(١) انظر : البحر : ٥١٢/٤ .

(٢) انظر : البحر : ٥١٢/٤ .

(٣) انظر : التحرير : ٥٦/١٠ .

(٤) قال القرطبي : " ولاينبغي أن يقال فيهم شيء لأن الله سبحانه قال : ﴿ **وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم** ﴾ فكيف يدّعي أحد علماً بهم ؛ إلا أن يصح حديث جاء في ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. " وقد ورد حديث بأنهم الجن ولكن تعقبه الحافظ ابن كثير وقال : إنه منكر لايصح إسناده ولامتنه . انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٣٨/٨ ، وتفسير القرآن العظيم : ٣٢٢/٢.

فإن الأمر يتوجّه إلى الصفة الضابطة لهؤلاء الآخرين وهي : كل من أضمر عداوة للإسلام وأهله ممن قرب أو بعد ، وكذلك الذين اندسّوا في جملة المسلمين ، ولو كانوا من بني جلدتهم ويتكلمون بلغتهم كالمنافقين والحاقدين والمارقين من الدين . وكما قال ابن عطية : " الأولى أن يتأوّل أن المسلمين إذا ظهروا وعزّوا هابهم من جاورهم من العدو المحارب لهم ؛ فإذا اتصلت حالهم تلك بمن بَعُدَ من الكفار داخلته الهيبَة وإن لم يقصد المسلمون إرهابهم ؛ فأولئك هم الآخرون ، ويحسن أن يقدّر قوله [لاتعلمونهم] بمعنى : لاتعلمونهم فازعين راهبين ولاتظنون ذلك بهم ، والله تعالى يعلمهم بتلك الحالة . ويحسن أيضاً أن تكون الإشارة إلى المنافقين على جهة الطعن عليهم والتنبيه على سوء حالهم ؛ وليستريب بنفسه كل من يعلم منها نفاقاً إذا سمع الآية ، ولفزعهم ورهبتهم غناء كثير في ظهور الإسلام وعلوّه "[1] .

" وجملة [الله يعلمهم] تعريض بالتهديد لهؤلاء الآخرين ؛ فالخبر مستعمل في معناه الكنائي ، وهو تعقّبهم والإغراء بهم ، وتعريض بالامتنان على المسلمين بأنّهم بمحلّ عناية الله ؛ فهو يحصي أعداءهم وينبّههم إليهم "[2] .

إن تنفيذ الأمر الرباني المتقدم في [وأعدوا لهم] قائم على النفقة والبذل والتضحية بالغالي والنفيس والجليل والقليل ؛ وذلك يتم بتعاون جميع المسلمين كلّ بحسبه وعلى قدر مسؤوليته في سبيل حشد القوى وتحصيل القوّة التي بها يقهر العدوّ ويعز جانب المسلمين ؛ ولهذا كان من تتمة ذلك الأمر حتى يخرج في أكمل صوره أن ورد النص الكريم وهو يخاطب عموم المؤمنين من خلال صيغة الشرط وبأداته التي تعمّ كل الأشياء [ما] ؛ فأدخلها على فعل الإنفاق الذي يعم المال وغيره[3] ؛ بصيغة فعل المضارع التي تستحضر صورة الإنفاق وتحرك نفوس المؤمنين إليها ، كما تفيد الحث على ذلك حاضراً ومستقبلاً فليس مرة ثم تنقطع بل تستمر النفقة ويتجدّد حدوثها فيتجدّد معها الثواب عليها ، وماكان هذا الأسلوب والوعد بالوفاء إلا لأن الأنفس قد أحضرت الشّح ؛ فهي كالطفل تدليلاً وتعليلاً . ومن سلم من الشّح وجاد فقد أفلح ؛

---

(١) المحرر الوجيز : ١٠٣/٨ .

(٢) التحرير : ٥٧/١٠ .

(٣) انظر : المفردات : ٥٠٢ .

قال تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١).

فهذه الآية قد افتتحت أولاً بالأمر بتقوى الله وبالسمع والطاعة وجَعلت الأمر بالإنفاق متأخّراً ؛ لأن جود المنفق مؤسَّس على التقوى والسمع والطاعة في المعروف ؛ فإذا تمكنت من المسلم أثمرت إنفاقاً واحتسابا ؛ ولذلك امتدح الله من وقي شر البخل فأنفق في وجوه الخير بجعله هو المفلح لاسواه ممن لم يكن كذلك ؛ فمن أنفق بسخاء فذلك أمارة كونه متقياً لله سامعاً مطيعاً .

وقوله [من شيء] نكرة اندرجت في سياق الشرط فأفادت العموم ؛ فأكّدت معنى [ما] الشرطية التي هي للعموم في كل الأشياء ؛ وورود النكرة في سياق النفقة في سبيل الله له معناه الجهادي فلم ينص على المال فحسب ؛ بل أطلقت النفقة بكلّ الأشياء ، ولاسيما أن الأمر وارد في سياق إعداد القوّة للأعداء ؛ فلا يحقرنّ أحد شيئاً ، وكلّ يجود بما يتموّله ويملكه من آلات ومعدّات وأسلحة وأغذية وأغطية ونفقات أخرى عسكرية أو تموينية أو صحية أو سواها مما في معناها .

وقوله [في سبيل الله] احتراس واحتراز من أن يفسد تلك النفقة غائلة الرياء فعندئذٍ لايتم فعل الشرط فيتأخّر الجزاء والوفاء .

وقوله [يوفّ إليكم] هذا هو جزاء الشرط ، واصطفاء فعل التوفية ليكون هو الجواب على ذلك الشرط له مدلوله اللغوي وتأثيره النفسي في المنفقين ؛ ذلك أن معنى الوفاء : هو بلوغ التمام (٢).

يقول ابن عاشور : " التوفية : أداء الحق كاملا ؛ جعل الله ذلك الإنفاق كالقرض لله ، وجعل على الإنفاق جزاء ؛ فسمّى جزاءه توفية على طريقة الاستعارة المكنية ، وتدلّ التّوفية على أنّه يشمل الأجر في الدنيا مع أجر الآخرة ، ونقل ذلك عن ابن عباس "(٣) . والتوفية تفيد المضاعفة ؛ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة (٤).

---

(١) التغابن : ١٦ .
(٢) انظر : المفردات : ٥٢٨ .
(٣) التحرير ١٠/٥٨ .
(٤) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٣٨/٨ ، وانظر : ٤٥٤ – ٤٥٥ .

ومع أن مدلول [يوف إليكم] يقتضي كمال الجزاء والثواب إلاّ أن ذلك قد زيد في تأكيده طمأنة للمنفقين ؛ وذلك بسوق الجملة الحالية وهي قوله [وأنتم لاتظلمون] من خلال خطابهم بضميرهم إشعاراً بتكريمهم ، ثم الإخبار عن وفاء حقهم بنفي وقوع فعل الظلم عليهم مبنيّاً للمجهول حتى يأتي النفي على كل من يتصوّر منه الظلم، وهذه من أبلغ الصيغ في ضمان الحق ، وفيها من الحث على النفقة والتحريض عليها والإغراء بها مالا يخفى .

ولما كان من نتائج إعداد القوّة وحشدها والظهور بها وقوع الرهبة والفزع في جانب الكفار ؛ ومن ثَمَّ العدول عن الحرب والميل إلى الصلح والمسالمة – لذلك شرع سبحانه في بيان حكم هذه المسألة قائلاً : ﴿ **وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ (١).

" والتعبير عن الميل إلى السلم بالجنوح تعبير لطيف يلقي ظل الدّعة الرقيق ؛ فهي حركة جناح يميل إلى جانب السّلم ، ويرخي ريشه في وداعة "(٢).

ومعنى [وإن جنحوا للسلم] أي إن مالوا إلى السلم ميل القاصد إليه كما يميل الطائر الجانح إلى النزول(٣).

يقول ابن عاشور : " وإنما لم يقل : وإن طلبوا السلم فأجبهم إليها للتنبيه على أنّه لايسعفهم إلى السلم حتى يعلم أن حالهم حال الراغب ؛ لأنهم قد يظهرون الميل إلى السلم كيداً فهذا مقابل قوله [وإمَّا تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء] فإن نبذ العهد نبذ للسلم "(٤).

وحقّ [جنح] أن يعدّى بإلى : لأنه بمعنى مال الذي يعدى بإلى ، ولم تكن تعديته باللام إلاّ لغرض ؛ وهو التنبيه إلى التحقّق من أن ميلهم إلى السلم هو ميل حقّ ورغبة صادقة فيه لا لغرض آخر غيره (٥).

---

(١) الأنفال : ٦١ .
(٢) في ظلال القرآن : ١٥٤٥/٣ .
(٣) انظر : التحرير : ٥٩/١٠ .
(٤) التحرير : ٥٩/١٠ .
(٥) انظر : التحرير : ٥٩/١٠ .

والسلَّم بكسر السين المشدّدة أو فتحها لغتان في ماهو ضد الحرب ، وقد أنث لفظه مراعاة لتأنيث لفظ ضدّه ، وهو الحرب ، وقيل : لأنه قصد بها قصد الفعلة والجنحة [١].

ولكن لماذا عبر عن ميلهم إلى السلم بإنْ التي هي للمشكوك في وقوعه ؟

يقول صاحب " المنار " : " وعبر عن جنوحهم بإنْ التي يعبر بها عن المشكوك في وقوعه أو مامن شأنه ألاّ يقع للإشارة إلى أنهم ليسوا أهلاً لاختياره لذاته وأنه لايؤمن أن يكون جنوحهم إليه كيداً وخداعا ؛ ولذلك قال [وتوكل على الله إنه هو السميع العليم] أي : اقبل منهم السلم وفوّض أمرك إلى الله تعالى ؛ فلا تخف كيدهم ومكرهم وتوسّلهم بالصلح إلى الغدر ، كما فعلوا بنقض العهد إنه عز وجل هو السميع لما يقولون ، العليم بما يفعلون ؛ فلا يخفى عليه مايخفى عليك من ائتمارهم وتشاورهم، ولامن كيدهم وخداعهم " [٢].

والتعبير بقوله [فاجنح لها] مشاكلة لقوله [جنحوا] وفيه من سرعة إجابتهم لذلك ماهو ظاهر ، وذلك حقناً لدماء المسلمين ، وضماناً لأن تكون يد المسلمين هي العليا ؛ فهم المجنوح إليهم والمرغوب في مسالمتهم لقوتهم ولموقع الرهبة منهم . كما أن في الأمر بإجابتهم إلى السلم إشعاراً بأن غاية الإسلام ليست الإبادة أو التقتيل وإنما هي الهداية والرشاد ، فمن سالمنا فأسْلم أو دفع الجزية سلم وأمن ، ومن عتا وتكبّر وحجب نور الإسلام عمن حوله من البشر فلابد من منازلته وزحرحته عن سبيل الدين ، ولايكون ذلك إلا بالجهاد المبني على قوة الإيمان وسلاح القوّة .

قال تعالى : ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ** ﴾[٣] والفتنة هي الشرك أو الكفر أيّاً كان جنسه ونوعه[٤]. فأنيطت غاية القتال بزوال ذلك وبتحقق كون الدين السائد في الأرض لله وحده لاشريك لـه ، وهو دين الإسلام ؛ لقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ** ﴾[٥].

---

(١) انظر : الكشاف : ١٧٤/٢ ، والتفسير الكبير : ١٨٧/١٥ .
(٢) المنار : ٦٩/١٠ .
(٣) البقرة : ١٩٣ .
(٤) انظر : التسهيل لعلوم التنزيل : ٧٣/١ .
(٥) آل عمران : ١٩ .

وقـال : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيـنـاً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِـي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (١) .

والحكمـة من إيراد الأمـر بالتـوكل على الله بعد الأمـر بالجنوح إلى السلم : " ليكون النبي – صلى الله عليه وسلم – معتمداً في جميع شأنه على الله تعالى ، ومفوّضاً إليه تسيير أموره ؛ لتكون مدّة السلم مدّة تقوّ واستعداد ، وليكفيه الله شرّ عدوّه إذا نقضوا العهد "(٢) . فهو إذا جنح للسلم مع العدوّ بناء على رغبتهم وكان متلبّساً بالتوكل على الله دخل في حفظ الله وعنايته ، لكونه قد استجاب لله تعالى ، بخلاف ما إذا فعل ذلك عن هوى أو طمع وحاشاه .

وجملة [إنه هو السميع العليم] معللة لأمر التوكل على الله في تلك الحال ؛ ولذلك فصلت عنها . وقد أفادت الجملة قصر معنى الكمال في السمع والعلم على الله وحده ، أي : فهو سميع منهم مالاتسمع ، ويعلم مالا تعلم . وقصر هذين الوصفين بهذا المعنى على الله تعالى عقب الأمر بالتوكل عليه يفضي إلى الأمر بقصر التوكّل عليه لاعلى غيره (٣) .

وفي الجمع بين الأمر بقصر التوكل عليه وبين الأمر بإعداد ما استطاع من القوّة للعدو دليل بيّن على أن التوكل أمر غير تعاطي أسباب الأشياء ؛ فتعاطي الأسباب فيما هو من مقدور الناس ، والتوكل خارج عن ذلك(٤) ؛ إذ هو عمل قلبي بين العبد وربه ، يفوّض أمره إليه ويعتمد عليه بعد أن يعمل بالأسباب المأمور بها شرعا ؛ ولذلك فلا منافاة بينهما ، ولابد من اجتماعهما ؛ فمن اعتمد على السبب وحده خاب وخُذل ، ومن توكل على الله وترك العمل بما أمره به أخل بالمأمور وخالف سنة الله في ترتيب وقوع المسبَّبات على الأسباب .

وحيث إن العدوّ لايؤتمن غدره ، وتتوقع خديعته وذلك ؛ بافتراض الميل إلى السلم لهذا أورد ذلك مورد الشك والاحتمال بقوله تعالى : ﴿ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٥) .

---

(١) آل عمران : ٨٥ .
(٢) التحرير : ٥٩/١٠ .
(٣) انظر : التحرير : ٥٩/١٠ .
(٤) انظر : التحرير : ٥٩/١٠ .
(٥) الأنفال : ٦٢ ، ٦٣ .

ولما كان أصل الخديعة تدبير في الخفاء قائم على فساد النية وخبث الطويّة – لذا علّق أمرها بفعل الإرادة التي منشؤها القلب .

وجملة [فإنّ حسبك الله] جواب لذلك الشرط المحتمل ، وهي دالة على تكفّل الله عز وجل كفاية نبيه من شرورهم وخداعهم . وقد أريد من هذا الجواب معنى كنائي وهو عدم معاملتهم بهذا الاحتمال المتوقّع ، بل يعاملهم بالصدق ؛ لأنه خلق إسلامي عظيم ، وهو شأن ذوي المروءة والوفاء ؛ فإذا بعث العدوَّ كفرهم على ارتكاب مثل هذا التسفّل فإن الله عز وجل تكفّل لمن وفى بعهده أن يقيه شرّ الخائنين (١).

وتأكيد الخبر بإنّ روعي فيه تأكيد معناه الكنائي ؛ لأن معناه الصريح مما لايشك فيه أحد (٢).

وجعل [حسبك] مسنداً إليه ؛ مع كونه وصفاً ، وشأن الإسناد أن يكون للذات ، وذلك منظور فيه إلى أن الذي يخطر بالبال باديء ذي بدء هو طلب من يكفيه شرّ الخديعة إن وقعت (٣).

وجملة [هو الذي أيدك بنصره] تعليل لكفاية الله له مسوقة مساق الاستدلال على أنه حَسْبه ، وعلى المعنى التعريضي وهو عدم التحرج من احتمال قصدهم الخيانة أو التوجس خيفة من ذلك ، وفي ذلك تقرير وتذكير بتأييد الله تعالى له مذ كان وحيداً ضعيفاً وسط قوم لهم قوّة وشوكة إلى أن أصبح ذا شأن وكيان ، فالتأييد عندئذٍ أقرب وأولى (٤).

والتأييد : التقوية ، والنصر : العون(٥) ؛ فيكون المعنى أن الله تعالى قوّاه بعونه ومدده وتوفيقه . وجعل التقوية بالنصر ؛ لأن النصر يقوي العزيمة ويثبت رأي المنصور ، وضده يشوش العقل ، ويوهن العزم (٦). وإضافة النصر إلى الضمير

---

(١) انظر : التحرير : ٦١/١٠ ، ٦٢ .
(٢) انظر : التحرير : ٦١/١٠ ، ٦٢ .
(٣) انظر : التحرير : ٦١/١٠ ، ٦٢ .
(٤) انظر : تفسير أبي السعود : ٣٣/٤ ، والتحرير : ٦٢/١٠ .
(٥) انظر : المفردات : ٤٩٥ .
(٦) انظر : التحرير : ٦٣/١٠ .

العائد إلى لفظ الجلالة أكسبته تعريفاً ونبّهت إلى أنه نصر خارق للعادة ، وهو النصر بالملائكة والخوارق من أوّل أيام الدعوة ..[1] .

وعطف [المؤمنين] على [نصر الله] مع إعادة حرف الجر وهو الباء له سرٌّ كشف عنه ابن عاشور حيث قال : " وقوله [وبالمؤمنين] عطف على [بنصره] وأعيد الجر بعد واو العطف لدفع توهّم أن يكون معطوفاً على اسم الجلالة فيوهم أن المعنى: ونصر المؤمنين ، مع أن المقصود أن وجود المؤمنين تأييد من الله لرسوله ؛ إذ وفقهم لاتباعه ؛ فشرح صدره بمشاهدة نجاح دعوته وتزايد أمته ، ولكون المؤمنين جيشاً ثابتي الجنان ؛ فجعل المؤمنون بذاتهم تأييدا "[2].

وقوله [وألف بين قلوبهم] معطوف على ماتقدم ؛ فهو من جملة ما امتنّ الله تعالى به على نبيه عليه الصلاة والسلام ، وهذا من أبهر المعجزات بين يدي المصطفى صلى الله عليه وسلم ، " لأن العرب لما فيهم من الحمية والعصبية والانطواء على الضغينة في أدنى شيء وإلقائه بين أعينهم إلى أن ينتقموا لايكاد يأتلف منهم قلبان ، ثم ائتلفت قلوبهم على اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم واتحدوا وأنشأوا يرمون عن قوس واحدة ، وذلك لما نظم الله من إلفتهم وجمع من كلمتهم وأحدث إليهم من التحاب والتواد وأماط عنهم من التباغض والتماقت وكلفهم من الحب في الله والبغض في الله ، ولايقدر على ذلك إلا من يملك القلوب ؛ فهو يقلبها كما شاء ويصنع فيها ما أراده "[3].

وإظهار القلوب دون الاكتفاء بضمير المؤمنين ، لأن القلوب هي مواضع الحب والكره ، فإذا تآلفت اجتمعت على الحب وانتفى عنها التباغض ، ولكون تحقيق ذلك في القلوب عزيزاً صعب المنال ، ولايملكه إلا من بيده تقليب هذه القلوب كيف يشاء وهو الله عز وجل .

والدليل على عسر التأليف بين القلوب وصعوبته قوله تعالى :﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ ؛ فهذه الجملة مقررة لمضمون ماقبلها ،

(١) انظر : التحرير : ٦٣/١٠ .
(٢) التحرير : ٦٣/١٠ .
(٣) الكشاف : ١٧٥/٢ .

والمعنى : أن ماكان بينهم من العصبية والعداوة قد بلغ إلى حدّ لايمكن دفعه بحال من الأحوال ، ولو أنفق الطالب له جميع مافي الأرض لم يتم له ماطلبه من التأليف ؛ لأن أمرهم في ذلك قد تفاقم جداً [١]. ولو : شرطية غير جازمة ، وهي حرف امتناع لامتناع ؛ فامتنع واستحال التأليف بين قلوبهم لامتناع واستحالة إنفاق مافي الأرض جميعاً في هذا السبيل - وهي تصوير لتناهي ذلك .

والخطاب لكل واقف عليه ؛ لأنه لامبالغة في انتفاء ذلك من منفق معين [٢]. وإن كان في ظاهره متوجهاً إلى النبي عليه الصلاة والسلام لكونه أوّل من دعا إلى الله بين المذكورين . وذكر القلوب مرة أخرى إشعار بأن التأليف بينها لايتسنّى وإن أمكن التأليف ظاهرا [٣].

وقوله [ولكن الله ألف بينهم] استدراك عقب الجملة المتقدمة التي تقرر فيها امتناع التأليف بين قلوبهم من أيّ كان ولو بُذل مافي الأرض في هذا السبيل ، فموقع الاستدراك هنا من أجل دفع مايتوهم من تعذّر التأليف بينهم [٤].

وقد أظهر في هذا الاستدراك لفظ الجلالة المستجمع لصفات الكمال والجلال والقدرة ، وهذا يضفي على فعل التأليف مزيداً من الصعوبة وبُعْد المنال في حق البشر، ويجعل وقوعه وتحققه من أعظم المنن على المؤمنين ورسولهم الكريم . وقد اكتفي بضمير المؤمنين [بينهم] ولم يكرر لفظ القلوب مرة ثالثة ، اكتفاء بما حصل في الموضعين المتقدمين ، لكونه قد حقق المراد ، فلم يبق سوى الإشارة إليه والتذكير بعظيم وقوعه .

وكون الإسناد وقع بالجملة الفعلية فيه مزيد توكيد للخبر وتقوّ له ؛ وذلك لكون فعل التأليف قد أسند إلى الضمير العائد على لفظ الجلالة ، وهو بمثابة تكرار الإسناد لغرض التقوية والتوكيد .

---

(١) انظر : فتح القدير : ٣٢٢/٢ .
(٢) انظر : تفسير أبي السعود : ٣٣/٤ .
(٣) انظر : تفسير أبي السعود : ٣٣/٤ .
(٤) انظر : التحرير : ٦٤/١٠ .

وقوله [إنّه عزيز حكيم] تذييل لذلك التأليف العجيب والتكوين المحكم ؛ فهو سبحانه قوي القدرة فلا يعجزه شيء في الأرض ولافي السماء ، محكم التكوين ، يكوّن المتعذّر ويجعله أمراً مسنوناً مألوفا . فهذه الجملة كالتعليل لما تقدم (١).وقد أكدت الفاصلة بإنّ واسمية الجملة وذلك للاهتمام بالخبر وتقرير مضمونه بين يدي تلك المعجزة الباهرة .

ومن لطائف مواقع الشرط في آي القرآن الكريم ماجاء في سورة " الحجرات " في قتال البغاة من المسلمين ؛ وهي قوله تعالى :﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾ (٢).

وفي هذه الآية من لطائف النظم وبدائعه مايلي :-

١ - افتتاح الآية بـ " إنْ " الشرطية إشارة إلى أن مافي حيّز مدخولها ينبغي أن يكون نادر الوقوع قليل الحدوث ، فإذا علمنا أن مدخولها هو بيان حكم القتال بين المؤمنين بعضهم بعضاً تبيّن أن هذه الظاهرة الأصل فيها ندرة وقوعها ، وأن هذا البيان في التنزيل الكريم جاء فيما لو فرض ذلك فحكمه مافي مضمون الآية . فإن قيل : نحن نرى أكثر الاقتتال واقعاً بين طوائف المسلمين ؟ فيجاب عن ذلك بما أورده الرازي حيث قال : " قوله تعالى :﴿ **وإن** ﴾ إشارة إلى أنه ينبغي ألاّ يقع إلا نادراً ، غاية مافي الباب أن الأمر على خلافماينبغي " (٣).

٢ - إحسان الظن بالمسلمين أصل من أصول التعامل بينهم ؛ وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ** ..(٤) ﴾ الآية ؛ فلمّا أُمر المؤمنون باجتناب كثير من الظّن دل على أن الأصل هو ترك

---

(١) انظر : التحرير : ١٠/٦٤ ، وروح المعاني : ١٠/٢٨ .

(٢) الحجرات : ٩ .

(٣) التفسير الكبير : ٢٨ / ١٢٧ .

(٤) الحجرات : ١٢ .

الظّن السيء ؛ لأن مايعمل به من الظن وإن كان قليلاً قد يكون هو المأمور باجتنابه في الآية ؛ فهو من جنس الظن الكثير المأمور بالابتعاد عنه وعدم الأخذ بـه ، مالـم تقـم القرائـن والشواهد عليه ، ولذلك أحكامه وخصوصياته فلا عموم لـه .

وعلى هذا المبدأ العظيم جاء التعبير القرآني الكريم بـ [وإن طائفتان] ولم يقل: وإن فرقتان ، حملاً على حسن الظن بالمؤمنين في عدم الاقتتال أصلاً ، فإن وقع فيكون عارضاً بين طائفتين ، والطائفة دون الفرقة ؛ ولهذا قال تعالى :﴿ **فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ..**[1] ﴾ ولاتكاد العرب تحدّ الطائفة بعدد معلوم ؛ إلا أن الفقهاء والمفسّرين يقولون فيها مرة : إنها أربعة فما فوقها ، ومرة : إن الواحد طائفة ، ويقولون هي الثلاثة ، ولهم في ذلك كلام كثير [2].

٣ - جرى نسق التعبير في الآية على خطاب الغيبة في قوله [وإن طائفتان من المؤمنين ..] مع أن الخطاب في الأصل كان جارياً مع المؤمنين لسبق قوله تعالى :﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ..** ﴾ وفي ذلك أدب مع المؤمنين وربء بهم عن أن يقع ذلك الفعل منهم ، وإشعار بقبحه فلا يصح صدوره عنهم . وهو على طريقة تأديب المتكلّم معه بتوجيه الأدب إلى غيره ؛ كقول السيد لعبده : " إن رأيت أحداً من غلماني يفعل كذا فامنعه ؛ فيصير بذلك مانعاً للمخاطب عن ذلك الفعل بالطريق الحسن ؛ كأنه يقول : أنت حاشاك أن تفعل ذلك ؛ فإن فعل غيرك فامنعه "[3]. كذلك ههنا قال : [وإن طائفتان من المؤمنين ..] فكأن المعنى : أنتم حاشاكم أن تفعلوا ذلك ، ولكن إن وقع من غيركم شيء منه فافعلوا ما أُمرتم به ...

---

(١) التوبة : ١٢٢ .

(٢) انظر : معجم مقاييس اللغة : مادة : طوف .

(٣) التفسير الكبير : ١٢٧/٢٨ .

٤ - الأصل في التعبير بأدوات الشرط أن يليها فعل الشرط مباشرة ، ولكن الملحوظ في الآية هو تقدم المسند إليه وهو [طائفتان] وارتفاعه بفعل محذوف فسّره الفعل المذكور وهو [اقتتلوا] [١]، ولعل الغرض من ذلك أمران : -

أولهما : كراهية ذكر فعل القتال أولاً نفوراً منه وتنفيراً من فعله ، وفي ذلك تعنيف نفسي على من فعله أو قارفه مادام مؤمنا ٠

وثانيهما : الاهتمام بذوات الطائفتين المؤمنتين والحرص عليهما أكثر من الحرص على ذكر القتال ، ولذلك قدّم ماقدم وأخّر ما أخّر ؛ صوناً لذات المتقدم ، وذمّاً لمادة المتأخّر ٠

٥ - مجيء الفعل الدال على القتال ماضياً لامستقبلا ؛ وفي ذلك إشعار بضرورة التأكد من وقوع القتال وحدوثه ؛ وكأنّه أمر مستبشع بعيد الوقوع فإن وقع وجب السعي بالصلح ؛ ولذلك عدل عن المضارع لكون صيغته تدل على التجدد والحدوث مرة بعد مرة ؛ فأريد حمل فعل القتال بين المؤمنين على الندرة لاعلى الكثرة ؛ فهي حالة شاذة وقعت لايجوز تجدّد وقوعها ؛ تفاؤلاً بعدم حدوث ذلك بين من تجمعهم أخوّة الإسلام ٠

٦ - ماسرّ إسناد فعل القتال إلى واو الجماعة في حين أوقع فعل الصلح بين اثنين [فأصلحوا بينهما] ؟ ٠

يجيب عن ذلك الفخر الرازي قائلاً : " قال [اقتتلوا] ولم يقل : اقتتلا ، وقال [فأصلحوا بينهما] ولم يقل : بينهم ؛ ذلك لأن عند الاقتتال تكون الفتنة قائمة ، وكل أحد برأسه يكون فاعلاً فعلا ؛ فقال [اقتتلوا] ، وعند العود إلى الصلح تتفق كلمة كل طائفة ، وإلا لم يكن يتحقق الصلح ؛ فقال : [بينهما] لكون الطائفتين حينئذٍ كنفسين " [٢].

وقد يكون الجمع نظر فيه إلى معنى الطائفتين ، فهو في معنى القوم والناس ، والتثنية نظر فيه إلى لفظ الطائفتين المثنى[٣]، ولكن تعليل الرازي ألطف وأوفى ٠

---

(١) انظر : التحرير : ٢٣٩/٢٦ ٠

(٢) التفسير الكبير : ١٢٧/٢٨-١٢٨ ٠

(٣) انظر : الكشاف : ١٧/٦ ، والبحر : ١١٢/٨ ٠

٧ - توجيه الخطاب في جملة جواب الشرط [فأصلحوا] إلى المؤمنين فيه التفات إلى المؤمنين بصيغة الأمر ، ومن غرض ذلك استحضارهم في الصورة ؛ لاستنهاض همتهم حتى يتداركوا ماحصل بالسعي صلحاً بين المتقاتلين ، فإنهم إذا فعلوا ذلك فقد تعبّدوا الله عز وجل بهذا الفعل ، وحقنوا الدماء ، وحفظوا الأعراض والأموال ، وفي ذلك شرف للفاعلين ، وأجر عظيم لهم ، وثناء ظاهر على فعلهم ؛ لأن الصلح : هو إزالة النّفار بين الناس[1] بالتي هي أحسن ، وسعاته هم دعاة للخير والفلاح ، قال تعالى : ﴿ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾[2] . فأسند الخير إلى الصلح بالجملة الاسمية الدالة على ثبوت الخير في الصلح ودوامه أبدا ؛ وعلى ذلك فالساعي به والقائم عليه في خير وعلى خير كذلك ، يستوي في ذلك أن يكون سعيه في الصلح بنفسه أو ماله أو بهما معاً ؛ قال تعالى : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[3] .

٨ - بعد السعي بالصلح بين الطائفتين المقتتلتين فلا يخلو الأمر من أحد حالين : إما أن تصطلحا فينتهي القتال ، أو تأباه إحداهما ؛ فعندئذ يصار إلى حكم آخر قرره الله عز وجل بقوله ﴿ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ .. ﴾ ؛ فهذا الحكم مرتّب على ماتقدم متفرّع عنه ، وقد أفاد ذلك حرف الترتيب : الفاء .

٩ - البغي هو تجاوز الحق إلى الباطل ، وفيه تعدٍّ على حقوق الآخرين بتطاول وفساد[4] . وقد صدّر هذا الفعل بـ [إنْ] الشرطية بعد الأمر بالصلح لرفع النزاع إشعاراً بأن وقوع البغي بعد السعي بالصلح من النوادر[5] ؛ فهو غير متوقع أو لاينبغي أن يكون ؛ فإن حصل فهو خلاف ماينبغي ، وفي هذا الأسلوب تأنيب للفئة الباغية وإشعار بخطئها في بغيها وأنه لايليق منها .

---

(١) انظر : المفردات : ٢٨٤ .
(٢) النساء : ١٢٨ .
(٣) النساء : ١١٤ .
(٤) انظر : المفردات : ٥٥ ، والجامع لأحكام القرآن : ٣١٦/١٦ .
(٥) انظر : التفسير الكبير : ١٢٨/٢٨ .

١٠- مجيء فعل الشرط ماضياً دليل على أن جوابه وهو المقاتلة لايقع إلا بعد ثبوت وقوع البغي وتحققه ، فلا يصار إلى المقاتلة إلا بعد تحقق البغي وحدوثه ، وفي هذا إرشاد إلى ضرورة التثبّت من هذا الأمر وعدم الأخذ بالظّنة وبالأقاويل ، بل لابد من التبيّن والمعاينة وظهور الأدلّة القطعية على ذلك حقناً للدماء وتأليفاً للقلوب .

كما أن التعبير بالماضي دون المستقبل فيه إشعار بأن هذا البغي إن حصل فهو مرة ثم تنقطع ، ولايجوز تجدّدها ، في إشارة إلى ندرة وقوعها من أهل الإيمان [١] .

١١- قوله [على الأخرى] فيه حذف لموصوف وإثبات لصفته ؛ لدلالة المقام عليه ، أي : على الطائفة الأخرى ، وفي ذلك وجازة وإشارة بأن المبغي عليها قد فاءت إلى الحق فانضمت إلى جماعة المسلمين الكبرى ، ولم تذكر إلا صفتها لبيان الحكم فيمن بغى عليها .

١٢- قوله في جواب الشرط [فقاتلوا] دون التعبير بـ : فاقتلوا ؛ إشعار بأن المأمور به منازلتُها حتى تضعف شوكتها أو تثوب إلى الحق ، وليس استئصالاً ومطاردة، فهي مفاعلة بين طرفين عسى أن ترهب السلاح فترعوي إلى الهدى والرشاد فعندئذٍ يجب الكف والإمساك عن القتال لتحقق الغاية .

قال ابن عاشور : " والأمر في قوله [فقاتلوا التي تبغي] للوجوب ؛ لأن هذا حكم بين الخصمين ، والقضاء بالحق واجب ؛ لأنه لحفظ حق المحق ، ولأن ترك قتال الباغية يجرّ إلى استرسالها في البغي وإضاعة حقوق المبغي عليها في الأنفس والأموال والأعراض ، والله لايحب الفساد ، ولأن ذلك يجرئ غيرها على أن تأتي مثل صنيعها ؛ فمقاتلتها زجر لغيرها "[٢] . ولكن ماحكم هذا القتال ومن يتولاّه ؟ يقول ابن عاشور أيضاً : " وهو وجوب كفاية ، ويتعين بتعيين الإمام جيشاً يوجهه لقتالها ؛ إذ لايجوز أن يلي قتال البغاة إلا الأئمة والخلفاء ؛ فإذا

---

(١) انظر : التفسير الكبير : ١٢٨/٢٨ .
(٢) التحرير : ٢٤١/٢٦ .

اختل أمر الإمامة فليتول قتال البغاة السواد الأعظم من الأمة وعلماؤها ، فهذا الوجوب مطلق في الأحوال تقيده الأدلة الدالة على عدم المصير إليه إذا علم أن قتالها يجرّ إلى فتنة أشد من بغيها "(١) .

١٣- قوله [التي تبغي] صفة لموصوف محذوف معلوم من السياق ؛ وقد اجتلب الموصول من أجل الصلة التي يتوقف على تحققها تحقق فعل القتال ومزاولته ؛ ذلك أنّ الصلة [تبغي] جملة فعلية فعلها مضارع دال على الحال ؛ فالمراد : فقاتلوا الطائفة التي تفعل البغي الآن حتى توقفوها عن بغيها بأن تفيء إلى أمر الله وحكمه . فانظر إلى دقة التعبير القرآني ؛ فقد رتّب قيام القتال والأمر به على تحقق البغي ووقوعه بالفعل الماضي في فعل الشرط [بغت] ثم جعل مزاولة القتال والشروع فيه مشروطاً بتلبُّس تلك الطائفة بالبغي وارتكابها له ، وذلك بالتعبير عنها بكونها [تبغي] أي الآن ؛ فأمر القتال والشروع فيه متوقف على مزاولة البغي واستمراره ؛ بدليل قوله بعدئذٍ [حتى تفيء إلى أمر الله] فإذا كَفَّت عن البغي كُفّ عنها . فموجب قتالها هو بغيها لاغير .وقد عبّر عن بغيها بالفعل دون الاسم حتى لايكون وصفاً ثابتاً متأصّلاً فيها دالاً على عراقته فيها ، بل هو عارض طارئ ، كما طرأ يزول .

١٤- قوله [حتى تفيء إلى أمر الله] ، قال الراغب : " الفيء والفيئة : الرجوع إلى حالة محمودة "(٢) . و[حتى] هنا أفادت أن الفيء إلى أمر الله غاية للمقاتلة ؛ ومقتضى ذلك : أن قتال الفئة الباغية يستمر إلى غاية رجوعها إلى أمر الله ، وهو ما أمر الله به من الصلح والكف عن الظلم (٣) . وفي ذلك إشارة إلى أن القتال ليس جزاء للباغي كحد الشّرب الذي يقام على الشارب وإن ترك الشراب ، بل القتال إلى حد الفيئة ؛ فإن فاءت الفئة الباغية حرم قتالها (٤) .

---

(١) التحرير : ٢٦ / ٢٤١ .
(٢) المفردات : ٣٨٩ .
(٣) انظر : التحرير : ٢٦/٢٤٢ .
(٤) انظر : التفسير الكبير : ٢٨/١٢٨ .

١٥- ويترتب على فيئتها حكم آخر أفادته فاء الترتيب في قوله [فإن فاءت ٠٠] ؛ فهو إذن متمم للحكم السابق مكمّل له لابد من العمل به ؛ وذلك من أجل نزع فتيل القتال ، وإرساء دعائم الأخوّة وطرد شبح الجفوة بين النفوس ٠

١٦- وجلب [إن] الشرطية المفيدة للشك مع فعل الفيئة المجزوم به - منظور فيه إلى عدم الجزم بوقت ذلك وزمانه ؛ فهو غير معلوم [١] ، ولايناسبه من أدوات الشرط إلا [إنْ] المفيـدة لذلك ، ولذلك سيقت في هذا المقام ٠ فقال تعالى :﴿ فإن فاءت ﴾ " بقتالكم إياهم بعد اشتداد الأمر والتحام الحرب فأصلحوا ، وفيه معنى لطيف وهو أنه تعالى أشار إلى أن من لم يخف الله وبغى لايكون رجوعه بقتالكم إلا جبرا "[٢] ٠

١٧- وتكرير الأمر بالصلح مرة أخرى وجعله جوابا للفيئة دليل على أنه لاينفع في مثل هذه الحالة إلاّ الصلح والمواءمة بين نفوس الطائفتين بعد ذلك الاقتتال المقيت ٠ وفي ذلك إشعار بمنزلة الصلح بين المتخاصمين وأهميته ؛ فكلّه خير ٠

١٨- ولسائل أن يقول : لم قُرن الصلح الأخير بالعدل في حين جرّد الأوّل منه ؟ يقول الرازي في الجواب عن ذلك : " لأن الإصلاح هناك بإزالة الاقتتال نفسه ، وذلك يكون بالنصيحة أو التهديد والزجر والتعذيب ، والإصلاح هـهنا بإزالة آثار القتل بعد اندفاعه من ضمان المتلفات ، وهو حكم فقال [بالعدل] فكأنه قال واحكموا بينهما بعد تركهما القتال بالحق ، وأصلحوا بالعدل مما يكون بينهما ؛ لئلاّ يؤدي إلى ثوران الفتنة بينهما مرة أخرى "[٣] ٠ ويقول ابن عاشور : " والعدل : هو مايقع التصالح عليه بالترضي والإنصاف ، وأن لايضر بإحدى الطائفتين ؛ فإن المتالف التي تلحق كلتا الطائفتين قد تتفاوت تفاوتاً شديدا فتجب مراعاة التعديل "[٤] ٠ ويقول أبو بكر بن العربي : " ومن العدل في صلحهم أن لايطالبوا بما جرى بينهم مدة القتال من دم ولامال ؛ فإنه تلف على تأويل ،

---

(١) انظر : التفسير الكبير : ٢٨/١٢٨ ٠
(٢) التفسير الكبير : ٢٨/١٢٨ ٠
(٣) التفسير الكبير : ٢٨/١٢٨-١٢٩ ٠
(٤) التحرير : ٢٦/٢٤٢ ٠

وفي طلبهم له تنفير لهم عن الصلح واستشراء في البغي ، وهذا أصل في المصلحة "[١] . والمعوّل عليه في ذلك هو حكم الإمام العادل أو القضاة الذين يتولون هذه المسألة ؛ فما حكموا فيه بالضمان والتعويض فهو ماض ، ومالا فلا ، لأن البغي يتفاوت والإتلاف كذلك والظلم لايجوز إقراره . والله تعالى أعلم .

١٩- وتأكيداً للعدل في الصلح والعمل به جاء قوله [وأقسطوا] بعد الأمر بالصلح المتلبس بالعدل ؛ يقول أبو السعود : " وتقييد الإصلاح بالعدل لأنه مظنة الحيف لوقوعه بعد المقاتلة ، وقد أكد ذلك حيث قال : [وأقسطوا] أي : واعدلوا في كل ماتأتون وماتذرون "[٢] .

وأصل : القَسط : الجور ، وفائدة دخول الهمزة للسلب[٣] ، أي سلب الجور وإزالته ، وفي ذلك إشعار بضرورة إزالة الظلم والجور من أيّ كان بعد ذلك القتال ، فلا يصح إقراره حتى لاتنبعث الفتنة من جديد .

٢٠- وقوله [إن الله يحب المقسطين] تذييل للأمر بالإقساط مؤكّد له ، وهو خبر أكّد بـ " إنّ " والجملة الاسمية ترغيباً في القِسط وتكثيراً لسواد المقسطين ، وهذا الخبر أعقب ذلك الإنشاء المتقدم ؛ ولذلك فصل عنه بترك العاطف ، وهذه الفاصلة فيها تعريض بغير المقسطين ؛ لأن لازم محبة الله للمقسطين هو كرهه للجائرين ، على الوجه اللائق به سبحانه[٤] .

---

(١) أحكام القرآن : ١٥٢/٤ . لعل صحة العبارة « وهذا أصل في المصالحة » . حتى يستقيم المعنى .

(٢) تفسير أبي السعود : ١٢٠/٨ .

(٣) انظر : الكشاف : ١٨/٦ ، والتفسير الكبير : ١٢٩/٢٨ .

(٤) ولمزيد من الوقوف على صور الشرط والجزاء في هذا البحث ؛ انظر : ٧١ ، ١٠٦ ، ١٣٠ ، ٣٩٢ ، ٤٠٩ ، ٤١٨ ، ٤٢٢ ، ٥١٤ ، ٥١٨ ، ٥٢٦ .



الفصل الثالث
الفصل والوصل

- الأسرار البلاغية للفصل .
- الأسرار البلاغية للوصل .
- الجملة الحالية .
- الفواصل القرآنية وعلاقتها بنظم الآي .

الفصل والوصل

توطئــة : -

يستهدف البلاغيون من وراء بحث هذا الموضوع الوصول إلى المناسبات بين المعاني في الجمل ، وتحديد صلات بعضها ببعض ، والإجابة عن تساؤلات تدور حول العلاقات بين الجمل ؛ من مثل : كيف ساغ أن تلتقي هذه بتلك ؟ ولم عطفت أو لم فصلت ؟ ومانوع الصلات الظاهرة أو الخفية بينها ؟ ومادرجتها ؟ ونحو ذلك مما يرمي إلى تدبّر أعطاف الجملة والجمل من أجل الوقوف على مابينهما وبين أعطاف جيرانها من علاقات . كما يتناول البحث في هذا الموضوع مقاطع الكلام ومفاصله عند منتهى أجزاء معانيه ، ماكبر منها وماصغر ؛ ليتأمل هذه المقاطع ويحدّد الخيط الدقيق الغائر في ضمير الكلام ؛ فيحدّد أوله وآخره ، وطبيعة أجناسه المتشابهة أو المتباينة ، ونوع علاقاته القريبة أو البعيدة .. وهكذا [١] .

ويلخص الدكتور منير سلطان الهدف البلاغي لفن الفصل والوصل قائلاً : " يهدف فن الفصل والوصل إلى إبراز جمال المعنى لتحقيق كمال الفائدة ، وقد اتخذ لذلك وسائل منها : الإيضاح والإيجاز وتثبيت المعنى وحسن النَّسَق ، ثم هو يسعى إلى إضفاء جمل التركيب في الصياغة ؛ بأن يُقَطّع الموضوع الواحد إلى أجزاء موصولة أو يعرض الموضوع الواحد بأشكال متعددة أو يصوّر الهيئة المنفصلة أو الهيئة المتصلة ، أو يحرص على تناسب الإيقاع الصوتي مع المعنى الدّلالي "[٢] .

وقد عرف الفصل والوصل بأنه : العلم بمواضع العطف أو الاستئناف ، والتهدّي إلى كيفية إيقاع حروف العطف في مواقعها ، أو تركها عند عدم الحاجة إليها [٣] . ويمكن إيجاز هذا التعريف بأن الوصل هو عطف جملة على أخرى بالواو ، والفصل ترك هذا العطف [٤] .

---

(١) انظر : دلالات التراكيب : ٢٦٨ .

(٢) بلاغة الكلمة والجملة والجمل : ١٩٣ .

(٣) علوم البلاغة : ١٩٣ .

(٤) انظر : الإيضاح بشرح خفاجي : ٩٧/٣ . وانظر : علم المعاني للجندي : ١٩٤ .

وعن قيمة الفصل والوصل ودقته وغموض مسلكه يقول عبدالقاهر : " اعلم أن العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض ، أو ترك العطف فيها والمجيء بها منثورة ؛ تستأنف واحدة منها بعد أخرى من أسرار البلاغة ، ومما لايتأتّى لتمام الصواب فيه إلا للأعراب الخلّص ، وإلاّ قوم طُبعوا على البلاغة ، وأوتوا فنّاً من المعرفة في ذوق الكلام هم بها أفراد . وقد بلغ من قوة الأمر في ذلك أنهم جعلوه حداً للبلاغة ؛ فقد جاء عن بعضهم : أنه سئل عنها فقال : " معرفة الفصل من الوصل " ، ذاك لغموضه ودقة مسلكه ، وأنه لايكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كمل لسائر معاني البلاغة "(١) . وقال في موضع آخر : " واعلم أنه مامن علم من علوم البلاغة أنت تقول فيه : إنه خفيٌّ غامض ، ودقيق صعب - إلا وعلم هذا الباب أغمض وأخفى وأدقّ وأصعب "(٢) .

هذا وقد وفد مصطلح "الفصل والوصل " إلى البلاغة قادماً من " علم القراءات"، ومر بفترة عدم استقرار قبل الشيخ عبدالقاهر الجرجاني ، ثم استقر على يديه (٣)؛ بأن وضع ضوابط له أعمل فيها ذوقه البياني وتحليله البلاغي ؛ فكانت عامل استقرار واستقلال لهذا الفن ؛ فأصبح باباً بذاته من بين أبواب البلاغة .

ويمكن إيجاز مواضع الفصل في الآتي (٤) :-

١ - كمال الاتصال بين الجملتين ؛ بأن تكون الثانية مؤكّدة للأولى ، أو مبينة لها ، أو بدلاً منها . وقد عللّوا الفصل في هذا الموضع ؛ لأن العطف بالواو يفيد المغايرة بين الجملتين ولامغايرة بينهما لكمال الاتصال بينهما ؛ فيكون كعطف الشيء على نفسه (٥) .

---

(١) دلائل الإعجاز : ٢٢٢ .

(٢) دلائل الإعجاز : ٢٣١ .

(٣) انظر : بلاغة الكلمة والجملة والجمل : ١٩٢ .

(٤) هذا التقسيم لمواطن الفصل والوصل بالنسبة للجمل التي لامحل لها من الإعراب ، ولكن من البلاغيين من رأى أن يشمل الكلام في الفصل والوصل الجمل التي لها محل والتي لامحل لها من الإعراب ، على حد سواء نظراً لوجود الأسرار المتعلقة بالفصل والوصل في كليهما ، كما أدخلوا أيضا في هذا الباب البحث في عطف المفردات على بعضها أو ترك هذا العطف لوجود دقائق في ذلك وتوسعوا أكثر من ذلك فأدخلوا في هذا الباب النظر في كل حروف العطف دون الاقتصار على الواو وحدها لما في هذه الحروف من أسرار عند العطف بها كذلك .

وللتوسع في هذه القضية انظر : شروح التلخيص : ٣/٣-٥ ، ودلالات التراكيب : ٢٨٥-٢٩٤ .

(٥) انظر : دلائل الإعجاز : ٢٢٧ ، والبلاغة الاصطلاحية : ٢٦٧ .

٢ – شبه كمال الاتصال بينهما : وذلك إذا كانت الجملة الثانية جواباً عن سؤال اقتضته الجملة الأولى ؛ فتفصل الثانية عنها كما يفصل الجواب عن السؤال ، ويسمى ذلك الفصل استئنافاً ، والجملة المفصولة مستأنفة (١) .

٣ – أن يكون بين الجملتين تباين تام ؛ وهو مايسمى بكمال الانقطاع ؛ وله صورتان:
الأولى : – أن تختلف الجملتان خبراً وإنشاء لفظاً ومعنى ، أو معنى فقط فمثال الأول قوله تعالى :﴿ **يسألونك عن الإنفال قل الإنفال لله والرسول ..** ﴾ فالجملة الأولى خبرية والثانية إنشائية فبينهما انقطاع تام .
ومثال الثاني : مات فلان رحمه الله . فجملة رحمه الله وإن كانت خبراً فمعناه الدعاء .
الثانية : – أن تتفقا ولكن من غير جامع بينهما ولارابط ؛ كقولك : زيد كاتب ، الطرق طويلة . فالجملتان خبريتان ولكن لارابط بينهما ولاجامع فامتنع الوصل بينهما(٢) .

٤ – شبه كمال الانقطاع : بأن تكون الجملة الثانية بمنزلة المنقطعة عن الأولى ؛ وذلك لكون عطفها عليها موهماً لعطفها على غيرها ، ويسمّى الفصل لذلك قطعاً ، ومثاله قول الشاعر :

وتظن سلمى أنني أبغي بها * بدلاً أراها في الضلال تهيم

فجملة " أراها في الضلال تهيم " يصح عطفها على جملة : تظن سلمى ، لكن يمنع من هذا توهّم العطف على جملة " أبغي بها " ؛ فتكون جملة : أراها .. من مظنونات سلمى ، وذلك غير مقصود ، ولهذا امتنع العطف كلية ووجب الفصل والاستئناف (٣) .

وأما مواضع الوصل فتتمثل في :

١ – أن يكون بين الجملتين كمال الانقطاع مع إيهام الفصل خلاف المقصود ؛ كأن يعرض عليك صديقك خدمة فتقول : لا وبارك الله فيك . فإن إسقاط الواو يوهم

(١) انظر : بغية الإيضاح : ط ٨ ، ٧٩/٢ ، والبلاغة الاصطلاحية : ٢٦٨ .
(٢) انظر : بغية الإيضاح : ٦٩/٢ .
(٣) انظر : بغية الإيضاح : ٧٧/٢ ، ولمزيد من الإيضاح انظر : البغية : ٦٢/٢ – ٨٣ .

الدعـاء على ذلك الصديق ، وأنت تريد الدعـاء له ولذلك وجبت الواو ؛ إزالة لذلك الوهـم وتحقيقاً للمقصود من الردّ الجميل .

٢ - اتفاق الجملتين في الخبرية أو الإنشائية مع التناسب وانتفاء المانع من الوصل ، كالاتفاق في الجمل الإنشائية في قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين** ﴾[١].

وسوف نصطفي من كلام الله عز وجل مايكشف عن جمال الفصل والوصل في معاني الجهاد ؛ مستعينين بالله تعالى في هذا السبيل ، وهو خير معين .

وغنيّ عن البيان أن الفصل والوصل متداخلان ؛ بمعنى أن الآية الواحدة غالباً مايكون فيها كلام مفصول وآخر موصول ؛ ولذلك فلن يكون هناك دراسة خاصة بآيات الفصل وأخرى بآيات الوصل لما ذكر آنفا ؛ بل ستكون دراسة هذا الموضوع بسوق الآية ثم تدبّر مافيها من مواضع الفصل أو الوصل مع الإشارة إلى مايبرز فيها من أغراض بلاغية أخرى مراعاة لسياق النظم ودفعاً لتمزيق الآيـة عندما يذكر كل غرض على حده .

قال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً** ﴾[٢].

يقـول الفخر الرازي في بيان وجه النظم في هذه الآية وعلاقتها بمعنى ماقبلها : " اعلم أنه تعالى لما بين وجوب الجهاد[٣] بيّن أنه لاعبرة بصورة الجهاد ؛ بل العبرة بالقصد والداعي ؛ فالمؤمنون يقاتلون لغرض نصرة دين الله وإعلاء كلمته ، والكافرون يقاتلون في سبيل الطاغوت ، وهذه الآية كالدلالة على أن كل مـن كان غرضه في فعله

(١) التوبة : ١٢٣ .
انظر : شـروح التلخيص للقـزويني : ٩٢ - ١٠٥ ، ودلالات التـراكـيب : ٢٦٨ - ٣١٧ ، والبـلاغـة الاصطلاحـية : ٢٦٤ - ٢٧٧ ، وعلم المعـاني : للعـتـيق : ١٧٤ - ١٨٨ ، وعلم المعـاني للجندي : ١٨٧ ومابعدها ، والبلاغة فنونها وأفنانها : ٣١٠ - ٣٢٦ . وانظر بتوسّع : الفصل والوصل في القرآن الكريم. د/ منير سلطان.

(٢) النساء : ٧٦ .

(٣) في قوله : ﴿ **فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما ومالكم لاتقاتلون في سبيل الله .. الآية** ﴾ النساء : ٧٤ ، ٧٥ .

رضا غير الله فهو في سبيل الطاغوت ؛ لأنه تعالى لما ذكر هذه القسمة ؛ وهي أن القتال إمّا أن يكون في سبيل الله أو في سبيل الطاغوت وجب أن يكون ماسوى الله طاغوتا . . "[1] .

والغرض من استجلاب الموصول هو مافي صلته من النّص على إيمان من أسند إليهم القتال ، وذلك من خلال الفعل الماضي [آمنوا] الدال على أن قلوبهم قد عقدت على الإيمان وتمكّن فيها ؛ فهو الذي حملها على فعل القتال في سبيل الله من غير غرض سواه .

وقد أخبر عن المؤمنين بفعل القتال المضارع للدلالة على أن شأنهم هو ذلك فهم يقاتلون كلما دعا داعي الجهاد في سبيل الله حالاً أو مستقبلاً ، فشأنهم كذلك مستعدون للجهاد وليس مرّة ثم تنتهي .

وقوله [في سبيل الله] قيد مؤكد لمضمون إيمانهم ؛ فإن إيمانهم بالله وحده يحملهم على ألا يقاتلوا في سبيل غير سبيله فلا هوى عندهم ولارياء ولاسمعة ، وليس لهم غرض آخر دنيوي بل جعلوا الله نصب أعينهم فلم يكن أمامهم سوى سبيله .

وقوله [والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت] جملة موصولة بما تقدمها ، والذي سوّغ الوصل فيها اتفاق الجملتين في الخبرية ، والذي حسّن الوصل هنا هو وقوع التضاد والتقابل بين الجملتين ، وهو من محسنات الوصل بين الجمل ، فهو يزيد من التناسب بين الجملتين .

وماقيل عن الجملة الأولى من غرض استجلاب الموصول ومجيء الخبر جملة فعلية فعلها مضارع يقال هنا مع مراعاة المعنى .

وبوقوع الوصل بين الجملتين وقع التقسيم بين حال المؤمنين وحال الكافرين ؛ وذلك " أن المؤمن هو الذي يقاتل في سبيل الله ، وأن الكافر هو الذي يقاتل في سبيل الطاغوت ؛ ليبيّن للمؤمنين فرق مابينهم وبين الكفار ويقوّيهم بذلك ويشجعهم ويحرضهم ، وأن من قاتل في سبيل الله هو الذي يغلب ؛ لأن الله هو وليه وناصره ، ومن قاتل في سبيل الطاغوت فهو المخذول المغلوب "[2] .

---

(١) التفسير الكبير : ١٠/١٨٣-١٨٤ .

(٢) البحر المحيط : ٣/٢٩٦ .

وقوله [فقاتلوا أولياء الشيطان] فيه لطائف :

أولها : - دخول الفاء على فعل الأمر ، والغرض منها بيان استتباع ماقبلها لما بعدها وترتّبه عليه ؛ وهذه الفاء مفصحة عن محذوف دلّ عليه ماتقدم ، والتقدير : إذا كان الأمر كذلك فقاتلوا يا أولياء الله أولياء الشيطان ..[١].

وثانيها : - أن النص على مقاتلة أولياء الشيطان بهذا العنوان دليل على أن سبب مقاتلتهم هو كونهم قاتلوا في سبيل الشيطان ، وأن فعلهم ذلك سلكهم في جملة أولياء الشيطان . وهذا يفسّر كون الطاغوت هو الشيطان ؛ للأمر بمقاتلة أوليائه بعد بيان كون الكفار يقاتلون في سبيل الطاغوت ثم فسّره بأنه الشيطان وأولياؤه [٢].

وثالثها : - أن في النص على مقاتلة أولياء الشيطان أيضاً - إشعاراً بأن المؤمنين هم أولياء الله تعالى ؛ لأن قتالهم في سبيله [٣]، ولما كان الشيطان ولي الكافرين فإن الله عز وجل ولي المؤمنين ، وقد جاء ذلك صريحاً في قوله تعالى : ﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ [٤].

قوله [إن كيد الشيطان كان ضعيفاً] جاءت هذه الجملة مفصولة عما قبلها ؛ لوقوع التباين بينهما ؛ فبينهما كمال انقطاع ؛ فإن ماقبلها إنشاء تضمن أمرا ، وهذه الجملة خبر تضمّن تعليلاً لذلك الأمر .

والكيد هو السعي في فساد الحال على جهة الاحتيال عليه ، يقال : كاده يكيده إذا سعى في إيقاع الضرر على جهة الحيلة عليه [٥].

وقد أكّد الله عز وجل ضعف كيد الشيطان ومكره بمؤكدات ثلاثة :

---

(١) انظر : تفسير أبي السعود : ٢/٢٠٣ .

(٢) انظر : البحر المحيط : ٣/٢٩٦ ، وفتح القدير : ١/٤٨٧ .

(٣) انظر : تفسير أبي السعود : ٢/٢٠٢ .

(٤) البقرة : ٢٥٧ .

(٥) التفسير الكبير : ١٠/١٨٤ .

أولها : - الجملة الاسمية الدالة على ثبوت ضعف الكيد واستمراره ضعيفا .

وثانيها : - [إنّ] المقررة والمؤكّدة لذلك الضعف ؛ فهي بمثابة التكرير في الجملة لبيان ضعف الكيد الشيطاني .

وثالثها : - [كان] الواقعة في خبر [إنّ] الدالة على ضعف ذلك الكيد منذ كينونته أصلا . قال أبو حيان : " ودخلت [كان] في قوله [كان ضعيفاً] إشعاراً بأن هذا الوصف سابق لكيد الشيطان ، وأنه لم يزل ضعيفا " (١). وقال الرازي : " وفائدة إدخال [كان] في قوله [كان ضعيفا] للتأكيد لضعف كيده ، يعني أنه منذ كان موصوفاً بالضعف والذلة "(٢).

ولم يتعرض لبيان قوة جنابه تعالى إيذاناً بكمال ظهورها (٣).

ويقول تعالى في النهي عن تولي اليهود والنصارى : ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَايَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَاأَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ** ﴾ (٤).

لقد افتتحت الآية بنداء وجّه الخطاب فيه إلى كافة المؤمنين من حكام ومحكومين ، وصريح هذا الخطاب هو النهي عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء ؛ فلا تلقى لهم المودّة ولا الخُلّة ولاتطلب منهم النّصرة .

ووصف المنهيّين بعنوان الإيمان لحملهم من أول الأمر على الانزجار عما نهوا عنه ، وفي ذلك تذكير للمؤمنين بكونهم متصفين بصفات هي على الضدّ من صفات اليهود والنصارى فهؤلاء كافرون وأنتم مؤمنون ؛ وهذا من أقوى الزواجر في النهي

---

(١) البحر المحيط : ٢/٢٩٦ .

(٢) التفسير الكبير : ١٠/١٨٤ .

(٣) انظر : تفسير أبي السعود : ٢/٢٠٣ .

(٤) المائدة : ٥١ -٥٣ .

عن موالاتهم ، أي : لايتخذ أحد منكم أحداً منهم ولياً ، بمعنى لاتصافوهم مصافاة الأحباب ولاتستنصروهم [١].

وقوله [بعضهم أولياء بعض] إخبار عن طبيعتهم وسرّ ترك ولايتهم ؛ وهذا الخبر جاء بعد النهي المتقدم ، ونظراً لاختلاف الجملتين خبراً وإنشاء فقد فصلتا بترك العاطف ، وزاد في تحسين ذلك كون هذه الجملة الخبرية في سياق التعليل لذلك النهي ، كما أنها توكيد لإيجاب اجتناب المنهي عنه ، والمعنى : أن بعض اليهود أولياء بعضهم الآخر ، وكذلك النصارى [٢].

وفي العبارة غاية الإيجاز ؛ وإنما أوثر الإجمال تعويلاً على ظهور المراد لوضوح انتفاء الموالاة بين الفريقين رأسا [٣] ، ولكنهم متفقون على كلمة واحدة في كل مايأتون ومايذرون ، ومن لازم ذلك إجماعهم على مضارتكم وإلحاق الضرر بكم فكيف يتصوّر بينكم وبينهم موالاة ؟ ! [٤].

وتقديم اليهود على النصارى في النهي عن موالاتهم لكونهم أشدّ عداوة للمؤمنين من سواهم ؛ كما قال تعالى :﴿ **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا** .. ﴾ [٥].

وعطف النصارى على اليهود في النهي عن موالاتهم احتراس من أن يذهب الظن بالمسلمين بأن موالاة النصارى مأذون فيها لكونهم لم يندرجوا مع اليهود في النهي [٦] ، ولهذا دفع ذلك بهذا العطف المفيد اشتراكهم مع اليهود في الذم الموجب لترك ولايتهم ، ولكون السبب الداعي لعدم الموالاة واحداً في الفريقين ؛ وهو اختلاف الدين ومعاداة المؤمنين ، وتحزّب بعضهم لبعض ؛ فهم قد اتفقوا مع اليهود في عدم الرضى عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن المؤمنين حتى يرتدّوا عن الإسلام ويعتنقوا

---

(١) انظر : روح المعاني : ١٥٦/٦ .

(٢) انظر : فتح القدير : ٥٠/٢ .

(٣) انظر : تفسير أبي السعود : ٤٨/٣ ، بدليل قوله تعالى :﴿ **وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء** .. ﴾ . البقرة : ١١٣ .

(٤) انظر : روح المعاني : ١٥٧/٦ .

(٥) المائدة : ٨٢ .

(٦) انظر : التحرير والتنوير : ٢٢٩/٦ .

ملتهم ؛ وهذا صريح قوله عز وجل : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ .. ﴾ (١) ، فالنفي هنا تأبيدي واقع على حدث لفعل زماني الاستقبال غير محدّد بفترة ولا بأمد وإنما هو معلّق بغاية ، وهي الانسلاخ عن الإسلام واعتناق الملّة اليهودية أو النصرانية التي هي مناط فعل الرضى ، وعلى ذلك تفسّر كل مكائد اليهود والنصارى للمسلمين في مامضى من الزمان وفي هذه الأزمان من أجل الوصول إلى غايتهم وهي الضلال المبين والكفر بالدين ؛ ولهذا فهم ينفقون أموالهم في هذا السبيل، ولكنها بلطف الله وبرحمته تعود عليهم حسرة وندامة وخُسْرا وعلى المسلمين تمكيناً وتثبيتاً ونصرا ، وهذا هو صريح بشارة الله عز وجل لعباده المخلصين ؛ حيث قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٢).

والتنوين الواقع على [بعض] في قوله [بعضهم أولياء بعض] تنوين عوض فهو عوض عن محذوف ؛ أي : بعضهم أولياء بعضهم ؛ ففيه إيجاز بالحذف ، وفيه – أيضا – كناية عن نفي موالاتهم المؤمنين ، وعن نهي المؤمنين عن موالاة أي فريق منهما (٣).

وقوله [ومن يتولهم منكم فإنه منهم] جملة مستأنفة ، اشتملت على فعل شرط وجوابه ، والغرض منها سوق التهديد وتغليظ الوعيد لمن هذه صفته ، وأريد بها وجوب مجانبة المخالف في الدين حتى لايندرج في زمرته (٤).

والتحقيق فيمن فعل ذلك أنه إن كان على سبيل اعتقاد مذهبهم وصواب ملتهم فهو كافر مثل كفرهم ، وإن لم يكن كذلك بل كان ذلك التولي منه ضعفاً وخوراً فهو مرتكب لكبيرة من كبائر الذنوب وعلى خطر عظيم في دينه (٥).

---

(١) تتمة الآية : ﴿ قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من وليّ ولا نصير ﴾ البقرة : ١٢٠ .
(٢) الأنفال : ٣٦ ، ٣٧ .
(٣) انظر : التحرير والتنوير : ٦/٢٢٩ .
(٤) انظر : التفسير الكبير : ١٢/١٦ .
(٥) انظر : فتح القدير : ٢/٥٠ ، وروح المعاني : ٦/١٥٧ ، ومحاسن التأويل : ٢٠٢٥ – ٢٠٣٢ .

قال ابن عطية : " من تولاّهم بأفعاله من العَضْد ونحوه دون معتقدهم ولا إخلال بالإيمان فهو منهم في المقت والمذمة الواقعة عليهم وعليه " [١]، وهذا التأويل على التشبيه المحذوف الأداة ووجه الشبه وهو المؤكّد المجمل ، والتقدير : فهو كواحد منهم في استحقاق العذاب [٢].

يقول ابن عاشور : " وقد اتفق علماء السنة على أن مادون الرضا بالكفر وممالاتهم عليه من الولاية لايوجب الخروج من الربقة الإسلامية ، ولكنه ضلال عظيم ، وهو مراتب في القوة بحسب قوّة الموالاة وباختلاف أحوال المسلمين "[٣].

وقوله [إن الله لايهدي القوم الظالمين] تذييل للنهي والتهديد المتقدم ، وموقعه مما قبله موقع التعليل ؛ ولذلك جاء مفصولا . والجملة تفيد بطريق الكناية أن اليهود والنصارى من القوم الظالمين [٤]، وهم كذلك لكونهم كافرين أصلا ، وقد قال تعالى عن جملة الكافرين : ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [٥]. وفيها تعريض بمن يتولى القوم الظالمين بأن يكون من جملتهم ، أو تصرف عنه الهداية ابتداء . أو يقع له الأمران معا .

قوله [فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم] فيه لطائف بلاغية : .

أولها : - أن الفاء الداخلة على الفعل [ترى] سببية [٦]؛ فهي سيقت لترتيب المسبَّب على السبب ؛ فإن مافي حيّز الرؤية مترتب على عدم الهداية وفقدانها .

وثانيها : - الخطاب في فعل الرؤية موجّه إلى النبي عليه الصلاة والسلام بطريق التلوين ، وقد يكون متّجهاً إلى كل من له أهلية ذلك على سبيل العموم [٧]، وفي ذلك إيذان بظهور الحالة المذكورة وبروزها ؛ بحيث إن من له أدنى رؤية يدركها .

---

(١) المحرر الوجيز ١٢٧/٥ .
(٢) انظر : التحرير والتنوير : ٢٣٠/٦ .
(٣) التحرير والتنوير : ٢٣٠/٦ .
(٤) انظر : التحرير : ٢٣١/٦ .
(٥) البقرة : ٢٥٤ .
(٦) انظر : روح المعاني : ١٥٧/٦ .
(٧) انظر : روح المعاني : ١٥٧/٦ .

وثالثها : - أن الرؤية لها تأويلان ؛ فقد تكون بصرية حسّية ، ويكون [الذين في قلوبهم مرض] هم الذوات المرئية ، وتصبح جملة [يسارعون فيهم] حالية ترسم هيئتهم وأساليب وقوعهم في مولاة اليهود والنصارى من أقوال أو أفعال تغمسهم في تلك الموالاة .

وقد تكون الرؤية قلبية تتطلب مفعولين ؛ أولهما [الذين في قلوبهم مرض] ، وثانيهما [يسارعون فيهم] ، وعلى ذلك فتكون مسارعتهم في مولاة اليهود والنصارى في الأصل إخباراً عنهم بالجملة الفعلية الدالة على تجدّد فعلهم ذلك وحدوثه، وبخاصة في أوقات الشدائد والكروب التي تلمّ بالمسلمين ؛ فعندئذٍ يكونون أوعية وآذاناً لهم ينقلون لهم أخبار أحوال المسلمين بسخرية وإزدراء ؛ لاعتقادهم أنهم قد دخلوا في حماية سادتهم من الكفار ، وأنهم أعزّاء أقوياء بهذه الولاية ، وهذه الولاية ومظاهرها لاتكون إلا من المنافقين المندسّين في جملة المسلمين ، وقد كشف الله عز وجل صورتهم وأبان حقيقة أمرهم وسخر منهم في قوله سبحانه : ﴿ **بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** ﴾ (١)؛ فقد بُشّروا - على سبيل السخرية - بأن العذاب المؤلم ينتظرهم ، كما سُلبوا العزة التي ظنوا أنهم ظفروا بها ، وألقي في روعهم أن العزة الكاملة لاتكون إلا لله ومن الله ، وأكد ذلك الخبر باسمية الجملة وبحرف التوكيد المشدّد ، وبأل الداخلة على لفظ [العزة] المفيدة استغراق جنسها وكمالها ، ثم جاءت الحال المؤكدة [جميعاً] لتضفي على المعنى توكيداً وشمولا ، فلم يخرج عن تلك العزة عزة تستحق الذكر أو الوصف بهذا العنوان ؛ ولهذا فقد قصر الله عز وجل العزة عليه وعلى رسوله وعلى المؤمنين في موضع آخر فقال سبحانه في شأن المنافقين إيّاهم : ﴿ **يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ (٢)، وهنا بعد ذلك القصر جُرّد المنافقون من فعل العلم حالاً واستقبالاً ، وحكم عليهم بالجهل ، وهذا يفسّر بحثهم عن العزة عند الكافرين فما هو إلا جهل في الأسلوب وفي المصدر .

---

(١) النساء : ١٣٨ ، ١٣٩ .
(٢) المنافقون : ٨ .

ومايزال المنافقون في ذلك الزمان وفي هذه الأزمان يتخبطون في هذا الجهل ويبحثون عن العزة والنصرة والولاية من الكافرين يهوداً كانوا أم نصارى أم سواهم يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة أو تحل بنا قارعة وماعلموا أن الناصر هو الله عز وجل وأن الدافع للشر هو الله وحده لو كانوا مؤمنين ؛ فقد قال عزّ من قائل : ﴿ .. وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١)، وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لاَيُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ (٢).

ورابع اللطائف : - هو الإتيان بالموصول دون ضمير القوم ؛ والغرض منه الإشارة بما في حيّز الصلة إلى ما ارتكبوه من اتخاذ اليهود والنصارى أولياء بسبب ماكمن في قلوبهم من المرض (٣)، وهو الريب والنفاق وضعف الإيمان . ومن عجب أن جاء الإخبار عن نفاقهم ومرض قلوبهم بالجملة الاسمية [في قلوبهم مرض] التي تفيد تمكن ذلك المرض واستقراره وثباته في تلك القلوب ، وقد نكّر ذلك المرض ليدخل فيه أنواع متعددة تنافي كمال الإيمان وقد تأتي عليه بالكلّية ، وقد يكون غرض التنكير تعظيم ذلك المرض وتهويله ؛ وينبني عليه أن كل مافعلوه أو قالوه مما هو مضادّ للإيمان فهو من نتائج مرضهم ومن آثاره . وتسمية النفاق مرضاً لكونه مفسداً للإيمان(٤) قاضياً عليه إذا عظم ، كما يفسد المرض صحة الأبدان ويقضي عليها إذا تمكن واستشرى .

وخامسها : - التعبير عن رغبتهم في الموالاة المذمومة بقوله : [يسارعون فيهم] فاجتلب [فيهم] مبالغة في بيان رغبتهم فيها وتهالكهم عليها (٥)، وفي المجرور محذوف مقدّر دلت عليه القرينة ؛ لأن المسارعة لاتكون في الذّوات ، وإنما في الموالاة والاستنصار (٦).

وكان مقتضى الظاهر أن تكون المسارعة إليهم لافيهم ؛ ولكن إيثار الحرف

---

(١) الأنفال : ١٠ .
(٢) الحج : ٣٨ .
(٣) انظر : روح المعاني : ١٥٧/٦ .
(٤) انظر : التحرير : ٢٣١/٦ .
(٥) انظر : ورح المعاني : ١٥٧/٦ .
(٦) انظر : التحرير : ٢٣٢/٦ .

[في] دون [إلى] لنكتة ؛ وهي الدلالة على أنهم مستقرون في تلك الموالاة منغمسون فيها داخلون في عداد مَنْ والوهم [١] ، فالتعبير بفي أبلغ في الدلالة على التمكن في موالاة الكفار بخلاف التعبير بـ [إلى] التي تفيد مجرد الانتهاء .

وقوله [يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة] جملة حالية من فاعل [يسارعون] سيقت لبيان حالهم في أثناء مسارعتهم ؛ فكأنما قولهم هذا من مسوّغات تهالكهم في أحضان اليهود والنصارى ، فهم يتعلَّلون به ويتلهّون .

هذا ويحتمل أن تكون جملة [يقولون ..] مستأنفة استئنافاً تعليلياً جواباً عن سؤال عن سرّ مسارعتهم تلك ؛ فكانت خشيتهم من الدوائر هي العلّة [٢] .

والدائرة اسم فاعل من دار إذا عكس سيره ، ويراد منها في الاستعمال تغيّر الحال ، ويغلب إطلاقها على تغيّر الحال من خير إلى شرّ ، ودوائر الدهر ؛ نوائبه ودوله التي تخشى كالهزائم والأمراض المفجعة ، والحوادث المخوفة ، وانحباس الأمطار ، ونحو ذلك [٣] ؛ فكان تنكير [دائرة] إبهاماً لها ، وتعميماً لأنواعها ، وقد يكون المراد على ماقال الزجاج : " نخشى أن لايتم الأمر لمحمد صلى الله عليه وسلم فيدور الأمر كما كان قبل ذلك "[٤] .

وإسناد الإصابة إلى الدائرة إيجاز ، وتجوّز في الاستعمال ، لأن الدائرة لاتصيب بنفسها ، وإنما الذي يفعل ذلك هو فاعلها أو المتسبِّب في وقوعها . ومهما يكن فإن الدائرة مستعارة لنوائب الزمان بملاحظة إحاطتها[٥] .

قوله [فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده ..] كلام مستأنف من الله عز وجل ردّاً لعللهم الباطلة وقطعاً لأطماعهم الفارغة وتبشيراً للمؤمنين بالظفر [٦]؛ لأنه في سياق الرجاء ، والكريم إذا أطمع في خير فعله ، فهو بمنزلة الوعد الذي تتعلق النفس به وترجو وقوعه [٧] .

---

(١) انظر : روح المعاني : ١٥٧/٦ ، وفتح القدير : ٥٠/٢ .
(٢) انظر : فتح القدير : ٥٠/٢ .
(٣) انظر : التحرير : ٢٣٣/٦ ، والتفسير الكبير : ١٦/١٢ .
(٤) التفسير الكبير : ١٦/١٢ .
(٥) انظر : روح المعاني : ١٥٨/٦ .
(٦) انظر : تفسير أبي السعود : ٤٩/٣ .
(٧) انظر : التفسير الكبير : ١٦/١٢ .

والمقصود بالفتح فتح مكة أو فتح قرى اليهود للمسلمين ، أو هو نصر المسلمين على كل من خالفهم في الدين [١] .

والمقصود بالأمر هو قطع أصل اليهود أو إخراجهم من ديارهم أو قتل ذراريهم، وقيل : هو إظهار نفاق المنافقين . وتنكير [أمر] لغرض التعظيم ، وإيقاع الرعب في قلوب المنافقين ، ولاسيما وقد بُيّن هذا الأمر بكونه من عند الله لامن أحد سواه وهو أنكى وأفظع .

وقوله [فيصبحوا على ما أسرّوا في أنفسهم نادمين] فيه لطائف :-

أولها : - دخول فاء السببية على فعل [يصبحوا ..] وهي تفيد أن مابعدها مسبَّب عما قبلها ؛ فظهور ندمهم وانكشاف أمرهم يعقب وقوع الفتح أو الأمر الربّاني، وهذا يدل على تشاكل الطبائع والهموم بين المنافقين والكافرين ؛ فإن الفتح يسرّ المؤمنين ويسوء المنافقين والكافرين .

وثانيها : - أن صيرورتهم إلى الندم بعد الفتح أو الوقيعة بهم - دليل على أنهم كانوا مسرورين بتلك الولاية التي أعطوها لليهود والنصارى ، وهذا تأكيد على اقتناعهم بها ومسارعتهم فيها . وفيه إشارة إلى أن العاصي لاتدوم لذته ولايهنأ بمعصيته بل سرعان مايقع في الندم وينتهي إليه ولات ساعة مندم .

وثالثها : - أن ما أسرّوه في أنفسهم هو أمر مغاير لما قالوه سابقاً ، وأنه ليس سوى الكفر والشك في أمر النبي عليه الصلاة والسلام ، وتعليق الندامة به لابما كانوا يظهرونه من موالاة الكفرة لما أنه هو الذي كان يحملهم على تلك الموالاة ويغريهم بها ؛ وقد دلّ ذلك على شدّة ندامتهم عليها بأصلها وسببها [٢] .

ورابعها : - التعبير عن ندمهم باسم الفاعل [نادمين] بصيغة الجمع فيه إشعار بأن الندم قد بلغ منهم كلّ مبلغ، وإشعار بأنهم كانوا يسرّون نفاقهم وكفرهم ويجتمعون عليه ، فإذا فضحوا اجتمعوا على الندم وصار شعارهم .

وقوله جل وعزّ ﴿ **ويقول الذين آمنوا ..** ﴾ قريء بإسقاط الواو وإثباتها [٣]؛ فمن

---

(١) انظر : تفسير أبي السعود : ٤٩/٣ .
(٢) انظر : تفسير أبي السعود : ٤٩/٣ .
(٣) انظر : علل القراءات : ١٦٥/١ .

فصل وأسقط الواو جعله استئنافاً بيانياً جواباً عن سؤال مقدّر ناشيء عن ظهور ندم المنافقين وانكشاف أمرهم ؛ فكأنه قيل : ماذا يقول الذين آمنوا حينئذٍ ؟ . فكان ذلك الجواب .. [١].

ومن وصل وأثبت الواو فإن الأظهر أنه قد عطف بالنصب على [فيصبحوا ..] وهو أولى من العطف على [أن يأتي] لأن قول المؤمنين المذكور إنما يصدر عنهم عند ظهور ندامة الكافرين لاعند إتيان الفتح[٢] ؛ لأن ندمهم مترتب على أحد أمرين إما الفتح أو وقوع أمر الله بهم .

وأما على رفع [ويقولُ ..] فهو على أنه كلام مبتدأ مبين مقالة المؤمنين في ذلك الوقت [٣].

ولكن مافائدة إظهار قول المؤمنين في هذا المقام ؟

الذي يظهر أن من وراء تسجيل كلام المؤمنين في هذا المقام فائدتين :

أولهما : - ذكرها الفخر حين قال : " الفائدة في أن المؤمنين يقولون هذا القول هو أنهم يتعجبون من حال المنافقين عندما أظهروا الميل إلى موالاة اليهود والنصارى ، وقالوا : إنهم يقسمون بالله جهد أيمانهم إنهم معنا ومن أنصارنا ؛ فالآن كيف صاروا موالين لأعدائنا محبين للاختلاط بهم والاعتضاد بهم ؟ "[٤].

وثانيهما : - أن أفراح المؤمنين وأتراحهم هي علامة فارقة بين الإيمان والنفاق؛ فإن المؤمن يسر للأفراح والانتصارات ، ويحزن للمصائب والابتلاءات ، وأما المنافق فعلى عكس ذلك ؛ فإن هذه المواقف تكشف عن نفاقه ، فهو يسرّ للمصائب والهزائم على المؤمنين ، ويحزن للأفراح ويندم على الفتوح التي يمكّن الله منها المؤمنين ، ودليل ذلك هو صريح هذه الآية ، ومنطوق قوله عز وجل : ﴿ **إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ** ﴾ [٥].

---

(١) انظر : الكشاف : ٣٢/٢ ، والتحرير : ٢٣٣/٦ .
(٢) انظر : فتح القدير : ٥١/٢ .
(٣) انظر : غرائب القرآن : ١١٢/٦ .
(٤) التفسير الكبير : ١٨/١٢ .
(٥) التوبة : ٥٠ .

والغرض من الاستفهام في مقالة المؤمنين [أهؤلاء الذين أقسموا بالله ٠٠] التعجب ؛ أي : يقول المؤمنون بعضهم لبعض مشيرين للمنافقين متعجبين من حالهم ؛ حيث انعكس مطلوبهم وهتكت أستارهم [١]٠ ودخول الهاء على اسم الإشارة لإعطاء اسم الإشارة مزيداً من التنبيه في سبيل تسليط الضوء على المشار إليه تعجباً من حالهم ٠ والتعبير باسم الإشارة دون غيره من المعارف كالضمير مثلاً – لاستحضار ذوات المشار إليهم واستذكار مواقفهم المتعجَّب منها ٠

وقوله [جهدَ أيمانهم] تفسير للمقسم المذكور مفصول عنه وهو منصوب إما على المصدرية من معنى القسم ، أو على الحالية أي مجتهدين ٠ وجهد الأيمان : أغلظها وأقواها ، أي : أقسموا أقوى قسم ، وذلك بالتوكيد والتكرير ونحو ذلك مما يغلّظ اليمين عرفا [٢]٠

وقوله [إنهم لمعكم] جواب القسم المغلّظ ، وقد أكد فضلا على كونه جواب القسم بإنّ وباسمية الجملة وباللام ، كل ذلك في سبيل السَّتر على نفاقهم ، ولكن الله عز وجل أخرج ماكانوا يكتمون ٠

وقوله [حبطت أعمالهم] الراجح أنها جملة مستأنفة من كلام الله عز وجل [٣]، وليست من جملة كلام المؤمنين ، ولذلك فصلت عما قبلها لكون ماقبلها جملة إنشائية ، وهذه جملة خبرية مستأنفة ؛ فبينهما كمال انقطاع ٠

ومعنى حبطت أعمالهم : فسدت وتلفت[٤] ؛ لأنه من الحَبَط ، وهو أن تكثر الدابة أكلاً حتى ينتفخ بطنها[٥] ؛ فاستعير ذلك اللفظ لفساد الأعمال وتلفها بجامع الخسران في كلّ ؛ ولذلك قال في فاصلة الآية [فأصبحوا من الخاسرين] والفاء لترتيب خسارتهم على فساد أعمالهم ، والذي أفاد ذلك هو فعل الإصباح الذي يفيد الصيرورة والانتقال من حال إلى حال ، ولهذا فإن لفظة [أصبحوا] أفادت معنى

---

(١) انظر : الفتوحات الإلهية : ٥٠١/١ ٠
(٢) انظر : الفتوحات الإلهية : ٥٠١/١ ،والتحرير : ٢٣٣/٦ ٠
(٣) انظر : الفتوحات الإلهية : ٥٠١/١ ٠
(٤) انظر : التحرير : ٢٣٤/٦ ٠
(٥) انظر : المفردات : ١٠٦ ٠

حسناً جميلاً ، ذلك أنه لما أخبر الله عز وجل بأنّ أعمالهم قد حبطت علم أنهم قد صاروا إلى الخسران ، ولكن الذي جزم بذلك وقطع به هو الفعل [أصبحوا] ولهذا فقد استقرّت في موضع لايصلح فيه غيرها ، ولايتم المعنى إلاّ بها (١) .

والتعبير عن خسرانهم باسم الفاعل إشعار بأنهم قد بلغوا في الخسران منتهاه ، وجعل الخسران فاصلة للآية إرشاد إلى أن عاقبة موالاة اليهود والنصارى هي هذه (٢) .

---

(١) انظر : إعراب القرآن وبيانه : ٢/٥٠٥ .

(٢) ولمزيد من الوقوف على مواضع الفصل والوصل في هذا البحث ؛ انظر من هذا البحث : ١٢١ ، ١٣٧ ، ١٥٣ ، ١٨٧ ، ٢٢٧ ، ٢٤٦ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٦ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٧١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩١ ، ٣٩٣ ، ٣٩٦ ، ٤١٥ ، ٤٢٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٦ ، ٤٨٨ ، ٤٩٠ ، ٥١٠ ، ٥٢٣ ، ٥٣٢ ، ٥٣٥ .

الجملـــة الحاليـــة

يلحق كثير من البلاغيين - ومنهم عبدالقاهر - موضوع الجملة الحالية بباب الفصل والوصل ؛ وذلك لأن هذا الموضوع يتعلق بالجملة من جهة ، ومن جهة أخرى مايبنبي على إثبات واو الحال وإسقاطها من اللطائف البلاغية والمعاني الدلالية مما له أثر في نظم الكلام ، فأصبح لجملة الحال في الصورة حالتا فصل ووصل ، ولهذا ناسب تذنيب باب الفصل والوصل بها .

والأصل في الحال المفردة أن تكون بغير واو ؛ لأنها في المعنى حكم على صاحبها كالخبر ، ووصف له كالنعت ، وأما الحال الجملة فإنها تستقل بالإفادة ؛ ولهذا فإنها تحتاج إلى رابط يربطها بصاحبها ، وهذا الرابط قد يكون هو ضمير صاحب الحال ، وقد يكون الواو الحالية . وهذه الواو لاتسقط ولاتثبت عبثاً ، بل لذلك دواع توجبها ، وأخرى تحسّنها فصلاً أو وصلا .

ويمكن إجمال مواضع الجملة الحالية مع الواو في الآتي : -

١ - الجملة الاسمية الحالية لاتأتي إلا مقترنة بالواو ؛ وذلك إظهاراً لقصد الإفادة المستأنفة ، وبخاصة إذا كان المبتدأ فيها ضمير صاحب الحال ؛ كقوله تعالى : ﴿ .. فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

٢ - الجملة الفعلية الحالية إما أن يكون فعلها ماضياً أو مضارعاً ؛ فإن كان ماضياً مقروناً بقد ظاهرة أو مقدرة فإنّها تقترن بالواو غالباً ، وربما لاتقترن بها ، وكذا حكم الجملة الفعلية الحالية التي فعلها مضارع منفي .

وأما جملة المضارع المثبت فإنّها تجرّد من الواو ، ويكفي ضميرها رابطاً لها ، وهي حينئذٍ شبيهة بالحال المفردة في تجريدها من الواو (٢) .

---

(١) البقرة : ٢٢ .

(٢) انظر في الموضوع بتوسّع : دلائل الإعجاز : ٢٠٢ - ٢٢٠ ، التلخيص في علوم البلاغة بشرح عبدالرحمن البرقوقي : ١٩٦-٢٠٩ ، تلخيص المفتاح وشرحه مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني : ١٨٩ - ١٩٨ ، المعاني البلاغية في الأساليب العربية : ٢/٣١١ - ٣١٥ ، البلاغة فنونها وأفنانها : علم المعاني : ٣٢٨ - ٣٣٧ وغيرها .

ومما ورد من الجمل الحالية في آيات الجهاد قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَتَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَيَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَاعَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَاتُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١).

جاء في سبب نزول هذه الآية عن ابن عباس ومجاهد أنها " نزلت في قوم من المؤمنين كانوا يصافون المنافقين ، ويواطئون رجالاً من اليهود ؛ لما كان بينهم من القرابة والصداقة والحلف والجوار والرضاع ؛ فنهاهم الله عن مباطنتهم خوف الفتنة منهم عليهم "(٢).

وقد افتتحت الآية بنداء موجّه إلى كل من اتصف باسم الإيمان ؛ لأنه أحرى بسماع هذا النداء والاستجابة إلى مافي حيّزه فعلاً أو تركاً ، وبعد مقدمة الآية الإيمانية برز المقصود من سياقها وهو النهي عن اتخاذ جنس الكفار أولياء من دون المؤمنين ، تكشف لهم الأسرار ، وتُرفع عنهم الأستار .

والبطانة في الأصل : هم خاصة الرجل وأصفياؤه ؛ الذين يستبطنون أمره ، ويفضي إليهم بشُقُوره ثقة بهم (٣). ويسمى الذي يخصّه الإنسان بمزيد التقريب بطانة ؛ لأنه بمنزلة مايلي بطنه في شدة القرب منه ؛ وعلى ذلك فهذه اللفظة مستعارة لمن تلك حاله ، فقد شبّهت حال من قرب من الإنسان واطلع على جميع أموره بحال الثوب الذي يلي بطن الإنسان ويلتصق بجسده ؛ بجامع التمكن والإحاطة في كلّ ، وهي استعارة تصريحية أصلية ، أريد منها تصوير ماكان يجري من بعض المسلمين مع بعض اليهود والمنافقين بهذه الصورة ، ثم تمكين النهي عنها في نفوس المؤمنين بحيث لايقارنونها أو يدنون منها . على أن (بطانة] نكرة اندرجت في سياق النفي فأفادت عموم النفي في كل بطانة كافرة (٤).

---

(١) آل عمران : ١١٨ .

(٢) غرائب القرآن : ٤٧/٤ .

(٣) انظر : النكت والعيون : ٤١٩/١ ، والكشاف : ١٩٦/١ ، والشُّقُور : الأمور اللاصقة بالقلب المهمة له ، ومفردها : شقر .

(٤) انظر : التفسير الكبير : ١٩٧/٨ .

وقوله [من دونكم] أي من غير المسلمين ؛ فالجار والمجرور متعلق بفعل النهي ؛ وهو أولى من تعلقه بنعت بطانة المحذوف ؛ لأن الغرض ليس هو النهي عن اتخاذ البطانة ، وإنما النهي عن الاتخاذ من غير أبناء جنسهم وأهل ملتهم ؛ فمن بيانية (١) .

وقوله [لايألونكم خبالا] أصل الألو : التقصير ؛ يقال : ألاَ يألو إذا قصر وفتر وضعف (٢) ، والمعنى : لايقصّرون في جلب الخبال لكم (٣) .

والخبال : " الفساد الذي يلحق الحيوان فيورثه اضطراباً كالجنون والمرض المؤثر في العقل والفكر "(٤) ؛ وعلى ذلك فالخبال يطلق على اختلال الأمر وفساده ، ومنه سمّي فساد العقل خبالا (٥) ، وقد يكون في التعبير الكريم تهكّم بالبطانة تلك ، لأن الأصل في شأن البطانة أن يسعوا إلى مافيه خير لمن استبطنهم ؛ فلما كان أولئك بضد ذلك عبّر عن حالهم تلك بما هو نقيض فعل البطانة تهكماً وسخرية بهم على سبيل الاستعارة التهكمية ، وإشعاراً بأن المنهيين على خطأ عظيم في ذلك الاتخاذ .

وقوله [ودّوا ماعنتم] الودّ : محبّة الشيء وتمنّي كونه (٦) ، وما : مصدرية ، وعنتم : من الفعل عنت : " والمعانتة كالمعاندة ، لكن المعانتة أبلغ ؛ لأنها معاندة فيها خوف وهلاك ، ولهذا يقال : عَنَت فلان إذا وقع في أمر يُخاف منه التلف يَعْنُت عنتاً " (٧) ، ولما كان أولئك البطانة ليسوا معاندين للمسلمين فحسب بل يحبون إلحاق الضرر بالمسلمين في دينهم ودنياهم بينت حالهم بجملة تكشف عن خبيئة مافي نفوسهم ؛ فكانوا يحملون هَمّ العنت المفضي إلى هلاك المسلمين ، وليس معاندة للإسلام وأهله فقط .

ولكن أليس عدم تقصيرهم في اجتلاب الخبال والفساد للمسلمين هو عين العنت والمشقة ؟ فلم نص عليه وأظهر مستقلا عن سابقه ؟ .

---

(١) انظر : غرائب القرآن : ٤٧/٤ .
(٢) انظر : روح المعاني : ٣٧/٤ .
(٣) انظر : المفردات : ٢٢ .
(٤) المفردات : ١٤٢ .
(٥) انظر : التحرير : ٦٤/٤ .
(٦) انظر : المفردات : ٥١٦ .
(٧) المفردات : ٣٤٩ .

يقول الفخر الرازي : " الفرق بين قوله [لايألونكم خبالا] وبين قوله [ودّوا ماعنتم] في المعنى من وجوه : -

الأول : - لايقصّرون في إفساد دينكم ، فإن عجزوا عنه ودّوا إلقاعكم في أشد أنواع الضرر .

الثاني : - لايقصّرون في إفساد أموركم في الدنيا ؛ فإذا عجزوا عنه لم يَزُل عن قلوبهم حبّ إعناتكم .

الثالث : - لايقصّرون في إفساد أموركم ؛ فإن لم يفعلوا ذلك لمانع من خارج فحبّ ذلك غير زائل عن قلوبهم "[١].

وبذلك يعلم أن قوله [ودّوا ماعنتم] حال أخرى من أحوالهم وهيئة من هيئاتهم ، ولعلهم يستعينون بحالهم الأولى [لايألونكم خبالا] في سبيل تكميل حالهم الثانية وتتميمها مع المسلمين ؛ ولشدّة مابين حال الوصفين من ترابط وتلازم سقط العاطف بينهما ، لكمال الاتصال في معناهما ؛ لأن وجود العاطف مؤذن بالتغاير بينهما .

وقوله [قد بدت البغضاء من أفواههم] فيه لطائف بلاغية :

أولها : - دخول [قد] التحقيقية على الفعل الماضي مفيد تأكيد فعل البُدُوّ وتحقّقه .

وثانيها : - في إسناد الفعل [بدت] إلى [البغضاء] توسّع في الاستعمال ، لأن [البغضاء] لايصدر منها فعل الظهور ، وإنما الذي يُظْهرها أصحابها المتكلمون بها ، وفي ذلك إيذان بأن هذه البغضاء من الظهور بمكان بحيث لايمكن إخفاؤها ، وكأنما هي التي تفعل الظهور وتزاوله .

وقد يكون في التعبير استعارة مكنية ؛ وذلك بتشبيه البغضاء بعدو شأنه التخفّي ثم الظهور في النهاية بجامع الاستتار ثم البروز في كلّ ، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الفعل [بدت] على سبيل الاستعارة المكنية التخيلية .

والبغضاء في الأصل : هي أشد البغض ؛ لأن البغض مع البغضاء كالضرّ مع الضراء[٢].

---

(١) التفسير الكبير : ١٩٩/٨ .

(٢) انظر : التفسير الكبير : ١٩٩/٨ .

وثالثها : - في ذكر الأفواه والنّص عليها دون الألسنة إشعار بأن ماتلفّظوا به كان يواطئ قلوبهم ؛ ولذلك فهم يملؤون به أفواههم تلذّذاً وتشفّيا من المسلمين ٠

ورابعها : - لما ذكر تعالى ما انطوى عليه ودادهم عنت المؤمنين وهو إخبار عن فعل قلبي – ذكر ما أنتجه ذلك الفعل القلبي من الفعل البدني ؛ وهو ظهور البغض منهم للمؤمنين في أقوالهم ؛ فجمعوا بين كراهة القلوب وبذاءة الألسن [١] ٠

خامسها : - قد يكون المراد من بدوّ البغضاء من أفواههم ظهورها من فلتات أقوالهم ولحن كلامهم ، كما قال تعالى عن المنافقين ﴿ **ولتعرفنهم في لحن القول** ﴾[٢]؛ فيكون التعبير عن البغضاء تعبيراً عن دلائلها وأماراتها [٣] ٠

ولما كان ما أبطنوه من الشر والإيذاء للمؤمنين والبغض لهم أعظم مما ظهر منهم قال تعالى في بيان حالهم هذه : ﴿ **وماتخفي صدورهم أكبر** ﴾ ٠

قال أبو حيّان : " وأسند الإخفاء إلى الصدور مجازا ؛ إذ هي محال القلوب التي تُخفى "[٤] ٠

وكون صلة الموصول فعلاً مضارعاً إيذان بأن إضمارهم ذلك يتجدّد ويحدث في كل وقت ولم ينته بعد ؛ فينبغي التنبه له ٠

و [أكبر] أفعل تفضيل حذف فيه المفضل منه اختصاراً لظهوره ، والتقدير : أكبر مما بدا ، وفي حذفه وقع نفسي وأثر معنوي على السامع ؛ حيث يذهب ذهنه في تصوّر ذلك المُفَضل المخفي الذي وصل كبره إلى هذا الحدّ كل مذهب ٠ كما أن عدم ذكر المفضل منه فيه تناسٍ له وكأنّه ليس بشيء بجانب المخفى الذي استقل هو بالكِبَر والذكرِ وحده ؛ ففي ذلك تهويل وتعظيم لما تخفي صدورهم ٠

ولقد اختلفت آراء العلماء في الجمل الثلاث المتقدمة : [لايألونكم خبالا] [ودوا ماعنتم] [قد بدت البغضاء من أفواههم] مع جزمهم بكون [وماتخفي صدورهم أكبر] حالية ، فأبو حيّان يرى أن تلك الجمل لاموضع لها من الإعراب ؛ وإنما جاءت بياناً لحال البطانة الكافرة لتنفير المؤمنين عن اتخاذهم بطانة كافرة ، وجعل تلك

---

(١) انظر : البحر : ٣٩/٣ ٠
(٢) محمد : ٣٠ ٠
(٣) انظر : التحرير : ٦٤/٤ ٠
(٤) البحر : ٣٩/٣ ٠

الجمل وصفاً أو حالاً يؤذن بجواز الاتخاذ عند انتفائهما [(١)].

وأما غير أبي حيّان فقد رأى رأياً لخصه النيسابوري حيث قال : " ثم إن سياق هذه الجمل يحتمل أن يكون على سبيل تنسيق الصفات للبطانة ؛ كأنه قيل : لاتتخذوا بطانة غير آليكم خبالاً وادّين عنتكم بادية بغضاؤهم .

وأمّا قد بينا فكلام مبتدأ ، وأحسن من ذلك وأبلغ أن تكون الجمل مستأنفات كلها على جهة التعليل للنهي .. ؛ فكأنه قيل : لم لانتخذهم بطانة ؟ فقيل : لأنهم لايقصرون .. ، فقيل : لم يفعلون ذلك ؟ فقيل : لأنهم يودّون عنتكم . ثم قيل : وما آية ودادة العنت ؟ فقيل : قد بدت .. والله أعلم .

وأما كون هذا التقدير أحسن ؛ فلأن الجمل المتعاقبة على سبيل التنسيق يتوسّط بينها العاطف ولا عاطف ههنا ، وأما كونه أبلغ ؛ فلبناء الكلام على السؤال والجواب ، ولتقليل اللفظ ، وتكثير المعنى ، ولإثبات الدعاوى بالبراهين ، ولايخفى جلالة قدر هذه الفوائد "[(٢)].

ومع وجاهة ماذكره النيسابوري ، وظهور وجه حسنه البلاغي ، إلاّ أن وقوع تلك الجمل أحوالا منتقلة وارد ، وقد يكون هذا الورود مستحسناً ؛ لما يكمن وراءه من السّر البلاغي ؛ وبيان ذلك : أن القوم الذين نزل فيهم النصّ الكريم ، وحذّر المؤمنون من اتخاذهم بطانة هم اليهود والمنافقون وسائر الكافرين ، وهؤلاء قوم أعداء ألدّاء للمسلمين في جملتهم ، وقد حكى الله تعالى عنهم من شدّة عداوتهم للمؤمنين وسخريتهم بهم وعدم رضاهم عنهم وتمني زوالهم مايطول ذكره ..[(٣)] ، وماذاك إلا بسبب كفرهم وإقامتهم على هذا الكفر ، ولكنهم إذا انتقلوا من هذا الكفر إلى الإسلام وخالطت بشاشة الإيمان قلوبهم أو قلوب بعضهم تغيًرت أحوالهم ، وتعدّلت صفاتهم إلى أضدادها ، فليس ماذكر عنهم ضربة لازب فيهم ، وطبعاً في خِلْقَتهم ،

---

(١) انظر : البحر : ٣٨/٣ .

(٢) غرائب القرآن : ٤٨/٤ .

(٣) من ذلك قوله تعالى : ﴿ **لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا** ﴾ المائدة : ٨٢ . وقوله : ﴿ **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم** .. ﴾ البقرة : ١٢٠ . وقوله عن المنافقين : ﴿ **هم العدو فاحذرهم** .. ﴾ المنافقون : ٤ .

ووصفاً ثابتاً لاينفك عنهم ، بل ذلك معلّق بكفرهم ، ومرهون بفساد معتقدهم ، يزول بزواله ، وينتقل بانتقاله ، بدليل دخول كثير من الكفرة والمشركين واليهود والنصارى وسواهم في دين الله أفواجاً ، وتوبة بعض المنافقين من النفاق وندمهم على ذلك ، فتغيّر ماكان فيهم وتخلّقوا بأخلاق المؤمنين وصاروا يحبون لهم الخير ويكرهون وقوع الشر بهم ، وانخرطوا معهم في سلك الأخوة وانضموا إلى ركب الجهاد الإسلامي ، وحقق الله على يديهم من الفتوح والعلوم ماهو ظاهر مشهور ٠

والذي يصوّر هذه الحالة ويرسم هيئتها هو الحال المنتقلة التي هي وصف عارض لحالة معينة ، وليست وصفاً ثابتاً مستقراً كما تفيده الحال اللازمة ٠ ومادام الوجه الإعرابي يحتمل الحالية فإن الصيرورة إليها أنسب للمعنى لما تقدم بيانه ٠

وممن ذكر كون تلك الجمل أحوالاً العكبري[(١)] ، والحلبي[(٢)] ، مع جملة أقوال ساقوها في تأويلها النحوي ٠

وعلى ذلك فإن جملة [لايألونكم خبالا] مبينة لحال البطانة ، والمضارع المنفي يسوغ اقتران واو الحال به وحذفها منه كما في النص الكريم ٠

وأما جملة [ودّوا ماعنتم] ففعلها ماض ؛ و [قد] مع هذا الفعل مرادة ومقدرة[(٣)]؛ لكون هذه الجملة حالية ٠

وأما [قد بدت البغضاء من أفواههم] فـ [قد] هنا مذكورة فلا حرج من كون هذه الجملة حالية ٠

وأما سقوط الواو بين هذه الجمل فإنه مؤذن بأن كل جملة لتمام تحقق معناها مستقلة عن غيرها ، ولكن مع اتصال معنوي بينها ؛ ذلك أن كون الكفرة لايقصّرون في جلب الفساد والخبال إلى المؤمنين فإن ذلك دليل على محبتهم لما يشق على المسلمين ويعنتهم في دينهم ودنياهم ، وهذا لايكون إلا ممن تمكّنت البغضاء في قلوبهم التي جرى بعض ألفاظها على ألسنتهم ، فبين هذه الجمل في المعنى غاية الاتصال ؛ لكونها في حكم الأخبار عن مُخْبَر واحد ، ولهذا حسن زوال الواو من بينها ٠

---

(١) انظر : التبيان في إعراب القرآن : ٢٨٧/١ – ٢٨٨ ٠

(٢) انظر : الدر المصون : ٣٦٤/٣ ٠

(٣) انظر : التبيان : ٢٨٨/١ ، والبحر : ٣٩/٣ ٠

وإذا ظهرت علّة حذف الواو من الجمل الحالية المتقدمة ، فما السّر البلاغي في إثباتها في الجملة المنتظمة عقب تلك الجمل ، وهي قوله [وماتخفي صدورهم أكبر] ؟.

الذي يظهر – والله تعالى أعلم – أن هذه الجملة قد اشتملت على أصل حقدهم ومكمن شرّهم وهو مافي صدورهم من الكفر والشر والأحقاد والأضغان ، فما تقدم من الأحوال المذكورة متفرّع عن هذا الأصل منطلق من صدورهم ، وكأنّه لعظم مافيها من الكيد والأذى للمسلمين فهي تحوي شيئاً مغايراً لما مضى مفارقاً لما ذكر ؛ فهو أكبر وأعظم ، ولذلك دخلت واو الحال مفيدة نوعاً من التمييز زائداً على ماتقدم ، كما اجتلب أفعل التفضيل الناطق بكون المخفي في الصدور متناهياً في الشر ، لايكون ماذكر في جانبه شيئا . ولذلك كله كانت هذه الجملة حرية بالاستقلال بالواو ، هذا فضلاً على كون الجملة اسمية أصلاً تقترن بواو الحال دائماً إذا وقعت حالا . ومع ذلك فإن ماذكر من محسّنات اقترانها بها .

قوله [قد بينا لكم الآيات] فيه لطائف :

أولها :- دخول [قد] وهي حرف تحقيق وتوكيد على الفعل الماضي [بينا] زاد في توكيد ذلك البيان في الآيات ؛ لأن كون الفعل ماضياً دليل على حصول فعل البيان وحدوثه ، فلما دخلت [قد] عليه زادت من تحقيق حدوثه ووقوع فعله ؛ وعليه فإن عدم الانزجار مع ظهور البيان وتوكيده يدل على الغفلة أو الذهول أو ضعف الإيمان ، وكلها خصال لايليق بأهل الإيمان التحلي بواحدة منها .

وثانيها :- إسناد فعل البيان إلى نون العظمة فيه تعظيم لذلك التبيين ، حريّ بأن يعتنى به ويهتم بشأنه ، ويوقف عند مقتضاه ، وفي ذلك تربية للمهابة في قلوب المؤمنين ، وإيقاظ لجذوة إيمانهم من أجل الوقوف عند الأوامر والعمل بها ومعرفة النواهي وترك مقارفتها .

وثالثها :- أسلوب الالتفات الوارد في النص الكريم ، وهو انتقال من الغيبة في الآية المتقدمة[1] إلى الخطاب بنون العظمة في هذا المقام ، وفي هذا الأسلوب

---

(١) وهي قوله تعالى عن نفقة الكفار : ﴿ **مثل مايُنفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صرّ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وماظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون** ﴾ آل عمران : ١١٧ .

اعتناء بالأمر المُبيَّن ، وبالقوم المبيَّن لهم ذلك الأمر وهم المؤمنون ، كما أن فيه إشعاراً بأن ذلك هو مقتضى الرحمة بهم وكشف أستار عدوّهم ، فينبغي أن يقابلوا هذه النعمة بشكرها والعمل بما جاء فيها .

ورابعها : - تقديم الجار والمجرور [لكم] على المفعول به [الآيات] فيه اعتناء بهم واهتمام بأمرهم .

وخامسها : - اجتلاب لام العلة وإدخالها على كاف الخطاب مؤذن بأن فعل ماتقدم إنما هو للمؤمنين ؛ فهم من المولى جل وعلا بمكان اقتضى ماذكر ؛ ولذلك فينبغي الاعتناء بمضمون ذلك والاحتفاء به والحذر من التفريط فيه ، فقد قامت به الحجة .

وسادسها : - وَسْمُ مابُيِّن بـ [الآيات] ؛ فهي من إحكامها ووضوحها وظهور أدلّتها صارت كذلك ، ولذلك فقد أعذر من أنذر ، ولم يبق لمؤمن في ذلك عذر .

وقوله [إن كنتم تعقلون] جملة شرطية حذف جوابها لدلالة السياق عليه ؛ أي إن كنتم تعقلون فلا تتخذوا بطانة من دونكم علمتم أحوالهم وأدركتم صفاتهم .

والتعبير بـ [إنْ] الشرطية دون غيرها وقع على سبيل الحفز على التعقل والتفكّر فيما ذكر ، قال أبو حيّان : " وقد علم تعالى أنهم عقلاء ، لكن علّقه على هذا الشرط على سبيل الهزّ للنفوس ؛ كقولك : إن كنت رجلاً فافعل كذا "(١).

ولكن لم اختير فعل [تعقلون] في هذا المقام دون تعلمون ، أو تفقهون ...؟

يقول ابن عاشور : " ولكون هذه الآيات آيات فراسة وتوسّم قال [إن كنتم تعقلون] ولم يقل : إن كنتم تعلمون أو تفقهون ؛ لأن العقل أعم من العلم والفقه "(٢). ولذلك وقع هذا الفعل فاصلة للآية وخاتمة لها .

ومما له علاقة في المعنى بالآية السابقة ماجاء في أوّل سورة "الممتحنة "، وهو قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾(٣).

ولهذا النص الكريم سبب نزول خلاصته : أن حاطب بن أبي بلتعة رضي الله

---

(١) البحر : ٣/٣٩ .
(٢) التحرير : ٤/٦٥ .
(٣) الممتحنة : ١ .

عنه كان رجلاً من المهاجرين ، ومن أهل بدر أيضاً ، وكان له بمكة أولاد ومال ، ولم يكن من قريش أنفسهم ، بل كان من أهل اليمن أصلاً وكان حليفاً لعثمان رضي الله عنه ؛ فلما عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على فتح مكة لما نقض أهلها العهد أمر المسلمين بالتجهّز لغزوهم ، وقال :[اللهم عمّ عليهم خبرنا] فعمد حاطب فكتب كتاباً وبعثه مع امرأة من قريش إلى أهل مكة ، يعلمهم بما عزم عليه الرسول صلى الله عليه وسلم من غزوهم ، ليتخذ بذلك عندهم يداً ؛ فأطلع الله تعالى على ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم استجابة لدعائه ؛ فبعث عليه الصلاة والسلام في إثر المرأة علياً ونفراً من الصحابة ، فأخذوا الكتاب منها(١) ، فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام : " ياحاطب ماهذا ؟ " فقال : لاتعجل عليّ إني كنت امرءاً مُلْصَقاً في قريش ولم أكن من أَنْفُسِهِم ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة ؛ فأحببتُ إنْ فاتني ذلك من النَّسب فيهم أن اتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي ، ومافعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني ، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إنه صدقكم " ، فقال عمر دعني أضرب عنق هذا المنافق ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنه قد شهد بدراً ، ومايدريك لعل الله اطّلع على أهل بدر فقال : اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم " ، وفي رواية : فدمعت عينا عمر ، وقال : الله ورسوله أعلم ، وفي رواية ابن أبي حاتم عن علي : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صدق حاطب فلا تقولوا لحاطب إلا خيرا "(٢).

ومن سياق سبب النزول المتقدم يتبيّن أن فعل حاطب - رضي الله تعالى عنه - اجتهاد فردي وتصرف شخصي لم يكن الحامل عليه لا الكفر ولا الرضا به ولا الردة عن الإسلام ولا الزهادة فيه ، وإنما هو على ماسمعه النبي صلى الله عليه وسلم منه ؛ فقبل عذره وصدّقه وأقال عثرته وأمر الناس ألا يقولوا له في ذلك إلاّ خيراً ، وهذا من تمام خلق المصطفى عليه الصلاة والسلام ومن حسن ظنّه بأصحابه ومن كمال رأفته بهم ؛ فهو ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾(٣).

(١) وكان في الكتاب : " أما بعد : فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجّه إليكم بجيش كالليل يسير كالسّيل ، وأقسم بالله لو لم يَسِر إليكم إلا وحده لأظفره الله بكم وأنجز له موعده فيكم ؛ فإن الله وليه وناصره " الجامع لأحكام القرآن :١٨/ ٥٠ .

(٢) انظر : تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير : ٤/ ٢١٧ ، ٢١٨ .

(٣) التوبة : ١٢٨ .

ومع أن النص الكريم نزل في حادثة رجل واحد إلا أن سياق الخطاب في هذا النص لم يكن بصيغة الإفراد وإنما جاء بصيغة الجمع ، فوجّه نداء الإيمان فيه إلى المؤمنين أجمعين ، ولم يوجه إلى من فعل ذلك منهم فقط ؛ ومن فوائد التعبير بنداء الإيمان وبصيغة الجمع الآتي : -

١ - سوق عاجل البشرى إلى حاطب رضي الله عنه ؛ فقد نودي باسم الإيمان ، ولم يجرّد منه ، وجعل في عداد المؤمنين ؛ فكان ذلك بشرى له بقبول توبته والعفو عن زلته ؛ ولذلك جاء في بعض كتب التفاسير : أنّ حاطباً لما سمع نداء [يا أيها الذين آمنوا ..] غشي عليه من الفرح بخطاب الإيمان (١).

٢ - تلطيف لهجة العتاب الموجه إلى حاطب ، والتخفيف من شدّة وطأته عليه ؛ فلو ورد الخطاب بصيغة الإفراد لاشتد الأمر على حاطب وأصبح النص علماً عليه كلما قرئ ، ولكن وروده بصيغة الجمع يجعل جميع المؤمنين في متناول النص وهو واحد منهم ، فلا يكون مقصوداً هو من بينهم ، وإن كانت العبرة بعموم الألفاظ لابخصوص أسبابها .

٣ - ومن ثمار ورود الخطاب بصيغة الجمع سوق التحذير إلى جميع المؤمنين بألاّ يقعوا في مثل ماوقع فيه حاطب (٢)؛ فقد قامت به الحجة ، وبان الحكم ، وانتفت الأعذار .

٤ - إشعار ذوي الإيمان بأن مايحدثه أحدهم من خلل أو فساد في السرّ أو العلن فإن ضرره لايقتصر عليه وإنما يسري إلى غيره ويعم سواه ؛ قال تعالى يخاطب المؤمنين ﴿ **وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ (٣).

وقوله [لاتتخذوا عدوّي وعدوكم أولياء] فيه لطائف : -

أولها : - الاتخاذ : افتعال من الأخذ ؛ وصيغة الافتعال فيه للمبالغة في الأخذ المجازي ، فأطلق على التلبّس والملازمة ، لأن إطلاق الأخذ في الأصل يكون في معنى

---

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ١٨/٥٢ ، وروح البيان : ٩/٤٧٣ ، وحاشية الشيخ زادة : ٤/٤٨١ .
(٢) انظر : التحرير : ٢٨/١٣٣ .
(٣) الأنفال : ٢٥ .

حَوْز الشيء وتحصيله ، ثم تجوّز فيه إلى معنى الجَعْل والملازمة [١] .

وثانيها : - أن النهي المسلّط على فعل الاتخاذ يفيد التحريم ، ولذلك عُدّت هذه السورة أصلاً في النهي عن مولاة الكفار [٢] .

وثالثها : - لقد أكسبت الإضافة في [عدوّي وعدوكم] المضاف تعريفاً ؛ فقد كان العدوّ في الأصل نكرة ؛ ولكن لما أضيف إلى ضمير المتكلم سبحانه وعطف عليه إضافته إلى ضمير المخاطبين وهم المؤمنون تحدّد وتعرّف ؛ فأصبح كل من كفر بالرحمن أو آذى أهل الإيمان عدواً لله تعالى وعدواً للمؤمنين [٣] ، يجري عليه حكم التحريم في اتخاذه ولياً من دون الله ومن دون المؤمنين .

ورابعها : - أن الإضافة في [عدوّي] أفادت تغليظ جرم الكفار [٤] ، حيث سماهم الله عز وجل عدواً له ، والعداوة تستوجب العقوبة والانتقام ، ولهذا ففي التعبير إعلام بقرب حلول عقاب الله بهم ، وفي ذلك تقوية لجانب المؤمنين ، وتعزيز لصفّهم ، ومضاعفة الإيمان في قلوبهم ، فإن الكفار ليسوا أعداء للمؤمنين فحسب ، بل هم عدوّ لله مولاهم وخالقهم ، ومن ثَمَّ فليسوا وحدهم في المعركة مع الكفار ، بل إنّ جنود الله - وما أكثرهم - تقف معهم وتشدّ من أزرهم ، قال تعالى يذكّر المؤمنين بنعمته عليهم يوم الأحزاب : ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً** ﴾ [٥] .

وخامسها : - أنه قد يرد تساؤل عن سرّ عطف [عدوكم] على [عدوّي] ، أليست عداوة الله كافية لأن تكون عداوة للمؤمنين أيضاً ؟ .

والجواب عما تقدم من وجهين : -

الأول : - أن الأصل هو أن كل عدوّ لله فهو عدوّ للمؤمنين ، والعكس صحيح ،

---

(١) انظر : المفردات : ١٧ ، والتحرير : ٢٨/١٣٤ .

(٢) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ١٨/٥٢ .

(٣) قال تعالى : ﴿ **والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً** ﴾ الأحزاب : ٥٨ .وصح عن النبي عليه الصلاة والسلام قوله : " من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب " .

(٤) انظر : البحر : ٨/٢٥١ . كما أفادت الإضافة تغليظ أمر اتخاذهم أولياء والزيادة في نكيره ، انظر : روح المعاني : ٢٨/٦٦ .

(٥) الأحزاب : ٩ .

ولكن يستثنى من ذلك حالات معينة لاتصدق عليها هذه القاعدة ، كمال المؤمن وضيعته وزوجه وولده ، فليس في أصل هذه الأمور عداوة لله ولا للمؤمنين ، ولكن اشتغال المؤمنين بها والمبالغة في ذلك قد تفضي بهم إلى الصدّ عن ذكر الله وعن القيام بالفضائل والواجبات ، وهذا فعل يصح إطلاق لفظ العداوة عليه ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ .. ﴾ (١).

وقوله : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢).

فأخبر عز وجل عن الأزواج والأولاد بلفظ العدوّ للمؤمنين ، وهذا لايلزم منه كونهم عدواً لله (٣) ؛ بل قد يكونون أتقياء صالحين ، ولكن لما كانوا محطّ الافتتان وسبب الالتهاء وموضع الركون المفضي إلى البعد عن الله سمُّوا بذلك وإن لم يكونوا كذلك .

والثاني : - أن في النص على عداوة الكفار للمؤمنين وعطفها على عداوتهم لله تهييجاً للمؤمنين على الكفار وتنبيهاً لغفلتهم وإيقاظاً لهم من رقدتهم ، والإنسان لايستشعر العداوة ولاتقوم في حسّه بتمامها إلا إذا قيل له : إن فلاناً قد قصدك بالشّر وعاداك ؛ فعندئذٍ تثور غيرته ويفور غضبه لما جبل عليه من حبّ ذاته والمحافظة على حياته . وهكذا النص الكريم كان فيه تحصيل لهذه الغاية التي ينبني عليها الاستجابة لكل ماجاء بعدها .

وخامسها : - إفراد لفظ [عدو] وجمع [أولياء] وكان ظاهر النظم يقتضي إفراد الولي قياساً على إفراد العدو ، ولكن خولف ذلك ؛ فأفرد العدو لمحاً لأصل العداوة ومصدرها وهو الكفر مهما تعدّدت ملله ، مع أن لفظ العدوّ ينطلق على الواحد وعلى الجمع (٤).

---

(١) التغابن : ١٤ .

(٢) الأنفال : ٢٨ .

(٣) ممن أشار إلى ذلك بإيجاز شديد الفخر الرازي ؛ انظر : التفسير الكبير : ٢٩/٢٩٧ .

(٤) انظر : البحر : ٨/٢٥٢ .

وأما جمع [أولياء] فقد يكون لُمح فيه طوائف الكفار وأديانهم ، تنبيهاً إلى أنه مهما تفرّقوا وتنوّعت مللهم فلا يجوز الركون إلى أحدهم ولاموالاة طائفة منهم ؛ فهم أصل واحد في العداوة ؛ فتأمل كيف أفْرد العداوة إشعاراً باتفاقهم عليها واشتراكهم فيها ، وجَمَع الولاية دفعاً لحسن الظنّ بهم أو بأحد منهم ، وهذه من بدائع النظم القرآني ٠

وقوله [تلقون إليهم بالمودّة] جملة فعلية فعلها مضارع مثبت وقعت حالاً من الضمير في [لاتتخذوا] [١]، والذي ربط الجملة الحالية بصاحبها هو الضمير المسند إليه فعل الإلقاء ولذلك يمتنع في مثلها دخول واو الحال عليها ، والتقدير : لاتتخذوا عدوّي وعدوكم أولياء ملقين إليهم بالمودة ، فقد بيّنت الجملة حال الفعل المنهي عنه ورسمت هيئة أصحابه ٠ وهذا هو الغرض من الجملة الحالية هنا ، ومن ثمارها التعجب الإنكاري من هيئة هذا الفعل وصورته [٢]؛ ولذلك جاء التعبير عنه بالفعل المضارع الذي قصد منه استحضار الصورة ٠

وحقيقة الإلقاء رمي مافي اليد على الأرض ، وغالباً مايستعمل في الأشياء المادية ، ولكنه استعير هنا في أمر معنوي لإيقاع الشيء بدون تدبر في موقعه ، والمعنى : أنكم تصرفون إليهم مودتكم بغير تأمل في عداوتهم وحقيقة أمرهم [٣]٠

وفعل [تلقون] يتعدى إلى مفعوله بنفسه ؛ فما فائدة دخول الباء بعده ؟

يقول ابن عاشور : " والباء في [بالمودة] لتأكيد اتصال الفعل بمفعوله ٠ وأصل الكلام : تلقون إليهم المودة ؛ كقوله [ولاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة] وقوله [وامسحوا برؤوسكم] ؛ وذلك تصوير لقوة مودتهم لهم " [٤]٠

وجواب ابن عاشور المتقدم أمكن في باب البلاغة ، وأرفع في مقام الأدب ممن قال بأن الباء زائدة في المفعول[٥] ، فإن ذلك لايليق بكلام الله ولايقع فيه ، فكل حرف

---

(١) انظر : التفسير الكبير : ٢٩٧/٢٩ ، وروح المعاني : ٦٦/٢٨ ، ويجوز أن تكون الجملة تفسيرية للموالاة ، أو استئنافاً فلا محل لها من الإعراب ٠ انظر المصدرين المتقدمين ٠

(٢) انظر : التحرير : ١٣٤/٢٨ ٠

(٣) انظر : التحرير : ١٣٤/٢٨ ٠

(٤) التحرير : ١٣٤/٢٨ ٠

(٥) انظر : روح البيان : ٤٧٣/٩ ، وروح المعاني : ٦٦/٢٨ ٠

- ناهيك عن الكلمة - وارد لمعنى تقريراً أو تأكيداً ، ولايكون وروده زيادة أو فضلا ، علم ذلك من علمه وجهله من جهله . قال تعالى :﴿ قُرْآناً عَرَبِياً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ .. ﴾(١) .

وقد قيل إن الباء سببية ، والمفعول به حذف للعلم به ؛ وفي ذلك إيجاز أي : تلقون إليهم أخبار النبي صلى الله عليه وسلم وأسراره بسبب مودتكم لهم (٢) . وهذا الوجه وإن كان سائغاً حسناً إلاّ أن الأول أوجه منه وأمكن في دلالة النظم على المعنى.

وقوله [وقد كفروا بما جاءكم من الحق] جملة حالية زادت في تصوير جملة الحال المتقدمة(٣) في [تلقون إليهم بالمودة] ، وصاحب الحال هو الضمير في [تلقون](٤) أي : توادونهم وهذه حالهم وهي الكفر بالله وبما جاء من عنده من الحق، وعلى ذلك فهذه الجملة الحالية تزيد في التعجيب من إلقاء المودة لهم وهم على هذه الحال الشنيعة ، وعلى هذا تكون هذه الحال متداخلة (٥) .

وقد تكون الجملة المتقدمة حالاً من [لاتتخذوا](٦) فيكون النّهي منصبّاً على فعل اتخاذ المذكورين أولياء وهم على هذه الحالة من الكفر الفاضح . وعلى هذا فتكون هذه الحال مترادفة (٧) .

ودخول [قد] حقّقت كفرهم وأكدته ، ومصاحبة [قد] للفعل الماضي [كفروا] قرّبته من الحال(٨) ؛ فمهّدت لدخول واو الحال عليه ، التي ربطته بصاحبها .

والذي جاء من الحق هو دين الإسلام ، فـ [من] بيانية وقد عبر بالموصول عن ذلك ليشمل كل ماجاء به الرسول عليه الصلاة والسلام من أحكام الدين ومقاصده العظيمة ، فالتعبير هنا في غاية الإيجاز (٩)، وإنما لم يفصّل في هذا المقام ؛ لأن الحال

---

(١) الزمر : ٢٨ .

(٢) انظر : حاشية الصاوي : ١٨٤/٤ ، وروح المعاني : ٦٦/٢٨ .

(٣) انظر : التحرير : ١٣٤/٢٨ .

(٤) انظر : البحر : ٢٥٣/٨ .

(٥) انظر : روح المعاني : ٦٧/٢٨ .

(٦) انظر : الكشاف : ١٠٢/٦ .

(٧) انظر : روح المعاني : ٦٧/٢٨ .

(٨) انظر : إعراب القرآن الكريم وبيانه : ٨٠/١٠ .

(٩) انظر : التحرير : ١٣٤/٢٨ .

لاتقتضيه ، وإنما ذكر ماذكر ليبني عليه حكم كفرهم ، وليزيد في كشفهم وفضح حالهـم ، وهو مقصود الجملة الحالية .

والتعبير بكلمة [الحق] عن الإسلام زيادة في التشنيع عليهم ، ومدعاة للحكم عليهم بالجور والشّطط واتباع الهوى والسير في ركاب الجهل ؛ وذلك لأنهم ردّوا ماليس من شأنه أن يردّه طلاب الهدى ، وأرباب الألباب المتزنة ، فإن الحق مطلوب مرغوب وهو ضالة العقلاء ومطلب الحكماء . وفيه إشارة إلى أن كفرهم بالحق ناشيء عن هوى متّبع ، وحسد مقيت [١].

وتعدية فعل المجيء إلى ضمير المخاطبين وهم المؤمنون فيه تكريم لهم ومزيد اعتناء بهم من بين الناس أجمعين ؛ ذلك أن الإسلام هو دين الله تعالى للناس جميعا، قال عز وجل مخاطباً رسوله ومصطفاه : ﴿ **قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً** .. ﴾[٢].ولكن لما كان المؤمنون هم أول من صدقه وانتفع بالحق الذي جاء به فذاقوا حلاوته وعرفوا قدره ... لهذا خوطبوا به وكأنما هو خاص بهم وحدهم ، وفي ذلك مزيد إلهاب لقلوبهم حتى يتمسّكوا بهذا الحق ويعضوا عليه ويحذروا من موالاة الكافرين به [٣].

وقوله [يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ..] فيه لطائف بلاغية :

أولها :- في الموقع الإعرابي لجملة [يخرجون الرسول .] وفيها أحد وجهين :-

أحدهما :- أن تكون استئنافاً كالتفسير لكفرهم المتقدم[٤] ؛ كأنه قيل : كيف كفروا ؟ فأجيب بأنهم كفروا أشدّ الكفر بإخراج الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين لأجل إيمانهم بالله ربهم . ونظراً لكونها استئنافاً مبيّناً فقد وقع فصلها عما قبلها لكمال الاتصال بينهما .

وثانيهما :- أن تكون حالاً من ضمير [وقد كفروا ..] [٥] ؛ فتكون مبيّنة لحال كفرهم ، مصوّرة له ؛ أي : وقد كفروا بما جاءكم من الحق مخرجين الرسول

---

(١) انظر : التحرير : ٢٨/١٣٤ - ١٣٥ .
(٢) الأعراف : ١٥٨ .
(٣) انظر : التحرير : ٢٨/١٣٥ .
(٤) انظر : البحر : ٨/٢٥٣ ، وروح المعاني : ٢٨ / ٦٧ .
(٥) انظر : البحر : ٨/٢٥٣ ؛ وحاشية الشهاب : ٨/١٨٤ .

وإياكم .. ؛ فذكرت صورة من صور كفرهم يحتاج إليها في مقام المعاتبة على اتخاذهم أولياء ، وهذا من أغراض وقوع الجملة حالاً في سياق النظم الكريم .

وثاني اللطائف : - في التعبير عن الإخراج بالفعل المضارع استحضار لصورته[1] في الأذهان وتذكير بمآسيه استبشاعاً واستنكارا .

وثالثها : - في إسناد فعل الإخراج إلى ضمير العدوّ كلهم دون بعضهم إشعار بأنهم جميعاً كانوا راضين عن ذلك الفعل ، وربّما أغروا سفهاءهم به [2]، والراضي كالفاعل ، ولذلك صاروا جميعاً في حكم الفاعلين لذلك المقترفين لجرمه ؛ فجرى التعبير عنهم مجازا ، مع أن الذي فعله حقيقة هو بعضهم .

ورابعها : - قدم ذكر الرسول على ضمير المخاطبين لشرفه[3] وتقدُّم منزلته عند الله عز وجل ، ولكونه هو الذي جاء بالحق من عند الله تعالى ، فهو الأصل وموضع الأسوة ، والمؤمنون يتبعونه ويقتدون به ، وفي ذلك يقول تعالى :﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾[4].

وخامسها : - ذكر الرسول بصفة الرسالة دون اسمه المطلق عليه اعتناء بشأن الرسالة ، واهتمام بأمر المتصف بها ؛ وعلى ذلك فكل من ينال منه ، أو يُلحق الأذى بــه ، فهو منبوذ ممقوت فكيف يتخذ ولياً ؟! . وهذه علاقة تلك اللفظة بنظم الآية وسياقها .

وسادسها : - التصريح بالعلّة التي من أجلها وقع فعل الإخراج وهي : إخراجكم لأجل إيمانكم أو كراهة إيمانكم [5]، وفي النص عليها بلفظ الإيمان دغدغة لكامن إيمانهم ، وتحريك له ، وتهييج لغيرتهم عليه ؛ فيكون من الأحرى بهم ترك مصافاة أولئك الكفار والبعد عن موالاتهم .

---

(١) انظر : روح المعاني : ٦٧/٢٨ .

(٢) انظر : التحرير : ١٣٥/٢٨ .

(٣) انظر : البحر : ٢٥٣/٨ . وكان مقتضى الظاهر في التعبير أن يكون : يخرجونكم والرسول . ولكن عدل عن ذلك ، ومن مقاصد هذا العدول في التعبير العلّة المذكورة أعلاه ؛ انظر : حاشية الصاوي : ١٨٥/٤ .

(٤) الأحزاب : ٢١ .

(٥) انظر : البحر : ٢٥٣/٨ .

وسابعها : - من مقاصد التعبير عن إيمانهم بصيغة المضارع إفادة تجدّد إيمان المؤمنين وتعلقهم بالحق مع ما أصابهم من الأذى في الأنفس والإخراج من الأوطان ، وفيه إيماء بالثناء عليهم لثباتهم على دينهم وتجدّد إيمانهم وعدم صدودهم عنه ، على الرغم من شدّة الأذى الذي لحق بهم في هذا السبيل (١).

وثامنها : - أن الخطاب في قوله [أن تؤمنوا ٠٠] موجّه إلى الرسول والمؤمنين ، ولكن غُلّب جانبهم على جانبه في التعبير ؛ فكان بصيغة الخطاب دون الغيبة (٢)، وبالجمع دون الإفراد ؛ وربما قصد من وراء توجيه الخطاب إلى المؤمنين دون الرسول هو تذكيرهم بما جاء في سبب نزول الآية وهو اجتهاد حاطب الخاطئ ، وهو من جملة المؤمنين ، والكفار يكيدون لمجموعهم ولايفرقون بينهم ، وأما الرسول فلم يصدر عنه مايقتضي توجيه الخطاب إليه ، وهو من الإيمان ورسوخه في قلبه مالا يسمح بتسرّب ضده إليه ٠ وقد يكون من مقاصد ذلك تكريم النبي عليه الصلاة والسلام وتنزيه ساحته من ذلك الفعل الذي وقع من أحد المؤمنين ، فهو منه بمنأى ، ولذلك جرى خطابهم وسُكت عنه ٠

وتاسعها : - الالتفات من التكلم في [عدوّي] إلى الغيبة في [بالله ربكم] ، وكان مقتضى الظاهر أن يكون التعبير بالتكلم ، ولكن عدل عنه لمقصد كريم وهو الدلالة على مايوجب الإيمان ، وهو الألوهية والربوبية (٣)؛ بإظهار لفظيهما ، والنّص عليهما ؛ فلفظ الألوهية يدل على كونه معبوداً بحق مستحقاً للعبادة دون سواه ، كما أن هذا اللفظ يدل - أيضاً - على استجماعه لصفات الكمال اللائقة بجلاله وعظمته، ولفظ الربوبية يدل على اتصافه بها حقاً واستحقاقاً ، فذكر مايدل على الذات والصفات من خلال ذلك الالتفات (٤).

وقوله [إن كنم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي] مختلف فيها ؛ أهي شرط حذف جوابه ، فيكون التقدير : إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي ومبتغين

---

(١) انظر : التحرير : ١٣٥/٢٨ ٠

(٢) انظر : روح البيان : ٤٧٤/٩ ، وحاشية الشيخ زادة : ٤٨٢/٤ ٠

(٣) انظر : روح البيان : ٤٧٤/٩ ، وروح المعاني : ٦٧/٢٨ ، وحاشية الشيخ زادة : ٤٨٢/٤ ٠

(٤) انظر : حاشية الشهاب : ١٨٤/٨ ٠

مرضاتي فلا توالوهم(١) ، أم هي شرط لايقتضي جواباً وقد وقعت حالاً من فاعل [لاتتخذوا](٢) أي : لاتتخذوا عدوّي وعدوكم أولياء والحال أنكم خرجتم من أوطانكم لأجل الجهاد رضا لله ، ومثل هذا جوّزه ابن جني وارتضاه الزمخشري في الآية ، ومال إليه الشّهاب وعلّل وجهه البلاغي بقوله : " البلاغة وسوق الكلام شاهدان له ؛ كقولك : لاتخذلني إن كنت صديقي ؛ حيث يقوله المدلي بأمره المتحقّق صحبته من غير قصد للتعليق والشك ، وإنما يبرز تهييجه للحمية وهو أحسن وأملأ بالفائدة ، وإن خالف المشهور "(٣) .

وعده ابن عاشور شبيهاً بالتتميم والتذييل ، يجاء به في الكلام لقصد تأكيد ماقبله بمضمون فعل الشرط فيكون كالتعليل لما قبله(٤) .

وفي إيقاع فعل الكينونة فعلاً للشرط إشعار بمبعث الخروج وأصله ، وفي ذلك هزّلهم وتهييج لحمية إيمانهم كما ذكره الشهاب آنفا .

ولكن ما المقصود بالخروج المسند فعله إلى المؤمنين ؟

إن الجواب عن ذلك بأحد أمرين : -

أولهما : - أن يكون المراد به الخروج للجهاد في سبيل الله وابتغاء مرضاته كما هو ظاهر النص الكريم ؛ فيكون عاماً للمؤمنين المهاجر منهم وغيره(٥) .

وثانيهما : - أن يراد بالخروج الهجرة من مكة إلى المدينة . ويؤيده قرينة سبب نزول الآية وهي كونها في أحد المهاجرين وهو حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه ، وعلى هذا فيكون الخطاب خاصاً بالمهاجرين وقت النزول على طريقة تخصيص العموم(٦) . ولكن حكمه عام في أهل الإيمان إلى آخر الزمان ؛ فالعبرة في الخطاب بعموم حكمه لابخصوص سببه .

---

(١) انظر : البحر : ٢٥٣/٨ . وقد أعرب أبو حيان [جهاداً] و [وابتغاء] مصدرين في موضع الحال وذلك واضح من التقدير المذكور ، أو هما مفعولان لأجله .

(٢) انظر : الكشاف : ١٠٣/٦ .

(٣) حاشية الشهاب : ١٨٥/٨ . وانظر : روح المعاني : ٦٧/٢٨ .

(٤) انظر : التحرير : ١٣٦/٢٨-١٣٧ .

(٥) انظر : حاشية الشهاب : ١٨٥/٨ .

(٦) انظر : التحرير : ١٣٧/٢٨ .

قوله [تسرّون إليهم بالمودّة] استئناف وارد على نهج العتاب والتوبيخ ؛ كأنهم سألوا : ماذا صدر عنّا حتى عوتبنا ؛ فقيل ذلك [١] . وقد تكون الجملة المذكورة بياناً لجملة[٢] [تلقون إليهم بالمودة] أو بدل كل من كل ؛ إن أريد بإلقاء المودة على سبيل الخفية ، وإن كان المراد من إلقائها على السبيل الأعم في السر والجهر ؛ فتكون بدل بعض من كلّ [٣] .

وعلى القول بكون جملة [تسرون ..] استئنافاً أو بياناً أو بدلاً فإن اتصالها بما قبلها ظاهر القوّة ، ولهذا فصلت بترك العاطف .

والإسرار : التحدث والإخبار على سبيل الخفية ، وغالباً مايكون في الأمور المهمة التي يُفْضَى بها إلى الأحباب ؛ ولذلك عُدّي فعل الإسرار بحرف الباء ، لتأكيد ارتباط الفعل بمفعوله وإظهار شدّة التصاقه به [٤] .

يقول ابن عاشور عن جملة [تسرّون إليهم بالمودّة] " والخبر مستعمل في التوبيخ والتعجيب ؛ فالتوبيخ مستفاد من إيقاع الخبر عقب النهي المتقدم ، والتعجيب مستفاد من تعقيبه بجملة [وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم] أي : كيف تظنّون أن إسراركم إليهم يخفى علينا ولانطلع عليه رسولنا "[٥] .

وقد عبر عن الإسرار بصيغة المضارع لتصوير حالتها تفظيعاً لها .

وإسناد الإسرار إلى ضمير المؤمنين مع أن فاعله واحد فيه تحذير للجميع من مثل ذلك الفعل ، وإشعار لهم بأن مايفعله أحدهم من هذا القبيل فإن ضرره يتعدى إليهم جميعاً ، فعليهم أن يحترزوا من ذلك ويأخذوا على يدي المخالف .

وفي إيثار حرف الجر [إلى] بعد فعل الإسرار إشعار بدنوّ المُسِرّ من المُسَرّ إليه وقربه منه ؛ لأن فعل الإسرار لايكون إلاّ على هذه الحال غالباً ، كما أن حرف [إلى] مفيد هنا انتهاء المُسِرّ إلى غايته وبلوغه نهايته ، ولايكون إلاّ بالدنو والقرب ،

---

(١) انظر : البحر : ٢٥٣/٨ ، وروح البيان : ٤٧٤/٩ .
(٢) انظر : التحرير : ١٣٨/٢٨ .
(٣) انظر : البحر : ٢٥٣/٨ ، وحاشية الشهاب : ١٨٥/٨ .
(٤) انظر ماكتب عن [تلقون إليهم بالمودة] في معنى الباء : ٤١٤ .
(٥) التحرير : ١٣٨/٢٨ .

ولهذا كان في هذه الجملة تقريع ومعاتبة .

وفي جملة الحال [وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم] لطائف بلاغية : -

أولها : - أن صاحب الحال هو الضمير في [تسرّون] [1] والتقدير : تسرون إليهم بالمودة والحال أني أعلم منكم السرّ والعلانية ؛ فأيّ طائل لكم وراء ذلك ؟ ! وفيه عتب وتعجيب وإنكار ، وإشعار بأن ذلك لايصدر عن مسلم إلاّ ذهولاً أو جهلاً .

وثانيها : - في إسناد العلم إلى المتكلم سبحانه إثبات لصفة العلم على مايليق بجلاله وعظمته علم إحاطة وشمول ، وفائدة إثبات ذلك في سياق جملة الحال تأكيد النكير لفعل الإسرار المذكور ، بإظهار كونه مُفْتضَحاً معلوماً ، لايجوز العود إلى مثله .

وثالثها : - لفظ [أعلم] اسم تفضيل . وعليه فالمفضَّل منه محذوف لدلالة السياق عليه ، أي : وأنا أعلم منكم بما أخفيتم وما أعلنتم ؛ فيكون في الكلام إيجاز بالحذف ، ويدل على كونه اسم تفضيل تعديته بالباء [2] .

ورابعها : - الإخفاء : هو إضمار الشيء ، والإعلان : إظهاره ، ولكن لم جاء التعبير بالإخفاء والإعلان دون الإسرار والإعلان مع أنه أليق في ظاهر النظم لمقام [تسرّون] ؟ .

والجواب عن ذلك أن يقال : إن في التعبير بالإخفاء مبالغة ليست في لفظ الإسرار ؛ لأن الإخفاء أبلغ من الإسرار وأعم ، يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ ... فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [3] أي : أخفى من السرّ [4] . فالتعبير بالإخفاء تحصيل للسرّ وغيره مما أُخفي .

وخامسها : - العلم بما أخفي ألا يستلزم العلم بما أعلن من باب أولى ؟ فما فائدة ذكره والنص عليه ؟ .

---

(١) انظر : روح البيان : ٤٧٤/٩ . والتحرير : ١٣٨/٢٨ .

(٢) انظر : البحر : ٢٥٣/٨ . ويجوز كون [أعلم] فعلاً مضارعاً عدي بالباء لتأكيد ارتباط العلم بالمعلوم .
انظر : البحر : ٢٥٣/٨ .

(٣) طه : ٧ .

(٤) انظر : التفسير الكبير : ٢٩٩/٢٩ .

يقول الشهاب : " وذكر [ما أعلنتم] مع الاستغناء عنه إشارة إلى تساويهما في علمـه ، ولذا قدم [ما أخفيتم] [١] .. " وعلى ذلك فلا فائدة في الإسرار فهو معلوم .

وسادسها : - الطباق الواقع بين جملتي [أخفيتم] و [أعلنتم] ، وفائدته إظهار التضاد بين الإخفاء والإعلان وأن ذلك في علم الله سواء ، وهو ضرب من التفنن في إبراز المعاني المتضادة ؛ فبضدّها تتميز الأشياء .

وسابعها : - [ما] قد تكون موصولية ، والعائد محذوف والتقدير : وأنا أعلم بما أخفيتموه وما أعلنتموه ، والتعبير بـ [ما] الموصولية هي بعينها دون سواها من الموصولات لإاردة العموم في الأشياء المخفية والمعلنة .

وقد تكون [ما] مصدرية ، فتكون هي ومابعدها في تأويل مصدر مجرور بالباء، والتقدير : وأنا أعلم بإخفائكم وإعلانكم ، فيكون العلم واقعاً على أصل الإخفاء والإعلان ومصدرهما ، وكل ماتفرّع عنهما فهو في محيط العلم المذكور .

وثامنها : - قال القرطبي مشيراً إلى العتاب الذي تضمّنته الآية : " وهذا كله معاتبة لحاطب ، وهو يدل على فضله وكرامته ونصيحته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصدق إيمانه ؛ فإن المعاتبة لاتكون إلاّ من مُحِبّ لحبيبه ، كما قال :

أعاتب ذا المودّة من صديق * إذا مارابني منه اجتناب
إذا ذهب العتاب فليس ودّ * ويبقى الودّ مابقي العتاب "[٢].

وقوله [ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل] جملة شرطية معطوفة على جملة النهي المتقدمة [لاتتخذوا عدوّي وعدوكم أولياء] وفائدة عطفها عليها سوق الوعيد والتهديد إلى كل من يقع فيما نهي عنه ، والحكم عليه بأنه ضال عن الهدى واقع في الرّدى [٣].

وكون فعل الشرط مضارعاً إشعار بأن ماسبق من هذا الفعل عفو عفا الله عنه وعن فاعله ، ولكن المؤاخذة والحكم على الفاعل بما ذكر تكون بعد ظهور البيان الشرعي ونزول الوحي السماوي في النهي عن الاتخاذ المذكور ، ويستفاد منه تبرأة

---

(١) حاشية الشهاب : ١٨٥/٨ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن : ٥٤/١٨ .
(٣) انظر : التحرير : ١٣٩/٢٨ .

ساحة حاطب رضي الله عنه والعفو عن زلّته من فعلته المعروفة ٠

والضمير في [يفعله] الراجح كونه عائداً على الاتخاذ المنهي عنه في أوّل الآية ، وكونه راجعاً على الإسرار مع أنه أقرب مذكور مرجوح ؛ لأن الإسرار جزء من الاتخاذ أو بعض منه ، والنهي منصبٌ على الموالاة بأجمعها ٠ وهذا مارجحه ابن عطية وابن عاشور[1] ، خلافاً للزمخشري الذي أرجعه إلى الإسرار[2] ٠

والخطاب في [منكم] متوجّه إلى المؤمنين ، ولكن مافائدة استجلابه مع أن من فعله فحكمه ماذكر ؟

والجواب عن ذلك أن يقال : إن في ذلك إيماء بأن من يفعل ذلك الفعل فإنه خطر عليه أن ينسلخ من إيمانه بعد أن كان من المؤمنين ، ففيه مزيد إشعار بالوعيد ٠

وجواب الشرط هو قوله [فقد ضل سواء السبيل] وقد جاء مؤكداً ضلاله بدخول حرف التحقيق [قد] ، ودخلت الفاء ربطاً للجواب بفعله ٠

والأصل في الضلال هو العدول عن الطريق المستقيم ، ويضاده الهداية[3] ٠ وأريد به الانحراف عن الحق ومخالفة الهدي الشرعي ٠

والسواء : الوسط ، والسبيل : الطريق ، وهو من إضافة الصفة إلى موصوفها ، والأصل : ضل عن الطريق المستوي[4] ٠

وفي [سواء السبيل] استعارة ، حيث استعير ذلك لأحكام الدين ، حيث شبهت بالطريق المستوية التي تهدي صاحبها إلى غايته ، بجامع النجاة من المهالك وتحصيل المقاصد في كل منهما ، وهي استعارة تصريحية[5] ٠

ومناسبة فاصلة الآية لمضمونها ظاهرة ؛ فقد نهى عن اتخاذ الكفار أولياء وحذر من موادتهم وإلقاء أخبار المسلمين لهم ثم عد هذا السلوك مخالفاً لهدي الدين بمثابة الخروج عن الصراط المستقيم[6] ٠

---

(١) انظر : البحر : ٢٥٣/٨ ، والتحرير : ١٣٩/٢٨ ٠
(٢) انظر : الكشاف : ١٠٣/٦ ٠
(٣) انظر : المفردات : ٢٩٧ ٠
(٤) انظر : البحر : ٢٥٣/٨ ، وروح المعاني : ٦٧/٢٨ ٠
(٥) انظر : التحرير : ١٣٩/٢٨ ٠
(٦) ولمزيد من الوقوف على صور من الجمل الحالية في هذا البحث ؛ انظر : ١٣٣ ، ١٧٥ ، ١٩٤ ، ٢١٠ ، ٢٢٥ ، ٢٧٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٩ ، ٣٩٦ ، ٤٨٦ ، ٥١٥ ، ٥٤٤ ، ٥٦٢ ، ٥٦٥ ، ٥٩١ ٠

الفواصل القرآنية وعلاقتها بنظم الآي

جاء في بعض معاجم اللغة عن مادة " فصل " أن الفصل من الجسد موضع المفصل ، وبين كل فصلين وصل ، ومثل ذلك : الحاجز بين الشيئين .

والفاصلة : الخَرْزة التي تفصل بين الخرزتين في النظام ، وقد فصّل النّظم ، وعقد مفصّل ؛ أي جعل بين كل لؤلؤتين خرزة . وقوله تعالى :﴿ **كتاب فصلناه** ﴾ : بيّناه . وقوله ﴿ **آيات مفصّلات** ﴾بين كل آيتين فصل ، تمضي هذه وتأتي هذه ، بين كل آيتين مهلة ، وقيل : مفصلات : مُبيَّنات ، وسمي " المُفَصَّل " لقصر أعداد سوره من الآي [١].

والفاصلة في اصطلاح أرباب الدراسات القرآنية يشيع إطلاقها على آخر كلمة تختم بها الآية ؛ فهي - مع فارق التنظير - كقافية الشعر وقرينة السّجع [٢]. على أن الإجماع منعقد على عدم جواز تسمية الفاصلة قافية كما حكاه السيوطي حيث قال : " ولايجوز تسميتها قوافي إجماعاً ؛ لأن الله تعالى لما سلب عنه اسم الشعر وجب سلب القافية عنه أيضاً ؛ لأنها منه وخاصة به في الاصطلاح ، وكما يمتنع استعمال القافية فيه يمتنع استعمال الفاصلة في الشعر ؛ لأنها صفة لكتاب الله فلا تتعداه "[٣].

وأما تسمية الفواصل القرآنية أسجاعاً وإطلاق لفظ السجع عليها فإن جمهور العلماء قد منعه ، وهو المتعيّن ؛ وذلك لأن أصل إطلاق السجع في اللغة كان على صوت الحمام إذا سجع أي : هدل على جهة واحدة [٤] ، فشُرِّف القرآن الكريم أن يستعار لشيء منه لفظ هو أصل في صوت الطائر ، ثم إن من السجع مايطلق على مذموم الكلام كسجع الكهان ، وأصل المنع في ذلك راجع إلى أن القرآن الكريم هو كلام الله تعالى ، وكلامه صفة من صفاته ، فلا يجوز وصفه بصفة لم يرد الإذن

---

(١) انظر : في مادة " فصل " : لسان العرب ، وأساس البلاغة ، والقاموس المحيط .

(٢) انظر : النكت للرماني في : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ٨٩ ، إعجاز القرآن للباقلاني : ٨٣ ومابعدها ، والبرهان : ١٤٩/١ ، والإتقان : ٢٩٠/٣ ، ومن بلاغة القرآن : ٧٥ .

(٣) معترك الأقران : ٢٥/١ .

(٤) انظر : اللسان : مادة : سجع .

الشرعي بها ، لأن ألفاظ أسماء الله تعالى وصفاته وماتعلق بها توقيفي وليس للاجتهاد البشري فيها مكنة ولامجال [1] .

ومصطلح الفاصلة مغرق في القدم ، فقد عرفه أعلام العربية كالخليل بن أحمد [ت ١٧٥هـ] ، فأطلقه هو وتلميذه سيبويه [ت ١٨٠هـ] على مقاطع القرآن ، ثم استقرت دلالته على أواخر الآيات في طبقة الجاحظ [ت ٢٥٥ هـ] إلى أن استوى هـذا المصطلح على يد أبي الحسن الأشعري [ت ٣٢٤ هـ] وتلميذه أبي بكر الباقلاني [ت ٤٠٣ هـ] [2] ، وأصبح الناظر في إعجاز القرآن الكريم والواقف على مظاهر بلاغته يتناول هذا المصطلح ويبرز لطائف البلاغة فيه ، وذلك في أغلب البحوث التي تطرقت إلى بيان القرآن الكريم [3] .

والمتأمل في كتاب الله تعالى يلحظ اطّراد الفاصلة فيه ، حتى أصبحت جزءاً من اطراد النظام في القرآن كله . وفي الوجود بأسره ، وهي تنهض بما ينهض به النظام في كل شيء ، فغدت مظهراً من مظاهر الإحكام في القرآن . وهي ركن وطيد من أركان الآية لفظاً ومعنى ، بقدر ماهي ركن في المقطع والسّورة ومجموع القرآن ، وهي من أمارات تيسير الله تعالى كتابه للذكر والحفظ والدَّرس ، فلك أن تتخيل كيف تكون حال هذا الكتاب المعجز لو لم تنجّمه هذه الفواصل اللآلىء عبر أجيال من القراء والكتاب والمفسرين وسائر المتعبِّدين بتلاوته من المسلمين ، وصدق الله تعالى إذ قال : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [4] .

وفواصل الآي الكريم تتعلق بمضمون الآية وتتناسب مع سياق نظمها ، وهذا من إعجاز الذكر الحكيم ؛ يقول الزركشي : " اعلم أن من المواضع التي يتأكد فيها إيقـاع المناسبة مقاطع الكلام وأواخره ، وإيقاع الشيء فيها بما يشاكله ؛ فلابدّ أن

(١) انظر : ثلاث رسائل : ٩٠ ، والبرهان : ١/١٥٠-١٥١ ، ومعترك الأقران : ١/٢٥ .

(٢) انظر : الفاصلة في القرآن : ٣٣-٨٧ .

(٣) انظر على سبيل المثال : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، وإعجاز القرآن للباقلاني ، والبرهان في علوم القرآن للزركشي ، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي ، ومعترك الأقران له أيضاً ، وإعجاز القرآن للرافعي ، والتصوير الفني ، ومشاهد القيامة وكلاهما لسيد قطب ، ومن بلاغة القرآن لأحمد بدوي ، والإعجاز البياني للقرآن لعائشة عبدالرحمن ، وإعجاز القرآن لعبدالكريم الخطيب ، والفاصلة في القرآن لمحمد الحسناوي ، وسواها .

(٤) القمر : وردت مكررة فيها أربع مرات . انظر : الفاصلة في القرآن : ١٩٢ - ١٩٣ .

تكون مناسبة للمعنى المذكور أوّلا ، وإلاّ خرج بعض الكلام عن بعض ٠ وفواصل القرآن العظيم لاتخرج عن ذلك ؛ لكن منه مايظهر ، ومنه مايستخرج بالتأمل للبيب "(١) ٠ ويقول عن قيمة الفاصلة في تمكين معنى الآية ؛ وذلك بأن " تمهّد قبلها تمهيداً تأتي به الفاصلة ممكّنة في مكانها ، مستقرة في قرارها ، مطمئنة في موضعها ، غير نافرة ولاقلقة ، متعلّقاً معناها بمعنى الكلام كله تعلّقاً تاما : بحيث لو طرحت اختلّ المعنى واضطرب الفهم ٠ وهذا الباب يطلعك على سرّ عظيم من أسرار القرآن "(٢) ٠

ويشهد لذلك ماحكي عن الأصمعي أنه قال : " كنت أقرأ [والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله غفور رحيم] وبجنبي أعرابيّ ؛ فقال : كلام من هذا ؟ فقلت : كلام الله ٠ قال : أعد ؛ فأعدت ، فقال : ليس هذا كلام الله : فانتبهت ، فقرأت : ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيم ﴾ (٣) فقال : أصبت ؛ هذا كلام الله ؛ فقلت : أتقرأ القرآن ؟ قال : لا ٠ فقلت : من أين علمت ؟ فقال : ياهذا ؛ عَزَّ ؛ فحكم ؛ فقطع ولو غفر فرحم لما قطع "(٤) ٠

وبذلك يتبين في شأن الإعجاز البلاغي أنه مامن فاصلة قرآنية إلا وسياق الآية يقتضي لفظها ومعناها ، بحيث لايتسهّل في النظم الكريم أن يقع في مكانها سواها ، وليس عدم اهتدائنا إلى سرّها البياني قدحاً في موقعها ، وإنما الأجمل بنا أن نقرّ بقصور الإدراك فينا ؛ فهو آدب وأتقى (٥) ٠

ولقد مرّ في تضاعيف هذا البحث كثير من الآيات التي كُشف عن مناسبة فواصلها لمعانيها ، وأُبرزت علاقتها بنظمها (٦) ، ومع ذلك فسأعرض آيات كريمات ثم أحلل ألفاظها تحليلاً بلاغياً إلى أن أقف على فواصلها لتستبين علاقتها بمعناها تمكيناً أو تقريراً أو تذييلاً ، أو غير ذلك مما هو من شأن الفاصلة ٠

---

(١) البرهان : ١٦٩/١ – ١٧٠ ٠
(٢) البرهان : ١٧٠/١ ٠
(٣) المائدة : ٤١ ٠
(٤) الكشكول : ١٤٢/٢ ٠
(٥) وللدكتورة عائشة عبدالرحمن كلام في المعنى المتقدم فانظر : الإعجاز البياني للقرآن : ٢٣٥-٢٥٨ ٠
(٦) انظر : ٨٧ ، ١٠٢ ، ١١١ ، ١١٧ ، ١٥٠ ، ٢٤٥ ، ٢٦٧ ، ٢٧٢ ، ٤٢٣ ، ٤٥٩ ، ٥٢٦ ، ٥٣٨ ٠

يقول الله عز وجل ممتناً على المؤمنين بنصرهم في كثير من المواقع ، ومنها موقعة " حنين " التي أدركهم فيها عجبهم بكثرتهم فأرداهم ، ثم ثابوا إلى رشدهم وانقلبوا إلى ربهم فأكرمهم بكراماته وإنزال جنوده حتى دحروا المشركين وتمكنوا من أموالهم ، بل وساقوا رجالهم ونساءهم وذراريهم ، فكانت آية لذوي الألباب ؛ وفي ذلك يقول سبحانه : ﴿ **لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ثُمَّ أَنَزلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (١) .

قوله : [لقد نصركم الله في مواطن كثيرة] مؤذن بأن في السياق قسماً محذوفاً ؛ أي : أقسم والله لقد نصركم الله في مواطن كثيرة (٢) .

وتأكيد الخبر بالقسم واللام و[قد] فيه تنزيل للقوم منزلة من يحتاج إلى تلك المؤكّدات ، كأن القوم نسوا ذلك أو شكّوا فيه (٣) ، فسيقت لهم مؤكّدات تحقيقه والتفضُّل به تمهيداً لعرض حالهم في واحدة من تلك الغزوات وهي غزوة حنين التي اجتمع فيها مظهران من مظاهر الحرب ؛ وهي الهزيمة ثم الانتصار ؛ فكانت جديرة باستعراضها لإظهار عبرها للمعتبرين من المسلمين .

ومجيء فعل النصر مبنياً للمعلوم أريد من ورائه إظهار فاعل النصر على الحقيقة، وهو الله عز وجل ثم إسناد فعل النصر إليه ؛ لأنه سبحانه هو – وحده – الفاعل له والمتفضل به ، والميسّر لأسبابه .

وتقديم المفعول وهو ضمير المخاطبين – وهم المؤمنون – على الفاعل وهو لفظ الجلالة فيه إيذان بأن فعل النصر ما أحدث إلا من أجلهم تكريماً لنبيّهم ورفعاً لمكانتهم ورحمة بهم ، فعليهم أن يستحضروا هذه المعاني ؛ فيشكروا المنعم بها عليهم وذلك بالعمل بمقتضيات الإيمان ، والبعد عما يقرب من الشيطان .

---

(١) التوبة : ٢٥-٢٧ .

(٢) انظر : روح المعاني : ٧٢/١٠ .

(٣) انظر : التحرير : ١٥٥/١٠ .

واصطفاء لفظ الجلالة من بين سائر أسمائه سبحانه ليقع إسناد فعل النصر إليه لكونه الاسم الأعظم الدال على الوحدانية ، المستجمع لصفات الجلال والكمال ، فهو نصير المؤمنين ، وقاهر الكافرين ، ومنه جاء هذا الدين .

والمواطن : جمع موطن ؛ وهو كل موضع أقام به الإنسان لأمر من الأمور ؛ ومواطن الحرب : مقاماتها ومواقعها ؛ وسميت بذلك ؛ لكون المقيمين بها يوطنون أنفسهم فيها على لقاء عدوّهم ومناجزته (١) .

ووصف هذه المواطن بكونها [كثيرة] يقتضيه المقام ؛ لأن الحال الذي ورد فيه النص الكريم حال خطاب للمؤمنين ، وهو خطاب تذكير لهم بالنعم العظيمة المُسْبَغة عليهم ، والنِّقم الكثيرة المدفوعة عنهم ؛ فناسب وصف تلك المواطن بالكثرة وهي كذلك في كثرتها ، وقد أوصلها بعضهم إلى ثمانين موطنا (٢) .

وقوله [ويوم حُنين] أي : ونصركم يومَ حُنين ؛ فهذا اليوم من جملة المواطن التي نصر المؤمنون فيها ؛ لأن مواطن الحرب تقتضي أياماً تقع فيها الحرب ، فتدل المواطن على الأيام ، كما تدل الأيام على المواطن ؛ فلمّا أُضيف اليوم إلى اسم مكان علم أنه موطن من مواطن النصر ، ولذلك عطف بالواو ؛ لأنه لو لم يعطف لتوهّم أن المواطن كلها في يوم حنين ، وليس هذا هو المراد (٣) ، وهذا غرض بلاغي حققه حرف العطف في هذا الموضع .

والعطف في [ويوم حنين] من باب عطف الخاص على العام ، وتخصيصه بالعطف من بين سائر الأيام ، لكون شأنه عجيباً وماوقع فيه غريبا ؛ للظفر بعد اليأس، والفرج بعد الشدّة (٤) ، والنصر بعد الهزيمة ، وهي أمور جديرة بأن يُنَصّ عليها وتذكر ، لأن العِبَر فيها أظهر .

ولاينبغي أن يذهب الظّن إلى كون يوم حنين أفضل من يوم بدر ، بل إنّ يوم بدر أفضل من سواه من سائر الأيام ، ففيه أمد الله عباده المؤمنين بالملائكة مُرْدِفين ،

---

(١) انظر : جامع البيان : ١٠/٩٩ ، وغرائب القرآن : ١٠/٦١ .

(٢) ممن نص على ذلك الرقم الفخر الرازي في التفسير الكبير : ١٦/٢١ ، وأبو حيان في البحر : ٥/٢٤ .

(٣) انظر : التحرير : ١٠/١٥٥ .

(٤) انظر : حاشية الشهاب : ٤/٣١٣ ، وانظر : روح المعاني : ١٠/٧٣ .

وصار مَنْقَبة لكل من شارك فيه من الأنصار والمهاجرين ، فيقال : إن فلاناً من البدريين ، ولذلك لما استأذن عمر رضي الله الله عنه الرسولَ صلى الله عليه وسلم في ضرب عنق حاطب ابن أبي بلتعة رضي الله عنه عندما أرسل كتابه إلى قريش يخبرهم فيه بعزم الرسول على غزوهم – قال عليه الصلاة والسلام : " إنه قد شهد بدراً ، ومايدريك لعل الله اطلع على أهل بدر ؛ فقال : اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم "[(١)] . وكفى بهذا فضلاً وتمييزاً وذكرا .

وقوله [إذ أعجبتكم كثرتكم] بدل من [يوم حنين] [(٢)] ؛ فأفادت البدلية أن الإعجاب المذكور قد وقع منهم في يوم حنين ، وهو سرّ هزيمتهم . والبدلية هي سبب فصل هذه الجملة عما قبلها لما بينهما من غاية الاتصال .

وسوق الإعجاب بصيغة الماضي لكونه قد وقع منهم ومضى زمنه ، فأريد تذكيرهم به ؛ لأنه محط الاتعاظ وموضع الاعتبار ، فهو سبب الهزيمة وسرّ البعد عن الانتصار .

وعن العجب يقول الراغب : " العَجَب والتعجّب حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشيء .. ، ويستعار مرّة للمونق ؛ فيقال : أعجبني كذا ، أي : راقني .. ، ويقال لمن يروقه نفسه فلان معجب بنفسه .. "[(٣)] ، وغالباً مايصحب العُجْبَ زهوٌ وغرور[(٤)] ، وغالب مردّه إلى طبيعة النفس البشرية الأمارة بالسوء ، وإلى الشيطان الذي يوسوس في صدر الإنسان إعجابه بنفسه وزهوه برفقاء دربه ، وإذا حصلت هذه الأحوال وقع بسببها البعد عن الرحمن . وشيء من هذا وقع للمسلمين يوم حنين[(٥)] ؛ فقد كانوا اثني عشر ألفاً ، منهم عشرة آلاف ممن شهد فتح مكة من المهاجرين

---

(١) الحديث في الصحيحين وفي غيرهما ، وقد أورد ابن القيم القصة كاملة ووقف على حكمها وعبرها فانظر: زاد المعاد : ٣٩٤/٣ ومابعدها . وانظر : ٤١٠ .

(٢) انظر : البحر : ٢٤/٥ .

(٣) المفردات : ٣٢٢ .

(٤) انظر : اللسان : مادة : عجب .

(٥) حنين : موضع واد بين مكة والطائف ، وغزوة حنين وقعت بعد فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة في الثالث عشر من شوال . انظر : مروج الذهب : ٢٩٦/٢ ، وزاد المعاد : ٤٦٥ ومابعدها ، وروح البيان : ٤٠٥/٣ ، وغزوة حنين لمحمد باشميل ، وغيرها .

والأنصار ، وألفان من الطلقاء من أهل مكة بعد الفتح ، وكان عدوّهم من أهل الطائف أربعة آلاف ، فكان المسلمون هم الجمّ الغفير ، فلمّا تراءت الفئتان قال رجل من المسلمين واسمه سلمة بن سلامة الأنصاري : لن نغلب اليوم من قلة ، كناية عن كثرتهم وإعجاباً بها ، والمراد إثبات الغلبة بسببها ؛ فساءت مقالته رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما التحم الصفان شدّ الكفار على المسلمين شدّة رجل واحد ، وخرجوا عليهم من مكامنهم من كل جانب ، فأدركت المسلمين كلمة الإعجاب تلك ، فانشمروا لايلوي أحد على أحد ، فانكشفوا ، وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وطائفة من أصحابه ، وأمر العباس بأن يصرخ فيهم منادياً ، إلى أن تداعى الناس واجتمعوا حول النبي عليه الصلاة والسلام مرة أخرى ؛ فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً تعضدهم وترعب عدوهم ، فجالدوا الكفار وطاردوهم إلى أن مكنهم الله منهم ، فهزموهم بإذن الله ، وغنموا من الغنائم مالم يقع لهم مثله في غيرها ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء (١).

يقول سيد قطب تعقيباً على ماجرى في " حنين " : " هذه هي المعركة التي اجتمع فيها للمسلمين - للمرة الأولى - جيش عدته اثنا عشر ألفاً فأعجبتهم كثرتهم ، وغفلوا بها عن سبب النصر الأوّل ؛ فردّهم الله بالهزيمة في أوّل المعركة إليه ، ثم نصرهم بالقلة المؤمنة التي ثبتت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والتصقت به "(٢).

ومن دقائق النظم في الآية أن أسند الإعجاب إلى جميعهم مع أن قائل ذلك هو أحدهم وقد يكون الغرض من ذلك تهويل أمر هذه القالة ، وإشعار الجميع بأن مثل ذلك لايليق بهم ولابربهم فالمعتمد عليه هو وحده لاعلى الكثرة، وربّما سرّ ذلك يعود إلى كون طائفة كبيرة من جيش المسلمين سمعوا تلك المقالة وراجت بينهم فاستحسنوها في نفوسهم ، فأخذهم العجب من هذا الباب ؛ فصاروا بمنزلة قائل ذلك الكلام قولاً لسانيا ، فوكلوا إلى تلك المقالة وذلك الاستحسان ، وكان المشروع في حقّهم هو إنكار

---

(١) ذكر ابن القيم أن عدد السّبي كان ستة آلاف رأس ، والإبل أربعة وعشرين ألفاً ، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة ، وأربعة آلاف أوقية فضة .. انظر : زاد المعاد : ٤٧٣/٣ . وانظر : تفاصيل قصة غزوة حنين في : سيرة ابن هشام : ٤٣٧/٢ ومابعدها ، وجامع البيان : ١٠/١٠٠-١٠٤ ، وزاد المعاد : ٤٦٥/٣ - ٤٩٥ وغيرها .

(٢) في ظلال القرآن : ١٦١٧/٣ .

ذلك القول وإظهار الاستياء منه كما فعل ذلك النبي عليه الصلاة والسلام ، والراضي بذلك الكلام كقائله ، والذنب إذا وقع في القوم ولم ينكروا على فاعله فإن لظى العقوبة تنال منهم وتحل بدارهم ، وهذا منطوق قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾(١)٠وفي حديث زينب بنت جحش رضي الله عنها أنها سألت النبي صلى الله عليه وسلم : " أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم إذا كثر الخبث " (٢) ٠ وكثرة الخبث ناشئة عن انتشار الفواحش بكثرة المرتكبين لها ، وعدم إنكار الصالحين على فاعلها ؛ فتعم الفتن ويقع الهلاك على الجميع ٠

وقوله [فلم تغن عنكم شيئاً] تعقيب على فعل الإعجاب الصادر عنهم ، مؤذن بأن عقبى الاتكال على الكثرة والإعجاب بها هي عدم جدواها ، فلم تعط نفعاً لكم ، ولم تجد دفعاً عنكم ، بل وكلتم إليها ووقعتم في شَرَكها ٠ ومعنى الإغناء هو إعطاء مايدفع الحاجة ، والمقصود بذلك التعبير هو إعلامهم أنهم لايَغْلبون بكثرتهم ، وإنما يَغْلبون بنصر الله وتأييده ، فمع كثرة أعدادهم وتوافر عُدَدهم وقلة جمع عدوّهم بالنسبة إليهم – هُزموا واضطرب حبل نظامهم ، لانقطاع نصر الله عنهم وتوقف مدده لهم ؛ وصدق عز وجل حيث قال : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾(٣) فإذا قَصَر المؤمنون توكلهم على الله سبحانه – بعد فعل الأسباب ونَصْبِها – فإن نصر الله يتنزل عليهم وعندئذٍ فلا غالب لهم ، فهذه سنة الله مع أوليائه ، فإذا رَجَوه وتعلّقوا به كان عند حسن ظنهم، وإذا رجوا غيره ونسوه نسيهم وأنساهم أنفسهم جزاء وفاقا ، قال تعالى وهو يخاطب المؤمنين ناهيا إياهم عن مشابهة الفاسقين : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾(٤) وقال جلّ ذكره في وصف المنافقين ﴿ ٠٠ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾(٥) فانظر كيف اتحد وصفهم بالفسق لاتحادهم في حدوث فعل النسيان منهم ٠

---

(١) الأنفال : ٢٥ ٠

(٢) قال عنه الإمام النووي : " متفق عليه " ؛ انظر : رياض الصالحين : ١٢٧ ، الحديث رقم : ١٩٠ ٠

(٣) آل عمران : ١٦٠ ٠

(٤) الحشر : ١٩ ٠

(٥) التوبة : ٦٧ ٠

وتقديم الجار والمجرور [عنكم] على معمول الفعل [شيئاً] يقتضيه سياق النظم ؛ وهو توجيه اللوم لهم ، بتقديم ضميرهم تقريعاً لأسماعهم عندما يسمعون سلب فعل الإغناء عنهم فيلي ذلك مباشرة خطابهم بأنهم هم المعنيّون بعدم الإغناء لاسواهم .

و [شيئاً] نصب على أنه مفعول مطلق ، أو هو مفعول به إن ضمّن الإغناء معنى الإعطاء [١] ، وعلى أيّ منهما فهو نكرة وردت في سياق النفي ؛ فأفادت سلب عموم الإغناء ونفيه ، أي : فلم تغن عنكم شيئاً من الإغناء .

وقوله [وضاقت عليكم الأرض بما رحبت] معطوف على الجملة المتقدمة ؛ ومسوّغ العطف كون هذه الجملة خبراً آخر في المعنى عن مُخْبَر واحد ، وهي جملة فعلية ، وماقبلها كذلك ، وقرنهما بالواو دون سواها يفيد مطلق وقوعهما في وقت واحد مع تقدم الأول على الثاني في الوقوع لتقدمه في الذكر .

وفي التركيب المتقدم استعارة تمثيلية [٢] ؛ فقد مثّلت حال المؤمنين وهم فزعون مضطربون لايلوون على شيء ولايتّسع لهم ماحولهم بحال من هو في مكان ضيق من الأرض يريد أن يخرج منه فلا يملك حولاً ولاطولاً مع طول الأرض من حوله وعرضها ، بجامع الحيرة والاضطراب وعدم الاهتداء إلى سبل النجاة مع وفرتها . وهي استعارة تمثيلية .

وعند التأمل في ظلال الآية ومعناها ، وبإمعان الفكر في نظمها نجد أنّ سياقها يقود إلى فاصلتها بل ويفضي إلى لفظها ؛ فإن كون القوم قد أعجبوا بكثرتهم ، فشغلت قلوبهم عن ربّهم ، أفضى إلى عدم نفعها لهم ، وإلى وقوعهم في ضيق من الأمر جعل الأرض من حولهم تضيق عليهم ، وهذه الأحوال تقود إلى كونهم قد انهزموا ؛ فولّوا عدوّهم أدبارهم ، وهذا ما انتهت إليه فاصلة الآية وختمت به ؛ فقد قال سبحانه ﴿ .. ثم وليتم مدبرين ﴾ فقد ختمت الآية بمعنى أفضى إليه نظمها ،

---

(١) انظر : حاشية الشهاب : ٣١٥/٤ .

(٢) ممن ذكر ذلك وأجراها ابن عاشور في : التحرير : ١٥٦/١٠ - ١٥٧ . وقد أجراها الشهاب في الفعل [ضاقت] فهي عنده استعارة تبعية لكونها في الفعل ، وقد تبعه في ذلك الألوسي ؛ انظر : حاشية الشهاب : ٣١٥/٤ ، وروح المعاني : ٧٤/١٠ .

وانتهى لفظها إلى معناها ، فكان معنى هذه الفاصلة في قلبك أسرع من وقوع لحظك على رسمها ، فما إن وقع بصرك على لفظها إلاّ وتمكن في فؤادك مضمونها ، واستقر في جنانك مرادها ، وماذاك إلاّ لكون مدلول صدرها قد مهّد لك معنى فاصلتها ، فوقع هذا المعنى في نفسك موقعاً حسناً ، وازددت به تصوُّراً وفهماً ، وزاد في الأمر تصويراً وقوع لفظ الفاصلة حالا ؛ مؤكّدةً حقيقة تولّيهم ، وراسمةً صورةً خاصة به ؛ فليس ذلك فرارا فحسب ، وإنّما هو ضرب من الانهزام أخص من الفرار ، لأن التولّي هو مطلق الهروب ، ولكن هروبهم لم يكن كذلك ، بل هو على هيئة خاصة ونمط فريد ، وهو أنهم أعطوا عدوّهم أدبارهم ، وذهبوا إلى عكس جهة عدوّهم ، ويساعد في رسم هذه الصورة طبيعة وادي " حنين " الذي انكسروا فيه ، فقد كانوا محصورين بين ضفتيه ، وعدوّهم متترّس لهم أمامهم ، فلم يكن لهم بدّ - وقت انهزامهم - إلاّ أن يعكسوا وضعهم فارّين إلى حيث كانوا قادمين ، وهذه هي صورة كونهم مدبرين ٠ وهي حالة أشرّ من هزيمتهم مطلقاً ، ولهذا فإنّ موقع [ثمّ] ليس للتراخي الزمني ؛ بل أفادت معنى زائداً على هزيمتهم ، وأوحت بمدلول دقيق وهي كون هذه الهزيمة جاءت على هذه الصورة الشنيعة التي هي أعظم من ذات الهزيمة لما فيها من العار ، وعلى ذلك فـ [ثم] للتراخي الرُّتبي ، المفيد أن مابعدها أعلى في الرتبة مما قبلها(١) ٠

وقوله [ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين] معطوف على ماتقدم مفيد للتراخي الزمني ، فإن شعورهم بضيق الأرض بهم وتوليتهم الأدبار منهزمين ثم عودتهم مرة أخرى واجتماعهم حول رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ذلك استقطع وقتاً من المعركة وأخذ زمناً هو في عرف المنكوبين طويل ليس مثل سائر الأوقات العادية(٢) ٠

وإظهار فاعل الإنزال وهو لفظ الجلالة دون الاكتفاء بالضمير المستتر فيه وضع للمظهر موضع المضمر لنكتة ؛ هي أن يقع في روع المؤمنين وفي سمعهم أن الذي

---

(١) ذكر ذلك ونص عليه ابن عاشور ؛ انظر : التحرير : ١٥٧/١٠ ٠

(٢) أشار إلى ذلك ابن عاشور ، مع أن الأولى عنده أن [ثم] للتراخي الرتبي هنا ، على تأويل أن نزول السكينة والملائكة أعلى من النصر الأول في بداية المعركة ؛ انظر : التحرير : ١٥٧/١٠ - ١٥٨ ٠ واستبعد الشهاب كونها للتراخي الرتبي ، انظر : حاشية الشهاب : ٣١٥/٤ ٠

أنقذهم من تلك الهلكة ورحمهم بعد ذلك الإدبار هو ذو الألوهية الحقة والصفات الكاملة ؛ فهو الذي يلجأ إليه ، ويُتّكل عليه ، وفيه تنبيه لهم بأن كثرتهم في عَددهم وعُدَدهم لاتدفع عنهم ضرا ، ولاتجلب لهم خيراً ، بل هي مصدر الأذى والشر فقد وكلوا إليها فحل بهم ماحل .

وأما السكينة فقد قيل عنها إنها : ملَك يسكّن قلب المؤمن ويؤمّنه ، وقيل هي بمعنى إزالة الرعب وتثبيت الفؤاد (١) ، وقيل : إن المراد في الآية أن الله عز وجل أنزل مايسكّنهم ، فيذهب خوفهم حتى وقع منهم الاجتراء على قتال المشركين بعد أن ولّوا مدبرين(٢) ، وأنت عليم أنها معان متقاربة فيها رحمة وتثبيت وتسكين للروع من الفزع، ولايملك ذلك إلاّ الرحمن الرحيم ؛ ولذلك فقد نَسب إنزالها إليه ثم أكّد ذلك بإضافتها إلى ضميره سبحانه فازدادت به اختصاصاً ؛ ولهذا فمن تمنّاها فليفزع إلى مالكها والمنزّل لها متضرّعاً بين يديه ، فإنه حري أن تُلقى بين جنبيه ، فقد قال سبحانه : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (٣) .

وإضافة السكينة إلى ضميره سبحانه في هذه الآية أكسبها تعريفاً خاصاً ، وأما تعريفها بالألف واللام في آية : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ .. ﴾ (٤) فهو تعريف عهد تفسّرها إضافتها إلى المولى جل وعلا ، فإذا وردت مضافة فهي معرّفة بالمضاف إليه مختّصة به ، وإذا جاءت معرّفة بأل فهي المعهود في الذهن اختصاص الله بها ؛ لكونها في حال الإضافة لم ترد مضافة إلى غيره ، والإضافة زيادة تعريف وبيان وتقييد ، فيحمل المطلق على المقيّد ، فضلاً على أن وقوعها بعد فعل الإنزال يقتضي اختصاصها به ، ولكن الإضافة تزيد في ذلك الاختصاص وتمكّنه .

ثم إن تعليق السكينة بإنزال الله ، وإضافتها إلى ضميره تنويه بشأنها وإشعار ببركتها ، وإشارة إلى أنها سكينة خارقة للعادة ليس لها أسباب أو مقدّمات ظاهرة ،

(١) انظر : المفردات : ٢٣٧ .
(٢) انظر : فتح القدير : ٣٤٨/٢ .
(٣) غافر : ٦٠ .
(٤) الفتح : ٤ .

وإنّما حصلت بمحض تقدير الله وتكوينه كرامةً لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وإجابة لندائه الناسَ عندما أمر العباس أن يصرخ فيهم بذلك [١] .

وقوله [على رسوله وعلى المؤمنين] هو محلّ إنزال السكينة المذكورة ، والبداءة بذكر الرسول عليه الصلاة والسلام على سائر المؤمنين إعلام برفعة منزلته عند الله عز وجل ، وإخبار بفضله على سائر المؤمنين ، وإيماء إلى كونه رأساً وحده وسبباً ناهضاً لإنزال السكينة فهو في كفة والمؤمنون معه في كفة أخرى .

وذكره بوصف الرسالة إظهار لشرف الرسالة ، وإشعار أن مكانته ما ارتفعت إلا بها ، وأن تلك السكينة نزلت لتلبّسه بوصفها ، وأن إنزالها من أجل تتميمها وتكميل مقاصدها .

وعطف المؤمنين على الرسول بإعادة الجار [على] مؤذن بالتغاير بينهما ؛ ذلك أن مقتضى الظاهر هو العطف بغير إعادة الجار ، ولكن في إعادة الجار نكتة بلاغيّة وهي بيان التفاوت بين السكينتين [٢] ، فإن أكثر المؤمنين أصابهم القلق وداخلهم الاضطراب وأزعجهم الفزع حتى فرّوا ؛ فكانت سكينتهم اطمئنان قلوبهم وتهدئة روعهم وتسكين نفوسهم حتى ثابوا إلى رشدهم وعادوا إلى قائدهم فألحقوا النكاية بعدوهم ، أما الرسول عليه الصلاة والسلام ومن بقي معه فقد ثبتوا من غير اضطراب، فكانت سكينتهم اطمئناناً على المسلمين وثقة بالنصر واستشعاراً لرحمات الله وهي تتنزل ، وتحسّساً لنصر الله وهو يدنو حتى وقع الفرج وانكشفت الغمّة .

والتعبير عن [المؤمنين] باسم الإيمان إيماء إلى أن سبب تكريمهم بإنزال السكينة عليهم هو إيمانهم ، وفي ذلك ترغيب في الإيمان وحث على التمسك به والتماس أسبابه والعمل بها ؛ فهو مجلب الخير ومدفَع السوء في الدنيا والآخرة .

وقوله [وأنزل جنوداً لم تروها] فيه إعادة لفعل الإنزال مرة أخرى ؛ وذلك لاختلاف طبيعة المُنْزَل – وهو المفعول – ، وفيه إشعار بأن هذه نعمة أخرى وعون آخر يساند الأوّل ويحقّق غرضه ولذلك عطف عليه وأخبر به عقبه مباشرة ، والاكتفاء بضمير الفاعل دون لفظه لقرب ذكره فاكتفي بضميره عنه إيجازاً .

---

(١) انظر : التحرير : ١٠/١٥٨ .

(٢) انظر : حاشية الشهاب : ٤/٣١٥ ، والتحرير : ١٠/١٥٨ .

وتنكير [جنوداً] لغرض التعظيم والتكثير ؛ أي جنوداً عظاماً كثيرين ، وقد يكون غرض التنكير التنويع ؛ أي : نوعاً غير معهود من الجنود ، والذي أفاد ذلك هو اختصاصهم بكون الذي أنزلهم هو الله عز وجل ، وكونهم غير مرئيين . والمقصود بهؤلاء الجنود هم الملائكة .

وأما عددهم فظاهر النص الكريم هو الإطلاق وعدم التحديد(١) ، لأن التحديد يفتقر إلى سند شرعي بنصّ الكتاب ، أو صحيح السنة ، ولم يرد في الأوّل ذكر لعددهم ، كما لم يصح في الثاني مايقطع بأعدادهم فيما أعلم . وعلى ذلك فإن الجري وراء التحديد من غير دليل يقطع به ضرب من الاجتهاد الذي لاطائل وراءه ولامادّة له كما لاينبني عليه ثمرة . وإنما العبرة بمدد الله وعونه فإنه يقع للمؤمنين في هذه الأزمان كما وقع لأسلافهم فيما تقادم من الزمان ، والنصوص الشرعية قاطعة بذلك ناصّة عليه بصيغة الجزم والتوكيد ومنها قوله عز وجل : ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(٢).

وأولئك الملائكة أكان نزولهم نزول مقاتلة أم هو نزول نصر للمؤمنين ، بتأييدهم ، وتكثير سوادهم ، وإرعاب عدوّهم ؛ ؟ .

أكثر المفسّرين على القول الثاني ، وأن الملائكة لم تقاتل مع المؤمنين إلا في يوم بدر(٣).

وقوله [لم تروها] نفي لرؤية الجنود رؤية بصرية(٤)، فهم جنود غير مرئيين ، وفائدة هذا النفي هي نفي التلازم بين نزول أولئك الجنود وبين رؤيتهم ، فلا يدل عدم مشاهدتهم عياناً أنهم غير منزلين أو أنهم غير موجودين مع المؤمنين ؛ كلاّ ! فلا تلازم بين الأمرين .

وربّما كان إخفاؤهم عن أعين الناس مزيد تكريم للمؤمنين ؛ بأن يكون ماظهر منهم من السطوة والصولة منسوباً لهم في أعين أعدائهم ، وهذه السجايا مما يمكّن الرعب في قلوب عدوّهم ويشرّد بهم مَنْ خلفهم ؛ فلا يُجْترأ عليهم وهذه حالهم ، ولايمسّ جنابهم ، فهم مضرب الأمثال في الشجاعة والبطش بالعدوّ .

---

(١) انظر : البحر : ٢٥/٥ .
(٢) الروم : ٤٧ .
(٣) انظر : التفسير الكبير : ٢٢/١٦ ، والبحر : ٢٥/٥ ، وروح البيان : ٤٠٧/٣ ، وفتح القدير : ٣٤٨/٢ .
(٤) انظر : حاشية الشهاب : ٣١٥/٤ .

قوله [وعذّب الذين كفروا] معطوف على ماتقدم ، فهو من جملة الأفعال المسندة إلى الله عز وجل في يوم " حنين " ، وإسناد التعذيب إلى الله تعالى مع كونه قد جرى على أيدي المؤمنين إشعار للمخاطبين بأن نصرهم على الكافرين – ومن جملته التعذيب – ماكان ليتم لولا لطف الله بعباده بأن ثَبَّت نبيه ومن معه ثم أنزل سكينة وأردفها بإنزال الجنود ؛ فتغيَّر ميزان المعركة وانقلبت كفَّتها لصالح المؤمنين ؛ فجرى تعذيب الكافرين على أيديهم ؛ بعدما يسّر الله لهم أسبابه ، ومكّنهم منه ، ولهذا نُسب إليه ، وفي ذلك إيماء مرة أخرى إلى أن الإعجاب بالكثرة أوقع في العثرة ، ولم ينقذهم منها إلاّ رحمته بهم وتعذيبه لعدوّهم بأيديهم وأسِنَّتهم ؛ فقتلوا كثيرا ، وأسروا كثيراً ، وغنموا من الأموال والنِّعم مالم تقع عليه أيديهم من قبل ، فلله الحمد من قبل ومن بعد .

واجتلاب الموصول لبناء التعذيب على ماضمته صلته ، وهو كون المعذبين قد عقدوا على الكفر ؛ فصاروا به مستحقين للتعذيب ، وفي ذلك تنفير من الكفر ومن أهله ؛ فهو مستتبع للعذاب الدنيوي موجب للعذاب الأخروي .

وكون التعذيب واقعاً على الكفار بصيغة الموصول فيه مغايرة لفاصلة الآية وهي قوله [وذلك جزاء الكافرين] ، فقد جاءت الفاصلة بصيغة اسم الفاعل ، مع أن الموضوع واحد وهو الكفر ومن تلبّس به . ولكن عدل إلى التنويع لأغراض بلاغية ؛ منها ماتقدم في شأن الصلة ، ومنها تشويق النفس بتنويع العبارة ، ومنها ترتيب الجزاء على الكافرين الثابتين على الكفر الممارسين لمظاهره ، فصيغة اسم الفاعل أوقع في الدلالة على المعنى من غيرها من الصيغ ، فإن العذاب أذى ولايصح إيقاعه إلاّ على مُسْتحقّه ، وأعلى درجات الاستحقاق كون المستحق فاعلاً لموجب التعذيب وهو الكفر . ولذلك جاءت الفاصلة على صيغة اسم الفاعل ؛ لأن هذه الصيغة تمثل نهايات استحقاق العذاب ؛ فكان بها فصل الآية وختمها ، ولذلك وقعت موقعها الذي لايسدّ غيرها مسدّها ، وزاد في حسن موقعها ذكر فعل التعذيب الواقع على الكفار قبلها ، فكان مايوضّح جزاء الكافرين هو ماقبله من التعذيب الواقع على إخوانهم في الكفر .

وكان المنتظر من فاصلة الآية أن تكون مثلاً : وعذب الذين كفروا بما كانوا يكفرون . ولكنّ هذا التعبير الأخير يجعل سبب التعذيب هو كفرهم فقط . أما التعبير الوارد في الآية ؛ فإنّه قد حصّل هذه الغاية ، وزاد عليها بأن سَنَّ حكماً في كلّ

الكافرين إلى قيام الساعة ؛ بأن يكون شأنهم شأن مافعل بالمذكورين من أصناف التعذيب في الدنيا بأيدي المؤمنين ، ولهم في الآخرة ما الله به عليم .

وقوله [ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء] معطوف على قوله [ثم أنزل الله سكينته على رسوله ..] إلى قوله [وذلك جزاء الكافرين] وهذا على رأي ابن عاشور ؛ لأن [ثمّ] عنده للتراخي الزمني ، فقد قال في توجيه ذلك : " وهذا إشارة إلى إسلام هوازن بعد تلك الهزيمة فإنهم جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلمين تائبين ، وسألوه أن يردّ إليهم سبيهم وغنائمهم ؛ فذلك أكبر منّة في نصر المسلمين ؛ إذ أصبح الجُنْد العدوُّ لهم مسلمين معهم ، لايخافونهم بعد ذلك اليوم "(١) .

وماذهب إليه ابن عاشور حسن الوجه ظاهر المحمل ، إلاّ أن ذلك لايمنع من كون [ثم] للتراخي الزمني ؛ فإن إسلام ثقيف وهوازن الذي هو مقتضى توبة الله عليهم - كان بعد مامرت مراحل المعركة وبعد وقوع العذاب بهم وتفريق غنائمهم وأموالهم ، وهذا كلّه وقع في زمن أفاده التعبير بـ [ثم] ؛ ولهذا فإن التراخي الزمني هو المتبادر من ورودها في السياق .

والتعبير عن التوبة بالفعل المضارع [يتوب] إعلام بأنّ توبة الله تعالى على العباد وهدايتهم إلى الإسلام ليست مقصورة على ثقيف وهوازن ولاخاصة بهما ؛ لأن التعبير بالمضارع يفيد الدلالة على الحال وكذا الاستقبال ، فهو شامل لتوبة أولئك وغيرهم في زمنهم وفيما بعده من الأزمان ، ففي التعبير إشعار بأن الله يعامل بمثل ذلك كلّ من ندم وتاب ، فالمعنى : ثم تاب الله عليهم ويتوب الله على من يشاء (٢)، ويدل على ذلك إطلاق فعل المشيئة وعدم تخصيصه بقوم دون قوم .

وإسناد فعل التوبة إلى لفظ الجلالة دون الاكتفاء بالضمير المستتر فيه إعلاء لشأن التوبة بقرنها بمقام الألوهية المشعر بالوحدانية ، تنبيهاً لكل عاص بأن باب التوبة مفتوح ، وأن التوبة لاتطلب إلا مِنْ مالكها . والمختص بها وهو الله وحده ، كما أن فيه إيماء إلى ضرورة الصدق في طلب التوبة من الواحد الأحد والإخلاص في ذلك

---

(١) التحرير : ١٠/١٥٨ - ١٥٩ .
(٢) انظر : التحرير : ١٠/١٥٩ .

حتى يتحقق المراد .

وقوله في فاصلة الآية [والله غفور رحيم] استئناف واقع موقع التذييل لما تقدم، مقرر لمضمون توبته على من يشاء ، فقد أخبر عن ذاته الكريمة باسمين كريمين ، وهما كونه غفوراً رحيما ، ويشتق منهما صفتان عليّتان ، هما : المغفرة والرحمة . وكان مقتضى الظاهر في الفاصلة أن تكون مثلاً : والله توّاب رحيم ؛ وذلك لكون فعل التوبة قد أُسند إليه أوّلاً ؛ فيكون إخباره باسمها مناسباً ، ولكن عُدل عن ذلك إلى اسم [غفور] ؛ فما مناسبة هذا العدول ؟

إن الجواب عن ذلك يقتضي الوقوف على دلالة الاسمين الكريمين : توّاب ، وغفور ، لمعرفة الفرق بينهما ؛ فإن توبة العبد من الذنب تعني إقلاعه عنه وتركه له وعدم العودة إليه ، وتوبة الله على العبد هي قبول توبة العبد من الذنوب [1]. وأما الغُفْران والمغفرة من الله فهو أن يَصُون العبدَ من أن يَمَسَّه العذاب [2]. وبذلك يتبين أن الله عز وجل إذا وفّق من شاء من عباده إلى التوبة ؛ فتاب عليه صانه من أن يمسّه العذاب ، وهذه الأخيرة مغفرة ، وهي من مقتضيات رحمته سبحانه بعباده ، ولذلك وقع التدرج في نظم الآية بين صفاته العليا وأسمائه الحسنى ؛ فقد أخبر عن نفسه جلّ وعلا بأنه يتوب على من يشاء من عباده ، ثم أطمع عباده كافة بأنه غفور رحيم ، فهو متجاوز عن ذنوبهم التي تابوا منها ؛ فيصونهم عن عذاب استحقّوه بسبب تلك الذنوب ، وهو رحيم بهم ، ومن رحمته قبوله توبة التائبين ، ومن رحمته أيضاً التجاوز عن المسيئين إذا ندموا واستغفروا . فالتوبة أولاً ثم تعقبها المغفرة ثانياً ويرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَاتَفْعَلُونَ ﴾[3] ، والتوبة أخصّ من المغفرة ؛لكون التوبة تتعلق بمن تاب لقوله عز وجل : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [4]،

---

(١) انظر : المفردات : ٧٦ .

(٢) انظر : المفردات : ٣٦٢ .

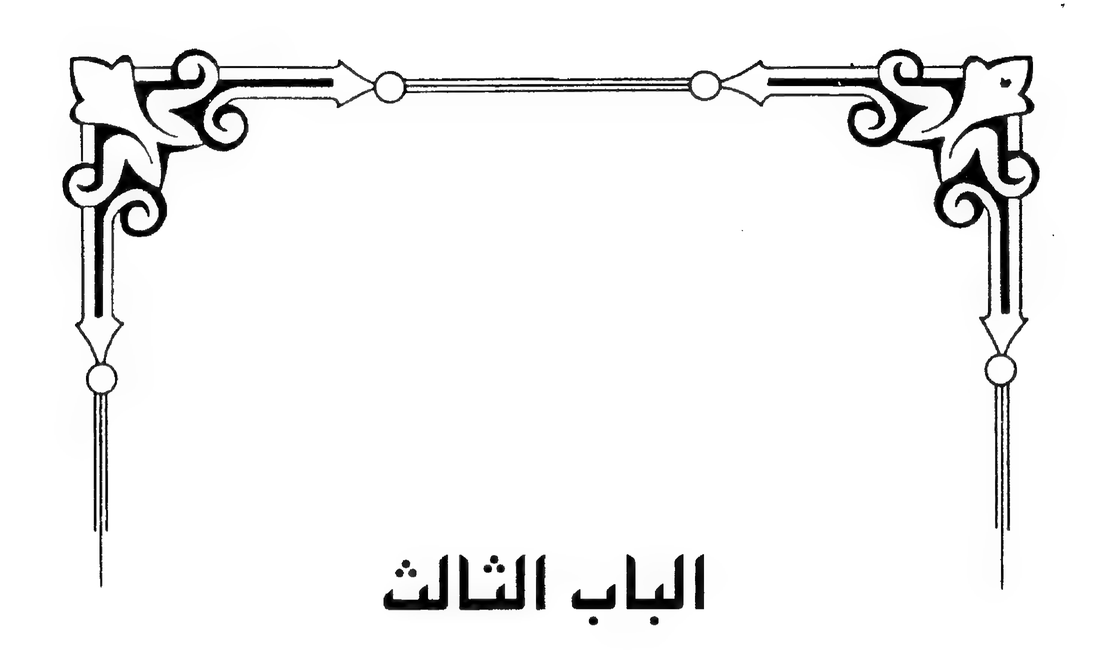
(٣) الشورى : ٢٥ .

(٤) البقرة : ١٦٠ .

والمغفرة أعم من التوبة ؛ لإطلاقها وعدم تقييدها بمن تاب ؛ لقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ .. ﴾ [١] وقوله ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [٢]. وأما الرحمة فهي أعم من التوبة ومن المغفرة ؛ لقوله عز وجل ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [٣]، فتأمل نظم الآية التي نحن بصددها ؛ فقد بدأت بالتوبة ثم تدرجت بالمغفرة ثم ختمت بالرحمة التي هي من أعم الصفات . فكانت فاصلة الآية مؤذنة بأنّ توبته على أهل الطائف وهدايتهم هم وغيرهم إلى الإسلام من أعظم رحماته بهم ؛ ولهذا ناسب ختم أحداث غزوة " حنين " بهذه الفاصلة ، التي عمّ أثرها المؤمنين حين رحمهم بالسكينة وبالجنود المنزلين وبنصره المبين ، كما عمّت الكافرين من هوازن وثقيف فهداهم الله إلى الإسلام ، فأسلموا بفضل الله ورحمته وانقادوا لهذا الدين ؛ فكان افتتاح غزو العرب ببدر ، وختامه بحنين ، وبعدها توافد الناس يدخلون في دين الله أفواجا [٤] .

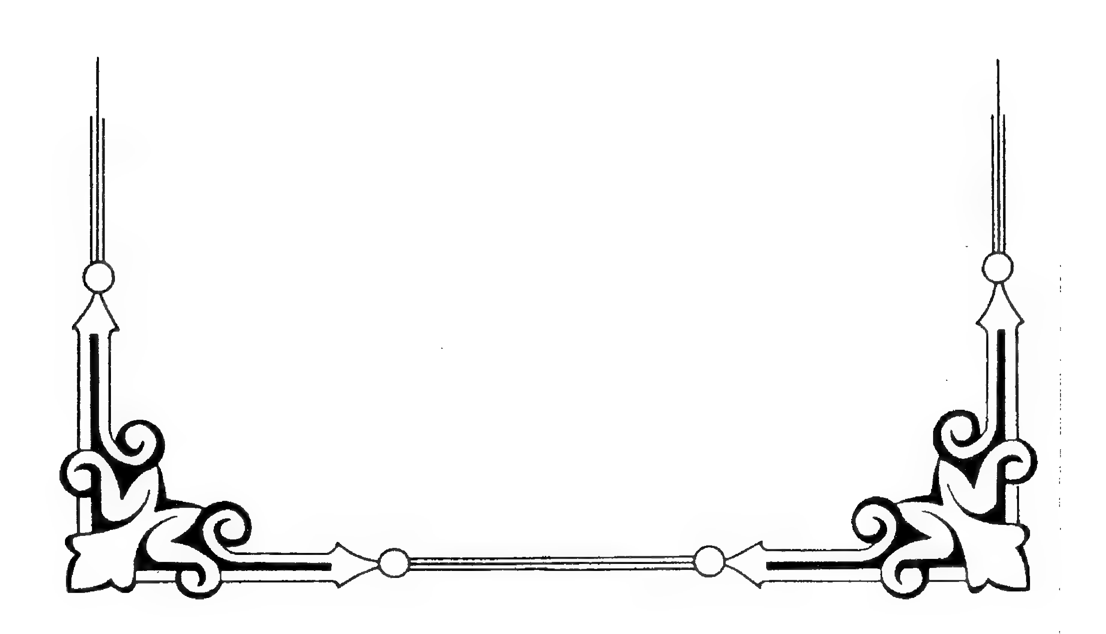
---

(١) النساء: ١١٦ .
(٢) الزمر : ٥٣ .
(٣) الأعراف: ١٥٦ .
(٤) انظر : زاد المعاد : ٣/٤٧٩ .



الباب الثالث

خصائص التصويرفي آيات الجهاد



توطئـــــة : -

التصوير في اللغة مصدر من الفعل : صور ؛ وهو يدل على الشكل والهيئة والصفة ، كما قال ابن الأثير : " الصورة ترد في كلام العرب على ظاهرها ، وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته ، وعلى معنى صفته ؛ يقال صورة الفعل كذا وكذا أي : هيئته ، وصورة الأمر كذا وكذا أي : صفته .. "(١). وتصوّرت الشيء : توهّمته ، فتصوّر لي ، والتصاوير : التماثيل(٢).

والتصوّر هو العلاقة بين الصورة والتصوير ، ويكون بالذهن ، وأما التصوير ، فهو نقل الصورة وإظهار شكلها ، سواء بآلة التصوير ، أم بالفكر واللسان من خلال البيان(٣).

وتعتمد الصورة البيانية على اللفظ والمعنى والخيال والعاطفة ؛ فاللفظ والمعنى هما عماد الصورة ومادة بيانها ، والخيال مجال تكوينها وأفقها الواسع ، والعاطفة هي بمثابة الموجّه للمتلقي نحو غايات الصورة وأهدافها ؛ لأنها تخاطب مشاعره وأحاسيسه ، فتمكّن فيها ما أُريد منها . وغنيٌّ عن البيان تظافر تلك الأركان وعدم انفكاك بعضها عن بعض ؛ وبقدر توافر الدقة في أداء كلّ منها لغرضه ، يتحقق الغرض الأسمى من إيراد الصّورة .

وهناك طريقتان في التعبير عن المعاني ، الأولى تلقي المعنى في الذهن مجرّداً ، اعتماداً على الدلالة اللغوية لهذا اللفظ ، ويخاطب به الذهن البشري خطاباً مباشراً فيتوصل إلى المعنى باللفظ الموضوع له في العرف .

وأما الطريقة الثانية فهي أرقى من الأولى ، وأمكن منها في الوصول إلى أغراض الكلام . وذلك بأن تعبر عن المعاني بالألفاظ المصوّرة ؛ فتقرّبها إلى الأذهان من خلال حوّاس الإنسان ، وذلك عبر أدوات التصوير البياني ، فطوراً بالتشبيه ،

---

(١) لسان العرب : مادة : صور . وانظر : معجم مقاييس اللغة : مادة : صور .
(٢) انظر : المصدر السابق : المادة نفسها .
(٣) انظر : نظرية التصوير الفني عند سيد قطب : ٨٧ .

وطوراً بالمجاز ، وحيناً بالكناية ، وأحياناً بالقصّة ، هذا في نقل معاني البشر بعضهم إلى بعض ، فإذا صعدنا إلى سلّم البيان في القرآن – الذي نزل بلسان عربي مبين – وجدنا " أنه لايخاطب العقل وحده على نحو مانعلم من طبيعة سائر أنواع الكلام ، ولكنه يخاطب العقل والشعور معاً ؛ لأن القرآن لايعتمد على التفكير وحده ليقنع ، ولكنّه يتجه إلى إثارة الوجدان إثارة روحية رفيعة ؛ تحدث السرور في النفس فتُقْبِل ، أو تحدث فيها الألم فتأبى وترفض .. والمعرفة وحدها ليست كافية للهداية ؛ إذ العلم شيء والسلوك الإنساني شيء آخر ؛ لذلك اتّجه القرآن إلى التأثير الوجداني بعد الحجّة المقنعة ليهزّ النفوس ، ويحرك المشاعر ، ويفيض الدموع "[١].

وأسلوب الإقناع في القرآن بهزّ النفوس وتحريك المشاعر للوصول إلى الأغراض والمقاصد هو أسلوب التصوير .

وقد طفق سيد قطب يبيّن هذا الأسلوب القرآني الفذّ بقوله : " التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن ؛ فهو يعبّر بالصورة المحسّة المتخيلة عن المعنى الذهني ، والحالة النفسية ، وعن الحادث المحسوس ، والمشهد المنظور ، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية ، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة ، أو الحركة المتجدّدة ؛ فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة ، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ، وإذا النموذج الإنساني شاخص حيّ ، وإذا الطبيعة البشرية مجسّمة مرئية . فأما الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر فيردّها شاخصة حاضرة ؛ فيها الحياة وفيها الحركة ؛ فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل "[٢].

والتعبير في القرآن عن الأغراض والمقاصد بالتصوير والبيان مظهر من مظاهر إعجازه ، وصورة من صور التحدي المعجز فيه .

وأسلوب التصوير في الكلام يجري – في الغالب – على أنماط ؛ فقد يكون بطرق البيان ، أو بألوان البديع ، أو بأسلوب التصوير القصصي . وهذا ما سأتناوله بالشرح والتحليل في الفصول الآتية .

---

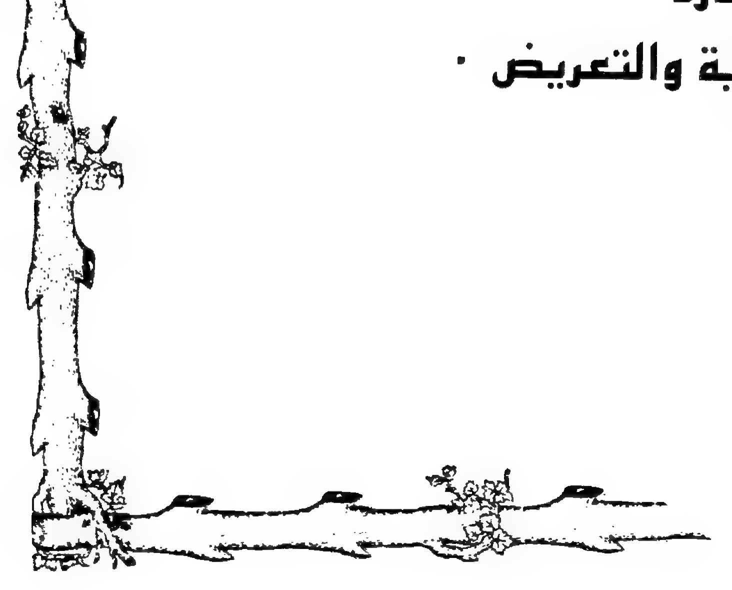
(١) المشاهد في القرآن الكريم : ٣٠١ .
(٢) التصوير الفني : ٣٦ .



الفصل الأوّل

التصوير بطرق البيان

- بالتشبيه .
- بالاستعارة .
- بالكناية والتعريض .



توطئـــــة : -

البيـان فـي لغـة العرب فيـه معنى الظهور والوضـوح ، والانكشاف والجلاء [١].

" والبيان : الفصاحة واللَّسن ، وكلام بيّن فصيح · والبيان : الإفصاح مع ذكاء · والبيّن مـن الرجـال : الفـصيـح · وفـلان أبين من فـلان أي : أفـصح منه وأوضح كلاما .. " [٢].

وقـد فـرّق اللـه عـز وجـل بين الإنسـان وسـائر الحـيوان بمنطق البيان ؛ فـبه يفـصح عمـا فـي ضـمـيره ، ويدرك حـاجاته · وفي ذلك يقـول الرحـمن ممتنـاً على الإنسان : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرآنَ خَلَقَ الإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ [٣]، وقد يبلغ الإنسـان ببيانه حداً يضارع السحر في تأثيره ، ولهذا قـال عليه الصلاة والسلام : " إن من البيان سِحْراً ، وإن من الشعر حِكَما " [٤].

والسحر الوارد في الحديث ليس مراداً به ذمّ البيان على إطلاقه ، وإنما الأمر في ذلك يختلف باختلاف المقاصد التي يراد بيانها ؛ فإن كان البيان في أمر باطل فهو ذم ، وإلاّ فهو مدح لامحالة لقرينة ، " وإن من الشعر حكما " [٥].

والتعبير عن البيان بالشعر إشارة إلى مايمتاز به فنّ القول من التأثير بمهارة أسلوبه وتلوّن عباراته [٦].

وهذا يقودنا إلى تعريف علم البيان فهو : علم يعرف به إيراد المعنى الواحد في صـور مـختلفـة ، متفاوتـة فـي وضـوح الدلالة عليه، مع مطابقة كلّ منها لمقتضى الحال [٧].

---

(١) انظر : اللسان : مادة : بين .

(٢) المصدر السابق : المادة نفسها .

(٣) الرحمن : ١ - ٤ .

(٤) الحديث قال عنه مخرج أحاديث " جامع الأصول " - عبدالقادر الأرناؤوط - مانصه : " وهو حديث صـحيح " . انظر : جامع الأصـول : ٥/١٦٤ . وهو في سنن أبي داود برقم (٥٠١١) ، باب مـاجاء في الشعر .

(٥) انظر : عون المعبود شرح سنن أبي داود : ١٣/٣٥٢ . والالتزام الإسلامي في الشعر: ١١٩- ١٢١.

(٦) انظر : بناء الصورة الفنية في البيان العربي : ٢٦٦ .

(٧) انظر : الإيضاح : ١٢٠ . ، والبيان في ضوء أساليب القرآن : ٢٠ .

وعلى هذا المفهوم لعلم البيان تتضح العلاقة بينه وبين علم المعاني ؛ فإن منزلة الأول من الثاني بمنزلة المفرد من المركّب ؛ لأن رعاية المطابقة لمقتضى الحال - وهي مدار علم المعاني - معدودة في علم البيان مع زيادة أمر آخر ، وهو إيراد المعنى الواحد بأساليب مختلفة تزيد في إيضاح هذا المعنى وإظهاره [(١)] .

وطرق التصوير عبر البيان قد تكون بالتشبيه ، وقد تكون بالاستعارة ، وقد تكون بالكناية والتعريض ، ولكل طريق خصائصه وشواهده وهذا ماسيتضح في التفصيل الآتي :

---

(١) انظر : البيان في ضوء أساليب القرآن : ٢١ .

التشبيـــه

" الشين والباء والهاء أصل واحد يدل على تشابه الشيء وتشاكله لوناً وَوَصْفاً ؛ يقال شِبْه وشَبَهٌ وشَبِيهٌ " [١] . و " شبّهت الشيء بالشيء أقمته مقامه بصفة جامعة بينهما "[٢] .

وهذا التعريف الأخير لايختلف كثيراً عن التعريف الاصطلاحي للتشبيه ؛ فقد عُرف بأنه : " إلحاق أدنى الشيئين بأعلاهما في صفة اشتركا في أصلها ، واختلفا في كيفيتها قوّة وضعفا "[٣] . وهو تعريف لطيف فيه إشارة إلى عملية التشبيه وتلويح بغرضه . وهذا التعريف أوفى وأتم من تعريف الخطيب القزويني ؛ حيث عرف التشبيه بأنه : " الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى " [٤] . وإن كان تعريف الخطيب قد راعى التشبيه المقلوب .

ومهما يكن من أمر فإن التشبيه ضرب من التصوير ؛ يمكّن المعاني في النفوس ويغريها بها ؛ وممن فطن إلى ذلك ونصّ عليه ابن الأثير ؛ حيث يقول : " وأما فائدة التشبيه من الكلام فهي أنّك إذا مثّلتَ الشيء بالشيء فإنّما تقصد به إثبات الخيال في النفس بصورة المشبَّه به ، أو بمعناه ، وذلك أوكد في طرفي الترغيب فيه أو التنفير عنه . ألا ترى أنّك إذا شبّهت صورة بصورة هي أحسن منها كان ذلك مُثْبِتاً في النفس خيالاً حسناً يدعو إلى الترغيب فيها . وكذلك إذا شبهتها بصورة شيء أقبح منها كان ذلك مثبتاً في النفس خيالاً قبيحاً يدعو إلى التنفير عنها ، وهذا لانزاع فيه "[٥] .

ولقد وقع – قبل ابن الأثير – عبدالقاهر الجرجاني على أثر التمثيل في إبراز المعاني بما لامزيد عليه ؛ حيث قال : " واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني ، أو برزت هي باختصار في معرضه ، ونُقلت عن صورها

---

(١) معجم مقاييس اللغة : مادة : شبه .

(٢) المصباح المنير : مادة : شبه .

(٣) خزانة الأدب : ٣٨٤ . وقد قال الحموي بعد أن ساق هذا التعريف : " وهذا حدّ مفيد " .

(٤) الإيضاح : ١٢١ .

(٥) المثل السائر : ٢/١٣٠ – ١٣١ .

الأصلية إلى صورته - كساها أُبَّهةً ، وكَسَبَها مَنْقَبةً ، ورفع من أقدارها ، وشبَّ من نارها ، وضاعف قُواها في تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها ، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكَلَفاً ، وقَسَر الطّباع على أن تعطيها محبّةً وشغفا ؛ فإن كان مدحاً كان أبهى وأفخم ، وأنبل في النفوس وأعظم ، وأهَزَّ للعِطْف ، وأسرع للإلف ، وأجلب للفرح ، وأغلب على المُمْتَدَح ، وأوجب شفاعة للمادح ، وأقضى له بغُرّ المواهب والمنائح ، وأسير على الألسن وأذكر ، وأولى بأن تَعْلَقه القلوب وأجدر .

وإن كان ذماً كان مَسُّه أوجع ، ومِيسَمه ألذع ، ووقعه أشدّ ، وحدّه أحدّ .

وإن كان حِجَاجاً كان برهانه أنور ، وسلطانه أقهر ، وبيانه أبْهر .

وإن كان افتخاراً كان شَأْوه أمدّ ، وشرفه أجَدّ ، ولسانه ألَدّ .

وإن كان اعتذاراً كان إلى القبول أقرب ، وللقلوب أخلب ، وللسَّخائم أسَلّ ، ولغَرْب الغضب أفَلّ ، وفي عُقَد العقود أنْفَث ، وعلى حسن الرجوع أبْعث .

وإن كان وعظاً كان أشفى للصدر ، وأدعى إلى الفكر ، وأبلغ في التنبيه والزَّجر ، وأجدر بأن يُجلّي الغَيَاية ، ويبصّر الغاية ، ويبريء العليل ، ويَشْفي الغليل .

وهذا الحكم إذا استقريت فنون القول وضروبه ، وتتبعت أبوابه وشُعوبه "[١]. تلك من الوظائف التي تؤديها أساليب التشبيه في نثر البلغاء ونظم الشعراء ؛ وأما تشبيهات القرآن الكريم فيقول عنها العلوي : " إنّ لها مقاصد عظيمة ، ومضمّنة لأغراض دقيقة ، يَعْقلها من ظفر في هذه الصناعة بأوفر حظّ ، وكان لـه فيها أدنى ذوق ، وحام حول تلك الدّقائق بذهن صاف عن كدور البلادة ؛ فعن قريب يحصل على البُغْية بلطف الله تعالى وحسن توفيقه "[٢]. على أنه " لم يكن التشبيه في القرآن هدفاً يقصد إليه دون أن يستتبع المعنى ويكون جزءاً أساسياً تتوقف عليه دلالة الآية ؛ فهو نمط من أنماط التصوير القرآني الذي أعجز بلغاء العرب ، وظل شامخاً في مجال القول ، ومعجزة باهرة تتردّد عبر العصور ؛ فلم يتناولها البِلى أو التفكّك ؛ فالتشبيه إذن ليس محسّناً خارجاً عن إطار المضمون ، يتجمّل به النظم وترشق به العبارة ؛ وإنّما هو جوهر داخل المضمون ليتّضح أثره النفسي "[٣].

(١) أسرار البلاغة : ١١٥-١١٦ .
(٢) الطراز : ٣/٣٣٠ .
(٣) فكرة النظم بين وجوه الإعجاز : ٢٣٤ - ٢٣٥ .

وسأدع القول في تشبيهات القرآن إلى التطبيق على بعض آيه التي تصوّر المعاني الواردة في شأن الجهاد .

من ذلك قوله تعالى :﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾(١).

يقول القرطبي عن موضوع هذه الآية : " وهذه الآية لفظها بيان مثال لشرف النفقة في سبيل الله ولحسنها ، وضمنها التحريض على ذلك "(٢).

وهذه الآية واردة في شأن الإنفاق في سبيل الله ، وأعظمه مايقوم عليه الدين ويعزّ به جانب المؤمنين ، ويكثر بسببه سواد المسلمين ، وهو الجهاد في سبيل الله إلى يوم الدين . يؤيد ذلك ماذكره " القرطبي " في سبب نزولها ؛ حيث قال : " روي أن هذه الآية نزلت في شأن عثمان بن عفان وعبدالرحمن بن عوف رضي الله عنهما ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا حثّ الناس على الصّدقة حين أراد الخروج إلى غزوة تبوك جاءه عبدالرحمن بأربعة آلاف فقال : يارسول الله كانت لي ثمانية آلاف فأمسكت لنفسي ولعيالي أربعة آلاف ، وأربعة آلاف أقرضتها لربي ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت " . وقال عثمان : يارسول الله عليّ جِهاز من لاجهاز له ؛ فنزلت الآية فيهما . وقيل : نزلت في نفقة التطوّع . وقيل : نزلت قبل آية الزكاة ، ثم نسخت بآية الزكاة ، ولاحاجة إلى دعوى النسخ ؛ لأن الإنفاق في سبيل الله مندوب إليه في كل وقت ، وسبل الله كثيرة ، وأعظمها الجهاد ؛ لتكون كلمة الله هي العيا "(٣).

وفي الآية من بدائع النظم وروائع التشبيه مايمكن إجمال ماتيسّر منه في الآتي : -

١ - الذي يظهر في معنى المثل في الآية أنه بمعنى : الصفة(٤) ؛ فهي كقوله تعالى :- ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ .. ﴾ أي

(١) البقرة : ٢٦١ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن : ٣٠٣/٣ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن : ٣٠٣/٣ .
(٤) انظر : البحر : ٣٠٢/٢ .

صفتها [١]، وعلى هذا فالآية إخبار عن الوصف الذي ستشبّه به حال نفقة المنفقين أموالهم في سبيل الله، ومقدار ثوابها . يقول ابن القيم : " وهذه الآية كأنّها كالتفسير والبيان لمقدار الأضعاف التي يضاعفها للمقرض " [٢]، فالغرض من التشبيه في الآية بيان مقدار الثواب في حق المشبّه .

٢ - في الآية محذوف مقدّر ؛ واختلف في تقديره : " فقيل : مثل نفقة الذين ينفقون في سبيل الله كمثل حبة ، وقيل : مثل الذين ينفقون في سبيل الله كمثل باذر حبّة ؛ ليطابق الممثَّل للممثَّل به ؛ فههنا أربعة أمور : منفق ، ونفقة ، وباذر ، وبذر ؛ فذكر سبحانه من كل شقّ قسميه ؛ فذكر من شقّ المُمَثَّل المنفق ؛ إذ المقصود ذكر حاله وشأنه ، وسكت عن ذكر النفقة لدلالة اللفظ عليها ، وذكر من شقّ الممثَّل به البذر ؛ إذ هو المحلّ الذي حصلت فيه المضاعفة ، وترك ذكر الباذر ؛ لأنّ القرض لايتعلّق بذكره ؛ فتأمّل هذه البلاغة والفصاحة والإيجاز لغاية البيان " [٣]. ففي الآية احتباك ؛ فقد حذف من الأوّل مادل عليه الثاني ؛ بحذف نفقة ، أو حُذف من الثاني مادل عليه الأوّل ؛ إذا قدّر أن المحذوف : باذر .

٣ - الغرض من إيراد اسم الموصول هو بناء المثل على صلته ، والصلة هي المادة التي دار عليها نظم الآية ، وهي النفقة ، وفي مجيء مادة الإنفاق بصيغة المضارع إيماء إلى أنّه كلّما تجدّد فعل الإنفاق من المنفقين وحدث فإنّ ثوابه بمثل ذلك يتجدّد ويحدث تبعاً له فيتضاعف من جهات كثيرة ، وفي ذلك حفز لهِمَم المنفقين مابعده حفز .

٤ - في إضافة الأموال إلى المنفقين تخصيص لها بهم ، وتمليك لهم عليها ؛ فما فائدته ؛ مع أنّ الذي خلقهم - سبحانه - هو الذي وهبها لهم ؟ فلم لم يُضفها إليه باعتبار الأصل ثم يحثهم على بذلها في سبيله ؟ .

لعل الغرض من إضافة الأموال إلى منفقيها هو إشعارهم بأنّها هي ملكهم شرعاً وعرفاً ، وبناء عليه فإنّه لامُكْره لهم على هذه النفقة ، فالمال مالهم ، والحقّ

---

(١) انظر : المفردات : ٤٦٢ . والآية في سورة : محمد : ١٥ .
(٢) التفسير القيم : ١٥٤ .
(٣) التفسير القيّم : ١٥٥ . وانظر : البحر : ٢/٣٠٣ .

حقهم ؛ وهم أحرار في هذا المضمار ، فمن أنفق وجادت يده بالنفقة ، وطابت بها نفسه فقد وقع أجره على الله بهذا الخبر الصادق المذكور في الآية مثاله ، ومن بخل واستغنى ؛ فإنّ الله غنيٌّ عنه ، وهو في الآخرة من الخاسرين .

٥ – أن تقييد النفقة بكونها [في سبيل الله] يفيد أمرين : –

أولهما : – أن بذل النفقة ينبغي أن يكون عن نيّة خالصة ونفس طيبة ، فلا ينبغي أن يخالطها رياء أو سمعة أو حبّ ثناء أو نحوها مما ينقص أجرها أو يزيله بالكليّة ، فقبول الأعمال موقوف على سلامة النيات ، وخلوصها من المكدّرات .

وثانيهما : – أن موضع النفقة هو طريق الله الموصل إليه وأخصه وأعظمه ماكان في سبيل إعلاء كلمته ونشر دينه وإقامة شريعته ومدّ بساط الدعوة إليه وهذا في الجهاد خاصة (١)، وذلك بتجهيز المجاهدين ، والإنفاق على عوائلهم ، وتجهيزهم بالأسلحة اللائقة بعصرهم ، وتلبية دعوة ولي الأمر إذا دعا إلى مامن شأنه تقوية جيش المسلمين وتنظيمه ، وشراء مايحتاجه أفراده من معدات وآليات ، وسائر ماتقوم عليه شوكة الجهاد . على أن عموم وجوه البرّ داخلة في النفقة المذكورة فيندرج في هذا السبيل نشر العلوم الشرعية وسائر العلوم النافعة بطباعة كتبها وتوزيعها ، وإنشاء المدارس والمعاهد التي تدرّسها ، والنفقة على القائمين عليها من مدرسين وطلاب ، ومن ذلك جميع المشاريع الخيريّة النافعة للمسلمين وأبنائهم ، وكذا النفقة على المحتاجين من الفقراء والأيتام والمساكين ، وسدّ الحاجات ، ودفع الكربات ، والإعانة على دروب الطاعة والخيرات مما لاسبيل إلى حصره (٢).

٦ – في جعل المشبّه به [حبّة] لطيفة ، كشف عنها ابن القيم حيث قال : " ومثّله – سبحانه – بهذا المثل إحضاراً لصورة التضعيف في الأذهان بهذه الحبة التي

---

(١) انظر : التفسير الكبير : ٤٤/٧ ، والجامع لأحكام القرآن : ٣٠٣/٣ .

(٢) أشار إلى ذلك الشيخ عبدالرحمن السعودي في : تفسير كلام المنان : ٣٢٥/١ .

غُيِّبت في الأرض فأنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة حتى كأنّ القلب ينظر إلى هذا التضعيف ببصيرته كما تنظر العين إلى هذه السنابل التي من الحبّة الواحدة فينضاف الشاهد العياني إلى الشاهد الإيماني القرآني ؛ فيقوى إيمان المنفق وتسخو نفسه بالإنفاق "(١). وماذكره ابن القيم في نهاية كلامه هو الغرض من التشبيه وثمرته . وقد عبر عن ذلك أحد المعاصرين بقوله : " فالغرض من التمثيل في هذا النّص مع بيان حقيقة مضاعفة ثواب المنفقين في سبيل الله إلى أضعاف كثيرة جداً - إثارة محور الطمع بفضل الله في نفس المخاطبين ؛ ليكون هذا الطمع محرّضاً ذاتياً في الأنفس على بذل الأموال في سبيل الله "(٢).

٧ - لسائل أن يقول : لم اختيرت " الحبّة " لتكون هي دون سواها مشبَّهاً به ؟ .

ممن أجاب عن ذلك أبو حيّان فقال موجزا : " وشبّه الإنفاق بالزَّرع ؛ لأنّ الزرع لاينقطع "(٣). وقال ابن عاشور : " وجعل أصل التمثيل في التضعيف حبة لأنّ تضعيفها من ذاتها لابشيء يزاد عليها "(٤).

ويضاف إلى ماذكر من هذه الأجوبة أن الحبّ ومشتقاته هو من أهم مايقتات عليه بنو آدم من الأطعمة فهو أكثر زادهم ، كما يسهل غرسه وحصده وذروه ، ثم إن زرعه يسرّ الناظرين ؛ فإذا نضج استفيد من قصبه وورقه في إطعام البهائم التي تدر اللّبن ، ومنها اللحم والكساء والغطاء ، والتنقّل والترحّل . وأمّا حَبُّه فهو إذا طحن عمل منه الخبز وسائر الأطعمة الطيبة ؛ فلمّا تعلّق الناس به على اختلاف أجناسهم في حياتهم الدنيوية ناسب أن يُضْرب به المثل لما يحفزهم إلى الآخرة ؛ بعد أن تصوّروا عدم غناهم عنه في قوتهم الدنيوي ، وهذا يقودهم إلى المسابقة في بذل النفقات في سبيل الله لتحصيل تلك الخيرات المضاعفة ، بعد أن عاينوا هذا المثل ورأوا ثماره وعجائب ثمره ؛ فما في الآخرة أعجب حالاً وأحسن مآلا .

---

(١) التفسير القيّم : ١٥٤ .
(٢) الأمثال القرآنية : ٦٣ ، لعبدالرحمن حسين الميداني .
(٣) البحر : ٣٠٤/٢ .
(٤) التحرير : ٤١/٣ .

٨ – هذا التشبيه من باب تشبيه المعقول بالمحسوس[(١)] ؛ لإيضاح أمر المعقول ، وبيان مقدار أضعافه ؛ حيث شبه بأمر محسوس وهو هيأة معلومة مدركة بالنظر والمشاهدة ، وهو أدعى إلى تصوّر مقدار المشبّه وتمكّن قيمته في نفس المنفق .

٩ – كون المشبه به الزرع دلّ على تميُّزه ، وعلوّ كعبه في الحرف ، يقول القرطبي : " في هذه الآية دليل على أن اتخاذ الزرع من أعلى الحرف التي يتخذها الناس، والمكاسب التي يشتغل بها العمال ، ولذلك ضرب الله به المثل فقال : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ .. ﴾ الآية ، وفي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه قال : " مامن مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلاّ كان له صدقة " ... والزراعة من فروض الكفاية ؛ فيجب على الإمام أن يجبر الناس عليها وماكان في معناها من غرس الأشجار .. "[(٢)].

١٠– في تنكير [حبّة] غرض بلاغي ؛ وهو إفادة التعظيم ، أي كحبة عظيمة النفع موصوفة بما ذكر ؛ إذ ليس كلّ الحبّ كذلك .

١١– من المعلوم أن منبت النبات هو الله وحده القادر على الإحياء والإماتة ، فكيف وقع إسناد الإنبات إلى الحبة في قوله ﴿ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ ﴾ ؟ .

يقول الزمخشري : " والمنبت هو الله ، ولكن الحبة لمّا كانت سبباً أسند إليها الإنبات كما يسند إلى الأرض وإلى الماء "[(٣)]. فالنسبة توسّع في الإسناد .

١٢– لماذا خُصّ عدد السنابل بـ [سبع] دون سائر الأعداد ؟ .

ممن أجاب عن ذلك بشيء من التفصيل أبو حيّان ؛ حيث قال : " واختصّ هذا العدد لأن السبع أكثر أعداد العشرة ، والسبعين أكثر أعداد المائة ، وسبع المائة أكثر أعداد الألف ، والعرب كثيراً ماتراعي هذه الأعداد ؛ قال تعالى : [سبع سنابل] و [سبع ليال] و [سبع سنبلات] و [سبع بقرات] و [سبع سموات] و [سبع سنين] و [إن تستغفر لهم سبعين مرة] و [ذرعها سبعون ذراعا] وفي الحديث : " .. إلى سبعمائة ضعف إلى سبعة آلاف إلى مالا يحصى عدده إلا الله "[(١)].

---

(١) انظر : روح المعاني : ٣٢/٣ ، والتحرير : ٤١/٣ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن : ٣٠٥/٣ – ٣٠٦ .
(٣) الكشاف : ١٤٩/١ . وانظر : البحر : ٣٠٤/٢ .
(٤) البحر : ٣٠٤/٢ .

١٣- ثم لماذا وقع تمييز العدد سبعة جمع كثرة مع أن العدد نفسه عدد قلّة ؛ فلَمْ يطابقه كما وقعت المطابقة في قوله تعالى :﴿ **وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات..** ﴾ ؟.

ممن سدّد في الجواب عن هذا ابن القيم ؛ فقد قال : " وتأمّل كيف جمع السنبلة في هذه الآية على سنابل وهي من جموع الكثرة ؛ إذ المقام مقام تكثير وتضعيف ، وجمعها على سنبلات في قوله تعالى :﴿ **وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات..** ﴾ ؛ فجاء بها على جمع القلة ؛ لأن السبعة قليلة ولامقتضى للتكثير " [1]؛ فسياق النظم ومقتضى حال المعنى وغرض المقام هو الذي اقتضى التكثير والتقليل في الآيتين .

١٤- قد يقال : كيف تنبت الحبة سبع سنابل ؟ فيجاب عن ذلك : بأن المعنى هو أن تخرج ساقاً يتشعّب منه سبع شعب ، في كل شعبة منها سنبلة ، وهذا التمثيل صورة مرئية للأضعاف كأنها ماثلة بين عيني الناظر [2].

١٥- هل يوجد في السنبلة مائة حبّة ؟

يقول ابن عطية في ذلك : " قد يوجد في سنبل القمح مافيه مائة حبّة ، وأما في سائر الحبوب فأكثر ، ولكن المثال وقع بمائة " [3]. والأمر في ذلك راجع إلى خصوبة الأرض وجودة الحبّ وحسن الري .

١٦- لقد ورد في الذكر الحكيم أن الحسنة بعشر أمثالها ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ **مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** ﴾[4]. وفي الآية التي نحن بصددها إخبار منه – عز وجل – بالزيادة عن ذلك بل بمضاعفة الحسنات ؛ فكيف يمكن التوفيق بينهما ؟ .

لقد ورد في تفسير ابن عطيّة مايتضمّن الجواب عن ذلك ؛ حيث قال : " وقد ورد القرآن بأن الحسنة في جميع أعمال البرّ بعشر أمثالها ، واقتضت

---

(١) التفسير القيم : ١٥٤ – ١٥٥ .
(٢) انظر : الكشاف : ١/١٤٩ .
(٣) المحرر الوجيز :٢/٣١٠ . وانظر : روح المعاني : ٣/٣٢ .
(٤) الأنعام : ١٦٠ .

هذه الآية أن نفقة الجهاد حسنتها بسبعمائة ضعف ، وبيّن ذلك الحديث الصحيح[1]. واختلف العلماء في معنى قوله [والله يضاعف لمن يشاء] فقالت طائفة : هي مبيِّنة ومؤكِّدة لما تقدم من ذكر السَّبع المائة ، وليس ثَمَّ تضعيف فوق سبعمائة ، وقالت طائفة من العلماء : بل هو إعلام بأن الله تعالى يضاعف لمن يشاء أكثر من سبعمائة ضعف وروي عن ابن عباس أنّ التضعيف ينتهي لمن شاء الله إلى ألفي ألف ، وليس هذا بثابت الإسناد عنه "[2]. وقد رجّح القرطبي القول الثاني[3] .

١٧- في قوله [والله يضاعف لمن يشاء] حذف ، وقد اختلف فيه ؛ " فقيل المعنى : والله يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء لا لكل منفق ، بل يختصّ برحمته من يشاء ؛ وذلك لتفاوت أحوال الإنفاق في نفسه لصفات المنفق وأحواله ، وفي شدّة الحاجة وعظيم النفع وحسن الموقع ، وقيل : والله يضاعف لمن يشاء فوق ذلك فلا يقتصر به على السبعمائة ، بل يجاوز في المضاعفة هذا المقدار إلى أضعاف كثيرة "[4] .

وفي التعمية على المضاعَف لهم وعدم ذكر صفاتهم مزيد حفز للمنفقين للتعرّض لنفحات الرحمن ، وذلك بإسخاء النفقة ، وطيب النفس بها ، وتحقيق الإخلاص في بذلها فإن ذلك كلّه من مظانّ نيل تلك المضاعفة .

١٨- مامناسبة ختم هذه الآية الكريمة بقوله [والله واسع عليم] ؛ ؟

لقد أحسن ابن القيم في الوصول إلى مناسبة الفاصلة للآية ، حيث قال : " ثم ختم الآية باسمين من أسمائه الحسنى مطابقين لسياقها، وهما الواسع العليم ؛

---

(١) الحديث الذي أشار إليه ابن عطية أورده القرطبي بنصّه قائلاً : " روى البستيّ في صحيح مسنده عن ابن عمر قال : لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ربِّ زد أمتي " فنزلت ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾ البقرة : ٢٤٥ ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ربِّ زد أمتي " فنزلت ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ الزمر : ١٠ ". الجامع لأحكام القرآن : ٣٠٣/٣ .

(٢) المحرّر الوجيز : ٣١٠/٢ .

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن : ٣٠٥/٣ .

(٤) التفسير القيم : ١٥٥ .

فلا يستبعد العبد هذه المضاعفة ، ولايضيق عنها عطنه ؛ فإنّ المضاعِف واسع العطاء واسع الغنى واسع الفضل ، ومع ذلك فلا يظن أن سعة عطائه تقتضي حصولها لكل منفق ؛ فإنّه عليم بمن تصلح له هذه المضاعفة وهو أهل لها ، ومن لايستحقها ولاهو أهل لها ؛ فإن كرمه وفضله تعالى لايناقض حكمته ؛ بل يضع فضله مواضعه لسعته ورحمته ، ويمنعه من ليس من أهله بحكمته وعلمه "(١).

وقد يكون من أغراض التشبيه في القرآن التوصل به إلى نهي المؤمنين عن مشابهة الكافرين في قبيح طباعهم وانحراف منهجهم ؛ فيُبنى النهي على التشبيه ويجعل قائماً عليه ؛ فيتحقق الغرض وينال المقصود بهذا الأسلوب ، وذلك كقوله تعالى: ﴿ وَلَاتَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾(٢).

لقد صدِّرت الآية الكريمة بالنهي المنصبّ على فعل الكينونة ، والخطاب متوجّه إلى جملة المؤمنين في جملة أوامر ونواه سبقت هذه الآية (٣)، وكلها متعلّقة بأحوال المؤمنين في أوقات الجهاد ومقارعة الأعداء ، وإن كانت في جملتها ينبغي أن يتصف بها المسلمون في سائر الأوقات .

ومن أسرار اختيار فعل الكينونة ليسلّط النفي عليه دون غيره هو إشعار المخاطبين بأنّ الأصل في كيانهم أن يكون متميّزاً عن كيان الكفار ، مفارقاً لهم في الأصول والفروع والثوابت والمنطلقات ؛ فإن مورد المؤمنين واحد وهو وحي الله وهديه المتمثل في الكتاب والسنة ، ومشارب الكفار كدرة متعددة تفارق المورد الإسلامي وتباينه .

والمقصود بالموصول وهو المشبه به هم كفار قريش ، يقول أبو حيّان : " نزلت في أبي جهل وأصحابه خرجوا لنصرة العير بالقينات والمعازف ووردوا الحجفة ؛ فبعث

---

(١) التفسير القيم : ١٥٥ .
(٢) الأنفال : ٤٧ .
(٣) وهي قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ .

خفاف الكناني – وكان صديقاً له – بهدايا مع ابنه وقال : إن شئت أمددناك بالرجال، وإن شئت بنفسي مع من خف من قومي ؛ فقال أبو جهل : إن كنا نقاتل الله – كما يزعم محمد – فوالله مالنا بالله طاقة ، وإن كنا نقاتل الناس فوالله إنّ بنا على الناس لقوة ، والله لانرجع عن قتال محمد حتى نَرِد بدراً ؛ فنشرب فيها الخمور ، وتعزف علينا القينات ، فإن بدراً مركز من مراكز العرب ، وسوق من أسواقهم . حتى تسمع العرب مخرجنا ؛ فتهابنا آخر الأبد ؛ فوردوا بدراً فسقوا كؤوس المنايا مكان الخمر ، وناحت عليهم النوائح مكان القينات ؛ فنهى الله المؤمنين أن يكونوا مثل هؤلاء بطرين طربين مرائين بأعمالهم صادّين عن سبيل الله " (١) . فتأمل كيف أوجز ماتقدم من خلال التشبيه في بضع كلمات وردت في الآية الكريمة حكاية لحالهم البَطِرة الأشرة تنفيراً منها ، ولو أدير لسان العرب ثم نظمت تلك الأحوال التي صاحبت الكفار وقت خروجهم إلى بدر لما وجد أوجز ولا أبلغ ولا أدّل عليها مما تضمنته كلمات هذه الآية ، فأبرزت هيأة الكفار ، وكشفت عن غرورهم ، وحكت صدّهم عن دين الله في كل وقت في أوجز عبارة وأبلغ إشارة .

ولكن لماذا بني النهي عن تلك القبائح من الصفات على الكافرين وفي موقعة بدر خاصة ؟

لقد روعي في ذلك الحالة النفسية للمؤمنين من حيث كراهتهم للمشركين ولأفعالهم الشنيعة بالمؤمنين في مكة حيث أخرجوهم من ديارهم وأخذوا كثيراً من أموالهم وعذبوا من عذّبوا منهم ، ثم كان خروجهم إلى بدر على تلك الهيئة الشنيعة فضمّوا إلى شركهم قبح سيرتهم وسوء أفعالهم واغترارهم بأنفسهم وسمعتهم ؛ فكان ماكان فنصر الله عبده وأعزّ جنده وأنزل ملائكته وانكفؤوا منهزمين وتركوا قتلاهم ، وأسراهم وأموالهم ، فكانت هذه المظاهر ماثلة في نفوس المسلمين ؛ فالنهي عن البطر والمراءات والصد عن الحق عند قرنها بالكفار أبلغ تعبيراً ، وأسرع وصولاً إلى المعنى المراد ؛ وذلك من خلال أداة التشبيه التي ربطت بين المخاطبين وتلك الصور الحيّة في أذهانهم ، التي كان عليها المشركون ؛ فوقع النهي عنها في نفوسهم موقعاً بلغ غايته وحقّق بغيته .

---

(١) البحر : ٥٠٤/٤ .

والطرفان في هذا التشبيه أحدهما معقول وهو المشبه ، وهو النهي عمّا ذكر ، والآخر معقول له بعض مظاهر محسوسة مرئية ، وهي ماصدر عن أبي جهل من الكلمات المسموعة التي تدل على الكبر والبغي والغطرسة ، يؤيد ذلك قول أبي سفيان - بعدما سمع مقالة أبي جهل ، وكان يرى الرجوع وترك الحرب - : " واقوماه ! هذا عمل عمرو بن هشام - يعني أبا جهل - كره أن يرجع ؛ لأنه ترأس على الناس فبغى، والبغي منقصة وشؤم ، إن أصاب محمد النفير ذللنا · وصحّت فراسة أبي سفيان ، وأصاب محمد - صلى الله عليه وسلم - النفير ، وذل المشركون بالبطر والبغي والرياء والصد عن سبيل الله ، وكانت بدر قاصمة الظهر لهم "(١).

ولما كان المشبه به معقولاً وصدقته بعض مظاهره المسموعة والمرئية كان أوقع على النفوس وأعمق أثراً عليها ، وبخاصّة بعد أن ظهرت - للقاصي والداني - عواقبه الوخيمة على من تلبّسوا به ، فهو درس عملي للمؤمنين من قوم خاضوا الحرب متلبسين بتلك الصفات الذميمة التي وقع النهي عنها ، وبذلك يكون أبلغ داع لهم للابتعاد عنها ، بلْهَ التلبّسَ بها ، وهذه غاية التشبيه وثمرته في الآية ·

ووجه الشبه في هذا التشبيه منتزع من عدّة أمور يُضم بعضها إلى بعض حتى تُعطي هيئة قوم خرجوا للقتال بطرين متكبرين مرائين الناس في قتالهم ، صادّين عن الحق ، وعلى هذا فالتشبيه في الآية تمثيلي ؛ فهو مركّب من تلك الصور المضموم بعضها إلى بعض ·

والملاحَظ في أوصاف أحوال الكافرين في الآية ورود مصدرين - وهما في موضع الحال (٢)- معطوفاً عليهما جملة فعلية ، فما سرّ الوصف بالاسمين الأولين ثم بالجملة الفعلية ؟!

وجواب ذلك أن يقال : لما كان البطر والرياء طبعاً لهم ، وسمتاً ثابتاً في أخلاقهم كأنما جبلوا عليه عبّر عنهما بالاسم المفيد الاستمرار والثبات على ذلك ·

---

(١) في ظلال القرآن : ٣/١٥٣٠ ·
(٢) انظر : إعراب القرآن وبيانه : ٤/١٦ ·

وأما صدّهم عن الحق وصرفهم الناس عن الدخول في الإسلام فإنّه أمر طارئ عليهم ، وقع فعلهم له بعد بعثة المصطفى - عليه الصلاة والسلام - ثم أخذ يتجدّد منهم ويحدث مرّة بعد مرّة [1] ؛ ولهذا عبّر عن ذلك بالجملة الفعلية التي مادّتها تفيد ذلك ، واصطفي الفعل المضارع دون سواه استحضاراً لتلك الصورة وحكاية لحالها ، وفي ذلك تشنيع لحالهم ، وتقبيح لأفعالهم ، وتنفير منها .

وسبيل الله هو دينه ، وقد عبّر عن الدين بالسبيل من باب الاستعارة التصريحية؛ فقد استعير السبيل للدين[2] ؛ بجامع الوصول إلى الغاية في أمان في كليهما ، وحذف المشبه وأقيم المشبه به مقامه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية .

وقوله [والله بما يعملون محيط] خبر مستأنف[2] مقرر لمضمون ماسبق ، حوى من التهديد والوعيد للمشركين ولمن هذه حاله مالا مزيد عليه . وفيه تعريض بمن تلبّس بما نهى الله عنه في الآية بأن الله محيط به عليم بعمله القلبي والفعلي ؛ فيجازي كلاً بما صدر منه ، ولذا وجب الحذر من ذلك والبعد عنه . وهذه مناسبة الفاصلة لمعنى الآية .

وقد تكون الجملة حالية من ضمير [الذين خرجوا][3] مفيدة أنّ الكافرين خرجوا بتلك الهيئات وفعلوا مافعلوا والحال أن الله محيط بأفعالهم لايخفى عليه شيء منها ؛ وبذلك يتبين جهلهم وقلّة مروءتهم ، ومقدار ضلالهم ؛ فحذار الاقتراب من هذه الطباع اللئيمة ؛ وبذلك تلتئم الفاصلة بمعنى الآية من هذه الحيثيّة .

ومن التشبيهات القرآنية في المعاني الجهادية مايتغلغل في أعماق القتال ؛ فيصوّر الهيئة التي ينبغي أن يكون عليها المجاهدون قبيل منازلة العدوّ ومطارحته أو

---

(١) ممن أشار إلى ذلك : الفخر في التفسير الكبير: ١٧٣/١٥، والألوسي في: روح المعاني : ١٤/١٠، وابن عاشور في : التحرير : ٣٣/١٠ ، وعبدالكريم الخطيب في : التفسير القرآني : المجلد الثالث : ٦٣٠ .

(٢) انظر : التحرير : ٣٣/١٠ .

(٣) انظر : إعراب القرآن وبيانه : ١٧/٤ .

في أثناء ذلك ؛ كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ (١).

لقد أورد الواحدي سبب نزول سورة " الصف " - ومنها هذه الآية من حديث عبدالله بن سلام أنه قال : " قعدنا نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكرنا وقلنا : لو نعلم أيُّ الأعمال أحبُّ إلى الله تبارك وتعالى عملناه ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ إلى قوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ إلى آخر السورة ؛ فقرأها علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم "(٢).

وتصدير الآية بحرف التوكيد والجملة الاسمية تقرير لما يحبه الله ويرضاه لعباده بعد بيان ماهو ممقوت لديه في قوله عز وجل ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٣).

وإسناد فعل المحبّة إلى الله تعالى فيه إثبات لصفة المحبّة له عز وجل على الوجه اللائق بجلاله وعظمته ، كما أن في عود الضمير في [يحب] على لفظ الجلالة توكيد لهذا الإسناد وإثبات له ؛ فمن طلب محبّة الله تعالى وطمع فيها فعليه التماس أسبابها، وماذكر في الآية واحد منها .

وفي مجيء اسم الموصول بصيغة الجمع إيماء إلى أن قتال العدو يفتقر إلى الاجتماع على إمام واحد وقائد واحد ، والسير خلفه على خطى ثابتة وكلمة واحدة ، فالفرقة والافتراق شرٌّ وخطر لايصح أن يكون شيء منها في صفوف المجاهدين .

ومجيء فعل المقاتلة بصيغة المضارع [يقاتلون] إشعار بأن من صفات هؤلاء أنهم يفعلون القتال كلما طلب منهم ، وفور قيام داعيه ، فهذا الفعل من شأنه أن

---

(١) الصف : ٤ .
(٢) أسباب النزول : ٤٩١ .
(٣) الصف : ٣ .

يتجدّد منهم ويحدث بحسب ظهور الأسباب ، وبمقتضى استنفار الإمام لهم ، فليس مرة ثم تنقضي ٠

وفعل [يقاتلون] يقتضي مفعولاً ، ولكنه حذف هنا لإرادة العموم والشمول ، فليس قتالهم مقصوراً على المشركين أو اليهود أو النصارى أو عباد الشجر والحجر أو سواهم ، بل يقاتلون كلّ مَن ظهرت المصلحة الشرعية في قتاله ؛ بدَفع فتنته ، أو كفّ ضرره ، أو القضاء على فساده ، ولو كان ذلك المقاتَل مسلماً ؛ كما لو كانوا بغاة أو خوارج ، أو قاطعي سبيل المسلمين ، أو غيرهم مما هو في حكمهم ٠ والذي يقدر المصلحة الشرعية ، ويقرّر أمر قتالهم هو ولي أمر المسلمين بناء على مشورة أهل الحل والعقد من العلماء المعتبرين ٠

ولكن لم عبر بـ [يقاتلون] دون [يجاهدون] في هذا الموضع ؟ ٠

لقد روعي في اصطفاء [يقاتلون] دون سواه من الكلمات الدالّة على معاني الجهاد – سياق الآية ومعناها ، وهي كون محبّة الله تعالى واقعة على قوم مؤمنين وهم على هيئة مخصوصة في أثناء قتالهم وهي كونهم صفاً كأنهم بنيان مرصوص ، وهذه الهيئة لاتكون منهم إلاّ في حال تضيُّفهم للقتال واستعدادهم له ، وأما وقت انخراطهم في سلك الجهاد وتوجّههم إليه فإن تلك الهيئة غير واردة ولامطلوبة ؛ إذ كلّ واحد منشغل بنفسه ، يودّع أهله ، ويرتّب حاله ، ويعدّ عدّته ، ثم يتوجّه إلى الجهة التي تتولّى أمر الجهاد والمجاهدين ٠ ولذلك كله ناسب الفعل [يقاتلون] لمعنى التشبيه الوارد في الآية دون الفعل [يجاهدون] حيث لايتفق مع سياق الآية وغرض التشبيه ؛ فتأمّل ٠

والجار والمجرور في قوله [في سبيله] متعلقان بالفعل [يقاتلون] ؛ فيكون فعل القتال مقيّداً بكونه في سبيل الله ؛ فالجار والمجرور حرّرا نية المقاتل وهي أن تكون لله وفي سبيله ؛ فإذا شابها شيء من حظوظ الدنيا أو أفسدها الرياء ، أو داخلتها مقاصد أخرى ؛ فحريّ بصاحبها ألاّ يكون ممن ينال محبّة الله ، بل أحرى به أن يحاسب على انحراف نيته ، وسوء مقصده ٠

وقوله [صفاً] حال من فاعل [يقاتلون][1] ؛ مفيدة أن محبة الله تعالى مترتبة على كونهم حال قتالهم صافّين متراصّين .

يقول ابن فارس في مادة الصّف : " الصاد والفاء يدلّ على أصل واحد ، وهو استواء في الشيء وتساوٍ بين شيئين في المقرّ . من ذلك الصّف ؛ يقال : وقفا صفاً ؛ إذا وقف كلّ واحد إلى جنب صاحبه . واصطف القوم وتصافّوا . والأصل في ذلك الصَّفْصَف ؛ وهو المستوي من الأرض ؛ فيقال للموقف في الحرب إذا اصطف القوم: مَصَفّ ، والجمع المصافّ .. "[2].

وإذا كانت حال المقاتلين بهذه الصورة رموا عدوّهم من قوس واحدة ؛ وذلك أحدّ للشوكة ، وأوقع للرمية ، وأنكى للعدوّ ، وأحفظ للبيضة . ومع حسن القتال على هذه الحال إلاّ أن الله عز وجل يريد للمجاهدين حالاً تنضمّ إلى حالهم الأولى تزيد من قوّتهم وتجعلهم لحمة واحدة في التماسك والتداخل كما هو شأن ما ارتصّ من محكم البنيان ؛ ولهذا لم يقف النظم القرآني عند [صفّاً] بل أتبعه بالتشبيه مباشرة بأن يكونوا في صفّهم [كالبنيان المرصوص] ، وحرف التشبيه ومادخل عليه في موضع نصب على الحال من الضمير المستتر في [صفاً] المؤول بصافّين ، فهي حال متداخلة[3]، والتقدير : يقاتلون صافّين مشبهين البنيان المرصوص .

ولكن ماسرّ اختيار [البنيان] دون غيره ليقع التشبيه به ؟

فدون [البنيان] الجبال الثابتة ؛ فلِمَ لم يقع التشبيه بها مثلا ؛ فهي أصلب صخرا ، وأرسخ جذرا ؟ ! .

الذي يظهر – والعلم عند الله – أنه قد لمح في التشبيه حال المشبَّه وحال المشبّه به ؛ بحيث يكون بينهما أكبر قدر ممكن من التناظر والتطابق ؛ وهذا متوافر في البنيان أكثر من توافره في الجبال ، ذلك أن الجبال وإن كانت تفوق البنيان في

---

(١) انظر : حاشية الصاوي : ١٩١/٤ .

(٢) معجم مقاييس اللّغة : مادة : صف .

(٣) انظر : الكشاف : ٥٢٣/٤ ، والفتوحات الإلهية : ٣٣٦/٤ .

صلابة الصخر ، وثبات الموقع إلاّ أنّ التفاوت بينهما شديد الظهور ؛ فصخور الجبال غير منتظمة ؛ فمنها مادقّ في صغره ، ومنها مايصل في حجمه حجم جبل صغير . وأما البنيان ؛ فلبناته منتظمة تكاد تتساوى في حجمها ، وتتقارب في شكلها ، مما يجعل الرجال في انتظامهم ، وتقارب أشكالهم أشبه مايكونون بها .

وأمر آخر وهو أن الجبال في طبيعتها ليست على نمط في صفّها ، ولاهي منتظمة في خطّها ، بل منها المتقدم والمتأخر ، الأمر الذي يجعل الفجوات تتخلّلها ؛ مما يقدح في جوهر التشبيه وينال من صورته ، فيجعل الجبال غير لائقة لتكون مشبّهاً به . بخلاف سطر البنيان الذي يمكن التصرف في استقامته وفي تداخل لبناته ، وتراصّ أجزائه حتى يستتم مرصوصاً ، بشكل يجعله أليق بأحوال صفوف الرجال ؛ ولهذا وقع تشبيههم به موقعاً حسناً ؛ فلو أدرت لسان العربية على أحسن منه لم تظفر به .

وينقدح سؤال آخر ؛ مضمونه : لم نعت [البنيان] بكونه مرصوصاً ؛ ولم يوصف بكونه مشيَّداً ؛ كما جاء ذلك في قوله تعالى : ﴿ .. **وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ** ﴾[1] ؟ .

والجواب عن ذلك أن يقال : إنّ مادّة الفعلين [رَصّ] و [شيّد] متباينتان في معناهما ، وفي التسمية بهما ؛ فإنّ " الراء والصاد أصل واحد يدلّ على انضمام الشيء إلى الشيء بقوّة وتداخل ؛ تقول : رصَصْت البنيان بعضه إلى بعض . قال تعالى :﴿ **كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾ . وهذا كأنّه مشتق من الرَّصاص ، والرّصاص أصل الباب "[2] .

وأمّا مادة : شيد ؛ فإن " الشين والياء والدال أصل واحد يدلّ على رَفْع الشيء ؛ يقال : شِدْت القصر أشيده شَيْداً . وهو قصر مَشِيد ، أي معمول الشّيد ، وسمّي شِيداً لأن به يُرْفع البناء ، يقال : قصر مَشِيد أي : مطوّل "[3] .

---

(١) الحج : ٤٥ .

(٢) معجم مقاييس اللغة : مادة : رصّ .

(٣) معجم مقاييس اللغة : مادة : شيد .

فتبيّن من مادة الكلمتين أنّ نعت البنيان بكونه مرصوصاً أليق بل هو أوجب من وصفه بكونه [مشيدا] ؛ لأن اللفظ الأخير إنما يطلق على البنيان بعد اكتماله وارتفاعه وأخذه طابعاً آخر هو : القصر ؛ فعندئذٍ يوصف بأنه : مشيد ؛ فهي لاتصلح لأن تكون وصفاً دقيقاً للبنيان . وإنّما الصّالح لهذا الوصف هو لفظة : مرصوص ؛ فإنّها يُنعت بها البنيان الذي بنيت لبناته ورصّ بعضها على بعض بقوّة وتداخل حتى أصبح كالرصاص أو في قوته . وبذلك تُدرك دقة اصطفاء هذا اللفظ ليكون وصفاً للمشبَّه به ، حتى أصبح جزءاً منه لاينفك عنه ، فكَسَا صورة التشبيه مزيداً من الجمال ، ووهبها جمال القوّة .

والتشبيه في الآية تمثيلي ؛ فهو تشبيه صورةٍ بصورة ، ووجه الشبه فيه منتزع من عدة أشياء متناسقة ، مضموم بعضها إلى بعض في تداخل وقوة تماسك مع انتظام وظهور إحكام .

وغني عن البيان أن تشبيه المقاتلين في انتظام صفّهم بالبنيان المرصوص - فيه لمح لمعنى الجهاد ومايقع فيه من شدّة وقسوة ، كما في البنيان من صلابة وقوّة ، وفي ذلك إيماء إلى أن المطلوب من المقاتلين وهم على تلك الأحوال أن يُظْهروا من قوّة بأسهم وشدّة رميهم وفتكهم بعدوّهم مايجعلهم في مستوى البنيان المرصوص صلابة وشموخاً وثباتاً ورسوخا .

وبذلك تعلم مدى تناسب التشبيه مع مضمون الآية ومقصودها ، المرتبط أصلاً بمعاني الجهاد ، وصفات المجاهدين ، فليس التشبيه عقداً بين أمرين في النظم فحسب ؛ وإنما هو أشبه بالطريق الذي يوصل الإنسان إلى غايته ، ويجعله ينتهي إلى نهايته [١] .

---

(١) لقد وردت مواضع كثيرة للتشبيه في آيات الجهاد في هذا البحث ؛ انظر : ١٥٥ ، ٢٤٨ ، ٣١٣ ، ٣٢٥ ، ٣٣١ ، ٥٢٤ .

الاستعارة

إن هناك وجه علاقة بين الاستعارة الحقيقية والاستعارة المجازية ، وممن كشف عنها ابن الأثير، حيث قال:" الأصل في الاستعارة المجازية مأخوذ من العاريّة الحقيقية التي هي ضرب من المعاملة ، وهي أن يستعير بعض الناس من بعض شيئاً من الأشياء ، ولايقع ذلك إلاّ من شخصين بينهما سبب معرفة ما ؛ يقتضي استعارة أحدهما من الآخر شيئاً ، وإذا لم يكن بينهما سبب معرفة بوجه من الوجوه فلا يستعير أحدهما من الآخر شيئاً ؛ إذ لايعرفه حتى يستعير منه ، وهذا الحكم جارٍ في استعارة الألفاظ بعضها من بعض ؛ فالمشاركة بين اللفظين في نقل المعنى من أحدهما إلى الآخر كالمعرفة بين الشخصين في نقل الشيء المستعار من أحدهما إلى الآخر[١]»٠

وكلام ابن الأثير المتقدم يقودنا إلى التعريف الاصطلاحي للاستعارة فهي : لفظ استعمل في غير ماوضع له في أصل اللغة لعلاقة المشابهة بين المعنى الأصلي والمعنى المتجوَّز له مع وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي[٢]٠

إنه من المعلوم في اللغة أن السين والتاء تفيد الطلب ؛ فكأنّ وجودها في كلمة "الاستعارة " إشعار بأن الذي يشبّه معنى بمعنى وينقل لفظه إليه يطلب جريان اسمه عليه ، وذلك مبالغة في دعوى الاتحاد بينهما[٣]٠

ومبنى الاستعارة قائم على التشبيه ، وذلك بحذف أحد طرفيه ؛ ولهذا فقد حازت على محاسن التشبيه وزادت عليه ، بجمال التصوير ، ودقة التعبير ، وحسن التأثير مع الإيجاز ٠

ولقد أبان عبدالقاهر الجرجاني عن جمال الاستعارة وأظهر بعضاً من أسرار جمالها في التعبير وأثرها في نظم الكلام ، حيث قال : " هي أمدّ ميداناً ، وأشدّ

---

(١) المثل السائر : ١/٨٢ – ٨٣ ٠ وانظر : الطراز : ١/١٩٨ ٠

(٢) انظر أقوال علماء البيان في تعريفها مجموعة في : الاستعارة نشأتها – تطورها – أثرها في الأساليب العربية ، د ٠ محمود شيخون : ٥ – ٩٠ ٠ وفنّ الاستعارة للدكتور أحمد الصاوي : ١٩ – ٢٨ ، والتصوير البياني لأبي موسى : ١٧٣ – ٣٣٩ وغيرها ٠

(٣) انظر : فنّ الاستعارة : ٢٠ ٠

افتتاناً وأكثر جرياناً ، وأعجب حسناً وإحساناً ، وأوسع سعة وأبعد غوراً ، وأذهب نَجْداً في الصناعة وغورا من أن تجمع شُعَبها وشُعوبها ، وتحصر فنونها وضروبها .. " (١).

ثم طفق يتحدث عن فضائلها بقوله : " ومن الفضيلة الجامعة فيها أنها تبرز هذا البيان أبداً في صورة مستجدَّة تزيد قدره نُبْلا ، وتوجب له بعد الفضل فضلا ، وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت بها فوائد ؛ حتى تراها مكررة في مواضع ، ولها في كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد ، وشرف منفرد ، وفضيلة مرموقة ، وخِلاَبة مومُوقة " (٢).

" ومن خصائصها التي تذكر بها وهي عنوان مناقبها أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ حتى تُخْرِج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر ، وتجني من الغصن الواحد أنواعاً من الثَّمر .. " (٢).

وعن أثرها على المعنى والأشياء المستعملة فيها يقول عبدالقاهر : " فإنك لترى بها الجماد حيّاً ناطقاً ، والأعجم فصيحاً ، والأجسام الخرس مبينة ، والمعاني الخفيَّة بادية جليَّة ، وإذا نظرت في أمر المقاييس وجدتها ولاناصر لها أعزّ منها ولارونق لها مالم تَزِنْها ، وتجد التشبيهات على الجملة غير مُعْجِبَة مالم تَكُنْها ، إن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها قد جُسِّمت حتى رأتها العيون ، وإن شئت لطَّفت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لاتنالها إلاّ الظنون " (٣).

ويقول أسامة بن منقذ : " والاستعارة أوكد في النفس من الحقيقة ، وتفعل في النفوس مالاتفعله الحقيقة " (٤).

والخلاصة أن الاستعارة من أبلغ الألوان البيانية وأروعها ، وبلاغتها ترجع إلى حسن تصويرها ، وانتقاء ألفاظها ، ووفاء إيجازها (٥).

---

(١) أسرار البلاغة : ٤٢ – ٤٣.
(٢) أسرار البلاغة : ٤٢ – ٤٣ .
(٣) أسرار البلاغة : ٤٢ .
(٤) البديع في البديع لأسامة بن منقذ : ٧١ .
(٥) انظر : الاستعارة : ١٠٩ .

وليس المقام هنا مقام بسط لأنواع الاستعارات وأقسامها وحدودها وتعريفاتها فإن لذلك موضعه في كتب البلاغة[(١)] ، وإنما سأشير إلى مايقع بين أعيننا من الاستعارات القرآنية الواردة في المعاني الجهادية ، مما كان لها الأثر العظيم في إبراز تلك المعاني ، وإخراجها في صور فذّة نادرة ، ذلك أن الاستعارة في كتاب الله تعالى تميّزت بصفاء لفظها ، وحسن تصويرها ، ودقة موضعها ، وتمكين المعنى من خلالها ، مع وضوحها ، وتألّق المعنى في لفظها ، مما جعل الأذهان - على اختلاف مداركها - تتعلق بها .

ومن الآيات التي ورد فيها غير استعارة واحدة قوله تعالى : ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ** ﴾[(٢)].

جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما في نزول هذه الآية قوله : " لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة اشتد الضرر عليهم لأنهم خرجوا بلا مال وتركوا ديارهم وأموالهم في أيدي المشركين وأظهرت اليهود العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأنزل الله تعالى تطيباً لقلوبهم [أم حسبتم] .. "[(٣)]. وهذا السبب المذكور أعم ممن قال إنها نزلت في غزوة الخندق[(٤)] ، فمعناها شامل لما وقع في الخندق ولما تقدمه وماجاء بعده ، ولو ثبت نزولها في الخندق بسند صحيح لوجب الصيرورة إليه .

يقول الزمخشري معلّلاً موقع [أم] ورابطاً معنى الآية بما قبلها : " [أم] منقطعة ، ومعنى الهمزة فيها للتقرير ، وإنكار الحسبان واستبعاده ، ولما ذكر ماكانت

---

(١) انظر على سبيل المثال : أسرار البلاغة : ٤٢ ومابعدها ، والمثل السائر : ٧٥/٢ - ١٢١ ، والطراز : ١٩٧/١ - ٢٦٠ ، وبغية الإيضاح : ١٠٤/٣ - ١٦٨ . وغيرها .

(٢) البقرة : ٢١٤ .

(٣) التفسير الكبير : ١٩/٦ .

(٤) انظر : التفسير الكبير : ١٩/٦ ، والجامع لأحكام القرآن : ٣٣/٣ .

عليه الأمم من الاختلاف على النبيين بعد مجيء البينات[١] تشجيعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على الثبات والصبر مع الذين اختلفوا عليه من المشركين وأهل الكتاب وإنكارهم لآياته وعداوتهم له - قال لهم على طريقة الالتفات التي هي أبلغ [أم حسبتم] "[٢].

والحِسْبان في الأصل من الحساب وهو العدّ [٣]، ولكنّه في الآية استعمل بمعنى الظّن ، تشبيهاً لجولان النفس في استخراج علم مايقع بجولان اليد في الأشياء لتعيين عددها [٤]، والجامع بينهما محاولة الوصول إلى العلم في النهاية ، والعلم في الحساب أدق وأتمّ ، وهو في الظن أنقص وأبعد عن الجزم ، ولذلك وقع تشبيه الناقص بالتام ، والعقلي بالحسّي ، تقريباً لمعناه في الذهن ، حتى يقع تصوّره في النفس موقعاً معلوما .

ولما كانت هذه الاستعارة جارية في الفعل : حَسِب الذي هو بمعنى عدّ أصلاً ؛ فهي استعارة تبعية تصريحية .

وقد أريد من وراء استعمال الحِسْبان بمعنى الظن تقريب المظنون به في صورة المجزوم بعلمه ؛ ولذلك وقع الإنكار والتقرير على من ذهب هذا المذهب ؛ بدخول [أم] الاضرابية التي هي بمعنى : بل وهمزة الإنكار[٥] أي : بل أحسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يقع لكم ماوقع لغيركم ؟ ، فالمعنى على إنكار هذا الحِسْبان ونفيه [٦]. وهذا هو الغرض البلاغي التصويري الذي جلبته هذه الاستعارة في نظم الآية .

والألف واللام في [الجنة] للعهد الذهني ، أي : الجنة التي بشرتم بها ، والمعهود في أذهانكم دخولها إذا آمنتم .

---

(١) في الآية المتقدمة على هذه الآية وهي قوله تعالى : ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ .

(٢) الكشاف : ١/١٢٤ .

(٣) انظر : المفردات : ١١٦ .

(٤) انظر : التحرير : ٢/٣١٤ .

(٥) انظر البحر : ٢/١٣٩ .

(٦) أي دعوا ذلك الحِسْبان وانزعوا عنه ؛ انظر : روح المعاني : ٢/١٠٣ .

وقوله [ولمّا يأتكم ..] جملة حالية ، والتقدير : أحسبتم أن تدخلوا الجنة غيرَ آتيكم مثل الذين خلوا من قبلكم ؛ أي : إن دخول الجنة لابد أن يكون على ابتلاء شديد وصبر ، وليس ذلك لمجرد الإيمان فقط [(١)] .

والنفي بـ [لمّا] مفيد توقّع حدوث فعل الإتيان ، ذلك أن [لما] في النفي نظيرة [قد] في الإثبات ، فالمعنى أن إتيان ذلك متوقع منتظر [(٢)] .

والمثل : هو الشّبه ، وقد استعير هنا للحال الغريبة ، أو للقضية العجيبة التي لها شأن[(٣)] ؛ بجامع الاشتهار والتميّز في كل منهما . وهي على هذا استعارة تصريحية أصلية ؛ لكونها قد جرت في المصدر نفسه . وفي ذلك إيماء للمؤمنين بضرورة تميّز حالهم وتفرّد أحوالهم عن غيرهم من الكفار ؛ بأن يقع لهم مايمحّص إيمانهم ، ويظهر مقدار صبرهم ، وعلى قدر الأذى والصبر عليه يكون الجزاء والثواب ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [(٤)] .

وإسناد [مثل] إلى فعل الإتيان مجاز في الحصول والوقوع ؛ لأن المثل لايأتي بنفسه ، وإنما يقع من الوقائع والملمّات مايجعلها مثلاً في اشتهارها وظهور أمرها . ولكن لمّا كان الشيء يحصل بعد عدمٍ جعل بمثابة الآتي من مكان بعيد[(٥)] ، وعلى هذا يمكن إجراء استعارة مكنية في [مثل] ؛ فقد شُبّه مثل ماوقع للمؤمنين الأولين وماسيقع لأسلافهم بقادم من مكان ؛ بجامع الحضور والمثول ، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه ، وهو الفعل [يأتكم] ؛ لأن الإتيان من لوازم الإنسان ، وذلك على سبيل الاستعارة المكنية ، وفائدة هذه الاستعارة في نظم الآية ومعناها إشعار المخاطبين بأن شَبَهَهُم بغيرهم واقع فيهم وقوعَ الحضور من إنسان شرع في الإتيان إلى مكان معيّن ، فهو قادم وإن تلبّث قليلا ، غاية ذلك أن يهيئوا أنفسهم لتحمّل المصائب والرّزايا ، فسلعة الله غالية وهي الجنة ، وقد حفّت بالمكاره ، وأما النار فقد حفّت بالشّهوات ، ومن يخطب الحسناء لم يغله مهرها . ونهاية الحُسْن والحِسَان في جنان الرحمن ، ولايُنَال ذلك إلاّ بالاحتساب المُؤَسَّس على الإيمان .

---

(١) انظر : البحر : ١٤٠/٢ .
(٢) انظر : الكشاف : ١٢٤/١ .
(٣) انظر : البحر : ١٤٠/٢ .
(٤) الزمر : ١٠ .
(٥) انظر : التحرير : ٣١٥/٢ .

والموصول في موضع صفة لموصوف محذوف دلّ عليه سياق الآية فهي في خطاب المؤمنين ، كما دلّ عليه قرينة [حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه ٠٠] ، والتقدير : ولما يأتكم مثل المؤمنين الذين خلوا ٠٠ وقد حذف إيجازاً ، واعتماداً على السياق ؛ إذ لايمكن أن ينصرف الذهن إلى غير المؤمنين .

والمراد بالخلوّ : المضي والانقراض ، والأصل في هذا الفعل أن يُسند إلى المكان ، فيقال : خلا المكان من أهله ؛ ولكن بولغ في إسناد الفعل حتى أسند إليهم ماهو من صفات مكانهم لملابستهم له وإقامتهم فيه (١) .

وقوله [من قبلكم] متعلق بـ [خلو] وهو في معنى الخلوّ ؛ لأن معنى كون أولئك قد مضوا وخلا منهم مكانهم أنَّهم قبل المخاطبين بأزمان ، فوقوع الخلوّ بعد ظرف القبلية بمثابة التأكيد لمعناه(٢) والبيان له وفي ذلك إظهار للملابسة بين الفريقين (٣)؛ الأوّلين الماضين ، والمتأخرين الذين في شأنهم - وفي شأن من بعدهم - الخطاب .

وقوله [مسّتهم البأساء ٠٠] ، أصل المسّ : يطلق على جسّ الشيء باليد (٤)، وإدراكه بحاسّة اللمس(٥) ، ومنه مسيس النار ، وهو أثرها الظاهر على الجسم ، قال تعالى : ﴿ **ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ** ﴾ (٦).

والبأساء : اسم جامع للشدّة من الفقر والمسكنة والخوف ٠ وأما الضراء فهي في الآفات والشرور والآلام (٧)٠ وقد جعل ابن عطية البأساء في المال ، والضراء في البدن (٨)، وهو محمل حسن (٩).

وقد استعير المسّ لوَقْعِ البأساء والضراء على المؤمنين بجامع حدوث الأثر في كلّ منهما ، ثم اشتق من المسّ الفعل : مسّ ؛ وذلك على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ٠ والفائدة من استعارة المسّ في هذا المعنى تصوير مدى مالحق بالمؤمنين

---

(١) انظر : التحرير : ٣١٥/٢ ٠
(٢) انظر : البحر : ١٤٠/٢ ٠
(٣) انظر : التحرير : ٣١٦/٢ ٠
(٤) انظر : معجم مقاييس اللغة : مادة : مسّ ٠
(٥) انظر : المفردات : ٤٦٧ ٠
(٦) القمر : ٤٨ ٠
(٧) انظر : التفسير الكبير : ١٩/٦ ، وغرائب القرآن : ٢١٦/٢ ٠ وانظر : من أسرار التعبير القرآني لأبي موسى : ٧٢ ٠
(٨) انظر : المحرر الوجيز : ١٥٥/٢ ٠
(٩) انظر : الفروق في اللغة : ١٩٢ ، لأبي هلال العسكري ٠

وأثَّر في حالهم حتى كأنّ تلك البأساء والضراء التصقت بأجسامهم ؛ وزاد من هذا التصوير إسناد فعل المسّ إليهما حتى أصبح المسّ أمراً واقعاً فيهم على الحقيقة من قوّة التشبيه .

ولك أن تجري الاستعارة في [البأساء والضراء] فتشبههّما بأمر يحسّ الجسد ويؤلمه ، بجامع إحداث الأثر من كليهما ، وقد حذف المشبه به ، ودلّ عليه بلازم من لوازمه وهو فعل المسّ ، وعلى ذلك تكون الاستعارة مكنية ، وإجراؤها فيها يمنع من إجرائها في لازمها [مسّتهم] في وقت واحد .

وعطف الضراء على البأساء تشريك لهما في الوقوع والحصول ، وهو إشارة إلى اقترانهما في الغالب ؛ فإن من لازم الفقر وانعدام المال وقوع الآفات والأمراض والشرور والآلام ، ولذلك قرن بينهما هنا كما قرن بينهما في قوله تعالى : ﴿ .. وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (١).

وفصل [مستهم البأساء والضراء] عما قبله لكونه بياناً للمثل المذكور في الآية ؛ فهو استئناف ؛ كأن قائلاً قال : كيف كان ذلك المثل ؟ فقيل : مستهم البأساء ، والضراء .. (٢).

وقوله [وزلزلوا] جملة معطوفة على [مستهم] مفيدة أن فعل الزلزلة وقعت بهم مضمومة إلى فعل المسّ المذكور ، وقد تكون هذه الزلزلة نتيجة من نتائج البأساء والضراء ناتجة عن شدّة أثرهما . وقد تكون فعلاً آخر قائماً بنفسه له طبيعته وآثاره المميِّزة .

وأصل الزلزلة – كما قال الزجاج – من أزال الشيء عن مكانه ، فإذا قلت : زلزلته فتأويله : أنك كررت تلك الإزالة ، فضوعف لفظه بمضاعفة معناه(٣). والزلزلة تقع على الثوابت المادية كالأرض ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ (٤).

---

(١) البقرة : ١٧٧ .

(٢) انظر : الكشاف : ١/١٢٤ ، وغرائب القرآن : ٢/٢١٦ .

(٣) انظر : التفسير الكبير : ٦/١٩ . وقد جعل ابن جني أشباه ذلك تحت عنوان : باب في قوة اللفظ لقوة المعنى ، وذلك في : الخصائص : ٣/٢٦٧ .

(٤) الزلزلة : ١ .

ولكنها جرت هنا في حق المؤمنين من باب الاستعارة تشبيهاً لاضطرابهم وشدة خوفهم بالزلزلة التي تحرك الأرض وتهزّها هزاً عنيفا يُغيّر طبيعتها ، ويؤثّر على مافوقها من قائم العمران . ثم اشتق من الزلزلة الفعل المبني للمجهول ، على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية .

والمراد أنهم حركوا وأزعجوا بأنواع البلايا والرزايا إزعاجاً شديداً شبيهاً بالزلزلة الأرضية [١]. وتكرير الزاي واللام إشعار بتكرير الإزعاج مرّة بعد مرّة [٢].

وبناء فعل الزلزلة للمجهول فيه طَيٌّ لذكر الفاعل ، وقد يكون ذلك مشعراً بأن فاعل الزلزلة من كثرة أنواعه وتعدّد أجناسه تعذّر إسناد الفعل إليه ؛ فطوي ذكره ، واكتفى بذكر الفعل نفسه ومن وقع عليه هذا الفعل وهم المؤمنون ، وقد يكون الحذف هنا من باب الأدب مع فاعله ؛ لأن فاعله في الحقيقة هو الله عز وجل ؛ لحكمة يعلمها سبحانه.

ولك أن تتصوّر شدّة هذه الزلزلة وذلك المسّ بالبأساء والضراء ؛ الذي بلغ منهم كلّ مبلغ ، وأخذ يقيمهم ويقعدهم ، ووصل الأمر بهم ذروته إلى حدّ حمل الرسول ومن معه من المؤمنين إلى أن يقولوا : [متى نصر الله] .

وعلى ذلك فـ [حتى] غائية [٣].

ومع أن القول من الرسول والمؤمنين قد مضى وقوعه وزمنه ، ومع ذلك فقد استحضرت صورة ذلك القول بصيغة المضارع ، وهو مشعر بمبلغ ماوصل إليه حالهم في الشدّة وانتظار الفرج والنصر . وتقديم ذكر الرسول على المؤمنين وإفراده بالذكر من بينهم لشرفه فيهم ولأن الله قد شرّفه بالرسالة ، فهو القدوة لهم وهم تبع له .

ولفظ [الرسول] اسم جنس ، فأل فيه للاستغراق أي : كل رسول وليس رسولاً معيّنا ، وإنما ذكر هنا تعظيماً للنازلة التي دعت الرسول إلى هذا القول [٤].

والغرض من عطف الموصول على [الرسول] هو إظهار مافي حيّز الصلة من الإيمان والنص عليه بالفعل الماضي المشعر بتلبّسهم بالإيمان وعقد قلوبهم عليه فهو قد وقع منهم وثبتوا عليه ، وفي ذلك إظهار لشرف الإيمان وثناء على أهله ، ودعوة لهم

(١) انظر : غرائب القرآن : ٢/٢١٦ .
(٢) انظر : إعراب القرآن وبيانه : ١/٣١٦ .
(٣) انظر : البحر : ٢/١٤٠ .
(٤) انظر : المحرّر الوجيز : ٢/١٥٦ .

للاستمساك به ودوام ملازمته . وفي ذكر لفظ المعية إشعار للصحابة على وجه الخصوص بأن كل نبي يبعث في أمته يناله وينال من معه من المؤمنين مزيد أذى وبليّة قد تفوق مايقع على غيرهم ، لكونه يدعو الناس إلى أمر هو جديد عليهم مخالف لما اعتادوه من مألوف العبادات الضالة والعادات المنحرفة ، الأمر الذي يجعلهم يثورون عليه ويلحقون الأذى به وبمن معه ؛ ففيه تربيص لنفوس الصحابة خصوصاً ولمن جاء بعدهم عموماً ، وترويض لأذهانهم بأنّ مامر على غيرهم من المؤمنين فهو في طريقه إليهم ؛ فلا ينبغي لهم أن يستغربوه ، أو يستنكروا وقوعه ؛ فهي سنة الله تعالى في تمحيص عباده وتخليص أوليائه من دَرَن المعاصي .

وقوله [متى نصر الله] سؤال عن وقت النصر ، قيل ذلك على سبيل الدعاء لله تعالى ، والاستعلام لوقت النصر [1] ، وفيه معنى الاستبطاء ، واستطالة زمان الشدة . يقول الزمخشري : " بلغ بهم الضجر ، ولم يبق لهم صبر حتى قالوا ذلك ؛ ومعناه : طلب النّصر وتمنيه ، واستطالة زمان الشدّة . وفي هذه الغاية دليل على تناهي الأمر في الشدة وتماديه في العظم ؛ لأن الرسل لايقادر قدر ثباتهم واصطبارهم وضبطهم لأنفسهم ، فإذا لم يبق لهم صبر حتى ضجوا كان ذلك الغاية في الشدّة التي لامطمح وراءها " [2].

وقوله [ألا إنّ نصر الله قريب] يحتمل أن يكون استئنافاً من كلام الله عز وجل جواباً عن سؤال الرسول والمؤمنين على تقدير القول ، أي : فقيل لهم ذلك إسعافاً لمرامهم ، وجواباً لطلبهم ، وتطيباً لأنفسهم [3].

ويحتمل أن تكون جملة [ألا إن نصر الله قريب] من قول الرسول جواباً عن سؤال المؤمنين المتقدم ؛ فيكون في الآية لفّ ونشر غير مرتّب ، وقد وضح ذلك أبو حيان ، فقال : " والذي يقتضيه النظر أن تكون الجملتان داخلتين تحت القول ، وأن الجملة الأولى من قول المؤمنين ؛ قالوا ذلك استبطاءً للنصر وضجراً مما نالهم من الشدّة .

---

(١) انظر : البحر : ٢/١٤٠ .
(٢) الكشاف : ١/١٢٤ .
(٣) انظر : الكشاف : ١/١٢٤ ، والفتوحات الإلهية : ١/١٧٠ ، وروح المعاني : ٢/١٠٤ .

والجملة الثانية من قول رسولهم إجابة لهم ، وإعلاماً بقرب النصر ؛ فتعود كل جملة لمن يناسبها .. " [١].

وفي تصدير جملة الجواب بأداة التنبيه ، وبحرف التوكيد ، والجملة الاسمية من الدلالة على تحقّق مضمونها وتقرير خبرها مالايخفى [٢]. وهذه المؤكدات تجعل مجموع البأساء والضراء والزلزلة ليست بشيء في جانب نصر الله المؤكد قرب وقوعه . وفي جعل لفظ الفاصلة [قريب] سوق عاجل البشرى بالنصر للمؤمنين وقت نزول النص ومابعده ، كما أن فيه تكريماً لهم لإيمانهم وصبرهم عليه ، وفيه أيضاً إزالة لكامل مانالهم من التوبيخ والإنكار الذي صدّرت به الآية الكريمة ؛ فكانت هذه الفاصلة دواء ، وبلسماً شافيا ، شفت القلوب ، وأسعدت النفوس ، وجعلت كل مؤمن يتطلع إلى ربّه ، ويترقب نفحات نصره ، بل إنها تجعل مايصيب المؤمنين من بأساء وضراء وزلزلة نفسية من أمارات نصر الله الموعود ، ومقدّمات لقرب وقوعه ؛ فتتفاعل النفوس المؤمنة بها على الرغم من مرارتها .

وقد تكون الاستعارة سبيلاً ميسوراً لتصوير قوّة العدوّ . وتذكير المؤمنين بمنّة الله عليهم ، إذ اختار لهم الأصلح لحالهم ، والأبقى لقوّتهم ، على الرغم من أن نفوسهم كانت تنازعهم في ذلك الاختيار ، وترغب في الغنيمة العاجلة ، والظفر بالسلامة والعافية ، كما حدث في غزوة بدر الكبرى ، حيث قال جلّ وعلا : ﴿ **وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ** ﴾ [٣].

يقول أبو السعود عن هذه الآية : إنها " كلام مستأنف مسوق لبيان جميل صنع الله عز وجل بالمؤمنين ؛ مع مابهم من قلّة الحزم ، ودناءة الهمّة ، وقصور الرأي ، والخوف والجزع ، و [إذ] منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به المؤمنون بطريق التلوين والالتفات " [٤]، والتقدير : واذكر إذ يعدكم الله إحدى الطائفتين .. ، أي :

---

(١) البحر : ٢/١٤٠ .
(٢) انظر : تفسير أبي السعود : ١/٢١٥ ، والفتوحات الإلهية : ١/١٧٠ .
(٣) الأنفال : ٧ .
(٤) تفسير أبي السعود : ٤/٦ ، والالتفات وقع من الغيبة إلى الخطاب ، لأن الآية السابقة على هذه الآية وردت بصيغة الغيبة ، وهي قوله تعالى : ﴿ **يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون** ﴾ .

اذكر وقت ذلك ٠٠ ، والغرض من الأمر باستذكار الوقت هو استحضار ماوقع فيه من الوقائع والحوادث بطريق التسلسل الزمني ؛ مما يساعد على عَدِّها وتصوّرها ، فكان الزمن برهان وقوعها ؛ لكونها قد وقعت فيه ، وصار ظرفاً زمانياً لها ، فهي لاتخرج عنه ، فكان من أراد سرد تلك الوقائع فعليه باستحضار زمانها حتى تحضر أمامه في أوقاتها مُسلْسَلة مُفَصَّلة ذهنيّاً ، حتى كأن العين تشاهد أحداثها عيانا [(١)] ٠ وقد عزّز هذا المعنى المذكور إضافةُ ظرف الزمان [إذ] إلى جملة الفعل المضارع [يعدكم] ، الذي أفاد استحضار تلك الصورة الماضية وكأنّما هي حاضرة ماثلة الآن بين الأعين وفي الأذهان ٠

وإسناد الوعد إلى الله عز وجل فيه تفخيم لشأنه ، وإشعار بأنّه لايمكن أن يتخلّف ، فقد قال سبحانه عن نفسه : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ [(٢)] ٠ وقال أيضاً : ﴿ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [(٣)] ٠

والوعد المذكور وقع للنبي عليه الصلاة والسلام بعد خروجه إلى العير وبعد خروج قريش للذّب عنها ومقاتلة النبي وصحبه ؛ وعندئذٍ أوحى الله تعالى إليه وحياً غير متلو يَعِده إحدى الطائفتين [(٤)] ؛ فقد قال بعد مشاورة أصحابه وسروره بحسن مقالتهم - : " سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني أنظر الآن إلى مصارع القوم " [(٥)] ٠

والطائفتان المذكورتان هما : - عير قريش وتجارتها القادمة من الشام إلى مكة بقيادة أبي سفيان بن حرب وعددهم أربعون راكبا ٠ والثانية : نفير قريش وجيشها بقيادة أبي جهل ، وعددهم قرابة ألف رجل [(٦)] ٠ وقد كان عدد المسلمين الذين خرجوا مع النبي صلى الله عليه وسلم قرابة ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا [(٧)] ٠

---

(١) انظر : تفسير أبي السعود : ٦/٤ ٠
(٢) إبراهيم : ٤٧ ٠
(٣) الروم : ٦ ٠
(٤) انظر : المحرر الوجيز : ١٧/٨ ٠
(٥) النكت والعيون : ٢٩٦/٢ ٠
(٦) انظر : البحر : ٤٦٣/٤ ، وروح البيان : ٣١٧/٣ ٠
(٧) انظر : المحرر الوجيز : ١٧/٨ ٠

والوعد بإحدى الطائفتين هو الظفر بإحداهما ، إما بالعير بالاستيلاء عليها ، وغَنْمها . أو بالنفير بالانتصار عليهم قتلاً وسلبا - كما وقع في حقيقة الأمر فيما بعد - . وقد كان الأمر في شأن الطائفتين مُبْهماً قبل نجاة العير ، فلمّا نجت عُلم أن النصر الموعود به قد تعيّن على النفير[1] .

وقوله [أنّها لكم] بدل اشتمال من [إحدى الطائفتين[2]] ؛ ولذلك فصلت عنها بإسقاط العاطف لما بينهما من غاية الاتصال في المعنى . وهذه البدلية المذكورة مبيّنة كيفية الوعد ؛ فالمعنى : أن الله يعدكم بأن إحدى الطائفتين كائنة لكم ، مختصّة بكم ، مسخرة لأمركم ، تتسلّطون عليها تسلّط الملاّك المتصرفين في أملاكهم[3] . فاللام في [لكم] للتمليك . وقد أكّد هذا التمليك بأمور : منها الوعد الربّاني المتقدم ، وحرف التوكيد [أنّ] ، والجملة الاسمية ، ولام الملكية نفسها . فتأمّل وجازة هذه العبارة ، ومع ذلك فقد تضافر فيها من صور التوكيد ما رأيت ، ويكفي صدقها ، وتأكيد وقوع مضمونها أنّ الله تعالى هو المتكلم بها ، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً ﴾[4] .

قوله [وتودّون] جملة معطوفة على جملة [يعدكم] فتكون داخلة تحت الأمر بالتذكر ، فأمروا بتذكّر الوعد ، ومودتهم الظفر بالعير ؛ ليبيّن لهم في النهاية أن ما أراده الله تعالى لهم خير وأعظم مما تمنّوه هم لأنفسهم .

وقوله [.. غير ذات الشوكة] هي الطائفة التي لم تدجّج بالسّلاح ، وهي عير التجارة التي عليها أبو سفيان .

والتعبير عنهم بما ذكر للتنبيه على سبب ودادتهم لملاقاة العير ، وبيان علّة كراهيتهم ملاقاة النفير[5] ، وهو كون أولئك مسلّحين ، وهم يكرهون موافاة الموت وأسبابه ؛ فكأنّما يساقون إلى الموت وهم ينظرون .

وفي ذلك التعبير إشعار بأنهم يريدون العير بوصفها غنيمة باردة ، ليس فيها طِعَان ولاحِمَام ؛ مما يؤلّب عليهم عدوّهم ويجعلهم يخرجون إليهم في جيش لاقبل لهم

---

(١) الفتوحات الإلهية : ٢٢٩/١ .
(٢) انظر : تفسير أبي السعود : ٧/٤ .
(٣) انظر : تفسير أبي السعود : ٧/٤ .
(٤) النساء : ٨٧ .
(٥) انظر : روح المعاني : ١٧١/٩ .

به ، فأراد الله عز وجل كسر شوكة أعدائهم ، وأورثهم الغنائم مما فاق مافي العير ، كما أسروا من الأسرى سبعين ، وقتلوا من صناديدهم مثلهم ، فلله الحمد والمنّة على ماقدّر وأراد ، حيث كان هو عين الظفر والنّصر .

و [الشوكة] في الأصل واحدة الشوك ؛ ذلك أن الشين والواو والكاف أصل واحد يدلّ على خشونة وحدّة طَرَفٍ في الشيء (١) .

والشوك : نبت في أطرافه وأغصانه أعواد دقيقة الأطراف في حِدَّة الإبر ، وإذا مسَّت الجسد أدمته ، أو الثوب علقت به وخرقته (٢) .

فهذا هو أصل إطلاق الشوكة ، وعلى ذلك ففي الآية استعارة لحدّة السلاح في طائفة النفير (٣) ، فقد شبّهت حدَّة سلاحهم بإبر الشوك بجامع شدَّة التأثير فيهما ، ثم حذف المشبّه ، وصرح بلفظ المشبّه به ، وذلك على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية .

والطرفان في هذه الاستعارة حسّيّان ، فحدّة السلاح من سيوف ورماح مرئية ، محسوسة الأثر ، وأطراف الشوك كذلك .

وأما إذا أُخذ مجموع البأس في الأعداء وشُبّه بالشوكة ؛ فهو عندئذٍ من تشبيه المعقول بالمحسوس ؛ لإيضاح شأن المعقول ، وتقريب صورته في الأذهان والحواس . وممن ذهب إلى ذلك ابن عاشور (٤) .

وفائدة هذه الاستعارة في النص الكريم تصوير نفوس بعض المؤمنين قبيل غزوة بدر ، وأنهم ما اختاروا العير إلاّ خوفاً من شوكة العدوّ وطِعَانهم ؛ لينبّه بذلك على أنّ ماكلّ ماتشتهيه أنفسهم يكون خيراً لهم حتى يجروا وراء اختيارهم ، ويبحثوا عن راحتهم ، بل عليهم أن ترتفع هِمَمِهم ، وتعلو هامات رؤوسهم إلى ماهو أعلى وأجل ؛ بأن يعملوا بمراد الله عز وجل ، وإن كان فيه مصادمة لرغباتهم ، ومعارضة لشهواتهم ، فإنّ وراءه الخير والكنز كله ، كما حصل في بدر في عاقبة أمرهم عندما تدارك الله رغباتهم برحمته ، فأرشدهم إلى سبيل النصر من بابه ، وملّكهم العزّ من أبوابه .

(١) انظر : معجم مقاييس اللغة : مادة : شوك .
(٢) انظر : روح البيان : ٣/٣١٧ ، والتحرير : ٩/٢٧٠ .
(٣) انظر : الكشاف : ٢/١٥٧ ، والتفسير الكبير : ١٥/١٢٨ ، وروح المعاني : ٩/١٧١ .
(٤) انظر : التحرير : ٩/٢٧٠ .

وقوله [ويريد الله أن يحق الحق ..] جملة معطوفة على [وتودون] فهي منتظمة في سلك التذكير الذي أمروا به ، ليظهر لهم عظيم لطف الله بهم مع دناءة هممهم ، وقصور آرائهم ؛ أي : اذكروا وقت وعده تعالى إياكم إحدى الطائفتين وودادتكم لأدناهما ، وإرادته تعالى لأعلاهما ، المتمثل في قوله [يحق الحقّ] .

والمراد بإحقاق الحق إثباته وإعلاء دين الحق وهو الإسلام ، وفي هذا التعبير جناس في الاشتقاق ، وفيه دلالة على أن أصل مادة الحق الفعل حَقّ [١] ، يقول ابن فارس : " الحاء والقاف أصل واحد ، وهو يدل على إحكام الشيء وصحته ؛ فالحق نقيض الباطل .. ويقال : حق الشيء وجب .. واحتقّ الناس في الدين إذا ادّعى كلّ واحد الحق .. ويقال : ثوب محقّق ؛ إذا كان محكم النسج .. والأحقّ من الخيل الذي لايعرق وهو من الباب لأن ذلك يكون لصلابته وقوته وإحكامه .. والحاقة القيامة ؛ لأنها تحق بكل شيء .. " [٢].

ومن هنا ندرك سرّ تسمية الإسلام بالحق ؛ لأنه أمكث في الفطرة وأثبت ، ولكونه قد جمع الحسن والصحة والإحكام في مقاصده وأحكامه ، وفي آدابه وتوجيهاته ، ولاغرو ! فهو من لدن حكيم خبير .

وقوله [بكلماته] الباء للسببية . ولكن ماسرّ تقييد إحقاق الحق بذلك ؟ .

يقول ابن عاشور : " وذكر هذا القيد للتنويه بإحقاق هذا الحق وبيان أنه مما أراد الله ويسّره وبينه للناس من الأمر ؛ ليقوم كل فريق من المأمورين بما هو حظّه من بعض تلك الأوامر ، وللتنبيه على أن ذلك واقع لامحالة ؛ لأنّ كلمات الله لاتتخلّف ؛ كما قال تعالى : ﴿ **يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ** ﴾ [٣]. ولمدح هذا الإحقاق بأنّه حصل بسبب كلمات الله " [٤].

---

(١) انظر : التحرير : ٩/٢٧١ .
(٢) معجم مقاييس اللغة : مادة : حق .
(٣) الفتح : ١٥ .
(٤) التحرير : ٩/٢٧٢ .

والمقصود بكلمات الله تلك أي : " بآياته المنزلة في محاربة ذات الشوكة ، وبما أمر الملائكــة من نزولهم للنصرة ، وبما قضى من أسرهم وقتلهم وطرحهم في قليب بدر ، وبما ظهر ما أخبر به صلى الله عليه وسلم "[١].

وصيغة التعبير بلفظ [كلمات] مفيدة قلّتها ، وفي ذلك إشعار بأن الله عز وجل لايعجزه شيء ، وأنّه إذا أراد كينونة شيء - مهما كان - فإنّه يكون بكلمات قليلة ، ولايستدعي أيّ أمر من الأمور إلى كلام كثير ، ويدل على ذلك قراءة [بكلمته] بالإفراد[٢]. وهذا صريح قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾[٣]. ومن فوائد إخبار المؤمنين بذلك تعليق أملهم بالله القوي العزيز ، وإحسان ظنّهم بربهم ، وإشعارهم بأن عدوهم مهما زمجر وتكبّر فإن الله له بالمرصاد ، وفيه من زيادة الإيمان واليقين ماهو ظاهر لكل مؤمن متدبّر .

وقوله [ويقطع دابر الكافرين] الجملة معطوفة على [يحق الحق] فهي من مراد الله عز وجل ، وكأنّ تثبيت الحق وإظهاره قائم على محق الكافرين ، ولذلك بدأ بذكر الأوّل ثم عطف الثاني عليه ، فبدأ بالأهمّ ، ورتّب ثباته على زوال النابذ له ، وهم الكافرون .

والقطع في الأصل - كما يقول الراغب - : " فصل الشيء مُدْركاً بالبصر كالأجسام ، أو مدركاً بالبصيرة كالأشياء المعقولة . فمن ذلك قطع الأعضاء ... وقطع دابر الإنسان هو إفناء نوعه .. "[٤].

وعلى هذا فالقطع مستعار للإفناء ، فقد شبه إفناء الكافرين بالقطع بجامع الاستئصال في كلّ منهما ، ثم اشتق من القطع الفعل المضارع يقطع على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

ولك أن تجري الاستعارة في الدابر فتكون مكنية ، وذلك بأن يقال : شبه دابر الكافرين بعضو فاسد بجامع استحقاق الإزالة في كلّ منهما ، ثم حذف المشبه به ودلّ عليه بلازم من لوازمه وهو القطع ، وذلك على سبيل الاستعارة المكنية .

---

(١) البحر : ٤/٤٦٤ .
(٢) ممن ذكر قراءة الإفراد : أبو حيان في البحر : ٤/٤٦٤ ، والألوسي في : روح المعاني : ٩/١٧٢ .
(٣) البقرة : ١١٧ .
(٤) المفردات : ٤٠٨ .

وفائدة هذه الاستعارة المصوّرة إشعار المؤمنين بأن الله تعالى قد غضب على الكافرين ، وأراد سبحانه استئصال شأفتهم فكونوا من جنوده الذين يفعلون مراده ، ويزيلون أعداءه من على وجه الأرض ، فهم أعضاء فاسدة تستحق البتر . وفي ذلك تَهْيِيج لجند المسلمين على الكافرين ، وتعزيز نفسي لهم وتجريء على أعدائهم ، لأنهم يمضون في أمر أراده الله عز وجل وندب إليه ؛ فهم يتعبّدون الله تعالى بقطع دابر الكافرين ، ومن هنا كان الجهاد ذِرْوة سنام الإسلام ، وكان المجاهدون في أعلى درجات التنعيم .

ومن نكات البيان في التعبير بـ [دابر الكافرين] أن فعل القطع قد وقع على دابرهم ، وهذا يعني الشروع في استئصال أوّلهم ، حتى يفضي الأمر إلى دابرهم ، وهذا ماوقع في الغزوة التي وردت فيها هذه الآية ، وهي غزوة بدر الكبرى ، فقد قتل من أشرار القوم رؤوسهم ، واستؤصل الفاسد من أعضائهم ، ولعل في الإبقاء على بعضهم رحمة بهم ؛ إذ أسلم كثير منهم فيما بعد ، وحسن إسلامه وانضم إلى صفوف المجاهدين . فلم يُقتل منهم إلا من علِم الله أنه كافر مضار بالمؤمنين . ومانفك القتل عنهم حتى قُطع دابر الكافرين بغزوة حُنين في السنة الثامنة من الهجرة ، وفيها دانت العرب لهذا الدين ، وتكاثرت جموع المسلمين بعد أن كانوا قلّة مُسْتَضْعَفِين ، وتحقّقت إرادة الله عز وجل في قطع دابر الكافرين ؛ فلله مزيد الحمد والمنّة على أنْ نصر هذا الدين بمراده وكلماته [١] .

---

(١) انظر مزيداً من الاستعارات الواردة في هذا البحث : ١١٥ ، ١٥١ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٤٤ ، ٢٤٩ ، ٣١٣ ، ٣٣١ ، ٣٣٩ ، ٣٥٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٣ ، ٤٢٣ ، ٤٣٢ ، ٥٣١ .

الكناية والتعريض

الكاف والنون والحرف المعتل في عرف اللغة تدل على تورية عن شيء بغيره ، يقال : كنيت عن كذا ؛ إذا تكلمت بغيره مما يُستَدل به عليه ، وكنوت أيضاً ، والكُنْية بضم فاء الكلمة وكسرها واحدة الكُنَى ، واشتقاقها من السّتر ، يقال : كنيت الشيء إذا سترته ، وإنما أجري هذا الاسم على هذا النوع من الكلام ؛ لأنه يستر معنى ويُظْهر غيره ، ولذلك سمي ماجرى على هذا النَّمط من الكلام كناية(١) .

وأما تعريف الكناية البياني فلا يختلف كثيراً عن تعريفها اللغوي ؛ فقد قال عنها عبدالقاهر الجرجاني : " أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود ؛ فيومىء به إليه ، ويجعله دليلاً عليه " (٢) .

وواضح من هذا التعريف أن هناك صلة بين المعنى الظاهري للكلام وبين المعنى الكنائي ؛ وإلا كان ذلك إلغازا وتعمية ، ولم يكن بلاغة وبيانا (٣) .

وقد عني العرب في بيانهم بالكناية ، وعدّوها من البراعة والبلاغة ، بل هي عندهم أبلغ من الإفصاح ، وقد جرى كثير من أمثالهم على مجاري الكنايات ؛ فيطلقون ألفاظها ويريدون لوازم معانيها ؛ فيصلون إلى أغراضهم البيانية من خلالها (٤) .

ويعلّل عبدالقاهر سبب بلاغة الكناية قائلاً : " أما الكناية فإن السبب في أن كان للإثبات بها مزيّة لاتكون للتصريح أنّ كل عاقل يعلم - إذا رجع إلى نفسه - أن إثبات الصفة بإثبات دليلها ، وإيجابها بما هو شاهد في وجودها آكد وأبلغ في الدعوى من أن تجيء إليها فتثبتها هكذا ساذجا غُفْلاً . وذلك أنك لاتدعي شاهد

---

(١) انظر : معجم مقاييس اللغة : مادة : كنو ، واللسان : المادة نفسها ، والطراز : ٣٦٦/١ .

(٢) دلائل الإعجاز : ٥٢ . تحقيق : محمد رشيد رضا . وقد عرفها الخطيب القزويني بقوله : " الكناية لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذٍ " . الإيضاح : ١٨٣ .

(٣) انظر : من بدائع النظم القرآني : ٦٨ .

(٤) انظر : دلائل الإعجاز : ٥٥ ، والبرهان : ٤١٠/٢ .

الصفة ودليلها إلا والأمر ظاهر معروف ، وبحيث لايشك فيه ولايظن بالمخبر التجوّز والغلط " [١].

ويقول الدكتور محمود شيخون : " الكناية واد من أودية البلاغة ، ومقتل من مقاتل البيان العربي ، وغاية لايصل إليها إلا من لطف طبعه ، وصفت قريحته ، وطريق جميل من طرق التعبير الفني يلجأ إليه الأدباء للتعبير عما يدور في نفوسهم من المعاني ، ويجيش في صدورهم من الخواطر ، ووسيلة قوية من وسائل التأثير والإقناع ولها أثر كبير في تحسين الأسلوب ، وتزيين الفكرة فهي في العبارة الأدبية كالدرّة اليتيمة في العقد .. " [٢].

وللكناية أثر بارز في نظم الكلام ؛ فهي تقوم بأداء المعاني خير أداء ، وممن فطن إلى علاقتها بالنظم الدكتور السيد حجاب ؛ حيث قال : " والسّر في أن الكناية أبلغ من التصريح هو أنها تبرز المعاني المجردة في صور محسوسة ؛ فيكون ذلك أدعى إلى قبولها وتأكيدها ، كما أنها من ناحية أخرى توقظ الفكر وتدفعه إلى البحث عما وراء الصورة الظاهرة للكلام حتى يصل إلى المراد ويعرفه عن طريق العلائق والصلات بين المعاني الظاهرة للكلام والمعاني المرادة منه .

ومن ناحية ثالثة فإن أسلوب الكناية عندما يقع موقعه الأنسب له ، ويخرج عما اعتاده الناس ولاكته الألسن وابتذل على الأفواه - يكون طريفاً معجباً ؛ تأنس له النفس ، وتجد متعتها في الإنصات إليه " [٣].

والذي يتدبّر كتاب الله عز وجل يجد فيه كثيراً من صور الكناية التي تدل على المراد أبلغ دلالة ، وإذا كانت العربية زاخرة بروائع من صور الكناية فإن ماجاء في القرآن الكريم منها يسمو عليها صعداً في سلّم البيان حتى يصل إلى حدّ الإعجاز ، كما أن للكنايات القرآنية مذاقها الخاص بها ، وإيحاءاتها المتعددة التي تناسب المقام وتؤدي غرض النظم الكريم ، ثم هي قمة في الأدب الرفيع والخلق العالي تسير جنباً إلى جنب لتتميم مكارم الأخلاق [٤].

---

(١) دلائل الإعجاز : ٥٧ - ٥٨ .
(٢) الأسلوب الكنائي : ٨٧ .
(٣) من بدائع النظم القرآني : ٦٩ .
(٤) انظر : من بدائع النظم القرآني : ٦٨ - ٦٩ .

ومما امتازت به الكناية في القرآن لطف الإيجاز مع الوفاء بالغرض المراد ، وجمال التعبير مكتسياً بالأدب في الألفاظ ، وحسن التصوير للمواقف مع شدة التأثير فيها (١) .

ولما كان التعريض شديد الصلة بالكناية فإننا نلقي عليه بصيصاً من الضوء ثم نشرع بعدئذٍ في تحليل ماتيسّر من الآيات ذات المعاني الجهادية مما جاءت فيها الكناية أو لمح فيها التعريض .

والتعريض في الأصل خلاف التصريح ؛ يقال : عرّضْتُ لفلان أو بفلان ، إذا قلت قولاً وأنت تعنيه ، ومنه المعاريض في الكلام (٢) .

وقد عرفه ابن الأثير بقوله : " هو اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم بالوضع الحقيقي والمجازي " (٣) . وأدقّ منه تعريف العلوي ؛ حيث قال عنه : " هو المعنى الحاصل عند اللفظ لابه " (٤) . وأدّل من التعريفين السابقين تعريف الزمخشري ؛ فقد قال عن التعريض : " إمالة الكلام إلى عُرْض يدل على الغرض " (٥) . وهذا التعريف الأخير أصل من التعريفين السابقين لوضوحه وقدم زمن صاحبه .

ولكن ما الفرق إذاً بين الكناية والتعريض ؟ .

ممن عرض للتفريق بينهما ابن الأثير ؛ فقد قال : " والتعريض أخفى من الكناية ؛ لأن دلالة الكناية لفظية وضعية من جهة المجاز (٦) ، ودلالة التعريض من جهة المفهوم لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي . وإنما سمي التعريض تعريضاً لأن المعنى فيه يفهم من عُرْضه ، أي من جانبه . وعُرْض كل شيء جانبه . واعلم أن الكناية تشمل اللفظ المفرد والمركب معاً ؛ فتأتي على هذا تارة ، وعلى هذا أخرى ، وأما

---

(١) انظر : الأسلوب الكنائي : ١٠١ - ١٠٤ .

(٢) انظر : الطراز : ١/٣٨٠ .

(٣) المثل السائر : ٣/٦٦ .

(٤) الطراز : ١/٣٨٣ . ومثاله أن ترى مسلماً كثر أذاه فتورد في شأنه الحديث : " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده " تعريضاً بنفي صفة الإسلام عنه ؛ ليكف أذاه .

(٥) الكشاف : ١/١٣٧ .

(٦) المعروف أن هناك خلافاً بين العلماء في كون الكناية من قبيل المجاز أو الحقيقة أو واسطة بينهما وهو الراجح على خلاف في ذلك . وممن ناقش ذلك وأبان عنه العلوي في : الطراز : ١/٣٧٢ - ٣٧٩ . فله في ذلك بحث دقيق مفيد .

التعريض فإنه يختصّ باللفظ المركب ، ولايأتي في اللفظ المفرد ألبتة ، والدليل على ذلك أنه لايفهم المعنى فيه من جهة الحقيقة ولامن جهة المجاز ، وإنّما يفهم من جهة التلويح والإشارة ، وذلك لايستقل به اللفظ المفرد ، ولكنه يحتاج في الدلالة عليه إلى اللفظ المركّب " [١].

وأيّاً كان الأمر فإن التعريض يمتاز بأن السبيل إلى إدراك مفهومه ووضع اليد على معناه يتمثل في السياق ، وذلك أن مدلوله خفي مستتر يهتدي إليه المتلقي من خلال ظرف القول ومناسبته ، ومن خلال القرائن التي ينبض بها البناء اللغوي في درج الكلام [٢] . وطالما كانت العرب تشفي غليلها من عدوّها بالتعريض ، وهو أسلوب بارع يُجدي كثيراً مع الأذكياء والنبهاء يوقظهم من غفلة ، أو يفتح لهم باب هداية ، أو يغلق أمامهم كوّة غواية .

والكناية والتعريض لهما القدح المعلّى في مقامات الجهاد وساحات القتال ، حيث تثور النفوس ، وتتصاول عقول الرجال ؛ يتحدى بعضهم بعضا ، فأحياناً يكنّون ، وحيناً يعرّضون ، حتى يصلوا إلى مقاصدهم .

ولقد صوّر القرآن الكريم أعداء المؤمنين في صور متعدّدة . وأبرز بواطنهم في مواقف ظاهرة ، وكان التصوير الكنائي هو أحد الوسائل المعتد بها بين وسائل البيان الأخرى ، من ذلك قوله تعالى بعدما حذر المؤمنين من اتخاذ باطنة من الكفار [٣] :

﴿ هَاأَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَايُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [٤].

---

(١) المثل السائر : ٣/٦٧ .

(٢) انظر : بناء الصورة الفنية في البيان العربي : ٣٣١ .

(٣) وذلك في قوله تعالى : **﴿ يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لايألونكم خبالاً ودّوا ماعنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وماتخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ﴾** ، لقد سبق بيان بلاغة النظم في هذه الآية ؛ انظر : ٤٠٢ - ٤٠٩ .

(٤) آل عمران : ١١٩ .

لقد وردت الآية تعقيباً على نهي المؤمنين عن موادة غير المسلمين ومباطنة الكافرين من يهود أو منافقين أو سواهم ممن ليس على الدين ؛ ولذلك افتتحت هذه الآية بحرف التنبيه الداخل على ضمير المخاطبين تنبيهاً لهم على خطئهم المذكور ، وإظهاراً لكمال العناية بمضمون ماورد بعد حرف التنبيه[1] ؛ فإنّه من الأهمية بحيث ينبغي أن يعتنى به ويستحضر معناه ويعمل بمقتضاه .

يقول الشيخ زادة : " لما شهد منهم الخطأ في الرأي المستلزم للغرّة والغفلة صدّر خطابهم بحرف التنبيه ، وأشار إليهم بما يُشار به إلى المشاهد المحسوس إيقاظاً لهم من سَهْوهم وغفلتهم .. "[2] .

وقد اختلفت أقوال العلماء في إعراب [هأنتم أولاء تحبونهم ..] والذي أميل إليه مما هو منسجم مع نظم الآية وموافق لسياقها أنّ [أنتم] مبتدأ ، و [تحبونهم] خبره ، ويكون اسم الإشارة [أولاء] منادى معترضاً بين المبتدأ والخبر [3] ؛ وفائدته استحضار شعور المخاطبين ، والإلحاح عليهم بأمرين : أولهما : توجيه النداء إليهم . وثانيهما : الإشارة إلى شخوصهم ؛ استحضاراً لقلوبهم مع صورة أشخاصهم ؛ حتى يعوا مانُبّهوا إليه ، ويعتنوا بما نودوا من أجله مما سيرد بعد ذلك ؛ فهو تنبيه لهم ، وصيحة فيهم حتى يتداركوا أنفسهم من خطرٍ هُم أو بعضهم واقع فيه ، وعلى ذلك فمقتضى المقام كأنّما يقتضي هذا الإعراب المتقدم ، فيه ينتظم عقد المعنى . والله تعالى أعلم بالصّواب .

والإخبار بـ [تحبونهم] عن ضمير المخاطبين إخبار بأمر واقع منهم صادر عنهم ؛ فليس أمراً جديداً يفادون به ، وإنما هذا من لازم فائدة الخبر ، وهو إشعار المخاطبين بأن المتكلم سبحانه وتعالى عالم بحالهم لاتخفى عليه أحوالهم ، ولذلك

---

(١) انظر : تفسير أبي السعود : ٧٦/٢ . وانظر : روح المعاني : ٣٨/٤ .

(٢) حاشية الشيخ زادة : ٦٦٥/١ .

(٣) ممن ذكر هذا الإعراب السيوطي في تفسير الجلالين ، وشرحه الجمل ؛ انظر : الفتوحات الإلهية : ٣٧٠/١ ، وكذا الألوسي في روح المعاني : ٣٨/٤ . ومما ذكر في إعراب الجملة المتقدمة مايلي : - أنتم : مبتدأ ، وأولاء : خبر ، وتحبونهم مستأنف ، أو : أنتم : مبتدأ ، وأولاء : مبتدأ ثاني ، وتحبونهم : خبره ، والجملة خبر عن المبتدأ الأوّل .. انظر : البحر : ٣٩/٣ ، وحاشية الشيخ زادة : ٦٦٥/١ . وغيرها .

أخبروا بهذا المعنى ، توطئة لما سَيُبنَى عليه من معان لها أثر في توبيخهم وتشديد النكير عليهم .

والإخبار عن المحبة بصيغة المضارع فيه إيماء إلى أن فعل المحبة واقع منهم وقت الخطاب ، وعلى ذلك فالمراد هو الإقلاع عنه وترك فعله فورا ؛ لأنه إخبار مبني على عتاب سابق ولاحق .

والمحبة المذكورة هي الميل بالطبع لموضع القرابة والرضاع والحلف ونحوه كما ذكره ابن عباس (١).

وقوله [ولايحبونكم] قد يكون معطوفاً على [تحبونهم] (٢)؛ فيكون هذا ضماً لفائدة لم يكن المخاطبون يعلمونها . وقد يكون حالاً من فاعل [تحبونهم] (٣) مبينة أن المحبة مصروفة من وجه واحد وهم المؤمنون ، وأما أولئك الكفار فحالهم على النقيض من ذلك وهي كراهتكم ، لإسلامكم .

وعلى ذلك فيكون في الجملة تعجيب من أمرين متناقضين ؛ إذ كيف تصرف المحبة لقوم هم يكرهون من أحبّهم ؟ ! .

وقوله [وتؤمنون بالكتاب كله] فيه لطائف بلاغية : -

١ - الواو يحتمل كونها عاطفة ؛ عطفت هذه الجملة على [تحبونهم] ، فتكون من جملة ما أخبر عن المؤمنين(٤) . ويحتمل أن تكون الواو للحال ؛ فالجملة حالية من ضمير المفعول في [لايحبونكم] ، وعلى هذا فالمعنى : لايحبونكم والحال أنكم تؤمنون بكتابهم ، فما بالكم تحبونهم وهم لايؤمنون بكتابكم ، وفيه توبيخ ظاهر للمخاطبين ، وإشعار بأن أولئك في باطلهم أصلب منكم في الحق الذي جاءكم (٥).

---

(١) انظر : البحر : ٤٠/٣ . وقد عدّد الفخر من وجوه تلك المحبة ستة ؛ انظر : التفسير الكبير : ٢٠٠/٨ .

(٢) انظر : إعراب القرآن وبيانه : ٤٠/٢ .

(٣) انظر : التحرير : ٦٥/٤ .

(٤) انظر : إعراب القرآن وبيانه : ٤٠/٢ .

(٥) انظر : تفسير أبي السعود : ٧٦/٢ .

٢ - في الإخبار عن إيمان المؤمنين بالكتاب كله بصيغة المضارع ثناء عليهم بذات الجملة ، حيث أفادت كونهم كذلك حال خطابهم ، وهي في الوقت نفسه تعريض بهم ؛ حيث إنه كان منتظر من إيمانهم بالكتاب كلّه أن يكون ذلك حجاباً بينهم وبين قوم يكرهونهم أصلاً ، فلا تصدر عنهم تلك المحبة لهم ؛ بل إن المنتظر منهم ترك مودّتهم ، وذلك بمقتضى ماجاء في هذا الكتاب العظيم ؛ ومنه قوله عز وجل : ﴿ لَاتَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

٣ - أل في [الكتاب] للجنس ، ولذلك ذكر الكتاب بلفظ الإفراد ، والمراد به جنس الكتب المنزلة ، ومنها مانزل على اليهود وهو التوراة ، فهو كقولهم : كثر الدرهم في أيدي الناس . والمراد الدراهم (٢) . على أن [أل] وارد كونها للعهد (٣) ؛ فينصرف المراد من الكتاب إلى ماهو معهود في أذهان المخاطبين ، وهو هذا القرآن العظيم ، ومعلوم أن الإيمان به موجب للإيمان بسائر كتب الله المنزلة على الأمم السابقة ، فلا يتم إيمان عبد إلا بالتصديق بها ، فقد قال تعالى في معرض خطابه للمؤمنين : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً ﴾ (٤) . وبذلك يكون إيمانهم بالقرآن الكريم تخصيصاً ، وبسائر الكتب الأخرى تعميما .

٤ - كلمة [كلّه] مؤكّد لفظي للكتاب ؛ فعلى معنى الجنسية في [أل] يكون التأكيد للفظ [الكتاب] المنسحب على سائر الكتب المتقدمة والمتأخّرة ، وقد وقع التوكيد بصيغة الإفراد مراعاة للفظ [الكتاب] .

---

(١) المجادلة : ٢٢ .
(٢) انظر : التفسير الكبير : ٢٠١/٨ ، وتفسير الخازن : ٢٧٥/١ .
(٣) انظر الدر المصون : ٣٦٩/٣ .
(٤) النساء : ١٣٦ .

وإذا كان معنى [أل] للعهد فيكون التوكيد قد وقع على [الكتاب] مراداً به القرآن الكريم ؛ أي أن إيمانكم قد عقد على هذا الكتاب بكل ماجاء فيه من أوامر ونواه وأحكام وتشريعات ، من غير تقصير منكم في شيء منها ، ماسوى ماذكر في الآية من محبة الكفرة فينبغي تركه حتى ينعقد كمال إيمانكم .

٥ - في الجملة معنى حُذف إيجازاً ؛ وذلك لدلالة ماذكر عليه ، والتقدير : وتؤمنون بالكتاب كله ، وهم لايؤمنون به . وإنما حَسُن الحذف هنا ؛ لأن الضّدين يُعْلَمان معاً ؛ فكان ذكر أحدهما مغنياً عن ذكر الآخر [1].

وقوله [وإذا لقوكم قالوا آمنا] جملة مستأنفة[2] لكشف المزيد من خبايا أولئك الكفار ، وإظهار حقائقهم .

واختيار [إذا] الشرطية من بين سائر أدوات الشرط للتعبير بها في هذا المقام دليل على أن قولهم ذلك مقطوع به كلما تحققت لقياهم لكم ، فلا تستغربوه منهم ، بل انتظروا هذا القول المبني على نفاقهم .

ووقوع الماضي في جملة جواب الشرط فيه إشعار من القائلين بأنّ إيمانهم ليس حادثاً الآن ، وإنما هو منذ زمن ؛ فثِقُوا بنا واطمئنوا إلينا .

وقوله [وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ] فيه لطائف بلاغية : -

١ - هذه الجملة معطوفة على الجملة المتقدمة ، والذي حسّن العطف هو كونها في سياق الإخبار عن أحوال قوم معيَّنين ، فضمّت إلى حالهم الأولى حالاً أخرى كان السامع ينتظرها ، ويتشوّق إلى معرفة كنهها ، بعدما استقر في ذهنه العلم بحالهم عندما يقابلون المؤمنين ، فكأنما يقول قائل : قد علمنا أمرهم إذا لقوا المؤمنين ، فحبذا العلم بشأنهم إذا خلوا إلى بعضهم . فكان هذا العطف متمّماً للمعنى ، ومظهراً سِرّاً مكتوما .

٢ - المراد بخُلُوّهم : خلوّ المكان منهم، وإنّما أُسند الخلوّ إليهم لملابستهم للمكان الذي هم فيه ، والمكان المقصود خلوّهم منه هو المكان الذي فيه المؤمنون ، فالمعنى ، إذا تركوا مكانكم وخَلاَ منهم وابتعدوا عنكم عضوا عليكم الأنامل من الغيظ .

---

(١) انظر : التفسير الكبير : ٢٠١/٨ .

(٢) انظر : إعراب القرآن وبيانه : ٤٠/٢ .

٣ - اصطفاء [إذا] الشرطية في هذا المقام دليل على أن فعل الشرط منهم مجزوم بوقوعه ؛ فيقع الجواب تبعاً له ؛ وهو عضهم أناملهم من الغيظ عليكم ؛ فصار في الكلام تقسيماً ؛ فهم إما أن يقابلوكم فيقولوا لكم آمنا نفاقا ، وإما أن يخلوا إلى بعضهم فيعضوا عليكم الأنامل من الغيظ ، وليست لهم حال ثالثة . وهذا إشعار بأنهم مبعّضون نفسياً ، لهم وجهان في شخصيّتين ؛ فكلامهم وهيئاتهم إذا لقوا المؤمنين ، على النقيض منها إذا ابتعدوا عنهم ، وهذه القضية الدقيقة لايعلمها إلا العليم الخبير ، الرحيم بالمؤمنين ، ولذلك خبّر بها عباده الصالحين .

٤ - في جواب [إذا] الشرطية وهو قوله [عضوا عليكم الأنامل من الغيظ] كناية عن شدّة العداوة للمؤمنين وفرط التحسّر عليهم[١] ، فهي كناية عن صفة ، حيث ذكر الموصوف ، ونسب إليه صفات أريد لازمها ؛ ذلك أن العض في الأصل : شدّ الشيء بالأسنان[٢] ، وتحامل الأسنان بعضها على بعض ، ويُعبَّر به عن الندم المفرط[٣] ، والحسرة التي تأكل صاحبها ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ﴾[٤]. والأنامل : جمع أَنْمُلَة ؛ وهي : رؤوس الأصابع، واشتقاقها من النَّمل المعروف ، فقد شُبِّهت رؤوس الأصابع به ، لدقّتها وسرعة تصرّفها ولطف حركتها[٥] . وقوله [عليكم] أي لأجل غمّهم منكم ومن دينكم[٦] .

ومن في قوله [من الغيظ] قد تكون لابتداء الغاية ، أي أن فعل العض منهم يبتدىء من فورة غيظهم وغضبهم . وقد تكون بمعنى اللام ، فيكون الغيظ علّة للعض[٧].

---

(١) انظر : التفسير الكبير : ٢٠١/٨ .
(٢) انظر : التحرير : ٦٦٦/٤ .
(٣) انظر : الدرّ المصون : ٣٧٠/٣ .
(٤) الفرقان : ٢٧ .
(٥) انظر : الدرّ المصون : ٣٧١/٣ .
(٦) انظر : الفتوحات الإلهية : ٣٠٨/١ .
(٧) انظر : الفتوحات الإلهية : ٣٠٨/١ .

والغيظ في الأصل أشدّ الغضب وهو : الحرارة التي يجدها الإنسان من فوران دم قلبه [١] .

وقد أفادت تلك الكناية المصوّرة عظم ماوقع بهم من الغيظ الشديد ، والحسرة البالغة ، وذلك كلّه بسبب مارأوا من ائتلاف المؤمنين ، واجتماع كلمتهم ، وصلاح ذات بينهم ، وتزايد ظهور دينهم [٢] . وهذه من الفوائد التي جلبتها الكناية في نظم الاية .

وقوله [قل موتوا بغيظكم] فيها فصل عن الجملة السابقة لها ؛ لاختلافهما خبراً وإنشاء ، فإن الأولى خبرية ، وهذه إنشائية مصدّرة بالأمر .

والأمر في [قل] قد يكون موجّهاً إلى النبي عليه الصلاة والسلام بأن يقول ماذكر بلسانه أو يحدّث نفسه بهذا القول الذي يفيد مقتضاه دوام إذلالهم ، وأن شأن الإسلام وأهله في علوّ واعتلاء [٣] . وفي هذا سوق عاجل البشرى للنبي صلى الله عليه وسلم بانهزام الكافرين وظهور شأن المسلمين .

وقد يكون الأمر موجّهاً إلى كل مؤمن ، ومقتضاه تحريضه على عداوتهم ، وحثّه على خطابهم إما بلسان المقال أو بلسان الحال بالخطاب المذكور ، وهو أدعى لبغضهم وترك محبتهم [٤] .

وفي قوله [موتوا بغيظكم] كناية ، عن ملازمة الغيظ لهم طوال حياتهم ، فيبقون في حسرة وندامة وتغيّظ . وينبني على ذلك كناية أخرى وهي دوام سبب غيظهم وتناميه ، وهو حسن حال المسلمين ، وانتظام أمرهم ، وازدياد خيرهم ، وموتهم كمداً به [٥] .

ففي العبارة المتقدمة كناية أثمرت كناية أخرى على ماسبق بيانه .

وقد يقال : كيف لم يموتوا والله تعالى إذا قال لشيء : كن فإنه يكون ؟ ! .

---

(١) انظر : المفردات : ٣٦٨ .

(٢) انظر : التفسير الكبير : ٢٠١/٨ .

(٣) انظر : روح المعاني : ٤٠/٤ .

(٤) انظر : روح المعاني : ٤٠/٤ .

(٥) انظر : حاشية الشهاب : ٥٩/٣ ، والتحرير : ٦٧/٤ .

ومن أجاب عن ذلك القرطبي ؛ حيث ذكر له جوابين : " **أحدهما** : - قال فيه الطبري وكثير من المفسّرين : هو دعاء عليهم ؛ أي : قل يامحمد أدام الله غيظكم إلى أن تموتوا ۰۰ ۰

الثاني : - أن المعنى أخبرهم أنهم لايدركون مايؤملون ؛ فإن الموت دون ذلك ؛ فعلى هذا المعنى زال الدعاء وبقي التقريع والإغاظة " (١)۰ وقال الرازي : " إنه دعاء بازدياد مايوجب هذا الغيظ وهو قوة الإسلام ؛ فسقط السؤال ۰۰ " (٢)۰ ومما يجاب عن ذلك أن ألفاظ تلك العبارة غير مراد بها حقائقها ، وإنما المراد بها لازمها ، وهذا هو سبيل الكناية ، وهو الذي أورده الرازي ۰ وقد مات من لم يسلم منهم بغيظه موتاً بطيئاً ، موتة مريض بعلّته ؛ فلله الحمد على نعمته ۰

وفي الكناية المذكورة أمر خرج عن معناه الحقيقي إلي معنى الدعاء عليهم بديمومة غيظهم (٣)۰ وهذا معنى ما أورده القرطبي عن الطبري وغيره آنفا ۰

والباء في [بغيظكم] سببية ؛ فيكون الغيظ سبباً للموت الكنائي ۰

وقد ختمت الآية بقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴾ ، وفيه لطائف بلاغية : -

١ - فصلها عما قبلها وقع لاختلاف الجملتين في الخبرية والإنشائية ، فبينهما غاية الانقطاع ۰

٢ - تصدير ذلك القول بحرف التوكيد مشعر بأن المخاطبين قد نزّلوا منزلة من يحتاج إلى التوكيد لتقرير المعنى في نفوسهم مردفاً بدليله العملي ، وهو إظهار صورة ندم الكفار وحقيقة أمرهم للمؤمنين ؛ وعلى ذلك فعلم الله محيط بالصغائر والكبائر ومافوقهما ومادونهما ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَايَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ** ﴾(٤)۰

٣ - هل جملة الفاصلة المتقدمة داخلة تحت مقول القول المتقدم ؟ ۰

يجيب الزمخشري عن ذلك قائلاً : " وهو كلام داخل في جملة المقول أو خارج

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٤/١٨٢ - ١٨٣ ۰
(٢) التفسير الكبير : ٨/٢٠١ ۰
(٣) انظر : إعراب القرآن وبيانه : ٢/٤٢ ۰
(٤) آل عمران : ٥ ۰

منها . فإن قلت : فكيف معناه على الوجهين ؟ قلت : إذا كان داخلاً في جملة المقول فمعناه : أخبرهم بما يُسرّونه من عضهم الأنامل غيظاً إذا خلوا ، وقل لهم : إن الله عليم بما هو أخفى مما تسرونه بينكم وهو مضمرات الصدور ، فلا تظنوا أنّ شيئاً من أسراركم يخفى عليه . وإذا كان خارجاً فمعناه : قل لهم ذلك يامحمد ولاتتعجب من إطلاعي إياك على مايسرّون ؛ فإني أعلم ماهو أخفى من ذلك وهو ما أضمروه في صدورهم ولم يظهروه بألسنتهم " (١) .

٤ - اصطفاء لفظ الجلالة وإسناد العلم إليه في هذا المقام فيه لطيفتان : -

أولهما : في شأن المؤمنين ، وهي تربية المهابة في قلوبهم ، وإشعارهم بأن الله يدافع عنهم عدوّهم في كل حين بكشف أسراره وهتك أستاره ، وفي ذلك تقوية لإيمانهم ، وزيادة إقبال على دينهم نشراً له ، وإعلاء لشأنه تعبّداً له عز وجل ورِقّا . كما أن في هذا الجوّ تعريضاً بمن زاغ عن الهدى من المسلمين بأن الله عز وجل له بالمرصاد ، فيفضحه على رؤوس الأشهاد في الدنيا وفي صعيد الآخرة .

وثانيتهما : إيقاع الرعب في قلوب الكافرين وقذف الخشية في نفوس المنافقين ؛ فإن كل مايفتلون وماينقضون مما يمسّ المؤمنين فهو في علم الله تعالى ، بدليل ماأظهر من أسرارهم ، وبذلك تزداد نفوسهم اضطراباً ، وتنخلع قلوبهم فزعاً ، فيمسون على هذه الأحوال ويصبحون ، يحسبون كل صيحة عليهم .

٥ - تعليق العلم بذات الصدور ، وهي من أخفى الأمور وأسترها دليل على أن علمه تعالى بغيرها مما هو أظهر منها واقع بالضرورة ؛ فإن من يعلم البواطن فعلمه بالظواهر أحرى وأولى ، وقد نطق بذلك نصوص كريمة منها : ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَايَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَايَخْرُجُ مِنْهَا وَمَايَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَايَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَاكُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾(٢) .

---

(١) الكشاف : ١/١٩٦ .
(٢) الحديد : ٤ .

٦ - أصل كلمة [ذات] مؤنث [ذي] بمعنى صاحب ؛ فأصله هنا : عليم بالمضمرات ذوات الصدور ، ثم حذف الموصوف ، وغلبت إقامة الصفة مقامه ، والمراد بذات الصدور الخواطر القائمة بالقلب والدواعي والصوارف الموجودة فيه ، وهي لكونها حالّة في القلب منتسبة إليه عبّر عنها بذلك ، والمعنى : أن الله تعالى عالم بكل مايحصل في قلوبكم وقلوب أعدائكم من الخواطر والبواعث وأحاديث النفس ومافي معناها ؛ فتكون هذه الفاصلة تذييلاً للآية وتقريراً لمضمونها ، سواء مايخص المؤمنين من جهة محبتهم بعض الكافرين ، أم مايتعلق بالكافرين من كشف أسرارهم ، وتصوير خوافيهم في جلاء وظهور ، وبذلك تظهر مناسبة فاصلة الآية لمعناها .

ومن الكنايات اللطيفة ماجاء في قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[١].

فقد صدّرت هذه الآية الكريمة بنداء وجّه إلى أهل الإيمان ، ثم تلاه أمر ربّاني بتذكّر نعم الله التي لاتحصى على المؤمنين ، ومن أعظمها بعثة المصطفى عليه الصلاة والسلام بهذا الدين الذي كاد قوم من الكفار أن يبطشوا به وبمن معه لولا لطف الله ورحمته .

ولقد اختلف المفسّرون كثيراً في سبب نزول هذه الآية ولا أعلم أحداً جزم بسبب معيّن لها ، وإنما تعدّدت أقوالهم فيها ، فقد يكون سبب نزولها أحدها ، وقد يكون سببه مجموعها ؛ فإنّه يجوز أن يكون سبب النزول متعدّداً كما أشار إلى ذلك الشهاب الخفاجي[٢] .

وسأكتفي بذكر تلخيص انتهى إليه أبو حيان في سبب نزولها ثم علّق عليه ، فقد قال : "وملخص ماذكروه أن قريشاً أو بني النضير أو قريظة أو غَوْرثاً[٣] همّوا بالقتل ،

---

(١) المائدة : ١١ .

(٢) انظر : حاشية الشهاب : ٣/٢٢٣ .

(٣) هو غَوْرَث بن الحارث من بني غطفان ومحارب ، وهو الأعرابي الذي هَمّ بقتل النبي عليه الصلاة والسلام بسيفه ، ولكن الله حبسه عنه في إحدى الروايات الواردة في هذه الحادثة ؛ انظر : أسباب النزول للواحدي : ٢٢٣ .

بالرسول أو المشركين همّوا بالقتل بالمسلمين ، أو نزلت في معنى [اليوم يئس الذين كفروا من دينكم ٠٠] قاله الزجاج ، أو عقيب الخندق حين هزم الله الأحزاب وكفى الله المؤمنين القتال ، والذي تقتضيه الآية أن الله تعالى ذكّر المؤمنين بنعمه ؛ إذ أراد قوم من الكفار لم يعينهم الله بل أبهمهم أن ينالوا المسلمين بشرّ ؛ فمنعهم الله ، ثم أمرهم بالتقوى والتوكّل عليه " (١) .

وقال الشيخ عبدالرحمن السعدي عن المراد في الآية : " وهذا يشمل كلّ مَنْ هَمَّ بالمؤمنين بشرّ من كافر ومنافق وباغ كفّ الله شرّه عن المسلمين ؛ فإنّه داخل في هذه الآية "(٢) . فالعبرة بعموم منطوقها لابخصوص نزولها ، فهي فيمن نزلت فيه في ذلك الزمان ، وينسحب معناها على المؤمنين في سائر الأزمان حتى يأذن الله بزوال الدنيا ومن عليها .

وقوله [نعمةَ الله] هو المحور الذي دارت عليه الآية في البيان ؛ وقد جاءت النعمة مفردة غير مجموعة ومُبَيَّنة - فيما بعد - غير مبهمة ؛ لتفخيمها في نفوس المؤمنين ، ولتعظيم شأنها ، ونِعَم الله كثيرة لاتحصى ولهذا قال تعالى : ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ** ﴾(٣) .

ولكن النعمة أفردت في الآية ولم تجمع أو توصف بالكثرة ونحوها ؛ وكأنّها من فخامتها ، وعظم أمرها تقاصرت سائر النعم أمامها ، وصارت دونها ، ولم تصل إلى درجتها ؛ فاستحقت الإفراد بالذكر دون منازع ، وكأنّما هي أمّ النعم التي بقيتها تتبعها أو تتولّد منها ، وهي جديرة بذلك ؛ فإن الهمّ بقتل النبي عليه الصلاة والسلام - قبل أن يتم الله الدين - هو ومن معه من المؤمنين مُفْضٍ إلى وأْد نعمة الإسلام قبل تمامها ، والقضاء على شجرة الإيمان قبل بسوقها . ولكن الله عز وجل أبى إلاّ أن يتم نوره ويظهر دينه على الدين كله ولو كره الكافرون ؛ ﴿ **يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ﴾(٤) . ذلك أن الله عز وجل

(١) البحر المحيط : ٤٤٢/٣ ، وانظر تفاصيل أسباب نزول الآية في : جامع البيان :١٤٤/٤-١٤٧، وأسباب النزول للواحد ٢٢٤-٢٢٥ ، وروح المعاني : ٨٤/٦-٨٥ ، ومحاسن التأويل : ١٩٠٢-١٩٠٤ وغيرها .
(٢) تفسير كلام المنان : ٢٦١/٢ .
(٣) إبراهيم : ٣٤ .
(٤) الصف : ٨ .

أرسل رسوله لغاية محدّدة ؛ فعصمه من الناس ودفع عنه كل مكروه ، وكان فضل الله عليه عظيما ؛ قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾[١].

والذي أكسب تلك النعمة تعريفاً وتفخيماً وتعظيماً هو إضافتها إلى لفظ الجلالة ، الذي توجل بذكره قلوب المؤمنين وحدهم دون غيرهم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[٢].

وقوله [عليكم] جار ومجرور ، متعلّق بـ [نعمة الله] ، وهو خطاب وقع بعد الخطاب بـ [اذكروا] ، وكأنما هو تذكير آخر لهم ، ملحّ عليهم باستشعار فضل الله بذلك ، ليقوموا بواجب شكر هذه النعمة العظيمة ، ونسبتها إلى المتفضل بها سبحانه وتعالى . ومن فوائد وقوع الجار والمجرور المذكور بعد النعمة التي تعلّق بها إشعار المخاطبين بأن تلك النعمة قد وقعت لهم ومن أجلهم ، إيماءً بمكانتهم عند المتفضل بها ؛ فعليهم أن يحفظوا حقّ الله فيها ، وليَحْذَروا من نسيانها أو عدم شكرها فيكون في هذا التعبير تعريض بهم على الوجه المذكور .

وقوله [إذ هَمَّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم] فيه لطائف بلاغية : -

١ - [إذ] ظرف للنعمة متعلّق بها[٣] ؛ مفيد أنّ تلك النعمة العظيمة وقعت وقت هَمّ القوم المذكورين ببسط أيديهم للنيل من الرسول والمؤمنين .. ؛ ولما كان ذلك الظرف متعلّقاً بالنعمة صار بينهما غاية الاتصال ؛ ولهذا وقع الفصل بينهما بترك العاطف ؛ فبينهما ماهو أقوى من حرف العطف .

٢ - الهَمّ في اللغة هو النية والإرادة والعزم على فعل الشيء ويكون ذلك في النفس أوّلاً[٤] ، فإذا خرج منها إلى حيّز عملي سُمّي باسم مايؤول إليه ؛ فإن كان قتلاً ، فهو قتل ، أو كان ضرباً فهو ضرب .. وهكذا . ولما كان أمر أولئك القوم كامناً في نفوسهم ولم يخرج إلى واقع عملي سمي هَمّاً .

---

(١) الصف : ٩ .
(٢) الأنفال : ٢ .
(٣) انظر : روح المعاني : ٨٤/٦ .
(٤) انظر : اللسان : مادة : همم .

٣ - في تنكير المسند إليه [قومٌ] غرض بلاغي يقتضيه السياق ؛ فقد يكون غرض التنكير هو التكثير ؛ فهو جنس دخل فيه أقوام سواء كانوا أفراداً أم جماعات ، ويستوي في ذلك أن يكونوا من المشركين في مكة أم من منافقي المدينة أم من حقدة اليهود أم من جهلة الأعراب ؛ فكل أولئك وقع منهم جنس من الهَمّ المذكور يتفاوت من طائفة إلى أخرى ؛ ونظراً لتشابهه وكثرته فقد رُمز له بتلك النكرة التي جمعت أصله وضمّت أعداده . وهذا على كون سبب النزول متعدّدا .

وأمّا على كون سبب النزول محدّداً ؛ فإن الغرض الظاهر من تنكير [قوم] هو التهويل ؛ بحيث إنّه لو وقع بكم ماهمّوا به فإن نتيجته متناهية في الفظاعة والعظم ، ولكنّ الله تعالى بلطفه ورحمته سلَّم .

٤ - [أنْ] المصدرية ومادخلت عليه في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض ، وهو معمول الهمّ ؛ والتقدير : إذ هم قوم بسطَ .. ؛ وعلى ذلك ففعل الهم مسلَّط على البسط ، وهو نتيجته ، والبسط : يطلق على الصّولة والضرب[(١)] ؛ يقال : بسط إليه لسانه إذا شتمه ، وبسط إليه يده إذا بطش به[(٢)] ، ومعنى بسط اليد : مدّها إلى المبطوش به لتحقيق غاية البسط وهو الفتك والبطش . وهذا هو غاية همّ أولئك ونهايته ، فصوّر الله عز وجل غرض همّهم - قبل أن يقع منهم - بهذه الصورة ، وقد كان - وقتها - في نفوسهم ، ولم يظهر بَعْدُ ؛ ولكنّ الذي يعلم السرّ وأخفى كشف أمره ، وكفّ شرّه رحمة بالمؤمنين ، وتتميماً لهذا الدين ؛ وهذا أثر من آثار قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾[(٣)] .

ولقد جمع أصحاب الهمّ المذكور بين الكفر والخيانة في حقّ المؤمنين ؛ ولذلك وقع وعد الله المؤكدُ بالجملة الاسمية وبحرف التوكيد في آية الحج المذكورة آنفاً - فَدَفَع الله الكفار الخائنين ، وكفّ أيديهم عن المؤمنين ، وردّهم على أعقابهم خائبين ؛ وفي ذلك آية للمتوسّمين .

---

(١) انظر : المفردات : ٤٦ .
(٢) انظر : التفسير الكبير : ١١/١٨٣ .
(٣) الحج : ٣٨ .

٥ - الأصل في التعبير أن يلي المفعول فعله مباشرة ؛ ولكن الملحوظ في التعبير الكريم هو تأخير المفعول عن فعله وتقديم الجار والمجرور عليه في قوله [٠٠ أن يبسطوا إليكم أيديهم] ؛ ولعل من الأسرار البلاغية لهذا التقديم والتأخير الاعتناء بالمخاطبين والمسارعة إلى مكاشفتهم ؛ ببيان ضرر البسط بأنّه كان متجهاً إليهم واقعاً عليهم ؛ حَملاً لهم من أول الأمر على الاعتداد بهذه النعمة العظيمة المتمثلة ؛ في كفّ ذلك الشرّ وإزالة هذا الخطر (١) .

٦ - التصوير البياني من خلال الأسلوب الكنائي في قوله [همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم] ؛ وذلك كناية عن إرادة البطش والفتك بالمؤمنين ؛ وهي كناية عن صفة ؛ لأن الموصوف قد ذكر ونسبت إليه صفة لم تُرَد هي بعينها وإنما أريد لازمها ؛ ذلك أن البسط في الأصل هو مطلق المدّ ؛ فإذا استعمل في اليد كان كناية عن البطش (٢) ، وقد جاء فعل البسط واقعاً على اليد ومراداً به القتل على وجه التصريح به في قصة قتل قابيل لهابيل ، حيث قال سبحانه : ﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣) .

وقوله تعالى : [فكفّ أيديهم عنكم] فيه لطائف بلاغية : -

١ - مضمون هذه الجملة هو النعمة التي أديرت الآية على إبرازها ، وإنّما أخر ذكرها لمقام الظرف المتقدم [إذ] ، وهو ظرف زماني يحكي الخطر الداهم على المؤمنين بتسلسل زمني ؛ فاقتضى ذلك إيقاع الكف بعد الهموم بالبطش ؛ وبه تظهر المنّة ، وتتجلّى النعمة ، فجاء على نسق الآية في نظمها ؛ فأتى على المعنى دلالة وترتيبا .

٢ - الفاء تفيد العطف ، فقد عطفت جملة الكَفّ على جملة الهَمّ ؛ والعطف بالفاء مفيد التعقيب والفوريّة ؛ فقضت بأنّ كَفّ الشرّ قد وقع في وقته وفور الحاجة إليه ؛ فعندما همّت نفوسهم بالشر حتى كادوا أن يفعلوه منعهم العزيز الجبار وفَتّ في عضدهم حتى رجعوا في حسرة وندامة .

---

(١) انظر : تفسير أبي السعود : ١٢/٣ .
(٢) انظر : روح المعاني : ٨٤/٦ .
(٣) المائدة : ٢٨ .

٣ - في هذه الجملة المتقدمة وَلِيَ المفعول فعلَه مباشرة ولم يتقدم الجار والمجرور عليه ؛ لأن مقتضى الحال يستدعيه ؛ فالمقام مقام بطش ، وأدوات البطش هي الأيدي فأوقع فعل الكفّ عليها مباشرة من غير فاصل ، وذلك معاجلة في دفع الشّر وحسم مادته ، وأخر الجار والمجرور ؛ وذلك بعدما أزيل المفعول والخطر ، ليفيد أن فعل الكف وماوقع عليه إنما هو دفع عنكم ومن أجلكم ، وهو أدعى لاستحضار مغزى هذه النعمة ، وأنها كرامة للمؤمنين وتفضل عليهم من رب العالمين .

٤ - في إظهار الأيدي في مقام يسوغ إضمارها فيه لتقدم ذكرها في الآية نفسها - زيادة في التقرير؛ وفيه إشعار بأن قوّتهم الغضبية قد انتقلت من أنفسهم وتركّزت في أيديهم حتى كانوا يسطون بالذين آمنوا ؛ فمنع تلك الأيدي - التي بدت فيها بوادر الشر - من أن تمتد إليكم بسوء ، وليس المراد أنه كفّها عنكم بعدما مدّوها إليكم ، وفيه من الدلالة على كمال النعمة من حيث إنها لم تكن مشوبة بضرر الخوف والانزعاج الذي قلّما يعرى عن الكف بعد المدّ مالايخفى [١].

٥ - في الجملة المتقدمة كناية عن صفة ، وهي منع الأعداء من البطش بالمؤمنين ، وهي تصوّر حال فريقين ؛ فريق يُعدّ العدّة ويشحذ الهمّة ويبري سهامه من أجل البطش بفريق غافل عن الشر بعيد عن مقاصد الردى ، مقبل على ربّه ، منصرف عن التفكير في الأذى ؛ فلمّا همّ أولئك بهؤلاء وقعت المعجزة الربّانية فكفّ الله بأسهم عن أوليائه ، وردّ الله كيدهم في سويداء قلوبهم .

ثم جاء الأمر بتقوى الله في قوله [واتقوا الله] بعد إجلاء مظاهر هذه النعمة العظيمة - لينبّه المؤمنين إلى أنّ لزوم تقوى الله تعالى هو الدرع الواقي من كلّ أذى صغيراً كان أم كبيرا ، بدليل ماكف الله عنكم من الشر الواقع بكم أصلا، وفيه تعريض بهم بأن من لايتقي الله فإنه حري بأن يناله من صنوف الأذى ما الله به عليم . وقد أعذر من أنذر . وفيه من الدلالة على عظم شأن التقوى عند الله تعالى مايجعلها وراء دفع النّقم وجلب النّعم بإذن الله عز وجل .

---

(١) انظر : تفسير أبي السعود : ٣/١٢ .

وقوله [وعلى الله فليتوكل المؤمنون] فيه لطائف بلاغية : -

١ - الواو للاستئناف[١] ؛ مفيدة استئناف أمر جديد بعد الأمر بتقوى الله ، وهذا مشعر بأن التوكُّل على الله تعالى أخص من التقوى ، فهو من التقوى ، لأن التقوى عامة يدخل فيها العمل بالأوامر الشرعية وتوقّي الوقوع في النواهي والمعاصي . والتوكل : الاعتماد التام على الله عز وجل وتفويض الأمر إليه[٢] ، وفعل ذلك من التقوى ، فهو مندرج فيها ولكنه خصّ استقلالاً بالذكر بعدها لعظم شأنه ، وبخاصة في مقامات الحروب ومنازلة الأعداء .

٢ - في تقديم معمول الفعل عليه قصر للفعل على معموله ، مفيد قصر فعل التوكل على الله تعالى وحده ، وأنّه هو المختص بذلك دون سواه ؛ فحصل في الكلام ثلاثة أمور : -

أولها : - الأمر بالتوكل وطلب فعله من المؤمنين .

وثانيها : - قصر فعل التوكل المأمور به على الله تعالى وحده لاشريك له .

وثالثها : - نفيه عما سواه استقلالاً أو اشتراكا[٣] .

٣ - في إظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار تعليل للأمر ، وتقوية لاستقلال الجملة التذييلية المقررة لمضمون ماقبلها[٤] ، كما أن في ذلك تربية للمهابة في قلوب المؤمنين ؛ مما يزيدها إيماناً وخشوعا .

٤ - اللام الداخلة على الفعل للأمر أخرجت الفعل في صورة الأمر ؛ والتقدير : على الله توكّلوا . والآمر هو الله تعالى والمأمور بذلك المؤمنون ؛ فأفاد الأمر الوجوب ، ففعله والعمل بمقتضاه عبادة جليلة ، وتركه أو الإخلال به معصية مقيتة .

---

(١) انظر : إعراب القرآن وبيانه : ٤٢٦/٢ .

(٢) انظر : المفردات : ٥٣١ . وذلك كلّه مع وبعد فعل الأسباب ، وإلا كان ذلك التوكل عبثاً لمخالفته سُنّة الله في ترتيب المسبّبات على الأسباب . انظر : محاسن التأويل : ١٩٠٤ - ١٩١٥ .

(٣) انظر : روح المعاني : ٨٥/٦ .

(٤) انظر : تفسير أبي السعود : ١٤/٣ .

٥ - قال أبو السعود : " وإيثار صيغة أمر الغائب وإسنادها إلى المؤمنين لإيجاب التوكل على المخاطبين بالطريق البرهاني ، وللإيذان بأنّ ماوصفوا به عند الخطاب من وصف الإيمان داعٍ إلى ما أمروا به من التوكل والتقوى وازعٍ عن الإخلال بهما " [١].

٦ - في ذكر فاعل التوكل وهو المؤمنون بصيغة الاسم إشعار لهم بأن من شأنهم على الدوام أن يكونوا متوكلين على الله وحده ، لا أن يفعلوه تارة ويتركوه أخرى . وفي ذلك تعريض بمن لايداوم على التوكل أو يتركه بالكلّية ؛ فحريٌ عندئذٍ أن يسلب عنه وصف الإيمان .

٧ - في ختم الآية بالفاصلة [المؤمنون] ردّ للعجز على الصدر ، فقد خوطبوا بنداء الإيمان في صدر الآية [يا أيها الذين آمنوا ..] ثم رُدَّ عجز الآية على صدرها بذكر الإيمان نفسه من خلال الوصف بـ [المؤمنون] ، وفي ذلك إشعار للمخاطبين بأنّ مادار في الاية من ذكر تلك النعمة العظيمة وتفاصيل إيقاعها إنما حصل ذلك كلّه بسبب الإيمان الذي تلبس به المخاطبون ؛ فإذا رغبوا في استمرار أمثال هذه النعم فليداوموا عليه وليجعلوا مستندهم في جميع أمورهم إلى الذي دفع عنهم تلك الغَدْرة ، ومنحهم هذه النعمة [٢].

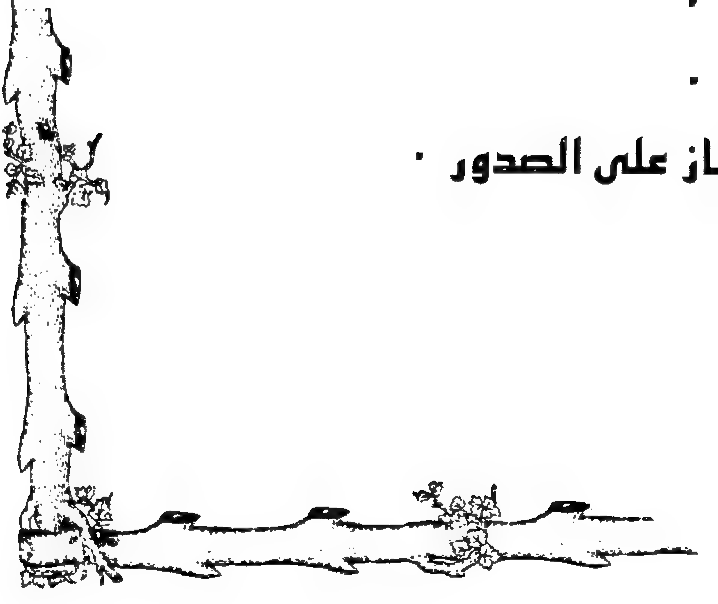
---

(١) تفسير أبي السعود : ٣/١٤ .

(٢) ولمزيد من التعرف على ماورد من الكنايات والتعريض في آيات الجهاد ، انظر : ٩٩ ، ١٠٩ ، ١١٦ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٧٦ ، ١٨٨ ، ٢٠٣ ، ٢٣٦ ، ٢٤٦ ، ٢٥١ ، ٢٧٤ ، ٣٢٧ ، ٣٣٤، ٣٣٦ ، ٣٦٧ ، ٣٩٣ ، ٥٢٠ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٣٢ ، ٥٣٥ ، ٥٣٧ ، ٥٦٦ ، ٥٧٤ ، ٥٨٦ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ .



الفصل الثاني
التصوير من خلال فنون البديع



- الطباق .
- المقابلة .
- الجناس .
- ردّ الأعجاز على الصدور .

التصوير من خلال فنون البديع

توطئـــــة :

البديع في الأصل اللغوي مصدر بدع الشيء يَبْدَعه بَدْعاً ، وابتدعه أنشأه وبدأه ... والبديع : المُحْدَث العجيب ، والبديع : المُبْدِع ، وأبدعتُ الشيء : اخترعته لاعلى مثال ، والبديع من أسماء الله تعالى لإبداعه الأشياء وإحداثه إيّاها ... ، وأبدع الشاعر : جاء بالبديع ، ورجل بِدْع وامرأة بِدْعة إذا كان غاية في كل شيء (١) .

والبديع عند المتأخرين من علماء البلاغة : " علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة "(٢) .

وتبدو المناسبة ظاهرة بين المعنى الاصطلاحي والمعنى اللغوي للبديع ؛ فإن ماكان جديداً أو مُحْدَثاً عجيباً من شأنه أن يكون ذا حسن وبهجة وطرافة وروعة (٣) . ومن هنا سمي البديع بديعاً ؛ لكونه باحثاً عن الأمور المستغربة (٤) .

والذي يتأمل تعريف الخطيب القزويني المتقدم للبديع يفهم منه أنه قد جعل فنون البديع تنحصر في تحسين الكلام وتزيينه ، وأن رتبتها التأخر عن المعاني والبيان ؛ فكأنما هي حلية لهما ليس إلاّ ، لاتستقل عنهما بالإبانة والتأثير ، بل هما شرط لحسنه .

ولهذا انتقد البهاء السبكي تعريف القزويني وعالجه قائلاً : " والحق الذي لاينازع فيه منصف أن البديع لايشترط فيه التطبيق ولاوضوح الدلالة ، وأن كل واحد من تطبيق الكلام على مقتضى الحال ومن الإيراد بطرق مختلفة ومن وجوه التحسين قد يوجد دون الآخَرَين ، وأدل برهان على ذلك أنك لاتجدهم في شيء من أمثلة البيان يتعرضون إلى بيان اشتمال شيء منها على التطبيق ، ولاتجدهم في شيء من أمثلة البديع يتعرضون لاشتماله على التطبيق والإيراد ، بل تجد كثيراً منها خالياً عن

(١) انظر : لسان العرب : مادة : بدع .
(٢) الإيضاح : ١٩٢ .
(٣) انظر : الصبغ البديعي : ١٤ .
(٤) حاشية السيد الشريف على المطوّل : ٤١٧ .

التشبيه والاستعارة والكناية التي هي طرق علم البيان ، هذا هو الإنصاف وإن كان مخالفاً لكلام الأكثرين "[1].

وهذه الوقفة من السبكي وقفة حقّ ، وتعليله المذكور تعليل مقنع ، ولقد كان عبدالقاهر الجرجاني سديد الرأي عندما جعل الأمر في ذلك راجعاً إلى المعنى الذي يريده المتكلم ، فإذا اقتضى مقام المعنى تجنيساً أو سجعاً أو غيرهما مما هو من شأن البديع فإن البلاغة كامنة فيه ، وليس شيء أوقع منه ، مادام يجري في بيان المتكلم طبعاً من غير تعسّف ولاتكلّف ؛ تأمّل مقالة عبدالقاهر : " وعلى الجملة فإنك لاتجد تجنيساً مقبولاً ، ولاسجعاً حسناً حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه ، وساق نحوه ، وحتى تجده لاتبتغي به بدلاً ، ولاتجد عنه حوِلا ؛ ومن ههنا كان أَحْلى تجنيس تسمعه وأعلاه ، وأحقّه بالحسن وأولاه ماوقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه ، وتأهّب لطلبه ، أو ماهو – لحسن ملاءمته وإن كان مطلوباً – بهذه المنزلة ، وفي هذه الصورة ، وذلك كما يمثّلون به أبداً من قول الشافعي – رحمه الله تعالى – وقد سئل عن النبيذ ؛ فقال : " أجمع أهل الحرمين على تحريمه " . . "[2].

وتجد عبدالقاهر يلحّ على المعنى ، ويجعل مدار البلاغة على كون المعاني هي التي تجتلب الألفاظ المعبرة عنها المبرزة لها ، فقد أكّد ذلك في موضع آخر ، فقال : " فقد تبيّن من هذه الجملة أن المعنى المُقْتَضِي اختصاص هذا النَّحو بالقبول ؛ هو أن المتكلّم لم يَقُدِ المعنى نحوَ التجنيس والسَّجع ، بل قاده المعنى إليهما وعثر به عليهما ، حتى إنه لو رَامَ تركهما إلى خلافهما مما لاتجنيس فيه ولاسجع لدخل من عقوق المعنى وإدخال الوحشة عليه ، في شَبيهٍ بما ينسب إليه المتكلّف للتجنيس المتسكْرَه ، والسجع النَّافر ، ولن تجد أيمن طائراً ، وأحسن أوّلاً وآخرا ، وأهْدى إلى الإحسان ، وأجْلب للاستحسان من أن تُرْسِلَ المعاني على سجيَّتها ، وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ ؛ فإنها إذا تُركت وماتريد لم تكتسِ إلا مايليق بها ، ولم تَلْبَس من المعارض إلاّ مايَزِينها ، فأمّا أن تضع في نفسك أنه لابُدّ من أن تُجَنّسَ أو تَسْجع بلفظين مخصوصين ، فهو الذي أنت منه بعَرَض الاستكراه ، وعلى خطر من الخطأ والوقوع

---

(١) شروح التلخيص : ٤/٢٨٤ .
(٢) أسرار البلاغة : ١١ .

في الذم .. "(١).

فمردّ استحسان وقوع البديع أو غيره من فنون البلاغة إنما هو إلى مقامات المعاني القائمة على مقتضيات الأحوال ، فكما أن المقام هو الذي يقتضي تقديماً أو تأخيراً أو تعريفاً أو تنكيراً ، أو استعارة أو تشبيها ، أو كناية أو تعريضاً ؛ فكذا المقام هو الذي يقتضي سجعاً أو تجنيساً ، أو مطابقة أو مزاوجة ، فكلٌ في مقام حاله أوقع ، وفي الدلالة على المراد منه أبلغ .

ولقد انتهى إلى هذه النتيجة الدكتور أحمد موسى في بحثه الذي أداره على أصباغ البديع ؛ فبعد أن أطال النظر ، وناقش وقوّم ؛ قال : " والذي أراه لايعدوه إيماني ، ولايزايله يقيني - وقد شجّعني على المضي فيه أساتذتي الذين أفخر بالتتلمذ عليهم - أنّ أصباغ البديع التي تجري على نمط ما اختاره الخطيب في القبول والصفاء ... من البلاغة في أكرم موضع ، وأعزّ مكان ، وسواء لدينا بعد ذلك جعلها علماً مستقلاً ، أو تابعة لأحد العلمين ، أو موزعة بينهما ... فإذا اقتضى الحال طباقاً أو تقسيما أو مزاوجة أو غير ذلك كان الكلام المشتمل عليها مطابقاً لمقتضى الحال ، وخلوّه منها غير مطابق ؛ فيكون في الأوّل بليغاً ، وفي الثاني على خلافه .. "(٢).

وعلى ذلك فأفنان البديع إذا وردت في الكلام واقتضاها المقام فهي من البلاغة في الذروة من السّنام ؛ وذلك لحسن وَقْع ألفاظها ، وجودة إفهامها ، وبراعة تصويرها ، ولأنها تمتلك على المتلقّي ذهنه ، وتمكّن المعنى في فهمه ، بحيث إنك لاتجد غيرها في مقامها يسدّ مسدّها ، ولايعطي في الأفْهام عطاءها ؛ وأصدق دليل على ذلك مافي كتاب الله تعالى من فنونها ، وماجرى على لسان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من ألوانها ، وقد كثر في الأشعار طَيِّفها ، واشتهر في الأمثال جَرْيها .

والقرآن الكريم كما وقع الإعجاز في معانيه ، وصور البيان الظاهرة فيه ، وقع كذلك الإعجاز في وجوه البديع فكانت إشراقاً على إشراق(٣) . وهذا ما سأبين شيئاً منه فيما يتيسر من خلال الفنون البديعية الآتية : -

---

(١) أسرار البلاغة : ١٤ .

(٢) الصبغ البديعي : ٥٠٧ .

(٣) انظر : فكرة النظم بين وجوه الإعجاز : ١٢٦ . وانظر : من بلاغة القرآن : ١٨١ - ١٨٦ .

الطبـــاق :

ويسمى أيضاً المطابقة أو التضاد ؛ وهو أن يجمع في الكلام بين المعنى الواحد وضده أو مقابله ، ظاهراً كان هذا الجمع أو خفياً ، إيجاباً أو سلبا [١] . ويمكن إيجاز تعريفه بأنه : " الإتيان بلفظين متضادّين ؛ فكأن المتكلم طابق الضّد بالضّد "[٢] . وقد عرفه الخطيب القزويني بقوله : " الجمع بين المتضادين أي معنيين متقابلين في الجملة "[٣] وهي تعريفات متقاربة مؤداها واحد .

وسرّ بلاغة الطباق تكمن في كونه يثير التداعي بين المعاني في الذهن ؛ فإن الضد أو المقابل يجلب إلى الذهن ضده أو مقابله[٤] ، وبذلك يقع الصفاء والوضوح في المعاني ، حيث تتحلى صورها بذكر نقائضها ، وخير مايميّز الأشياء ، ويظهر حسنها ذكر أضدادها في أعقابها ؛ من ذلك ماتجده في قوله عز وجل يخاطب المؤمنين بُعَيد غزوة بدر ، يذكرهم بما وقع لهم وبعجيب أحوالهم ﴿ **إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾[٥] .

هذه الآية واردة في سياق التذكير بنعمة الله تعالى على المؤمنين ، حيث نصرهم على الكافرين ، مع قلّة عددهم البشري ، وعدم ملاءمة موقعهم العسكري ، إلاّ أن أمر الله عز وجل ينقاد له كلّ شيء ، وهذا ماجاء بيانه في الآية الكريمة .

ولما كان ذلك النصر الباهر قد وقعت أحداثه في زمان ومكان عجيبيَن – ناسب أن تُفتتح الآية بظرف الزمان ، من أجل استحضار ماوقع فيه من مظاهر الرحمة بالمؤمنين ، وقلب الوضع على الكافرين ؛ فكان تصدير الآية بالظرف الزماني [إذ أنتم ..] وإضافته إلى ضمير المُمْتَن عليهم وهم المؤمنون ؛ من أجل تذكيرهم بعجائب

---

(١) انظر : البلاغة الاصطلاحية : ٣٠٨ .
(٢) شرح الكافية البديعية : ٧٢ . لصفي الدين الحلّي .
(٣) الإيضاح : ١٩٢ .
(٤) البلاغة الاصطلاحية : ٣١٩ ، وروح البلاغة البديع : ٤١ . د. فتحي فريد .
(٥) الأنفال : ٤٢ .

فضل الله عليهم في ذلك الوقت ؛ يقول ابن عاشور :" [إذ] بدل من [يوم التقى الجمعان][(١)] فهو ظرف لـ [أنزلنا] أي : زمن أنتم بالعدوة الدنيا ، وقد أريد من هذا الظرف وماأضيف إليه تذكيرهم بحالة حرجة كان المسلمون فيها ، وتنبيههم للطف عظيم حفّهم من الله تعالى ، وهي حالة موقع جيش المسلمين من جيش المشركين ، وكيف التقى الجيشان في مكان واحد من غير ميعاد ، ووجد المسلمون أنفسهم أمام عدوّ قوي العدّة والعُدَّة والمكانة من حسن الموقع ، ولولا هذا المقصد من وصف هذه الهيئة لما كان من داع لهذا الإطناب ؛ إذ ليس من أغراض القرآن وصف المنازل إذا لم تكن فيه عبرة "[(٢)].

والعدوة : بتثليث العين بالحركات الثلاث ، وهي ضفّة الوادي وشاطئه ، وحرفه الذي يتعذّر المشي فيه ، وسميت بذلك ، لكونها قد عدت مافي الوادي من ماء أن يتجاوز الوادي ، أي منعته ، ولأنها ماعدا الوادي أي : جاوزه [(٣)].

وحرف الجر الباء بمعنى " في " في قوله [بالعدوة الدنيا] [(٤)] ؛ والمقصود بدنوّها قربها إلى جهة المدينة ، ووصف العدوة الأخرى بـ [القصوى] مراد به بعدها عن المدينة إلى جهة مكة[(٥)] .

وبين اللفظين [الدنيا ، والقصوى] طباق ؛ فكل منهما مضاد للآخر ، والفائدة من نعت العدوة بهذين اللفظين المُتَضَادّين كشف عنها ابن عاشور ؛ فقال : " والوصف بالدنيا والقصوى يَشْعُر المخاطبون بفائدته ، وهي أن المسلمين كانوا حريصين أن يسبقوا المشركين إلى العدوة القصوى ؛ لأنها أصلب أرضاً ؛ فليس للوصف بالدنو والقصو أثر في تفضيل إحدى العدوتين على الأخرى ، ولكنّه صادف أن كانت القصوى أسعدَ بنزول الجيش ؛ فلما سبق جيش المشركين إليها اغتم المسلمون ؛ فلما

---

(١) في الآية السابقة وهي قوله تعالى : ﴿ **واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير** ﴾ .

(٢) التحرير والتنوير : ١٠/١٥-١٦ .

(٣) انظر : المحرّر الوجيز : ٨/٧٤ ، وروح المعاني : ١٠/٦ ، والتحرير والتنوير : ١٠/١٦ .

(٤) انظر : الفتوحات الإلهية : ٢/٢٤٥ .

(٥) انظر : فتح القدير : ٢/٣١١ .

نزل المسلمون بالعدوة الدنيا أرسل الله المطر ، وكان الوادي دَهْساً ؛ فلبدّ المطر الأرض ، ولم يعقهم عن المسير ، وأصاب الأرض التي بها قريش فعطّلهم عن الرحيل ؛ فلم يبلغوا بدراً إلاّ بعد أن وصل المسلمون وتخيّروا أحسن موقع وسبقوا إلى الماء فاتّخذوا حوضاً يكفيهم ، وغوّروا الماء ؛ فلمّا وصل المشركون إلى الماء وجدوه قد احتازه المسلمون ؛ فكان المسلمون يشربون ، ولايجد المشركون ماء "[١].

فالمخاطبون قد علموا من خلال المعركة طبيعة العُدْوَتين الدنيا منهما والقصوى ؛ فذكرهما بالتضاد يُصوِّر تلك الطبيعة ويجلّيها في أذهان العارفين بها ؛ فيكون ذلك أدعى لتصويرها بألفاظها ؛ وأوفى بالمعاني التي وردت الآية من أجلها ، فكان الطّباق بالتضاد مُسْهِماً في تصوير الموقف مع الوفاء بالمعنى والإيجاز في اللفظ ، ولو نُقّب عن لَفْظَين آخرين يقومان مقامهما في تحقيق ذلك الغرض البلاغي لما عُثر عليهما .

وقوله [والركب أسفل منكم] الجملة حالية من الظرف [بالعدوة القصوى] و [أسفلَ] منصوب على الظرفية أي : مكاناً أسفلَ من مكانكم [٢]، وأجيز رفع [أسفلُ] على الخبرية عن [الركب] بمعنى : أشدّ تسفّلاً منكم[٣] . والمقصود بالركب : عير التجارة القرشية التي يقودها أبو سفيان ، فهم في مطمن من جهة البحر بمحاذاة بدر على بعد ثلاثة أميال غربا[٤].

ولكن مافائدة ذلك التوقيت وتفصيل مراكز الفريقين وأن العير كانت أسفل من المؤمنين ؟ .

ممن أحسن الجواب عن ذلك - فيما أعلم - اثنان من المفسّرين ، أحدهما أبلغ عبارة وأوجز إشارة وهو الزمخشري [٥] ، وأما الثاني فهو ابن عاشور ، وقد أخذ عن الأوّل وزاد عليه تفصيلاً وتوضيحاً ؛ حيث قال : " والغرض من التقييد بهذا الوقت ، وبتلك الحالة : إحضارها في ذكرهم ؛ لأجل مايلزم ذلك من شكر نعمة الله ، ومن حسن الظّن بوعده ، والاعتماد عليه في أمورهم ؛ فإنّهم كانوا حينئذٍ في أشد مايكون

---

(١) التحرير والتنوير : ١٠/١٦ .
(٢) انظر : الكشاف : ٢/١٦٩ ، والفتوحات الإلهية : ٢/٢٤٥ .
(٣) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٨/٢١ .
(٤) انظر : حاشية الشيخ زادة : ٢/٣٠٩ .
(٥) انظر : الكشاف : ٢/١٦٩ .

فيــه جيش تجــاه عدوّه ؛ لأنهــم يعلمـون أن تلك الحالة كان ظاهرها مـلائماً للعدو ؛ إذ كان العدو في شوكة واكتمال عدّة ، وقد تمهّدت له أسباب الغلبة بحسن موقع جيشه ؛ إذ كان بالعدوة التي فيها الماء لسقياهم ، والتي أرضـها مـتوسّطة الصلابة . فـأمّا جيش المسلمين فقد وجدوا أنفسهم أمام العدو في عدوة تسوخ في أرضها الأرجل من لين رملها ، مع قلّة مائها ، وكانت العير قد فاتت المسلمين ، وحلّت وراء ظـهور جيش المشركين ؛ فكانت في مـأمن من أن ينالها المسلمون ، وكان المشركون واثقين بمكنة الذّب عن عيرهم ؛ فكانت ظاهرة هذه الحالة ظاهرةَ خيبة وخوف للمسلمين ، وظاهرةَ فوز وقـوة للمـشركين ؛ فكان من عجيب عناية الله بالمسلمين أن قلب تلك الحالة رأساً على عقب ؛ فأنزل من السمـاء مطراً تعبّدت به الأرض لجيش المسلمين ؛ فسـاروا فيـها غير مشفوق عليـهم ، وتطهّروا وسقَوا ، وصـارت به الأرض لجيش المشـركين وَحَلا يثقل فيـها السيـر ، وفاضت المياه عليهم ، وألقى الله في قلوبهم تـهوين أمر المسلمين ؛ فلم يأخذوا حذرهم ولا أعدّوا للـحرب عدّتـها ، وجعلوا مقـامـهم هنـالك مقـام لهو وطرب ؛ فـجعل الله ذلك سـبباً لنصر المسلمين عليهم ، ورأوا كيف أنجز الله لهم مـاوعدهم من النصر الذي لم يكونوا يتوقّعونه ؛ فـالذين خوطبوا بهذه الآية هم أعلم السـامعين بفائدة التوقيت الذي في قوله [إذ أنتم بالعدوة الدنيا] الآية ، ولذلك تعيّن على المفسّر وصف الحالة التي تـضمّنتها الآية ، ولولا ذلك لكان هذا التقييد بالوقت قليل الجدوى "[١].فتلك المعاني الكـثيرة الواردة في كلام ابن عاشـور المتقدم أفادتهـا ألفاظ الآية وإشـاراتها البليغة ، فكانت غاية في الإعجاز والإيجاز .

وقوله [ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد] جملة حـالية من [الجمعـان] ، وعـامل الحـال فعل [التقى] أي في حـال لقـاء على غير ميعـاد قد جاء ألزم مما لو كـان على ميعاد [٢].

والمراد بالجملة المتقدمة أنكم التقيتم بهم في غير ميعاد بينكم ، وهذا هو مقتضى الظاهر ، ولكن عدل عنه ، وخرج التعبير عن ذلك بلفظ الإرداف[٣] مخرج المثل ، وذلك ليكون أسير وأشهر ، وأخلد ذكرا [٤].

(١) التحرير والتنوير : ١٠/١٧-١٨ .
(٢) انظر : التحرير : ١٠/١٨ .
(٣) الإرداف هو أن يريد المتكلم معنى فلا يعبر عنه بلفظه الموضوع له بل يعبر عنه بلفظ هو رديفه وتابعه ، والفرق بينه وبين الكناية ، أن الإرداف هو تبديل الكلمة بردفها . والكناية العدول عن التصريح باسم الشيء إلى ذكر لازمه . انظر : خزانة الأدب : ٢/٣٠٩ .
(٤) انظر : إعراب القرآن وبيانه : ٤/٩ .

ويبدو في الجملة المتقدمة طباق ، وذلك في قوله [ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد] ؛ فإن مفاد التواعد ضرب الموعد ، ويقتضي الوفاء به ، ومفاد الاختلاف فيه يقتضي نقضه وعدم الوفاء به ، فبينهما طباق من هذا الوجه ، وطرافته تكمن في كون السامع ينتظر من التواعد الوفاء من الجانبين ، وإتمام مقتضيات الموعد من الحضور في وقته ، وينبني عليه مابعده .. ، ولكن أن يرد الخُلْف والتّخلف عن الوفاء بذلك الموعد ؛ فهو مثير للدهشة ، ينبّه العقل في سبيل البحث عن الحكمة في عدم الوفاء بالموعد والحضور في وقته . ولذلك اختلف المفسّرون في إرجاع ضمير [لاختلفتم في الميعاد] ؛ أهو عائد على المسلمين خاصة ؟ أم هو يعود إلى المسلمين والكافرين ؟ . بعد اتفاقهم على كون الضمير في [تواعدتم] عائد إلى الطائفتين ، ولكن خوطب به المسلمون تغليبا .

وممن ذهب إلى الأوّل أبو السعود والألوسي حيث يقول الأخير : " أي لو تواعدتم أنتم وهم القتال ، وعلمتم حالهم وحالكم لاختلفتم أنتم في الميعاد هَيْبَةً منهم ، ويأساً من الظفر عليهم ، وجعل الضمير الأول شاملاً للجَمْعَيْن تغليباً ، والثاني للمسلمين خاصة هو المناسب للمقام ؛ إذ القصد فيه إلى بيان ضعف المسلمين ونصرة الله تعالى لهم مع ذلك "[١].

وذهب الزمخشري إلى عود الضمير إلى الطائفتين معاً ووجّه ذلك قائلاً : " [ولو تواعدتم] أنتم وأهل مكة وتواضعتم بينكم على موعد تلتقون فيه للقتال لخالف بعضكم بعضاً فثبطكم قلتكم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد ، وثبطهم مافي قلوبهم من تهيّب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ؛ فلم يتفق لكم من التلاقي في ماوفّقه الله وسبّب له "[٢].

وقوله [ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولا] فيه استدراك على مامضى ، وقد وضح فائدة هذا الاستدراك ابن عاشور ، فقد قال : " وقد ظهر موقع الاستدراك في قوله [ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً] إذ التقدير : ولكن لم تتواعدوا وجئتم على غير اتّعاد ليقضي الله ، أي : ليحقق وينجز ما أراده من نصركم على المشركين ، ولمّا

(١) روح المعاني : ٧/١٠ . وانظر : تفسير أبي السعود : ٢٤/٤ .
(٢) الكشاف : ١٦٩/٢ .

كان تعليل الاستدراك المفاد بلكن قد وقع بفعلٍ مسندٍ إلى الله كان مفيداً أن مجيئهم إلى العُدْوتين على غير تواعد كان بتقدير من الله عنايةً بالمسلمين "[١].

وتنكير [أمراً] لإرادة التعظيم[٢]، فهو أمر عظيم ، وقع به نصر المؤمنين وخذل الكافرين ، وفرّق الله به بين الحق والباطل ، ولذلك سُمّي يوم الفُرْقان . وزاد من تعظيمه وصفه بجمله الكينونة بعده ؛ فهو كائن بأمر الله عز وجل منذ الأزل ، وليس طارئاً . وقد عبّر عنه بفعل الكينونة الماضي لتحقّقه وتمام وقوعه حتى كأنّه قد مضى[٣]. وقد وقع فعلاً كما قَدَّر الله وقضى . ومعنى قوله [كان مفعولاً] : " أي : موجوداً متحققاً واقعاً ، وعبر بقوله [مفعولاً] لتحقق كونه "[٤].

وقوله [ليهلك من هلك عن بينة ويحي من حي عن بينة] فيه لطائف بلاغية :-

١ - هذه الجملة بيان وتفصيل لما أجمل في الاستدراك المتقدم ، فيها إفصاح عن علّة ذلك الأمر المفعول ، وتحديد لغرضه بإظهار علّته[٥].

٢ - بين الجملة السابقة والتي قبلها غاية الاتصال ؛ فهي بدل منها[٦]، ولذلك فصلت عنها .

٣ - قد تحمل الجملة المتقدمة على الحقيقة فيكون المعنى : أي : ليموت من يموت عن حجّة عاينها ، ويعيش من يعيش عن حجة شاهدها ؛ فلا يبقى محلّ للتعلّل بالأعذار ؛ فإن وقعة بدر من الآيات الواضحات ، والحجج الساطعات على كل من له أدنى مسكة من عقل[٧] ، وهي من أعظم مايقود العقلاء إلى الإسلام ، ويُبقي المعاندين على الكفر .

---

(١) التحرير : ٢٠/١٠ .
(٢) انظر : التحرير : ٢٠/١٠ .
(٣) انظر : محاسن التأويل : ٣٠٠٦ . وانظر : التحرير : ٢٠/١٠ .
(٤) البحر : ٥٠١/٤ .
(٥) انظر : إعراب القرآن وبيانه : ٩/٤ .
(٦) انظر : الكشاف : ١٦٩/٢ .
(٧) انظر : روح المعاني : ٧/١٠ .

٤ – وقد يحمل الهلاك والحياة على الاستعارة ؛ فيكون المعنى على ماقاله الزمخشري : " استعير الهلاك والحياة للكفر والإسلام ؛ أي ليصدر كفر من كفر عن وضوح بيّنة لاعن مخالجة شبهة ؛ حتى لاتبقى له على الله حجة ، ويصدر إسلام من أسلم أيضاً عن يقين وعلم بأنه دين الحق الذي يجب الدخول فيه والتمسك به ، وذلك أن ماكان من وقعة بدر من الآيات الغُرّ المُحَجّلة التي من كفر بعدها كان مكابراً لنفسه مغالطاً لها "(١) .

٥ – بين [يهلك من هلك] و [يحي من حي] طباق ، سواء على المعنى الحقيقي أم المجازي ؛ فإن المقابل للهلاك الحياة ، والمقابل للكفر الإسلام ، والتضاد ظاهر فيها ، والفائدة البلاغية من الطباق في الهلاك والحياة الدلالة الظاهرة على أن ماقدّره الله تعالى وقضاه في أمر غزوة بدر بلغ مبلغاً جليّاً ظاهراً في نتيجته ؛ تنقطع به الأعذار فلا يبقى للناس على الله فيه حجة ؛ فمن يموت لايقع موته إلا بحجة ظاهرة على صدق هذا الدين وظهوره ، وفي المقابل من عاش فهو يرى الدلائل ساطعة على انتصاره وعلوّ سنامه .

وأما الطباق على المعنى المجازي ؛ ففيه إنذار للكفار بأنهم هلكى وفي هلاك وإن كانوا أحياء يرزقون ؛ فهلاكهم هو كفرهم المفضي بهم إلى سوء المصير في الدنيا والآخرة ، وفي المقابل فيه تبشير للمؤمنين بأن الإيمان هو الحياة الحقة التي قامت البيّنات على صدق نفعها في الدنيا والآخرة .

٦ – المراد بالبيّنة : الحجة الظاهرة التي تدل على تأييد الله تعالى قوماً ، وخَذْله آخرين بلا ريب(٢) .

٧ – دلّ معنى المجاوزة الذي أفادته [عن] على أن المعنى : أن يكون الهلاك والحياة صادِرَيْن عن بيّنة وبارزين منها (٣) .

قوله [وإنّ الله لسميع عليم] استئناف تذييلي ، ومن أحسن ماقيل عنها قول ابن عاشور إنها : " تذييل يشير إلى أن الله سميع دعاء المسلمين طلب النصر ،

---

(١) الكشاف : ٢/١٦٩ .
(٢) انظر : التحرير : ١٠/٢١ .
(٣) انظر : التحرير : ١٠/٢١ .

وسميع ماجرى بينهم من الحوار في شأن الخروج إلى بدر ومن مودّتهم أن تكون غير ذات الشوكة هي إحدى الطائفتين التي يلاقونها ، وغير ذلك ، وعليم بما يجول في خواطرهم من غير الأمور المسموعة ، وبما يصلح بهم ، ويبنى عليه مجد مستقبلهم [(١)].

والجملة المتقدمة جملة اسميّة زاد في توكيدها [إنّ] واللام ، وهي في جانب المؤمنين تزيد من إيمانهم ؛ فهي قاطعة لهم بأنّ الله معهم يسمع مايقال ، ويعلم كل مايجري منهم ومن عدوّهم ؛ فهو رحيم بالمؤمنين ، شديد على الكافرين [(٢)].

---

(١) التحرير : ٢١/١٠ .

(٢) ومن صور الطباق ؛ انظر : ٢٠٧ .

المقابلـــــة :

وقد عرفت " بأن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معان متوافقة ثم بما يقابلهما أو يقابلها على الترتيب "[١].

وللوهلة الأولى قد يبدو بين المقابلة والمطابقة شيء من التداخل ، حتى أدخلها قوم في الطباق[٢]، وممن نفى هذا الإدخال ابن حجة ؛ حيث قال : " المقابلة أدخلها جماعة في المطابقة ، وهو غير صحيح ؛ فإن المقابلة أعم من المطابقة "[٣]. وقد فرّق ابن أبي الإصبع بينهما فقال : " الفرق بين الطباق والمقابلة ٠٠ من وجهين :

أحدهما : أن الطباق لايكون إلا بالجمع بين ضدّين فذّين فقط ، والمقابلة لاتكون إلا بما زاد على الضدين من الأربعة إلى العشرة ٠

والوجه الثاني : أن المقابلة تكون بالأضداد وبغير الأضداد "[٤].

ومهما يكن من أمر فإن المقابلة قريبة من الطباق ؛ فهي تتفق معه في أسرار حسنه وبواعث جماله ، وهو مطلق التضاد والتقابل الذي يمكّن المعاني من الأذهان ، ويقررها في الأفئدة ؛ وذلك لما يؤدي إليه ترقّب الضد من تشوّف وتلهّف ، حتى إذا ما أتى وجد آذاناً مصغية ، وعقولاً واعية ، فيتمكّن منها فضل تمكن ، ويستقر فيها أيّما استقرار[٥].

ومن المقابلة مانراه في قوله عز وجل : ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَتَعْلَمُونَ** ﴾[٦].

هذه الآية فيها فرض القتال على المسلمين ، واختلف في ذلك أهو على كل واحد بعينه أم هو فرض كفاية ويسقط الإثم عن الباقين ؟ ٠

---

(١) الإيضاح : ١٩٥ ٠

(٢) وذلك كالخطيب القزويني حيث قال : " ودخل في المطابقة مايخص باسم المقابلة ٠٠ " الإيضاح : ١٩٥٠

(٣) خزانة الأدب : ١/١٢٩ ٠

(٤) بديع القرآن : ٣١ – ٣٢ ٠

(٥) انظر : روح البلاغة البديع : ٤٢ ٠

(٦) البقرة : ٢١٦ ٠

ممن حقّق ذلك ابن جرير الطبري ؛ فقد قال : " هو على كل واحد حتى يقوم به من في قيامه الكفاية ؛ فيسقط فرض ذلك حينئذٍ عن باقي المسلمين كالصلاة على الجنائز وغسلهم الموتى ودفنهم . وعلى هذا عامة علماء المسلمين ، وذلك هو الصواب عندنا ؛ لإجماع الحجة على ذلك ، ولقول الله عز وجل :﴿ **فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى** ﴾ فأخبر جل ثناؤه أن الفضل للمجاهدين ، وأن لهم وللقاعدين الحسنى ، ولو كان القاعدون مضيعين فرضاً لكان لهم السوءى لا الحسنى "[1] . وقد جاء عن ابن عطية زيادة بيان ، فقد قال : " واستمر الإجماع على أن الجهاد على أمة محمد فرض كفاية ؛ فإذا قام به من قام من المسلمين سقط عن الباقين ، إلاّ أن ينزل العدو بساحة للإسلام ؛ فهو حينئذٍ فرض عين "[2] .

قوله [كتب عليكم القتال وهو كره لكم] فيه لطائف بلاغية : -

١ - كُتب : بمعنى فرض ، والذي فرض ذلك هو الله عز وجل ، وقد قرئ الفعل بفتح الكاف ونصب [القتال] وفاعله ضمير يعود على لفظ الجلالة المذكور في آخر الآية السابقة [وماتفعلوا من خير فإن الله به عليم][3] .

وقراءة الجمهور ببناء الفعل للمجهول وطي ذكر الفاعل ، ومن أسرار ذلك أن القتال تكرهه النفوس طبعاً فحسن طي ذكر الله عز وجل في هذا المقام تصريحاً أو إضمارا تنزيهاً لمقام الألوهية من جوّ الكراهية البشرية لذلك الفعل وهو القتل المؤذي للنفوس ، فتقرّر حكم الجهاد وفرضه ببناء الفعل للمفعول على ماورد في القراءة المشهورة تحصيلاً لتلك الحكمة اللطيفة .

٢ - الأصل أن يلي نائب الفاعل فعله ولكن قدم عليه الجار الداخل على ضمير المخاطبين لغرض بلاغي ؛ فقد يكون ذلك تنبيهاً للمخاطبين إلى أهمية مافرض عليهم ، وأنه حكم شرعي تُناط به مصالحهم وينبني عليه عزّهم ، فينبغي عليهم أن يعتنوا به ويعملوا بموجبه . وقد يكون غرض ذلك أيضا تأخير ذكر لفظ

---

(١) جامع البيان : ٢/٣٤٤-٣٤٥ .

(٢) المحرر الوجيز : ٢/١٥٩ .

(٣) انظر : البحر : ٢/١٤٣ .

القتال بعد أن يتمكّن الخطاب الرباني من العباد فتسلّم له النفوس وتطمئن القلوب إلى المكتوب بعدما علمت أنه من الله عز وجل فليكن بعدئذٍ مايكون ٠ وذلك أن القتال ولفظه ممّاتكرهه طباع بني آدم التي تمكّن منها حبّ الحياة والمحافظة عليها ، فكان ماكان من التعبير تحصيلاً لهذه الفائدة وتتميماً لها ٠

٣ - جملة [وهو كره لكم] جملة حالية ، أي كتب عليكم القتال والحال أنه مكروه لكم بالطبيعة[١]، والضمير [هو] عائد على القتال ؛ وقد أخبر عنه بالمصدر [كره] إظهاراً لكمال مبالغة الناس في كراهيته ؛ حيث جعل القتال نفس الكراهة[٢].

قوله [وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم] معطوفة[٣] على [كتب عليكم القتال] وفيها إشفاق على المخاطبين من أنهم يكرهون أشياء هي عين الخير لهم جهلاً منهم بعواقبها ونهاياتها ، فعسى هنا للإشفاق لا للترجي ، ومجيئها للإشفاق قليل ، وهي هنا تامة لاتحتاج إلى خبر بل هي مكتفية بمرفوعها[٤] ٠

وتنكير [شيئاً] أريد به العموم ويدخل فيه القتال دخولاً أوّلياً ؛ فإن الجنة ودخولها يقتضي العمل بالتكاليف الشرعية على الوجه الشرعي ، وقد حفت الجنة بالمكاره ٠

وقوله [وهو خير لكم] جملة حالية من النكرة [شيئاً][٥] أي تكرهونه والحال أنه عين الخير لكم ٠ والإخبار عن الضمير بالمصدر للمبالغة في كون ذلك الشيء المكروه هو عين الخير ومصدره ٠

والجملة المتقدمة في عمومها تذييل احتيج إليه لدفع الاستغراب الناشيء عن قوله [كتب عليكم القتال وهو كره لكم] ؛ لأنه إذا كان القتال مكروهاً فكان شأن رحمة الله بخلقه ألاّ يكتبه عليهم ؛ فذيّل بهذا لدفع هذا التوهّم وإزالة ظلاله من نفوس المؤمنين[٦].

---

(١) انظر : البحر : ١٤٣/٢ ٠
(٢) انظر : البحر : ١٤٣/٢ ٠
(٣) انظر : التحرير : ٣٢٥/٢ ٠
(٤) انظر : البحر : ١٤٣/٢ ٠
(٥) انظر : البحر : ١٤٤/٢ ٠
(٦) انظر : التحرير : ٣٢٥/٢ ٠

يقول ابن عاشور عن فائدة هذا التذييل : " وهذا الكلام تلطف من الله تعالى لرسوله والمؤمنين ، وإن كان سبحانه غنياً عن البيان والتعليل ؛ لأنه يأمر فيُطاع . ولكن في بيان الحكمة تخفيفاً من مشقة التكليف ، وفيه تعويد المسلمين بتلقي الشريعة معللة مذللة ؛ فأشار إلى أن حكمة التكليف تعتمد المصالح ودرء المفاسد ، ولاتعتمد ملاءمة الطبع ومنافرته ؛ إذ يكره الطبع شيئاً وفيه نفعه ، وقد يحب شيئاً وفيه هلاكه ، وذلك باعتبار العواقب والغايات .. "[١].

وماقيل عن الجملة المتقدمة يقال على وجه العموم عن قوله تعالى [وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرٌ لكم] إذا أخذ في الاعتبار مقابلة المعاني بأضدادها . إلاّ أن [عسى] هنا للترجي في حق المخاطبين ، وهذا أكثر ماترد له في لسان العرب [٢].

وقد وقعت المقابلة بين الكراهية والخير من جهة وبين المحبة والشر من جهة أخرى، وهذه المقابلة بين تلك المعاني المتضادة تثير في النفس استغراباً وتجعل المؤمن يتأمل هذا الكلام العظيم الصادر عن المولى جل وعلا ، كيف يتحقق الخير في شيء تكرهه النفوس ، وفي المقابل يقع الشر في أمر تحبه النفوس ؛ إنه لأمر عجيب ، وعند تأمله وإمعان الفكر فيه نجد أنه هو الحق بيعنه ؛ فإن النفوس تكره القتال لما فيه من المشاق والمكاره وسلب الراحة وإزهاق النفس وبذل المال ، وهي تحب الراحة والدعة والسكون ؛ ولكن لكل شيء ضريبة وعاقبة جعلها الله نتيجة وثمرة ؛ فعاقبة مجاهدة النفس ومصاولة العدو وبذل المال سخياً في هذا السبيل الفوز بخيري الدنيا والآخرة ؛ ففي الدنيا عزٌ للإسلام وأهله وذلٌ للشرك وجمعه ، وفي الآخرة الفوز بالحسنى ومنازل الشهداء وهذا هو مجمع الخير . وأما ضريبة التجافي عن القتال ومحبة الدعة والتعلّق بأسباب الراحة فإنها وخيمة ؛ تتمثل في تسلّط العدو وجرأته على ديار الإسلام واستباحة البلاد والعباد ونهب خيراتها وسلب أرزاقها وهذا هو عين الشر .

يقول القرطبي من واقع تجربة المسلمين في الأندلس من خلال ظلال هذا المعنى المتقدم : " عسى أن تكرهوا مافي الجهاد من المشقة وهو خير لكم في أنكم تَغْلبون وتَظْفرون وتَغْنمون وتُؤْجرون ، ومن مات مات شهيدا ، وعسى أن تحبّوا الدَّعة وترك

---

(١) التحرير : ٣٢٥/٢ .

(٢) انظر : البحر : ١٤٤/٢ .

القتال وهو شرٌّ لكم في أنكم تُغْلبون وتُذلّون ويذهب أمركم . قلتُ : وهذا الأمر صحيح لاغبار عليه ؛ كما اتفق في بلاد الأندلس ؛ تركوا الجهاد وجبنوا عن القتال وأكثروا من الفرار ؛ فاستولى العدوّ على البلاد ، وأيّ بلاد ! ؟ وأسَر وقتل وسَبى واسترق ؛ فإنّا لله وإنّا إليه راجعون ؛ ذلك بما قدمت أيدينا وكسبته "(١) .

وواقع المسلمين في هذا العصر خير شاهد على صدق هذا النص القرآني الكريم ؛ فقد تفرقت كلمة المسلمين وتقاعسوا عن الجهاد وكرهوا لقيا الموت فكان شراً لهم حيث وقع الذل بهم ، وتنمّر أراذل الخلق عليهم وهانوا بين الناس فلا حول ولاقوّة إلاّ بالله العظيم .

وبين جملتي المقابلة رباط قوي أفصح عنه صاحب [نظم الدرر] فقد قال : " ولما رغبهم سبحانه وتعالى في الجهاد بما رجاهم فيه من الخير - رهّبهم من القعود عنه بما يخشى فيه من الشر .. ؛ فأشعر أن المتقاعد له في تقاعده آفات وشرّ في الدنيا والآخرة ليس أن لاينال خير الجهاد فقط ، بل وينال شرّ التقاعد والتخلف "(٢) .

وقوله [والله يعلم وأنتم لاتعلمون] تذييل لجميع ماتقدم ، وحذف مفعولي [يعلم] و [لاتعلمون] للإيجاز ؛ وقد دل على ذلك ماتقدم ؛ أي : والله يعلم الخير والشر وأنتم لاتعلمونهما ، لأن الله تعالى يعلم الأشياء على ماهي عليه وعلى ماتفضي إليه ، والناس يشتبه عليهم العلم فيظنون الملائم نافعا والمنافر ضارا (٣) .

وفي الآية ردّ للعجز على الصدر فقد ردّ قوله [لاتعلمون] على قوله [يعلم] وقد أفاد هذا المحسّن تقرير علم الله الكامل بالأشياء وبعواقبها وسلب هذا العلم عن المخاطبين ، وفائدته تعليم المسلمين عامة على تلقي أوامر الله تعالى ونواهيه بالتسليم والرضا والقبول والمبادرة إلى العمل بها مع استصحاب الجزم بأنها عين الصلاح والخير والفلاح في الدنيا والآخرة .

والغرض من نفي العلم عنهم بـ [لا] التي هي للاستقبال إفادة دوام استصحاب النفي بالنسبة لهم وهم صنف من الأعراب والجهال ، وماكلّ صحابة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٣٩/٣ .

(٢) نظم الدّرر : ٢٢١/٣ .

(٣) انظر : التحرير : ٣٢٥/٢ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك ؛ بدليل أن منهم من كان إذا سمع داعي الجهاد قذف بما في يده والتحق بركب المجاهدين استجابة ورغبة فيما عند الله ، قال بعض التابعين : لقد أدركنا قوماً كان الموت لهم أشهى من الحياة عندكم اليوم ، وإنما كان ذلك لما خربوه من دنياهم وعمروه من أخراهم فكانوا يحبون النقلة من الخراب إلى العمارة(١).

ومما وردت فيه المقابلة من خلال أسلوب المشارطة قوله عز وجل آمراً نبيه عليه الصلاة والسلام بأن يبلغ الكافرين بمضمون هذه الآية الكريمة : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾(٢) .

ومناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهر ؛ فقد جرت سنة الله تعالى في كتابه أن يتبع الترهيب بالترغيب ، والوعيد بالوعد ؛ فبعدما أنذرهم بما أنذرهم في الآيات السابقة على هذه الآية وتوعّدهم بالحشر إلى النار ذكّرهم بأنهم في مكنة من تدارك أحوالهم وتجاوز إفسادهم بالانتهاء عما جرّ عليهم كل هذه المصائب وهو الكفر(٣) .

واللام في قوله [للذين كفروا] للتبليغ ، فهو مأمور بأن يقول لهم مضمون ذلك القول سواء أكان بلفظه أم بمعناه(٤).

والمقصود بالذين كفروا هم المعهودون وقت الخطاب وهم كفار مكة ومن في حكمهم ، وقيل إن المراد هو جنس الكفار ، ويدخل فيه أولئك دخولاً أوّليا(٥) .

والنص على الكفر في حيّز الصلة للإشعار بأنه هو السرّ وراء كل ماوقع وسيقع للكفار من التهديد والوعيد .

وقوله [إن ينتهوا ..] فيه اصطفاء لإن الشرطية دون غيرها واختيارها للدخول على فعل الانتهاء المسند إلى الكفار ، وفي ذلك إيماء إلى أنّ قبولهم للعرض المذكور مشكوك فيه ، ولو كان ذلك مجزوماً به لاصطفيت [إذا] مكان [إن] .

ولكن لماذا أسند الفعل في الجملة المحكية إلى ضمير الغائبين دون أن يخاطبوا به ؟

---

(١) انظر : نظم الدّرر : ٢١٩/٣ - ٢٢٠ .

(٢) الأنفال : ٣٨ .

(٣) انظر : البحر : ٤٩٤/٤ ، والتحرير : ٣٤٤/٩ .

(٤) انظر : البحر : ٤٩٤/٤ .

(٥) انظر : روح المعاني : ٢٠٦/٩ ، ومحاسن التأويل : ٢٩٩٥ .

يجيب عن ذلك ابن عاشور فيقول : " وأسند الفعل إلى الجملة المحكية بالقول إلى ضمير الغائبين لأنه حكاية بالمعنى روعي فيها جانب المخاطب بالأمر ؛ تنبيهاً على أنه ليس حظه مجرّد تبليغ مقالة ، فجُعل حظه حظّ المخبَر بالقضية الذي يراد تقرّرها لديه قبل تبليغها ، وهو إذا بلّغ إليهم يبلغ إليهم ما أعلم به وبلّغ إليه ؛ فيكون مخبراً بخبر ، وليس مجرَّد حامل لرسالة "(١) .

والمراد بالانتهاء الإقلاع عن الكفر والدخول في الإسلام وترك عداوة الرسول صلى الله عليه وسلم والذي يدل على ذلك هو جواب الشرط [يغفر لهم ماقد سلف] ، لأن مغفرة ماسلف لاتكون إلاّ لمُنْتَهٍ عن الكفر(٢) .

والمقصود بما سلف هو الكفر وآثاره وتوابعه من عداوة النبي صلى الله عليه وسلم ، وحرب المؤمنين والصدّ عن سبيل الله ونحو ذلك ؛ ففي العبارة إيجاز للغاية ، كما أن فيها أعظم البشرى لكل كافر بأنه بعد إسلامه يمحى عنه ذنبه ويعود كما ولدته أمّه(٣) .

وفي تقديم الجار والمجرور [لهم] على المفعول مزيد ترغيب للكافرين في الإسلام ، وإشعار لهم بأنهم أعظم من كل مافعلوا ، فبدخولهم في الإسلام تنقلب حياتهم رأساً على عقب ولاينظر إلى ماضيهم ، فالإسلام يجب ماقبله .

قوله [وإن يعودوا] معطوف على الشرط المتقدم ، والمقصود بالعود هنا- كما قال ابن عطية -العود :" ..إلى القتال ؛ لأن لفظة عاد يعود إذا جاءت مطلقة فإنما تتضمّن الرجوع إلى حالة قد كان الإنسان عليها ثم تنقل عنها، ولسنا نجد في هذه الآية لهؤلاء الكفار حالة تشبه ماذكرنا إلاّ القتال ، ولايصح أن يتناول : وإن يعودوا إلى الكفر؛ لأنهم لم ينفصلوا عنه"(٤) . وقد يراد بالعودة المداومة على المعاداة(٥) وعدم الكف عنها .

---

(١) التحرير : ٣٤٤/٩ .
(٢) انظر : المحرر الوجيز : ٦٤/٨ .
(٣) انظر : التفسير الكبير : ١٦٣/١٥ .
(٤) المحرر الوجيز : ٦٤/٨ .
(٥) انظر : روح المعاني : ٢٠٦/٩ .

وقوله [فقد مضت سنة الأولين] دليل جزاء الشرط المتقدم والتقدير - كما يراه أبو حيان - وإن يعودوا انتقمنا منهم وعذبناهم بإهلاكهم فقد مضت سنة الأولين في أنا انتقمنا منهم وأهلكناهم بتكذيب أنبيائهم وكفرهم[١] .

وقال ابن عاشور : " وهذا الخبر تعريض بالوعيد بأنهم سيلقون مالقيه الأوّلون ، والقرينة على إرادة التعريض بالوعيد أن ظاهر الإخبار بمضيّ سنة الأولين هو من الإخبار بشيء معلوم للمخْبَرين به ، وبهذا الاعتبار حسن تأكيده بـ [قد] ؛ إذ المراد تأكيد المعنى التعريضي ؛ وبهذا الاعتبار صحّ وقوع قوله [فقد مضت سنة الأولين] جزاء للشرط ، ولولا ذلك لما كان بين الشرط وجوابه ملازمة في شيء "[٢] . وعلى ذلك فابن عاشور يخالف أبا حيان في كون الجزاء محذوفاً بناء على التأويل الذي ذكره وهو ظاهر الحسن . وأضيفت السّنة إلى الأولين لما بينهما من الملابسة الظاهرة ، وإلاّ فإن السنة هي سنة الله تعالى كما قال سبحانه ﴿ وَلَاتَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾[٣] وقال أيضاً ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً ﴾[٤] . وفي جملة الشرط وجوابه المتقدم من الوعيد والتهديد بالاستئصال مالا مزيد عليه[٥] .

وفي الآية مقابلة بين أربعة معان ؛ فقد ذُكر في البداية معنيان وهما : [إن ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف] ثم ذكر مايقابلهما على الترتيب [وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين] ، وفائدة هذه المقابلة في نظم الآية تقسيم حال الكافرين إلى حالين متقابلين من خلال أسلوب الشرط وجزائه ؛ فهم بين أمرين ، بعد كل أمر مايناسبه ويليق به ؛ إما أن يتركوا الكفر ويقلعوا عنه فجزاؤهم المغفرة عن كل ماوقع منهم من منكرات الأفعال والأقوال ، وإما أن يبقوا على كفرهم ويعودوا إلى قتال النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين فعندئذٍ جزاء أسلافهم الأولين هو جزاؤهم من التعذيب والإهلاك والقهر والإذلال . فتأمل كيف حصرت المقابلة مصير الكافرين بين ذينك السّبيلين ؛ وجعلت أمام كل سبيل مايلتئم معها ويليق بدَرْبها ، فجعلت كل عاقل يفكّر ملياً في هذين الطريقين المتقابلين وبإزائهما نهايتاهما الحاسمتان ؛ فمن مَنَّ الله عليه بالهداية والرضا سلك سبيل الرشاد وفاز بالمغفرة ، ومن ضل وغوى وتنكب طريق الهدى حقت عليه كلمة العذاب في الدنيا والآخرة[٦] .

---

(١) انظر : البحر : ٤/٤٩٤ .
(٢) التحرير : ٩/٣٤٦ .
(٣) الإسراء : ٧٧ . انظر : روح المعاني : ٩/٢٠٦ .
(٤) الأحزاب : ٣٨ .
(٥) انظر : المحرر الوجيز : ٨/٦٥ .
(٦) ومن صور المقابلة ؛ انظر : ١٦٠ ، ٣٠٩ .

الجنـــــاس :

هذا الفن البديعي مأخوذ لغة من المجانسة ؛ وهي المشابهة ، وقد سمي بهذا الاسم لمجيء حروف ألفاظه من جنس واحد ومادة واحدة [١]. ولايشترط فيه تماثل جميع الحروف ، وإنما يكفي في التماثل ماتقرب به المجانسة [٢].

وقد عرفه الخطيب القزويني بأنه : تشابه اللفظين في اللفظ "[٣].

وأدق من هذا التعريف وأجمع تعريف العلوي ؛ حيث قال : " وهو على تنوّعه عبارة عن اتفاق اللفظين في وجه من الوجوه مع اختلاف معانيهما " [٤].

وللجناس أثر في نظم الكلام بلاغة وجملا ، ومرد ذلك إلى أنه يقع فيه التناسب بين الألفاظ في الصورة – كلياً أو جزئياً – ، واقتران الأشباه والنظائر بعضها ببعض يجعل النفوس تميل إليها بالفطرة وتأنس بها ، كما أن التجانس في الألفاظ يفضي إلى تماثلها تماثلاً كاملاً أو ناقصا ، مما يطرب الأذن ويونق النفس ويرقّص القلوب ، ويخدع الأذهان ببديع الأفكار[٥] ؛ فإنّ المجنّس في كلامه تحسّ أنه : " قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ، ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفّاها "[٦].

والجناس المطبوع النائي عن التكلّف يثير الإعجاب ، ويثبّت المعاني ، ويشهر ذكرها حتى تصبح كالأمثال ؛ لكونه قد اجتمعت فيه عدّة طرائف ؛ ففيه تتماثل صورة اللفظ مع الاختلاف في المعنى ، ويظهر به جمال الإيقاع الصوتي بتكرار حروف اللفظين أو بعضها ، وفيه يقع التآلف والتخالف بين ركنيه لفظاً ومعنى ، وليس هذا بالشيء اليسير في بلاغة الكلام ونظم ألفاظه [٧].

---

(١) انظر : المثل السائر : ٣٧٩/١ ، وفنّ الجناس : ٣ . لعلي الجندي .

(٢) انظر : فنّ الجناس : ٣ .

(٣) الإيضاح : ٢١٦ ، بشرح د . خفاجي ، ط دار الكتاب اللبناني . وأضاف صاحب البغية على هذا التعريف عبارة " مع اختلافهما في المعنى "

(٤) الطراز : ٣٥١/٣ .

(٥) انظر : فنّ الجناس : ٢٩ – ٣٠ .

(٦) أسرار البلاغة : ٧ .

(٧) انظر : فن الجناس : ٣٠ .

وللجناس أنواع عديدة وأقسام متشعّبة ، أوصلها السيوطي إلى أربعمائة نوع[١]، وليس المقام مقام عدّها ، فلذلك مواضعه في كتب البلاغة [٢].

وحسبي أن أشير إلى بلاغة الجناس من خلال ماسأورده من الآيات ذات المعاني الجهادية ، وسأشير إلى نوع التجنيس الوارد في متن الآية بعون الله وتوفيقه.

ومن الآيات التي جمعت ألواناً من الجناس ماجاء في سورة " الحشر " وهي قوله تعالى :﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾[٣].

النص المتقدم نزل في قوم من منافقي الأنصار وعلى رأسهم عبدالله بن أبي كانوا قد بعثوا إلى يهود بني النضير بما تضمّنه قولهم المحكي[٤].

وجملة [ألم تر إلى الذين نافقوا..] استئناف ابتدائي ، والاستفهام مستعمل في التعجيب من حال المنافقين ، فبني على نفي العلم بحالهم كناية عن التحريض على إيقاع هذا العلم المساق عنهم ؛ كأنه يقول : تأمّل الذين نافقوا ودقق النظر في مقالتهم المحكية ولاتترك النظر في ذلك فإنه أمر عجيب[٥] .

ويرى القرطبي أن الاستفهام تعجب من اغترار اليهود بما وعدهم المنافقون من النصر مع علمهم بأنهم لايعتقدون ديناً ولاكتابا[٦].

والتعبير عن نفاقهم بالفعل الماضي في صلة الموصول للإشعار بأن نفاقهم ذلك قد مضى عليه زمن وهو كامن في قلوبهم ، وليس طارئاً ولاحادثاً ، ولذلك نتج عنه أمثال مقالتهم المحكية عنهم.

---

(١) وذلك في كتابه : جنى الجناس : ٧١ تحقيق د. محمد رزق الخفاجي.

(٢) انظر على سبيل المثال : جنى الجناس للسيوطي ، وجنان الجناس للصفدي ، والإيضاح : ٢١٦ – ٢٢٠، وخزانة الأدب : ٥٤/٢ – ٩٥ ، والألوان البديعية : ١١٠ – ١٤٠ د. حمزة زغلول وغيرهما.

(٣) الحشر : ١١.

(٤) انظر : البحر المحيط : ٢٤٨/٨.

(٥) انظر : التحرير : ٩٨/٢٨.

(٦) الجامع لأحكام القرآن : ٣٤/١٨.

وخطاب التعجيب موجه إلى النبي عليه الصلاة والسلام أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب فقد خرج مخرج المثل [١].

وقوله [يقولون لإخوانهم] فيه لطائف بلاغية : -

١ - هذه الجملة مستأنفة لبيان المُتَعجَّب منه [٢] في الاستفهام المتقدم ؛ فكأن المخاطب يبحث عن سرّ التعجيب من حالهم ؛ فسيق له ذلك ، ولهذا فصلت عما قبلها . أو لكون هذه خبرية والأولى إنشائية . وإذا كانت (رأى) علمية فتكون جملة [يقولون] في موضع نصب على أنها المفعول الثاني ، والتقدير : ألم ترهم قائلين [٣].

٢ - في اصطفاء المضارع لحكاية القول دون الماضي نكتة بيانية وهي استحضار صورة القول ، أو للدلالة على استمراره حتى وقت الخطاب بالآية الكريمة [٤].

٣ - اللام الداخلة على [لإخوانهم] للتبليغ [٥]؛ فهي مشعرة بأن ذلك القول مبلَّغ لليهود بصورة خفية عن المسلمين ولكن الله أظهره وأعلم نبيه وسائر المؤمنين بحقيقته فهو سبحانه لاتخفى عليه خافية في الأرض ولافي السماء .

٤ - تسمية اليهود إخواناً للمنافقين منظور فيه إلى رابطة عقيدة الكفر التي تجمعهم، فالمنافقون وإن اختلفوا عن اليهود في طبيعة كفرهم [٦] ؛ إلاّ أن الكفر ملّة واحدة؛ فيجمعهم بغض الإسلام وكراهية نبيه ومن آمن به ؛ ومن صور هذه الكراهية وذلك الكفر مقالتهم المتهافتة التي يسلّي بها بعضهم بعضا ، وفاتهم أنّ الله تعالى لهم بالمرصاد .

وقوله [الذين كفروا من أهل الكتاب] فيه تصريح بكفر أهل الكتاب في حيّز الصلة ، ومن فوائده الإيماء إلى الآصرة التي تجمع بين اليهود والمنافقين وهي الكفر ، وكما عُبّر عن نفاق المنافقين بصيغة الماضي عُبّر عن كفر اليهود بصيغة الماضي أيضاً،

---

(١) انظر : روح المعاني : ٥٦/٢٨ .
(٢) انظر : روح المعاني : ٢٨ / ٥٦ .
(٣) انظر : التحرير : ٩٩/٢٨ .
(٤) انظر : تفسير أبي اسعود : ٢٣٠/٨ .
(٥) انظر : البحر : ٢٤٨/٨ .
(٦) انظر : فتح القدير : ٢٠٤/٥ .

وفي ذلك إشعار بتمكن تلك الصّفتين من تلكما الفئتين ، وأنّ من طبيعتهما التلاقي والتوافق والاجتماع على حرب المؤمنين في ذلك الزمان وفي كل زمان ، فيجب أخذ الحيطة والحذر منهما في كل آن .

وقوله [لئن أخرجتم لنخرجنّ معكم] هذا هو القول المحكي من المنافقين لليهود؛ وقد أكّد بالقسم المقدّر ، والذي دلّ عليه هو اللام التي وطّأت له ، والتقدير : والله لئن أخرجتم .. ، لأنّ هذه اللام إذا وردت في الكلام فهي مؤذنة بأن الجواب بعدها مبني على قسم مقدّر قبلها ، وقد كثر في كلام العرب إثبات اللام المؤذنة بالقسم قبل الشرط كما في الآية (١).

والذي حفز المنافقين على تأكيد كلامهم لليهود هو الموقف الحربي الحرج الذي اليهود بصدده من قبل المسلمين ، فهو موقف يحتاج إلى أن يقدّم الناصر بين يديه مايؤكّد مدده ونصرته ، ونظراً لطبيعة مابين المنافقين واليهود من كره للإسلام وأهله فقد سارعوا إلى ذلك القول وأكّدوه بالقسم الداخل على فعل الشرط ثمّ باللام ونون التوكيد الثقيلة في الجواب ، وذلك ليدخلوا الطمأنينة في قلوب اليهود .

ولكن لماذا بدأ المنافقون بوعد اليهود بالخروج معهم دون البداية بذكر نصرتهم ؟

يبدو أن المنافقين أرادوا أن يؤكّدوا لليهود أن نصرتهم مفروغ منها ، فقد وصل الأمر بهم إلى أعظم من النصرة وهو الخروج معهم وترك المدينة كلها إذا أخرج اليهود منها ، فمقالتهم تلك كناية عن نصرتهم وزيادة ، فهي مبالغة من المنافقين لطمأنة اليهود على الوقوف بجانبهم في محنتهم ، وإلاّ فإنهم لايرضون أن يفارقوا بلادهم أصلا . ثم إنّ مخاطبة المنافقين لليهود كانت إبّان محاصرة النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين لهم ، فليس أمامهم إلا القتل أو الخروج ، فكان وعدهم بالخروج معهم تخفيفاً عليهم وشداً من أزرهم ، وتقدير كلامهم : والله لئن أخرجتم من دياركم قسراً لنخرجنّ من ديارنا معكم ألبتة ونذهبن في صحبتكم أينما ذهبتم (٢).

وقوله [ولانطيع فيكم أحداً أبداً] فيه لطائف بلاغية : -

---

(١) انظر : البحر : ٢٤٨/٨ ، والفتوحات الإلهية : ٣١٧/٤ .

(٢) انظر : روح المعاني : ٥٦/١٠ .

١ - هذه الجملة معطوفة على جملة [لئن أخرجتم ٠٠] فهي من تتمة القول المحكي عن المنافقين ، وليست من المُقْسَم عليه[١] ٠ والذي سوّغ وصلها بما قبلها كونها أخباراً في سلسلة أفعال متساوقة وقائلها واحد ٠

٢ - يرد تساؤل عن سرّ خلوّ الجملة المتقدمة من المؤكّدات بخلاف ماقبلها ومابعدها ٠ يقول ابن عاشور جواباً عن ذلك : " وقد أُعريت عن المؤكّد لأنّ بني النضير يعلمون أن المنافقين لايطيعون الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين ؛ فكان المنافقون في غنية عن تحقيق هذا الخبر "[٢] ٠

٣ - في قوله [ولانطيع فيكم أحداً] تعبير عن مدى مناصرتهم لهم ، فهم لايطيعون لافي حاضرهم ولافي مستقبلهم من يلحق الضرر بإخوانهم اليهود ، وكلمة [أحداً] نكرة وردت في سياق النفي فأفادت العموم ؛ فشملت كلّ أحد مهما كان شأنه ، وفي ذلك تعريض بالنبي عليه الصلاة والسلام ، لأنه هو السّيد المطاع إذا أمر أو نهى ٠

٤ - لفظ [أبداً] منصوب على الظرفية ، والأبد : مدّة الزمان الممتد الذي لايتجزّأ كما يتجزّأ الزمان ، وذلك أن يقال : زمان كذا ، ولايقال أَبد كذا ، وهذا الظرف لاستغراق المستقبل ، كما أنّ لفظ الأزل لاستغراق الماضي ، وأما السّرمد فلاستغراق الماضي والمستقبل[٣] ٠ فقد أراد المنافقون أن يثبتوا لليهود أنهم معهم وإن طال الزمان ؛ فجاءوا بهذا الظرف الذي حقق تلك الغاية في مقالتهم ٠

٥ - بين كلمتي [أحداً] و [أبداً] جناس ، وهو مايعرف بالجناس اللاحق ؛ لكون الكلمتين المتجانستين قد اختلفتا في حرفين متباعدين في مخرجهما[٤] ، وهما : الحاء ومخرجها من الحلق ، والباء ومخرجها من الشفتين ٠ ولما كان ذينك اللفظان المتجانسان متوالين فهما من الجناس المزدوج أو المكرر أو المردّد ٠

---

(١) انظر : الفتوحات الإلهية : ٣١٧/٤ ، والتحرير : ٩٩/٢٨ ٠
(٢) التحرير : ٩٩/٢٨ ٠
(٣) انظر : المفردات : ٨ ، وروح البيان : ٤٣٨/٩ ٠
(٤) انظر : خزانة الأدب : ٧١/١ ، والألوان البديعية : ١٣١ ٠

ومظهر الحسن في اللفظين المتجانسين المتقدمين هو في خفة النطق بهما على اللسان ، وحسن وقع جرسهما اللغوي على سمع الإنسان ، ومع أن الصورة فيهما تكاد تكون صورة تكرير وإعادة ؛ إلا أن كل واحد منهما تضمّن جمالاً وإفادة ، مما أكسب اللفظين طرافة وخلابة .

وقوله [وإن قوتلتم لننصرنكم] جملة معطوفة على [لئن أخرجتم ..] فتكون هذه الجملة هي المقالة الثالثة من مقالات المنافقين لليهود .

والجملة المذكورة دخل عليها قسم محذوف قبل [إن] الشرطية ، وذلك بدلالة وقوع المؤكّدات في الجواب [لننصرنّكم] ، فهذه الجملة الأخيرة واقعة جواباً للقسم المقدَّر لكونه هو المتقدّم ، ولما كان جواب القسم وجواب الشرط متماثلين اقتصر على جواب القسم وأضمر جواب الشرط وجعل المذكور جواباً للقسم توسّعا[1] . وفي ذلك لون من الإيجاز .

وقد استعمل المنافقون في مقالتهم [إن] الشرطية ولم يستعملوا [إذا] تنبيهاً لإخوانهم اليهود أن أمر القتال مشكوك في وقوعه ، وذلك رغبة في زيادة تطمينهم ، وكذلك الشأن في [لئن أخرجتم] جعلوا الخروج مشكوكاً فيه وليس مجزوماً بوقوعه.

وطي ذكر فاعل القتال في [وإن قوتلتم] مبالغة من المنافقين في أنّهم لاينظرون إلى مَنْ يفعل القتال ؛ محمد وصحبه أو سواهم ؛ فالمهم عندهم هو فعل القتال وحدوثه من أيٍّ كان ، فلا يرضون بوقوعه على اليهود ، وإذا وقع فسوف تتعيّن النّصرة في زعمهم .

والمراد بـ [لننصرنكم] أي لنعيننكم في القتال دفاعاً عنكم ، والنصر يطلق على الإعانة على المعادي[2] . ولاتخفى المؤكّدات في هذا الجواب .

وقوله [والله يشهد إنهم لكاذبون] فيه لطائف بلاغية : -

١ - هذه الجملة مستأنفة لإصدار الحكم على أقوال المنافقين المتقدمة ؛ فهذه الفاصلة بمثابة الحكم الصادر على ماتقدم .

---

(١) انظر : البحر : ٢٤٨/٨ ، وروح البيان : ٤٣٨/٩ .

(٢) انظر : التحرير : ١٠٠/٢٨ .

٢ - اصطفاء لفظ الجلالة في هذا المقام اقتضاه المعنى ، فإن هذا اللفظ الجليل هو علم الأعلام وهو أعرف المعارف ، وهو الجامع لصفات الكمال والجلال ؛ فإذا ذكر اطمأنت له قلوب المؤمنين ، ورجفت منه قلوب المنافقين ، فهو سبحانه الخبير بخبايا النفوس وخواطر القلوب ؛ فكان شهيداً على الناس عليماً بما جرى ويجري من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة ؛ فإسناد الشهادة إليه فيصل في القضية وإظهار لما كان مخفياً ، فكان ذلك نصراً للمؤمنين وخذلاً للمنافقين .

٣ - ولكن لماذا سمّى الله عز وجل علمه ذلك شهادة ، ولم يذكره بلفظ : يعلم ؟ يقول ابن عاشور : " وسَمّى الله الخبر شهادة ؛ لأنه خبر عن يقين بمنزلة الشهادة التي لايتجازف المخبر في شأنها "(١).

٤ - وفي تقديم لفظ الجلالة والإخبار عنه بالفعل تقوية للإسناد ؛ لأنه إسناد إلى الضمير المستكن في الفعل [يشهد] العائد على المبتدأ المذكور في أوّل الجملة.

٥ - كسر همزة [إنّ] عائد إلى وقوع اللام المزحلقة في خبرها(٢) ، وقد أكّدت هذه الشهادة بعدة مؤكّدات : أولها : - كون الذي شهد بها هو الله عز وجل ؛ وثانيها : - دخول [إنّ] المؤكدة ، وهي بمثابة تكرار الكلام ، وثالثها : - وقوع اللام في خبر إنّ ، ورابعها : - مجيء الخبر في فاصلة الآية على صيغة اسم الفاعل ؛ الدال على كون الكذب صفة ثابتة فيهم ، وليست طارئة عليهم فتزول ؛ ومن علامات المنافق أنه إذا حدّث كذب ، وشأنهم كذلك في أحاديثهم . وخامسها : - اسمية الجملة ، المشعرة بأن الكذب منطبع في أخلاقهم ، وكأنما هو من خِلْقتهم الثابتة ، التي ليس من شأنها التبدّل أو التغيّر .

---

(١) التحرير : ٢٨/١٠٠ .

(٢) انظر : إعراب القرآن وبيانه : ١٠/٥٠ .

ردّ الأعجاز على الصّدور :

ويسمى : التصدير ؛ وقد عرفه ابن أبي الإصبع قائلاً : " هو عبارة عن كلّ كلام بين صَدْره وعجزه رابطة لفظية غالباً ، أو معنوية نادرا ، تحصل بها الملاءمة والتلاحم بين قسمي كلّ كلام "(١).

والضابط له أن يجعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين أو الملحقين بهما في أول الفقرة واللفظ الآخر في آخرها (٢).

ولهذا المحسّن البديعي موقع جليل من البلاغة (٣)، وذلك أنه يدل على معناه بتكرار لفظه أو اشتقاقه ، فإذا مرّ على الذهن في أوّل الأمر ثم أعيد مرة أخرى انتبه إليه ، فتمكن مضمونه ، واستقر معناه ، وهو يكسب المعنى أبّهة ، ويكسوه رونقاً وديباجة ويزيده مائية وطلاوة (٤). فأسلوب ردّ الأعجاز على الصدور يقوّي المعاني بتمكينها في الأفهام ، كما يجمّل الألفاظ ويجعل بينها إلفة وانسجاماً تاما ، وهو يلتقي مع الجناس في حسن الإفادة مع أن الصورة صورة التكرير والإعادة(٥) ، لكنه يفترق عنه في كون اللفظ المكرر هو الذي يوقف عليه في الفقرة ، مما يجعل الانتباه ينشدّ إليه ، لكونه آخر ماقرأته العين وسمعته الأذن ووعاه الذهن .

ومما وقع فيه ردّ العجز على الصدر قوله عز وجل : ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾ (٦).

لقد كان القتال محظوراً على النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين قبل الهجرة ؛ فقد أُمر بالدفع بالتي هي أحسن وبالصفح عنهم وهجرهم هجراً جميلاً ؛ فلما هاجر إلى المدينة نزل أوّل آية في شأن القتال والأمر به وهي تلك الآية المتقدمة ؛ فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه لما صدّ المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) بديع القرآن : ٣٦ .
(٢) انظر : شرح التلخيص في علوم البلاغة : ١٨٨ بشرح محمد هاشم دويدري ، وبغية الإيضاح : ٨٧/٤ .
(٣) انظر : الصناعتين : ٤٢٩ .
(٤) انظر : العمدة : ٣/٢ .
(٥) انظر : الألوان البديعية : ١٦٩ .
(٦) البقرة : ١٩٠ .

عام الحديبية[1] وصالحوه على أن يرجع من قابل فيحلّوا له مكة ثلاثة أيام ؛ فرجع لعمرة القضاء ، وخاف المسلمون أن لاتفي لهم قريش ويصدوهم ويقاتلوهم في الحرم وفي الشهر الحرام ، وكرهوا ذلك فنزلت الآية السابقة ومابعدها [2] .

وقد ذكر صاحب (الظلال) طرفاً من حكمة تأخير الإذن في قتال المشركين ، وخلاصة ذلك في الآتي : -

١ - تطويع نفوس المؤمنين على الامتثال للأمر ، والخضوع للقيادة ، تربية لهم وتهذيباً لطباعهم ؛ فقد كانوا في جاهليتهم شديدي الحماسة ، يُستثارون لأتفه الأسباب ، ولكن الأمر اختلف بالإسلام ؛ فهم تحت إمرة قيادة واحدة يُوحَى إليها فتستجيب لربّها وتعمل بمقتضاه ، وبذلك وقع في روع الفئة المؤمنة التوازن بين الاندفاع والتروي ، والحمية والطاعة ، فليست الأمور نزوات أو شهوات .

٢ - كون البيئة العربية بيئة نخوة ونجدة ؛ فوقوع الأذى على المسلمين مع كف أيديهم عن ردّه يستثير نخوة من حولهم ، ويستدعي نجدتهم ، فتُستمال المشاعر نحو الإسلام وأهله ، وتستدرّ العواطف نحو المستضعفين من المسلمين مما له أكبر الأثر على هذا الدين وعلى معتنقيه ؛ احتراماً له ، وتعاطفاً مع أصحابه ، وتفكيراً جاداً فيه .

٣ - أنه قبل الهجرة كان المسلمون من بيوت متفرقة ، ولو شهر السلاح لوقع القتل في ذوي المسلمين ، وفي ذلك أذيّة نفسية لأبناء الإسلام ، وقد يكون فيه فتنة لهم عن دينهم ، ولكنهم لما هاجروا تميّزوا وصاروا في حكم الذين تركوا ديارهم قسراً وخوفاً من الظلم ، فوقر الإيمان في قلوب المهاجرين من جهة ، ومن جهة أخرى صار كلّ من تجرّد من الهوى مقتنعاً بأنّ قريشاً قد بغت ومَنْ عاونها كان مشاركاً لها في البغي والعدوان ، وماجزاء المعتدي إلا القتال .

---

(١) والحديبية : موضع قرب مكة فيها بئر وشجر ، وبعضها في الحل وبعضها في الحرم ووقعت بيعتها سنة ست من الهجرة . انظر : معجم البلدان : ٢/٢٢٩ .

(٢) انظر : أسباب النزول للواحدي : ٨٧-٨٨ ، البحر المحيط : ٢/٦٤ ، الجامع لأحكام القرآن : ٢/٣٤٧ .

٤ - ومن أعظم الحكم وأظهرها قلة المؤمنين قبل الهجرة ، وكونهم محصورين في مكة؛ وقد يتكالب عليهم الكفار فيقتلونهم أو ينالون من بيضتهم ؛ فلما هاجروا تكاثروا ، وصار لهم شوكة وقوّة يعتمد عليها ، ويُقاتل بها ، ومن هنا كان الإذن في القتال والأمر به بعدما نضجت الجماعة في إيمانها وتكاثر أفرادها ، واشتد متن عودها [١].

الأمر في قوله [وقاتلوا] موجَّه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين في ذلك الوقت ، ويصح أن يشمل عمومه جماعة المسلمين الذين يخشون مقاتلة أعدائهم لهم فيدفعون شرّهم بما يندفع[٢] ، ويؤخذ في ذلك اعتبار المصالح والمفاسد المترتبة على الشروع في قتال الأعداء الذين يَهمُّون بمقاتلة المسلمين ، فإن آنسوا من أنفسهم قوة على دفع صولة العدوّ فإن الأمر بالقتال مشروع في حقهم لهذه الآية ، وإن كان حالهم من الضعف والخور بحيث إن الشروع في قتال العدو يجرّ إلى مصائب أعظم وأطم فإن الشأن في حقهم يستدعي النظر والتريث دفعاً لمفسدة الاستئصال أو الفتنة في الدين . والله المستعان .

والمقاتلة : مفاعلة في القتل ؛ تقتضي حصول الفعل من جانبين ، ولما كان فعل القتل في هذه الصيغة لايمكن من جانبين ؛ لكون أحد الطرفين إذا قُتل لم يستطع أن يَقْتل - كانت المفاعلة في هذه المادة تعني مفاعلة أسباب القتل وهي : المحاربة في صورها المتعدّدة [٣].

والمفاعلة إذا أُسندت إلى أحد فاعلَيْها فالمقصود عندئذٍ أنه هو المبتدئ بفعلها ، ولهذا أَسند الله عز وجل فعلها إلى المسلمين ؛ ليكون ذلك منهم وقاية وأخذاً بزمام المبادرة ، ودَفْعاً للمباغتة [٤].

كما أسند فاعل الصلة [يقاتلونكم] إلى ضمير العدو ؛ فيكون المراد دافعوا الذين يبتدئونكم بفعل القتال .فهم مقيدون بهذه الصورة بمثابة دفع الصائل[٥]، لأنهم

(١) انظر : في ظلال القرآن : ١/١٨٥ - ١٨٦ .
(٢) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٢/٣٥٠ ، والتحرير : ٢/٢٠١ .
(٣) انظر : التحرير : ٢/٢٠١ .
(٤) انظر : التحرير : ٢/٢٠١ .
(٥) انظر : التفسير الكبير : ٥/١٢٨ .

لم يؤمروا بقتال المشركين كافـة ، بل يقاتلون من قاتلهم ، ويكفون عمن كفّ عنهم[١] في تلك المرحلة ٠

وفي التعبير بجملة الصلة تهييج وإغراء بالأعداء الذين همتهم قتال أهل الإسلام، أي : كما يقاتلونكم فاقتلوهم أنتم[٢] ٠

وتقديم الظرف [في سبيل الله] على الفعول الصريح – الموصول – لإبراز كمال العناية بشأن المقدّم[٣] ٠

وفي التعبير بـ [في] من إخلاص النية لله وتمحّضها مالايخفى ٠

والسبيل في الأصل هو الطريق الظاهر البيّن ، وقد استعير لدين الله بجامع وضـوح النهـج وتحقيـق الغاية في كل منهما ؛ فإن السائر على شرع الله تعالى يصل إلـى مقاصـده الدينيـة والدنيوية بأمان واطمئنان ، وهذا من استعارة محسوس لمعقول[٤] ٠

وإضافة السبيل إلى لفظ الجلالة إضافة تعريف وتشريف ٠

قوله [ولاتعتدوا] جملة معطوفة على [وقاتلوا] ؛ من باب عطف النهي على الأمر خشية من تجاوز حدّ المأمور به ٠

وفي المراد بالنهي عن الاعتداء خلاف؛ ولكن الأقرب لسياق الآية أن يكون المعنى: ولاتبتدئوا بالقتال[٥] ، لأنهم مأمورون بقتال من قاتلهم، والكف عمن كف عنهم ٠

وقيل : لاتتجاوزا بقتالكم إلى من نهيتم عن قتالهم من النساء والشيوخ والصبيان وأصحاب الصوامع ، والذين بينكم وبينهم عهد ، أو يكون التجاوز بالمُثْلة أو بالمفاجأة من غير سابق دعوة ٠

وقيل : لاتعتدوا في القتال لغير وجه الله كالحمية وكسب الذكر ، بل قاتِلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، يعني : ديناً وإظهاراً للكلمة[٦] .وقد يكون المقصود

---

(١) انظر : تنوير الأذهان : ١٤٨/١ ٠

(٢) انظر : تفسير أبي السعود : ٢٠٣/١ ٠

(٣) انظر : محاسن التأويل : ٤٧٤ ٠

(٤) انظر : البحر : ٦٥/٢ ٠

(٥) انظر : محاسن التأويل : ٤٧٤ ، والتحرير : ٢٠١/٢ ٠

(٦) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٣٥٠/٢ ، ومحاسن التأويل : ٤٧٤ ٠

مجموع ماذكر ، ويؤيده إطلاق النهي عن الاعتداء ، وعدم تقيد النهي بحالة معينة ، أو بقوم مُعَيَّنين .

وقوله [إنّ الله لايحب المعتدين] كالتعليل لما تقدم من النهي عن الاعتداء ، وفيها تحذير من مقارفته ؛ وذلك مسالمة للعدوّ واستبقاء لهم وإمهالاً لجمعهم حتى يجيئوا مؤمنين أو يقضي الله أمراً كان مفعولاً (١).

وقد فصلت تلك الجملة عما قبلها لكونها خبراً أعقبت إنشاء ، ولأنها بمثابة الجواب عن سؤال ناشيء عن الحكمة من النهي عن عدم الاعتداء .

وفاصلة هذه الآية رُدّت على صدرها ؛ فقد ورد النهي عن الاعتداء في القتال ثم ذيّل بتأكيد نفي محبة الله عز وجل للمعتدين ؛ وفي ذلك إيماء إلى أن من تلبّس بالاعتداء أو قارفه فهو حري بأن يدخل في عداد المعتدين الذين لاتقع عليهم محبة الله عز وجل ، وفي ذلك تعريض بمن يعتدي ، وترغيب فيمن كفّ عن الاعتداء والتزم الهدى ، وقد استرعى هذا المحسن البديعي نظر المخاطبين بأنّ شأن الاعتداء عظيم ؛ فلم يذكر في نظم الآية ذكراً عابراً بل وقف عنده وعليه ، وجعل فاصلة لهذه الآية يقف عليه عند التلاوة كل مسلم وقفة تدبّر وتأمّل وعمل ؛ وبذلك يعلم كل مسلم أن شأن الاعتداء خطير وأمره عند الله عظيم ، وصل إلى سلب محبة الله تعالى عن كل معتد ، ومن ذا الذي يرضى أن يكون عرضة لهذا التحذير الرباني الخطير .

وقال تعالى : ﴿ **الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** ﴾(٢) .

هذه الآية لها صلة وارتباط بالآية التي سبق الكلام عنها آنفاً ، وعلاقتها بها في معناها وسبب نزولها ، فإن قريشاً قد صدّت الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين في شهر ذي القعدة من سنة ست للهجرة (٣)، فانتهكوا بذلك حرمة الشهر الحرام (٤)،

(١) انظر : البحر : ٢/٦٥ ، والتحرير : ٢/٢٠١ .

(٢) البقرة : ١٩٤ .

(٣) في الحديبية ، وقد وقع فيها قتال خفيف من جانب الكفار ، وذلك بالرمي بالسهام والحجارة . انظر : الفتوحات الإلهية : ١/١٥٤ .

(٤) الأشهر الحرم هي : ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب .

فلمّا جاءت السنة التالية وفي الشهر ذاته اعتمر رسول الله – عليه الصلاة والسلام – والمسلمون على كراهة من كفار قريش ؛ فقيل لهم هذا الشهر الحرام بذلك الشهر الحرام ، وهتكه بهتكه فلا تبالوا به لو قاتلوكم فيه ، بل عاملوهم بمثل ذلك [١] ؛ فتهتكون حرمته عليهم كما هتكوا حرمته عليكم[٢] .

وفي قوله [الشهر الحرام بالشهر الحرام] إيجاز بالحذف . والتقدير : انتهاك حرمة الشهر الحرام كائن بانتهاك حرمة الشهر الحرام .

والألف واللام في [الشهر] للعهد الحضوري ؛ فالشهر الأوّل هو ذو القعدة من سنة سبع ، والشهر الثاني هو ذو القعدة من سنة ست . وكلا الشهرين حاضران في علم المخاطبين . وقد يكون التعريف للجنس ؛ فيفيد حكماً عاماً في كل شهر خاص من الأشهر الحرم ؛ فالحكم المذكور مناط به [٣] .

وقوله [والحرمات قصاص] تعميم للحكم ؛ ولذلك عطف على سابقه ليكون كالحجة له .

والألف واللام في [الحرمات] للعهد الحضوري ، والمقصود بتلك الحرمات : حرمة الشهر ، وحرمة الإحرام ، وحرمة البلد الحرام [٤] .

ومعنى كون الحرمات قصاصاً أي متساوية في المجازاة والانتصاف ؛ فمن انتهك حرمتها بجناية يعاقب عليها جزاء جنايته ، والعلّة في ذلك أن الله جعل الحرمة للأشهر الحرم لقصد الأمن في أداء العبادة ؛ فإذا أراد أحد أن يتخذ ذلك ذريعة إلى غدر الآمن أو الإضرار به ؛ فعلى الآخر الدفاع عن نفسه ؛ لأن حرمة الناس مقدّمة على حرمة الأزمنة والأمكنة [٥] . وفي تلك العبارة من حسن الإيجاز وبداعته ماهو ظاهر[٦] .

---

(١) انظر : جامع البيان : ١٩٦/٢ ، والجامع لأحكام القرآن : ٢٥٤/٢ ، وتفسير أبي السعود : ٢٠٤/١ .
(٢) انظر : البحر : ٦٩/٢ .
(٣) انظر : التحرير : ٢١١/٢ .
(٤) انظر : البحر : ٦٩/٢ .
(٥) انظر : التحرير : ٢١١/٢ .
(٦) انظر : تفسير المنار : ٢١٢/٢ .

قوله [فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم] مؤكِّد لما قبله ، وهو تفريع عن قوله [والحرمات قصاص] ونتيجة له (١) .

والأمر بالاعتداء للإباحة فليس حتماً لازماً ، بل يجوز العفو (٢) .

وسمّى أخذ الحق والاقتصاص من المعتدي اعتداء من باب المشاكلة التي هي عند البلاغيين : ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته (٣) . وطرافة المشاكلة هنا في الأثر البلاغي الذي تركته في نفوس المخاطبين ؛ فإنه يخيل لهم أن المعنى الثاني هو عين المعنى الأوّل فيَشفي صدورهم أن يردّوا عادية عدوّهم ليس على سبيل الجواز فحسب بل خرج ذلك في أسلوب الأمر الذي يُذهب مافي النفس ، ويجعل المعتدَى عليه متمكّناً من عدوّه ؛ فيكون الخيار بيده والعفو إليه ؛ فإن شاء مضى في قصاصه ، وإن شاء عفى وهو خير له ، وخصوصاً إذا ترتب على العفو مصلحة ظاهرة كرجاء إسلامه أو توبته أو تألّف قبيلته أو نحوه .

والذي يؤمّن أخذ الحق من الجور هو تقييده بالمثلية في قوله [بمثل ما اعتدى عليكم] والمعنى : بعقوبة مثل جناية اعتدائه في المقدار وفي الأحوال (٤) .

وإظهار فعل الاعتداء مرة أخرى في موضع يغني عنه الإضمار فيه تقبيح لشأن الاعتداء أصلاً وأنه مذموم ، وأن تجويز الاقتصاص من المعتدي من أجل ردّ عاديته وكفّ أذاه وإشعاره بالإهانة التي هو البادئ بها .

قوله [واتقوا الله] جملة مستأنفة مسوقة للتحذير من المبالغة في الانتقام (٥) ؛ لأن من شأن النفس الغضبى حب المبالغة في الانتقام ممن نال منها حنقاً عليه وغضباً من فعله ، فأمروا بعدم تجاوز الحدّ في ذلك أو الإفراط فيه ، وهنا تكمن حكمة الله تعالى في تربية عباده على الاعتدال والعدل في جميع شؤونهم حتى فيما يقع على ذواتهم من ضرر أو أذى ؛ فلم يُبن الإسلام على تحكيم الشهوات أو الانتصار لها ،

---

(١) انظر : البحر : ٢/٦٩ ، والتحرير : ٢/٢١١ .
(٢) انظر : البحر : ٢/٧٠ ، وروح المعاني : ٢/٧٧ .
(٣) الإيضاح : ١٩٨ .
(٤) انظر : البحر : ٢/٧٠ ، والتحرير : ٢/٢١١ .
(٥) انظر : الفتوحات الإلهية : ١/١٥٤ ، وإعراب القرآن وبيانه : ١/٢٨٣ .

وإنما بُني على النّصفة والعدل في الغضب والرضى وفي الأخذ والعطاء وجُعل ذلك كله أمارة للتقوى .

قوله [واعلموا أن الله مع المتقين] فيه لطائف بلاغية : -

١ - الواو عاطفة مابعدها على ماقبلها ، والذي سوغ الوصل هو اتفاق الجملتين في الإنشائية ؛ فكلتا الجملتين أمر والآمر واحد والمأمور واحد أيضا .

٢ - في افتتاح الكلام بفعل الأمر الطلبي المتضمن طلب العلم إيذان بالاهتمام بشأن مابعده ، وأنه من الأهمية بمكان حريّ بأن يُعتنى به ويُفهم مضمونه ؛ كما يقول المتكلم لمن يخاطبه : اعلم ... وذلك إنباء بأهمية ماسيُلقي إليه (١) .

٣ - في إظهار لفظ الجلالة في موضع الإضمار اعتناء بشأن المتقين ، وأنهم بمكان عند الله عز وجل .

٤ - المراد بالمعية المذكورة معية عون ونصر وتأييد وتوفيق ، ومن كان الله معه حصلت له السعادة الأبدية الدنيوية والأخروية ، وهذه معية خاصة بالمتقين ، وفي ذلك تعريض بغير المتقين بأن يتخلى عنهم مولاهم ؛ فيكون هلاكهم أقرب إليهم من حبل الوريد(٢) .

٥ - في الآية ردّ للعجز على الصدر ؛ فقد ردّ [المتقين] وهو اسم على [اتقوا] وهو فعل ؛ وذلك بطريق جناس الاشتقاق ، فقد جانس بين فعل التقوى ومن اتصف بها تنبيهاً للمخاطبين أن من شأن أمرهم بلزوم التقوى أن يكونوا متقين قولاً وعملاً حتى يصح أن يسمّوا : متقين ؛ لأن من اتسم بهذا الاسم فإن منزلته عظيمة عند مولاه يستحق بها أن يكون الله جل وعلا معه ناصراً ومؤيداً ومعيناً وموفقاً ، وبذلك تكتمل سعادته ، وينخذل عدوّه ، ويخلد نعيمه .

وفي ردّ العجز على الصدر بمادة التقوى تنويه بشأن التقوى وتمكين لها في نفوس المخاطبين حين كرّر مادتها مرتين ؛ الأولى في صورة الأمر ، والثانية في صورة الوصف ، وفي ذلك شحذ إيماني للمخاطبين على أن يلبسوا لباس التقوى ؛ فهو خير لباس يُرتدى . ويزيد من شأنها كون الآية قد انتهت بها بعد أن صدّرت بأمرها ؛ مما

---

(١) انظر : التحرير : ٢/٢١١ .

(٢) انظر : تفسير كلام المنان : ١/٢٣٥ .

يجعل المخاطبين بها والتالين لها يقفون عندها وقفة عبرة ونظر وتأمل وبصر بشأن من كان الله معه : كيف يكونون في عدادهم ومن جملة أفرادهم .

ومما جاء في ردّ الأعجاز على الصدور ماورد عن الله تعالى في شأن المنافقين الذين وعدوا إخوانهم اليهود بالخروج معهم إن أُخرجوا وبنصرتهم إن قوتلوا فقال تعالى : ﴿ . . والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾[١] ثم قال : ﴿ لئن أخرجوا لايخرجون معهم ولئن قوتلوا لاينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لاينصرون ﴾[٢].

قوله [لئن أخرجوا لايخرجون معهم] شروع في بيان ما أجمل من كذبهم ، ولذا فصلت هذه الجملة عما تقدّمها ؛ لما بينهما من غاية الاتصال .

واللام موطئة للقسم ، وفي ذلك مشاكلة لقسمهم المتقدم عندما وعدوا اليهود بأن يخرجوا معهم إذا أُخرجوا ؛ وهذا تأكيد من الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم أنهم لن يضروه شيئاً ، وذلك لكيلا يعبأ بما بلغه من مقالتهم[٣] ، فكما أقْسموا أقْسَم الله عز وجل وشتان مابين المُقْسِمين والقَسَمَين . وهذا القسم من الله عز وجل تكذيب لمقالتهم الأولى .

وقوله [لئن قوتلوا لاينصرونهم] قسم من الله عز وجل يكذّب مقالة المنافقين الثانية ؛ ولقد كان الأمر كما أخبر عز وجل ؛ فقد راسل ابن أبيّ وصحبه بني النضير سراً بأن يبقوا في حصونهم وأنهم ناصروهم ، وصدق الله العظيم ، وكذب المنافقون وانخذلوا ؛ يقول إسماعيل حقي : " وفيه حجّة بيّنة لصحة النبوة وإعجاز القرآن ؛ أما الأوّل فلأنّه أخبر عما سيقع فوقع كما أخبر ؛ وذلك لأن نزول الآية مقدم على الواقعة ؛ وعليه يدل النظم ؛ فإن كلمة [إنْ] للاستقبال . وأما الثاني فمن حيث الإخبار عن الغيب "[٤].

وقوله [ولئن نصروهم ليولّن الأدبار ثم لاينصرون] فيه لطائف بلاغية : -

---

(١) الحشر : ١١ . وانظر ماكتب عن هذه الآية : ٥٢٢ - ٥٢٧ .
(٢) الحشر : ١٢ .
(٣) انظر : التحرير : ٢٨/١٠٠ .
(٤) روح البيان : ٩/٤٣٩ .

١ - قد يقال : كيف قيل [ولئن نصروهم] بعد الإخبار بأنهم لاينصرونهم ؟
يقول الزمخشري جواباً عن ذلك : " معناه : ولئن نصروهم على الفرض والتقدير؛ كقوله تعالى :﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾[١] وكما يعلم مايكون فهو يعلم مالا يكون لو كان كيف يكون ٠ والمعنى : ولئن نصر المنافقون اليهود لينهزمنّ المنافقون ثم لاينصرون بعد ذلك ؛ أي : يهلكهم الله تعالى ولاينفعهم نفاقهم لظهور كفرهم ٠ أو لينهزمن اليهود ثم لاينفعهم نصرة المنافقين "[٢]٠ وقال ابن عاشور : " والمعنى أنه لو فرض أنهم أرادوا نصرهم فإن أمثالهم لايترقب منهم الثبات في الوغى ؛ فلو أرادوا نصرهم وتجهّزوا معهم لفرّوا عند الكريهة ، وهذا كقوله تعالى :﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّازَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ . . ﴾[٣] "[٤].

٢ - في قوله [ليولّن الأدبار] كناية عن الانهزام[٥] ، لأن من لازم تولية الأدبار ، ترك ساحة القتال والفرار إلى الأمام وجعل الدبر إلى الفئة المقابلة في المعركة ، وهذا يعني الانهزام في أبشع صُوَره ٠

٣ - العطف بـ [ثمّ] للتراخي الرّتبي ؛ فإن انتفاء النصر أعظم رتبة في تأييس أهل الكتاب من الانتفاع بإعانة المنافقين ؛ فهو أقوى من انهزام المنافقين إذا جاؤوا لإعانة أهل الكتاب في القتال[٦] ٠

٤ - في دخول حرف النفي على الفعل المضارع [لاينصرون] دليل على انتفاء مادة نصرعم حاضراً ومستقبلاً ؛ فلا مطمع لهم فيها ؛ وفي ذلك غاية التيئيس ٠

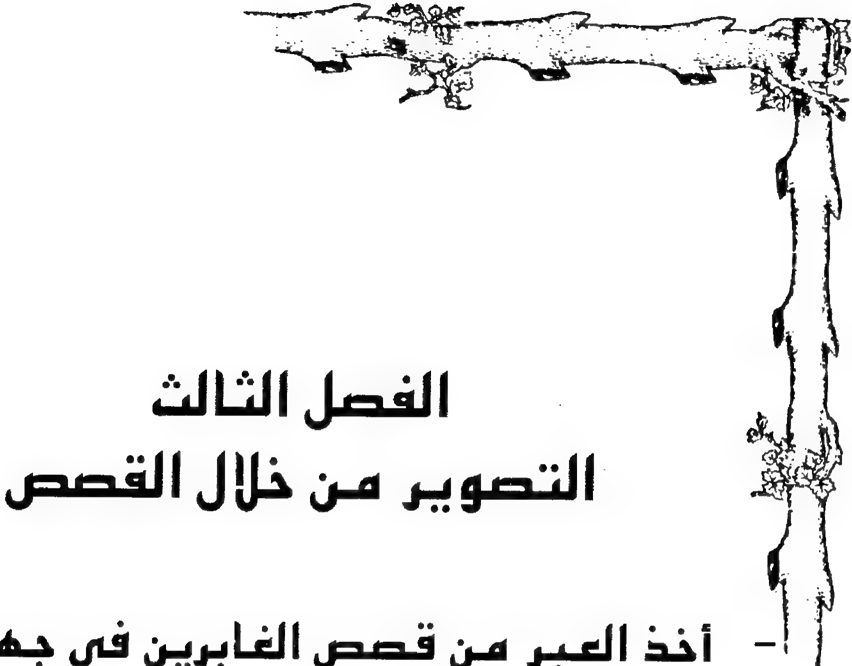
---

(١) الزمر : ٦٥ ٠
(٢) الكشاف : ٩٨/٦ ٠
(٣) التوبة : ٤٧ ٠
(٤) التحرير : ١٠١/٢٨ ٠
(٥) انظر : روح البيان : ٤٣٩/٩ ٠
(٦) انظر : التحرير : ١٠١/٢٨ ٠

٥ - في الآية رد للعجز على الصّدر ؛ فقد ردّت فاصلة الآية [لاينصرون] على [نصروهم] ؛ وقد أفاد هذا المحسّن تمكين المعنى في الذهن ؛ فإن النصر المفترض من المنافقين لليهود في قوله [ولئن نصروهم] جعل السامع ينتظر جواباً لهذا القسم ؛ فلمّا قيل : [ليولّن الأدبار] قطع بانهزامهم ، فلمّا صُعّد الموقف بـ [ثمّ] انتُظر أمر أطم وأعظم بقرينة تولية الدّبر ، فلما قيل [لاينصرون] بإعادة مادة النصر المُفْترضة - قُطعت الإطماع في شيء اسمه نصر أو معونة ؛ وذلك أنّ تولية الدّبر وهي الهزيمة قد يُفْهم منها أنّ هؤلاء الفارّين قد يجمعون فلولهم مرّة أخرى فيكرّون لينتصروا من هزيمتهم ؛ فلمّا جاءت الفاصلة بنفي مادة النصر من أصلها حاضراً ومستقبلاً علم انقطاع هذه المادة وانتفاء أسبابها ؛ فلم يَعُد ثَمَّ تفكير أصلاً فيها ، ولم يبق سوى عض أصابع الندم ، ثم الموت غيضاً وكمدا (١).

---

(١) ومن صور ردّ الأعجاز على الصدور ؛ انظر : ٣٦١ ، ٥٠٠ .
ومن صور البديع الأخرى ؛ تأكيد المدح بما يشبه الذم : ٢٩١ ، الأسلوب الحكيم : ٣٢٣ ، فنّ الإشارة : ٣٦٢ ، المشاكلة : ٣٧٠ ، ٥٣٤ .



الفصل الثالث
التصوير من خلال القصص

- أخذ العبر من قصص الغابرين في جهادهم أو قعودهم .
- أثر القصص في نفوس المجاهدين .
- تصوير المعارك من خلال القصص .

التصوير من خلال القصص

توطئـــة :

القصص واحد القصّة ، وهي من القصّ ، وهذا المصدر أصل صحيح يدل على تتبّع الشيء ، واقتفاء أثره ، ومنه قيل : القاص يقصّ القَصص لاتباعه خبراً بعد خبر وسوقه الكلام سوقاً [(١)] .

ويسمّى ذكر الأخبار السالفة قصّاً ؛ لأنه منقول من قَصّ الأثر إذا تتبع مواقع الأقدام ليتعرف منتهى سير صاحبها ، فكأن حكاية أخبار الماضين تشبه اتّباع خطاهم[(٢)] ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً** ﴾[(٣)] وقوله : ﴿ **وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ** ﴾[(٤)] . ويطلق على القَصَص : الأثر ، وتتبعه هو قصّه وحكايته[(٥)] .

فتتبع الخبر والإعلام به هو قصّ له ؛ وفي ذلك يقول سبحانه :﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ** ﴾[(٦)] . يقول ابن عاشور عن هذه الآية : " وجعل هذا القصص أحسن القصص ؛ لأنِ بعض القصص لايَخْلو عن حسن ترتاح له النفوس ، وقصص القرآن أحسن من قصص غيره من جهة حسن نظمه وإعجاز أسلوبه ، وبما يتضمّنه من العبر والحكم ؛ فكل قصص في القرآن هو أحسن القصص في بابه ، وكل قصة في القرآن هي أحسنُ من كل مايقصّه القاص في غير القرآن ، وليس المراد أحسن قصص القرآن حتى تكون قصّة يوسف – عليه السلام – أحسن من بقية قصص القرآن ، كما دل عليه قوله [بما أوحينا إليك هذا القرآن] والباء في [بما أوحينا إليك] للسببية متعلّقة بـ [نقص] ؛ فإن القصص الوارد في القرآن كان أحسن لأنه من العليم الحكيم ، فهو يوحي مايعلم أنه أحسن نفعاً للسّامعين في أبدع الألفاظ والتراكيب ؛ فيحصل منه غذاء العقل والروح وابتهاج النفس والذوق مما لاتأتي بمثله عقول البشر"[(٧)] .

---

(١) انظر : معجم مقاييس اللغة : مادة : قص ، وكذا اللسان في مادة : قص .

(٢) انظر : التحرير : ٢٠٣/١٢ .

(٣) الكهف : ٦٤ .

(٤) القصص : ١١ .

(٥) انظر : المفردات : ٤٠٤ .

(٦) يوسف : ٣ .

(٧) التحرير : ٢٠٣/١٢ - ٢٠٤ .

والقصة القرآنية هي حديث من القرآن الكريم ينبئ عن آثار الغابرين ، ويحكي أحداثاً ماضية من أجل العظة والاعتبار(١) .

والمستَنَد في ذلك هو قوله تعالى :﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَاكَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾(٢).

فمن غايات القصة القرآنية أنها تساق للعبرة والموعظة ، أو تساق للقدوة وتثبيت العزيمة ، أو تساق للتعليم والهداية (٣) . وجماع غاياتها إرشاد النفوس إلى الهدى ، وتصحيح العقيدة وتقريرها(٤) .

ولكن كيف تدور أحداث القصة القرآنية ، ومن يكون بطلها ؟ .

يقول أحد الباحثين في " قصص القرآن " : " البطل هو القانون التاريخي المرتبط بعقيدة الإنسان وأخلاقه وسلوكه ، البطل هو هذا القانون الذي تظهرنتائجه في أقوال وأفعال الإنسان المؤمن أو الكافر صحيحة الآثار في الجماعة التي يعبر عنها أو التي يعارضها ... البطل في منهج قصص القرآن هو الأسوة لغيره ، وهو القدوة لمن يقتدي به ؛ لأنّه أعطى القانون التاريخي في قوله وعمله على أن الإيمان هو الطريق الصحيح لمسيرة البشر نحو هدف جماعي ، وتقدم علمي ، ونصر محقّق ... إن منهج القصص القرآني يؤكّد أن الإيمان الذي يقيم السواسية ، ويجري به تقاسم الأموال ، واليقين بالحساب عن الأعمال ، وباستمرار الحياة بعد الحياة – هو مصدر قوة الأمم ، وقاعدة أمنها وازدهارها ، كما يؤكّد أن الأمم لاتسقط بعد إيمانها وقوتها إلاّ بالترف الذي يجرّها إلى الكفران ، ويدفعها إلى التهاون في العمل ، وإلى اللهو والشذوذ ... "(٥).

---

(١) للدكتور إبراهيم عوضين مفهوم قريب مما ذكر ؛ فانظر إليه في : البيان القصصي في القرآن : ١٨ .

(٢) يوسف : ١١١ .

(٣) انظر : خواطر في الفن والقصة : ٦٠ للعقاد .

(٤) انظر : خصائص القصة الإسلامية : ٩٨ . للدكتور مأمون جرار .

(٥) قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية والمسرح : ٢١٢-٢١٣ . لأحمد موسى سالم .

فقصص القرآن الكريم تدور أحداثها على الحق والباطل إظهاراً للأوّل ودحضاً للثاني ، وبذلك تتحقق الهداية التي هي غاية القرآن الكريم ، ﴿ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ .. ﴾[1] ، وبذلك كانت من الدين ، وكان ماينْسج على منوالها في غاياتها من الدين أيضاً ؛ فالقصة القرآنية سنَّت لمن اتقى من الدعاة سبيل الالتزام بالدين ودعوة الناس إليه من خلال الأسلوب القصصي . وعلى ذلك فـ " القصص القرآني ، وجميع القصص الذي يقوده القرآن ويوجهه في آداب اللغة العربية[2] هو من الدين في صدقه ومنهجه وأهدافه ، وأعظم مايميزه عن غيره أنه يخلص إلى العظة في الخبر الذي يقصّه ، وإلى العلم الذي يستخلصه من الخبر ، وإلى الآية المضيئة التي يرفعها أمام عين المؤمنين دون أن يتعرض القارىء أو المنصت إلى مايثير غريزته ، أو إلى مايستفزه لخيال كاذب ، أو خاطر معيب ، وإنما هو بما يقرأ أو يسمع لايعلق به من مشاهد النزاع بين الحق والهوى في حياة الإنسان ، ومخاضات فتنته - إلاّ بَرْد الطّهر وسلامه ، وصوت العصمة ورحمتها ... "[3].

والقصص ذو طبيعة تصويرية ، والقصة القرآنية لاتقف بالتصوير عند حدّ تصوير الأشخاص والعواطف والانفعالات ، بل هي كذلك تصوّر الأحداث والمواقف ؛ فتقدّمها مشاهد حيّة تتراءى فيها النبضات والخفقات والحركات والسكنات ، ويسمع مايدور فيها من حوار ، ومايتردد فيها من أحاديث وآراء ، ومايقع من صواب أو أخطاء ، حتى يخيّل إليك أنك واحد من أبطالها[4] ؛ فالعرض التصويري من أبرز سمات القصة القرآنية عندما تتناول الأحداث والوقائع ، وسوف نرى شيئاً من جمال هذا العرض عندما نتناول بعض المواقف الجهادية ، والأحداث الحربية في المباحث الآتية إن شاء الله تعالى .

---

(١) البقرة : ١٨٥ .

(٢) ليس ذلك مقصوراً على آداب اللغة العربية بل وآداب غيرها من اللغات التي ينطق بها غير العرب من المسلمين .

(٣) قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية والمسرح : ٢٣٥ ، وانظر : منهج الفن الإسلامي : ٢٢٩-٢٥٢ .

(٤) انظر : التصوير الفني : ١٤٣ - ٢١٥ ، والبيان القصصي في القرآن : ١٣٣-١٣٥ . وانظر لمزيد من المعرفة بالقصص القرآني : روائع الإعجاز في القصص القرآني لمحمود السيد حسن ، والآفاق الفنية في القصة القرآنية لمحمد ناجي مشرح ، والإعجاز اللغوي في القصة القرآنية لمحمود السيد حسن وحسن عون ، وقصص القرآن في مواجهة أدب الرواية والمسرح لأحمد موسى سالم . وغيرها .

أخذ العبر من قصص الغابرين في جهادهم أو قعودهم :

مامن أمة من الأمم من لدن نوح عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم إلاّ ولها صولات وجولات تقوم وتقعد بين الحق والباطل ، ولقد كانت أمة محمد عليه الصلاة والسلام آخر الأمم ، ولذلك فإنها تستفيد من تجارب من تقدمها في ميادين الجهاد ؛ فتأخذ بأسباب الفلاح والنصر والظفر ، وتبتعد عن مواقع الهزائم والردى ، ولذلك فقد قصّ الله عز وجل على نبي هذه الأمة وأتباعه من سير السابقين على هذه الأمة ماينير السبل أمامهم ويثبتهم على الحق بما يرونه ويعلمونه من آيات الله الباهرة في نصر أوليائه وخذل أعدائه قال تعالى : ﴿ **وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَانُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (١).

وكثيرا مايختار الله عز وجل أنبه الأمم شأناً ، وأكثرهم نِعَما ، ممن أغدق الله عليهم مظاهر نعمته ، وذلك كبني إسرائيل ، الذين كثر ذكرهم في الكتاب العزيز تنبيهاً لأمة سيد المرسلين وتحذيراً لهم من أن يقعوا في أخطائهم ، أو يسروا سيرتهم في العناد والمكابرة وغير ذلك من صفات الضلال التي أورثتهم الذل والعار في الدنيا والآخرة .

وقبل البدء بذكر قصة بني إسرائيل مع طالوت ، نورد نصّ قصة قصيرة المقطع في آية واحدة ذكرت قبل القصة المشار إليها ، وهي واقعة في بني إسرائيل أيضاً ، فقد قال تعالى تعجيباً من شأنهم وتشويقاً لقصتهم : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَشْكُرُونَ** ﴾(٢).

ويروي الضحاك قصتهم بأنهم قوم من بني إسرائيل أمروا بالجهاد فخافوا الموت بالقتل المصاحب له ، فخرجوا من ديارهم فراراً من ذلك ، فأماتهم الله ليعرفهم أنه لاينجيهم من الموت شيء ، ثم أحياهم ، وأمرهم بالجهاد في قوله : ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾(٣).

---

(١) هود : ١٢٠ .
(٢) البقرة : ٢٤٣ .
(٣) البقرة : ٢٤٤ . انظر : المحرر الوجيز : ٢/٢٤٥ - ٢٤٦ .

وبالتأمل في النص القرآني الكريم الذي ساق قصة أولئك نجد أنه قد أبرز عناصر محدّدة في قصتهم هي موضع العبرة والعظة ، وأهمل ماعداها مما لاجدوى من وراء ذكرها . فقد أبرز الآتي :

١ - كثرة أولئك القوم وكونهم جماعات كثيرة غير قليلة ، والذي أفاد هذا هو اسم الموصول بصيغة الجمع [الذين] ، وأصرح منه الإخبار عنهم بالجملة الحالية [وهم ألوف] .

٢ - تحقق خروجهم من ديارهم وفزعهم منها بعدما كانوا آمنين فيها مطمئنين إليها. والعلة التي حركتهم من ديارهم وأزعجتهم منها هي الخوف من الموت والفزع منه ، فهربوا منه طلباً للحياة ورغبة فيها .

٣ - أنهم جوزوا بنقيض قصدهم ، وبما فرّوا منه وهو أن أذاقهم الله طعم ماكرهوه وهو الموت فأماتهم .

٤ - أنه أحياهم وردّ إليهم أرواحهم بعد أن تطاول عليهم الأمد وتقادم بهم الزمن ؛ كما أفهمه العطف بحرف التراخي الزمني [ثم] [١].

٥ - إظهار فضل الله تعالى على هؤلاء الذين قضى عليهم بعقوبة الموت ثم وهب لهم الحياة مرة أخرى ، وهي من أعظم المعجزات لهم ولغيرهم ممن يسمع بقصّتهم.

وأمّا بقية عناصر القصّة فلم تظهر على مسرح أحداثها ؛ لكونها لايتعلّق بها جليل فائدة أو عظيم منفعة ؛ بل اقتصر على مايبلّغ العبرة ، ويحقّق الغاية المناطة بها، وعلى ذلك جرى نظم ألفاظها .

فعلى سبيل المثال لم يذكر في النص الكريم : من أولئك ؟ ومن أي الأقوام ؟ وفي أيّ أرض كانوا ؟ وفي أي زمان عاشوا ؟[٢].

فهذه وتلك لم تكن مرادة في القصة ؛ فلم يُرد أحداثها ولا أماكنها ، ولازمانها ، وإنما المراد منها العبرة والعظة[٣] ، ويكفي في حصولها إيراد مقصودها ، فالقرآن

---

(١) انظر : نظم الدرر : ٣/٣٩٥ .
(٢) انظر : في ظلال القرآن : ١/٢٦٣ - ٢٦٤ .
(٣) انظر : في ظلال القرآن : ١/٢٦٣ - ٢٦٤ .

كتاب هداية ؛ يروي من أحداث القصص مايحقق هذه الغاية ، وقد بني على الإيجاز والإعجاز ؛ فما كان يتوقف عليه المراد والمغزى ذكر وانتظم لفظه ، ومالا فلا .

ثم لم يكشف النص الكريم عن كيفية إماتتهم ؛ كما لم تُعلم كيفية إحيائهم ، فإن ذلك لم يرد عنه بيان ولاتفصيل ؛ لأنه ليس موضع العبرة ، إنما مناط الاعتبار هو أن الفزع والجزع والخروج والحذر لم يغيّر مصيرهم ، ولم يدفع الموت عنهم ، ولم يَصْرف قضاء الله الماضي فيهم ، فكان الأولى بهم هو الثبات والصبر والتجمّل والاحتساب لو كانوا يفقهون .

وعلى ذلك فثمرة الاعتبار في هذا المشهد القصصي القصير هو أن الهلع لايرد القضاء ، وأن الفزع لايحفظ حياة ، وأن الحياة وأسبابها بيد واهبها لايتوقف عليها كبير جهد في استجلابها ولامزيد عناء في المحافظة عليها ، فلا نامت أعين الجبناء(١) .

ومما جاء مفصّلاً من القصص القرآني وهو في صميم الجهاد ماورد عن قوم من بني إسرائيل ، وهي قصة طالوت مع جالوت ، وسأذكر نصّ الآيات الكريمات التي حكت القصة ، ثم أقف على أهم العبر والعظات التي ضمتها تلك القصة العجيبة من خلال نظم ألفاظها ، ومن معاني نظمها .

قال عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ

(١) انظر : في ظلال القرآن : ١/٢٦٣ - ٢٦٤ .

فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾(١).

وقبل الشروع في استنطاق العبر والعظات من القصة ، أورد كلاماً رأيت وجه الحسن فيه ظاهراً ، كتبه الشيخ : محمد رشيد رضا ، بيّن فيه وجه ارتباط هذه القصة بما قبلها من الآيات ، وبخاصة قصة الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت التي سقتها آنفاً ؛ ومما قاله الشيخ رشيد : " إنّ وجه الاتصال بين آيات هذه القصة وماقبلها هو أن الآيات التي قبلها نزلت في شرع القتال لحماية الحقيقة وإعلاء شأن الحق ، وبذل المال في هذه السبيل ؛ سبيل الله لعزّة الأمم ومنعتها وحياتها الطيبة ، التي يقع من ينحرف عنها من الأقوام في الهلاك والموت ، كما علم من قصة الذين خرجوا من ديارهم فارّين من عدوّهم على كثرتهم . وهذه القصة – قصة قوم من بين إسرائيل – تؤيّد ماقبلها من حاجة الأمم إلى دفع الهلاك عنها ؛ فهي تمثّل لنا حال قوم لهم نبيّ يرجعون إليه ، وعندهم شريعة تهديهم إذا استهدوا ، وقد خرجوا من ديارهم وأبنائهم بالقهر ، كما خرج أصحاب القصة الأولى بالجبن ؛ فعلموا أن القتل ضرورة لابد من ارتكابها مادام العدوان في البشر ، وبعد هذا كله جبنوا وضعفوا عن القتال ؛ فاستحقوا الخزي والنكال ؛ فهذه القصة المفصلة فيها بيان لما في تلك القصة المجملة ؛ فَرَّ أولئك من ديارهم فماتوا بذهاب استقلالهم واستيلاء العدو على ديارهم ؛ فالآية هناك صريحة في أن موتهم هذا مُسَبَّب عن خروجهم فارّين بجنبهم ، ولم تصرح بسبب إحيائهم الذي تراخت مدّته ، ولكن ماجاء بعدها من الأمر بالقتال وبذل المال

---

(١) البقرة من : ٢٤٦ – ٢٥٢ .

الذي يضاعفه الله تعالى أضعافاً كثيرة ، قد هدانا إلى سننه في حياة الأمم ، وجاءت هذه القصة الإسرائيلية تمثّل العبرة فيه ، وتفصّل كيفية احتياج الناس إليه ؛ إذ بيّنت أن هؤلاء الناس احتاجوا إلى مدافعة العادين عليهم ، واسترجاع ديارهم وأبنائهم من أيديهم ، واشتدّ الشّعور بالحاجة حتى طلبوا من نبيهم الزعيم الذي يقودهم في ميدان الجلاد ، وقاموا بما قاموا به من الاستعداد ، ولكن الضعف كان بلغ من نفوسهم مبلغاً لم تنفع معه تلك العدّة ، فتولّوا وأعرضوا للأسباب التي أشير إليها ، وألْهَم القليل منهم رشدهم ، واعتبروا ؛ فانتصروا "(١).

ويلاحظ أن القصتين التقتا من حيث افترقتا في البداية ؛ فأولئك لمّا علموا بالعدو خرجوا من ديارهم حذر الموت على الرغم من كثرتهم التي لم تغن عنهم شيئاً ، وهؤلاء لمّا أخرجوا من ديارهم وفقدوا أبناءهم - طلبوا لقيا الموت بطلب قائد يقودهم لجهاد العدوّ في سبيل الله ؛ فلمّا لُبّي طلبهم تولّوا ونكصوا على أعقابهم فراراً من الموت إلاّ قليلاً منهم تداركتهم رحمة الله وعنايته .

ومن عبر قصة طالوت مع جالوت وماجرى فيها من العظات ؛ مما ينبغي لهذه الأمة أن تستفيد منها في جهادها لأعدائها مايمكن إجماله في الآتي : -

١ - المقصد السامي من افتتاح هذه القصة - والقصة التي قبلها - بالاستفهام التعجبي كشف عنه صاحب " نظم الدرر " فقد قال : " أراه في الأولى حال أهل الحذر من الموت بما في الأنفس من الهلع الذي حذرت منه هذه الأمة ، ثم أراه في هذه مقابل ذلك من الترامي إلى طلب الحرب ، وهما طرفا انحراف في الأنفس ، قال صلى الله عليه وسلم : [لاتتمنّوا لقاء العدو واسألوا الله العافية ؛ فإذا لقيتموه فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف](٢) ففيه إشعار لهذه الأمة بأن لاتطلب الحرب ابتداء ، وإنما تدافع عن منعها من إقامة دينها ،

---

(١) تفسير المنار : ٢/٤٧٤ - ٤٧٥ .

(٢) هذا الحديث روي بروايات متعدّدة ؛ وأصله عند البخاري ومسلم وأبي داود ؛ انظر تخريج الحديث ورواياته في : مشارع الأشواق : ٢/١٠٨١ - ١٠٨٣ .

كما قال سبحانه : ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا** ﴾[١] وقال عليه الصلاة والسلام [متمثلا بهذا البيت] :

والمشركون قد بغوا علينا * إذا أرادوا فتنة أبينـا

فحق المؤمن أن يأبى الحرب ولايطلبه ؛ فإنه إن طلبه فأوتيه عجز كما عجز هؤلاء حين تولّوا إلا قليلاً ، فهذه الأقاصيص ليس المراد منها حديثاً عن الماضين ، وإنما هو إعلام بما يستقبله الآتون ، إياك أعني واسمعي ياجارة .. "[٢].

٢ - أن الأمة إذا اعتدي على استقلالها ، ونيل من أبنائها ، وهضمت حقوقها فإن مشاعرها تستيقظ بعد غفلة ، وتتنبه بعد سبات ، وتفكر في سبيل رفع ذلك الظلم[٣] ، وإزالة أسباب الضيم ، وتطلب من صاحب النباهة والشأن فيها أن يلمّ شعثها ويحزم أمرها على رجل واحد يقودها إلى الجهاد ويمضي بها في سبيل دينها وإعلاء شأنها ، كما حصل مع أولئك القوم الذين طلبوا من نبيهم أن ينصب لهم قائداً يقودهم وملكاً يسترشدون برأيه ويجرون خلفه في طلب حقوقهم وإعادة أمرهم إلى نصابه .

٣ - أن شعور الأمة بواجب المحافظة على حقوقها ، وصيانة دينها ، والذّب عن استقلالها إنما يكون على حقيقته ويظهر مكتملاً في خواصّها وذوي المكانة فيها، وأصحاب الوجاهة من رجالها ، فمتى كثر هؤلاء الخواص في أمة فإنهم هم الذين يطلبون من الرئيس الذي يملك عليهم أمرهم أن ينادي في الناس بالجهاد من أجل حماية الدين ودفع المعتدين ؛ كما هو ظاهر من إسناد طلب الملك إلى الملأ من بني إسرائيل ، وهم شيوخهم وأكابرهم الذين يملأون العين والنفس شهامة وفضلاً ، وسداداً ورأيا [٤].

٤ - فضل الجهاد وشرفه ، وظهور فوائده ، واقتناع الناس بجني طيب ثمراته ؛ فقد اقتنع أولئك الملأ بأنّه السبيل الوحيد في حفظ الدين ، واسترداد الأوطان وصيانتها ، وحفظ الأبدان والأموال ، والذب عن الأعراض ، ثم هو سبيل العزّ

---

(١) الحج ٣٩ . انظر : ٢٨٤ ومابعدها .
(٢) نظم الدرر : ٤٠٦/٣ .
(٣) انظر : تفسير المنار : ٤٩٢/٢ .
(٤) انظر : تفسير المنار : ٤٩٢/٢ .

والتمكين على مدار الزمان ، ولذلك كله طلب الملأ من نبيهم أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله [١] .

٥ - الحرص على ذي الفضل والمكانة والتمسّك بهديه - ماوافق الحق - والاسترشاد برأيه وعدم التفريط فيه أو عصيانه ، وأن ذلك قد يفضي إلى الندم وتفويت الفرص السانحة ، ويرشد إلى هذا المعنى تنكير [نبيّ] وتعريف [موسى] ، وكون ذلك النبي قد جاء بعد موسى عليه الصلاة والسلام ، وفي ذلك إشارة إلى أن أولئك القوم أو أسلافهم قد فرّطوا في موسى عليه السلام وعصوه - إلا من رحم الله - . ولو أنّهم اتبعوه والتزموا هديه ماضلّوا وما أهينوا ، بل سيكون العزّ على رؤوسهم ، وسيقذف الله بالرعب في قلوب عدوّهم ، ويخنس شيطانهم ، فقد قال تعالى :﴿ **كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾[٢] . والغلبة تكون على العدوّ من شياطين الإنس والجن ، ومن أصدق من الله قيلا ؟ .

٦ - أن من شأن الناس الاختلاف في اختيار الرئيس أو القائد الذي يكون له رأس الأمر فيهم ، وهذا الاختلاف مدعاة التفرق والانقسام ؛ ولذا وجب أن تدرأ هذه المفسدة الكبرى المتوقع حدوثها بأن تحكّم الأمّة العاقل فيها ونابه الشأن من أبنائها ؛ ممن له شرف المنزلة أو سداد الرأي [٣] ، كما فعل الملأ من بني إسرائيل الذين طلبوا من نبيّهم أن ينصب لهم ملكاً يصدرون عن رأيه في مقاتلة عدوّهم [٤] .

٧ - أن من حقّ من لُجيء إليه وطلب منه تعيين القائد المجاهد أن يختبر القوم ليعرف مدى جدّهم ، ومقدار اقتناعهم بطلبهم ، وفي ذلك إشعار لهم بأن رأيه عزيز وأنه لايبذله إلاّ لجاد ، كما في ذلك هزّ لهم وإشعار لهم بأهمية الموضوع وأنّه إذا قطع فيه وجب المبادرة إلى تتميمه وتحصيل الغاية المناطة به ، وهذا ظاهر من

---

(١) انظر : تفسير كلام المنان : ٣٠٩/١ .

(٢) المجادلة : ٢١ .

(٣) وليس بالضرورة أن يكون ذلك المحكّم صالحاً للقيادة أو الرئاسة ، لشيخوخته أو مرضه أو عاهة في جسمه أو نحو ذلك مما لايقدح في فضله وصواب رأيه ؛ لأنه لو كان صالحاً للقيادة أو الرئاسة لوجب الصيرورة إليه .

(٤) انظر : تفسير المنار : ٤٩٢/٢ .

قول نبي الملأ لهم : [هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألاّ تقاتلوا] . فما كان منهم إلاّ أن أجابوه عن سؤاله بجواب يحمل التعليل والتدليل مما يدل على أن ذلك السؤال قوّى عزائمهم وزادهم تشبّثاً بطلبهم ؛ فقد قالوا [ومالنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا] ؟ .

٨ – أن أولئك الملأ قد علّلوا تصميمهم على الجهاد بأنهم قد أُخرجوا من ديارهم وأبنائهم ؛ فخلطوا بذلك مالله بما لغيره ، وهو أغنى الشركاء لايقبل إلاّ خالصاً، فتبيّن بذلك أنهم قد أسندوا أمر جهادهم إلى غضب الأنفس على الإخراج من الديار وفقد الأبناء ، ولم يكن طلبهم للجهاد غضباً لله ولدينه ويندرج في ذلك استرجاع الديار وفك الأسرى من الأبناء واسترداد الأموال والممتلكات ، فنبّه بذلك إلى أن نيتهم في البداية كانت مدخولة، وإنما يقاتل في سبيل الله من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى .

٩ – أن خُلْف الوعد مع قُرب العهد أشْنع ، وهذا ماسُجّل عليهم بقوله تعالى [فلمّا كُتب عليهم القتال تولّوا إلاّ قليلاً منهم] ؛ فالفاء مؤذنة بالتعقيب[١] على استعدادهم الذي قطعوه على أنفسهم بالمقاتلة في سبيل الله ؛ فخلفهم ذلك كان عقيب تعهدهم مباشرة .

١٠– في قوله تعالى عقب حكاية خبر إعراضهم عن القتال [والله عليم بالظالمين] إعلام بظلمهم أنفسهم وكذبهم على نبيهم وقبل ذلك على ربّهم ، وفي ذلك إشعار بأنهم سألوا البلاء وكان من حقهم سؤال العافية ، ثم لما أجيبوا إلى ماسألوا أعرضوا عنه ؛ فكفّوا حيث ينبغي المضاء ، ومضوا حيث كان ينبغي الكف ؛ فعصوا الله الذي أوجبه عليهم ؛ فجمعوا بين عار الإخلاف وفضيحة العصيان ، وخزي النكوص عن الأقران ، وقباحة الخذلان للإخوان[٢] .

١١– أن من حقّ حكيم القوم وزعيمهم مناقشتهم في ماحصل منهم من خطأ أو تقصير ومساءلتهم في هذه الأمور حتى يستبين الأمر ؛ فإن كان لديهم مايقنع أخذ به ، وإلاّ فإنه سبيل إلى إقامة الحجة عليهم ، وإلزامهم بها ، وهذا ما أشعر

---

(١) انظر : نظم الدّرر : ٤١٢/٣ .
(٢) انظر : نظم الدرر : ٤١٣/٣ .

به قوله تعالى [وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا] أي : بناء على سؤالكم وتلبية لطلبكم ؛ فلم نكصتم ؟ ! . فقد أراد تقريرهم بهذا الكلام والبحث عن علّة نكوصهم .

١٢- أنّ أولئك الملأ قد أوتوا الجدل وكان ظاهراً فيهم أدى بهم إلى الاعتراض على حكم الله واختياره عندما ردّوا على نبيهم وعارضوه في تعيين طالوت ملكاً عليهم، وفي ذلك دلالة على ضعف يقينهم ، وسلاطة ألسنتهم ، وقلّة حيائهم ، وانتفاء أدبهم ، وهي خلال إذا ظهرت في قوم ولاسيما في أوقات الأزمات والحروب فإنها تقود إلى الهزيمة والعار ، وهذا ما انتهى إليه أمر أولئك القوم ؛ فكانت هذه البوادر والخلال إرهاصات الهزيمة ومقدّماتها ، ومن أراد النصر والظفر به تخلّص من تلك الخصال الذميمة التي كان عليها الملأ المذكورون في الذكر الحكيم .

١٣- أن أولئك القوم قد زكّوا أنفسهم عندما قالوا [ونحن أحق بالملك منه] وماعلموا أنهم بذلك ردّوا حكم الله واعترضوا عليه ، وعصوا نبيّهم الذي ابتدروه بطلب تعيين القائد الحربي الذي يسيرون خلفه لقتال عدوّهم ، وبذلك تكون فيهم الخصلة الشيطانية التي افتخر بها أبليس اللعين عندما أمر بالسجود لآدم مع سائر الملائكة فقال معترضاً: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ﴾(١) ، فالفخر بالنفس واعتقاد الخيرية على الآخرين مظنة من مظان الكبر المقيت الذي ينتهي بصاحبه إلى المهالك .

١٤- أن معيار اصطفاء القادة واختيار القائد لدى كثير من الناس هو توافر خصلتين في الشخص ؛ هما : عراقة النسب وسعة المال ، كما حصل لدى ملأ بني إسرائيل ؛ عندما اعترضوا على بعث طالوت ملكاً عليهم قائلين : [أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال] ، فمعيار الشرف والتملك لديهم ولدى كثير من جهال الأمم ينحصر في وجاهة النسب ووفرة المال،

---

(١) الأعراف : ١٢ .

وهي مظاهر العظمة الوهمية[١] التي بها يرتقي صاحبها إلى عرش الملك[٢] ، فأرادوا أن يُحَاكِمُوا حكم الله إلى ما استقر في أنفسهم ؛ فلمّا لم يتفق معه نبذوه وراء ظهورهم واعترضوا عليه فكان ذلك من فتنتهم التي سقطوا فيها ، وكان الأجدر بهم أن يتلقوا حكم الله بالقبول والعمل فهو الأعلم بما يليق بهم ويُصلح من شأنهم في تلك الفترة بالذات ، ولاسيما أنهم هم الذين طلبوه وسألوه ، فمن سوء الأدب ردّ جواب المجيب والاعتراض عليه .

١٥- أن الله تعالى قد ردّ على ملأ بني إسرائيل على لسان نبيهم بقوله [إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم] ، وحاصل هذا الرد ماذكره البيضاوي ؛ حيث قال : " لما استبعدوا تملكه لفقره وسقوط نسبه ردّ عليهم ذلك : -

أولاً : بأن العمدة فيه اصطفاء الله تعالى وقد اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح منكم .

وثانياً : بأنّ الشروط فيه وفور العلم ليتمكن من معرفة الأمور السياسية ، وجسامة البدن ليكون أعظم خطراً في القلوب ، وأقوى على مقاومة العدو ومكابدة الحروب ، لا ماذكرتم ، وقد زاده الله فيها ، وقد كان الرجل القائم يمد يده فينال رأسه .

وثالثاً : بأنه تعالى مالك الملك على الإطلاق فله أن يؤتيه من يشاء .

ورابعاً : أنه [واسع] الفضل يوسّع الفضل على الفقير ويغنيه ، [عليم] بمن يليق بالملك من النّسيب وغيره "[٣] .

فعلم بذلك الرد الرباني أن لكل حال مايناسبها ؛ فحال الحرب والسياسة يناسبها الدراية بفنون الحرب والعلم بقواعد التعامل مع الجيوش ، ينضم إلى هذه الصفة صفة أخرى لايستغني عنها قائد جيش وهي طول القامة والجسامة فلها وقعها في نفوس جنده تفرض عليهم الاحترام والسمع والطاعة ، كما أن لها

---

(١) انظر : تفسير المنار : ٢/٤٩٤ .
(٢) قيل إن طالوت كان رجلاً سقاء أو دبّاغاً فقيرا ، انظر : الكشاف : ١/١٤٢ .
(٣) تفسير البيضاوي :١/١٣٠ - ١٣١ .

مهابتها في نفوس العدوّ تفت في عضدهم وتلقي الرعب في قلوبهم ٠

وحال الكنوز وحفظها والقيام عليها تحتاج إلى حفيظ عليم يحفظها ويعلم مصارفها ، وكانت هذه الصفة في يوسف عليه السلام كما قال تعالى : ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾[١].

وشأن الأجير أن يكون قوياً أمينا ؛ قوياً في جسمه يتمكّن من الوفاء بعمله على الوجه المطلوب ، أميناً على أداء هذا العمل لايخلّ به ولايقصّر فيه ؛ كما قال تعالى : ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾[٢].

وهكذا لكل حال مايناسبها ، ولكل مُهِّمة رجالها ، التي لايصلحون إلاّ لها ، ولو وضعوا لغيرها ماتحققت المقاصد وضاعت كثير من المصالح ، ووليّ الأمر الموفَّق هو الذي يضع كلاً في موقعه المناسب ، الذي لايصلح فيه غيره ؛ فإن هذا منهج قرآني سديد ، وهدي إسلامي رشيد ٠

١٦- أن القوم قد لجّوا في جدالهم فضعف إيمانهم وتزعزع يقينهم فاحتاجوا إلى برهان يعيدهم إلى صوابهم ، وإلى خارقة تقنعهم بأن طالوت هو الملك المعين من قبل الله تعالى عليهم ؛ وهذا ماحمل نبيهم على أن يقول لهم : [إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت[٣] فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين] ٠ وهذا شاهد ناطق على أن كمال الإيمان وصدق اليقين هما العامل الأوّل - بعد توفيق الله تعالى وفعل الأسباب - في جلب النصر وحسم المعركة ، وأنّ التلكّؤ وكثرة الجدال ومزيد التأخر عن القتال لايورث إلاّ ذلاً ، ولايزيد المحاربين إلاّ رعبا وهلعا ٠ وهذه من الخصال التي وقعت في بني إسرائيل ، وأريد تحذير أمة محمد عليه الصلاة والسلام منها ومن نظائرها ٠

---

(١) يوسف : ٥٥ ٠

(٢) القصص : ٢٦ ٠

(٣) من التأويلات في معنى التابوت : أنه الصندوق الذي وضع فيه اللوحان اللذان كتب فيهما الآيات العشر التي نسبتها من التوراة نسبة فاتحة الكتاب من القرآن ، ويسمى تابوت الشهادة ، وكان يحمل أمام المحاربين ، فيكون ذلك سبب نصرهم بإذن الله ٠ انظر : نظم الدرر : ٤٢٠/٣ ٠

١٧- ينبغي لأمير الجيوش وقائدها أن يتفقد جنوده بما يراه كافياً لتمحيص الجند وإظهار مدى استعدادهم للقاء العدو ؛ فينفي من وجده هَلِعاً أو جزوعاً ، أو ضعيفاً أو خذولا ، وذلك لأن وجود هذا الصنف من القوم ضرر محض على جملة الجيش ينال من كفاءته ، ويفت في عضده ، وربما دخل الخذلان والجبن من جهته فتقع الهزيمة بسببه[١]. وهذا مستفاد من أسلوب جالوت عندما عرض جنده العطاش على نهر يمثل شهوات الدنيا ومغرياتها[٢] .فقد تفرّس فيهم ضعف الإرادة واضطراب الإيمان بعد ماتردّدوا في قبوله قائداً ، وماثبتوا إلاّ بتلك الآية التي بين يديه وهي التابوت الذي فيه السكينة الربانية ؛ فما كان منه إلاّ أن عرضهم على نهر ابتلاء واختبارا ، وحتى يزيد من أهمية الأمر وجدّيته أسند هذه البلوى إلى الله تعالى فقال [إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منيّ ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده ...] فصحت فراسته وصدق ظنّه [فشربوا منه إلاّ قليلاً منهم] فانفصلوا عنه بمجرد استسلامهم لشهواتهم وقلّة صبرهم عند المحنة الأولى ، انفصلوا عنه لأنهم بذلك لايصلحون للنهوض بالمهمة الملقاة على عواتقهم ؛ فأن يترسّبوا هم عند هذه النقطة خير من أن يَرْسب الجميع كلهم في الامتحان العظيم القادم أمام العدو الجائم ، والجيوش ليست بالعدد الضخم الزاحف ، ولكن بالقلب الصامد والإرادة الإيمانية الصادقة الجازمة .

ودلت هذه التجربة العسكرية على أن النية الكامنة وحدها لاتكفي لدخول الساحة الحربية ، ولابد من التجربة العملية التي تكشف عن أصالتها وصدق نيات أصحابها ، كما دلّت هذه التجربة أيضاً على صلابة عود ذلك القائد المختار الذي لم يهزّه تخلّف الأكثرية من جنده عند التجربة الأولى ، بل مضى في طريقه واثقاً بنصر الله معتمداً على مولاه ثم على سواعد من آمن معه[٣] .

---

(١) انظر : تفسير كلام المنان : ٣٠٩/١ .
(٢) انظر : نظم الدرر : ٤٢٨/٣ .
(٣) انظر : في ظلال القرآن : ٢٦٨/١ .

١٨- بعد ذلك الامتحان العملي الأوّل انقسم القوم إلى ثلاثة أقسام :
قسم قليل لم يَطْعم ذلك النهر ألبتة ، وهؤلاء هم الذين ثبتوا وظنوا أنهم ملاقو الله. وقسم كبير شربوا من النهر وسقطوا في الفتنة ، فانقطعوا عن الجهاد في سبيل الله . وقسم آخر اغترف غرفة بيده ، وهم الذين ثبتوا وتزلزلوا حتى ثبّتهم الذين لم يطعموا- بإذن الله -[1] ، فكان ذلك دليلاً قاطعاً على أن الناس ليسوا سواسية في ادعائهم للجهاد ، وليسوا سواء في إيمانهم ، وإنّما المحن والتجارب هي التي تميّز الرجال الثوابت وتطيح بغيرهم .

١٩- أنه لاينبغي لقائد الجيش أن يُفَاجأ بكثير من جنده يقولون قولاً يخالف مايتوقعه منهم ؛ فإن أولئك الملأ حتى بعد تصفيتهم في الامتحان الأوّل بالنهر ، وبعد أن برزوا للعدوّ هابوا العدوّ وضعفوا أمامه وأدركهم الرعب منه فقالوا مقالتهم [لاطاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده] ، وفي إرجاع ضمير القول على عمومهم إيذان بكثرة الذين اغترفوا من النهر غُرفْة ، وقلّة الذين لم يطعموا[2] . والقائد إذا توقّع ذلك من جنده وضرب احتياطه فإنه - بإذن الله - يستطيع أن يتلافاه بأن يوعز إلى جنده - ممن يثق بهم - أن يشدّوا من أمر الضعفاء ويشجّعوا الجبناء ، ويرقّعوا ماقد ينخرق من أمرهم ، كما هو صريح قول الذين يظنون أنهم ملاقو الله [كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين] .

٢٠- أنه ينبغي عند حضور اليأس ودنوّه من المجاهدين - تقوية نفوسهم ، وتشجيعهم وتذكيرهم بالله وبقوته التي لاتدانيها قوة ، وشحذ إيمانهم بالتوكل على الله تعالى وحده والاعتماد عليه[3] . وإظهار التجلّد والصبر فإن عاقبته حميدة ، والله مع الصابرين ، ومن كان الله معه فهو عزيز منتصر لامحالة .

---

(١) انظر : نظم الدرر : ٤٢٨/٣ .
(٢) انظر : نظم الدرر : ٤٣٣/٣ .
(٣) انظر : تفسير كلام المنان : ٣٠٩/١ .

٢١- أن العبرة في الجهاد وتحقيق النصر ليس بكثرة الجند ولابسواد المجاهدين ، وإنما بإيمانهم وصدق يقينهم ، وفي ذلك إشارة إلى ضرورة تربية جند الإسلام على الإيمان وغرسه في قلوبهم ، والعناية الفائقة بهم من هذا الجانب ، وسدّ الأبواب التي تفضي إلى فسقهم أو تخدش حياءهم أو تنال من كمال إيمانهم ، فإنها أبواب الهزائم ومنافذ الشرّ على الجيوش الإسلامية ، ولطالما هزمت الجيوش مع كثرتها وتعدّد آليّاتها وقلّة جيوش أعدائها ، وإذا فُتّش عن سرّ ذلك وجد أنّه كامن في تهاون أفرادها بشعائر الدين ، واستخفاف رجالاتها بفرائض الإسلام وسخريتهم من الملتزمين ، وجلبهم مظاهر الفسق وصنوف المعاصي إلى فرق الجند يزعمون أنهم يرفّهون عنهم ، ويسلّونهم ، وماعلموا أن هذا بعينه يتنافى مع الصبر والتقوى ، ويورثهم الميوعة والترهّل والراحة والدعة ، مما يجعلهم مظاهر عسكرية هَشّة ، تفزع وتنهار عند الصيحة الأولى .

٢٢- فضيلة الدعاء ، وعظم شأنه ، وظهور فائدته ، وكونه من أعظم الأسباب الجالبة لنصر الله ، وهذا ظاهر من انطراح الجند بين يدي الله عز وجل قبيل نشوب المعركة وفي ظرف بروزهم لجالوت وجنوده فقد قالوا وقتئذٍ [ربنا أفرغ علينا صبراً وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين] ؛ فكان عاقبة ذلك ماحكاه الله عن حالهم [فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء] ؛ فقد جاء العطف بالفاء المؤذنة بالتعقيب الفوري على دعائهم المذكور ؛ فكانت الهزيمة نتيجة فوريّة لذلك الدعاء الصادق .

وينبغي أن يؤقت للدعاء وصدق التوجه فيه بأن يكون قبيل نشوب القتال بعد أن تعدّ العدّة ويصف الرجال ، فتتوجه القلوب إلى بارئها ؛ تستنزل نصره ، وتستمد منه القوة والتأييد والثبات ، فتقوى بهذا الدعاء وتمضي فتكاً بالأعداء ، فإذا هم عليهم منتصرون ، ولهم قاهرون ، وهذه سنة أولياء الله الصالحين عند التحام الصفوف ، وقد تجلّى ذلك في المؤمنين من بني إسرائيل مع طالوت ، ولذلك فعله رسول الله عليه الصلاة والسلام مع المشركين في بدر ، وهي سنة للمسلمين ماضية مضي الدهور ينبغي أن تُحيا وأن تكون دَيْدناً لجند المؤمنين عامة ، ولقادتهم خاصة ، فإن الله عز وجل قد علّق الفلاح والنّجح في الحروب

بالثبات وبذكر الله كثيراً، ومن أعظم الذكر الدعاء ، فقال مخاطباً جمع الإيمان: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(١)، فقد نكّر الفئة منبّهاً بذلك إلى عدم احتقار فئة العدو مهما كانت في عددها، فإذا كان ذلك الأمر في شأن الفئة القليلة فهو في شأن ماهو أعظم من جيوش الأعداء آكد وأحرى ٠

٢٣- تعليق هزيمة الأعداء على كونها لاتتم إلا بإذن الله عز وجل إشعار للناس عامة وللمؤمنين خاصة بأن مايجري في هذا الكون العظيم ومايقع بين الناس من هزائم أو انتصارات أو أكبر منها أو أصغر فإنما ذلك من بعد أن يأذن الله الذي بيده ملكوت كلّ شيء ، وفي ذلك زيادة إيمان وتطمين للمؤمنين ؛ فليس أمامهم إلاّ بذل مافي وسعهم ، والله فوقهم يسمع ويرى ، ويُجري قضاءه بمقتضى حكمته البالغة ، فإذا شاء نصرهم وملّكهم الأرض من حولهم ، وإذا شاء أظهر عدوّهم عليهم لحكمة يعلمها ، فيدّخر أجرهم ويكرمهم بالشهادة في سبيله ، ويجعل من بعدهم يعتبر بهم ، ويستفيد من تجربتهم ٠

٢٤- من حِكَم إبراز دور داود عليه السلام - وكان وقتها فتى صغيراً من بني إسرائيل - وجعل مقتل جالوت - وكان ملكاً قوياً وقائداً مخوفاً - على يديه أن يستقر في علم القوم وقتذاك ومابعده أن الأمور لاتجري بظواهرها ، وإنما تجري بحقائقها ، وحقائق الأمور وأسرارها لايعلمها إلاّ مدبّرها سبحانه وتعالى، فليس على البشر إلا أن يفعلوا ما أمروا به وسيجري الله عز وجل على أيديهم مايجعل كثيراً منهم يتعجبون منه ، فقد أراد سبحانه أن يجعل مصرع هذا الجبار الغشوم على يد هذا الفتى الصغير ، ليري الناس أن الجبابرة الذين يرهبونهم ضعاف في دركات الضعف ، يغلبهم الفتية الصغار حين يشاء الله هلاكهم على أيديهم ٠ فليست قوّة الباطل على ظاهرها ؛ فهي تضمحل إذا عزم أهل الحق وقاموا عليه ونهضوا به (٢)٠

---

(١) الأنفال : ٤٥ ٠

(٢) انظر : في ظلال القرآن : ١/٢٧٠ ٠

ثم إن هناك حكمة أخرى كانت مغيّبة أراد الله إظهارها في هذه الحادثة ؛ فلقد قدّر أن يكون داود عليه السّلام هو الذي يتسلم الملك بعد طالوت ، ويرثه ابنه سليمان عليهما السّلام ، فيكون عهده هو العهد الذهبي لبني إسرائيل في تاريخهم الطويل ؛ جزاء انتفاضة العقيدة في نفوسهم بعد الضلال والانتكاس والشرود الذي حاق بهم ، وذلك من فضل الله عليهم الذي جعله من ثمار جهادِهم في سبيله [(١)] .

٢٥- في قوله عز وجل [ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين] إيماء إلى فائدة الجهاد والحكمة من مشروعيته على سبيل الإجمال ؛ يقول ابن عطية : " أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لولا دفعه بالمؤمنين في صدور الكفرة على مَرّ الدهر لفسدت الأرض ؛ لأن الكفر كان يطبقها ويتمادى في جميع أقطارها ، ولكنه تعالى لايُخْلي الزمان من قائم بحق، وداع إلى الله ، ومقاتل عليه ، إلى أن جعل ذلك في أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة ، له الحمد كثيرا "[(٢)] .

٢٦- في قوله تعالى ختماً لهذه القصة [تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين] إشعار بأن هذه القصة وسواها فيها معتبر لهذه الأمة في احتمال الشدائد في الجهاد كما احتملها المؤمنون في الأمم المتقدمة ، وفيها تسلية ظاهرة للرسول عليه الصلاة والسلام ؛ فكأنه قيل : قد عرفت بهذه الآيات ماجرى على الأنبياء عليهم السلام في بني إسرائيل من الخلاف عليهم والرد لقولهم والخروج عن طاعتهم ؛ فلا يعظمن عليك كفر من كفر بك ، وخلاف من خالف عليك ؛ لأنك من جملة المرسلين ، وهذه حالهم ، وإنما بعثوا لأداء الرسالة وتبليغ الأمانة ، فلا عتب عليك في خلافهم وكفرهم ، فالوبال في ذلك راجع عليهم[(٣)] . وقد كان التعبير في الآية على سبيل مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان وقعه على قلبه برداً وسلاما .

---

(١) انظر : في ظلال القرآن : ١/٢٧٠ .
(٢) المحرر الوجيز : ٢/٢٦٨ .
(٣) انظر : التفسير الكبير : ٦/١٩٣ ، وتفسير القاسمي : ٦٥٠ .

أثر القصص في نفوس المجاهدين

النفس البشرية تنفعل مع القصة ، وتتأثر بها وتنساق مع أحداثها ، ولايدري أحد على وجه التحديد ماسبب هذا التأثر ؟

أهو انبعاث الخيال البشري يتابع مشاهد القصة ، ويتعقب أحداثها من موقف إلى موقف ، ومن حدث شائق إلى آخر ؟ . أم هو المشاركة الوجدانية لأشخاص القصة ، وماتثيره في النفس من مشاعر متشابهة تنفجر وتفيض[(١)] ؟ أم هو مجريات الوقائع وحوادثها التي تنتهي إلى العقدة ثم تنفرج شيئاً فشيئاً فيستبين المغزى ويظهر الهدف الذي اختبأ وراء تلك الأحداث ؟! .

كلّ ذلك وغيره وارد في النهج القصصي ، فلطباع البشر ميل ظاهر نحوه ، وانسياق مع هديه ، ومن هنا كان في كلام الله عز وجل نصيب وافر من القصص التي تعددت أغراضها ، وتضافرت أهدافها هداية للبشر وتقويماً لسلوكهم ، ورسماً لهدي رشيد يُظِل منهم سلوكه ، واقتفاء أثره .

وفي مجال الجهاد يلاحظ المتأمّل في آيِه أن طائفة كبيرة منها قد ساقها الله عز وجل في حال أقوام نكصوا عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فتخلّفوا عنه ، واعتذروا إليه ، مع كونهم من أولي الطَّول والسعة في المال والجسامة والنظارة في صحة الأبدان ، ولكن الله عز وجل أورد قصتهم وحكى أخبارهم على سبيل الفَضْح لهم ، والنُّصْح والإرشاد لغيرهم حتى لايقعوا في مثل ماوقعوا ، أو تزلّ أقدامهم كما زلّوا . وهؤلاء هم منافقو المدينة الذين كشفت عنهم غزوة تبوك ، ومثلهم المنافقون من الأعراب ممن حول المدينة ، فقد تشابهت قلوبهم في النفاق فساروا سيرة من تقدمهم من المنافقين ؛ فطفقوا يقدّمون بين يديهم الأعذار - للمصطفى عليه الصلاة والسلام - التي بسببها تخلّفوا عن ركب الجهاد .

وصورة أخرى قصّها الله تعالى على عباده المؤمنين إلى قيام الساعة وهي المواقف التي ظهر بها الضعفاء والمرضى والمعوزون من أهل الإيمان الصادق الذين فاضت أعينهم حرقة وألماً على أن فاتهم ركب الجهاد ، بسبب انقطاع الزاد والراحلة.

---

(١) انظر : منهج التربية الإسلامية : ٢٣٧ .

وصورة رابعة من القصص الجهادي حكت حال قوم تخلّفوا عن الجهاد لانفاقاً ، وإنما ألمّت بهم لحظة ضعف ؛ فندموا وعضوا أناملهم أسى وحسرة على أن فاتتهم قافلة الجهاد ، وأعرض عنهم رسول الهدى والمؤمنون ؛ فكان لهم مع أنفسهم شأن عظيم ، حتى نزل نبأ توبة الله عليهم ، قرآناً يتلى إلى قيام الساعة ، فكان أعزّ عليهم من أنفسهم .

تلك إذاً صور أربع من أحسن القصص التي قصّها الله عز وجل على نبيه وعلى المؤمنين ، وكانت من ثمار غزوة العُسْرة ؛ غزوة " تبوك "[(١)] ، فكان في قَصّها فضح للمنافقين من أهل المدر والوبر ، وتحذير لسائر المسلمين من مثل تلك المواقف المخزية، كما كان فيها إعذار لذوي الأعذار الشرعية من المؤمنين ، وتأنيب للنفر الثلاثة الذين ندموا وصدقوا الله في ذلك ؛ فتاب عليهم وعفا عنهم ، رحمة بهم ، وعبرة لغيرهم .

وسأسوق النص القرآني الكريم أولاً بحسب كل قصّة ، ثم أمضي معه في تحليل نظم قصصه ؛ لأبرز – قدر الإمكان – مايمكن إبرازه من بدائع النظم ، وروائع التعبير على مذهب لايُذْهب بهاء التعبير القرآني الكريم ، ولاتطول معه المداخلة ، وإنما على شكل تحليل بيانيّ موجز يتناول ألفاظ تلك القصص ويشير إشارة عابرة لنكاتها البيانية ، التي كان لها أبلغ الأثر في نفوس من نزلت فيهم ، وفيمن يتلوها بتدبّر واعتبار ، ثم سأستخلص العبر والآثار التي تركتها تلك القصص في نفوس المجاهدين خاصة ، وفي نفوس المسلمين أجمعين حكاماً ومحكومين .

---

(١) خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك في السنة التاسعة من الهجرة في ثلاثين ألف مقاتل ، وذلك في رجب وعاد منها مظفّراً منصوراً بلا قتال في رمضان ، واستغرقت هذه الغزوة خمسين يوماً ، أقام منها عشرين يوماً في تبوك ، والبواقي قضاها في الطريق ذهاباً وإيابا ، وكانت هذه آخر غزواته صلى الله عليه وسلم ، وبعدها عزّ جانب المسلمين وذلّ جمع الكفر والروم ، وانخذل النفاق وأهله ، وتكاثرت وفود العرب على المدينة تعلن إسلامها حتى سمي هذا العام بعام الوفود . انظر : الرحيق المختوم: ٤٨٢ – ٤٩٣ .

القصـة الأولـى :

قصـة المنافقين في المدينة الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك واختلقوا الأعذار لهذا التخلّف ، فمما جاء عنهم قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ * لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ * وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ * لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ * وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ * إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ * قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾(١) .

لقد كان دأب المؤمنين وسنتهم إذا استنفرهم الرسول صلى الله عليه وسلم للقتال فإنهم يستبشرون وينفرون خفافاً وثقالاً بهمة ونشاط ، ولما استنفرهم لغزوة تبوك لجهاد الروم تثاقل بعضهم ، وكان هذا التثاقل درجات متفاوتة بحسب تفاوت الإيمان في قلوبهم ، وبحسب يسر الأسباب وعسرها ، وكثرة الأعذار وقلّتها ، ومع ذلك فقد نفر الأكثرون طائعين منقادين ، وتخلّف الأقلّون عاجزين ، وأما المنافقون فقد كبر عليهم الأمر وعظم في نفوسهم الخطب ، وطفقوا ينتحلون الأعذار الواهية ، ويستأذنون الرسول عليه الصلاة والسلام في القعود والتخلّف فيأذن لهم فكان نزول تلك الآيات ومابعدها لبيان تلك الأحوال وإظهار أحكام تلك الوقائع من خلال ذلك الأسلوب القصصي القرآني الرائع (٢) .

---

(١) سورة التوبة : من ٤٢ – ٥٢ .

(٢) انظر : تفسير المنار : ١٠/٤٦٣ .

لقد شرع – عز وجل – في فضح المنافقين المتخلّفين عن الجهاد في تبوك بقوله مخاطباً نبيه عليه الصلاة والسلام ، ومعرضاً عن المتثاقلين بأسلوب الالتفات[(١)] ؛ سُخْطاً عليهم [لو كان] مادعوتهم إليه من النفير [عرضاً] من أعراض الدنيا سهل المنال [قريباً] مكانه ويسيراً تناوله [وسفراً قاصداً] وسطاً لامشقة فيه [لاتبعوك] رجاء حيازة المنفعة واغتنام العَرَض الدنيوي [ولكن] اثّاقلوا إلى الأرض ورضوا بها والإقامة عليها من غير حركة ولاجهاد ، لأنها [بعدت عليهم الشقة] فكان السفر شاقاً بعيداً ؛ لاتطيقه نفوسهم المثقلة بحب الدنيا والركون إليها .

ولما كشف عن شحّهم بأموالهم ، وتثاقل نفوسهم عن الجهاد أتبعه بالكشف عن رقة دينهم واستخفافهم بربّهم ، حيث أخبر سبحانه عما سيكون منهم سمة لهم ، وعلماً من أعلام النبوة مما سيقع منهم من أعذارهم [وسيحلفون] أيماناً [بالله] قائلين [لو استطعنا] الخروج [لخرجنا معكم] مصاحبين لكم في الجهاد ، وحالهم في ذلك أنهم [يهلكون أنفسهم] بهذه الأيمان الكاذبة ، التي أوقعتهم في الهلاك ، حيث كذبوا على الله تعالى وعلى رسوله وعلى المؤمنين وعلى أنفسهم والناس أجمعين، [و] الحال أن [الله] الذي لايخفى عليه شيء في الأرض ولافي السماء [يعلم إنهم لكاذبون] ، وهذه الجملة أكدت كذبهم بالقسم وإنّ والجملة الاسمية ، واللام ، واسم الفاعل .

ولما بكّت الله المنافقين على وجه الإعراض عنهم لأجل التخلّف عن الجهاد والحلف باسمه وهم كاذبون – أقبل إليه – صلى الله عليه وسلم – بالعتاب في لذيذ الخطاب على استرساله في اللين لهم وقبوله لأعذار لفّقوها وهم أكذب الناس فيها ؛ فقال مقدماً الدعاء على العتاب لشدة الاعتناء بشأنه – عليه الصلاة والسلام – واللطف[(٢)] به [عفا الله عنك لم أذنت لهم] في التخلّف ؛ فهلاّ تركت الأذن لهم [حتى يتبيّن لك] غاية البيان [الذين صدقوا] في إيمانهم وأعذارهم [وتعلم الكاذبين] في ذلك

---

(١) من خطاب أهل الإيمان في الآية السابقة على المقطع المذكور وهي : [انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون] إلى الغيبة عندما كان الحديث في شأنهم ؛ فكأنهم خرجوا من عموم الدعاء باسم الإيمان . انظر : نظم الدرر : ٤٨٠/٨ . وقيل إن عدد أولئك المخلّفين كان أربعة وثمانين رجلاً . انظر : البحر : ٧٩/٥ .

(٢) انظر : نظم الدرر : ٤٨١/٨ .

فتعامل كلاً بما يليق به ؛ فكان مقتضى الحزم في مواقف الجهاد أن تتلبّث في الإذن أو تمسك عنه اختباراً وإظهاراً للصادق من الكاذب في إيمانه وعذره [١] .

ولما فاته صلى الله عليه وسلم معرفتهم بعدم الإذن لهم شرع العالم بما في الضمائر يصفهم له بما يعوّض عن ذلك ؛ فقال على طريق الجواب للسؤال [لايستأذنك] رغبة في القعود عن الجهاد [الذين يؤمنون بالله] الذي له صفات الكمال والجلال [واليوم الآخر] الذي فيه الجزاء بالثواب والعقاب ؛ في [أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم] بل يبادرون إلى الجهاد بهما عند إشارتك واستنفارك ، فكان شأن الخلّص من المهاجرين والأنصار يقولون : لانستأذنه صلى الله عليه وسلم أبداً في الجهاد ؛ فإن ربنا ندبنا إليه مرة بعد مرة فأي فائدة في الاستئذان ! ولنجاهدن معه بأموالنا وأنفسنا ، وكانوا بحيث لو أمرهم صلى الله عليه وسلم بالقعود شقّ عليهم كما وقع لعلي – رضي الله عنه – في غزوة " تبوك " حتى قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ! [٢] .

ولما كان من اتصف بذلك تقياً عطف عليه [٣] قوله [والله عليم بالمتقين] في إشارة صريحة إلى تقوى المجاهدين الذين لايتردّدون في أمر الجهاد ، ولافي الاستئذان عنه يفكرون .

ولما أخبر بالمتقين عرّض بغيرهم على وجه الحصر تأكيداً لتحقق صفة العلم بما أخبر به سبحانه ؛ فصار الاستئذان منفياً عن المؤمنين مرتين ؛ فثبت للمنافقين على أبلغ وجه [٤] ، حيث قال سبحانه ﴿ إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ لأنهم لايرجون ثواباً ولايخافون عقاباً ، وإن ادّعوا ذلك بألسنتهم نفاقاً [٥] .

ولما نفى عنهم فعل الإيمان بالله واليوم الآخر وهو أمر قلبي عطف عليه أمراً قلبياً آخر قد ثبت في قلوبهم منذ إعلانهم الإسلام تظاهراً ، وهو شكهم في أمر النبي

---

(١) انظر : تفسير المنار : ٤٦٤/١٠ .

(٢) انظر : نظم الدرر : ٤٨٨/٨ .

(٣) انظر : نظم الدرر : ٤٨٨/٨ .

(٤) انظر : نظم الدرر : ٤٨٩/٤ ، وانظر : التحرير : ٢١٢/١٠ .

(٥) انظر : نظم الدرر : ٤٨٩/٤ ، وانظر : التحرير : ٢١٢/١٠ .

صلى الله عليه وسلم أصلاً وبخاصة ظهوره على الروم[1] فقال : [وارتابت قلوبهم فهم] فتسبب عن ذلك أنهم [في ريبهم يترددون] بين النفي والإثبات دأب المتحيّر الذي لايجزم بشيء منهما ؛ فلترددهم لم يصارحوا النبي صلى الله عليه وسلم بالعصيان وقت الاستنفار ، ولم يمتثلوا له ؛ فسلكوا مسلكاً يصلح للأمرين ، وهو مسلك الاستئذان في القعود ؛ فالاستئذان مُسَبَّب عن التردّد ، والتردّد مُسبّب عن الارتياب [2].

ولما كان أولئك المخلّفون مياسير قادرين على تحصيل الأهبة والعدة ؛ وإنما لم يريدوا الخروج أصلاً [ولو أرادوا الخروج لأعدوا له] قبل حلوله [عدة] من الزاد والماء والراحلة والسلاح[3] [ولكن] لم يريدوا ذلك قط ، ولذلك لما استنفروا شرعوا يعتلّون بعدم العدة وماذاك بهم ، إنما الذي منعهم كراهتهم للخروج ، وذلك بسبب أنْ [كره الله انبعاثهم] لما علم من عدم صلاحيتهم لأمر الجهاد ؛ [فثبّطهم] خذلهم وشغلهم بشهوات الدنيا عن غايات الجهاد[4] [و] لذلك [قيل] لهم قولاً كونياً أوقعه الله في قلوبهم[5] [اقعدوا مع القاعدين] من الصبيان والنساء والعُمْي والزّمنى فهو الأليق بكم ، وهو السمة التي تعرفون بها من بين المؤمنين .

ولما كان كأنه قيل : ماله ثبطهم وقد كنا قاصدين سفراً بعيداً وعدواً شديداً ؛ فنحن محتاجون إلى الإسعاد ، ولو بتكثير السواد - قيل [لو خرجوا فيكم] وإن كانوا قليلاً مغمورين بجمعكم الكثير [مازادوكم] بخروجهم معكم شيئاً من الأشياء [6][إلاّ خبالاً] نقصاً وفساداً واضطراباً في صفكم واختلالاً في نظامه [7].

---

(١) انظر : التحرير : ٢١٣/١٠ .

(٢) انظر : نظم الدرر : ٤٨٩/٨ ، وانظر : التحرير : ٢١٣/١٠ .

(٣) انظر : التفسير الكبير : ٧٨/١٦ .

(٤) انظر : نظم الدرر : ٤٩٠/٨ .

(٥) انظر : التحرير : ٢١٥/١٠ . وقد قال البقاعي : " وعبّر بالمجهول إشارة إلى أنهم يطيعون الأمر بالقعود حقيقة ومجازا كائناً من كان ، كما أنهم يعصون الأمر بالنّفْر كائناً من كان لأن أنفسهم قابلة للدنايا غير صالحة للمزايا بوجه " وهو تعليل لايخفى وجه اللطف فيه . انظر : نظم الدرر : ٤٩١/٨ .

(٦) انظر : نظم الدرر : ٤٩١/٨ .

(٧) انظر : تفسير كلام المنان : ٢٤٣/٣ ، والتحرير : ٢١٦/١٠ .

وهي مفسدة حربية كبرى ينضم إليها أخرى وهي [ولأوضعوا خلالكم] ساروا سيراً حثيثاً ذهاباً وإياباً بين أفرادكم لإيقاع الشر والفتنة والتخذيل والتخويف من عدوّكم [1]، وحالهم في ذلك أنهم [يبغونكم] يريدون لكم [الفتنة] بتشتيت الشمل وتفريق الجمع وإيقاع السوء الذي يسرّهم [و] الحال الذي أنتم عليه أنه [فيكم] ومن بينكم من هم [سمّاعون لهم] في غاية القبول لكلامهم وأراجيفهم ؛ لضعف إيمانهم وقلة معارفهم[2]. [والله] الذي أخبركم بهذه الأخبار [عليم بالظالمين]الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم وتخلفهم ونفاقهم ؛ فهو لهم بالمرصاد يفضحهم ويكشف أمرهم.

ولما ذكر أنهم يبغون الفتنة بالمؤمنين في غزوة تبوك شرع يذكر الدليل على ذلك بتذكير المؤمنين بأفعالهم المتقدمة على هذه الغزوة ؛ فقال في قوّة القسم : تالله[3] [لقد ابتغوا] طلبوا طلباً عظيماً من جميع الوجوه [الفتنة] لكم بجميع أجناسها وأنواعها [من قبل] هذه الغزوة ؛ كما وقع يوم أحد عندما انخذلوا بثلث الجيش ، وكذا في غزوة قينقاع والنضير عندما وعدوهم بالخروج معهم ضدكم وسواها [4]، [و] قد اجتهدوا طاقتهم في هذا السبيل ؛ بأن [قلّبوا] أداروا الأفكار الخبيثة وأعملوا الحيل الماكرة [لك] مستهدفينك ودينك والمؤمنين معك [الأمور] التي يتوخّون منها النيل منك ، ومن صحبك ، ومازالوا على هذه الأحوال[5] [حتى جاء الحق] القاضي بنصرك [وظهر أمر الله] دينه على الدين كله ، [و] حالهم أنهم [كارهون] جميع ذلك .

ولما أجمل المولى أعذارهم المتقدمة فصّل بعضها إظهاراً لشناعتها وقبح مضمونها ؛ فقال : [ومنهم] كالجدّ بن قيس وكان من منافقي الأنصار [من يقول] معتذراً عن الجهاد [ائذن لي] في التخلّف عنك [ولاتفتني] لاتكن سبباً في فتنتي عندما تعزم عليّ بالنفير معك ، فسأفتتن بأحد أمرين : إمّا التخلّف عنك من غير إذن

---

(١) انظر : التحرير : ٢١٦/١٠ ، وتفسير كلام المنان : ٢٤٣/٣ .

(٢) انظر : نظم الدرر : ٤٩٢/٨ .

(٣) انظر : تفسير المنار : ٤٧٤/١٠ .

(٤) انظر من هذا البحث : ٥٢٢ – ٥٢٧ .

(٥) انظر : نظم الدرر : ٤٩٣/٨ .

منك فأكون مصارحاً بالمعصية ، وإما السفر معك فأقع في فتنة نساء بني الأصفر ، فإني رجل لاصبر لي عن النساء [(١)].

ولما أريد التنبيه إلى عجيب حالهم وبئيس مآلهم وكونهم قد وقعوا في أعظم مما فرّوا منه - على حدّ زعمهم - قال مستفتحاً ومُنَبِّهاً [ألا في الفتنة] الحقّة العظمى التي استغرقت سائر صفات الفتن جميعها ؛ فكانت ظرفاً لهم [سقطوا] فيها وانتشبوا في أشراكها انتشاباً سريعاً بقوة يعسر خلاصهم منها[(٢)] ، [وإن جهنم لمحيطة بالكافرين] إحاطة السوار بالمعصم ، جزاء نفاقهم الذي أوقعهم في الكفر ، وماجزاء الكافرين إلاّ ذلك .

وعود على بيان أصول التفكير عند المنافقين وبيان مابسببه فتنوا يقول سبحانه [إن تصبك حسنة] كل مايحسن وقعه ويسر الإلمام به من غنيمة ونصر ونعمة [تسؤهم] كما ساءهم النصر في بدر وغيرها من الغزوات[(٣)]، [وإن تصبك مصيبة] نكبة وإن صغرت [يقولوا] سروراً وتبجّحاً بحسن آرائهم[(٤)] [قد أخذنا أمرنا من قبل] وقوع المصيبة فلم تقع بنا كناية عن صدق حدسهم وحسن توقعهم تعريضاً بالمؤمنين الثابتين[(٥)].

ولما كان قولهم الآنف بعيداً عن الاستقامة ، فكان جديراً بأن لايُقَال ، وإن قيل فهو حقيق بأن يُرجع عنه ويُسْتَغفرَ منه - أشار تعالى إلى تماديهم فيه قائلاً [ويتولّوا] عن مقامهم هذا الذي قالوا فيه ماذكر إلى أهاليهم [و] الحال أن [هم فرحون] بمصيبتكم ، مسرورون لخلاصهم منها [(٦)].

ولما كان قولهم هذا متضمّناً توهمهم القدرة على الاحتراس من القدر قال تعالى آمراً رسوله بأن يُعْلِن بأن الحذر لاينجي من القدر ؛ ذلك قوله [قل] لهم إنا لانقول مقالتكم لأننا لانملك لأنفسنا جلباً لنفع ولادفعاً لضر ، بل نقول بإيقان [لن يصيبنا]

---

(١) انظر : نظم الدرر : ٤٩٤/٨ ، وانظر : محاسن التأويل : ٣١٧١ .
(٢) انظر : التحرير : ٢٢١/١٠ ، ونظم الدرر : ٤٩٤/٨ .
(٣) انظر : تفسير المنار : ٤٧٨/١٠ . وانظر : ٧٠ .
(٤) انظر : نظم الدرر : ٤٩٥/٨ .
(٥) انظر : التحرير : ٢٢٢/١٠ .
(٦) انظر : نظم الدرر : ٤٩٦/٨ . وانظر : التحرير : ٢٢٢/١٠ .

من الخير والشر [إلا ماكتب] قضى وقدر [الله] وحده المحيط بكل شيء قدرة وعلما ٠

ولما كان كل قضاء الله خيراً للمؤمنين إن أصابته سراء شكر وإن أصابته ضراء صبر – عبَّر باللام المفيدة للتثويب(١) فقال [لنا] وهذا أمر لايستشعره بحق إلا المؤمن وأما المنافق فلا ، [هو مولانا] يلي أمورنا في السراء والضراء ؛ فنشكره على الأولى ونستعين به على الثانية فهو أقرب إلينا من حبل الوريد ، [وعلى الله] وحده قصراً وتخصيصاً [فليتوكل المؤمنون] فالفيصل بين المؤمن وسواه هو إسلام النفس إلى الله وحده بلا اعتراض عليه ، فهو يقلبها كيف يشاء ويحكم فيها بما يريد ، ويرضى صاحبها بما حكم به خالقها (٢) ٠

ولما تضمّن قول المؤمنين المتقدم أن سراءهم وضراءهم كلها خير لهم صرح بذلك على وجه البيان لما تقدم فقال [قل هل تربصون] تنتظرون انتظاراً عظيما [بنا إلا إحدى الحسنيين] وهما النصر في الدنيا أو الشهادة في الآخرة [ونحن نتربص بكم] إحدى السوأيين ؛ الأولى منهما [أن يصيبكم الله بعذاب من عنده] كما أهلك القرون الأولى بصائر للناس ٠ والثانية [أو] تعذّبوا [بأيدينا] بسببنا من قتل أو أسر أو ضرب أو غيره من صور العذاب (٣) ٠

ولما تسبب عن هذا البيان أن السوء مختص بحزب الشيطان حسن أن يؤمروا تهكّماً بهم بما أداهم إلى ذلك تخسيساً لشأنهم وحطّاً من قدرهم فقال : [فتربصوا] أنتم [إنا معكم متربصون] بكم ، نفعل كما تفعلون ، والقصد مختلف (٤) ٠

ثم نقف على مقطع آخر من قصة المخلفين من المنافقين (٥)، يبين مقدار فرحهم بتخلفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويتبين فيه نوع آخر من أعذارهم ، ثم ينطق النص القرآني الكريم بالحكم عليهم في الآخرة قبل الدنيا ، وفي ذلك يقول عز

---

(١) انظر : نظم الدرر : ٤٩٦/٨ ٠
(٢) انظر : نظم الدرر : ٤٩٧/٨ ٠
(٣) انظر : نظم الدرر : ٤٩٧/٨ ٠
(٤) انظر : نظم الدرر : ٤٩٧/٨ – ٤٩٨ ٠
(٥) انظر : تفسير المنار : ٥٦٩/١٠ ، والتحرير : ٢٨٠/١٠ ٠

وجل : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ * فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ * وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ * وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (١).

[فرح] سُرّ وابتهج [المخلّفون] الذين اعتذروا للرسول عن الجهاد فخلّفهم ، وسموا بذلك ذماً وتحقيراً لهم حيث أصبحوا في حكم الخوالف (٢). [بمقعدهم] بسبب قعودهم عن الغزو في تبوك [خلاف رسول الله] بعد رسول الله أو لأجل مخالفته فقد نهض بالجهاد وأمر به وهم خالفوه في ذلك وركنوا إلى الدنيا(٣) [و] خصلة أخرى بادية فيهم وهي أنهم [كرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم] قدّم الأموال على الأنفس هنا لمزيد تعلقهم بها وبمُتَعِها ، ولكونهم قدّموا أنفسهم وبذلوها في سبيلها تاركين معالي الأمور مما ينفع في الدنيا والآخرة وهو الجهاد(٤).[وقالوا] لبعضهم أو لغيرهم [لاتنفروا] مجاهدين [في الحرّ] وكانت غزوة تبوك في جمرة القيظ ، قالوا ذلك تخذيلاً وتثبيطاً وتكثيراً لسوادهم - ولذلك أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يرد عليهم بما يزجرهم ويحذر غيرهم من سماع مقالتهم قائلاً [قل نار جهنم أشدّ حراً] مما فررتم منه ، وفيه إشعار بأن جهنم مصيرهم لنفاقهم وتخذيلهم عن الجهاد(٥) ، [لو كانوا يفقهون] أنها كذلك لما آثروا راحة زمن قليل على عذاب الأبد (٦) ، ولكن أصل الفهم ليس موجوداً عندهم لانعدام بابه وسببه وهو الإيمان .

---

(١) سورة التوبة : من ٨١ – ٨٥ .
(٢) انظر : البحر : ٧٩/٥ ، والتحرير : ٢٨٠/١٠ .
(٣) انظر : البحر : ٧٩/٥ ، والتحرير : ٢٨٠/١٠ .
(٤) انظر : نظم الدرر : ٥٦٢/٨ .
(٥) انظر : التحرير : ٢٨١/١٠ .
(٦) انظر : روح المعاني : ١٥١/١٠ .

ولما كان غاية السرور لهم الضحك ، وكان ماينتظرهم في الآخرة البكاء في دار الشقاء ، قال تعالى مهدّداً لهم مسبّباً عن قبيح فعلهم مخبراً في صورة الأمر إيذاناً بأنه أمر لابد من وقوعه(١) [فليضحكوا قليلاً] في الدنيا [وليبكوا كثيراً] في الأخرى ، يجزون بذلك [جزاء بما] بسبب الذي [كانوا يكسبون] من فنون المعاصي والفرح بها .

ولما كان المسرور بشيء الكاره لضده الناهي عنه لايفعل الضد إلاّ تكلّفا ولا اقتناع له به وكان هذا الدين مبنياً على اليقين والعزّة والغنى - أتبع ذلك بقوله مسبّبا عن فرحهم بالتخلّف(٢) [فإن رجعك الله] من سفرك إلى تبوك [إلى طائفة منهم] على قيد الحياة ، فأردت الخروج إلى سفر آخر [فاستأذنوك للخروج] معك [فقل] عقوبة لهم وغنى عنهم وعزة عليهم ناهياً لهم بصيغة الخبر ليكون صدقك فيه علماً من أعلام النبوة وبرهاناً من براهين الرسالة(٣) [لن تخرجوا معي أبدا] في أي سفر من الأسفار فإن الله قد أغناني عنكم [ولن تقاتلوا معي عدوا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة] عندما استنفر المسلمون جميعاً لقتال الروم في تبوك ، ولذلك [فاقعدوا مع الخالفين] في عداد القواعد من النساء فلم تعودوا صالحين لقتال الأعداء ، وكفى بهذا ذماً وخزياً وعاراً ، فقد سلبّ منهم صفات المروءة والشجاعة والرجولة(٤) ، وكل من انتسب إلى المسلمين لايرضى بهذا الوصف المخزي إذا مادعي إلى الجهاد ، فهذا يحمله على تصحيح نيته والحمل على نفسه ومجاهدتها في الله حتى تكون في عداد المجاهدين الفاتحين ، فيحظى بشرف الدنيا ونعيم الآخرة .

ولما كان منع المُخَلَّفين من الخروج مع النبي صلى الله عليه وسلم إهانة لهم ضمّ إليه إهانة أخرى أعظم وأنكى وهي نهيه عن الصلاة على من مات منهم(٥) فقال سبحانه [ولاتصل على أحد منهم مات أبداً ولاتقم على قبره] لأن قيامك رحمة ، وهم ليسوا أهلاً لها ، ثم علل النهي المتقدم بقوله [إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون] خارجون عن الدين ، فليسوا من جملة المسلمين .

---

١) انظر : نظم الدرر : ٥٦٣/٨ .
٢) انظر : نظم الدرر : ٥٦٤/٨ . وانظر : روح المعاني : ١٥٣/١٠ .
٣) انظر : نظم الدرر : ٥٦٤/٨ .
٤) انظر : نظم الدرر : ٥٦٤/٨ .
٥) انظر : التفسير الكبير : ١٥٢/١٦ .

ولما ذكر سبحانه مايدل على شقاوة أولئك المخلّفين من المنافقين في الآخرة كان في ذلك الذكر ماقد يثير في نفوس بعض الناس أن المنافقين قد حصّلوا سعادة الدنيا بكثرة الأموال والأولاد ، فلربّما تساءل بعض المسلمين قائلين : كيف منّ الله عليهم بذلك وهم أعداؤه وبغضاء دينه - ولهذا أعلم الله جميع المسلمين - في صورة خطاب لنبيه تشريفاً له ولأنه هو المبلّغ - أن ماحصل لهم من صور النعم الدنيوية ليس إلا نقماً عليهم وتعذيباً لهم في الدنيا ؛ بأن سلبهم طمأنينة البال عليها والاستمتاع بها ، فكانوا يحذرون أن يغري الله رسوله بهم فيستأصلهم بصور العذاب المتعددة(١)، وجعل هذا التعذيب النفسي مستمراً فيهم إلى أن يموتوا وهم على الكفر ، فيكون مآلهم إلى العذاب الأبدي ، فجمعوا بين عذابي الدنيا والآخرة(٢) ؛ وفي ذلك يقول سبحانه عطفا على ماتقدم ﴿ **وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ** ﴾ .

القصة الثانية :

ولما ختم الله عز وجل قصص أهل المدر من المنافقين(٣) ، وقدّمهم على غيرهم لكثرة سماعهم للقرآن والحكمة بحكم إقامتهم في المدينة مخالطين للنبي صلى الله عليه وسلم - ثنّى سبحانه بأهل الوبر من الأعراب لكونهم أقدر الناس على السفر لأن مبنى أمرهم على الحل والترحال ، فكانوا جديرين بالفضح والذم(٤)، فكانت قصتهم هي القصة الثانية من قصص المخلّفين ، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: [وجاء المعذّرون] المتكلفون في إثبات الخفايا من الأعذار المانعة من الجهاد وهم ليسوا كذلك (٥)[من الأعراب] من أمثال أسد وغطفان(٦) [ليؤذن لهم] في القعود

---

(١) كما قال سبحانه عنهم في سورة الأحزاب : ٦٠ ، ٦١ ﴿ **لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لايجاورونك فيها إلاّ قليلاً ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا** ﴾ .

(٢) انظر : التحرير : ٢٨٦/١٠ .

(٣) بقي من قصة المخلّفين ويدخل فيها سائر المنافقين الآيات من [٨٦ إلى ٨٩ من سورة التوبة] وقد ختمت بالثناء على المجاهدين الصادقين . وقد تم تحليها على سبيل التفصيل انظر ص :٢٤٢-٢٤٦ من هذا البحث فليرجع إليها وإنما لم نثبتها هنا دفعا للتكرار .

(٤) انظر : نظم الدرر : ٥٧٢/٨ .

(٥) انظر : نظم الدرر : ٥٧٢/٨ ، وانظر : التحرير : ٢٩٢/١٠ .

(٦) انظر : تفسير البيضاوي : ٤١٦/١ .

عن الجهاد ، [وقعد الذين كذبوا الله ورسوله] دون تقديم الاعتذار ، والكفار منهم نطق النص القرآني بالحكم عليهم بقوله سبحانه [سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم] . فلا فرق بين القاعدين بلا أعذار شرعية من منافقي المدر والوبر فهم في المصير الأخروي سواء .

القصة الثالثة :

ولما بيّن سبحانه الوعيد الشديد لمن توهّم أنه معذور عن الجهاد مع أنه لاعذر له في حقيقة الأمر شرع في ذكر أصحاب الأعذار الشرعية الذين رفع عنهم حرج القعود عن الجهاد(١) ، وهذه هي القصة الثالثة في حق المعذورين وهم أقسام قصهم الله علينا بقوله : [ليس على الضعفاء] الذين وهنت قواهم البدنية كالهرمى والزمنى [ولا على المرضى] الذين عرَض لهم مرض كالحمى والرمد ونحوهما(٢) ، [ولا على الذين لايجدون ماينفقون] لفقرهم ، فلا زاد عندهم ولاراحلة ولا أهبة ، فأولئك المذكورون ليس عليهم في التخلّف عن الجهاد [حرج إذا نصحوا لله ورسوله] وهذا الشرط لابد منه ؛ إذ به يخرجون من دائرة النفاق ومن جمع المنافقين ، ونصيحتهم لله ولرسوله بأن يكونوا متعلقين بالجهاد مشجعين عليه محاربين للأراجيف ساعين في إيصال كلمة الخير والأخبار السارة إلى كل مسلم ممن حولهم(٣) ، [ماعلى المحسنين من سبيل] مؤاخذة أو لوم أو معاتبة [والله غفور رحيم] ومن مغفرته ورحمته أن عفا عن العاجزين ، وأثابهم بنيتهم الجازمة ثواب القادرين الفاعلين(٤) . وقسم آخر من المعذورين وجدوا قدر النفقة إلا أنهم لم يجدوا المركوب فجاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : قد نذرنا بالخروج فاحملنا على الخفاف المرقوعة والنعال المخصوفة نغز معك ، فقال عليه الصلاة والسلام : لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا وهم يبكون(٥)؛ فحكى الله حالهم بالعطف على المعذورين المتقدمين بقوله [ولاعلى الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولّوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا]

---

(١) انظر : التفسير الكبير : ١٥٩/١٦ .

(٢) انظر : نظم الدرر : ٥٧٣/٨ ، وانظر : التحرير : ٢٩٤/١٠ .

(٣) انظر : التفسير الكبير : ١٦٠/١٦ ، وانظر : تفسير كلام المنان : ٢٨١/٣ .

(٤) انظر : تفسير كلام المنان : ٢٨١/٣ .

(٥) انظر : التفسير الكبير : ١٦٢/١٦ ، وانظر : تفسير البيضاوي : ٤١٧/١ .

وعلة حزنهم [ألا يجدوا ماينفقون] ليكونوا معك في ركب المجاهدين الغازين في سبيل الله .

عودة إلى تقرير أحوال أصحاب القصة الأولى من منافقي المدينة [١]: -

ولما نفي اللوم والحرج عن المؤمنين الضعفاء والمرضى والفقراء والذين لايجدون مركوبا كرّ السياق القرآني الكريم مرة أخرى على من انتفى عنه العذر الشرعي يلومه ، ويَقْصر سبيل المؤاخذة عليه فقط ، حيث قال سبحانه تقريراً وتوكيدا على طريق القصر [٢] ، [إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء] فلا عذر لهم في التخلّف ، وعلتهم أنهم [رضوا] دناءة منهم وقلة في مروءتهم [بأن يكونوا] كوناً كأنه كالجبلّة فيهم [مع الخوالف] من النساء ، وهذا من أعظم المعايب عند العرب [٣] .[وطبع الله] طبعاً غير الطبع الذي جبلوا عليه بل هو طبع على طبع أنشأه الله في قلوبهم غضباً عليهم ، فزادهم ذلك عماية وضلالاً [٤]، ولذلك [فهم لايعلمون] بل يجهلون مافي الجهاد من منافع الدارين .

ثم طفق النص الكريم [٥] يذكر ماسيقع من هؤلاء المنافقين المتخلّفين من تقديم الأعذار المغلّفة بالأيمان المغلّظة ، كل ذلك من أجل الحصول على الرضا عنهم ، ثم بيّن سبحانه أنه لو حصل رضاكم عنهم فإنه لاينفعهم لسخط الله عليهم ، ولذلك فقد أُمر المسلمون بعدم الرضا عنهم أو الاغترار بمعاذيرهم ، وسبب ذلك هو فسقهم وخروجهم عن الدين .

القصة الرابعة :

وأما القصة الرابعة فهي قصة النفر الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ميلاً إلى الدعة في لحظات ضعف أَلَمّت بهم وهم صادقون في إيمانهم ، ثم ندموا فتابوا وأنابوا وعلم الله صدق توبتهم ؛ فقبلها ؛ ثم أنزل توبتهم ، وصدرها بتوبته على رسوله

---

(١) ومن حكمة ذكر أصحاب الأعذار الشرعية في وسط قصة المخلفين سلّ ذوي الأعذار من اللوم ثم الكر مرة أخرى على المخلفين فضحاً ولوما . وقد سرنا مع الآيات وفق ترتيب الآيات في السورة .

(٢) انظر : نظم الدرر : ٥٧٤/٨ ، وانظر : التحرير : ٥/١١ .

(٣) انظر : نظم الدرر : ٥٧٥/٨ .

(٤) انظر : التحرير : ٦/١١ .

(٥) من آية : ٩٤-٩٦ من سورة التوبة .

وكبار صحبه جبراً لقلوبهم ، وتنويهاً بشأنهم ، فضمّهم مع المقطوع بالرضا عنهم ، بعثاً للمؤمنين على التوبة ، وإظهاراً لأنه مامن مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار حتى النبي والمهاجرين والأنصار [١] . وفي ذلك يقول سبحانه : [لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه] فكان اتباعه شرفاً وفضلاً عظيماً لهم [في ساعة العسرة] زمن الضيق والشدة في غزوة تبوك ؛ فقد كانوا في عسرة من الظهر : يعتقب العشرة على بعير واحد ، وفي عسرة من الزاد : تزوّدوا التمر المُدْوِد والشعير المسوّس والدهن المنتن ، وبلغت بهم الشدة أن اقتسم التمرة اثنان ، وربّما مصّها الجماعة ليشربوا عليها الماء ، وفي عسرة من الماء حتى نحروا الإبل واعتصروا فروثها ، وفي عسرة زمان من الجدب والقحط والضيق الشديد في العيش[٢] [من بعد ماكاد] قرب وأوشك [يزيغ] انحرافاً عن الهدى [قلوب فريق منهم] لما حصل في تلك الغزوة من الزلزلة المميلة . ولما صاروا كمن لم يقارب الزيغ أعلاهم إلى مقام آخر عظيم عبر عن عظمته بأداة التراخي الرُّتبي[٣] ؛ فقال [ثم تاب عليهم] كلهم ، وكرر التوبة تقريراً لها وتوكيدا . وعلل لطفه بهم قائلاً [إنه رؤوف رحيم] .

ولما صرح بالتوبة على من قارب الزيغ ، وخلط معهم أهل الثبات ؛ ليكون اقترانهم بأهل المعالي وفي حيّزهم تشريفاً لهم وتأنيساً لنفوسهم لئلاّ يشتد انكسارهم - أتبعه بصريح التوبة على من وقع منه الزيغ ؛ فقال غير مصرّح بالزيغ تعليماً للأدب وجبراً للخواطر المنكسرة[٤] [و] لقد تاب [على الثلاثة] المعهودين المعروفين ، وهم كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أميّة ، وكانوا من الأنصار تخلّفوا عن غزوة تبوك من غير عذر ، ولما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك سألهم عن تخلّفهم فلم يكذبوه بالعذر ، ولكنهم اعترفوا بذنبهم وحزنوا وأظهروا الندم على ذلك ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس عن كلامهم ، وأمرهم بأن

---

(١) انظر : محاسن التأويل : ٣٢٨٥ .

(٢) انظر : الكشاف : ٢١٧/٢ .

(٣) انظر : نظم الدرر : ٣٧/٩ .

(٤) انظر : نظم الدرر : ٣٨/٩ .

يعتزلوا نساءهم ، ثم عفا الله عنهم وأنزل توبته عليهم بعد خمسين ليلة وهي هذه الآية الكريمة [(١)]. [لقد تاب الله على الثلاثة ..الآية] ، [الذين خلّفوا] تركوا وأخروا عن قبول التوبة منهم في الحال حتى نزل فيهم القرآن[(٢)] ، واستمر تخليفهم نادمين [حتى إذا ضاقت] وأشار إلى عظيم الأمر عليهم بأداة الاستعلاء قائلاً [عليهم الأرض] كلها [بما رحبت] مع سعة آفاقها ، وهو كناية عن استيحاشهم من كل شيء ، بل [وضاقت عليهم أنفسهم] فتواتر الهم والغمّ على قلوبهم حتى لم يكن فيها لحظة من الانشراح ؛ فذكر ضيق المحلّ ثم أتبعه بذكر ضيق الحالّ فيه ؛ لأنه قد يضيق المحل وتكون النفس منشرحة [(٣)]. ولما يئسوا من الخلق أجمعين علّقوا أمرهم بالله وانقطعوا إليه وعلموا أنه لايخلص من الشدة ولايفرجها إلا الله عز وجل ، ذلك قوله [وظنوا أن لاملجأ من الله إلا إليه] والمراد بظنهم هو اليقين ، وقد يكون التعبير عنه بالظّن إيذاناً بأنه لشدة الحيرة التي تقلّبوا فيها كانت قلوبهم لاتستقر على حال ؛ فكان يقينهم لشدّة الخواطر كأنه ظن[(٤)] . عندئذٍ تاب الله عليهم ، ذلك مايشير إليه قوله تعالى [ثم] بعد مهلة وتراخ زمني مر بّهم وقاسوا آلامه [تاب عليهم ليتوبوا] لأجل أن يكفوا عن المخالفة ويتنزهوا عن الذنوب ، [إن الله هو التواب الرحيم] يكرم من يشاء من عباده بالتوبة والرحمة .

ولما كان سبب فوز الفائزين هو التقوى والصدق – ومنهم أولئك الثلاثة – أمر الله تعالى جميع المؤمنين بأن يكونوا في زمرة الصادقين مثل أولئك الصادقين الذين تضمنتهم القصة [(٥)]، فقال سبحانه : [يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين] . وبذلك ختمت قصة أولئك النفر الثلاثة فكان فيها أبلغ الأثر في نفوسهم وفي نفوس من جاء بعدهم من المؤمنين لكي يعتبروا بهم ، ويأخذوا الدروس الإيمانية من سيرتهم .

---

(١) انظر : التحرير : ٥١/١١ ، وانظر قصة كعب – مطولة – وهو يحكي أمره وأمر رفيقيه رضي الله عنهم في: جامع البيان : ٥٨/١١ – ٦٢ ، ومحاسن التأويل : ٣٢٨٨ – ٣٢٩٤ .

(٢) انظر : جامع البيان : ٥٦/١١ ، ومحاسن التأويل : ٣٢٨٧ .

(٣) انظر : البحر : ١١٠/٥ .

(٤) انظر : نظم الدرر : ٣٩/٩ .

(٥) انظر : التحرير : ٥٤/١١ .

ولقد تضمنت تلك القصص الأربع التي كانت من نتائج غزوة تبوك عبراً وآثاراً عظيمة في نفس كل مجاهد من المسلمين من زمن نزولها إلى أن يأذن الله بزوال الدنيا ومن عليها ، وهذه الآثار مرّ بعضها في أثناء العرض والتحليل المتقدمين ، ونجمل بعضها الآخر مما يرشدنا الله إليه في الآتي : -

١ - أن الإسلام دعوى تفتقر إلى برهان يصدقها وواقع عملي يثبتها ، والتكاليف الشرعية هي الميزان الصادق ، وأظهرها ماكان شاقاً منهكاً ، وأعظم مايبرز ذلك ويتمثل في الجهاد الذي هو في الأصل من بذل الجهد والوسع والطاقة ، ولايبذلها ويقوم بها إلا من كان مؤمناً معلوم الإيمان ، ومن لم يكن كذلك فإنّه يسقط من أوّل الطريق ، ويعسر عليه ركوب متنه .

٢ - أن الجهاد هو ذروة سنام الإسلام وتاج عزّه ، ولقد حاول الروم هَزّ قناة المسلمين والتعبث بسمعتهم ، ولكن المصطفى عليه الصلاة والسلام وقف أمامهم وحال دون مرامهم ؛ فأمر جميع المسلمين واستنفرهم للجهاد خفافاً وثقالاً وسمّى الجهة التي يريدها وهم الروم لبعد الشّقة وكثرة العدو ، فنفر الجميع وتخلّف النزر اليسير ، وكان في هذه الحركة الجهادية ميزاناً إيمانياً صادقاً كُشف من خلاله غطاء القلوب ، ونزل القرآن الكريم يعالج هذه المواقف على اختلافها ، فوقعت بسببها دروس وعبر يقف عليها كل مؤمن يتلو كتاب الله حقّ تلاوته حتى يحذر مما وقع فيه هؤلاء .

٣ - أن مدار الإيمان في صدقه وكذبه هو على النية العازمة والإرادة الصادقة ؛ فمن كذب في نيته فإن الله يفضحه في الدنيا قبل الآخرة ، ومن صدق فإن الله يميّزه عن غيره ويحفظ له صدقه وعزمه فيُستثنى من جملة الكاذبين ، ولايشمله مايشملهم من الوعيد والتهديد وإن طاله بعض التّمْحيص والتكفير في الدنيا فهو خير له ، وأنقى لسريرته وأمحى لذنبه .

٤ - أن النفاق مرض قلبي وداء عضال ، يظن صاحبه أنه يتمكّن من الروغان عن العزائم والبعد عن التكاليف والشدائد ، فيقدم بين يديه الأعذار ويتفنّن في إخراجها وحَبْكها ، وماعلم هذا أن فوق الجميع رباً يعلم السّر وأخفى ، وأن الله

عز وجل أعطى تقاة المؤمنين فراسة صادقة ، بها يعلمون الصادق من الكاذب ، ثم ينكشف الأمر ويُكْشف الغطاء ويظهر الندم ، ويصبح فرح ساعة ندماً إلى قيام الساعة ، بل إن مابعدها أشدّ وأنكى ، مالم يتدارك الله تعالى العبد بعفوه ورحمته .

٥ - أن من علامات النفاق وأماراته أن صاحبه يقدم العَرَض الفاني على النعيم الباقي، ويقيم وزناً للأول فيتهالك عليه ، ويعرض عن الثاني ويتجافى عنه، ومبنى ذلك على رقّة الإيمان وضعفه أو انعدامه بالكلية ، وقد تمثل هذا في المخلّفين الذين لم يروا الجهاد عرضاً قريباً ولاسفراً قاصداً ولهذا فقد اثّاقلوا إلى الأرض واطمأنّوا إليها تاركين رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه يضربون الأسفار ويركبون الأخطار ، وهم بدنياهم يفرحون وعلى راحة الأرض يسرحون كفراً ونفاقا .

٦ - أن الأيمان المغلّظة لاتسوّغ التخلّف الكاذب ولاتزيد صاحبها من الله إلاّ بُعْدا ، بل توقع المتفوّه بها في المهالك والرّدى ؛ بأن تَغْمسه في أعمال الكذب ودركات النار ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ﴾ (١).

٧ - أنه يشرع لولي الأمر أو نائبه أن لايتسرّع في الإذن لمن يتقدم رغبة في التخلّف عن الجهاد ، وبخاصة في المعارك الحاسمة التي يتوقف عليها مصير أمة الإسلام ، بل عليه أن يتريّث ويقلّب هذه الأعذار امتحاناً لأصحابها وإظهاراً للصادق منها والكاذب ، حتى لايتهالك الناس على الأعذار ، فيتعاظم أمر العدو وتقوى شوكته ويصعب قهره .

٨ - أن مبدأ الاعتذار عن الجهاد أصلاً لايرد خطوره على ذهن المؤمن الصادق أبداً، وإذا قيل لأحدهم في ذلك شقّ عليه وتضايق منه رغبة في الجهاد ظفراً بما عند الله من النعيم المقيم الذي وعد به الرحمن عباده المخلصين ، وإذا خطر

---

(١) النساء : ١٤٥ .

الاعتذار عن الجهاد عند أحد المسلمين فهو مؤشّر نفاق يقوى هذا النفاق بكذب ذلك العذر ، وينعدم بصدقه في عذره ، مع قيام الشاهد على هذا الصدق وهو أن يكون ناصحاً لله ولرسوله ناصباً نفسه مجاهداً على الجبهة الداخلية ذاباً عن الجهاد والمجاهدين ، داحضاً شُبَه المرجفين ، مبشّراً بنصر المؤمنين ، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر في صفوف من بقي معه من المسلمين .

٩ - أن من علامات الصدق جهاداً في سبيل الله أن يشرع المؤمن في إعداد العدّة ، وتجهيز الأهبة ، وأخذ مايلزم من لوازم السفر استعداداً للسير في قافلة الجهاد لمقارعة العدوّ ومنازلته ، وأن التباطؤ في ذلك والتشاغل عنه بلا عذر شرعي علامة خطر على إيمان المؤمن ، ينبغي له أن يتفقّد نفسه وأن يعالج أمره قبل أن يتفاقم وضعه وتتكشف حاله .

١٠- أن الله تعالى في أوقات الأزمات والشدّة يبتلي بعض عباده ببعض ، فيبتلي سائر المسلمين بشدائد الجهاد - مثلاً - ثم يبتلي من نكص منهم عن الجهاد إيثاراً للدعة والراحة بمن هو على وشك الزيغ والسقوط ، وهنا المحنة الكبرى ؛ فمن ثبّته الله فنجى كان من الفائزين ، ومن انخدع ووقع كان من الهالكين . وهذا من جملة التمحيص الذي ذكره الله عز وجل بقوله : ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ (1) بعد غزوة أحد .

١١- أنه ينبغي على قادة الجهاد الصادقين أن لايغفلوا عن جموع المجاهدين فمن أوضع خلالهم وابتغى الفتنة ، وكان سمّاعاً لها مذيعاً لأخبارها فإنه ظالم مرجف ينبغي علاجه والقضاء على مصدر الشّر عنده فإن ضرره ظاهر على نفوس المجاهدين ، وخطره عليهم أنفذ من خطر العدو المواجه لهم ، لأنه من داخلهم ، والعدوّ من خارجهم يرقبونه ويَسْتعدُّون له . ولقد حمى الله عز وجل جيش رسوله صلى الله عليه وسلم بتثبيط المنافقين وكراهيته سبحانه انبعاثهم إلى الجهاد لعلمه بما سيؤول إليه أمرهم تثبيطاً وإرجافاً وتخذيلاً .

---

(١) آل عمران : ١٤١ .

١٢- أن الجزاء من جنس العمل ؛ فبعض أولئك المنافقين القاعدين ، اعتذروا عن الجهاد بالخوف من الوقوع في الفتنة والمعصية ، وقد سقطوا بذلك في أعظم منها وأطم ، وهي فتنة النفاق والكفر ، وبعضهم الآخر طفق يذيع فكرة ترك النفير بسبب شدّة الحر ، وقد كان ذلك سبباً في إيقاعه فيما هو أعظم حرّاً وحرقا وهو جهنم المحيطة بالكافرين .

١٣- أن من أظهر الدلائل على النفاق كون المنافق يَحْزَن إذا أصابت المؤمنين حسنة من خير أو ظفر أو نعمة أو حسن حال ، وفي المقابل تجد الفرحة تغمره إذا ألّمت بالمسلمين مصيبة من هزيمة أو كارثة أو نكبة .. ويذهب يؤصّل رأيه ويصوّبه على أنه كان شديد الحذر من ذلك ، ولذلك فلم ينزل بساحته ولا ألمّ به ، تعريضاً بمن جاهد وعمل ودعا إلى الله تعالى .

١٤- أن قَدَر الله ماض في المنافقين والمؤمنين وسائر الخلق أجمعين ، ولايقع أمر ولامصيبة ولاشيء في الأرض ولافي السماء إلا بإذنه سبحانه وتعالى ، ولايفقه ذلك إلا من وقر الإيمان في قلبه ، ولذلك فهو شجاع مضّاء على نور من الله لأنه يعلم أن مُضيّه ذلك وجهاده إنما هو بأمر الله وإذنه وقضائه وقدره ، وبعد ذلك فما يقع له من مصيبة أو سواها فهو مكتوب له ، فإن كانت خيراً غنمها وازداد بها أجرا ، وإن كانت بضده احتسبها عند الله عز وجل ، ولذلك فهو لايتوكل إلا على الله مجاهداً كان أم قاعدا .

وأما الكافر أو المنافق فهو على الضد من ذلك ، يحسب أن قعوده سينجيه من المصائب ، ويبعده عن المهالك ، فإذا وقع لغيره مصيبة وسلم قال هذا من حسن تفكيري وصدق ظني وتخميني ، وإذا وقع له خير قال : إنما أوتيته على علم عندي ، وليس لأحد - أيّاً كان - فضل علي ، ولاسبب في وصول هذه النعمة إلي .

١٥- أن المجاهدين الصادقين يعلّقون قلوبهم بالله ، ويرجون من الله تعالى إحدى الحسنيين : العزّة في الدنيا بالنصر والظفر على العدوّ ، أو العزّة في الآخرة وهي الظفر بالشهادة في سبيل الله .

١٦- أنه يشرع لولي الأمر إذا عرف المتخلّفين عن الجهاد ألاّ يأذن لهم في الجهاد مرة أخرى ؛ تعزيراً لهم ، وردعاً لأمثالهم ، وإظهاراً لأمرهم بين سائر المؤمنين ، وإعلاماً لهم بأن الجهاد عزيز المنال لايظفر به إلا مؤمن صادق الإيمان .

١٧- أنه لاينبغي أن يقيم المؤمن الصادق كبير اهتمام لمظاهر النعيم الدنيوي كالأموال والأولاد والدور والضيعات ؛ بل يأخذ منها بقدر ، ولاينغمس فيها ، وإنما يكون همّه هو ماعند الله عز وجل من النعيم الذي لانَظير له ، مما لاعين رأت مثله ولا أذن سمعت بنظيره ، ولاخطر على قلب بشر كنهه ونوعه .

١٨- أنه لافرق في أمر النفاق بين أن يكون صاحبه حضرياً أو بدوياً عربياً أو أعجمياً، فمادته واحدة وإن تعددت أشكال أصحابه ، ولكن الغلظة فيه تتعاظم إذا كان صاحبه مجاوراً للهدى كثير السماع للحق ومع ذلك يعرض ويستنكف كما حصل لمنافقي المدينة الذين كثرت الآيات التي فضحتهم وكشفت أمرهم ، كما أن من أسباب التشديد على أصحابه أن يكونوا قد ملكوا القدرة على الجهاد وسرعة الحركة ويسر التنقل ، ومع ذلك يحجمون وينكصون كما حصل لمنافقي الأعراب من أسد وغطفان وغيرهم ، ولذلك شُدِّد عليهم ، ونزل النص الكريم فاضحاً لهم وكاشفاً لأمرهم ليكون لغيرهم بهم معتبر.

١٩- أن من كان له عذر شرعي من مرض أو عجز أو فقر أو نحوه فإن الله تعالى يعذره عن النفير ، وعلى ولي الأمر أن يعذره كذلك ولايلحّ عليه ولايعنّفه مادام صادقاً في عذره ناصحاً لله ورسوله ، متعلّقاً بالجهاد وإن كان في زمرة القاعدين .

٢٠- أن على المؤمن أن يقدم مافي وسعه جهاداً في سبيل الله بنفسه أو ماله أو قلمه أو لسانه ، حتى لايكون في زمرة الخالفين .

٢١- أن صدق الإيمان يقلق صاحبه ، ويلاحقه في جميع أوقاته ، ولايجعله في راحة بال ولافي عيش هانئ إذا ماقارف ذنبا ، وهذا ظاهر من أمر الثلاثة الذين تخلّفوا تشاغلاً وتكاسلاً في لحظات من ضعف النفس ، فاكتووا بنار ذلك التخلّف ، وتقلّبوا حسرة وندامة ، وتنكّرت لهم الأرض ، حتى نفوسهم ضاقت

بهم ، ومازالوا كذلك حتى مَنّ الله تعالى عليهم بالتوبة والإنابة فكان يوم توبتهم أعزّ الأيام في حياتهم . وهذا يدل على صدقهم وكمال توبتهم ، فإن غيرهم كان فرحاً جذلان بتخلفه وهم على الضد من ذلك .

٢٢- لقد كان من توبة أولئك الثلاثة - رضي الله عنهم - أنهم طرحوا غرور الدنيا وانخلعوا عن كل ماكان سبباً في تخلْفهم عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى صهروا أنفسهم بنيران اليقين الذي مثل لهم ضخامة ما اقترفوه من هفوتهم ؛ فصبروا على هجران النبي عليه الصلاة والسلام ، وهو أشق على أنفسهم من كل ما أصابهم في محنتهم ، ثم صبروا على هجران المسلمين عامتهم وخاصتهم ، فكانوا لايكلَّمون ولايعاملون في بيع ولاشراء ، وتغير لهم وجه كل شيء ، حتى أنفسهم نكرتهم ونكروها ، ولولا مافي قلوبهم من يقين وإيمان لما صبروا حتى نزول خبر توبتهم (١) .

٢٣- لقد كانت غزوة تبوك غزوة بيضاء لم يقع فيها مواجهة قتالية بين المسلمين والروم، ولكنها كانت مباءة لفضل الله وإحسانه ، فأكرم الله فيها نبيه بآيات كونية ومعجزات إليهة(٢) زادت قلوب المسلمين تثبيتاً ويَقيناً ، وأرْغَمت الشيطان وحزبه ، فلم ينل منهم منالاً على الرغم من عظم مالاقوه من المحن والشدائد ، بل كانت سبباً في كشف نفاق المنافقين ، فملأت قلوبهم غيظاً أحرق أكبادهم ، وفضحت سوآتهم ، وعادت فرحتهم تَرْحَةً عليهم ، فردّ الله كيدهم في نحورهم ، ودفعهم بالذل والصّغار ، فأصبحوا بعدها هياكل من أشباح لاروح فيها يحسبون كلّ صيحة عليهم حتى ماتوا بغيظهم كمداً وحزناً(٣) .

٢٤- أن تقوى الله عز وجل والصدق بين العبد وربه منجاة للمؤمن من الوقوع في المعاصي التي يؤاخذ بها ، ويدل على ذلك ختم قصة الثلاثة الذين خلّفوا بالآية التي أمرت بالتقوى والصدق فكان ذلك إشارة إلى كونهما كالسوار للمؤمن .

---

(١) انظر : محمد رسول الله : ٤٦٢/٤ .

(٢) انظر أمثلة لها في : محمد رسول الله : ٤٨٣/٤ -٤٨٥ .

(٣) انظر : محمد رسول الله :٤٨٠/٤ .

تصوير المعارك من خلال القصص

إن الذي يتدبر كتاب الله عز وجل ، ويتلو آياته يجد طائفة كبيرة منها تتحدث عن غزوات المصطفى صلى الله عليه وسلم ، تعرض جوانب كثيرة منها عرض امتنان وتفضل من الله عز وجل على نبيه وعلى المؤمنين على أنْ نَصَرهم في مواطن كثيرة ، وتارة يكون العرض متعلقاً ببيان الأمر الذي كان سبباً في وقوع الهزيمة على المسلمين كما وقع في أحد ، وتارة أخرى تتحدث الآيات الكريمة عن سير الغزوة والخطوات التي مرت بها في تصوير بياني رائع ، كما حصل في بدر الكبرى ، والأحزاب وغيرهما ٠

والمتأمل في غزوة الخندق يجد أن معظم أحداثها قد عرضت في سورة واحدة هي سورة " الأحزاب " ، كما أن آياتها قد وردت متتابعة في مقطع واحد دون فاصل ، وذلك من آية ٩ إلى آية ٢٧ ، ولهذا فقد توجه العزم إلى اختيارها أنموذجاً من المعارك التي عني القرآن الكريم بتصويرها تصويراً بيانيا رائعا [١] ، ولسوف أعرض أسباب الغزوة وملابسات وقوعها ثم أستقي أحداثها من النص القرآني الكريم على طريقة التحليل الموجز لجملها مع بعض الاستطراد اليسير لأحداثها ؛ مما أراه ضرورياً لتوضيح ما أجمل في النص الكريم ٠ وفي خاتمة العرض القصصي المصوّر سأذكر خلاصة لأبرز العظات والعبر من تلك الغزوة التاريخية الفاصلة ٠

اسم الغزوة : -

سميت هذه الغزوة بالأحزاب ، وهي تسمية قرآنية ورد بنصّها الذكر الحكيم في قوله تعالى: ﴿ **وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا** ﴾[٢] ، وهذا الاسم القرآني يصوّر حقيقة أمرها؛ فقد تكالبت شراذم المشركين وفجّار اليهود، وتحزّبوا جميعاً من شتى الأقطار، واجتمعوا حول المدينة ليستأصلوا المؤمنين ويقضوا على دينهم ولكن الله سلّم[٣] ٠

---

(١) لقد تمّ بعون الله وتوفيقه تحليل كثير من الآيات التي تناولت أمهات الغزوات بالعرض ، وذلك مبثوث في ثنايا فصول هذه الرسالة وموضوعاتها ، ومنها على سبيل المثال الصفحات : ٩١ ، ١٢٢ ، ١٥٠-١٦١ ، ١٦٢-١٦٥ ، ١٧٢ - ١٧٦ ، ٢٠٥ - ٢١٧ ، ٢٣١ - ٢٣٧ ، ٢٤٢ - ٢٤٦ ، ٢٦٢ - ٢٧٥ ، ٤٠٩ - ٤٢٣ ، ٤٢٧ - ٤٤٠ ، ٤٥٦ - ٤٥٩ ، ٤٧٤ - ٤٨٠ ، ٥٠٥ - ٥١٢ ، ٥٢٢ - ٥٢٧ ، ٥٣٦ - ٥٣٨ ، ٥٥٩ - ٥٨٠ ٠

(٢) الأحزاب : ٢٢ ٠

(٣) انظر : محمد رسول الله : ٤/١٣٥ ٠

وتسمى أيضاً غزوة الخندق لأن النبي عليه الصلاة والسلام بعد أن استشار أصحابه في الأسلوب الناجح لردّ زحف المشركين على المدينة أخذ برأي سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر خندق حول المدينة يكون سياجاً لها يحميها من تقدم الكفار إليها حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا (١).

تاريخ وقوعها : -

رجح ابن القيم وابن كثير وابن حجر وغيرهم من المحققين أنها وقعت في شوال سنة خمس من الهجرة النبوية ، واستمرت قرابة الشهر (٢).

أسبابها : -

يرجع سبب هذه الغزوة إلى قيام نفر من اليهود من بني النضير وبني وائل بتحزيب الأحزاب الكافرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقد خرجوا إلى قريش فدعوهم إلى حرب الرسول ، وقالوا : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله ، فسُرّت قريش لذلك ونشطوا لما دعوهم إليه وأعدّوا للأمر عدته .

ثم خرج أولئك النفر من اليهود إلى قيس عيلان وهوازن وغطفان فدعوهم إلى مثل مادعوا إليه قريشاً وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه وأن قريشاً تابعوهم على ذلك ، فوافقوهم على رأيهم .

فلما علم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك استشار أصحابه ؛ فأشار عليه سلمان الفارسي - رضي الله عنه - بحفر الخندق فشرع فيه وقسّمه بين المهاجرين والأنصار، فاجتهدوا في حفره متنافسين في رضا الله ورسوله بحيث لاينصرف أحد منهم لحاجته حتى يستأذن النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان ينقل معهم التراب على عاتقه ، ويكابد معهم النصب والجوع ، ويرتجز وإياهم أبياتا من الشعر ترويحاً وتنشيطا(٣).

---

(١) انظر : السيرة النبوية لابن هشام : ٣ - ٤ /٢١٦ .

(٢) انظر : زاد المعاد : ٢٦٩/٣ - ٢٧٠ ، والسيرة النبوية لابن كثير : ١٨٠/٣ - ١٨١ ، وفتح الباري : ٣٩٣/٧ .

(٣) انظر في أسباب غزوة الأحزاب : السيرة النبوية لابن هشام : ٣-٢١٤/٤ - ٢١٥ ، وزاد المعاد : ٢٧٠/٣-٢٧١ ، وحدائق الأنوار : ٥٨٤/٢ - ٥٨٥ ، ومحمد رسول الله : ١٤٤/٤ - ١٤٦ .

عـرض وقائعها : -

لقد اجتمع حول المدينة من أحزاب المشركين زهاء عشرة آلاف مقاتل ، وأما المسلمون فقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثلاثة آلاف من المسلمين ؛ فجعلوا ظهورهم إلى جبل سلع فتحصنوا به ، وجعلوا الخندق بينهم وبين الكفار ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، وأمر بالنساء والذراري فجعلوا في آطام المدينة [١].

وبدأت مشاهد المعركة تظهر أوّلاً بأوّل من خلال سياق الآيات الكريمة ، وفيها تجلية ظاهرة لكثير من مواقف الشدّة ومظاهر التخذيل الذي حصل من المنافقين وضعفاء الإيمان ، وسنتأمل الآيات الكريمة التي عرضت هذه الغزوة في مراحلها المتعددة في صور من البيان رائعة تهز نفس المؤمن وتأخذه إلى ساحة الأحداث ؛ قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً * إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّاوَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً * وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَاأَهْلَ يَثْرِبَ لَامُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَاهِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً * وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَاتَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيراً وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَايُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً * قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لَّاتُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً * قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَايَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً * قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ

---

(١) المقصود بآطام المدينة : حصونها .

يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً * يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً * لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً * وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً * مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً * لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً * وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً * وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ﴾(١).

وقبل أن نباشر النص القرآني ونعيش قصة الأحزاب من خلال أصدق نص وأعظمه يحسن أن نثبت هنا كلاماً جيد المضمون لسيد قطب افتتح به قصة الأحزاب قبل أن يورد الكلام عنها ، فمما قال :

« إن النص القرآني يغفل أسماء الأشخاص ، وأعيان الذوات ليصوّر نماذج البشر وأنماط الطباع ، ويغفل تفصيلات الحوادث وجزئيات الوقائع ؛ ليصوّر القيم الثابتة والسنن الباقية هذه التي لاتنتهي بانتهاء الحادث ، ولاتنقطع بذهاب الأشخاص ، ولاتنقضي بانقضاء الملابسات ، ومن ثم تبقى قاعدة ومثلاً لكل جيل ، ولكل قبيل ، ويحفل بربط المواقف والحوادث بقدر الله المسيطر على الأحداث والأشخاص ٠٠٠ومع أنه كان يقص القصة على الذين عاشوها وشهدوا أحداثها فإنه كان يزيدهم بها خبراً ويكشف لهم من جوانبها مالم يدركوه وهم أصحابها وأبطالها ! ويلقي الأضواء على سراديب النفوس ، ومنحنيات القلوب ومخبآت الضمائر ، ويكشف للنور الأسرار والنيات ، والخوالج المستكنة في أعماق الصدور ٠٠ ، ذلك إلى جمال التصوير وقوته وحرارته ، مع التهكّم القاصم ، والتصوير الساخر للجبن والخوف والنفاق والتواء

(١) سورة الأحزاب : من ٩ – ٢٧ .

الطباع ، ومع الجلال الرائع ، والتصوير الموحي للإيمان والشجاعة والصبر والثقة في نفوس المؤمنين .. » ثم يقول : « إن القرآن ليس كتاباً للتلاوة ولا للثقافة .. وكفى ، إنما هو رصيد من الحيوية الدافعة ، وإيحاء متجدّد في المواقف والحوادث ، ونصوصه مهيّأة للعمل في كل لحظة متى وجد القلب الذي يتعاطف معه ويتجاوب ، ووجد الظرف الذي يطلق الطاقة المكنونة في تلك النصوص ذات السّر العجيب ! » .

" وإن الإنسان ليقرأ النص القرآني مئات المرات ، ثم يقف الموقف أو يواجه الحادث ، فإذا النص القرآني جديد ، يوحي إليه بما لم يوح من قبل قط ، ويجيب على السؤال الحائر ، ويفتي في المشكلة المعقدة ، ويكشف الطريق الخافي ، ويرسم الاتجاه القاصد ، ويفيء بالقلب إلى اليقين الجازم في الأمر الذي يواجهه ، وإلى الاطمئنان العميق . وليس ذلك لغير القرآن في قديم ولاحديث "(١) .

لقد افتتح الله عز وجل مشاهد هذه الغزوة بتوجيه النداء إلى أوليائه بوصف الإيمان فقال [يا أيها الذين آمنوا] ليكون هذا الوصف أدعى إلى الاستجابة للأمر الذي تلاه وهو طلب ذكر النعمة في قوله [اذكروا نعمة الله عليكم] والغرض من هذا الأمر لازمه وهو الشكر ، وذكر الأمر عقب النداء فيه عناية بالأمر واهتمام بمضمونه ، لأن النداء إيقاظ وتنبيه يهيء المأمور لتلقي الأمر ويعدّه له(٢) .

[إذ] ظرف للنعمة بمعنى : حين (٣) .[جاءتكم جنود] كأنه من ذكر الخاص بعد العام ؛ وفيه ضرب من التوكيد الناشيء من التكرير بذكر البدل ضمنا في المبدل منه ؛ لاشتماله عليه ، وكأنهم أمروا أولاً بذكر نعمة الله التي تشمل كل نعمة ، ثم أمروا بذكر هذه النعمة الجليلة التي هي نجاتهم من هذه الغزوة المسعورة (٤) .

ولما كان مجيء الجنود مرهبا مرعبا سبّب عنه قوله [فأرسلنا] بالتعبير بنون العظمة ، وذلك بإسناد الإرسال إلى العظيم الذي لايعجزه شيء في الأرض ولافي السماء ، وفي ذلك من تقوية الإيمان والثقة بالله عز وجل مالا يخفى . [عليهم]

---

(١) في ظلال القرآن : ٥/٢٨٣٥ - ٢٨٣٦ .

(٢) انظر : من أسرار التعبير القرآني ، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب : ٤٥ . د/ محمد أبو موسى ، دار الفكر العربي ، مطبعة السعادة سنة ١٣٩٦هـ .

(٣) انظر : روح المعاني : ٢١/١٥٥ .

(٤) انظر : من أسرار التعبير القرآني : ٤٦ .

خاصة بهم [ريحاً] هي ريح الصبا وكانت باردة ؛ فأطفأت نيرانهم ، وأكفأت قدورهم وجفانهم ، وقلّعت أوتادهم . وسفت التراب في عيونهم ، ورمتهم بالحجارة ، وأجالت خيلهم ، وأوهى بردها عظامهم ، حتى أصبحوا لامقام لهم [١]. [وجنوداً لم تروها] رأي العين ، وفي ذلك إشارة إلى أن الريح من الجنود المرئية ، ومما لم ير من جنود الله الملائكة الذين ألقوا الرعب والتخاذل في نفوس المشركين ، وقد يكون من تلك الجنود نعيم بن مسعود الغطفاني الذي أسلم ، ثم أمره الرسول صلى الله عليه وسلم بالتخذيل وتفريق المشركين ، وقد فعل ذلك ببراعة فوقع الخُلف بين تلك الجموع فكان من أسباب انكسارهم [٢].[وكان الله بما تعملون] من حفركم الخندق ولجوئكم إليه. [بصيرا] لاتخفى عليه منكم خافية .

وفي الآية المتقدمة عرض سريع وخاطف للواقعة ، بذكر طرفيها ، وطي كل ماكان فيها مع الإشارة إلى نتيجتها ؛ فقوله [إذ جاءتكم جنود] بداية الغزوة وتحديد لطرفيها وهما:المؤمنون والمشركون . وقوله [فأرسلنا عليهم جنوداً لم تروها] حسم لها وإشعار بنهايتها [٣]، في إجمال بالغ القصر ، من غاياته تمكين أذهان المؤمنين من استيعاب تلك النعمة العظيمة وتذكر ملامحها في سرعة خاطفة حتى يتهيئوا إلى التدرج مع تفصيلات وقوعها . ولذلك ناسب المقام عرضها بالتفصيل بعد الإجمال في الآيات التالية ؛ [إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم] من جهات نجد وتهامة ، وهو بيان لشدة الأمر وغاية الخوف ، لإحاطة العدو بهم من جميع الجهات . ولما كان مجيء الأعداء بتلك الصفة مؤذناً بوقوع الخوف والرعب ذكّرهم بذلك مفخّماً لأمره بالعطف فقال[٤] [وإذ زاغت الأبصار] مالت عن سننها ومستوى نظرها حيرة وشخوصاً من شدّة الهول ، وهذه أوّل أحوال الشدة وأولى مراتبها ، ولذلك قدمت على مابعدها ؛ لأن المكروب المفاجَأ يرسل بصره ويقلب محاجره ويلتفت هنا وهناك دهشاً حائرا[٥]، وحالة أخرى أعقبت الحالة الأولى وهي [وبلغت القلوب الحناجر] كناية عن

---

(١) انظر : نظم الدرر : ٢٩٨/١٥ ، والتحرير : ٢٦٩/٢١ .

(٢) انظر : نظم الدرر : ٢٩٨/١٥ ، والتحرير : ٢٦٩/٢١ ، والسيرة النبوية لابن كثير : ٢١٤-٢١٧ .

(٣) انظر : من أسرار التعبير القرآني : ٤٧ .

(٤) انظر : نظم الدرر : ٣٠١/١٥ .

(٥) انظر : من أسرار التعبير القرآني : ٤٨ .

غاية الشدة ، وذلك - كما يقال - لأن القلب عند الغضب يندفع وعند الخوف يجتمع فيتقلص ، فيلتصق بالحنجرة ، وقد يفضي إلى أن يسدّ مجرى النفس فلا يقدر المرء على التنفس ، ويموت من الخوف [١]. [و] في هذه الحالة [تظنون بالله الظنونا] أنواع الظنون المتعدّدة المتجدّدة . [هنالك] أي في ذلك الوقت البعيد المنزلة في الشدة والمحنة [ابتلي المؤمنون] اختبر الصابر من الجازع [وزلزلوا] حركوا وأقلقوا وأزعجوا بما رأوا من الأهوال وتطاير الأراجيف [٢]. [زلزالاً شديدا] بالغ الشدة ، وفي تلك اللحظات الحاسمة العصيبة نجم النفاق وبرزت أقوال المنافقين التي تحمل الأراجيف والريب ، وجاء توقيتها في أثناء الزلزلة العظيمة ؛ فقال تعالى [وإذ يقول المنافقون] مرة بعد مرة وليس قولاً واحداً ثم ينقضي بل كان شأنهم وقت المحنة أنهم يقولون مع [الذين في قلوبهم مرض] من الذين على حرف في إيمانهم [ماوعدنا الله ورسوله إلاّ غرورا] أمراً يغرنا ويوقعنا فيما لاطاقة لنا به ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم بشّر المؤمنين بالنصر وبفتح قصور الحيرة ومدائن كسرى وصنعاء اليمن[٣] ؛ فقال المنافقون : يعدنا محمد بذلك وأحدنا لايأمن أن يقضي حاجته ، إنْ هذا إلا غرورا [٤].

ولما ذكر ماهو الأصل في نفاقهم وهو السخرية بالرسول وتكذيبه أتبعه بما تفرّع منه فقال [وإذ قالت] عبر عنهم بالماضي لكون تخذيلهم ذلك وقع مرة منهم ، وأما تأنيث الفعل ففيه إشارة إلى رخاوتهم وتأنثهم في الأقوال والأفعال[٥] [طائفة منهم ياأهل يثرب] نادوا أهل يثرب خصوصاً لغرض خبيث في نفوسهم وهو عزل المهاجرين عن الأنصار وإيقاع الفرقة بينهم في هذا الظرف الدقيق ، كما أنهم بذلك

---

(١) انظر : التفسير الكبير : ١٩٨/٢٥ . يقول د / أبو موسى : " وأساليب البيان تصاغ على وفق مايعتقده الناس لاعلى مايثبته العلم ؛ فإن قواعد الطب تقرر أن القلب لايتحرك من مكانه فضلاً عن أنه يتصاعد حتى يبلغ الحنجرة ، وقد جاء بلوغ القلوب الحناجر كناية عن أهوال أول مشاهد القيامة . قال تعالى : ﴿ **وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين** ﴾ غافر : ١٨ . من أسرار التعبير القرآني : ٤٩ .

(٢) انظر : نظم الدرر : ٣٠٣/١٥ .

(٣) انظر الروايات الواردة في ذلك في : فتح الباري : ٣٩٥/٧-٣٩٧ .

(٤) انظر : المحرر الوجيز : ٥٥/١٣ ، وروح المعاني : ١٥٩/٢١ .

(٥) انظر : نظم الدرر : ٣٠٦/١٥ .

الاسم عدلوا عن الاسم الذي وسمها به الرسول عليه الصلاة والسلام وهو المدينة أو طيبة إلى الاسم القديم الذي كانت تدعى به مع قبحه لاشتقاقه من التثريب وهو اللوم والعنف - وغرضهم من ذلك التلويح بالعدول عن الإسلام ومخالفة النبي صلى الله عليه وسلم في كل شيء حتى في الأسماء [١]. [لامقام لكم] لاموضع قيام تقومون به [فارجعوا] إلى منازلكم هاربين من القتل إلى نسائكم .

ولما ذكر ذلك الفريق من المنافقين الذين تسفّلوا أتْبعه بذكر فريق آخر تستر بعض التستر تمسكاً بأذيال النفاق [٢]، وهم الذين قال الله عنهم [ويستأذن فريق منهم النبي يقولون] في استئذانهم إلحاحاً عليه مرة بعد مرة [إن بيوتنا عورة] مكشوفة للعدو متروكة بلا حماية ، ولما كذبوا في ذلك مع المؤكدات الواردة في كلامهم ردّ الله عليهم مؤكداً كذبهم بقوله [وماهي بعورة] فهم لايريدون بذهابهم حمايتها [إن] ما [يريدون إلاّ فرارا] هرباً من القتل وخوفاً من العدو ، وقد أكد ذلك بأسلوب القصر المقرر لحقيقة الأمر [٣].

ولما كانت عنايتهم مشتدّة بملازمة دورهم ، فأظهروا اشتداد العناية بحمايتها زوراً - بيّن الله ذلك ودلّ عليه بالإسناد إلى الدور تنبيهاً على أنّها ربّة الحماية والعمدة في ذلك [٤] فقال :[ولو دخلت] بيوتهم من أيّ داخل كان من هؤلاء الأحزاب أو من غيرهم . [عليهم] عبر بأداة الاستعلاء إشارة إلى أنه دخول غلبة [من أقطارها] من جوانبها كلها بحيث لايكون لهم مكان للهروب ، [ثم سئلوا الفتنة] أي الردّة وقتال المسلمين [لأتوها] أعطوها طيبة بها نفوسهم . والمعنى : أن الأحزاب لو دخلوا عليهم المدينة وطلبوا منهم أن يعودوا إلى الكفر لأجابوا إجابة سريعة لاتردد فيها [٥] [وماتلبّثوا بها إلا يسيرا] زمنا قليلاً وهو مقدار مايجيبون من سألهم الفتنة ؛ والمراد تأكيد قلّة تلبّثهم وإظهار شدّة تشبّثهم بالفتنة ومايبعثها [٦] ؛ فكان هذا دليلاً على أنهم لم يقصدوا من وراء ذلك الاستئذان إلاّ الفرار لاحفظ البيوت من المضار [٧].

---

(١) انظر : نظم الدرر : ٣٠٦/١٥ ، ومن أسرار التعبير القرآني : ٥٨ .
(٢) انظر : نظم الدرر : ٣٠٧/١٥ .
(٣) انظر : من أسرار التعبير القرآني : ٦١ .
(٤) انظر : نظم الدرر : ٣٠٨/١٥ .
(٥) انظر : من أسرار التعبير القرآني : ٦٤ .
(٦) انظر : روح المعاني : ١٦١/٢١ ، والتحرير : ٢٨٨/٢١ .
(٧) انظر : نظم الدرر : ٣٠٩/١٥ .

ولما كان الكذب من أخلاقهم حكى عنهم ماصدر منهم كذبا ، وهو قوله [ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل] هذه الغزوة ، بأنهم [لايولون الأدبار] انهزاماً [وكان عهد الله مسؤولا] فلسوف يُسألون عن ذلك وفي هذا تهديد بأسلوب الإخبار العام .

ثم شرع - سبحانه - آمراً رسوله بالرد عليهم وتعنيفهم وإظهار جهلهم بقوله [قل] لهم لائماً لهم ومخبراً أن فرارهم ذلك لايقدم ولايؤخر [لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت] بغير عدو يقتلكم [أو القتل] فلو كنتم في بيوتكم التي فررتم إليها لبرز الذين كتب عليهم القتل فمضى قدر الله فيهم . [وإذاً] حين فررتم لتسلموا من الموت أو القتل ولتنعموا في الدنيا فإنكم [لاتمتعون إلاّ قليلا] متاعاً يسيراً ، بل يتمكن العدو منكم ومن أموالكم . ولما كان في خواطرهم أنهم سيعتصمون بما يدفع عنهم الموت أو القتل قيل دفعاً لهذا الوهم الناشيء عن الجهل بقضاء الله وقدره [قل] لهم منكراً عليهم [من ذا الذي يعصمكم من الله] القادر على كل شيء [إن أراد بكم سوءاً] مايسوؤكم [أو أراد بكم رحمة] تنفعكم ، والاستفهام إنكاري في معنى النفي ، أي لا أحد يفعل ذلك [1] .

ولمّا نفى عنهم أن يكون ثَمّ عاصم من دون الله أتى على نفي الولي والنصير تأكيداً وتيئيساً فقال : [ولايجدون لهم من دون الله ولياً ولانصيرا] في أيّ وقت من الأوقات .

ولمّا أخبر سبحانه ببعض ماوقع من أسرارهم شرع في تحذيرهم بالإخبار عن دوام علمه لمن يخون منهم فقال محقّقاً ومقرّباً من الماضي ومؤذناً بدوام هذا الوصف له [2] سبحانه [قد يعلم الله المعوّقين [3]] الذين يحرصون على تثبيط الناس عن القتال [4] [منكم] يامن أظهرتم الإسلام نفاقا [والقائلين لإخوانهم هلم إلينا] أقبلوا

---

(١) انظر : روح المعاني : ١٦٣/٢١ ، والتحرير : ٢٩٢/٢١ .
(٢) انظر : نظم الدرر : ٣١٣/١٥ .
(٣) يقول ابن عاشور عن هذه الآية : " و[قد] مفيد للتحقيق ؛ لأنهم لنفاقهم ومرض قلوبهم يشكون في لازم هذا الخبر وهو إنباء الله رسوله عليه الصلاة والسلام بهم ، أو أنهم لجهلهم الناشيء عن الكفر يظنون أن الله لايعلم خفايا القلوب " . ثم يقول : " ودخول [قد] على المضارع لايخرجها عن معنى التحقيق عند المحققين من أهل العربية ، وأن ماتوهموه من التقليل إنما دل عليه المقام في بعض المواضع لامن دلالة [قد] ، ومثله إفادة التكثير ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **قد نرى تقلب وجهك في السماء** ﴾ في سورة البقرة ، وقوله تعالى : ﴿ **قد يعلم ما أنتم عليه** ﴾ في آخر سورة النور " . التحرير : ٢٩٣/٢١ - ٢٩٤ .
(٤) انظر : التحرير : ٢٩٤/٢١ .

إلى مانحن فيه من الظلال والثمار [ولا] والحال أنهم لا [يأتون البأس] الحرب [إلا قليلاً] إتياناً قليلاً ؛ لأن عملهم التخذيل والتثبيط [أشحّة عليكم] أي بخلاء بالمعونة والنفقة والمودة عليكم ، أو هم أضنّاء بكم ظاهرا [(١)] ، ذلك في حال الأمن [فإذا جاء الخوف] بمجيء أسبابه ومقدماته [رأيتهم ينظرون] مرة تلو الأخرى [إليك] وأفاد حرف الغاية بعدهم حسّاً ومعنى[(٢)] [تدور أعينهم] تصوير لهيئة نظرهم ، إذ هو نظر خائف مذعور يحدّق بعينيه إلى جهات متعددة حذراً من أن تأتيه المصائب من إحداها من حيث لايحتسب [(٣)]. وماشبههم في سرعة تقلب أعينهم لغير قصد صحيح إلا [كالذي يغشى عليه من الموت] فإن عينيه تضطربان من سكرات الموت وشدّة النزع .

ثم ذكر سبحانه خصيصة أخرى من خصائصهم في حالة انقشاع الخوف وذهابه فقال [فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد] بالغوا فيكم بالكلام طعناً وذمّاً بألسنة ذربة قاطعة فصيحة بعد أن كانت عند الخوف في غاية اللجلجة لاتقدر على الحركة من قلّة الريق ويبس الشفاة هلعاً وجبنا[(٤)]. [أشحّة على الخير] وصف جامع لأحوالهم ، أي : فإذا ذهب الخوف وحيزت الغنائم ووقعت القسمة نقلوا ذلك الشّح وتلك الضنّة والرفرفة عليكم إلى الخير وهو المال والغنيمة ، ونسوا تلك الحالة الأولى ، واجترؤوا عليكم وضربوكم بألسنتهم [(٥)].

ولما وصفهم الله عز وجل بتلك الدنايا وأظهر مابهم من الخزايا أخبر بأن أساسها وأصلها هو عدم اليقين القلبي فقال : [أولئك] المتميّزون عن غيرهم بتلك الصفات [لم يؤمنوا] ولما كان العمل مبنياً على الإيمان سبّب عنه[(٦)] قوله [فأحبط الله أعمالهم] فلا ينفعهم قرباتهم ولاجهادهم . [وكان ذلك] الإحباط [على الله يسيرا] هيّناً لايبالي به .

---

(١) انظر : محاسن التأويل : ٤٨٣٥ .
(٢) انظر : نظم الدرر : ١٥/٣١٤ .
(٣) انظر : التحرير : ٢١/٢٩٧ .
(٤) انظر : نظم الدرر : ١٥/٣١٥ ، ومحاسن التأويل : ٤٨٣٥ .
(٥) أنظر : الكشاف : ٥/٣٨ .
(٦) انظر : نظم الدرر : ١٥/٣٢٠ .

وأولئك المنافقون من جزعهم وشدة فزعهم ومع أن الله قد كشف الأحزاب وهزمهم فإنهم [يحسبون الأحزاب لم يذهبوا] فما زالوا في خوفهم ويأبون التصديق بذهابهم ، وأما لو قُدّر رجوع الأحزاب مرة أخرى فلهم مع أنفسهم ومع المؤمنين شأن آخر كشف الله عنه بقوله [وإن يأت الأحزاب يودّوا لو أنهم بادون] مقيمون في البادية [في الأعراب] وهم في حال إقامتهم [يسألون] في كل وقت وحين [عن أنبائكم] عما جرى عليكم من الأحزاب يتعرفون أحوالكم بالاستخبار لا بالمشاهدة فَرَقاً وجبنا [1]. ولو فرض أنهم لم يتمكّنوا من الخروج إلى البادية وحصل قتال فلهم وضع آخر [ولو كانوا فيكم ماقاتلوا إلا قليلاً] قتالاً يسيراً تقيّة ورياء [2].

وبعد توبيخ المنافقين والذين في قلوبهم مرض وتحذير أمثالهم أقبل المولى جل وعلا على خطاب المؤمنين على سبيل العموم ثناء على ثباتهم وتأسّيهم بالرسول صلى الله عليه وسلم على تفاوت درجاتهم في ذلك قائلاً : [لقد كان لكم] جميعاً [في رسول الله أسوة حسنة] وقد سيق هذا الكلام على جهة الإخبار لتحصل فائدة الخبر وهي العمل بمقتضاه ، ولكن اقتران هذا الخبر بحرفي التوكيد في [لقد] يومىء إلى التعريض بالذين لم ينتفعوا بالأسوة الحسنة من المنافقين والذين في قلوبهم مرض ؛ فلذلك كان الضمير مجملاً في [لكم] ثم فُصّل بالبدل منه بقوله[3] [لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا] ومن عداهم فليس أهلاً للانتفاع بتلك الأسوة العظيمة .

ولما أخبر سبحانه فيما مضى عما حصل في هذه الغزوة من المحن والشدائد لسائر الناس وبخاصة المنافقون الذين قالوا أقوالاً مخزية مرجفة قابلها بذكر موقف المؤمنين الصادقين فحكى أقوالهم الدالة على يقينهم وصدقهم مع ربّهم فقال سبحانه : [ولما رأى المؤمنون] جموع [الأحزاب] ماكان قولهم إلاّ أن [قالوا هذا ماوعدنا الله ورسوله] ذلك أنهم لمّا ابتلوا وزلزلوا لم يُخرْ عزائمهم ولا أدخل هذا الموقف شكاً في إيمانهم بل راجعهم الثبات الناشيء عن قوة الإيمان وعدّوا ذلك مقدمات النصر

---

(١) انظر : روح المعاني : ٢١/١٦٦ – ١٦٧ .

(٢) انظر : التحرير : ٢١/٣٠٠ .

(٣) انظر : التحرير : ٢١/٣٠٢ .

وبوارقه[1] إيقاناً وتصديقاً بما أخبر سبحانه في سورة البقرة وهو قوله عز وجل : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾[2] فصدّقوا الله عز وجل وصدقوا رسوله في كل ماجاء عنهما بقرب النصر وانكشاف الغمّة على الضد من قول المنافقين الذين قالوا وقت ذاك [ماوعدنا الله ورسوله إلاّ غرورا] .

ولما كان صدق الله ورسوله يقيناً ثابتاً في قلوب المؤمنين محققاً وقوعه عُبر عنه بالمضي[3] في قوله [وصدق الله ورسوله] .

وسمة أخرى من سمات المؤمنين تميزوا بها عن المنافقين الذين زادهم موقف الأحزاب نفاقاً وتشكيكا ، أما أهل الإيمان واليقين فقد شهد الله عز وجل لهم في ذلك الموقف بقوله : [ومازادهم إلاّ إيماناً وتسليما] بأسلوب القصر توكيداً وتقريرا .

ولما ذكر أن المنافقين عاهدوا الله لايولون الأدبار ثم نقضوا ذلك العهد ذكر وفاء المؤمنين به وصدقهم فيه[4] بقوله : [من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله] فحقّقوه وأتمّوه وبذلوا مهجهم في مرضاته وسبلّوا نفوسهم في طاعته ، وهم أصناف [فمنهم من قضى نحبه] عهده جهاداً في سبيل الله بالموت في هذا السبيل [ومنهم من ينتظر] قضاء النحب ، [ومابدّلوا تبديلاً] بخلاف المنافقين فهذا تعريض بهم حيث ولّوا الأدبار إلى بيوتهم يوم الخندق ظنّاً منهم أن المشركين هم الظافرون[5] .

وكان عاقبة صدق المؤمنين وتبديل المنافقين قوله [ليجزي الصادقين بصدقهم] فيعلي أمرهم ذكراً في الدنيا وأجراً في الآخرة [ويعذب المنافقين] في الدارين ؛ فضحاً في الدنيا وعقوبة في الآخرة [إن شاء] ذلك ؛ وتعليق التعذيب بالمشيئة تطميع لهم بالتوبة ، ولذلك قال [أو يتوب عليهم] وقد تاب كثير من المنافقين منهم معتّب بن قشير[6] ، [إن الله كان غفوراً رحيماً] فلا ييأس أحد من التوبة ، فإن مغفرة الله

---

(١) انظر : التحرير : ٣٠٤/٢١ .

(٢) البقرة : ٢١٤ وكانت هذه الآية قد نزلت قبل وقعة الأحزاب بعام كذا روي عن ابن عباس رضي الله عنهما . انظر : التحرير : ٣٠٤/٢١ . وانظر : ٤٦٧ - ٤٧٤ .

(٣) انظر : التحرير : ٣٠٥/٢١ .

(٤) انظر : تفسير كلام المنان : ٢١٠/٦ .

(٥) انظر : نظم الدرر : ٣٢٩/١٥ ، والتحرير : ٣٠٨/٢١ .

(٦) انظر : التحرير : ٣٠٩/٢١ .

ورحمته مبذولة لطالبهما .

ولما بين الله عز وجل ماجرى في هذه الغزوة من المحن الشديدة والبلايا العظيمة ، وأظهر مخازي المنافقين وعزائم المؤمنين الصادقين عاد النص الكريم يردّ نهاية القصة على أولها ، ويربط نتيجتها بمقدّماتها فقال سبحانه عطفاً على قوله [فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً ...] [وردّ الله] الذي لايعجزه شيء ، وفي ذكر لفظ الجلالة التفات عن التعبير بنون العظمة تربية للمهابة وإدخالاً للروعة وتثبيتاً لليقين[1] [الذين كفروا] وعدل عن لفظ [جنود] وسماً لهم بالذي بعث العزيز المقتدر على ردّهم وتعذيبهم وهو الكفر ، وإظهاراً لفضل الإيمان على صاحبه [بغيظهم] المتميّز الذي صاحبهم ولابس تصرفاتهم [لم ينالوا خيرا] من الدنيا ولامن الدين وفيه تهكم بهم واستخفاف بمطامعهم[2] .

ولما كان ردّهم قد يكون بسبب من عدوّهم بين أن الأمر ليس كذلك فقال : [وكفى الله المؤمنين القتال] بما أرسله من جنود لاقبل لهم بها .

ولما كان هذا أمراً باهراً أتبعه مايدل على كونه يسيراً عليه[3] فقال [وكان الله قوياً عزيزا] لايقف شيء مهما كان أمامه ، وفي ذلك من تقوية اليقين والثقة بالله العظيم مالايخفى .

ولما أتمّ الله قصة الأحزاب أتبعها بذكر قصّة الذين ألّبوهم وتولّوا كبر تحزيبهم وهم عامة اليهود ، وبخاصة يهود بني قريظة ؛ فكان ذلك سبباً في إنزال العقوبة بهم[4] . وفي ذلك يقول سبحانه : [وأنزل الذين ظاهروهم] أعانوا عليهم ، وسماهم

---

(١) انظر : روح المعاني : ٢١/١٧٤ ، ومن أسرار التعبير القرآني : ١٢٤ .

(٢) انظر : من أسرار التعبير القرآني : ١٢٨ .

(٣) انظر : نظم الدرر : ١٥/٣٣٢ .

(٤) خلاصة غزوة بني قريظة : أن الله عز وجل أوحى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم صبيحة الليلة التي انهزم فيها الأحزاب أن الله يأمرك بالمسير إلى بني قريظة ؛ فأذّن في الناس أن من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلي العصر إلا في بني قريظة ؛ فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار ، وقذف الله في قلوبهم الرعب ؛ فقال لهم النبي : أتنزلون على حكمي ؟ فأبوا ؛ فقال : أتنزلون على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس ؟ فرضوا به فحكم فيهم ؛ فقال : إني أحكم أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء ، فقال النبي : لقد حكمت بحكم الله ، ثم استنزلهم ، وخندق في سوق المدينة خندقاً ، وقدمهم فضرب أعناقهم وهم من ثمانمائة إلى تسعمائة ، وجعل أموالهم غنيمة للمسلمين . انظر : حدائق الأزهار : ٢/٥٩٤ - ٥٩٩ ، والرحيق المختوم : ٣٥٢ - ٣٥٧ ، وإعراب القرآن وبيانه : ٧/٦٢٩ .

بذلك دون غيره نصاً على سبب العقوبة التي نزلت بهم[١] ، ثم بينهم بقوله [من أهل الكتاب من صياصيهم] حصونهم المنيعة العالية التي يصعب اقتحامها ، وفي ذكرها بهذا الاسم إشارة إلى عظيم نعمة الله تعالى على المؤمنين حيث استنزلهم منها مرعوبين هلعين ، [وقذف في قلوبهم الرعب] قبل نزولهم وبعده ، ولكنه بعد النزول من الحصون أظهر وأمكن ولذلك ذكر عقبه مباشرة بالواو العاطفة التي أفادت اقتران الرعب بهم وتمكنه فيهم[٢]. وكانت نهاية اليهود المحتومة جزاء خيانتهم هذه الصورة المخزية [فريقاً تقتلون] وهم رجالهم ، ذكره بلفظ الفرقة ونصبه ليدل باديء ذي بدئ على أنهم أخذوا إلى القتل مفرّقين وكانوا طوعاً لأيدي الفاعلين[٣]، وقدم القتل على الأسر لكونه أوقع في إنزال العقوبة ، ثم بين مصير الباقين بقوله [وتأسرون فريقا] وهم الذراري والنساء . وكأن تأخير المفعول هنا فيه ضرب من الرحمة بهم لضعفهم ، بخلاف الفريق الأوّل الذي كان تقديمه على فعله تقديم المقتول على فعل القتل .

ولما ذكر حال الناطق بقسميه ذكر حال الصامت بقوله[٤] [وأورثكم أرضهم] على سبيل العموم ، ثم النفيس منها بقوله [وديارهم] التي يحامى عنها مالا يحامى عن غيرها ، ثم ذكر الأموال لأهميتها ولعدّ المزيد من النعم على المؤمنين فقال [وأموالهم] من نقود وماشية وسلاح وأثاث وغيره[٥].

ولما كانت هذه غزوة طار رعبها في الآفاق وذلّت بعدها أعناق أهل الشرك على الاطلاق[٦] ساق الله عز وجل للمؤمنين بشارة عظيمة وجعلها في متن هذه الآية زيادة في الإنعام عليهم وإسعاداً لقلوبهم فقال : [وأرضاً لم تطئوها] غزواً أو فتحاً مما سيكون في ملككم كأرض خيبر ومكة وفارس والروم واليمن وغيرها مما مكّن الله المسلمين منها ، ولمّا كان هذا أمراً باهراً سهّله الله في أذهان عباده فقال [وكان الله على كل شيء] ذلك وغيره [قديرا] قادراً عليه عظيم القدرة ، وفي ذلك من تعاقب الفتوحات والتبشير بها ماهو جليّ ظاهر .

---

(١) انظر : من أسرار التعبير القرآني : ١٣٧ .
(٢) انظر : نظم الدرر : ١٥/٣٣٣ ، ومن أسرار التعبير القرآني : ١٤٥ .
(٣) انظر : نظم الدرر : ١٥/٣٣٣ .
(٤) انظر : نظم الدرر : ١٥/٣٣٤ .
(٥) انظر : نظم الدرر : ١٥/٣٣٤ .
(٦) انظر : نظم الدرر : ١٥/٣٣٤ .

العبر والعظات التي نطقت بها آيات الأحزاب : -

لقد تخلل الآيات الكريمات التي عرضت من خلالها غزوة الأحزاب طائفة من العبر والقواعد العامة في شتى المجالات ، وحريٌ بأهل الإيمان أن يقفوا عندها ويعتبروا بها فهي لاتخصّ المؤمنين الأوائل ، وإنما تنسحب على سائر المؤمنين في كل زمان ومكان ؛ فالعبرة بعموم النصوص وعموم دلالاتها لابخصوص أسباب نزولها ٠

وفيما يلي طائفة من هذه العبر : -

١ - أن نعم الله عز وجل على عباده عظيمة مترادفة ومن أعظمها نعمة الإسلام ؛ إذ عليه مدار دوام النعم واستمرارها ، فهم به أقوياء أسوياء ، وبدونه ضعفاء ٠ ولذلك افتتح الله عز وجل ذكر غزوة الأحزاب بنداء أهل الإيمان آمراً لهم بذكره وشكره على نعمه ، ومنها مافصّله لهم في شأن اجتماع الكفرة عليهم وتحزّبهم من سائر الأقطار يبغون لهم الفتنة والشرّ ؛ فكان الله لهم بالمرصاد وفاء بوعده ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(١)٠

٢ - أن الكفر ملّة واحدة وأصحابه يختلفون فيما بينهم ، ولكنهم يجتمعون على حرب الإسلام ، وهذا ظاهر في غزوة الأحزاب فقد جمعت يهوداً ومشركين ووثنيين وأحابيش ومنافقين منهم من كان ملتفاً على المدينة المنورة من خارجها ، ومنهم من كان نهّازاً للفرص من داخلها كيهود بني قريظة وطائفة من المنافقين ، ولذلك فعلى جمع الإيمان ألاّ يثقوا بالكفار مهما لانت ملامسهم ، أو حلَت كلماتهم ، ففيها مقاتل المسلمين ومن خلالها ينشرون سمومهم ويبثون فاسد أفكارهم ، وينالون من أهل الإسلام على مدار الزمان ، وإن اختلفت وجوههم وتعدّدت بلدانهم ، فالكفر هو الضابط لعداوتهم ٠

٣ - أن جنود الله عز وجل لايحصى عددها ، ولايعلمها إلا مرسلها سبحانه وتعالى ؛ فمنها المرئي المنظور من البشر كالمؤمنين الصادقين ، ومن غيرهم كالملائكة والريح والمطر والبَرَد والبَرْد والحرّ والحجارة وغيرها ، ومنها مالم يكن في الحسبان كما وقع في غزوة الأحزاب عندما هدى الله نعيم ابن مسعود

---

(١) الروم : ٤٧ ٠

الغطفاني للإسلام فجاء رسول الله عليه الصلاة والسلام فأمره بأن يخذّل عن المسلمين ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، فكان ماكان ؛ فأوقع الله الريبة والبغضاء بين جموع الأحزاب فكان ذلك من جملة الأسباب الظاهرة في هزيمتهم واندحار جموعهم .

٤ - أن على قائد جند المسلمين أن يجمعهم ويستشيرهم في الأمر الذي هم بصدده ، وعليه أن يقلّب آراءهم ويأخذ بأنسبها لواقع المعركة وأنفعها للجند مما به دفع الضرر المتوقع وردّ الشر المنتظر ، فإن في ذلك تطيباً لنفوس الجند وتصعيداً لهممهم الحربية وبعثاً لطاقاتهم الفكرية والجسدية . وتقليلاً من الخسائر البشرية والمالية . وهذا مافعله عليه الصلاة والسلام مع صحبه عندما استشارهم وسمع آراءهم ، فوقع اختياره على رأي سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر خندق حول المدينة مما أوقع الذهول في صفوف الأحزاب فقالوا : إنها لمكيدة ماكانت العرب تكيدها [١].

٥ - أن مشاركة القائد جنده في المجهود الحربي وملابسته لهم وإنشاده معهم بالأشعار المنشّطة لهم كل ذلك له أبلغ الأثر فيهم كما فعل الرسول مع المؤمنين ، وهذا درس عملي عسكري للقادة المسلمين ينبغي ألا يغيب عن أذهانهم [٢].

٦ - أن المؤمن يعتريه مايعتري البشر من الخوف ونحوه ولكنه لايفزع ولايجزع ويوقن بأن هذا ضرب من البلوى ويستذكر وقتئذٍ وعد الله ويثق به فينفرج همّه ويرتفع غمّه ، ويصبح ماوجده ضرباً من البشرى الربانية بقرب النصر وحلول الفرج ، وقد تجلى ذلك في مقالة المؤمنين لما رأوا الأحزاب حيث قالوا : [هذا ماوعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ومازادهم إلا إيماناً وتسليما] وهي لحظة ينبغي ألا تغيب عن بال المؤمنين في أزمنة الشدائد والكربات ؛ فإن النصر مع الصبر والفرج مع الكرب وإن مع العسر يسرا .

---

(١) انظر : غزوة الأحزاب : ١٧٨ . لمحمد أحمد باشميل ، ط ٤ سنة ١٣٩٤هـ ، دار الفكر .
(٢) الأساس في السنة وفقهها : ٦٧٥/٢ . لسعيد حوى ، ط ١ ، دار السلام للطباعة والنشر .

٧ - من المسلَّم به أن المحن والشدائد غربلة للإيمان وكشف لحقيقته ؛ فمن صبر وتعلّق بما عند الله من النصر والثواب فهو المؤمن ، ومن تشكك وماج فهو مريض القلب مدخول اليقين إن لم يكن من خلّص المنافقين ، وهم الذين تنكشف أحوالهم وتظهر أماراتهم عندما تقع الكروب وتشتد المحن ، وهذا ماوقع لأهل النفاق في غزوة الأحزاب ، حيث طفقوا يسخرون بوعد الله ورسوله حتى قالوا : [ماوعدنا الله ورسوله إلاّ غرورا] .

٨ - أن أصل النفاق واحد وهو إظهار الإسلام وإبطان الكفر ، مما يجعل سائر أعمال المنافقين تتشابه ، كما جعل أقوالهم تلتقي على أصول ثابتة ، وهي الفرار وقت الزحف ، وحب الدنيا وكراهية الموت ، والتخذيل في الصفوف ، وبثّ الأراجيف ، والسعي الدؤوب للتعويق عن الجهاد ، وهذه المظاهر وجدناها في غزوة تبوك (١) ، ثم وقفنا على صور لها مشابهة في هذه الغزوة ، فالمؤدّى واحد ؛ لأن الأصل الذي انطلقت منه واحد ، وهو الكفر بالله وبرسوله والارتزاق وراء راية الإسلام وإجادة فنّ التلوّن في المخادعة ، وهو دأب المنافقين في ذلك الزمان ودأب أتباعهم في كل زمان ومكان ، وذلك أن قلوبهم قد تشابهت ، فالتقت مادة أقوالهم وأفعالهم على اختلاف أجناسهم وبقاعهم وأزمانهم .

٩ - أنّ شطراً كبيراً من الآيات المتعلّقة بغزوة الأحزاب قد عرض مواقف المنافقين وأكثر منها بشكل فاق الحديث عن أحداث الغزوة العسكرية ونتائجها الواقعية ؛ فقد كان عدد الآيات التي تناولت غزوة الأحزاب باستثناء ماورد في شأن يهود بني قريظة سبع عشرة آية ، منها ست آيات في شأن المؤمنين وأحداث الغزوة ، وإحدى عشرة آية وردت في شأن المنافقين عرضاً لمواقفهم المخزية وإظهاراً لأقوالهم القبيحة ، وتشنيعاً عليهم .

وكأنّ في ذلك إشارة إلى أن الذي ينبغي أن يُعتنى به في شأن الحروب والمعارك هو أمر الجند ؛ بحيث يعتنى باختيارهم وبمناهج تعليمهم ، ويوجه الاهتمام إلى تربيتهم تربية إسلامية تغرس العقيدة الصافية في قلوبهم ،

---

(١) انظر من هذا البحث : ٥٦١ - ٥٧٠ .

وتفقّههم في أحكام الدين ، وقواعد التعامل بين المسلمين ، وتعرض لهم نماذج إيمانية يحتذى بها من سير السلف الصالح من المجاهدين ، ونبذاً أخرى من مخازي المنافقين والذين في قلوبهم مرض حتى يحذروا الوقوع في جملة رذائلهم، ويبتعدوا عن كل ماهو سبب إلى النفاق ؛ فإنّه بوّابة الهزيمة الكبرى .

١٠- أن علامة قوة اليقين وأمارة رجاء الله عز وجل واليوم الآخر تبرز في التأسّي بالنبي صلى الله عليه وسلم ؛ فمن كان حريصاً على التأسّي بسنته واقتفاء أثره في السلم والحرب فهو عامر الإيمان قريب من الرحمن ، ومن خالف هديه فإن تقصد ذلك فخطر عليه المروق من الدين ، وإن كان جاهلاً فسبيله التعليم والإرشاد .

١١- مشروعية الوفاء بالعهود والتحذير من نقضها وامتداح من أتمّها ، وأن نقضها من أمارات النفاق ، والوفاء بها من علامات الإيمان .

١٢- عدم اليأس من رحمة الله ومشروعية المبادرة إلى التوبة مادام الباب مفتوحاً فإن الله غفور رحيم يحب التوابين ويحب المتطهرين .

١٣- أن غزوة الأحزاب الخطيرة وإن كانت في الشكل والمظهر غزوة قرشية غطفانية إلا أنها في أهدافها البعيدة ومراميها العميقة هي غزوة يهودية في أصل مبعثها؛ فكان هدف اليهود هو احتلال المدينة والقضاء على المسلمين فيها وهدم الإسلام في عقر داره [(١)]، ولذلك استعانوا بغيرهم ممن لهم ثأر مع المسلمين من أجل تتميم الفكرة وتحصيل تلك الغاية ، ولهذا كلّه فقد جُوزوا من جنس ما أرادوا ؛ فكان عاقبة أمرهم خُسْرا ، وردّ الله كيدهم في نحورهم ، وجعل الله الدائرة عليهم ، فأمر الله نبيه بغزوهم وتطهير الأرض منهم وجعلهم عبرة لكلّ مَنْ يضمر خيانة أو غدرا ، فقتل رجالهم وسبيت نساؤهم وذراريهم ، وأصبحت أموالهم في عداد أموال المسلمين وأورث الله عباده الصالحين أرضهم وديارهم ، فانقطع أصل الفكر الفاسد ومبعث الشرّ بانقطاعهم .

---

(١) انظر : غزوة الأحزاب : ١٣١ - ١٣٢ .

١٤- لقد كانت غزوة الأحزاب في جملتها القمة التي تضافرت فيها قوى الشر على بيضة الدين تبتغي بها بدلاً ، وتروم لها كيداً ، ولكن الله عز وجل ردّ تلك الجموع الكافرة بغيظهم لم ينالوا خيراً وجعل كلمته هي العليا وكلمة الذين كفروا السّفلى ، وكانت هذه الغزوة بشارة ربّانية للمؤمنين بنصرهم على سائر من حولهم من الممالك والمدائن ، وهذا ما أشار إليه قوله تعالى مخاطباً المؤمنين في سياق حديثه عن فعله ببني قريظة : [وأورثكم أرضهم وديارهم وأرضاً لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديرا] .

١٥- أن غزوة الأحزاب لم تكن معركة خسائر بل كانت معركة أعصاب ، فقتلى الفريقين من المؤمنين والكفار يعدون على الأصابع ، ومع تلك الحقيقة فهي من أحسم المعارك الفاصلة في تاريخ الإسلام ، إذ إن مصيرالإسلام كان فيها أشبه بمصير رجل يمشي على حافة قمة سامقة أو حبل ممدود ، فلو اختل توازنه لحظة وفقد السيطرة على موقفه لهوى إلى واد سحيق ممزق الأعضاء ، ممزع الأشلاء ، فلقد أمسى المسلمون وأصبحوا فإذا هم كالجزيرة الصغيرة وسط طوفان هائج ، يتهددها بالغرق ليلاً أو نهارا ، وكان المشركون يدورون حول المدينة غضاباً يتحسّسون نقطة ضعيفة لينحدروا منها ، فينفسوا عن حنقهم المكتوم ، ويستأصلوا شأفة هذا الدين (١)، ولكن الله عز وجل تولّى أمرهم ، فردّهم بغيظهم وكفى عباده المخلصين القتال ؛ فكانت هذه الغزوة مثالاً يحتذى في أن المؤمنين مهما جمع لهم الأعداء من السّلاح والجم الغفير من البشر فإنهم لايغنون شيئاً أمام قوة الله وعزته ، وهذه القوة وتلك العزة لاتستنزل إلا بالصبر والتقوى والدنو من الله تعالى في حال الشدة والرخاء معا ، فإن العباد إذا تعرفوا على الله في حال الرخاء عرفهم المولى وكان معهم بنصره وتأييده في حال الشدة ، فقد قال تعالى مخاطباً أولياءه : ﴿.. وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ..﴾(٢) وهذا خبر من الله تعالى مشروط جوابه بتحقُّق مضمون فعله .

---

(١) انظر : فقه السيرة : ٣١٨ ، لمحمد الغزالي ، ط ٨ سنة ١٩٨٢م .
(٢) آل عمران : ١٢٠ ، وانظر من هذا البحث الصفحات : ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ .

١٦- لقد كانت غزوة الأحزاب منعطفاً في تاريخ العلاقات بين المسلمين واليهود من جهة وبين المسلمين وسائر المشركين من جهة أخرى . فلقد كان بين اليهود والمنافقين وسائر المشركين خيط دقيق في حَبْك المؤامرات والدسائس ضد المسلمين ، وكان الذي يتولى كبر ذلك ويقوم به هم اليهود ، ولا أدل على ذلك من قدرتهم الظاهرة على تأليب جموع الأحزاب الكافرة ضد المسلمين ، ولكن منذ نهاية أيام الأحزاب ذلّت اليهود وضعفت حركة النفاق في المدينة تبعاً لها ، فطأطأ المنافقون رؤوسهم ، وجبنوا عن كثير مما كانوا يأتون ، وتبع ذلك أن المشركين لم يعودوا يفكرون في غزو المسلمين ، بل أصبح المسلمون هم الذين يغزونهم ، وبيدهم زمام المبادرة ، وبذلك يمكن القول : إن هناك تلازماً بين حركات اليهود وحركات المنافقين وحركات المشركين ، وإنّ طرد اليهود من المدينة قد أنهى هذا التلازم [١].

---

(١) انظر : في ظلال القرآن : ٥/٢٨٤٩ .

الخاتمـــــة

وبعد هذه الصحبة المباركة مع الجهاد والمجاهدين ؛ من خلال ماورد في هذا الشأن من آيات الذكر الحكيم ؛ أقف في نهاية المطاف وِقْفة الجاني ثمار زرعه ، المحصي نتائج ثمره ؛ لأُبْرز بعض مايمكن إبرازه من نتائج هذه الرسالة ، التي تخلّلت تضاعيفها .

وهذه النتائج أُلخّصها على وجه الإجمال في الآتي : -

١ - أنّ لفظة " النظم " مأثور إطلاقها على بيان القرآن عند بعض العلماء من سلفنا الصالح ؛ المشهود لهم بالاستقامة في الدين وسلامة المعتقد ؛ وذلك كابن قتيبة الدينوري ، وابن جرير الطبري ، وابن عطية الأندلسي ، وأبي عبدالله القرطبي ؛ بل إن منهم من وسم تفسيره بـ " نظم الدُّرر " ، وهو أبو الحسن البقاعي(١) .

٢ - أن أقرب مفهوم للنظم القرآني هو أنّه علم يبحث في الأسرار البلاغية ، واللطائف البيانية التي تتخلّل كلام الله عز وجل ، ويُعْنَى هذا النظم بالفروق المعنويّة الدقيقة بين خصوصيات التراكيب ، ويَرْبط هذه الخصوصيات بالسياق والغرض العام الذي ورد النص الكريم بشأنه(٢) .

٣ - أن دراسة النظم في كتاب الله تعالى ينبغي أن تنطلق من مُنْطَلَق كُلّي ، لامن منطَلَق جزئي ؛ وذلك لأن الغرض العام الذي سيقت الآية الكريمة لتقريره أو بيانه لايمكن أن يستقل بأدائه لفظ أو ألفاظ تكون بمعزل عن جاراتها ، بل إن سائر مافي الآية من أدوات وكلمات تتضافر جميعاً لإبراز الغرض وتحقيق الهدف الرباني من النص القرآني المسوق ؛ فالوقوف عند أسرار بعض كلمات الآية وإغفال غيرها - تقطيع لها ، وتجزئة لأغراضها ، وجعلها خادمة للعنصر البلاغي ، في حين أن الأقوم في ذلك أن تكون مسائل البلاغة وأدواتها خادمة للآية موصلة إلى أغراضها . ولايتحقق ذلك إلاّ بالنظرة الكلية لا بالمنظار الجزئي .

---

(١) انظر : ١٧ .

(٢) انظر : ١٢ .

٤ – أن الاتصال قوي الرّباط بين البلاغة والنحو ؛ فما البلاغة إلا ثمرة إقامة قانون النحو وقاعدته ، وما النظم ولطائفه إلاّ نحو مُعلَّل في جملته ، فتعليل الظواهر النحوية يفضي إلى نكات البلاغة وأسرارها ٠ وعلى ذلك فإن النحو هو باب البلاغة ومفتاحها ، ومن رامها من غير هذا الباب فقد جانب الصَّواب ، وأتى البيوت من غير أبوابها ٠ ولأمر ما كان عبدالقاهر نحوياً قبل أن يكون بلاغياً ؛ فقاده النحو إلى نظرية " النظم " التي دعا إليها ، وجعل إعجاز القرآن دائراً عليها ٠

٥ – أن من أبرز الذين حاولوا التماس دقائق نظم القرآن الكريم الزمخشري ، والرازي ، والبقاعي ، وأبا السعود ، والألوسي من القدماء ، وابن عاشور ، وعبدالكريم الخطيب وسيد قطب من المعاصرين؛ فلهم وقفات وإشراقات ، جعلت أكثر الناظرين في تفاسيرهم ينقل عنها ويستفيد منها ، ولايخفى ماعلى بعض تفاسيرهم من ملحوظات ؛ بحسب وجهة كل مفسّر وعقيدته ٠

٦ – أن الحقيقة والمجاز في القرآن الكريم قضية ثار حولها الجدل في كلام الله عز وجل ؛ أهو مشتمل على المجاز أم لا ؟ ولذا آثرت الإعراض عن بحثها ، واكتفيت بتسجيل نصّ نفيس لشيخ الإسلام ابن تيمية فيها ؛ تضمّن القول بالمجاز الذي قام دليله ، وبالتأويل الجاري على نهج السبيل ، وأن الشيخ ينكر ماخالف الحق والصّواب ، ومافتح به الباب إلى هدم السّنة والكتاب ٠ ونَسَب إلى الإمام أحمد وجمهور أصحابه القول : إن القرآن مشتمل على المجاز ، ولم ينكره إلا طائفة من أصحابه حسماً لمواد الفسّاد ، التي دخل بها المُحرّفة من باب المجاز ، ثم قال : إن " خيار الأمور التوسط والاقتصاد "(١)؛ وكأنّما يرى أن نفاة المجاز بالغوا في ذلك ، وأن المثبتين له بأدلته وقرائنه هم الذين توسّطوا واعتدلوا ، وأرى أن هذا الرأي هو خير مايقال في هذه القضيّة ٠

٧ – أن البلاغة مرحلة فوق الصّحة اللغوية والنحوية ؛ تُرَاعَى فيها أشياء كثيرة ؛ منها سلامة الكلمة من كل ماتعاب به ، ثم تخيُّر موقعها المناسب في الجملة

---

(١) انظر : ١٩ ٠

وَفْق الغرض الذي سيق له الكلام ؛ ولقد رأيت القرآن الكريم يتخيّر حروف الكلمة ، وينتقي أصواتها ؛ لما لها من أثر ملحوظ في معناها ؛ فتخرج لذيذة السماع على الآذان ، طيبة المجرى على اللسان ، نازلة على أحسن هيئة في إيقاعها ، قويّة في إيحائها ، وارفة في ظلالها ، تنبعث المعاني في وضوح من ألفاظها ، تُفْضي بتاليها إلى غاياتها في تآلف وانسجام مع جاراتها .

٨ - أن المراد بصفاء الكلمة في القرآن نقاء لفظها وعذوبته ، ووفاء معناها وتمام غايته ، مع تمكّنها في موقعها ، وشدّة ارتباطها بما قبلها ومابعدها ، وقد كانت هذه السمة في القرآن الكريم من جملة الفوارق بين كلام الله تعالى وكلام البشر.

٩ - أن إطلاق لفظ " الموسيقى " على الصوت المنبعث من ألفاظ القرآن في أثناء التلاوة مردود ؛ خلافاً لبعض الباحثين ؛ ممن تساهل في ذلك ؛ وعلّة ردّ ذلك كون " الموسيقى " عَلَماً على اللهو والطّرب ، والخِفّة والسَّفَه ، وكلام الله عز وجل أجَلُّ من أن نَهبط به إلى مانُهينا عنه .

١٠- أن بين جرس اللفظة وإيقاعها تقارباً شديداً ؛ فالجرس هو فعل الصوت وحركته الأولى ، وأما الإيقاع فهو نتيجة ذلك الفعل وأثره المسموع .

١١- أن بين إيحاء الكلمة وظلالها شيئاً من الالتقاء والتقارب ؛ فكأنّ إيحاء الكلمة إشارة إلى ظلال معناها ، وظلالها هو الجوّ المعنوي الذي يُوحي به لفظها ، ولكن الإيحاء والظلال لايكتملان إلا من خلال سياق النظم وفي نطاقه .

١٢- أنّ مما يدل على المعنى ويرشد إليه حركات الكلمة وشدّاتها ، وسكناتها وغُنّاتها؛ فنطق اللسان بها على تلك الصورة يجعل الأذن تستوحي معناها وتصل إليه [(١)].

١٣- أن الدراسة البلاغية من خلال النظم أثبتت أن أغراض التنكير ترتبط بموقع النكرة من سياق النظم ؛ وعلى ذلك مدار كونها للتعظيم أو التحقير ، أو التقليل أو التكثير ، أو غير ذلك من الأغراض الأخرى للتنكير [(٢)] .

---

(١) انظر : ٥٦ ومابعدها .

(٢) انظر : ٦٨ ، ٧٣ - ٧٦ .

١٤- أن أسلوب الالتفات كان كثيراً مايقع علاجاً شافياً في المواقف الجهادية المؤلمة ؛ إذْ به تكون المراوحة على المخاطبين ، ويحصل التدرج بهم من حال إلى حال ، عبر أساليب الالتفات حتى يصل الأمر إلى إقناعهم بالحكمة الربانية في بعض الأمور التي تكرهها النفوس (١) .

١٥- لاحظت كثرة أساليب التوكيد في آيات الجهاد ؛ فقد ألفيتها عصباً أساساً في نظمه ؛ ولعل من أسباب ذلك أن طبيعة الجهاد شاقة على النفوس ؛ فاحتاجت إلى حوافز تُنْهِضها إلى ساحات الجهاد ؛ والتوكيد مما يزيد في يقينها ، ويعلي همَّتها ؛ فتندفع إلى سبيل ربّها ؛ لتكون في عداد الشهداء السعداء (٢) بإذنه تعالى .

١٦- أن تعريف الخبر والإنشاء تعريف مضطرب ؛ ذو طبيعة فلسفية ، تتناقض مع الحقائق واليقينيات وتقود إلى الجدل والمماحكات ، وفي هذا التعريف شيء من سوء الأدب مع كلام الله تعالى ، وحديث رسوله صلى الله عليه وسلم ، وقد ارتضيت تعريفاً لهما أرى فيه السلامة من المنطق والفلسفة واللياقة بكلام الله وكلام رسوله ؛ فالخبر : هو ماتركب من جملة أو أكثر وأفاد فائدة مباشرة أو ضمنيّة ، والفائدة المباشرة هي مايسميه البلغاء : فائدة الخبر ، والضمنية هي مايسمونه : لازم الفائدة . وأما الإنشاء فهو ماسوى الخبر ؛ مما أفاد طلباً أو قسيمه ؛ كالقسم والتعجب ونحوهما (٣) .

١٧- لاحظت كثرة ظاهرة في أساليب النداء وصيغ الخطاب الموجَّه إلى المؤمنين المجاهدين ؛ أمراً لهم أو نَهْياً ، وتهديداً أو توجيها ، ولهذا دلالته البلاغية ؛ ففيه استحضار للمخاطبين ، وتهدئة من روعهم ، ومن ثَمَّ تقرير مايمكن تقريره في ألطف عبارة ، وأحسن بيان ؛ فيقع ذلك في نفوس المخاطبين موقعاً حسناً ، وهذا أسلوب دعوي ؛ عالٍ في الخلق ، قمّة في الأدب ، عظيم التأثير .

---

(١) انظر : ١٥٠ ومابعدها .
(٢) انظر : ١٧١ - ١٧٢ ، ١٨٢ ومابعدها .
(٣) انظر : ٢٥٣ .

١٨- قيل : إنّ منزلة الفاصلة من القرآن كمنزلة القافية من الشعر، ومع ذلك فلا يجوز تسمية الفواصل قوافي ؛ لأن الله عز وجل قد سلب اسم الشعر عن القرآن ؛ فوجب سلب اسم القوافي عنه ، وكما اختُصت الفاصلة بالقرآن ؛ فإنه يمتنع استعمالها في الشعر ، فهي صفة لكلام الله تعالى لاتتعدّاه إلى سواه ؛ قال تعالى : ﴿ الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[١].

١٩- أن سياق الآية الكريمة يُمّهد لفاصلتها ، بل يكاد المتدبّر ينتهي إلى فاصلتها من خلال معاني ألفاظها ، وليس عدم اهتدائنا إلى سرّ بيانها قَدْحاً في موقعها ، وإنما الأجمل بنا أن نقر بقصور أفهامنا ؛ فهو أدب وأتقى .

٢٠- لاحظت في أثناء هذا البحث أن التشبيهات الواردة في آيات الجهاد تتناسب مع مضمون الآية ونظمها ، وترتبط بمعاني الجهاد ، وبصفات المجاهدين ، فهي من قبيل وسائل النظم المنتهية إلى غايات الجهاد ومقاصده[٢].

٢١- لقد امتازت الاستعارة في آيات الجهاد باللفظ المعبر عن معاني الجهاد ، وبالتصوير المؤثر ، وبالإيجاز الذي بلغ الغاية في الإعجاز .

٢٢- وكان للتصوير الكنائي في الميدان الجهادي النصيب الأوفى في رسم مواقف الأعداء ، وتحديد معالم شخصياتهم ، وكشف بواطن خفاياهم ، والسخرية بهم.

٢٣- كان للتعريض في آيات الجهاد غرض تربوي ؛ يعالج النزوات ، ويقوّم الانحرافات ، ويبعث الهمم ، ويعلي الرايات ، ويحقّق كثيراً من الغايات ؛ لأن أسلوب التعريض قائم على اللمح والإشارة والإيماء .

٢٤- والبديع في القرآن عنصر مهم في نظمه ؛ ومن عدم الإنصاف التقليل من شأنه، أو التهوين من وظيفته ؛ فليس غرضه التحسين فقط ، وإنما هو متمكّن في النظم ملتحم به شكلاً ومعنى ، مرتبط بالإعجاز غير منفصل عنه .

---

(١) هود : ١ .
(٢) انظر : ٤٦٤ .

٢٥- أن من غايات القصص في القرآن أنها تساق للموعظة والاعتبار ، أو لحسن الاقتداء وتثبيت العزائم ، أو للتعليم ونشر الهدى ، وجماع أمرها إرشاد النفوس إلى سبل الحق والاستقامة ، وتصحيح العقيدة وتقريرها ، ومساندة أهل الحق والتقى ٠

٢٦- أن تقليب النظر في وجوه القراءات يكشف السّر عن غايات بلاغية كامنة فيها ، ولهذا لم أغفل جانبها ، بل وقفت على بعضها ، وأبنت وجوه بلاغتها ، مرجّحاً ما أراه منها قريباً إلى سياق الآية وروح نظمها ٠

٢٧- كان لي مع بعض عبارات المفسّرين وقفات ونظر ؛ فناقشت ورجّحت ماوفقني الله فيها ؛ مما أراه حقاً وصوابا ؛ في أدب جم هو المشروع في حق علمائنا ، وهو المظنون في أمثالنا ممن ينتسب إلى العلم ، وينشد وجه الصّواب فيه ٠

٢٨- كما كان لي وقفات للموازنة بين الآيات ذات التشابه في النظم ؛ فأعرضها في الموضع اللائق بها ، ثم أقلّب وجوه الفرق في تعبيراتها مع اتفاق موضوعاتها ؛ فأقع من خلال ذلك على كنوز بلاغية ودرر بيانية ؛ تبهج النفس ، وتبهر العقل ، وتقطع بأن هذا الكتاب العظيم من لدن حكيم خبير ٠

٢٩- ولقد لاحظت في آيات الجهاد من خلال نظمها أنها تلحّ على بناء العزّة والمهابة في جانب المؤمنين ، وتهوّن من شأن الكافرين ، وتدعو إلى نبذ ولايتهم ، وتخبر عن المؤمنين أنهم الأعلون ، وأن الكافرين هم الأدنون ، كل ذلك لتكون كلمة الله هي العليا ، ويكون الدين كلّه لله ، وإذا لم تكن هذه الصفات في المسلمين ؛ فإنهم على تفريط في جنب الله ، يجب عليهم تدارك أنفسهم ، والعودة إلى ربّهم، من قبل أن تمضي سنة الله في استبدال قوم آخرين بهم لايكونون أمثالهم ٠

٣٠- ومن خلال تعاملي مع آيات الجهاد وجدت أن المنهج الرباني المتّبع مع المقصّرين والعصاة هو أسلوب وصف الذنب وتشخيصه ، أو نعت القوم الذين وقعوا فيه ، ولم يكن منهجه التسمية أو التعيين ؛ وفي ذلك أبلغ الأثر في وقوع النصيحة في قلب المنصوح ، وتقويم المعوج من السلوك ، من غير جرح لمشاعر القوم الذين ورد بشأنهم التنزيل(١) ، سوى المنافقين الذين تفاقم شرّهم ، وتعاظم خطرهم ، فكان المنهج معهم لائقاً بهم ، فوصفوا بصفات تكاد تنطق بأسمائهم(٢) ٠

---

(١) انظر : ٤٠٩ - ٤٢٣ ٠

(٢) انظر : ٥٦١ - ٥٧٠ ٠

وفي هذا الهدي القرآني الرشيد منهج سديد ينبغي أن يُسلَك من قبل دعاة الخير وبناة المجتمع ؛ فهو أقوم منهجاً وأهدى سبيلا ٠

٣١- وتبين لي في شأن الحروب أن لله تعالى سُنَناً فيها ؛ فمن اهتدى إليها وأخذ بها ظفر وانتصر ؛ وإن كان من كفّار البشر ، ومن تنكّب عنها وترك العمل بها هُزم واندحر ؛ وإن كان منتسباً إلى الدين ومن جملة المسلمين ؛ ومن أمثال تلك السّنن النّفرة ، وأخذ العدّة ، وبذل الوسع والطاقة ، ولزوم الطاعة والجماعة ، ودوام الحذر والاستعداد ؛ فإذا عمل بها المؤمنون فإن الله تعالى قد وعدهم نصراً مؤزّرا على شياطين الجن والإنس ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ٠

٣٢- أن الصبر والتقوى من عُدَد الجهاد ولوازم المجاهدين ؛ وبدونهما أو بالاقتصار على أحدهما يتعذّر على المجاهد القرار في المعامع ، ولايثبت على مقاومة العدا؛ لأن صبراً بلا تقوى ومن غير احتساب مرّ علقم لايطاق ، وتقوى بلا صبر لاتدوم وقت الجلاد ؛ ولذلك وقع قَرْنُهما - غالباً - في آيات الجهاد ؛ قال تعالى : ﴿ ٠٠ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ٠٠ ﴾(١) ، وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(٢) ٠

٣٣- أن أمر الشهادة عظيم ؛ ولهذا لايجوز القول عن إنسان قتل ولو في ساحات الجهاد - إنّه شهيد ، لقوله عليه الصلاة والسلام : " والله أعلم بمن يُكْلم في سبيله " ؛ فردّ علم ذلك إلى الله ، وهذا خلاف ماعليه كثير من الناس اليوم من التساهل في ذلك ، ومن أبواب البخاري في صحيحه : " باب لايقال فلان شهيد "(٣) ٠

وفي خاتمة الخاتمة لا أُخْفي سرّاً على أحد في أن أقول : إن من أعظم نعم ربي عليّ في مراحل التعليم التي تدرجت فيها نعمةَ إرشادي إلى هذا البحث القرآني المبارك ؛ فلقد لمستُ بركته في قلمي ، وفي نفسي ، وفي وقتي ، وبه ومن خلاله طرقت البلاغة من بابها ؛ فأحببتها ، وعرفت منها ماكان خفيّاً، وألفيت النظم فيها بديعاً طريّاً

---

(١) آل عمران : ١٢٠ ٠ وانظر : ٧٠ - ٧٣ ٠

(٢) آل عمران : ٢٠٠ ٠ وانظر : ٢٧٥ - ٢٨١ ٠

(٣) انظر : ٢١٦ - ٢١٧ ٠

طراوة آيات ذلكم الكتاب الحكيم ؛ فلله الحمد على توفيقه ، وله الشكر على أفضاله ونعمائه التي لاأُحصي لها عددا .

وقبل أن أضع قلمي أوصي بأن يُفْتَح باب الدراسات البلاغية من خلال القرآن الكريم ؛ حتى يحظى القائمون على ذلك بشيء من بركة القرآن ، فضلاً على ثواب الله تعالى الذي رتَّبه على خدمة كتابه وحُفَّاظه ؛ الذين يحفظون آياته ، ويتدبّرون أسرار بلاغتها ، فإن هذا المنهج من العمل بقوله تعالى : ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ** ﴾[1].

وإن من طُرُق ذلك تسجيل الرسائل العلمية ، وإدارة الأبحاث البلاغية على كلام الله تعالى ؛ تدبُّراً له ، وتنقيباً عن أسرار نَظْمه ، ووقوفاً على لطائف التعبير فيه ، وتأصيلاً لأساليب البلاغة من خلال أساليبه ووجوه تعبيره .

كما أنّ من جملة الاقتراحات التي أوصي بها إجراء دراسات علمية في أعمال بعض المفسّرين ؛ الذين كانت لهم جولات بلاغية ، ورايات بيانية ، عمرت بها تفاسيرهم ، من أمثال - مع الفوارق بينهم - : ابن جرير الطبري ، والزمخشري ، وابن عطية الأندلسي ، والفخر الرازي ، والنيسابوري ، وابن الزبير ، وأبي حيّان الغرناطي ، وأبي الحسن البقاعي ، وأبي السعود العمادي ، والشّهاب الخفاجي ، والألوسي ، وابن عاشور التونسي ، وابن سعدي ، وسواهم ؛ ممن تركوا بصماتهم البيانية في تفاسيرهم المأثورة عنهم .

وإني لأحمد الله تعالى على ماوفّقني إليه من صواب إذا بدا شيء منه في تضاعيف هذه الرسالة ، واستغفره من كل زلل أو خَطَل خالف مراد الله عز وجل في آي الكتاب .

وأسأل الله العظيم أن يجعل هذا الجهد في ميزان حسناتي يوم ألقاه ، وأن يثيب من أشرف عليه ، ومن سدّد مافيه من نقص البشر .

﴿ **ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا** ﴾ .

ولله الحمد من قبل ومن بعد ، وصلى الله وسلم على أعظم المجاهدين ؛ نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن استنّ بهديه إلى يوم الدين .

---

(١) ص : ٢٩ .

(فهرس المصادر والمراجع)

- القرآن الكريم .
- الآفاق الفنية في القصة القرآنية لمحمد ناجي مشرح .
  دار المجتمع ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ /١٩٩٢م .
- الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين عبدالرحمن السيوطي .
  دار التراث ، القاهرة .
- أثر النحاة في البحث البلاغي للدكتور عبدالقادر حسين .
  دار نهضة مصر للطبع والنشر ، الفجالة ، القاهرة .
- أحكام القرآن لأبي بكر محمد بن عبدالله بن العربي .
  تحقيق محمد عبدالقادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .
- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري لأبي العباس أحمد القسطلاني المتوفى سنة ٩٢٣هـ .
  دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .
- أساس البلاغة للزمخشري .
  دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م .
- الأساس في السّنة وفقهها لسعيد حوى .
  ط ١ ، القاهرة ، دار السلام للطباعة والنشر ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م .
- أساليب التوكيد في القرآن الكريم لعبدالرحمن المطرودي .
  الدار الجماهيرية للنشر ، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٦م ، طرابلس ليبيا .
- أسباب النزول لجلال الدين السيوطي .
  دار قتيبة ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .
- أسباب النزول لأبي الحسن علي بن احمد الواحدي .
  تحقيق السيد أحمد صقر ، دار القبلة للثقافة الإسلامية ، جدة . ومؤسسة علوم القرآن ، دمشق ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

- **الاستعارة ٠ نشأتها ٠ تطورها ٠ أثرها في الأساليب العربية للدكتور محمود السيد شيخون ٠**

  دار الطباعة المحمدية ، الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ٠

- **أسرار البلاغة لعبدالقاهر الجرجاني ٠**

  قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر ، دار المدني بجدة ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٩١م ٠

- **الأسلوب الكنائي ٠ نشأته ٠ تطوره ٠ بلاغته لمحمود السيد شيخون ٠**

  ط ١ ، القاهرة ، مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ٠

- **الإشارات والتنبيهات في علوم البلاغة لمحمد بن علي الجرجاني المتوفى سنة ٧٢٩هـ ٠**

  تحقيق د ٠ عبدالقادر حسين ، دار نهضة مصر ، الفجالة ، القاهرة ٠

- **الإصابة في تمييز الصحابة لشهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ٠**

  مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ٠

- **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشيخ محمد الأمين الشنقيطي ٠**

  طبع على نفقة الأمير أحمد بن عبدالعزيز سنة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ٠

- **الإعجاز البياني للقرآن لعائشة بنت عبدالرحمن (بنت الشاطيء) ٠**

  دار المعارف ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ٠

- **إعجاز القرآن لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني ٠**

  تحقيق عماد الدين أحمد حيدر ، مكتبة العلوم والحكم ، المدنية المنورة ٠

- **الإعجاز الفني في القرآن لعمر السلامي ٠**

  نشر وتوزيع مؤسسات عبدالكريم بن عبدالله ، تونس ١٩٨٠م ٠

- **إعجاز القرآن لعبدالكريم الخطيب ٠**

  دار الفكر العربي ، الطبعة الأولى ١٩٧٤م ، القاهرة ٠

- **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعي ٠**

  مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ٠

- **الإعجاز اللغوي في القصّة القرآنية لمحمد السيد حسن ، وحسن عون ·**

مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ، ط ١ ، ١٩٨١م ·

- **إعراب القرآن وبيانه لمحي الدين الدرويش ·**

اليمامة ، دار ابن كثير ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ·

- **الأعلام لخير الدين الزركلي ·**

ط ٥ ، ١٩٨٠م ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ·

- **الإكسير في علم التفسير للفقيه الطوفي سليمان بن عبدالقوي بن عبدالكريم الصرصري ·**

حققه د · عبدالقادر حسين ، طبع ونشر مكتبة الآداب ، المطبعة النموذجية سنة ١٩٧٧م ·

- **الالتزام الإسلامي في الشعر لناصر بن عبدالرحمن الخنين ·**

دار الأصالة للثقافة والنشر ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م ·

- **الألوان البديعة د · حمزة زغلول ·**

الطبعة الثانية ، دار الطباعة المحمدية ·

- **الأمثال القرآنية لعبدالرحمن حسن الميداني ·**

دار القلم ، دمشق ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ·

- **أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية والرد على الطوائف الضالة فيه للدكتور علي بن نفيع العلياني ·**

دار طيبة ، الرياض ، ط ١ ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ·

- **الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني المتوفى سنة ٧٣٩هـ ·**

بشرح وتعليق محمد عبدالمنعم خفاجي ، الناشر / مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ·

- **الإيضاح في علوم البلاغة للإمام الخطيب القزويني ·**

شرح د· محمد عبدالمنعم خفاجي ، منشورات : دار الكتاب اللبناني ·

- **البحر المحيط لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي ·**

دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ·

- **بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع لعلاء الدين أبي بكر الكاساني الحنفي المتوفى ٥٨٧ هـ .**

دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

- **البديع في البديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ .**

حققه / عبد آ . علي مهنا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

- **بديع القرآن لابن أبي الإصبع المصري .**

تحقيق / حفني شرف ، الطبعة الأولى ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة ، القاهرة .

- **البرهان في علوم القرآن لبدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي .**

تحقيق / د.يوسف المرعشلي ، والشيخ جمال حمدي الذهبي ، والشيخ عبدالله الكردي ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .

- **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي المتوفى سنة ٨١٧هـ .**

تحقيق / عبدالعليم الطحاوي ، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع ، مكة المكرمة .

- **بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة لعبدالمتعال الصعيدي .**

مكتبة الآداب ، المطبعة النموذجية .

- **البلاغة لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد .**

تحقيق / د. رمضان عبدالتواب ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

- **البلاغة الاصطلاحية للدكتور عبده عبدالعزيز قلقيلة .**

دار الفكر العربي ، القاهرة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

- **البلاغة . فنونها وأفنانها للدكتور فضل حسن عباس .**

دار الفرقان ، ط ١ ، سنة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

- **بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ للدكتور فتحي أحمد عامر .**
منشأة المعارف بالاسكندرية .
- **البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية .**
د . محمد حسين أبو موسى ، دار الفكر العربي .
- **بلاغة الكلمة والجملة والجمل للدكتور منير سلطان .**
منشأة المعارف بالاسكندرية سنة ١٩٨٨م .
- **بناء الجملة بين منطق اللغة والنحو د . نجاة الكوفي .**
ط النهضة العربية .
- **بناء الصورة الفنية في البيان العربي موازنة وتطبيق للدكتور كامل حسن البصير .**
مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .
- **البيان في إعجاز القرآن للدكتور صلاح عبدالفتاح الخالدي .**
دار عمار ، عمان ، الأردن ١٤٠٩هـ .
- **البيان في ضوء أساليب القرآن للدكتور عبدالفتاح لاشين .**
دار المعارف ، الطبعة الأولى ١٩٨٤م .
- **البيان في غريب إعراب القرآن لأبي البركات الأنباري .**
تحقيق / الدكتور طه عبدالحميد طه ، ومراجعة / مصطفى السقا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .
- **البيان القصصي في القرآن للدكتور إبراهيم عوضين .**
دار الأصالة للثقافة والنشر ، الطبعة الثانية ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .
- **البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ .**
بتحقيق /عبدالسلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي بمصر ، الطبعة الرابعة ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م .
- **تأويل مشكل القرآن لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة .**
المكتبة العلمية ، الطبعة الثالثة ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

- **تاج العروس من جواهر القاموس لمحمد مرتضى الزبيدي .**

منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان .

- **تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي .**

دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م .

- **التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء عبدالله بن الحسين العُكبري .**

تحقيق / علي محمد البجاوي ، عيسى البابي الحلي وشركاه .

- **التبيان في البيان لشرف الدين الطِّيبي .**

تحقيق / توفيق الفيل وزميله ، ط ١ ، الكويت ، ذات السلاسل ١٩٨٦م .

- **التّبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن لابن الزَّملكان المتوفى ٦٥١هـ .**

تحقيق/ أحمد مطلوب ، ود. خديجة الحديثي ، مطبعة العاني ، بغداد ، ط ١ ، ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م .

- **تجديد النحو للدكتور شوقي ضيف .**

دار المعارف ١٩٨٢م .

- **تجريد البيان من صفوة التفاسير .**

جرّده : عبدالله بن إبراهيم الأنصاري ، مطابع الدوحة الحديثة .

- **التحرير والتنوير للعلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور .**

الدار التونسية للنشر ١٩٨٤م .

- **التسهيل لعلوم التنزيل لمحمد بن أحمد بن جُزِي الكِلبي .**

دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م .

- **التصوير البياني للدكتور محمد أبو موسى .**

مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

- **التصوير الفني في القرآن لسيد قطب .**

دار الشروق ، الطبعة الثامنة ١٤٠٣هـ /١٩٨٣م .

- **التعبير الفني في القرآن للدكتور بكري شيخ أمين .**

دار الشروق ، الطبعة الرابعة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

- **التعريفات للشريف علي الجرجاني .**
دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .
- **تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزيا القرآن الكريم لأبي السعود محمد بن محمد العَمادي المتوفى سنة ٩٥١هـ .**
دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .
- **تفسير أبي السعود .**
تحقيق عبدالقادر أحمد عطا . مطبعة السعادة ، الناشر : مكتبة الرياض الحديثة بالرياض .
- **تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي المتوفي سنة ٥١٦هـ .**
إعداد وتحقيق / خالد عبدالرحمن العك ، ومروان سوار ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .
- **تفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل للقاضي ناصر الدين أبي سعيد عبدالله البيضاوي .**
دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .
- **تفسير الثعالبي الموسوم " بجواهر الحسان في تفسير القرآن " .،**
منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، لبنان .
- **تفسير الجلالين لجلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي .**
دار الدعوة .
- **تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل لعلاء الدين علي البغدادي المعروف بالخازن .**
دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان .
- **تفسير سورة البقرة للدكتور أمير عبدالعزيز .**
مؤسسة الرسالة ، دارالفرقان ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .
- **تفسير غريب القرآن لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة .**
بتحقيق السيد أحمد صقر ، دار الكتب العلمية ، بيرتت ، لبنان ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .
- **التفسير القرآني للقرآن لعبدالكريم الخطيب .**
دار الفكر العربي .

- **تفسير القرآن العظيم للإمام الجليل أبي الفداء إسماعيل بن كثير المتوفى ٧٧٤هـ .**

دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

- **تفسير القرآن وإعرابه وبيانه لمحمد علي طه الدرّة .**

دار الحكمة ، دمشق ، بيروت ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

- **التفسير القيم للإمام ابن القيم .**

جمعه محمد إدريس الندوي ، وحققه محمد حامدالفقي ، دار العلوم الحديثة ، بيروت ، لبنان .

- **التفسير الكبير للفخر الرازي .**

دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثالثة .

تفسير كلام المنّان للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي .

حققه / محمد زهري النجار ، المؤسسة السعيدية بالرياض .

- **تفسير المراغي لأحمد مصطفى المراغي .**

دار إحياء التراث ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ١٩٨٥م .

- **تفسير المنار للإمام محمد رشيد رضا .**

دار الفكر ، الطبعة الثانية .

- **تفسير النسفي لأبي البركات عبدالله بن أحمد النسفي .**

دار الفكر ، عيسى البابي الحلبي وشركاه .

- **التفسير الوسيط للقرآن الكريم للدكتور محمد سيد طنطاوي .**

سنة ١٤٠٦ه/١٩٨٦م .

- **التلخيص في علوم البلاغة للإمام جلال الدين محمد بن عبدالرحمن القزويني الخطيب .**

ضبطه وشرحه الأستاذ / عبدالرحمن البرقوقي ، الناشر : دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .

- **تلخيص المفتاح وشرحه مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني .**

الطبعة الأخيرة ، مطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر .

- **التمهيد في علم التجويد لشمس الدين محمد بن الجزري .**
مؤسسة الرسالة ، تحقيق / غانم قدّوري حمد ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م .
- **تنوير الأذهان من تفسير روح البيان للشيخ إسماعيل حقي البروسوي .**
اختصار وتحقيق الشيخ محمد علي الصابوني ، در القلم ، دمشق ، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م .
- **تنوير المقباس من تفسير ابن عباس لأبي طاهر بن يعقوب الفيروزآبادي .**
دار الفكر .
- **تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير لمحمد نسيب الرفاعي .**
- **ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرّماني والخطابي وعبدالقاهر الجرجاني .**
حققها : محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ، دار المعارف .
- **جامع الأصول في أحاديث الرسول لمجد الدين أبي السعادات المبارك محمد ابن الأثير .**
حقق نصوصه وخرج أحاديثه : عبدالقادر الأرناؤوط ، نشر مكتبة الحلواني ، ومطبعة الملاح ، ومكتبة دارالبيان ١٣٩١هـ/١٩٧١م .
- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري .**
دار الفكر ١٤٠٨هـ /١٩٨٨م .
- **جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم لأبي الفرج عبدالرحمن بن رجب الحنبلي .**
من توزيع رئاسة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، الرياض .
- **الجامع لأحكام القرآن لأبي عبدالله القرطبي .**
الجمهورية العربية المتحدة ، وزارة الثقافة ، دار الكاتب العربي للطباعة ، القاهرة ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .
- **الجامع لمواضيع آيات القرآن الكريم .**
جمعه / محمد فارس بركات ، دار قتيبة ، بيروت ، ط ٤ ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

- **جامع النقول في أسباب النزول وشرح آياتها لابن خليفة علوي .**

الطبعة الأولى سنة ١٤٠٤هـ .

- **جنى الجناس للسيوطي .**

تحقيق د. محمد علي رزق الخفاجي ، الدار الفنية للطباعة والنشر .

- **جنان الجناس لصلاح الدين الصفدي .**

ط ١ ، مطبعة الجوائب ١٢٩٩هـ .

- **حاشية السيد الشريف على المطول للسيد الشريف الجرجاني .**

القاهرة ، دار سعادات [المطبعة العثمانية] ١٣١٠هـ .

- **حاشية الشهاب المسمّاة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي.**

دار صادر ، بيروت ، لبنان .

- **حاشية العلامة الصاوي على تفسير الجلالين .**

دار الجيل ، بيروت .

- **حاشية محي الدين شيخ زادة على تفسير القاضي البيضاوي .**

المكتبة الإسلامية ، تركيا .

- **حدائق الأنوار ومطالع الأسرار لابن الربيع الشيباني.**

حققه : عبدالله بن إبراهيم الأنصاري ، مطابع قطر الوطنية ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

- **حروف المعاني لأبي القاسم عبدالرحمن بن إسحاق الزجاجي .**

تحقيق د . علي توفيق الحمد ، مؤسسة الرسالة ، دار الأمل ، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

- **خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجّة الحموي .**

شرح عصام شعيتو ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ، الطبعة الأولى١٩٨٧م .

- **الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني .**

تحقيق : محمد علي النجار ، الطبعة الثالثة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

- **خصائص التراكيب للدكتور محمد أبو موسى ·**

مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٤٠٠هـ ٠

- **خصائص القرآن الكريم للدكتور فهد بن عبدالرحمن الرومي ·**

الطبعة الرابعة ١٤٠٩هـ ٠

- **خصائص القصة الإسلامية للدكتور مأمون جرار ·**

دار المنارة ، جدة ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ٠

- **خواطر في الفن والقصة لعباس محمود العقاد ·**

دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م ٠

- **دراسات في المعاني والبديع لعبدالفتاح عثمان ·**

القاهرة ، مكتبة الشباب ١٩٨٣م ٠

- **الدرّ المصون في علوم الكتاب المكنون لأحمد بن يوسف المعروف بالسّمين الحلبي المتوفى سنة ٧٥٦هـ ·**

دار القلم ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ٠

- **الدر المنثور في التفسير بالمأثور للإمام جلال الدين السيوطي ·**

دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ٠

- **دلائل الإعجاز للإمام عبدالقاهر الجرجاني ·**

طبعه وعلّق حواشيه السيد محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ٠

- **دلائل الإعجاز لعبدالقاهر الجرجاني ·**

قرأه وعلق عليه : أبو فهر محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الثانية ١٤١٠هـ ٠

- **دلالات التراكيب : دراسة بلاغية للدكتور محمد أبو موسى ·**

ط ٢ ، القاهرة ، مكتبة وهبة ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م ٠

- **الرحيق المختوم للشيخ صفي الرحمن المباركفوري ·**

مكتبة ابن تيمية ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م ٠

- **الرسالة لمحمد بن إدريس الشافعي ·**

بتحقيق أحمد محمد شاكر ، المكتبة العلمية ، بيروت ، لبنان ·

- **رصف المباني في شرح حروف المعاني لأحمد بن عبدالنور المالقي ·**

تحقيق د · أحمد محمد الخرّاط ، دار القلم ، دمشق ·

- **روائع الإعجاز في القصص القرآني لمحمد السيد حسن ·**

المكتب الجامعي الحديث ، الاسكندرية ·

- **روح البلاغة البديع للدكتور فتحي فريد ·**

الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ·

- **روح البيان للشيخ إسماعيل حقي البروسي ·**

دار الفكر ·

- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة الآلوسي البغدادي ·**

دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ·

- **رياض الصالحين للإمام أبي زكريا النووي ·**

تحقيق محي الدين الجراح ، مؤسسة مناهل العرفان ، بيروت ·

- **زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ·**

المكتب الإسلامي ، الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ·

- **زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية ·**

تحقيق : شعيب الأرنؤوط وعبدالقادر الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، مكتبة المنار الإسلامية ، الطبعة الخامسة والعشرون ١٤١٢هـ/١٩٩١م ·

- **زبدة التفسير من فتح القدير لمحمد سليمان الأشقر ·**

الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ·

- **سر الفصاحة لأبي محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي ·**

دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ·

- **سنن أبي داود ٠**

تخريج وترقيم : عزت عبيد الدعاس وزميله ، دار الحديث ، حمص ، سوريا، الطبعة الأولى ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م ٠

- **السيرة النبوية لابن كثير ٠**

تحقيق مصطفى عبدالواحد ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م ٠

- **السيرة النبوية لابن هشام ٠**

مؤسسة علوم القرآن ، تحقيق : مصطفى السقا وزميليه ٠

- **شرح ألفية ابن معطي ٠**

تحقيق د٠ علي موسى الشوملي ، مكتبة الخريجي ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ٠

- **شرح ابن عقيل لبهاء الدين عبدالله بن عقيل ٠**

المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م ٠

- **شرح التصريح على التوضيح ٠**

تأليف خالد الأزهري ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ٠

- **شرح التلخيص في علوم البلاغة للإمام جلال الدين محمد بن عبدالرحمن القزويني ٠**

شرحه وخرّج شواهده : محمد هاشم دويدري ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ٠

- **شرح العقيدة الطحاوية ٠**

تعليق وتحقيق : الشيخ عبدالعزيز بن باز ، الناشر : مؤسسة قرطبة ، مصر ٠

- **شرح الكافية البديعية لصفي الدين الحلبي ٠**

تحقيق نسيب نشاوي ، دمشق ، مجمع اللغة العربية بدمشق ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ٠

- **شرح المفصل لموفق الدين يعيش بن علي بن يعيش .**

عالم الكتب ، بيروت ، مكتبة المتنبي ، القاهرة .

- **الشرط في القرآن على نهج اللسانيات الوظيفية لمحمد الهادي الطرابلسي .**

ليبيا ، تونس ، الدار العربية للكتاب ١٩٨٥م .

- **شروح التلخيص وهي مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح للقزويني ومواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي وعروس الأفراح للسبكي .**

دار الهادي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الرابعة ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .

- **الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض الأندلسي .**

تحقيق محمد أمير قره وزميلة ، دار الوفاء ، دمشق .

- **الصاحبي لأبي الحسين أحمد بن فارس .**

تحقيق السيد صقر ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة .

- **صحيح البخاري .**

المكتب الإسلامي ، استانبول ، تركيا ١٩٧٩م .

- **صحيح الترمذي بشرح الإمام ابن العربي المالكي .**

دار الكتاب العربي ، بيروت .

- **صحيح مسلم بشرح النووي .**

دار إحياء التراث العربي لعلي لغماري ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م .

- **صفاء الكلمة للدكتور عبدالفتاح لاشين .**

دار المريخ ، الرياض ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

- **صفوة التفاسير لمحمد علي الصابوني .**

دار القرآن الكريم ، بيروت ، الطبعة الرابعة ١٤٠٢هـ/١٩٨١م .

- **الصناعتين الكتابة والشعر لأبي هلال العسكري .**

تحقيق د . مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية .

- **الصّبغ البديعي في اللغة العربية للدكتور أحمد إبراهيم موسى ·**

دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م ·

- **الطّراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيى بن حمزة العلوي·**

دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ·

- **علل القراءات لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري ·**

تحقيق : نوال بنت إبراهيم الحلوة ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/١٩٩١م ·

- **علم المعاني للدكتور درويش الجندي ·**

دار نهضة مصر ، الفجالة ، القاهرة ·

- **علم المعاني للدكتور عبدالعزيز عتيق ·**

دار النهضة العربية ، بيروت ١٤٠٤هـ ·

- **علم المعاني و مقتضى الحال للدكتور أسعد أحمد علي ·**

ط ١ ، مطبعة الاتحاد ١٤٠٨/١٤٠٩هـ/١٩٨٧/١٩٨٨م ·

- **علوم البلاغة لأحمد مصطفى المراغي ·**

دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ·

- **علوم القرآن لعدنان زرزور ·**

المكتب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ ·

- **عمدة التفاسير عن الحافظ ابن كثير ·**

اختصار وتحقيق : أحمد محمد شاكر ·

- **العمدة في محاسن الشعر و آدابه ونقده لابن رشيق القيرواني ·**

تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الخامسة ١٤٠١هـ/١٩٨١م·

- **عون المعبود شرح سنن أبي داود لشمس الحق آبادي ·**

تحقيق عبدالرحمن محمد عثمان ، الناشر محمد عبد المحسن الكتبي ، صاحب المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ، الطبعة الثانية ١٣٨٩هـ ·

- **غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري .**

تحقيق إبراهيم عطوة عوض ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، الطبعة الأولى ١٣٨١هـ/١٩٦٢م .

- **غرر التبيان في مَنْ لم يُسَمَّ في القرآن لبدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الحموي المتوفى ٧٣٣هـ .**

دراسة وتحقيق الدكتور عبدالجواد خلف ، دار قتيبة ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .

- **غزوة الأحزاب لمحمد احمد باشميل .**

بيروت ، دار الفكر ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .

- **غزوة حنين لمحمد أحمد باشميل .**

دار الفكر ، الطبعة الثانية ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .

- **الفاصلة في القرآن لمحمد الحسناوي .**

المكتب الإسلامي ، دار عمّار ، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

- **فتاوى الحافظ ابن حجر العسقلاني .**

تحقيق ودراسة محمد تامر ، دار الصحابة ، طنطا ، ط١ ، ١٤١٠هـ .

- **فتاوى الشيخ محمد الصالح العثيمين .**

إعداد وترتيب : أشرف بن عبدالمقصود بن عبدالرحيم ، دار علم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع ، ط٢ ، ١٤١٢هـ/١٩٩١م .

- **فتح الباري بشرح صحيح البخاري .**

رقمه محمد فؤاد عبدالباقي ، وقرأ أصله الشيخ عبدالعزيز بن باز ، مكتبة الرياض الحديثة بالرياض .

- **فتح البيان في مقاصد القرآن لصديق حسن خان .**

دار الفكر العربي .

- **فتح الرحمن بكشف مايلتبس في القرآن لأبي يحى زكريا الأنصاري .**

حققه الشيخ محمد علي الصابوني ، دار القرآن الكريم ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

- **فتح القدير الجامع بين فنّي الرواية والدراية من علم التفسير لمحمد بن علي الشوكاني ·**

دار الفكر ، بيروت ، لبنان ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ·

- **الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية لسليمان بن عمر الشهير بالجمل ·**

دار إحياء التراث العربي ، بيروت ·

- **الفروق في اللغة لأبي هلال العسكري ·**

منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٧٩م ·

- **الفصل والوصل في القرآن للدكتور منير سلطان ·**

دار المعارف ·

- **فقه السيرة لمحمد الغزالي ·**

خرج أحاديثه محمد ناصر الدين الألباني ، بيروت ، دار القلم ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ·

- **فقه السيرة النبوية للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ·**

دار الفكر المعاصر ، بيروت ، لبنان ، ط ١٠ ، ١٤١١هـ/١٩٩١م ·

- **فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر مع نقد وتعليق لنعيم الحمصي ·**

مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ·

- **فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم للدكتور فتحي أحمد عامر ·**

منشأة المعارف بالأسكندرية ١٩٨٨م ·

- **فن الاستعارة للدكتور أحمد الصاوي ·**

الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩م ·

- **فنّ التشبيه لعلي الجندي ·**

مكتبة الأنجلو المصرية ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م ·

- **فن الجناس لعلي الجندي .**

دار الفكر العربي ١٩٥٤م ، القاهرة .

- **فن البنية والدلالة للدكتور سعد أبو الرضا .**

منشأة المعارف بالأسكندرية ، مصر .

- **في ظلال القرآن لسيد قطب .**

دار الشروق ، الطبعة الخامسة ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .

- **القاموس المحيط للفيروزآبادي .**

تحقيق مكتب التراث في مؤسسة الرسالة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

- **قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية والمسرح لأحمد موسى .**

دار الجيل ، بيروت ١٩٧٨م .

- **قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية للدكتور عبدالعزيز عبدالمعطي عرفة .**

عالم الكتب ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

- **كتاب سيبويه لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر .**

تحقيق : عبدالسلام هارون ، عالم الكتب . ط ٣ ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

- **الكشاف للزمخشري .**

الناشر : دار المصحف ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .

- **الكشكول ليوسف البحراني .**

مكتبة الهلال ، جدة ١٩٨٦م .

- **الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني .**

قابله على نسخه د . عدنان درويش ومحمد المصري ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .

- **لسان العرب للعلامة جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور .**

دار صادر ، بيروت ، لبنان .

- **لغة القرآن الكريم للدكتور عبدالجليل عبدالرحيم ·**
الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، مكتبة الرسالة الحديثة ، الأردن ، عمان·
- **مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح ·**
دار العلم للملايين ، الطبعة الثامنة ١٩٧٤م ·
- **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الأثير ·**
قدم له وحققه وشرحه وعلق عليه الدكتور أحمد الحوفي ، والدكتور بدوي طبانة ، منشورات دار الرفاعي بالرياض ، ط ٣ ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ·
- **مجمع البيان في تفسير القرآن لأبي الفضل بن الحسن الطّبرسي ·**
تصحيح وتحقيق : السيد هاشم الرسولي المحلاّتي والسيد فضل الله اليزدي الطبطبائي ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ·
- **مجمل اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس ·**
الكويت ، معهد المخطوطات العربية ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ·
- **مجموع فتاوى شيخ الإسلام لأحمد بن تيمية ·**
جمع وترتيب عبدالرحمن بن قاسم وابنه محمد ، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ ·
- **محاسن التأويل للعلامة محمد جمال الدين القاسمي ·**
دار إحياء الكتب العربية ، فيصل عيسى البابي الحلبي ·
- **محاولة لفهم عصري لمصطفى محمود ·**
بيروت ، دار العودة ، ١٩٨٩م ·
- **المحتسب لابن جني ·**
المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، مصطفى الحلبي ١٩٥٤م ·
- **المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للقاضي أبي محمد عبدالحق بن غالب ابن عطية الأندلسي المتوفى سنة ٥٤٦هـ ·**
تحقيق المجلس العلمي بفاس ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ·

- **المحكم والمحيط الأعظم في اللغة لعلي بن إسماعيل بن سيده .**
تحقيق د. عائشة عبدالرحمن ، ط ١ ، ١٣٧٧هـ/١٩٥٨م ، مطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر .
- **محمد رسول الله لمحمد الصادق إبراهيم عرجون .**
دار القلم ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .
- **مختار الصحاح للشيخ الإمام محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي .**
عني بترتيبه محمود خاطر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- **مختصر سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني .**
ط ١ ، ١٣٤٧هـ ، مطبعة علي صبيح بمصر .
- **مختصر صحيح الإمام البخاري لمحمد ناصر الدين الألباني .**
المكتب الإسلامي ، الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .
- **مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري تحقيق محمد ناصر الدين الألباني .**
المكتب الإسلامي ، الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ .
- **المرشد إلى آيات القرآن الكريم وكلماته .**
جمعه ونسّقه محمد فارس بركات ، دار قتيبة ، لبنان ، بيروت .
- **مروج الذهب ومعادن الجوهر لأبي الحسين علي بن الحسين المسعودي .**
بتحقيق : محمد محي الدين عبدالحميد ، دار الفكر ، الطبعة الخامسة ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م .
- **المستدرك على الصحيحين للإمام الحافظ أبي عبدالله الحاكم النيسابوري .**
دار الكتاب العربي ، بيروت .
- **مسند الإمام أحمد بن حنبل .**
دار الفكر ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط ٢ ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .
- **مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق ومثير الغرام إلى دار السلام في فضائل الجهاد . تأليف أبي زكريا أحمد بن إبراهيم الدمشقي المشهور بابن النحاس .**
تحقيق : إدريس محمد علي ومحمد خالد إسطنبولي ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، لبنان الطبعة الأولى ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .

- **المشاهد في القرآن الكريم للدكتور حامد صادق قنيبي ٠**
مكتبة المنار ، الزرقاء ، الأردن ، الطبعة الأولى ١٩٨٤م ٠
- **مشاهد القيامة في القرآن لسيد قطب ٠**
طبعة دار الشروق ٠
- **المصباح المنير ٠ تأليف : أحمد محمد الفيومي ٠**
مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ٠
- **المعاني البلاغية في الأساليب العربية للدكتور محمد عبدالرحمن شعبان عبدربه ٠**
الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م ٠
- **معاني الحروف لعلي بن عيسى الرماني ٠**
تحقيق د ٠ عبدالفتاح إسماعيل شلبي ، دار الشروق ، الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ٠
- **المعاني في ضوء أساليب القرآن للدكتور عبدالفتاح لاشين ٠**
الطبعة الأولى ١٩٧٦م ، دار المعارف بمصر ٠
- **معاني القرآن الكريم للإمام أبي جعفر النّحاس المتوفى سنة ٣٣٨هـ ٠**
تحقيق الشيخ محمد علي الصابوني ، مركز إحياء التراث الإسلامي ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ/١٩٨٩م ٠
- **معاني القرآن وإعرابه لأبي إسحاق إبراهيم الزجاج ٠**
شرح وتحقيق د ٠ عبدالجليل شلبي ، عالم الكتب ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ٠
- **معترك الأقران في إعجاز القرآن لجلال الدين السيوطي ٠**
صححه : أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ٠
- **معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم ٠**
صنعه الدكتور إسماعيل أحمد عمايره ، مؤسسة الرسالة ٠
- **معجم البلدان لياقوت الحموي ٠**
دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ٠

- **معجم البلاغة العربية للدكتور بدوي طبانة .**

دار المنارة ، جدة ودار الرفاعي الرياض ، الطبعة الثالثة .

- **معجم المصطلحات البلاغية وتطورها تأليف د . أحمد مطلوب .**

مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

- **المعجم المفصل في اللغة والأدب تأليف : الدكتور إميل بديع يعقوب والدكتور ميشال عاصي .**

الطبعة الأولى ١٩٨٧م ، دار العلم للملايين ، بيروت .

- **المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي .**

مطبعة بريل في مدينة ليدن ١٩٦٧م .

- **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .**

وضعه : محمد فؤاد عبدالباقي ، دار ومطابع مصر .

- **معجم مقاييس اللغة لأبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا .**

تحقيق عبدالسلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١١هـ/١٩٩١م .

- **المعجم الموضوعي لآيات القرآن الكريم لصبحي عبدالرؤوف عصر .**

دار الفضيلة .

- **المعجم الوسيط .**

إخراج نخبة من الأساتذة ، مطبعة مصر ١٣٨٠هـ /١٩٦٠م .

- **المغني لموفق الدين ابن قدامة المتوفى سنة ٦٣٠هـ ويليه الشرح الكبير لشمس الدين ابن قدامة المقدسي .**

دار الكتاب العربي ، بيروت .

- **مفتاح العلوم لأبي يعقوب يوسف السكاكي .**

ضبطه وشرحه الأستاذ نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

- **المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين بن محمد الأصفهاني .**

دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل لأحمد بن الزبير الغرناطي ·
تحقيق د · محمود كامل أحمد ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ·
- من أسرار التعبير في القرآن للدكتور عبدالفتاح لاشين ·
شركة مكتبات عكاظ للنشر ، ط ١ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ·
- من أسرار التعبير القرآني دراسة تحليلية لسورة الأحزاب للدكتور محمد أبو موسى ·
دار الفكر العربي ·
- من أسرار اللغة للدكتور إبراهيم أنيس ·
الطبعة السابعة ١٩٨٥م ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ·
- مناهج بلاغية لأحمد مطلوب ·
ط ١ ، الكويت ، وكالة المطبوعات ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م ·
- من بدائع النظم القرآني للدكتور السيد عبدالفتاح حجاب ·
مطبعة الجندي ، بنها الجديدة ·
- من بلاغة القرآن لأحمد بدوي ·
دار نهضة مصر للطبع والنشر ، الفجّالة ، القاهرة ١٣٧٠هـ/١٩٥٠م ·
- منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب ·
الطبعة الثانية ، دار دمشق ·
- منهج الفن الإسلامي لمحمد قطب ·
دار القلم ·
- النبأ علظيم للدكتور محمد عبدالله دراز ·
دار القلم ، الطبعة الثالثة ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م ·
- نتائج الفِكْر في النحو لأبي القاسم عبدالرحمن بن عبدالله السهيلي ·
حققه : د · محمد إبراهيم البنا ، دار الرياض للنشر والتوزيع ·

- **نظرية التصوير الفني عند سيد قطب للدكتور صلاح عبدالفتاح الخالدي .**

دار المنارة ، جدة ، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ .

- **نظرية عبدالقاهر في النظم للدكتور درويش الجندي .**

مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ١٩٦٠م .

- **نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبدالقاهر الجرجاني لوليد مراد .**

دار الفكر ، ط ١ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

- **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام المفسّر أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي المتوفى سنة ٨٨٥هـ .**

دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة ، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م .

- **النظم القرآني وأثره في الأحكام للصادق سالم أحمد الخازمي .**

المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ، الطبعة الأولى ١٩٨٥م ، طرابلس ، ليبيا .

- **النكت والعيون تفسير الماوردي لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي المتوفى سنة ٤٥٠هـ.**

راجعه : السيد بن عبدالمقصود بن عبدالرحيم ، مكتبة المؤيد ، الرياض ، ملتزم الطبع دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .

- **نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز لفخر الدين الرازي .**

تحقيق د . بكري شيخ أمين ، دار العلم للملايين ، الطبعة الأولى ١٩٨٥م.

- **النهاية في غريب الحديث والأثر للإمام مجدالدين أبي السعادات المبارك بن محمد بن الأثير .**

تحقيق : طاهر أحمد الزاوي وزميله ، دار إحياء الكتب العربية ، فيصل عيسى البابي الحلبي .

ومن الدوريات والصحف :

- **البعث الإسلامي .**

جـ ١ ، ط ٤ ، عام ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

- **جريدة الشرق الأوسط .**

الصادرة يوم الأحد : ٢٤/١٠/١٤١٢هـ .

« الفهرس التحليلي لمحتويات الرسالة »

« تابع الفهرس التحليلي لمحتويات الرسالة »

« تابع الفهرس التحليلي لمحتويات الرسالة »

« تابع الفهرس التحليلي لمحتويات الرسالة »

« تابع الفهرس التحليلي لمحتويات الرسالة »

« تابع الفهرس التحليلي لمحتويات الرسالة »

« تابع الفهرس التحليلي لمحتويات الرسالة »

« تابع الفهرس التحليلي لمحتويات الرسالة »

« تابع الفهرس التحليلي لمحتويات الرسالة »

« تابع الفهرس التحليلي لمحتويات الرسالة »

« تابع الفهرس التحليلي لمحتويات الرسالة »

« تابع الفهرس التحليلي لمحتويات الرسالة »

« تابع الفهرس التحليلي لمحتويات الرسالة »

« تابع الفهرس التحليلي لمحتويات الرسالة »

« تابع الفهرس التحليلي لمحتويات الرسالة »

« تابع الفهرس التحليلي لمحتويات الرسالة »

« تابع الفهرس التحليلي لمحتويات الرسالة »

« تابع الفهرس التحليلي لمحتويات الرسالة »

« تابع الفهرس التحليلي لمحتويات الرسالة »

« تابع الفهرس التحليلي لمحتويات الرسالة »

« تابع الفهرس التحليلي لمحتويات الرسالة »

« تابع الفهرس التحليلي لمحتويات الرسالة »

« تابع الفهرس التحليلي لمحتويات الرسالة »

« تابع الفهرس التحليلي لمحتويات الرسالة »

« تابع الفهرس التحليلي لمحتويات الرسالة »

« تابع الفهرس التحليلي لمحتويات الرسالة »

« تابع الفهرس التحليلي لمحتويات الرسالة »

« تابع الفهرس التحليلي لمحتويات الرسالة »

« تابع الفهرس التحليلي لمحتويات الرسالة »

« تابع الفهرس التحليلي لمحتويات الرسالة »

« تابع الفهرس التحليلي لمحتويات الرسالة »